عهود النبي محمد صلى الله عليه وسلم لمسيحيي العالم

تأليف

الدكتور جان أندرو مورو

(إلياس إسلام)

ترجمة

د. عمرو سلام د. محمد الكوش



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



عهود النبي محمد صلى الله عليه وسلم
لمسيحيي العالم

الكتاب : عهود النّبيّ مُحمّدﷺ لمسيحيّي العالم

Title : 'UHŪD AN-NABĪ MUḤAMMED ﷺ
LIMASĪḤĪYĪ AL-'ĀLAM

التصنيف : سيرة نبويّة

Classification: Prophetic Bioghraphy

المؤلف : الدكتور جان أندرو مورو (إلياس إسلام)

Author: Dr. Jean Andro Morro (Elias Islam)

المترجم : د. عمرو سلام
ود. محمد الكوش

Translator: Dr. Amro Salam
and: Dr. Mohammed Al-Koush

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	664	عدد الصفحات
Size	17 x 24 cm	قياس الصفحات
Year	2018 A.D. - 1439 H.	سنة الطباعة
Printed in	Lebanon	بلد الطباعة لبنـــان
Edition	1st	الطبعة الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

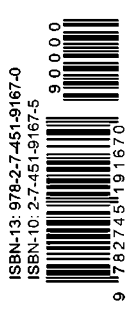
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

www.covenantsoftheprophet.com
www.johnandrewmorrow.com
Twitter: @drjamorrow

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠


ISBN-13: 978-2-7451-9167-0
ISBN-10: 2-7451-9167-5

عهود النبي محمد ﷺ لمسيحيي العالم

تأليف

الدكتور جان أندرو مورو

(إلياس إسلام)

ترجمة

د. عمرو سلام د. محمد الكوش



المُحتَوَيَات

مقدمة.. ٧
مقدمة المُتَرْجِمَيْن.. ٩
الجزء الأول: السياق العام ١٥
الفصل الأول: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وأهل الكتاب ١٧
الفصل الثاني: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ورهبان جبل سيناء ١٤٣
الفصل الثالث: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ونصارىٰ فارس ٢١٩
الفصل الرابع: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ونصارىٰ نجران ٢٤١
الفصل الخامس: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ومسيحيو العالم ٣٠٥
الفصل السادس: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ والنصارىٰ الآشوريون ٣٨٣
الفصل السابع: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ والنصارىٰ الأرمن المقدسيون ٤١٥
الجزء الثاني: التحديات ٤٣٧
الفصل الثامن: فحص المراجع ٤٣٩
الفصل التاسع: تتبع الروايات ٤٥٧
الفصل العاشر: العهود النبوية في سياقها ٤٦٣
الفصل الحادي عشر: خلاصات عامة ٥٠٣
الفصل الثاني عشر: اقتراحات قصد المزيد من البحث ٥٢٧
الجزء الثالث: ملاحق: العهود الستة ٥٤٩

صور توضيحية ٥٨٩
المراجع ٦٢٧
نبذة عن حياة الكاتب.. ٦٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدّمَة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّم عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ حَبِيبِ رَبِّ العَالَمِينَ وَبَعد،

فقد طالعت بشغف وافر ما خطته أنامل الأخ البحاثة الدكتور جون أندرو مورو حول العهود والمواثيق النبوية لأصحاب المِلَل من أهل الكِتَاب. وفضلاً عن جِدّة موضوع البحث وما يكشف عنه من عُمق الصلة بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرىٰ والتي تقوم علىٰ الاحترام ورعاية الحقوق، فإن خروج الكتاب في هٰذا التوقيت خاصة في نسخته العربية هامّ للغاية، حيث أطبقت الآراء السَّوْدَاوية والتأويلات المُتَطَرِّفة علىٰ المشهد مما سبب صرفا لكثير من الناس عن حقائق الإسلام الناصعة وبلبل أذهان الكثيرين مِمَّن صاروا يتساءلون عن أصل العلاقة بين الإسلام وغيره من الأديان: أهي السلم أم الحرب! ولا شك أن علماء الإسلام وأحباره يعلمون أن الله بعث نَبِيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين، فكيف يتأتىٰ أن تكون الرحمة سيفاً مُسلطاً علىٰ الرقاب، وناراً تحرق الأخضر واليابس.

ولما كان الأصل في علاقة الإسلام بغيره من الأديان السلامة والموادعة والأمان والعهد والاحترام- كما تنص عليه آيات القرآن- كانت تلك الكشوفات عن عهود النَّبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة التطبيق العملي الذي لا يدع مجالاً لتأويل جاهل، أو انتحال مبطل أو تحريف مغال. والقرآن- كما ورد عن عَلِيّ رضي الله عنه

في حديثه مع ابن عباس حين ابتعثه ليحاور الخوارج ويقنعهم- حمال أوجه ولذا تأتي السنة النبوية - خاصة سنة المواقف والتصرفات والتي منها هذه العهود -كاشفة عن المعاني الحقيقية للآيات ومؤكدة لأصل العلاقة.

والحق الذي لا مرية فيه، أن إنعام النظر في مثل هذه العهود والمواثيق التي طال العهد بها فكادت أن تذهب أدراج النسيان، يعين المسلمين علىٰ استكشاف باب عظيم غير مطروق من سُنَّتِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو باب (سُنَّةُ المَوَاقِف) فالنَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً لم يقتل أحداً من المُنافقين بل أبقىٰ علىٰ رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول مع كونه معلومـاً لديه وقال: كي لا يُقال إن مُحَمَّداً يَقتُلُ أصحابه، وكان بهٰذا يُشَرِّع ويوضح مَوقِفًا ينبغي للمسلمين تمثله مع كل مخالف، كي لا يأخذَ أحدٌ أحداً بالظنة أو يفتئت علىٰ ما في القلوب ويتخذها ذريعة لإهدار الدم وإشاعة القتل وذلك لأن الإسلام قد أتىٰ أصالة لصيانة النفس الإنسانية من أي ضرر دنيوي أو أخروي.

والحاصل، أن إخراج هذه العهود التي أُبرِمَت مع أرباب الطوائف من أحبار ورهبان وقُسس ومشايخ دليل ظاهر علىٰ أن الإسلام دين يسعىٰ ويدعو للتعايش بسلام وأمان ويوادع الناس ما وادعوه ويجعل العدل والخير والسلامة أعلىٰ غاياته وأعظم متطلباته ليحيا الناس كرامـاً لا إكراه لهم علىٰ ديانة ولا نقض بينهم لأمانة.

وإنني أسأل الله تعالىٰ أن يبارك هٰذا الجهد ويعظمَ النفع به في أقطار الأرض ويكلل سعي الباحث الهمام بالشكر والأجر ويفتح له أبوابـاً أخرىٰ من التوسع في هٰذا الموضوع العظيم الأثر.

والحمد لله أولا وآخرا

وكتبه: الشريف/ أحمد بن محمد سعد الحسني الإدريسي الأزهري نزيل بريطانيا في الثالث من شهر شوال ١٤٣٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة المُتَرجِمِين

لا شك في أن كتاب عهود النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم للدكتور جان أندرو مورو (إلياس إسلام) سيثير انتباه الباحثين والمتخصصين والمهتمين في الدراسات الإسلامية بمحور علاقة الإسلام بأهل الكتاب عموماً وبالمسيحيين بشكل خاص. لقد بذل الكاتب جهداً مشكوراً في هٰذا العمل الذي يمكن اعتباره من الفتوحات البحثية في مجال علاقة الإسلام بذلك الآخر الديني والثقافي. ويعد هٰذا الكتاب بحق نداء صادقاً إلىٰ إعادة النظر في العلاقة التي تربط الديانات الإبراهيمية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، والتي غالباً ما شابتها عبر التاريخ نظرة تشكيك، بل في أحيان كثيرة دعوات عداوة واستعداء صريحة — علىٰ الأقل من جانب بعض الأوساط المغرضة — سالت علىٰ إثرها دماء غزيرة، (ولا تزال تسفح مع الأسف علىٰ يد أولئك الذين لم يفهموا بعد أن دين الله لا يمكن أن يكون دين عنف وإزهاق للأرواح).

وعلاوة علىٰ جدة الموضوع وأهميته وراهنيته فقد كانت المعالجة والمنهجية أيضاً متميزتين. فقد توسل الكاتب في تحليله بمنهجية متعددة الأبعاد مستنداً إلىٰ مرجعيات علوم الفقه الإسلامي والسيرة النبوية إضافة إلىٰ جوانب من علوم السياسة والاجتماع والأخلاق وغيرها. وتتمحور أطروحة الكاتب حول دفاعه عن أصالة

وصحة العهود التي كتبها الرسول مُحَمَّد ﷺ لأهل الكتاب (من نصارىٰ ويهود) الموجودين في مختلف مناطق الجزيرة العربية وسيناء، وفارس، ولمسيحيي العالم بصفة عامة. وقد تعهد فيها النَّبيّ ﷺ شخصياً باسمه واسم أمته من المسلمين أن يدافع عن مختلف الطوائف الكتابية من أهل الذمة إلىٰ أن تقوم الساعة. ولقد نص مُحَمَّد ﷺ علىٰ ذلك تلميحاً وتصريحاً في العديد من مواثيقه، كما يدلل علىٰ ذلك هٰذا المثال من عهد النَّبيّ ﷺ لمسيحيي العالم حيث يصرح قائلا: "وهٰذا العهد لا يحرف ولا يغير إلىٰ أن تقوم الساعة".

ورغم طول الكتاب الظاهر(نقصد هنا النسخة الأصلية الإنجليزية، ٤٤٢ صفحة)، فإن أهم مادة فيه يتضمنها **الجزء الأول** منه، والذي يشتمل علىٰ الفصول السبعة الأولىٰ التي تتناول ظروف وسياق كتابة العهود النبوية. ويستعرض الكاتب في الفصل الأول من الكتاب حياة الرسول ﷺ منذ ولادته، وأطوار نشأته الأولىٰ، ثم يتعقبه في أسفاره، وزواجه، وملابسات دعوته ونزول الوحي عليه، إضافة إلىٰ هجرته، وعلاقته بيهود يثرب (أو المدينة المنورة). وكان النَّبيّ ﷺ قد عقد علىٰ هذه الطائفة أمل مساندته في دعوته، لكنها علىٰ العكس من ذلك خيبت ظنه بسعيها للانضمام إلىٰ صفوف المشركين من قريش ومن القبائل المناوئة و'الأحزاب'. وقد سلط الكاتب أضواء كاشفة علىٰ الاتصالات التي أقامها النَّبيّ ﷺ مع مختلف الطوائف النصرانية، سواء قبل بعثته أو بعدها. كما بين أهمية العهود والمواثيق النبوية باعتبارها التزامات قانونية-شرعية وأخلاقية يتعهد الرسول ﷺ بموجبها بحماية مختلف الطوائف النصرانية، إلىٰ جانب فئات من اليهود المسالمين (انظر العهد الذي كتبه النَّبيّ ليهود مقنة) ومعاشرتهم بالحسنىٰ ما داموا ملتزمين ببنود العهود المتفق عليها.

وينصب اهتمام الكاتب في الفصول من ٢ إلىٰ ٧ علىٰ الدفاع عن صحة نصوص العهود النبوية وأصالتها authenticity؛ ويعتمد الدكتور مورو (إلياس إسلام) في ذلك علىٰ مختلف الأدلة والبراهين، باذلاً ما يتعين بذله من الجهد في دحض آراء المُشَكِّكِين. وهو في هٰذا الباب لا يستعين بالأدلة التي تعتمد وجهة النظر الإسلامية فقط، بل إنه يفسح المجال أيضاً لآراء الكثير من الباحثين الغربيين، بما

فيهم المُشَكِّكِين والمُنَاوِئين للإسلام.

ويركز **الجزء الثاني** من الكتاب أساساً علىٰ التحديات التي تواجه الباحث في موضوع العهود المحمدية وعلىٰ رأسها قضايا أصالة نصوص تلك العهود وقضايا انتشارها ومسألة وضعها في سياقها. ويختم الكاتب هٰذا الجزء باقتراح أفكار ومحاور تهم البحث والتوسع مستقبلاً في موضوع العهود والمواثيق النبوية. أما **الجزء الثالث** والأخير فهو عبارة عن تذييلات تتعلق بنصوص العهود النبوية، وتتضمن مجموعة من الصور التوضيحية المفيدة.

وتجدر الإشارة إلىٰ أنه تم حذف بعض المواد في هذه النسخة المترجمة من كتاب مورو باقتراح من المؤلف نفسه، باعتبار أن ذلك الحذف لا ينقص من قيمة الكتاب ولا من فهمه. وعلىٰ الرغم من كون الدكتور مورو مسلماً — وهٰذا أمر لا يخفيه بل يظهر جلياً من خلال ثنايا الكتاب — فإنه مع ذلك يلتزم بانتهاج موقف أكاديمي صارم حيث إنه (وكما تمت الإشارة إلىٰ ذلك) يقدم الأدلة والأدلة المضادة حول المسألة الواحدة، سواء من الجانب الإسلامي، أو من الجانب المعارض للإسلام؛ بل إنه يذهب بعيداً في هٰذا المسعىٰ فيفسح المجال واسعاً حتىٰ للكتاب والباحثين الأكثر مناوءة للإسلام والمسلمين. وخير مثال في هٰذا المضمار يتمثل في الآراء الصادرة عن كتَّاب أمثال كرون وكوك (١٩٧٧)، وأربي (١٩٤٦) (انظر الكتاب الأصلي صص: ٣١، و ١٠٢–١٠٣ علىٰ التوالي). إن الكاتب مورو حريص علىٰ استعراض مختلف الآراء قبل استخلاص رأيه الشخصي. ولقد أبلىٰ البلاء الحسن وخصص جزءاً غير يسير من مادة الكتاب لقضية الدفاع عن صحة وأصالة العهود النبوية المختلفة، بالرغم مما يكون قد لحق تلك الوثائق من تحريف أو تصحيف أو زيادة أو نقصان علىٰ امتداد تاريخها الطويل. وتلك أمور لم يتردد الكاتب في تناولها وإماطة الغشاوة عنها. فهو لم يأل جهداً في إبراز الأدلة ومناقشة التفاصيل نقاشاً مستفيضاً وباذلاً جهده لدحض الأدلة المضادة التي تَرِد علىٰ لسان فئة من الجاحدين المنهجيين (systematic negators)؛ وهو بذلك يبرهن علىٰ علو كعبه في فن المناظرة والحجاج.

وفي سعيه نحو الشمولية والمنهجية في الدفاع عن وجهة نظره، خَصَّصَ

الدكتور مورو حَيِّزاً هاماً لوجهة النظر الشيعية بجانب وجهة النظر السنية في محاولة منه لإجلاء منغلقات وغوامض بعض مظاهر العهود النبوية. وقد استعان في ذلك بآراء بعض المصادر والأئمة الشيعة أمثال مجلسي (٢٠١٠) وقرشي (١٩٩١) وصلاحي (١٩٩٥) وشاه كاظمي (٢٠٠٥) وطباطبائي (١٩٩٧) إلىٰ غير ذلك من المراجع.

إن هذه المقاربة من شأنها أن تفتح نافذة جديدة علىٰ نوع من التخصص المعرفي قد يبدو دقيقاً وهاماً في تميزه في نظر البعض، وقد يبدو شاذاً في نظر فئة أخرىٰ من الباحثين والمهتمين. وكيفما كان الحال، ورغم كل ما يمكن قوله في هٰذا الباب، فإن الكتاب الذي بين أيدينا لم يكسبه هٰذا التناول المتعدد الابعاد والزوايا إلا عمقاً ولم يزده إلا غنىٰ وثراء.

ما هو مؤكد هو أن الكتاب عبارة عن يد ممدودة نحو أتباع الديانات السماوية الإبراهيمية من أجل الرسو معاً علىٰ أرضية مشتركة من التفاهم للبحث عما يجمع بينهم لا عما يخلق الفرقة بينهم. إنه نداء للسعي إلىٰ تعايش سلمي بين المؤمنين، يسوده الوئام والاحترام المتبادل. وعلىٰ وجه التحديد أيضاً يتوجه الكتاب بنداء إلىٰ بعض المسلمين(وغير المسلمين) ذوي النظرة الضيقة في فهمهم للإسلام كي يراجعوا أفكارهم المسبقة وقوالبهم الجاهزة.

لقد جاء هٰذا المُؤَلَّف في وقته، وهو بلا شك سيُلَبِّي حاجة ملحة أَيَّمَا إلحاح، خاصة في أيامنا هذه، وفي عالمنا هٰذا الذي أصبحنا نعيش فيه ونرىٰ سلوكات وأفعالاً لا قبل لنا بها من حيث تطرفها بل وشناعتها وهمجيتها، سواء من هٰذا الفريق الغربي أو من ذاك الفريق المحسوب علىٰ الإسلام والمسلمين. إذ ما فتئ هٰؤلاء وأولائك يوحون لأنفسهم ولمن أراد أن يسمع صوتهم بأنهم يمتلكون الحقيقة والشرعية الدينية، أو السياسية أو هما معاً، ناسين أو متناسين قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (١٠:٩٩).

هٰذا ما نراه فعلا أنه يشكل الرسالة الثاوية وراء صفحات هٰذا الكتاب القَيِّم، الذي يقدم الإسلام كَدِينِ سَلَام، دِينُ القِيَمِ الأَخْلاقِيَّة الكَوْنِيَّة، حيث إنه يقبل الآخر

في تعدده واختلافه، استنادا الىٰ ما سَنَّه المُمَثِّل الأعظم لهٰذا الدِّين، النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، الذي قال عنه الله تعالىٰ بأنه أرسله "**رحمة للعالمين**". إن لدىٰ الدكتور مورو قناعة راسخة مفادها أن عهود ومواثيق النَّبيّ ﷺ ذات أهمية لا تضاهىٰ وذات نجاعة كبرىٰ في ما يتعلق بتقديم الحلول لبعض أمراض ومعضلات عصرنا الخطيرة والمستعصية مثل ما صار يسمىٰ بالإرهاب (الديني) وتناحر الحضارات. إذ بإمكان هذه العهود – لو تم تطبيقها والالتزام بمبادئها – أن توحد ليس المسلمين فيما بينهم أو المسلمين وأهل الكتاب فقط، بل بإمكانها أيضـاً توحيد البشرية جمعاء تحت مظلة حقوق وحريات عالمية ممنوحة من قبل الخالق عَزَّوَجَلَّ، وليس من قبل الإنسان.

ختامـاً، قد يتساءل المرء ولو من باب التفلسف، ماذا عسىٰ أن يكون للدين من معنىٰ إن لم يسع إلىٰ جمع المتفرق، وخلق الائتلاف والانسجام فيما هو متعدد ومختلف بين بني البشر؟ هذه هي الرسالة التي نعتقد بالضبط أن الدكتور إلياس إسلام -مورو يريد توجيهها إلىٰ قُرَّائه، مخاطبـاً فيها عقولهم قبل وجدانهم وعواطفهم. إنها رسالة محبة من أكاديمي غربي مسلم إلىٰ الجميع، عسىٰ أن تعيها العقول الواعية، وتسترشد بما فيها من الدرر والتحف المحمدية. عدا هٰذا، فإن لَمَسَ بعضُ القُرَّاء أن الكاتب قد يكون عَبَّر أحيانـاً بطريقته الخاصة عن رأيه في بعض المسائل الخلافية، فذاك أمر بقدر ما يعنيه شخصيـاً، فهو لا يلزمنا كمُتَرْجميْن سعـينا جهدنا أن نكون وفِيَّيْن للنص الأصلي. والله تعالىٰ من وراء القصد، وهو العليم بذات الصدور.

الجُزءُ الأَوَّل

السِّيَاقُ العَام

الفصل ١

النبيّ محمد ﷺ وأهل الكتاب

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ (٩٥: ١-٢)

﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ (٥٢:١)

مُقَدِّمَـة

تعد المعاهدات التي كتبها النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ (٥٧٠-٦٣٢م) لنصارىٰ جبل سيناء ونجران، إضافة إلىٰ المعاهدات التي كتبها للنصارىٰ الآشوريين ولنصارىٰ فارس وفلسطين ومصر وأرمينيا كما لنصارىٰ العالم، من أهم المأثورات المكتوبة رغم كونها موضع تجاهل لافت في تاريخ الإسلام. وباعتبار الصراع المستمر الذي تغذيه القوىٰ الإمبريالية في العالم بين المسلمين والمسيحيين بصورة مفتعلة عبر العالم، وخاصة في إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا، فإن مضمون هذه الوثائق ذات الأهمية البالغة من شأنها أن تسلط أضواء كاشفة علىٰ المراحل الأولىٰ من تاريخ الإسلام. وبفضل تلك المعلومات يمكننا أن نشهد علىٰ العلاقة الوطيدة الأساس التي تربط المسلمين بأهل الكتاب. وعليه فإن المعاهدات والمواثيق يمكن أن تلعب دور الحافز المهم لإقامة انسجام وثيق العرىٰ بين الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام.

بِدايَةُ حَيَاةِ الرَّسُول ﷺ وَلِقَاؤُه بِالنَّصَارى

وُلِد مُحَمَّدٌ ﷺ بمكة عام ٥٧٠م من أبيه عبد الله [بن عبد المطلب] وأمه آمنة [بنت وهب]، وسمي عام مولده بعام الفيل نظراً لأنه صادف حادث محاولة هدم الكعبة من قبل أبرهة الحبشي الحاكم النصراني لليمن. وقد توفي والده وهو لا يزال ببطن أمه، فَكَفِلَتْهُ أُمُّهُ وجده عبد المطلب. وكما جرت العادة في ذلك العهد عند العرب، فلقد أودعته أمه وسط البدو ليعيش بينهم سنواته الخمس الأولىٰ. وطوال حياته كان مُحَمَّد ﷺ يسترجع بحنين ذكرياته في أحضان مرضعته البدوية حليمة، التي قامت برعايته خلال السنين الأولىٰ من حياته. بعد ذلك بقليل، عند عودة الطفل مُحَمَّد ﷺ إلىٰ حضن أمه، توفيت هذه الأخيرة، تاركة أمر رعايته لجده وحده. وكان النَّبيّ ﷺ يبلغ سن السادسة. وقبل أن يبلغ سن الثامنة توفي جده، فكفله أحد أعمامه

وهو أبو طالب الذي أصبح راعيه وعوضاً له عن أبيه. وهكذا عرف النَّبيّ ﷺ اليتم مرات عديدة، مما جعله يعتمد علىٰ قدراته العقلية وعلىٰ إرادته الصلبة التي أهلته بأن يضمن لمستقبله كل أسباب النجاح الذي كان في انتظاره. وقد استعرض المؤرخون والمُتَصَوّفة دقائق حياته بتفصيل، مركزين في ذلك علىٰ الإشارات والأمارات المنبئة بما ستأتي به الأيام من حياته.

وحسب السيرة النبوية المتداولة، فإن محمداً ﷺ اشتغل راعياً للغنم. وخلال هذه الفترة ساعده حب استطلاعه اللاّمحدود علىٰ تدبر أسرار الطبيعة والخلق. ثم دعاه عمه فيما بعد لمساعدته في دكانه بمكة. واستناداً إلىٰ بعض الأحاديث التي ضمنها المؤلف مجلسي في كتابه ***بحار الأنوار***، فإن اليهود قد عرفوا فيه النَّبيّ المنتظر عندما كان يبلغ من العمر سبع سنين (انظر دار راحي حق، ص ٢٠). وبما أنه من المعروف أن الأنبياء لا يأكلون طعاماً حراماً، فقد أعطىٰ اليهود دجاجة لأبي طالب عم النَّبيّ ﷺ دون علم النَّبيّ بذلك، وبعدما طُهيت الدجاجة وقدمت للأكل، أكل الجميع منها ما عدا النَّبيّ ﷺ. ولما سئل لماذا امتنع عن الأكل، أجاب: "إن هٰذا الطعام قد حرمه الله، والله يعصمني من كل شيء قد حرمه" (ص ٢٠). ثم قام اليهود بعد ذلك بأخذ دجاجة من أحد الجيران علىٰ أساس أنهم سيؤدون ثمنها فيما بعد، ثم أرسلوها إلىٰ دار أبي طالب فتم طهيها. مرة أخرىٰ يمتنع النَّبيّ ﷺ عن الأكل لأن الطعام كان مشكوكاً في أمره. وباختبار اليهود لمُحَمَّد ﷺ بهذه الطريقة، فقد وصلوا إلىٰ خلاصة مفادها أن "لهٰذا الطفل شخصية فذة خارقة للعادة، وأنه سيكون له شأن عظيم" (ص ٢١). وفي كتابه ***عالم النبوة***، يشير الماوردي إلىٰ أن جماعة من النصارىٰ من سوريا التقوا بمُحَمَّد ﷺ وهو ابن سبع سنين بمكة، وتعجبوا لاعتقاده في إله واحد وجاهروا بأمر نبوته، (انظر روجيما ٤١-٤٢). ويؤكد ابن سعيد البغدادي أيضاً (المتوفىٰ سنة ٨٤٥م) بأن أهل الكتاب قد تعرفوا علىٰ نبوة مُحَمَّد ﷺ قبل أن يبلغ التاسعة من عمره (روجيما:٤١).

وَمُحَمَّد ﷺ لا يزال طفلاً، فلقد اصطحبه عمه أبو طالب في إحدىٰ سفرياته التجارية إلىٰ سوريا. وكان الغرض من وراء هٰذا القرار إعطاء الفرصة للطفل للاحتكاك بالعالم والتعرف علىٰ أوجهه المتنوعة؛ كما كان تعبيراً عن مشاعر العطف والثقة. وقد

اختلفت الروايات السنية في أمر سن مُحَمَّد ﷺ آنذاك، إذ ذهب بعضها إلىٰ أنه كان يبلغ سن التاسعة، وذهبت أخرىٰ إلىٰ أنه كان يبلغ سن الثانية عشرة. وإذا ما اعتمدنا رواية محمد باقر المجلسي (١٦١٦-١٦٨٩م) -وينبغي أن نعتمده بحسب رأيي- فإن الأمر يتعلق هنا بسفرين اثنين لا بسفر واحد (انظر الفصل الخامس). وكيفما كان الحال، فإنه خلال هٰذا السفر بالذات، التقىٰ مُحَمَّد ﷺ ذلك اللقاء غير العادي بالراهب بحيرا الذي كان يقطن بصرىٰ، وهي مدينة بسوريا توجد علىٰ بعد ١٤٥ كيلومتراً جنوب دمشق. (ولفظة 'بصرىٰ' تكتب بالأحرف اللاتينية Busrah، Bosra، Bosrah، Bustra ، و Bustrah) . علىٰ أن عبد الله يوسف علي (١٨٧٢-١٩٥٣م) يشير أيضاً إلىٰ "بصرىٰ أخرىٰ بإيدوم الموجودة شمال البتراء بالأردن" (٧)، والتي لا يمكن بالتأكيد أن تكون الموقع الصحيح نظراً لأنه لا يوجد رابط يربطها بمواقع دينية أو تاريخية ذات صلة بالراهب بحيرا. وفيما يتعلق بلفظة 'صَوْمَعَة' أو 'خلية' والتي تم استعمالها في التراث، فقد كتبت باربرة روجيما بأنه "لا يجوز استعمال هذه اللفظة بمعنىٰ "خلية" أي جزء مكون لمجمع ديري، ولكن كمسكن خاص يقطنه راهب واحد بمفرده، وقد يتخذ شكل صومعة عمودية الشكل (ص ٣٨، م٤). ورغم أن الكاتبة روجيما، علىٰ ما يبدو، لم تر الدَّيْر التقليدي الذي كان يُعزىٰ للراهب بحيرا ببصرىٰ (ص ٤٥، م٣٣) فإن تعريفها للفظة صومعة ينطبق تماماً مع الموقع الموجود جنوب غرب المدينة. ومما يدعو للغرابة أن آمنة [بنت وهب] أم مُحَمَّد ﷺ سبق وأن حلمت بقصور بصرىٰ وهي حامل بمُحَمَّد ﷺ (انظر ابن اسحق ٦٩). فهذه القصور من الممكن أن تكون فعلاً هي الصوامع التي كانت تأوي الرهبان والنساك من أمثال بحيرا. إن هٰذا الحلم أو الرؤيا الربانية لآمنة يمكن أن تكون نبوءة تشير إلىٰ أن ولدها سيكون هو رسول الله ﷺ. وكما يتساءل رضا شاه كاظمي بهٰذا الشأن: "ألا يمكننا أن نرىٰ في هٰذا نبوءة نورانية لاعتراف متبادل بين النَّبيّ ﷺ والرهبان حيث يرىٰ كل واحد منهما نور الله في الطرف الآخر".

ونظراً لإلمام الراهب بحيرا العميق بأمور النصارىٰ فقد عُدَّ من مالكي الكتب المقدسة القديمة التي لم يعترها أي تحريف ووصلت إليه عبر أجيال متعاقبة. وأما

لفظة "بحيرا" فإنه يبدو أنها كانت لقب احترام علىٰ غرار لفظة "سماحة" ولا تدل علىٰ اسم لشخص، مما يفسر وجود عدة روايات [متباينة بهٰذا الصدد]. ففي بعض المصادر كان يشار إليه بـ"الرِّبي"، فيؤدي ذلك إلىٰ الاعتقاد بأنه كان يهودياً أو يهودياً-مسيحياً Messianic Jew (انظر Sprenger ٥٧٨). لكن هٰذا اللقب كان يستعمله النصارىٰ النسطوريون أيضاً لمخاطبة أفراد كنيستهم. وعلىٰ الرغم من أن بحيرا كان لا يعير كبير اهتمام للقوافل العربية التي كانت تمر بجانب الدَّيْر، فقد حدثت واقعة في صومعته، وهي واقعة لم يعرف عنها بالتحديد أصل يذكر، أوحت له بأن يهيئ مأدبة سخية لقافلة أبي طالب. والظاهر أن الراهب وقع تحت تأثير الغيمة التي رآها تظلل محمداً ﷺ باقتراب القافلة؛ وهي حادثة غريبة وغير منتظرة في تلك الأرجاء الصحراوية القاحلة. وبما أن محمداً ﷺ لم يكن قد وصل بعد إلىٰ مرحلة الرجولة فقد تركه الرجال من قريش خارج الدَّيْر يستريح تحت ظل شجرة. ولذلك حدث أن ألَحَّ بحيرا علىٰ القوم أن ينادوا علىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ لكي يُشركوه طعامهم.

وعندما جيءَ بمُحَمَّدٍ ﷺ لاقتسام الطعام مع بقية الرجال، تفرّسه بحيرا مليّاً وهو يحاول أن يستشفّ الأمارات التي وُصف بها في الكتب النصرانية القديمة. وعند الفراغ من الأكل وانصراف الضيوف، وقف بحيرا وبادر مُحَمَّداً ﷺ بالسؤال التالي: "سألتك يا فتىٰ باللات والعزىٰ أن تجيبني عن سؤالي". فأجاب النَّبيّ ﷺ: "لا تسألني باللات والعزىٰ، فوالله إنني لا أبغض شيئاً أكثر منهما". وإذ وجد بحيرا الولد ماثلاً أمامه من لحم ودم، فقد اقتنع أنه يتفق تماماً مع الأوصاف المادية المنسوبة للنَّبِيّ المنتظر، كما يؤيد المعتقد التوحيدي الذي كان يحمله بحيرا في قلبه. ثم قام بحيرا بعد ذلك بطرح أسئلة تتعلق بالنَّبيّ ﷺ، فكانت أجوبته ﷺ تطابق ما كان الراهب قد تعلمه من النصوص المقدسة. وقد زاد هٰذا من جرأة بحيرا، حيث إنه عمد إلىٰ الكشف عن ظهر النَّبيّ ﷺ ليجد خاتم النبوة مرسوماً بين كتفيه، وفي المكان الذي تنص عليه لفافة الرق scroll.

وعندما فرغ بحيرا من استجواب مُحَمَّد ﷺ اقترب من عّمِّهِ أبي طالب باحثاً عن المزيد من المعلومات بشأن هوية الفتىٰ. وعندما وصف أبو طالب محمداً ﷺ

بكونه ابنـاً له، قال بحيرا إن هٰذا غير صحيح، لأن أب الطفل لا يمكن أن يكون من بين الأحياء. فاعترف أبو طالب قائلاً: "إنه ابن أخي". ثم روىٰ له قصة مُحَمَّد ﷺ، وأن أباه قد توفي قبل ميلاده. " لقد قلت الحق"، قال بحيرا، "الآن عد بابن أخيك إلىٰ بلده، واحرص ألا يمسه اليهود بسوء"، أضاف بحيرا محذراً، "فوا الله لو رأوه وتعرفوا عليه لآذوه. إن مستقبلاً عظيمـاً في انتظار ابن أخيك هٰذا، ولذلك عليك أن تعود به إلىٰ البيت فوراً" (ابن اسحق: ٨١). هذه بالطبع رواية مبسطة للحادثة، ذلك لأن الرواية التي أوردها محمد باقر مجلسي في كتابه ***حياة القلوب*** تتضمن تفاصيل وتوسعـاً أَوْفَىٰ مقارنة بما جاء به ابن اسحق، لأنه أدرج عدداً أكبر من المصادر. فاستناداً إلىٰ الرواية الشيعية، فقد اجتمع عدد كبير من الرهبان جاؤوا من كل حدب وصوب حول النَّبيّ ﷺ عندما قدم إلىٰ سوريا، وحدثت أمور كثيرة هي من باب المعجزات في حضرته (انظر الفصل ٤).

في الوقت الذي يتصور فيه الكثير ممن قرأ قصة بحيرا أنه كان عبارة عن ناسك يعيش عيشة العزلة في غار وسط إحدىٰ المناطق الصحراوية، فإن ربطه بسياقه الصحيح يكشف عن صورة مختلفة عن ذلك تمامـاً، إذ كما يشرح ذلك برنابي روجيرسن: "قبيل زيارة مُحَمَّد ﷺ لبوسطرا كانت هذه المدينة حاضرة شرق سوريا لمدة ٥٠٠ سنة. وكانت تعج بحركة الموظفين الإداريين إذ كانت مقراً للحاكم البيزنطي ولرئيس الجند ولرئيس أساقفة بوسطرا الذي كان يوجد تحت إمرته ٣٣ أسقفـاً [من ذوي المراتب الدنيا]. وعند زيارة مُحَمَّد ﷺ لبوسطرا يكون قد تعرف علىٰ مدينة كبيرة مسورة، يهيمن علىٰ فضائها مبنىٰ الكاتدرائية المقبَّبة التي تم الانتهاء من أشغال بنائها...لقد كانت بوسطرا توجد وسط أراضي حوران، وهي عبارة عن أراضي تضم عدداً من القرىٰ الزراعية. وكانت الطرق تخترق هذه المنطقة النشيطة رابطة إياها بمدن أنطاكيا ودمشق وتدمر، إضافة إلىٰ البحر الأحمر. وكان من المناسب أن تتوقف القوافل القادمة من مكة هنا[ك]. وبالتأكيد، فقد كان ذلك من باب الضرورة الإدارية. وكان التقليد الذي يربط فيما بين العلماء النساك والمذاهب النصرانية أمثال اليعاقبة والنساطرة رابطـاً وثيقـاً ونشيطـاً. ولا تزال بوسطرا تثير الإعجاب لحد الساعة...ويعتبر مسجد مبرك

[الناقة]، بصفة تقليدية، المكان الذي ترجل فيه الفتىٰ محمد من راحلته، بينما تعتبر باسيليكا رومانية قديمة بمثابة الكنيسة الخاصة ببحيرا". (٦٣ـ٦٤).

ولا يزال معبد الراهب بحيرا إلىٰ جانب الكنيسة والدَّيْر أو الكاتدرائية حيث كان يباشر أموره التعبدية مزاراً ذا أهمية تاريخية في جنوب سوريا يقصدها الحجاج والرسامون الرحالة علىٰ حد سواء. وكما تشهد علىٰ ذلك أطلال المدينة العتيقة، فقد كانت بصرىٰ مركزاً حضارياً نشيطاً في أيام مُحَمَّد ﷺ . فبينما تقف الرواية السنية عند بصرىٰ، فإن الرواية الشيعية تفيد بأن القافلة قد تابعت سيرها نحو دمشق حيث تعرف فيها راهب آخر يدعىٰ عبد المويهب علىٰ مُحَمَّد ﷺ علىٰ أنه سيكون رسول الله مستقبلاً (انظر مجلسي، الجزء الرابع).

إن حادثة بحيرا التي أوردها ابن اسحق (٧٠٤-٧٦١/ ٧٧٠م) والبلاذري (المتوفىٰ حوالي سنة ٨٩٢م) والطبري (٨٣٨-٩٢٣م) والترمذي (٨٢٤-٨٩٢م) إلىٰ جانب جملة من المؤلفين الآخرين، (انظر روجيما ٩٣ م٧) قد أثارت الكثير من النقاش بين الباحثين. فبالنسبة لفئة المتشككين أمثال ريتشارد بيل Richard Bell(١٨٧٦-١٩٥٢م): يقول هٰذا الأخير: "لا يمكن تصديق الروايات المتعلقة باتصال [النبي] بالرهبان المسيحيين في هذه المرحلة" (ص٢١). لكن بيل لم يورد أي سند يثبت به دعواه هذه. وحتىٰ بالنسبة للعلماء المتعاطفين مع الإسلام أمثال كارين أرمسترونغ Karen Armstrong (المولودة سنة ١٩٤٤م)، فإن القصص التي تتناول ميلاد وطفولة وشباب مُحَمَّد ﷺ هي مجرد "أساطير تعبدية" ذات بعد رمزي (١٩٣٣: ٤٨). وبما أن قصة بحيرا ليست لها أسانيد متواترة كاملة، بل تبتدئ بطريقة حذرة بعبارة "زعموا"، فإن الكثير من العلماء المسلمين أنفسهم اعتبروها أسطورة من الأساطير. ولذلك فإن بعض كُتَّاب السيرة النبوية أمثال اليعقوبي (المتوفىٰ سنة ٨٩٧/ ٨٩٨م) وابن حزم (٩٩٤-١٠٤٦م) ومحمد ظفر الله خان (١٨٩٣-١٩٨٥م) لا يوردون أي ذكر لهذه الحادثة في أعمالهم (روجيما ٤٦). وإذ يستعرض الذهبي (١٢٧٤-١٣٤٨م) عدة روايات للحادثة في كتابه *تاريخ الإسلام*، فهو يعتبرها "منكرة جداً"، أي ضعيفة جداً من حيث الأسانيد (انظر روجيما ٤٦). لكن لا يكفي أن تعوز

الحادثةَ سلسلةُ أسانيد متواترة كي يُنظر إليها وكأنها شيءٌ لم يقع. ذلك لأنه -علىٰ الرغم من كل شيء-، لقد سبقت الحادثة فترة جمع الأحاديث النبوية، والتي اقتصر معظمها علىٰ العشر سنوات التي أمضاها النَّبيّ ﷺ بالمدينة. غير أن قصة بحيرا قد تناولها عدد من المؤرخين المسلمين الأوائل أمثال محمد بن جرير الطبري (٨٣٨-٩٢٣م) وابن سعد البغدادي (حوالي ٧٨٤-٨٤٥م).

بعد تفكيكها لمختلف الروايات المتضاربة المتصلة بأسطورة سيرجيوس بحيرا Sergius Bahira فإن باربرا روجيما تُقِرّ هي أيضـًا بأنه من الممكن أن يكون وراء القصة حجر زاوية تستند إليه (ص٥١). وبينما يميل ريتشارد أ. غابريال Richard A. Gabriel إلىٰ قبول فكرة أن محمداً ﷺ قد التقىٰ رهباناً في طريق القوافل التجارية، فهو يرفض رواية الأحداث الخارقة والنبوءات المتصلة بها (ص٥٦). وبصفته مؤرخـًا فمن حقه أن يتجاهل قرونـًا وقرونـًا من المصادر المتراكمة التي تؤكد علىٰ أن شيئـًا ما علىٰ جانب كبير من الأهمية الروحية والسياسية قد وقع خلال لقاء مُحَمَّد ﷺ بالرهبان. وبصفته مؤرخـًا كذلك، كان من المفروض فيه أن يعتمد علىٰ المصادر. والمراجع في هٰذا الباب تؤيد الحادثة بالإجماع. والحق فإن فرانسيس إيدوارد بيترز Francis Edward Peters (المولود سنة ١٩٢٧م)، وهو يعتمد في استدلاله علىٰ حجج من القرآن، قد خلص إلىٰ أن محمداً ﷺ كان علىٰ دراية تامة بعادات الرهبان النصارىٰ (١٦٦).

في الوقت الذي يقر فيه غودار Goddard بأن وضعية ومصداقية السِّيَر النبوية التي ألفها علماء مسلمون هي محل جدال أكاديمي، فإنه يعترف مع ذلك بأنه "ليس هنالك ما يكفي من الأدلة لنفي الروايات" المتصلة بلقاء مُحَمَّد ﷺ بالرهبان (ص١٩). ويشهد السير جوهن غلوب John Glubb (١٨٩٧-١٩٨٦م) أيضـًا بأن "القصة قد تسجل نوعـًا من اللقاء الذي جمع الفتىٰ محمداً بناسك نصراني ما، حيث كان هناك عدد كثير منهم يقيمون علىٰ مشارف بادية الشام" (٧٠-٧١). ويؤيد روبرت برنتون بيتس Robert Brenton Betts إمكانية "أن الراهب بحيرا يمكن أن يكون أحد الرهبان السوريين الجوالة" (ص٥). ويتساءل عميد صافي " لماذا تنص المصادر

الإسلامية علىٰ مثل هذه الروايات؟" فيجيب: "إن جواباً بسيطاً قد يكمن في أن [الأحداث المنصوص عليها] قد تكون وقعت بالفعل، وأنه ليس هناك ما يجعل أمر وقوعها محل شك" (٨٠). وبالتأكيد، بعد تمحيص كل الروايات المتعلقة بالراهب بحيرا، تستنتج ألويس سبرينغر Aloys Sprenger (١٨١٣-١٨٩٣م) أن بحيرا كان شخصية تاريخية؛ وتؤكد بأن الحديث الذي رواه الترمذي (٨٢٤-٨٨٩م) بشأن بحيرا هو أقدم وأصح حديث (ص ٥٨٣؛ ص٥٩٢)، وعلىٰ أن الرواية التي أوردها الواقدي "تحمل نفس القدر من الصدقية" (ص ٥٩٢).

وبما أن العلماء العلمانيين يرفضون نبوة مُحَمَّد ﷺ فإن موقفهم الراسخ يتجلىٰ في رفض أي دليل يثبت هذه الدعوىٰ. فمقاربتهم منذ الوهلة الأولىٰ تعتمد النفي والإنكار. وعندما يفشل الإنكار في الوصول إلىٰ المبتغىٰ يعمد مناوئو الإسلام عادة إلىٰ التلفيق والتحريف. وبناء علىٰ هٰذا فإن بحيرا ـ وهو النصراني السرياني ـ قد اتُّهم من قبل مجادلين مسيحيين بكونه نسطورياً بحرانياً Bahrani Nestorian، وبكونه آريوسياً، ويعقوبياً، حيث إن المذهب الآريوسي (نسبة إلىٰ آريوس (٢٥٦-٣٣٦م)، وهو كاهن إسكندري أصبح فيما بعد أسقفاً ليبياً)، نشر انطلاقاً من سنة ٣١٨م فكرة مؤداها أن الله تعالىٰ هو واحد أحد، وهو الأب وليس بثالث ثلاثة. بعبارة أخرىٰ إن المسيح لم يكن هو الله لكن خلقه الله تعالىٰ من لا شيء، حسب مشيئته تعالىٰ. أما اليعقوبية فهي طبعاً شكل من المسيحية القائلة بأن المسيح هو ذو طبيعة ربانية واحدة. ثم إن بحيرا تم تحوير اسمه إلىٰ سيرجيوسSergius ثم إلىٰ جيورجيوس ثم إلىٰ بئيرا Baeira أو بخيراسPakhyras ؛ ثم اتهم بكونه كان هو من ألهم محمداً ﷺ لاختلاق هرطقته الخاصة به [أي الإسلام]. لكن روبرت إيروين Robert Irwin يعترف بأن "المجادلين المسيحيين اختلقوا قصصاً مؤداها أن راهباً (وفي بعض الروايات أسقفاً مرتداً) قد لقن محمداً عناصر ومكونات هرطقة مسيحية خطيرة" (ص٢٠).

وإذ يدعي الكثير من آولئك المتقولين بأن بحيرا كان هو المؤلف الحقيقي للقرآن (انظر فيرني Vernet ١٩٩١ :٢٣٣)، فإنه يستحيل ببساطة أن يكون قد أعطىٰ كتاباً لطفل أمي يبلغ من العمر فيما بين تسع سنين وخمس عشرة سنة، ثم يراه بعد

مضي خمسة وعشرين سنة يبرز إلىٰ السطح، حين يكون مُحَمَّد ﷺ قد بلغ سن الأربعين.

وبينما يصعب تحديد المذهب النصراني الذي كان ينتمي إليه بحيرا بدقة، فقد يكون ممن يعتبرون أنفسهم أحد النصارىٰ الموحدين القلائل الذين - حسب بعض العلماء المسلمين، ولو خالفهم في ذلك المسيحيون التقليديون- يكونون قد حافظوا علىٰ تعاليم المسيح الأصيلة (للمزيد من التفاصيل حول هٰذا الموضوع انظر طومسن وعطاء الرحمن). وقد كتب يوحنا الدمشقي الذي يعد مرجعاً سابقاً علىٰ ابن اسحق قائلاً: "إن بحيرا كان آريوسياً" (انظر رودس Rhodes١٥٠، م ٢٦٥). إن القضية لا تكمن علىٰ أية حال في التأثير بل في الاعتراف. ومن وجهة نظر لاهوتية، فإنه يبدو أن أقرب شيء إلىٰ الحقيقة هو أن يكون الآريوسيون واالنازوريون Nazoreans النصارىٰ في انتظار نبي آخر هو آخر الأنبياء الذي سيأتي ليجدد ما يعتبرونه العقيدة التوحيدية للمسيح، علىٰ خلاف ما يعتقده المسيحيون التثليثيون Trinitarian أمثال [النساطرة] و[اليعاقبة]. وكما يعترف بذلك دونر Donner (المولود سنة ١٩٤٥م) فإنه "من المحتمل أن تكون جزيرة العرب مأوىٰ لبعض الطوائف اليهودية المسيحية الملقبة بالمسيحيين النازوريين Nazoreans، والذين آمنوا بعيسىٰ ابن مريم علىٰ انه المسيح وطبقوا شعائر منها تحريم الخنزير وشرب الخمر" (٣٠-٣١). إن الرهبان الذين التقىٰ بهم مُحَمَّد ﷺ من المحتمل جداً أن يكونوا من أتباع عيسىٰ الموحدين الذين كانوا لا يزالون علىٰ شريعة موسىٰ. وكما يلاحظ هانس جواشيم شووبسHans Joachim Shoeps فـ"إن النصرانية العربية التي وجدها محمد في بداية دعوته لم تكن هي الديانة الرسمية لبيزنطة، لكنها كانت فرعاً منشقاً عن المسيحية يتميز بخصائص إيبونية Ebonite ومونوفيزية [أي القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح]. وانطلاقاً من هذه الديانة، استمر سيل من المعتقدات يتدفق دون انقطاع إلىٰ أن توج بالدعوة المحمدية" (١٣٦-١٣٧). وبحسب شووبس Shoeps أيضاً، فـ"إن الشبه البنيوي الكبير بين المسيحية اليهودية Jewish Christianity والإسلام، يفسر لماذا اعتنق الإسلامَ بسرعة السكانُ الذين كانوا يعيشون علىٰ حافة جزيرة العرب، أي في مناطق

يخترقها المذهب المونوفيزي Monophysitism والمذهب النسطوري" (١٣٩).

وهناك مثال آخر يبين كيف تم تأويل لقاء مُحَمَّد ﷺ ببحيرا تأويلاً خاطئاً؛ ويتمثل في نص يخلط خلطاً بيناً بين لقاء مُحَمَّد ﷺ بنصارىٰ سوريا ولقائه بنصارىٰ مصر. وقد ذهب ريتشارد بوكوك RichardPococke (١٧٠٤-١٧٦٥م) وهو أسقف مستشرق إنجليزي [بروتستاني] إلىٰ حد القول بـ"إن راهباً يونانياً يدعىٰ سرجيوس قد ساعد محمداً علىٰ كتابة القرآن إثر زيارته لدير القديسة كاثرين بسيناء" (ستانلي ١٥١، ٣٢٦، م١١١). وكان هٰذا الافتراء وتزوير الحقائق منتشراً علىٰ نطاق واسع علىٰ مدىٰ قرون، وذلك قبل أن يقوم جان دي ثيفنوت Jean de Thevenot (١٦٣٣-١٦٦٧م)، صاحب كتاب قصة سفر في الشام Relation d'un voyage fait au Levant، ببسط تفاصيل أسفاره للأراضي المقدسة فيما بين سنتي ١٦٥٥ و ١٦٦٣م (٧٢). وقد ادعىٰ بأن القرآن قد تم ترقيعه انطلاقاً من العهد القديم والعهد الجديد علىٰ يد سيرجيوس. وقد أكد أيضاً علىٰ أن القرآن يشتمل علىٰ الكثير من القصص المضحكة التي كان يرويها الربِّيون (٧٢). إن قراءة متفحصة لهٰذا الكتاب تثبت بأن المستشرق الفرنسي، رغم الادعاء بكونه كان يتحدث عدة لغات ويتقن اللغة العربية، فقد اتضح بأنه كان جاهلاً جهلاً مريعاً بكل ما يمت بصلة للعربية وقضايا الإسلام. وكما يبين ذلك محتوىٰ كتابه بجلاء، فإن معرفته بالقرآن والإسلام كانت شبه منعدمة، حيث إنه كان يكتفي بترديد الأساطير التي كانت تروج بين الدهماء بأوروبا.

زار أنطونيوس مارتير Antoninus Martyr منطقة سيناء حوالي سنة ٥٧٠م، وهي السنة التي ولد فيها مُحَمَّد ﷺ؛ وقد روىٰ بأنه "يوجد بالدَّيْر ثلاثة آباء يتقنون لغات كثيرة منها اللاتينية واليونانية والسريانية والقبطية والفارسية. كما يوجد عدد كبير من المترجمين لعدة لغات [معينة]" (انظر سكربوتشا ٣٥) . ولو كان هناك في دير القديسة كاثرين من يتقن اللغة العربية فعلاً لتمت الإشارة إلىٰ ذلك بدون شك من قبل أنطونيوس Antoninus بصفة خاصة. ولذلك فإنه خلال رحلات النَّبيّ ﷺ وتجواله بالمنطقة لم يكن هناك من أحد من شأنه أن يعطي تعليماً أو تلقيناً عربياً ذا بال. بالطبع ستكون لهذه الحجة قيمة أقل لو اقتنع المرء بالفكرة السخيفة بأن القرآن جاء باللسان

الآرامي. وكما يشير راتكليف إلىٰ ذلك: "لم تشرع الطوائف النصرانية وعلىٰ رأسها الطوائف الفلسطينية الرهبانية في ترجمة النصوص المسيحية إلىٰ اللغة العربية إلىٰ أن جاء القرن الأول من حكم العباسيين" (١٦). وإن كان هناك شخص يدعىٰ القديس سيرجيوس فإنه يكون قد توفي في القرن الرابع الميلادي. وكان هناك ناسك يدعىٰ سارغاريوس Sargarius، زعموا أنه كان يعيش في غار بجبل سيناء، لكن ليس هناك دليل بوجود شخص يحمل هٰذا الإسم يكون قد سكن الجبل المقدس (سيناء) خلال زيارة النَّبيّ ﷺ له. أما بالنسبة للدعاوىٰ التي تقول بكتابة القرآن في فترة متأخرة، فإنها لا تصمد كثيراً أمام الحجج. وبتعبير موريس بوكاي Bucaille Maurice (١٩٢٠-١٩٩٨م): فـ"إنه ليس هنالك أدنىٰ شك في أن نص القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو نص ينتمي بصفة مؤكدة لفترته التاريخية المعروفة" (١٢٠).

وإن كنا قد توسعنا في قصة بحيرا وأَفَضْنا فيها القول بطريقة أكاديمية، فإن ذلك كان بغرض تبيان الإمكانيات التاريخية المتمايزة لذلك الحدث. لكن لا ينبغي أن تحجب عنا الشجرة رؤية الغابة. إن صحة أو عدم صحة حدث واحد أو سلسلة من الأحداث لا تغير البتة من لب الرسالة التي جاء بها مُحَمَّد ﷺ. أما بخصوص الفترة التي تفصل بين لقاء مُحَمَّد ﷺ ببحيرا سنة ٥٨٢م وزواجه سنة ٥٩٥م بخديجة (المتوفاة سنة ٦١٩م)، فإن المصادر قد سكتت عنها باستثناء ادعاءات واهية بإن النَّبيّ ﷺ كان قد شارك في حرب الفجار حينما كان يبلغ من العمر عشرين سنة. يمكن أن نفترض فقط أن محمداً ﷺ كان فيما بين سن الثانية عشرة والخامسة والعشرين مستمراً في مزاولة التجارة وهو يقود قافلة عمه [أبي طالب]. وبفضل الخصال الحميدة التي أبان عنها سواء علىٰ المستوىٰ الشخصي أو المهني فقد لقب باللقبين التشريفيين "الصادق" و"الأمين".

في سنة ٥٩٥م، عندما أعطىٰ مُحَمَّد ﷺ الدليل علىٰ كفاءته في قيادة القوافل واكتسب قلوب الناس بأمانته ونزاهته وشرفه، كلفته خديجة بنت خويلد -المرأة القرشية والتاجرة الغنية- بمهمة قيادة إحدىٰ رحلاتها التجارية إلىٰ سوريا، بما أنها لم تكن تسافر هي شخصياً مع قافلتها. وكان علىٰ مُحَمَّد ﷺ أن يصطحب معه في تلك

السفرة أحد غلمانها، وكان اسمه ميسرة. وكان هٰذا الغلام شاهداً علىٰ اللقاء المعجزة الموالي بين مُحَمَّد ﷺ وأعضاء من الطائفة النصرانية بسوريا. يقول ابن اسحق (٧٠٤-٧٦١/ ٧٧٠) في هٰذا الباب:

"توقف رسول الله ﷺ ونزل عند ظل شجرة بجوار صومعة راهب. وعندما جاء الراهب إلىٰ ميسرة وسأله عن الرجل الذي كان يستظل بالشجرة، أجابه بأنه من قريش-وهم سدنة البيت المحرم-. ثم قال الراهب معقباً: "لم يسبق لأحد أن جلس تحت هذه الشجرة إلا إذا كان نبيـاً".

وتشير المصادر السنية إلىٰ الراهب باسم نسطور (أو نسطورة)، وقد يكون ببساطة راهبـاً ينتمي للمذهب النسطوري. ويؤكد المؤرخون الشيعة بأنه لم يكن هو نفس الراهب الذي سبق للنبي ﷺ أن التقاه في صباه (انظر دار راح حق، ٧٥، م٣٢) . علىٰ الرغم من أن رواية ابن اسحق (٧٠٤-٧٦١/ ٧٧٠) هي رواية مختزلة، فإن مجلسي (١٦١٦-١٦٨٩م) قد ضمن روايته تفاصيل أوفىٰ تتعلق بالأحداث التي وقعت، إذ يقول ما يلي:

"عندما اقتربت القافلة من سوريا، حطت رحالها بجوار دير. وجلس النَّبيّ الكريم تحت شجرة، وتفرق بقية أعضاء القافلة. والشجرة التي كانت يابسة لفترة طويلة سرعان ما اخضرّت، وخرجت الأغصان وأورقت وأينعت الثمار منها دانية. أصبح المكان كله مخضراً. لما رأىٰ الراهب ذلك خرج مسرعـاً وقصد النَّبيّ ﷺ، وكان يحمل كتابـاً يقرأ فيه، ثم قال وهو يتملىٰ بطلعة النبي: "بالذي أنزل الإنجيل إنه لهو!". عندما سمع خزيمة ذلك خشي أن الرجل ربما كان يريد سوءاً بالنَّبيّ ﷺ، فسل سيفه وهو يصيح: "يا قوم غالب! النجدة! الحذر!" هرع كل رجال القافلة إليه وفر الراهب محتميـاً ببيته. ثم طلع إلىٰ السطح وصاح من هناك: "لماذا تريدون إذايتي؟ فبالذي رفع السماء بغير عماد إنكم لأحب الناس إليّ من أي قافلة مرت بجنبي. إن هٰذا الكتاب يقول إن الفتىٰ الجالس تحت الشجرة هو رسول رب السماوات والأرض، وهو الذي سيؤمر بالجهاد في سبيل الله ويقتل الكثير من الكفار. إنه خاتم الأنبياء، من أطاعه فقد فاز ومن عصاه فقد ضَلَّ سواءَ السَّبيل".

ثم سأل خزيمة: "هل أنت من قومه؟"، قال لا لكني خادمه". ثم روىٰ للراهب كل ما شاهده من معجزات وأشياء خارقة في طريق السفر. فكرر الراهب القول بأنه نبي آخر الزمان". وقال: "سأقول لك حقيقة احفظها سراً عندك، لقد قرأت في الكتب بأنه سيفتح العالم كله وتخضع له جميع الأقوام، ولا يعود من حرب إلا منتصراً ظافراً، إن أعداءه كثْر وأغلبهم من اليهود، ولذلك عليكم أن تحموه منهم". ثم غادرت القافلة المكان ودخلت سوريا وكسبت أرباحاً كثيرة في تجارتها".

في طريق عودة القافلة واقترابها من مكة قال ميسرة للنبي ﷺ: "يا فاضل ويا مختار، لقد رأينا منك عدة كرامات ومعجزات خلال هٰذا السفر. إن كل شجرة أو حجر مررنا به إلا حياك وهو يقول: "السلام عليك يا رسول الله. إن الأودية التي كنا نقطعها في عدة أيام قد قطعناها ببركتك ويمنك في ليلة واحدة. إن الربح الذي كسبناه هو أحسن ما كسبنا منذ أربعين عاماً. فماذا لو أنك ذهبت بنفسك إلىٰ خديجة وزففت لها الأخبار السارة لهٰذا السفر الميمون والتجارة المربحة علها تسر وتفرح!". هنالك تقدم النَّبيّ ﷺ القافلة وعرج علىٰ بيت خديجة التي كانت جالسة في تلك الآونة مع بعض النسوة في الطابق العلوي وعينها علىٰ الطريق. في لحظة ما رأت خديجة فارساً قد وصل، كما أنها لاحظت غمامة تظله وملكين أحدهما عن يمينه وآخر عن شماله كانا يرافقانه وبيد كل واحد منهما سيف مسلول، وكان مصباح من الزمرد يتدلىٰ فوق رأسه من تلك الغمامة، وفوق تلك الغمامة نصبت خيمة من توباز مضروبة فوقها. عندما رأت خديجة كل ذلك دعت الله في سرها وانبهرت وهي تقول: "الٰهي اجعل هٰذا الفتىٰ المحبوب عندك يأتي إلىٰ بيتي المتواضع" (انظر الجزء الخامس).

بينما نجد رواية ابن اسحق (٧٠٤-٧٦١/ ٧٧٠م) أقل اندفاعاً من رواية مجلسي (١٦١٦-١٦٨٩م) هذه، فإنها مع ذلك تشترك معها في إدراج نفس العناصر الأساس. علىٰ أنه جدير بالملاحظة أن ابن اسحق يشير إلىٰ أنه كان موجزاً في روايته، وربما يكون قد حذف عناصر بدت له مسرفة في طابعها الأسطوري ولا تتفق مع ذوقه. وعلىٰ أي حال، بعدما قام النَّبيّ ﷺ ببيع بضاعته بسوريا قفل عائداً إلىٰ مكة. وحسب رواية ابن اسحق:

"تقول الرواية إنه عند منتصف الظهيرة عندما اشتد الحر، وبينما كان النَّبيّ ﷺ راكباً راحلته، رأىٰ ميسرة ملكين يظلان الرسول ﷺ من أشعة الشمس. وحينما حمل إلىٰ خديجة بضاعتها التي اشتراها لها باعتها بثمن مضاعف تقريباً. روىٰ لها من جانبه ما كان من أمر الملكين الذين كانا يظلانه، ثم ما قاله الراهب من كلام في حقه" (ابن اسحق ٨٢).

ثم يسترسل ابن اسحق في رواية ما جرىٰ ويقول:

"كانت خديجة سيدة ذات عزم وشرف وفطنة، وكانت تتحلىٰ بالصفات التي شرفها الله تعالىٰ بها، ولذلك عندما قص عليها ميسرة هذه الأمور ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ - كما تفيد الرواية - وقالت له: "يا ابن عمي إنني أعزك لما بيننا من القرابة، ولطيب خلقك بين أهلك، ولأمانتك وحسن طبعك وصدقك،". ثم طلبت منه أن يتزوجها. وكانت خديجة آنذاك خير نساء قريش وأشرفهن قدراً وأوسعهن ثراء". (٨٢)

وقد تأثرت خديجة بحسن خلق النَّبيّ ﷺ المميز ولذلك وجد مكاناً إلىٰ قلبها فبادل تلك السيدة الشريفة، المستقلة المجدّة-التي كانت تمثلها خديجة- مشاعر الود والإعزاز. وفي وقت كانت الزيجات تعقد منذ الطفولة بين الرجال والنساء، وفي الوقت الذي كان فيه الرجال فقط هم من يطلبون يد النساء للزواج، وفي الوقت الذي كان الناس يتزوجون فقط من أجل أغراض سياسية ومن أجل تحقيق مكاسب مادية، في هذه الفترة خطبت خديجة محمداً ﷺ لنفسها فتزوجها عن حب رغم فارق السن والمرتبة الاجتماعية التي تفصل بينهما. وحسب ابن اسحق:

"قصت خديجة رضي الله عنها علىٰ ورقة بن نوفل (وهو ابن عمها الذي كان مطلعاً علىٰ دين النصارىٰ، كما كان عالماً وعارفاً بالكتب السماوية ما حكاه لها ميسرة مما قاله الراهب وما كان من أمر الملكين الذين كانا يظلان محمداً ﷺ. فقال لها: "إن كان ما تقولين صحيحاً، فإن محمداً ﷺ هو بحق نبي هٰذا القوم. ولقد عرفت أن نبياً سيبعث من وسط هٰذا القوم. لقد آن أوانه

ليحقق هٰذا المسعىٰ. وقد كان ورقة يستطيل الانتظار وكان يردد: "متىٰ؟ متىٰ؟" (٨٣).

وبينما لا يعرف سوىٰ القليل أو لا شيء عن حياة مُحَمَّد ﷺ قبل الفترة التي سبقت بداية رسالته، فإننا نملك الدليل من خلال سعيه لكسب رزقه علىٰ أنه من المحتمل جداً أن يكون قد سافر إلىٰ الشام أيام الصيف وإلىٰ اليمن أيام الشتاء. فإلىٰ جانب طريق اليمن جنوباً وطريق الشام شمالاً، وطريق البصرة شرقاً، (أو طريق ما يعرف اليوم بالعراق)، وطريق جرهة Gerrha (فيما يعرف اليوم بالبحرين)، هناك طريق تجارية أخرىٰ تربط المدينة المنورة بالعقبة، لتصل إلىٰ نخل، وهي المدينة الموجودة وسط سيناء، ثم إلىٰ محطتها الأخيرة المتمثلة في مدينة الإسكندرية المصرية. في هذه المدينة تتقاطع الطرق التجارية العربية بالطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرىٰ (انظربورتر Porter ٩٣). واستناداً إلىٰ محمد حميد الله (١٩٠٨-٢٠٠٢م)، كان النَّبيّ ﷺ كثير السفر علىٰ الطريق المحاذية للخليج العربي- الفارسي، وقد يكون وصل حتىٰ إلىٰ الحبشة (انظر كتاب السلوك الإسلامي Muslim Conduct صXi). وقد روىٰ كل من ثيوفانيسTheophanes (القرن التاسع الميلادي) وجورج هامارتولوس George Hamartolus (بداية القرن العاشر الميلادي) بأن محمداً ﷺ قام برحلات تجارية إلىٰ مصر (نقلاً عن طومسن Thomson في مؤلفه محمد Muhammadص: ٨٣٣، ٨٣٦، ٨٣٧). وحسب بيير بيلون Pierre Belon (١٥١٧-١٥٦٤م) فإن محمداً ﷺ قد قام بعدة رحلات إلىٰ فارس ومصر وسوريا بصحبة زوجته خديجة (ص٣٨٠). وكما يشير إلىٰ ذلك حميد الله:

> "ثم نراه فيما بعد في سوق هباشة باليمن، وعلىٰ الأقل مرة واحدة في بلاد قيس (البحرين وعمان)، كما يشير إلىٰ ذلك ابن حنبل. وهناك أكثر من دليل علىٰ أن الأمر يتعلق هنا بالسوق الكبرىٰ بداباDaba (بعمان)، حيث كان حسب ابن الكلبي (انظر ابن حبيب في كتابه المحبّر) يجتمع تجار الصين والهند والسند (الهند وباكستان)، وفارس، ومن الشرق والغرب، يأتون إليها كل سنة براً وبحراً. وهناك إشارة إلىٰ وجود شريك تجاري لمُحَمَّد ﷺ بمكة.

ويقول هٰذا الشريك واسمه سائب Sa'ib: "كنا نتناوب [علىٰ قيادة القافلة]، فإذا كان محمد هو من يقودها فإنه كان لا يدخل بيته عند عودته إلىٰ مكة حتىٰ يصفي الحساب معي، وإذا كنت أنا من يقودها كان يسألني عن حالي ولا يقول شيئًا عن رأس ماله المودع عندي" (انظر المقدمة ص٥).

إن هٰذا الشريك التجاري لمُحَمَّد ﷺ قد يكون الشخص الذي يملك أكبر قدر ممكن من المعلومات حول أسفاره الأولىٰ. وكان اسمه الكامل السائب بن أبي السائب بن عبيد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ويروي ابن هشام قائلاً: "هناك حديث يقول إن النَّبيّ ﷺ قال: إن السائب نعم الشريك ولم يكن أبداً غضوباً ولا متعنتاً" (انظر ابن اسحق ٧٤٧، م٥٢٠). واستناداً إلىٰ معلومات بحوزة ابن هشام، فإن السائب "أصبح من خيرة المسلمين" (ابن اسحق ٧٤٧، م٥٢٠). ويروي ابن عباس "أن السائب ابن أبي السائب كان قرشياً وبايع رسول الله ﷺ، وأن النَّبيّ ﷺ أعطىٰ السائب قسمة من أنفال غزوة حنين" (ابن اسحق ٧٤٧، ن٥٢٠). غير أن ابن اسحق يزعم أن السائب كان من بين المشركين الذين قُتلوا في غزوة بدر (٣٣٨).

والواضح من كل هٰذا أن النَّبيّ ﷺ كان كثير الأسفار، ولذلك فإن ادعاء سيد مجتبىٰ موساوي لاري (١٩٢٥-٢٠١٣م) بأن محمداً ﷺ لم يغادر الجزيرة العربية إلا في مناسبتين اثنتين قبل بعثته (١٢)، هو ادعاء خاطئ لا شك في ذلك. واعتباراً بأن محمداً ﷺ كان تاجراً وقائداً للقوافل في طريق البخور فيما بين جزيرة العرب والشام (فرانك براونستون، ١٩٠) لمدة تزيد عن العقدين وطوال خمس عشرة سنة في خدمة تجارة زوجته خديجة، فإنه من المستحيل منطقياً أن يكون قد قام برحلتين اثنتين فقط، ولو كان هٰذا صحيحاً لما أصبحت خديجة امرأة ثرية وناجحة في تجارتها، كما يتم وصفها في العادة. إن هذه الأفكار تنبع في الغالب من كون مُحَمَّد ﷺ عادة ما كان يوصف بأنه رجل أمي لم يكن له أي احتكاك (أو له احتكاك قليل) بالنصارىٰ. وتنبع هذه الأفكار أيضاً من الخوف الناتج علىٰ الأرجح من رد فعل مبالغ فيه تجاه أفكار بعض المستشرقين مفادها أن محمداً ﷺ يمكن أن يكون قد تأثر بشكل كبير بالتراث اليهودي المسيحي. وبدليل القرآن الكريم والسنة، فإن النَّبيّ ﷺ كان علىٰ اطلاع تام

بالمحيط الذي كان يشتغل فيه؛ فقد كان قادراً علىٰ التعرف علىٰ جميع القادة السياسيين والدينيين سواء داخل الجزيرة العربية، أو في بيزنطة، أو في مصر، أو فارس. وكان أيضاً مطلعاً وواعياً بالصراعات اللاهوتية التي كانت تعصف وتفرق بين أهل الملة النصرانية.

وخارج عناصر مثيرة ينص عليها القرآن الكريم والسنة، فإن الرواية التاريخية تبقىٰ فارغة فيما يتعلق بالفترة الفاصلة ما بين زواج مُحَمَّد ﷺ ونزول الوحي عليه بجبل النور. خلال هٰذا العقد المظلم بالذات، يُذكر أن محمداً ﷺ ربط الاتصال بطائفة نصرانية أخرىٰ، ألا وهي طائفة جماعة رهبان سيناء. وكما يعترف بذلك عزيز سريال عطية (١٨٩٨-١٩٨٨م): "إنه يقال إن محمداً ﷺ زار الدَّيْر خلال تجواله المبكر (xviii)". واستناداً إلىٰ رأي الرهبان وبدو جبال سيناء، "فإن محمداً ﷺ سبق له أن زار الدَّيْر قبل نزول الوحي عليه في أحد أسفاره التجارية" (هوبز ١٥٩). فهم يصفون القدوم الميمون لرجل سيكون هو آخر مرسَل يبعثه الله تعالىٰ بالعبارات التالية:

> "إنه وهو يستريح بالجمال علىٰ جبل منيجة الموجود علىٰ رأس وادي الدَّيْر، شوهد نسر ينشر جناحيه فوق رأسه، والرهبان واقفون مشدوهين لما رأوه من بشارة وفأل حسن لما كان ينتظر[الرجل] من أمر جلل؛ استقبلوه في ديرهم [وأكرموا وفادته]، وجزاء لهم علىٰ كرمهم، وبما أن النَّبيّ ﷺ كان لا يعرف الكتابة، فقد بصم بكفه المغموسة في الحبر علىٰ رق غزال كتوقيع علىٰ عهد حماية، لا يزال موجوداً بأرشيف الدَّيْر" (٣٤٤).

وكما يفسر ذلك أحد الرهبان لجوزيف ج. هوبز: "استُضيف محمد وأصحابه داخل الدَّيْر وأكرمت وفادتهم علىٰ ما كان عليه الأمر آنذاك. ومن أجل ذلك تعهد مُحَمَّد ﷺ بتأمين وحماية هٰذا المكان، وهٰذا من الأسباب التي أدت إلىٰ امتداد الدَّيْر في الزمان وتعميره طول هذه المدة" (١٥٩). والظاهر أن محمداً ﷺ تأثر تأثراً بالغاً بكرم الرهبان الذين أعانوه في أيام عصيبة إلىٰ درجة أنه "كافأهم فيما بعد بكتابة عهد لهم تُحفظ وتُصان بمقتضاه أرواحهم وأموالهم تحت الحكم الإسلامي" (عطية xviii).

وللوهلة الأولىٰ، يبدو غريباً جداً وجود قافلة تجارية عربية تمر بالقرب من جبل سيناء، ذلك لأن القوافل القادمة من مكة كانت تمر عبر المدينة المنورة، ثم بمدائن صالح، ثم بتبوك، ومنها تصعد إلىٰ سيناء عبر العقبة في طريقها إلىٰ الإسكندرية. وبما أن جنوب جبل سيناء هي أرض وعرة، فقد كان علىٰ القوافل أن تعبر من داخل وسط شبه الجزيرة العربية. فلماذا إذن كان مُحَمَّد ﷺ يحاول أن يمر بالطريق الساحلي؟ لقد كان هناك بالفعل طريق يربط أيلة أو العقبة في الجهة الشرقية الساحلية من سيناء ويمتد علىٰ طول الساحل الغربي. فبمحاذاة نويبـة، كان هناك طريق داخلي في اتجاه دير القديسة كاثرين، ماراً بفيران ويصل إلىٰ خليج السويس. فإذا كانت القوافل تعبر سيناء عبر توقف لها بنخلة، فلأن ذلك كان أقصر مسافة بين نقطتين، وإذا كان المقصد المنتهىٰ هو الإسكندرية، فإن التوجه جنوبـاً وسط سيناء يجعل المسافة أطول من الضعف، ما عدا إذا كان المقصد هو جبل سيناء.

علىٰ الرغم من أن جماعة رهبان جبل سيناء كانت قليلة العدد، هل يكون الحافز التجاري لزيارتهم هو الحافز الأهم؟ فبعد كل شيء، واستناداً إلىٰ غريفن أفاغارت (المتوفىٰ حوالي سنة ١٥٥٧م)، فإن المسافة بين مكة وجبل سيناء هو مسيرة أربعة عشر يومـاً علىٰ ظهر الناقة (٢٠٣). لكن هٰذا التقدير تعوزه الدقة إذ أن السفر سيكون أطول من هٰذا بكثير. فبينما يقدر بأن يكون سكان دير القديسة كاثرين قليلي العدد مقارنة بمدن مثل الإسكندرية ودمشق، فإن ذلك العدد كان أكبر مما يتخيل. فحسب جوهن لويس بوركاهرت، (١٧٨٤-١٨١٧م) كان هناك ما بين ستة آلاف إلىٰ سبعة آلاف راهب موزعين علىٰ شبه جزيرة سيناء عند الفتح الإسلامي (٥٤٦). وإذن فلقد كان سوق الرهبان سوقـاً ذات حجم مهم. والسؤال هو الآتي: ما الذي يمكن للرهبان أن يبيعوه للتجار العرب مقابل ما يحتاجونه من مؤن؟ فإذا كان الرهبان يعيشون مكتفين ذاتيـاً نسبيـاً، فإنهم سيكونون محتاجين فقط إلىٰ التوابل والبخور والملابس. فمن الممكن -ولو أن الأمر قليل الاحتمال- أن يكون مُحَمَّد ﷺ قد ضل الطريق التجارية الرئيسة لأسباب غير معروفة لا نجد لها تفسيراً. أما الاحتمال الأصوب فهو أن النَّبيّ ﷺ كان يزاوج بين أمور الدين وأغراض التجارة. لكن الجواب الأصوب

علىٰ كل هذه الأسئلة هو الذي يكمن في إحدىٰ الروايات التي تنص علىٰ اتصال سابق لمُحَمَّد ﷺ بالرهبان.

إن الرواية الحالية المتعلقة بزيارة مُحَمَّد ﷺ لدير القديسة كاثرين وهي الرواية التي يتقاسمها رهبان القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين، تختلف في بعض تفاصيلها عن إحدىٰ الروايات السابقة المعروفة. إن بلتزار دو مونكونيس (١٦١١–١٦٦٥م) الذي سافر إلىٰ جبل سيناء في سنة ١٦٤٦/ ١٦٤٧م قد رجع منه ومعه الرواية التالية المتعلقة باتصال مُحَمَّد ﷺ بالدَّيْر:

> "بما أن محمداً كانت تربطه صداقة بأحد الرهبان فقد أعطاه عهداً وكتب له عدداً من الامتيازات والإعفاءات الضريبية من كل نوع، كما يستفيد وفقه العرب الموجودون في خدمتهم بتلك الامتيازات. ومقابل هٰذا يتعين علىٰ الرهبان أن يطعموا كل من يفد عليهم من العرب... وقد وقع مُحَمَّد ﷺ بكفه المغموسة في الحبر علىٰ الورق. وقد أخذ وثيقة العهد منهم سليم إمبراطور (كذا) الأتراك، والذي ضمها إلىٰ خزينته بعدما ترك [للرهبان] نسخة منها إضافة إلىٰ [شهادة] تصديق وتأكيد للامتيازات المشار إليها..." (٢٢٨–٢٢٩)

وخلال أسفار جان دوتيفنوت Jean de Thévenot (١٦٣٣–١٦٦٧) للأراضي المقدسة فيما بين ١٦٥٥ و١٦٦٣ م –والتي دوّن أحداثها في كتابه ***حكاية أسفار للشام*** Relation d'un voyage fait au Levant – الرواية التالية المأخوذة عن الرهبان اليونانيين لتلك الفترة:"في يوم من الأيام، –حسب الرهبان اليونانيين– جاءهم محمد ببعض المؤن علىٰ ظهر الجمال، وكان هو قائد قوافلهم التجارية. وبما أنه كان قد نال منه التعب، فقد نام بجانب باب الدَّيْر. وأثناء نومه ظهر نسر بدأ يطوف فوق رأسه لفترة طويلة. ولما رأىٰ البواب ذلك، هرع إلىٰ رئيس الدَّيْر الذي جاء في الحين ورأىٰ نفس الشيء، مما جعله يفكر في الأمر ملياً. وعندما استيقظ محمد طُلب منه إن كان يريد أن يسدي بعض الخير، لما توسمه فيه من كونه سيداً ذا حظوة ومهابة. أجابه محمد بأنه ليس من ذلك النوع من الرجال، وبالتالي فإنه لا يملك أي قدرة علىٰ

مساعدة الآخرين. ولما رأىٰ محمد أن الرجل لا زال يلح علىٰ ما رآه فيه أول الأمر فقد أكد له أنه لو كان في استطاعته ذلك لما تردد في مساعدتهم مساعدة كبيرة بما أنهم أكرموه وأطعموه. لكن رئيس الدَّيْر أراد من محمد أن يعطيه وعداً مكتوباً. وبما أن محمداً كان لا يعرف الكتابة، فقد أمر الرئيس بإحضار محبرة، فغمس محمد كفه في الحبر، ووضعها علىٰ صفحة ورقة بيضاء حيث بقيت صورة الكف مرسومة عليها، فأعطاها للرهبان كضمانة علىٰ وعده. وبعد مدة وجيزة سما محمد إلىٰ الأعالي التي تنبأ بها له النسر، فتذكر وعده الذي قطعه علىٰ نفسه، فقام بحماية الدَّيْر والحفاظ عليه، بالإضافة إلىٰ جميع أراضي الرهبان شريطة أن يقوموا بإطعام العرب المجاورين لهم" (انظر كتاب حكاية أسفار للشام ص ص: ٣٢٢-٣٢٣ وكتاب أسفار ص ص: ٣٥٦-٣٥٧).

وإذا كان دير القديسة كاثرين لا يقع في ممر أي من الطرق التجارية الرئيسة، فإنه يبقىٰ مع ذلك قريباً من أيلة، وهي نقطة تقاطع مع طريق الحرير وطريق التوابل وطريق البخور (انظر فرانك، وبراونستون: المقالة الأولىٰ والأخيرة في الكتاب) وذلك في عهد الإمبراطورية الرومانية.

فإذا كانت أيلة الموجودة علىٰ الجانب الأيسر من سيناء قد ضاع منها ذلك الدور خلال الحكم الإسلامي، فإن الجهة الغربية لشبه الجزيرة قد استمرت في لعب دور أساس في تأمين طريق التوابل. وبطبيعة الحال، كانت هناك طرق أخرىٰ أقل أهمية كانت تزود السكان بالمؤن والتي كانت بعيدة عن الطرق والمسالك الرئيسة. وفي فترة فتوته، يحتمل أن يكون مُحَمَّد ﷺ قد تم التعاقد معه من قبل الرهبان ليشتغل قائداً لقوافلهم. وبالفعل هٰذا ما نجده بالضبط في كتاب Relation historique d'un voyage fait au Mont Sinai et à Jerusalem والذي تم نشره سنة ١٧٠٤م من قبل أنطوان موريسون شانواندي بار لو دوك Antoine Morison Chanoine de Bar le Duc والذي كان فارساً للضريح المقدس. إنه يقول ما يلي في معرض حديثه عن دير القديسة كاثرين:

"إن محمداً، الدجال مدعي النبوة، العربي من حيث قوميته، وذا

المولد الوضيع جداً قد أمضىٰ هناك بعض السنوات وكأنه كان يبحث عن ملاذ يؤمنه غائلة البؤس الناتج عن وضعيته الاجتماعية المتدنية فعُهد إليه برعاية الجمال والحيوانات الأخرىٰ التي كان الرهبان يستعملونها لمختلف أغراضهم. وبما أنه خلّص نفسه من الاستعباد، والرق، كما يفعل كل واحد كان في وضعه، فقد أبان عن تحول في مساره لكافة أهل الدَّيْر بفضل ما منحه من امتيازات معتبرة منحها لراهب كان يعزه بصفة خاصة، واعترافًا لأهل الدَّيْر [عمومـًا] لما أسبغوه عليه من كرم وسخاء خلال إقامته بين ظهرانيهم. فبالإضافة إلىٰ الهدايا الممنوحة للدير، فقد أعطاه امتيازات كبرىٰ تدوم للأبد، ومن بينها إعفاء أهله من أداء أي نوع من الضرائب، كما أعطاه سلطة مطلقة علىٰ الأفراد من العرب الذين يخدمون الرهبان. لكنه اشترط أن يعطي الدَّيْر مساعدة خيرية لا تزال قائمة إلىٰ اليوم (ولاحظتها شخصيـًا) للفقراء العرب الذين يفدون بأعداد كبيرة إلىٰ الدَّيْر ولا يحرم هٰؤلاء من الخبز أبداً. وقد تم تأكيد هذه الشروط بواسطة رسائل براءة لم يوقعها محمد (لكونه لا يعرف القراءة)، بل بصمها بكفه المغموسة في الحبر. وهذه كانت طريقته في التوقيع علىٰ الوثائق المهمة، وقد عمل سليم الأول المعروف بإمبراطور الأتراك علىٰ تأكيد تلك الامتيازات الممنوحة، فأخذ هذه النسخة المبصومة، وأعطىٰ رهبان سيناء نسخة موقعة مكانها ووضع النسخة الأصلية بخزينة السراي بالقسطنطينية، حيث تم الاحتفاظ بها ككنز ثمين" (١٠٥-١٠٦).

في كتابه المعنون ***بتاريخ نشوء واضمحلال الإمبراطورية العثمانية***، والذي كتب في الأصل باللغة اللاتينية، يشارك دميتريوس كانتمير Demetrius Cantemir (١٦٧٣-١٧٢٣م) (وهو أمير مولدافيا) من سبقه رأيـًا مماثلاً يقول فيه "إنه عثر عليه من قبل راهب بصفة حصرية في عهد أسطوري مصدره سيناء" (١٦٨). وهذه الرواية التي يبدو أنها أقدم رواية علىٰ الإطلاق (ويبدو أن أغلب الروايات الشفهية قد بنيت عليها) تقول ما يلي:

"يقولون ولو أن قولهم هو ذو طابع أسطوري-بما أن محمداً كان ذا

أصل وضيع- فقد اشتغل في صباه بقيادة الجمال المأجورة من مكان لآخر. وخلال تلك الأسفار، وهو يقترب من دير جبل سيناء، رأىٰ رئيس الدَّيْر غمامة تحوم فوق رأس محمد وهو نائم في العراء، وكأنها كانت تحجب عنه أشعة الشمس. ورئيس الدَّيْر، (وهو يتنبأ بأن سيكون للفتىٰ شأن أكبر مما يبدو من مظهره في تلك الآونة، ذلك لأن فألا متميزاً مثل ذلك الذي رأىٰ لا يمكن أن يكون إلا لسيد تلك المناطق)، دنا منه وسلم عليه بكل احترام، واستضافه في غرفته وتركه يستريح فيها في هدوء. وعندما اطمأن أن محمداً كسب عطفه بفضل ما أغدق عليه من الاحترام والتأدب، سأل الراهب (إن كتب لمحمد أن يصير سيد ذلك البلد)، فماذا عساه أن يسدي من خير للرهبان؟ فقال محمد إنه سيعفيهم كرهبان (أي كأشخاص يسيحون في الأرض) من كل ضريبة، وسوف يوقرهم ويحترمهم. ثم أعطاهم هٰذا العهد في نص مكتوب باللغة العربية، وصادق عليه بوضع كف يده المغموسة في الحبر علىٰ الورقة، في غياب خاتم يختمه به. وبعد مرور فترة طويلة، عندما كان السلطان العثماني سليم بمصر، قصده رئيس دير سيناء بكل خضوع ومعه وثيقة محمد الأصلية (أو الملفقة)، فاشتراها السلطان من الرهبان بمبلغ يساوي أربعة آلاف قطعة من الذهب، إلىٰ جانب تصريح ينص علىٰ أنهم يعفون من أداء أي ضريبة، وأكدت جلالته الشريفة هٰذا الامتياز والامتيازات الأخرىٰ" (١٦٨).

إن كانت هذه الرواية فعلاً هي أقدم رواية عن اتصال النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ برهبان جبل سيناء، وإذا كانت فعلاً رواية مبنية علىٰ معاهدة مكتوبة كتبها لراهب من رهبان سيناء، فإنها علىٰ خلاف الرواية الشفوية، تشتمل علىٰ تفاصيل بالغة الأهمية. فهي في البدء تقول إن ما كان يحوم فوق رأس مُحَمَّد ﷺ هو غمامة وليس نسراً. وهذه هي الحادثة نفسها التي تمت ملاحظتها عندما كان مُحَمَّد ﷺ مسافراً إلىٰ سوريا، وكان عائداً منها أيام صباه. وهي الرواية أيضاً التي تفسر لماذا استعمل مُحَمَّد ﷺ كفه لبصم الوثيقة، لا لكونه كان يجهل الكتابة، بل لأنه لم يكن لديه آنذاك خاتم يختم به الوثيقة. إن السبة الموجهة للنبي ﷺ من كونه كان لا يعرف الكتابة والتي استعملها

كثير من الكتاب الإفرنج الرحالة للتندر عليه، هي عبارة عن تطور لما تلا من الأحداث التي ظهرت فيما بعد. ففي الوقت الذي يمكن أن يُعزىٰ ذلك إلىٰ نية مبيتة للإساءة للنبي ﷺ من جانب بعض المسيحيين، فإنه من الممكن أيضاً أن يكون مردها وراءه اعتقاد أصبح راسخاً عند المسلمين السنة من أن النَّبيّ ﷺ كان أمياً لا يعرف مبادئ القراءة والكتابة، وأصبح ذلك الاعتقاد سارياً قروناً بعد وفاته ﷺ. وتوضح هذه الرواية أيضاً التفاصيل التي أحاطت بظروف نقل وثيقة العهد النبوي من سيناء إلىٰ إسطنبول. فبدل أن يتم حجز الوثيقة، قام السلطان سليم الأول بشرائها بثمن باهظ بلغ أربعة آلاف قطعة ذهبية. وإذن فإن الخليفة العثماني، وبتوجيه من الصدر الأعظم وبفتوىٰ من مفتي الديار الإسلامية كلها، لا يمكن أن يكون قد دفع ذلك المبلغ الباهظ مقابل وثيقة مزورة.

حينما زار ج. ن. فزاكيرلي J.N. Fazakerley دير القديسة كاثرين سنة ١٨١١، أطلعه الرهبان بافتخار علىٰ 'الأختنام achtiname المحمدي'. ويذكر هٰذا الكاتب ذلك في معرض وصفه لـ" رحلته 'من القاهرة إلىٰ جبل سيناء" كما يلي:

> "لقد قدموا لنا ما كان يعتبر الفرمان firman الشهير لمحمد، والذي منحت بموجبه الكثير من الامتيازات، لا سيما لقساوسة هٰذا الدَّيْر. لكن هناك من يدفع بافتراض أن الوثيقة الأصلية قد أخذها السلطان سليم -فاتح مصر- الذي اعتبر أن للوثيقة قيمة وقدسية حيث لا يمكن التفريط فيها وتركها بين أيدي المسيحيين. فالوثيقة الأصلية كانت موقعة من لدن علي [بن أبي طالب] وأبي بكر إلىٰ جانب عدد من صحابة محمد، وبصمها النَّبيّ بخاتمه. وكيفما كان الأمر فقد ترك [السلطان] سليم فرماناً يثبت نفس الامتيازات الممنوحة من قبل" (٣٧٥-٣٧٨).

وأما السير فريديريك هينيكر Frederick Hennicker (١٧٩٣-١٨٢٥م)، الذي سافر إلىٰ سيناء سنة ١٨٢٠/ ١٨٢١م، فقد تحدث هو أيضاً عن [وثيقة] العهد النبوي الذي كتبه مُحَمَّد ﷺ لرهبان سيناء، لكن بفارق واحد وهو أنه لم يُسمح له برؤيته:

"من بين التحف التي استأثرت بالحديث كثيراً كانت بصمة محمد علىٰ العهد النبوي الذي يتمتع الدَّيْر بمقتضاه بالكثير من الحصانات والإعفاءات، وطلبتُ رؤيته لكن المسؤول قال لي إنه موجود الآن بالقسطنطينية، لأن السلطان الذي عبر عن رغبته في رؤيته احتفظ به. وأما قصته فيرويها كما يلي: "حدث أن محمداً وهو لا يزال شاباً غير معروف، قد عسكر في محيط هٰذا المكان، ولوحظ نسر يحوم فوقه، فتنبأ أحد الرهبان بعظمة شأنه في المستقبل. فاغتبط محمد بالحكاية الغجرية (gypsy tale) فأعطىٰ وعوداً سخية للدير، وتم إحضار ورقة وضع عليها محمد كفه المغموسة في الحبر لأنه كان لا يعرف الكتابة، وبعد مرور خمسة عشر عامًا علىٰ ذلك الحدث تحققت البشارة، فهرع العراف إلىٰ مكة فطالب بتطبيق ما جاء في الوثيقة. صدق محمد وعده فأقسم [بمقتضىٰ الوثيقة المكتوبة] أن الدَّيْر سيبقىٰ إلىٰ الأبد مكانًا محرمًا، وان البلدة المحيطة به وعلىٰ مد البصر ستبقىٰ في ملكية الدَّيْر وأن كل من يسكن فوق البلدة هم أقنان في خدمة الدَّيْر" (٢٣٣-٢٣٤).

وحينما زار المهندس المعماري البريطاني فرانسيس أروندايل Francis Arundale دير القديسة كاثرين عام ١٨٣١م لم يكن العهد النبوي قد وضع رهن إشارة الزوار لرؤيته بعد، بل كان لا يزال محتفظًا به في الأرشيف، كما يشرح المهندس ذلك بنفسه:

"من بين المخطوطات التي حظيت بالاهتمام أكثر من غيرها والتي كانت محفوظة بالخزانة كانت هناك واحدة هي محط اهتمام خاص من قبل الآباء الرهبان، وتتجلىٰ في نسخة من أمر صادر عن النَّبيّ يهم جميع المسيحيين. أما النسخة الأصلية المكتوبة بخط كوفي علىٰ رق غزال والذي لا يزال يحمل آثار بصمات أصابع النَّبيّ فهو الآن في ملكية السلطان، ولو أنه كان في السابق محفوظًا في هٰذا الدَّيْر. ففي سنة ١٥١٧م علىٰ إثر فتح مصر، طلبه السلطان سليم وأودع نسخة منه مكتوبة علىٰ رق غزال، وقام شخصيًا بالتصديق عليه ووضعه في أرشيف الدَّيْر" (٢٨).

إن التفصيلْين الذين يستأثران بالاهتمام هنا هما أولاً أن العهد النبوي كتب علىٰ رق غزال، وثانياً أنه كتب بخط كوفي. فالمادة المستعملة توافق تماماً ما كان مستعملاً أيام النَّبيّ ﷺ، والخط المستعمل يوافق الميول الفنية الشخصية للإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه).

فإذا صحت الأحداث المروية من قبل رهبان جبل سيناء، والتي سجلها ودوّنها عدد كبير من الحجاج علىٰ مدىٰ الألفية الماضية، فإن ذلك من شأنه أن ينير فهمنا لفترة تاريخية مظلمة في حياة مُحَمَّد ﷺ. قد يرفض الكثير من المسلمين بالطبع هذه الروايات، وربما يكونون علىٰ حق في ذلك علىٰ أساس أنه رواها نصارىٰ، علماً بأن لهٰؤلاء نظرة سلبية تجاه نبي الإسلام. لكن قد ينبع هٰذا من تقدير متسرع أو قصير النظر. وللتذكير فإن القليل جداً -أو قُلْ- لا شيء هو معروف عن حياة مُحَمَّد ﷺ فيما بين سفره مع عمه أبي طالب إلىٰ سوريا سنة ٥٨٢م، إلىٰ حدود زواجه بخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في [نفس السنة] أي٥٩٥ م. ويدعي السيد صفدر حسين (١٩٣٢-١٩٨٩م) عن خطإ أن محمداً ﷺ أمضىٰ السنوات الموالية في رغد من العيش في دار أبي طالب حيث إنه كان يشارك في القيام بخدمة الحجيج، كما كان يشارك في الإشراف علىٰ الهدايا التي كان يتولىٰ أمرها سدنة بيت الله الحرام [بمكة]. بعبارة أخرىٰ، يدعي هٰذا الكاتب بأن محمداً ﷺ كان منغمساً في أعمال تعبدية شِرْكية خلال سنوات مراهقته. كما يدعي عن باطل أيضاً بأن محمداً ﷺ قد شارك في حرب الفجار سنة ٥٨٥م؛ وهي سبة لشخص مُحَمَّد ﷺ الذي كان معصوماً من اقتراف الذنوب والخطايا. إن المصادر المكتوبة ساكتة عن حياة مُحَمَّد ﷺ لمدة عقد آخر من الزمان حيث يُفترض أنه انخرط في "حلف الفضول" سنة ٥٩٥م. وهٰذا الحلف هو رابطة كانت تأخذ علىٰ عاتقها الدفاع عن الأشخاص المضطهدين (٣٣-٣٤).

وهكذا فإن هناك فترة تبلغ عشر سنوات -ابتداء من بلوغ النَّبيّ ﷺ سن الخامسة عشر إلىٰ بلوغه سن الخامسة والعشرين- لا يعرف عنها أي شيء [تقريباً]. وهناك أيضاً فترة أخرىٰ تبلغ مدتها خمس عشرة سنة، تبدأ من تاريخ زواجه -وهو ابن الخامسة والعشرين- إلىٰ تاريخ إعلان نبوته عندما بلغ سن الأربعين، حيث لا يعرف

عنها الكثير أيضـاً. وإذن فإن هاتين الفترتين تمثلان خمساً وعشرين سنة من الصمت. أين كان مُحَمَّد ﷺ إذن؟ وماذا كان يفعل يا ترىٰ؟ فإذا كانت المصادر العربية قد ركنت إلىٰ الصمت بخصوص هذه الفترة، فمرد ذلك إلىٰ كونه لم يكن مقيماً بجزيرة العرب بكل بساطة. وإنه لمن اللافت حقاً أنه عندما تختفي أخبار مُحَمَّد ﷺ بالحجاز، فإن أخباره تطفو وتبرز بسيناء. وبالتالي فإنه من المستبعد جداً أن يكون رهبان جبل سيناء قد اختلقوا قصة إقامة مُحَمَّد ﷺ بدير القديسة كاثرين بسيناء. وبما أن سيرة مُحَمَّد ﷺ هي الأكثر جلباً للاهتمام في أدق التفاصيل من أي سيرة تتعلق بشخصية تاريخية أخرىٰ، سواء في الماضي أو في الحاضر، فإن حظوظ اختلاق إمكانية عيشه في مكان معين وفي فترة معينة هي حظوظ ضئيلة. إن أية رواية تعارض سيرة مُحَمَّد ﷺ كان لا بد من أن يتم الكشف عنها علىٰ أنها من باب الإفك والبهتان. وبالتالي فإما أن يكون رهبان جبل سيناء خبراء في أدب السيرة، وجدّ محظوظين، وإما أن يكونوا أمناء وصادقين. أما الأدلة فإنها تتجه نحو الأمر الثاني. وكما تتفق كل المراجع الإسلامية التي تتناول السيرة النبوية، فإن هناك قطعة من اللغز تبقىٰ ناقصة. هناك فجوة فاغرة تمتد علىٰ مدىٰ خمسة وعشرين سنة. ويبدو أن رهبان سيناء هم الذين يملكون بلا شك تلك القطعة المفقودة. يمكن علىٰ أي حال الاعتراف بأن أي شخص بمقدوره اختلاق قصة ما، لكن لا يمكن لأي كان أن يجعلها قصة منسجمة ومقبولة. إن قطعة اللغز التي أتىٰ بها رهبان دير القديسة كاثرين هي قطعة تنسجم وتتوافق تماماً مع بداية حياة مُحَمَّد ﷺ.

للنقاد المسلمين أن يرحبوا ويمتدحوا إعادة تركيب سيرة مُحَمَّد ﷺ كما تمت هنا بصورة إبداعية، لكنهم سيعترضون عليها لا محالة بحكم أنها لا تسندها المصادر الإسلامية. لكن هل يصح هٰذا فعلاً؟ قد لا توجد إشارات أو أدلة تخص هذه الفترة في أدب السيرة المتوافرة لدينا؛ ثم هل يوجد هناك فعلاً مثل هذه الإشارات؟ فالرسول ﷺ كان يقول: "ليس هناك من نبي إلا واشتغل برعي الغنم" (ابن اسحق ٧٢). فسأله أصحابه هل هو منهم؟ فأجاب أن نعم (٧٢). لكن متىٰ وأين كان مُحَمَّد ﷺ راعياً؟ هل كان راعياً في مكة؟ فإن كان كذلك فعند من كان يشتغل راعياً؟ هل كان ذلك عندما كان

يعيش وسط بني سعد بن بكر أيام كان طفلاً؟ هل كانت لهذه القبيلة امتدادات في جبل سيناء؟ أم كان ذلك في سيناء حيث كان مُحَمَّد ﷺ مكلفاً برعي القطعان التي كانت في ملكية دير القديسة كاثرين؟ في مقالة للكاتب تشارلز آبتن Charles Upton تحت عنوان 'الرعاة المعمدانيون الأسينيون: رد علىٰ كتاب ***حياة المسيح والوحي التوراتي*** لصاحبته آن كاثرين إمريتش' Anne Catherine Emmerich يسلط آبتن الأضواء علىٰ الرمزية المتعلقة بمفهوم الراعي ويشرح ذلك علىٰ النحو التالي:

"إن أولئك الرعاة الذين يرعون قطعانهم ليلاً" المنصوص عليهم في إصحاح لوقا (٨:٢) كانوا بلا شك قادة لمدارس روحانية فئوية سرية، حيث إن الليل كان "رمزاً للسرية الخارجية والمسائل الخفية. إن هذه الجماعات السرية التي تعيش داخل دائرة ضيقة يمكن أن تكون قد اتخذت من رعاية الغنم مصدر رزق لها، كما كان يسمح لها بحمل رسائل وجمع معلومات ونشر تعاليمها علىٰ نطاق واسع، ذلك أن الرعاة –علىٰ عكس سكان الحواضر– هم أكثر حركة وبوسعهم أن يتنقلوا من مكان لآخر دون إثارة الشكوك حولهم" (١٩٩).

وبرأي آبتن فإن عيسىٰ "الراعي الطيب" و "حمل الإله"، بالإضافة إلىٰ يوحنا المعمدان، من المحتمل أن يكونا "خريجي" المذهب الناصري؛ (Nazirite order) وهو مذهب يبدو أنه كان مرتبطاً بالرعي. فالتلمود ينص علىٰ "راع ناصري"، وعلىٰ النَّبيّ عموس، الذي كان هو نفسه راعياً كان يشتكي سوء حال المذهب. إن هٰذا من شأنه أن يوحي للبعض بأن محمداً ﷺ كان قد تعرف علىٰ المُتَصَوّفة المسيحية اليهودية خلال تجواله كراع أيام شبابه.

فإذا كان قد ورد أن النَّبيّ ﷺ قد أقام بكهف موسىٰ الموجود بقمة جبل سيناء، فإن ذلك يكون قد حصل خلال فترة اشتغاله بالرعي. فسواء أكان ذلك عن قصد منه أو عن غير قصد، فإنه بذلك كان يستعيد حركات النَّبيّ موسىٰ، إذ أن ارتباط مُحَمَّد ﷺ بموسىٰ لا يمكن إلا أن يكون ارتباطاً به متيناً. فهو حين يعترف بأن عيسىٰ بن مريم هو المسيح لكن [في نفس الوقت] ينفي عنه أن يكون ابن الله، فإنه ﷺ كان يلح أيضاً

علىٰ أن شريعة موسىٰ تبقىٰ ملزمة للمسلمين، باستثناء بعض التغييرات الطفيفة التي جاء بها الوحي [الإسلامي] الأخير. فبعد كل هٰذا وذاك، فلقد أوصىٰ مُحَمَّد ﷺ بضرورة اتباع شريعة الله التي فرضها علىٰ بني إسرائيل في عهده الذي كتبه لنصارىٰ نجران. وهناك حقيقة أخرىٰ لافتة للأنظار تتعلق بصورة مريم العذراء وبابنها الطفل عيسىٰ، محاطيْن بالملائكة، والتي وجدها النَّبيّ ﷺ معلقة بالكعبة، وقام بحمايتها بيديه من التدمير خلال فتح مكة. (انظر فلود Flood ٢٤٥). وهذه الصورة الموجودة بالكعبة في القرن السابع الميلادي هي نفس الصورة التي وجدت أيضاً بالدَّيْر المقدس للقديسة كاثرين بسيناء. وهذه الأيقونة، المعروفة باسم "العذراء والطفل مع القديسين والملائكة"، تظهر فيها أيضاً يدُ الله [كذا]، وتعود إلىٰ الفترة ما بين القرن السادس والسابع الميلاديين (طوماس Thomas ١٢٧، الرسم ٥٥). ويبدو أن النَّبيّ ﷺ قد رأىٰ الأيقونة المرسومة بالصباغة الممزوجة بالشمع علىٰ اللوح، تعلوها يد الله التي تحمي العائلة المقدسة، في دير جبل سيناء، وقام بإعادة تمثيل نفس الحادثة التي وقعت بالكعبة بحماية الصورة بيده. بهٰذا المعنىٰ فإن الأمر لا يتعلق حقيقة بيد مُحَمَّد ﷺ بل بيد الله التي حمت الرمز المقدس. وَمُحَمَّد ﷺ كنبي ورسول كان له تأثير عميق علىٰ العقيدة النصرانية. وإذ يجهل المسلمون والمسيحيون هذه الإمكانية، فإنه يبدو أن أول من شرع عقيدة المحجة البيضاء كان هو مُحَمَّد ﷺ نفسه، وهي حقيقة يقرها علماء اللاهوت الكاثوليك والبروتستانت علىٰ السواء (غراسي Grassi ٧٤). يؤكد البعض بأن النَّبيّ ﷺ قد أخذ تلك العقائد عن نصارىٰ المشرق، لكنهم يتجاهلون الحجج القوية التي تشير إلىٰ أن النصارىٰ هم الذين أخذوها عنه.

إن رسول الله ﷺ لم ينشئ خليطاً من المعتقدات والممارسات اليهودية والمسيحية إلىٰ جانب العناصر العربية الشركية. وفيما يخص المسلمين، فقد قام مُحَمَّد ﷺ بتطهير وتحسين وإتمام الملة التوحيدية المتوارثة من عهد آدم إلىٰ عهد إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ. ليست المسألة إذن مسألة اقتراض أو أخذ من الغير، بل هي مسألة انتماء وإحياء وتجديد.

لكن ماذا يقول القرآن عن إقامة مُحَمَّد ﷺ بسيناء؟ إنه بكيفية مدهشة يبدو أنه

يؤيدها. فاستناداً إلىٰ روايات رهبان جبل سيناء الممتدة علىٰ مدىٰ ألف سنة، والتي تم تدوينها من قبل حجاج أتوا من مختلف بقاع العالم علىٰ مدىٰ قرون متعاقبة من الزمن، فإن محمداً ﷺ كان يتيماً. لقد توفي والده، ثم توفيت والدته، ثم جده، وبقي وحيداً فقيراً في العالم. وكما يفسر ذلك رهبان جبل سيناء، فلقد التقوا بهٰذا الفتىٰ، وكانوا علىٰ يقين بأنه سيكون له شأن عظيم، ورأوا فيه بذرة قائد عظيم. وربما -نقول ربما- يكونون قد اعتقدوا بأنه سيكون النَّبيّ المنتظر الذي يتحدث عنه 'العهد القديم' و'العهد الجديد'، فاستضافوه ورعوه وآووه. ومصداقاً لما جاء في القرآن الكريم، يسأل الله تعالىٰ نبيه قائلاً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (٩٣: ٦-٨). إن هٰؤلاء النصارىٰ الذين كانوا معزولين عن بقية المسيحيين الرسميين كانوا علىٰ ما يبدو ينتظرون مجيء خاتم النبيين المخلّص الـ 'Parakletos' (الذي يعني المواسي أو المساعد)، والذي أنبأ به عيسىٰ وقال إنه سيأتي من بعده (انظر إصحاح يوحنا ١٦: ٧-١١)، والذي تم تأويله علىٰ أنه 'Perikletos' (أي 'محمد' أو 'محمود') واعتبروا الشخص المنتظر هو مُحَمَّد ﷺ، الذي يعني أحدُ ألقابه ('أحمد') 'صاحب الصفات الحميدة'. ومن الممكن أن يكونوا قد أوَّلوا 'السماء الجديدة' و'الأرض الجديدة'، اللتين وصفتا في كتاب القيامة علىٰ أنهما 'ذواتا حجم واحد وطول واحد وعرض واحد وعلو واحد'، بمثابة إشارة إلىٰ الكعبة أو الشكل المكعب، وفي كل هٰذا بشارة مقنعة بالإسلام. ومن المحتمل أن يكونوا قد اعتمدوا في ذلك علىٰ نصوص مقدسة قد ضاعت أو تم تدميرها والتخلص منها.

تشير المصادر السنية والمصادر الشيعية إلىٰ أن حياة مُحَمَّد ﷺ كانت في خطر منذ لحظة ولادته. كما تقول المصادر إن اليهود كانوا يتربصون به لقتله لو وجدوا الفرصة السانحة لذلك. لكن النصارىٰ -علىٰ عكس اليهود- قد اعترفوا بعظمة مستقبله ووعدوا بحمايته. وكما يروي ذلك ابن اسحق، فقد رأىٰ جماعة من النصارىٰ الأحباش محمداً ﷺ رفقة مرضعته حليمة فسألوها عنه بعد أن تفرسوا فيه ملياً. ثم قالوا لحليمة: "دعينا نأخذ هٰذا الصبي إلىٰ أهلنا وبلدنا لأنه سيكون له شأن عظيم؛ فنحن نعرف كل شيء عنه" (٧٣). أمن الممكن أن يكون أبو طالب قد جعل

أمر رعاية مُحَمَّد ﷺ بيد جماعة نصرانية بعيدة بغرض حمايته؟ تشير المصادر إلىٰ اقتراحات شبيهة بهذه تقدم بها نصارىٰ التقوا بمُحَمَّد ﷺ حينما كان في كنف عمه أبي طالب. هل كان النصارىٰ (أي العرب الإبراهيميون الموحدون واليهود والمسيحيون) -وكلمة نصارىٰ مأخوذة من الجذر 'ن- ص- ر' تعني المساعدة والمعاونة- وإذن هل كان أولئك الموحدون [منذورين] حسب [هٰذا] المعجم القرآني لحماية النَّبيّ القادم؟ الظاهر أن الأدلة تشير إلىٰ كون الأمر كذلك.

وبحسب رهبان دير القديسة كاثرين بجبل سيناء، فقد عاد مُحَمَّد ﷺ من سيناء إلىٰ مكة حيث أصبح غنيـاً. فهل كان ذلك نتيجة زواجه بخديجة؟ يبدو أن الله تعالىٰ قد أشار إلىٰ هٰذا الحدث حين قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (٩٣: ٨). ولم تكن مثل هذه الآيات القرآنية وحدها هي التي تعكس -علىٰ ما يبدو- هذه الأحداث في حياة مُحَمَّد ﷺ المبكرة. لنأخذ علىٰ سبيل المثال سورة التين التي تقول: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (٩٥: ١-٦).

إن هذه الآيات تربط طور سينين (أوسيناء، وهو جبل وحي) بالبلد الأمين الذي يوجد ضمنه جبل النور، وهو جبل وحي آخر. إن الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم لا يمكن أن يكون شخصـاً آخر غير النَّبيّ ﷺ، الإنسان الكامل. وهو الرجل الكامل الخَلْق والخُلُق. وإذ عانىٰ مُحَمَّد ﷺ الصعاب والمشاق وأصناف التحديات، حين تجول جيئة وذهابـاً في فيافي الصحاري العربية، مشتغلاً أحيانـاً راعيـاً، وأحيانـاً سائقـاً للقوافل، مثله في ذلك مثل النَّبيّ أيوب الذي اختبره الله تعالىٰ أقسىٰ درجات الاختبار، لم يتزعزع إيمانه أبداً. وبما أن قاتلي الأنبياء كانوا يرتقبون مجيء خاتم الأنبياء من جزيرة العرب، فإن حياة مُحَمَّد ﷺ كانت في خطر محدق منذ يوم ولادته. وتبعـاً لذلك يكون مُحَمَّد ﷺ قد وجد الحماية [في البداية] عند حليمة السعدية، وهي مرضعته العربية البدوية، ثم سيتولّىٰ حمايته فيما بعد جماعة معزولة من الرهبان تعيش بجبل سيناء. وعندما بلغ أشده وصار رجلاً وهو في كنفهم، أعادوه إلىٰ مكة حيث تزوج بخديجة الكبرىٰ، فتغير بذلك مجرىٰ حياته تغيراً كبيراً. إن الأجر غير الممنون لا

يمكن أن يكون أقل من الدرجة السَّنِية التي هي مقام النبوة.

ويشير القرآن أيضـاً إلىٰ جبل سيناء باستعمال اسمه القديم وهو 'جبل طور'، موحيـاً بذلك بمعرفة حميمة بالمنطقة. فالسورة ٥٢ من المصحف الكريم تسمىٰ فعلاً "الطور"، وهو لفظ مرادف لـ"السيناء" أو "سيناء". فالله تعالىٰ يذكر الجبل المقدس في قوله تعالىٰ مقسمـاً: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ (٥٢: ١). وبهٰذا المعنىٰ فإن معرفة النَّبيّ ﷺ بجبل سيناء لم تأت من الوحي الإلٰهي فقط، وإنما جاءت أيضـاً عن طريق التجربة الشخصية. هناك من يدعي أن في الأمر نزعة revisionism تعديلية. لكن ما هو مستبعد جداً هو أن يكون مُحَمَّد ﷺ قد نزل عليه الوحي أو كان باحثـاً عن الحقيقة ليجدها عند الأحناف واليهود والنصارىٰ [أي عند العرب الإبراهيميين الموحدين]. غير أنني أميل إلىٰ الرأي القائل إن محمداً ﷺ قد تتلمذ علىٰ يد رجال موحدين من أولياء الله، بدل القول بكون النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ كان يبدي احترامـاً لأصنام الكعبة. قد يكون عيسىٰ عليه السلام يهوديـاً تعلم علىٰ يد ربيين، لكن ذلك لم يمنعه من تأسيس عقيدة جديدة. إن قيمة المسيحية تتجلىٰ في أنها لم تتأثر ولم تضعف من كونها ترجع في أصلها إلىٰ مرجعيات يهودية، كما أن الإسلام لم يضعف أو يتأثر بكونه استمراراً ومكملاً للتراث اليهودي المسيحي.

فإذا صحت رواية كل من ثيفنوت Thévenot(١٦٣٣-١٦٦٧م) وموريسون Morison (القرنان ١٧ و ١٨ الميلاديان)، فإنهما تكشفان معـاً بعض اللبس المحيط بالعهد النبوي الـذي كتبه النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء. إن أصل هٰذا الأختنام achtiname قد يكون سابقـاً لميلاد الدعوة النبوية، فهو يتضمن وعداً شفويـاً صودق عليه بالبصم بكف اليد، أو كما جاء في رواية أخرىٰ، فلقد تم تحرير الوثيقة من قبل الرهبان وصادق عليها مُحَمَّد ﷺ (موتون Mouton ١٧٧). وبذلك يكون العهد النبوي الذي ينص علىٰ الحقوق والامتيازات يرجع تاريخه إلىٰ الأيام الأولىٰ من ظهور الإسلام. وهٰذا أمر معقول جداً. وبنفس درجة المعقولية قد يكون مُحَمَّد ﷺ -وهو قائد قافلة- قد توجه إلىٰ سيناء عن قصدلأغراض تعبدية دينية. وقد يكون أسدىٰ خدمات للحجاج الدينيين. إن الهيكل الحالي لدير القديسة كاثرين قد تم بناؤه

علىٰ يد الإمبراطور جوستنيان (الذي حكم ما بين ٥٢٧ و٥٦٥م) أي سنوات قليلة قبيل ميلاد مُحَمَّد ﷺ سنة ٥٧٠م. وخبر بناء هذه المعلمة ودلالتها الروحية يمكن أن يكون معروفًا في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية، لا سيما بين تجار القوافل. وكما يروي ذلك راتليف Ratliff، فـ"قد ازدهرت أسفار الحج إلىٰ الأماكن المقدسة وأماكن الأولياء خلال القرن الذي سبق الغزو العربي للمنطقة" (انظر المقالة المعنونة "[زيارة] البقاع المقدسة' ٨٧). وخلال حياة مُحَمَّد ﷺ فإن "زيارة القدس وأديرة مار صابا Mar Saba في صحراء اليهود، ودير القديسة كاثرين بسيناء كانت مراكز ثقافية مهمة" (انظر راتليف في 'المسيحيين...' ص٣٨). وكمتعبد متحنث روحاني، فلقد كان النَّبيّ ﷺ يهفو إلىٰ زيارة أحد أقدس البقاع علىٰ وجه الأرض. وقبل هٰذا وذاك، قليلة علىٰ وجه الأرض هي الأماكن ذات الاعتبار التاريخي والديني التي تضاهي مكانة القدس:

"لقد بني الدَّيْر علىٰ الموقع الغابوي حيث كلم الله تعالىٰ موسىٰ وسط النار، وبجواره توجد الشجرة المباركة التي تقول الرواية إنها نبتت من عصا هٰرون. وعلىٰ قمة جبل سيناء أو جبل موسىٰ، يمكن للمرء أن يستحضر [النَّبيّ موسىٰ] صاحب الألواح الكبير، ذلك لأن المكان يوحي بوجود قمة العالم التوراتي. وجنوبًا يمتد لسان سيناء والبحر الأحمر؛ وشرقًا يوجد خليج العقبة وراء الجبال حيث أرسل سليمان من هناك سفنه التجارية فيما مضىٰ؛ وشمالاً نجد صحراء زين، وغربًا بلاد الفراعنة. وهنا في قمة الجبل تم الاحتفاء بذكرىٰ النَّبيّ موسىٰ عن طريق بناء كنيس مسيحي ومسجد. إن الكهف الذي يقال إن موسىٰ أمضىٰ فيه بمفرده أربعين يومًا وليلة يوجد بجوار المسجد، ولا يزال محجًا بالنسبة للمسلمين. وعلىٰ مقربة منه، تقول الرواية بأن الرب أعطىٰ موسىٰ "الألواح الحجرية والشريعة والأوامر التي كتبتُها، حتىٰ تعلمها إياهم" (سفر الخروج ٢٤: ١٢)؛ (انظر عطية x–xi).

وبرأي الجبلية (أي سكان الجبل العرب) فقد أمضىٰ مُحَمَّد ﷺ ليلة في الكهف المذكور حينما زار المنطقة كقائد قافلة (هوبز ١٦٩). ومن المسلم به أن محمداً ﷺ

كان يحب العزلة . ففي مكة وخلال السنوات القليلة قبل نزول الآيات القرآنية الأولىٰ عليه مباشرة كان يمضي فترات طوالاً في التعبد والتحنث والتدبر والصلاة والصيام في المكان المعروف الآن بغار جبل النور. إن فترة التعبد هذه المعروفة بـ"التحنث" كانت تستغرق شهراً كاملاً (ابن اسحق ١٠٥). وإذا كانت أسفاره ﷺ إلىٰ جبل سيناء قد تمت قبل جهره بالدعوة، فإن عادة تعبده في الكهوف قد يكون بدأها في الغار نفسه الذي أمضىٰ فيه نبي الله موسىٰ معتكفاً مدة أربعين يوماً وليلة. وعلىٰ أقل تقدير، يمكن أن يكون كهف جبل سيناء بمثابة الحافز المباشر الذي سبق تعبدَه بغار حراء الموجود بجبل النور. وبهٰذا المعنىٰ لا يكون مُحَمَّد ﷺ في تواصل بربه فقط، بل يكون قد ربط الاتصال أيضاً بروح النَّبيّ موسىٰ، علىٰ غرار لقائه بالراهب بحيرا الذي جعله يتصل بالتراث المسيحي.

إن الكهف الموجود بجبل سيناء الذي أمضىٰ فيه مُحَمَّد ﷺ ليلته، ظل منذ ذلك الحين وعلىٰ مر السنين بقعة من البقاع المقدسة: فعلىٰ بعد عشرة أمتار من الكنيسة المبنية علىٰ قمة جبل موسىٰ، بُني مسجد صغير يدعىٰ 'مسجد فاطمة'، والذي يرجع تاريخه إلىٰ العهد الفاطمي (هوبز ١٦٩). وقد بناه فعلاً الأمير أنوشتاكينAnushtakin علىٰ عهد الخليفة الفاطمي العاشر أبي علي المنصور (حكم ما بين ٩٩٦ و ١٠٢١م). وكان الغرض من بنائه هو تمكين البدو من مكان يقيمون فيه صلاتهم (موتون ١٨١). لكن الجبلية [سكان جبل سيناء] "يعتقدون أنه يرجع إلىٰ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (هوبز ٦٣٤-٦٤٤). ومن المحتمل أن يكون المسجد الفاطمي قد بني علىٰ أنقاض مسجد تذكاري سابق، ولو أن موتون يعبر عن يقينه بأنه بني علىٰ أنقاض كنيسة صغيرة قديمة (١٨١). وبما أن برنشتاين يفيد بـ"أن المسلمين...قد بنوا حصناً صغيراً علىٰ قمة جبل سيناء من أجل حماية الطريق الجنوبية المؤدية إلىٰ مصر بغرض صد هجمات الصليبيين" (١٢) في القرن الثاني عشر الميلادي، فإنه يبدو أكثر معقولية أن نقول إن المسجد قد بني علىٰ أنقاض حصن قديم أو مسجد صغير كان الجنود المرابطون هناك يتخذونه مصلىٰ. ما هو واضح هو أن المسجد والحصن الذي سبقه قد تم بناؤهما بمواد بناء هي في الأصل أنقاض لكنيسة قديمة أو دير (داهاري ١٥٣). في الحقيقة،

إن أنقاض أربعة كنائس قديمة يمكن تمييزها بين كل الركام، وكلها سابقة [تاريخياً] للكنيسة والمسجد الحاليين الذين يوجدان علىٰ قمة جبل موسىٰ (١٥٣). أما بالنسبة لهٰذا المسجد بالذات، فإن هوبز يقول بأنه "يتربع علىٰ موقع مقدس عند السكان الجبلية، فهو عبارة عن كهف يقولون إن النَّبيّ موسىٰ عاش فيه وصام أربعين يوماً وليلة أمضاها في الجبل. وهي عادة قلده فيها رهبان القرن الخامس عشر الميلادي؛ كما أنه الكهف الذي أقام فيه مُحَمَّد ﷺ ليلته حينما زار المنطقة كقائد قافلة. هناك عشرة أدراج تؤدي إلىٰ داخل الكهف، حيث يوجد مذبح صغير ومحراب أقيم في اتجاه مكة" (هوبز ١٦٩).

وبالنسبة للمحراب في كهف موسىٰ، يعتقد موتون بأنه تم نحته في الصخر في نفس الوقت الذي بني فيه المسجد (١٨١). وعلىٰ الرغم من كون الموقع مكاناً مقدساً عند البدو، فإنهم لم يمنعوا المسيحيين أبداً من الصلاة فيه (١٨١).

وبالرجوع إلىٰ المسجد الذي يوجد في فضاء الدَّيْر نفسه، هناك عدد من الروايات المختلفة بشأنه. وتدعي أغرب تلك الروايات أن المسجد يرجع عهده إلىٰ أيام النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. يقول المدبر الرسولي الفرنسسكاني في كتابه يوميات السفر من القاهرة الكبرىٰ إلىٰ جبل سيناء *A Journal from Grand Cairo to Mount Sinai*، والذي يصف فيه سفره ذلك إلىٰ الموقع المقدس بسيناء سنة ١٧٢٢م: "إن هناك مسجداً به برج صغير للأتراك يوجد قرب الباب الغربي للكنيسة الكبرىٰ. ومن أجل الحفاظ علىٰ الكنيسة تم الحصول علىٰ عدد من العهود من النبي" (١٦). ونفس الرأي يقول به أرثير بينريهن ستانلي (١٨١٥-١٨٨١م) رجل الكنيسة الإنجليزي وأستاذ التاريخ الكنسي وعميد جامعة ويستمنستر، الذي زار كنيسة القديسة كاثرين سنة ١٨٨٥م، وقد كتب ما يلي: "لا يزال المسجد قائماً علىٰ قمة الجبل [إلىٰ اليوم] ولو أنه لم يعد مستعملاً، علىٰ أنه داخل جدران الدَّيْر يسمح الرهبان للمسلمين الورعين بالصلاة جنباً إلىٰ جنب مع الحجاج المسيحيين، وهو[بناء] أُسس حسب اعتقاد المسلمين الأميين الذين لا وجود في أذهانهم لمفهوم التاريخ أو للتسلسل الزمني، في عهد النَّبيّ حينما كان المسيحيون والمسلمون علىٰ كلمة سواء ومتحابين كإخوة" (١٢٠).

علىٰ الرغم من أنه من باب المجازفة القول إن المسجد قد أسس أيام حكم النَّبيّ ﷺ، فإنه لا يمكن استبعاد الرواية برمتها، ذلك لأنها تشتمل علىٰ عناصر من الحقيقة. فالمسجد أسس علىٰ البقعة التي وقف النَّبيّ ﷺ يومـًا ما عليها؛ فهو إذن قد بني علىٰ أرض مقدسة. ولذلك وإن لم يتم بناؤه في حياة النَّبيّ ﷺ بالمعنىٰ الحرفي، فقد تم تأسيسه تبركـًا بموطئ قدمه. ما هو في غاية الأهمية بالنسبة لرواية البدو العرب هذه، هو ما توحي به من حنين، فهي تتحدث بشوق ومحبة عن فترة كان فيها المسلمون والمسيحيون متحدين حول كلمة واحدة، وتملأ قلوبهم مشاعر المحبة والأخوة. إن شيئًا ما يبدو وكأنه زاغ عن السبيل وانحرف عن مساره في الحقبة المبكرة من تاريخ الإسلام.

تؤيد رواية أخرىٰ راسخة في عمق التاريخ الرأي القائل إن المسجد الموجود في قلب باحة القديسة كاثرين يرجع عهده إلىٰ ولاية عمرو بن العاص (٥٩٢-٦٦٤م)، وهو القائد الذي فتح سيناء. وبالرغم من أن هٰذا الرأي قد رفضه الباحثون عمومـًا (انظر عبد الملك ١٧١) إلا أنه يبقىٰ رأيـًا مقبولاً في حده الأدنىٰ. والحق أن عملية بناء المساجد كانت تعقب كل فتح من الفتوحات الإسلامية المبكرة.. والأكيد هو أن مسجد عمرو بن العاص الذي بني في العاصمة الجديدة الفسطاط بمصر سنة ٦٤٢م كان أول مسجد بني لا في مصر فقط، بل في كل القارة الإفريقية برمتها. إن المسلمين الذين فتحوا جنوب سيناء من المفروض أنهم قد قاموا ببناء أماكن للصلاة. قد يكونون حولوا بنايات قائمة إلىٰ أماكن عبادة، أو شيدوا مساجد جديدة بمعنىٰ الكلمة. ولذلك فمهما كان الغرض الذي وظفت البنايات الأصلية من أجله، فإنها لا محالة كانت تستعمل للصلاة الجماعية من قبل المسلمين الفاتحين.

لقد استنتج السير فريدريك هينكر، الذي زار جبل سيناء فيما بين عامي ١٨٢٠م و ١٨٢١م نتائج خاصة به بصدد الغاية المتوخاة من مسجد أسس وسط دير مسيحي. "فالمسجد – يقول هينكر- رغم الغرابة الظاهرة في وجوده بجوار كنيسة [مسيحية]، هو شيء ضروري لوجود تلك الكنيسة، لأنه من شأن ذلك أن يضفي طابع القداسة علىٰ المكان في أعين المسلمين، ويعلي من شأنه حسب اعتقادهم"

(٢٢٤). ففي بداية فترة انتشار الإسلام كان المسلمون عادة ما يشيدون مساجدهم بجوار الكنائس القائمة أو علىٰ الأماكن المقدسة. وحينما يبنون المساجد، فإنهم كانوا يلحقون أحياناً كنائس صغيرة بمكان صلاتهم. فمن الممكن، (كما يقترح ذلك هينكر)، أن ذلك العمل قد تم القيام به لإبراز سلطة الإسلام. كما أنه من الممكن أن يكون قد تم ذلك من باب إضفاء طابع القداسة علىٰ الأماكن المسيحية المقدسة، وبالتالي ضمان حمايتها. فإذا كانت الكنائس المسيحية والأماكن المقدسة والأديرة جزءاً لا يتجزأ من أبنية العبادة والمساجد الإسلامية، فإن حظوظ مهاجمة أي من تلك الأماكن من قبل المسلمين المارقين قد تبدو ضئيلة. وقد يبدو الأمر وجيهاً أن أجيال المسلمين الأوائل كانت تجسد تعاليم العهود والمواثيق التي تركها النَّبيّ ﷺ والتي تحض المسلمين علىٰ حماية الكنائس والأديرة المسيحية والحفاظ عليها. وهل هناك أفضل من منحهم حماية الإسلام؟

تقول إحدىٰ الطروحات الأكثر شيوعاً إن المسجد الموجود بدير القديسة كاثرين قد بناه الرهبان من أجل استرضاء [الخليفة] الفاطمي الحاكم بأمر الله (الذي حكم من سنة ٩٩٦ م إلىٰ سنة ١٠٢١م) وهو الخليفة الذي كان لا يؤمن جانبه، وكان ذلك سنة ١٠٠٠م. وتقديراً منهم لشجاعة الرهبان، فإن المسلمين فيما يبدو تركوا الدَّيْر لحاله ولم يمسوه بسوء، شريطة أن يتم بناء مسجد فوق المكان الذي وطئته في يوم ما قدما مُحَمَّد ﷺ (برنشتاين ١٢٤). وهناك أسطورة مماثلة منسوبة إلىٰ اللورد ألكسندر وليام براندفورد كروفرد لندزي (١٨١٢-١٨٨٠م) خلال رحلته التي قام بها سنة ١٨٣٧م، والتي يقول بشأنها ما يلي: "قريباً جداً من الكنيسة ترتفع مئذنة مسجد كانت قد بنيت آنذاك بصفة مؤقتة قبل ثلاثة قرون حينما كان الدَّيْر مهدداً من قبل [سلطان] مصر Paynim Soldan. ولم يمس الدَّيْر بسوء بفضل وجود المسجد بجانبه، فهو عبارة عن بناية بسيطة لا زخرف فيها... وقلما تم استعمالها إلا إذا حدث أن وفد حاج تركي من علية القوم علىٰ جبل سيناء" (٢٩٠).

بالنسبة لأي باحث ذي حس تاريخي ووعي بتسلسل الأحداث، هذه الرواية هي رواية هشة وذات قيمة ضعيفة. فإذا كان المسجد قد أسس سنة ١٧٣٥م، فإن ذلك

يكون قد تم أثناء الحكم العثماني. وبالتالي يكون تأسيسه أحدث مما يعتقد. إن لقب 'Paynim Soldan' هو لقب محرف، إذ لم يكن هناك في الحقيقة سلطان في مصر. وكان السلطان يحكم انطلاقاً من اسطنبول. وأما الإشارة إلىٰ حاكم مصر فقد يقصد بها أحد الخلفاء الفاطميين. لكن هٰؤلاء لم يستعملوا لقب 'سلطان' ولم يكونوا بالتأكيد يحكمون سنة ١٥٣٧م. وحتىٰ لو افترضنا أن الأمر قد اختلط علىٰ الرهبان، وأنهم لم يكونوا بصدد افتعال هٰذا الأمر، فإن الادعاء بأن المسجد قد بني اتقاء لشر الحكيم لا تسنده الأدلة المتوافرة.

في الحقيقة إن البناية الموجودة قد أسست في عهد الخليفة [الفاطمي] الرابع أبي علي المنصور، الآمر بأحكام الله، والذي حكم فيما بين سنة ١١٠٢م وسنة ١١٣١م. وكان الغرض من تشييدها، حسب برنشتاين، هو خدمة حاجيات الجنود المسلمين التعبدية الذين أرسلوا لسيناء لمحاربة الصليبيين (١٢٤). وإذ تبدو هذه الرواية معقولة تماماً من الناحية النظرية كغيرها من الروايات، فإن الأدلة المبنية علىٰ المخطوطات العربية القديمة تناقضها؛ وتوجد تلك المخطوطات بدير القديسة كاثرين، وقد اطلع عليها جوهن لويس باركهاردت سنة ١٨١٦م. ويفسر هٰذا الأمر المستكشف الشاب بما يلي:

> "لقد اطلعت علىٰ إحدىٰ الروايات المكتوبة التي تروي كيف أنه في عام ٧٨٣ هجرية، حدث أن مجموعة من الحجيج الأتراك الذين ضلوا الطريق وانفصلوا عن قافلتهم جاء بهم البدو إلىٰ الدَّيْر، ولما عرفوا أنهم أناس علىٰ جانب من العلم والمعرفة وأنهم ينحدرون من مصر العليا استبْقَوْهُم في الدَّيْر ورصدوا لهم ولأحفادهم راتباً مقابل قيامهم بخدمة المسجد" (عن مانلي وعبد الحكيم ١٤٤).

فبينما يؤول بوركهاردت هٰذا علىٰ أنه دليل علىٰ أن المسجد يرجع تاريخه إلىٰ سنة ١٣٨١م، إلا أنني شخصياً أعتبر أن المسجد كان موجوداً قبل ذلك التاريخ، وأن الرهبان قاموا فقط بتوظيف بعض المسلمين الذين ضلوا الطريق كأمناء وخدام لذلك المسجد. أما ألكسندر دوما (١٨٠٢-١٨٧٠م) فقد فضل تاريخاً لاحقاً إذ يدعي بأن

"الدَّيْر اليوناني كان بمثابة عربون ولاء وعبودية، فقد اضطر معه الرهبان إلىٰ تشييد بناية تركية داخل حرم الدَّيْر" (٢٤٦). وبالنسبة لهٰذا السائح الجاهل فلقد كان المسجد عبارة عن عمل يراد به قهر وإذلال الرهبان فوق كل تصور (٢٤٦).

وكيفما كان الأمر، فإن أصل المسجد في شكله الأول يبدو أنه قد طواه الزمان. إن تواريخ بنائه التي اقترحها الكثير من الكتاب تبدو أنها تؤشر فقط إلىٰ أحداث أخرىٰ بما في ذلك تواريخ ترميمه وإعادة بنائه وتجديده. ويبقىٰ لغز المسجد الجامع قائماً لحد الآن وفي حاجة إلىٰ الكشف عنه. لقد حان الوقت إذن للالتفات إلىٰ تصميمه. فبحسب مقالة تحت عنوان "مسجد دير القديسة كاثرين" الذي نشرته قناة Arabic News باللغة العربية، سنة ٢٠٠٤ فإننا نقرأ ما يلي:

> " ينقسم المسجد إلىٰ ست قاعات تفصلها ساريتان ذواتا أضلع غير متساوية. وظلت المئذنة تعلو علىٰ الدَّيْر كله إلىٰ أن منح قيصر روسيا هدية للدير هي عبارة عن أجراس تم تثبيتها في حصن الدَّيْر، وذلك بواسطة ألواح خشبية ملتصقة بالجدران. والجزء العلوي من المئذنة التي يبلغ علوها اثني عشر متراً هو ذو شكل مربع تعلوه قبة كروية الشكل... والمئذنة أشبه ما تكون بمئذنة مسجد الجيوشي بالقاهرة".

ومنبر المسجد الذي يعتبر أحد المنابر الثلاثة التي يرجع تاريخها إلىٰ العهد الفاطمي قد تم بناؤه سنة ١١٠٦م، وكان عبارة عن هدية أهداها أحد الأشخاص النافذين المقربين من البلاط الفاطمي، هو شاهان شاه الأفضل (سكربوتشا ٦١). وأما المنبران الآخران فإن أصلهما علىٰ التوالي من كوس بمصر العليا، ومن الخليل بفلسطين (شامبدور ٤٨). وتقول الكتابة المثبتة علىٰ المنبر ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله. لا شريك له. له الملك وله الحمد. يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير. النصر من الله والفتح قريب لعبد الله وخليفته أبي علي المنصور الإمام الآمر بأحكام الله. أمير المؤمنين عليه وعلىٰ أسلافه الكرام وعلىٰ ذريته السلام. لقد أمر بإنشاء هٰذا المنبر السيد صاحب الشرف والمهابة أمير الجيش، سيف الإسلام وعضده، حامي وحاكم البرية، مرشد وحامي المؤمنين، أبو القاسم شاهان شاه،

أصلح الله به وعلىٰ يديه الملة، وأقر عين أمير المؤمنين به وأطال عمره وأرسىٰ أركان حكمه وهند سيفه. وحرر في شهر ربيع الأول من عام ٥٠٠ للهجرة، والحمد لله رب العالمين". (سكربوتشا ٦١).

هناك باحثون آخرون مثل برناهارد موريتز (القرنان التاسع عشر والعشرون) يدّعون بأن المسجد بُني خلال الحروب الصليبية حوالي سنة ١٠٩٠م، وذلك من أجل إيواء كتيبة من الجنود المسلمين (سكربوتشا ٦٢؛ موتون ١٧٩). لكن الكتابة المثبتة علىٰ المنبر لها الأولوية في الاستدلال لأن الدليل المادي ينبغي أن يسبق دائماً المسائل التخمينية. ليس هناك أدنىٰ شك في أن يكون المسجد قد بني في بداية القرن الثاني عشر الميلادي. وكما يفسر ذلك ألبيرت كامبدور، فإن الخليفة الآمر بأحكام الله (الذي تولىٰ الحكم فيما بين ١١٠١ و ١١٣٠م) ذهب إلىٰ حد القول إنه حصل علىٰ مباركة بطريرك القدس قبل الشروع في البناء (٤٧). وقد بني المسجد من أجل تمكين خدم الدَّيْر المسلمين، بالإضافة إلىٰ سكان شبه جزيرة سيناء من إقامة صلواتهم وأداء واجباتهم الدينية (٤٧). وحسب كامبدور "فإن صومعة وناقوس الكنيسة [من جهة]، ومئذنة المسجد من جهة أخرىٰ في وجودهما جنباً إلىٰ جنب، يشكلان رمزاً مؤثراً" (٤٧). لكن هناك من يرىٰ بأن المسجد يوجد في المكان الخطأ في الدَّيْر. وأما ج. دوماس فإنه يرىٰ من جهته أن المسجد قد بني ببساطة فوق أنقاض كنيسة صغيرة قديمة كانت قد أهديت لذكرىٰ القديس باسل، مؤسس أخوية الرهبان الإغريق (انظر كامبدور ٤٧–٤٨). ويعود هٰذا الرأي في الأصل إلىٰ باسل بوسنيابوف الذي زار دير القديسة كاثرين حوالي سنة ١٥٦٠م (دو خيتروفو ٣٠٣). وتم اعتماد هٰذا الرأي مجدداً من قبل رابنو (٣٩). لكن كامبدور يميل مع ذلك إلىٰ الرأي القائل إن كل ما جد في البناية هو المئذنة، وأن الكنيسة الصغيرة المتحدث عنها قد تم تحويلها إلىٰ مسجد (٣٤). وبالمقابل يرىٰ فريمان غرينفيل أن "المسجد قد بني في الأصل كنزل يأوي إليه الحجاج في القرن السادس الميلادي" (٢١٧). وهذه فرضية اعتمدها لأول مرة جورج هـ. فورسايث(٧). لكن خلال العقود الأخيرة تعرض هٰذا الرمز التاريخي الذي يمثل التعايش الإسلامي المسيحي للتدمير جراء غلق المسجد من قبل الرهبان وتثبيت صليب علىٰ قبته.

كل النظريات المتصلة بأصل المسجد الموجود في فضاء دير القديسة كاثرين هي نظريات حديثة العهد. فما الذي تقوله المصادر القديمة فعلاً بشأن المسجد؟ يقول جون تونود، أحد الحجاج إلىٰ سيناء سنة ١٥١٢م حول المسجد ما يلي: "بجانب تلك الكنيسة يوجد مسجد إسلامي قام ببنائه رئيس الدَّيْر الذي اعتنق الإسلام حينما طلب منه أن يقوم بخدمته" (٧٢). إن عبارة "أن تصبح مملوكـًا" تعني "اعتناق الإسلام"، كما تعني "أن تصبح مرتداً [عن المسيحية]". في أوروبا قد تنطبق العبارة علىٰ الكاثوليك الذين يعتنقون المذهب البروتستانتي، لكن في السياق الذي نحن بصدده، إن المعنىٰ واضح تماماً: إن المسجد الحالي الموجود بفناء دير القديسة كاثرين قد تم بناؤه -أو إعادة بنائه- من قبل أحد رؤساء الرهبان الذي اعتنق الإسلام. وفي الوقت الذي صار متعذراً عليه أن يستمر في نشاطه كرئيس لدير الرهبان الإغريق الأورثدوكس، فإن الفاطميين -حكام تلك الحقبة- أناطوا به أمر تسيير المسجد بأنفسهم. ويفيد تونود Thenaud أيضـًا بأن الامتيازات التي منحها مُحَمَّد ﷺ لرهبان الكنيسة الشرقية قد تم الاحتفاظ بها أيضـًا في المسجد. وهٰذا قد يعني أن العهد الذي كتبه مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء كان بيد المسلمين ابتداء من يوم بني المسجد في القرن الثاني عشر الميلادي إلىٰ أن تلاشىٰ في القرن الرابع عشر. وبتعيينهم فرقة مكونة من رجلين أحدهما يؤم الناس للصلاة والآخر يقوم بالأذان، يبدو أن الفاطميين كانوا يريدون أن يضمنوا تولي المسلمين -لا المسيحيين- أمر خدمة العهد النبوي. وقد يفسر هٰذا أمر اختفاء النسخ الأولىٰ من العهد النبوي، وقد تكون تلك النسخ قد أخذها الفاطميون إلىٰ القاهرة. وباعتبار أن صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨- ١١٩٣م) سرعان ما انتهج سياسة الأرض المحروقة في المناطق التي كانت خاضعة للحكم الفاطمي، بما في ذلك حرقه المتعمد لإحدىٰ أعظم المكتبات الإسلامية في العالم، والتي قيل إنها كانت تشتمل علىٰ مليون ونصف المليون من المؤلفات (انظر بولمان ٢٨٢، م١٧) فإن هناك حظوظـًا ضئيلة أن تبقىٰ تلك النسخ الأولىٰ علىٰ قيد الحياة.

وعلىٰ الرغم من وجود مسجدين قديمين فقط اليوم في جبل سيناء، واحد منهما بدير القديسة كاثرين، والآخر علىٰ قمة الجبل، فقد تم بناء مساجد جديدة

بجوار الدَّيْر خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (موتون ١٧٨، ١٨٢، م ١٠). وقد كتب سامي صلاح الدين يقول "إن إحدىٰ وعشرين بناية بما فيها المساجد وأماكن الصلاة قد تم بناؤها كلها فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٥١٧م، وتم إحصاؤها لحد الآن" (١٧١).

لقد أظهر الفاطميون الشيعة أكثر من غيرهم من الحكام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين السنة اهتماماً أقوىٰ بجبل سيناء ذي الصيت الذائع. وربما يعود ذلك إلىٰ كون هٰذا المذهب الإسلامي [أي المذهب الشيعي] يولي تقديراً أكبر للمقامات والمزارات الروحية المقدسة. وبالفعل، لقد تم إنشاء "ستة مساجد بأمر من الأمير الفاطمي في المنطقة فيما بين فيران وجبل سيناء، ويوجد أحدها في قلب دير القديسة كاثرين" (١٧١). وكما يفسر ذلك عبد الملك: "لقد تم بناء [المساجد] من أجل المسلمين العابرين لسيناء: أي الحجاج المتوجهين إلىٰ مكة أو إلىٰ جبل سيناء". ويبدو أن تدفق الحجيج علىٰ جبل سيناء كان قد وصل أوجه أيام العهد الشيعي مقارنة بعهد الحكم السني. وبسقوط الخلافة الفاطمية يبدو أن أهمية دير جبل سيناء قد انخفضت بكيفية دالة بالنسبة للمسلمين. وفي تقرير لها تقول مجلةArabic News : "خلال العهد الأيوبي والعهد المملوكي، لم يكن يُعرف سوىٰ القليل عن المسجد [أي مسجد القديسة كاثرين] وذلك من خلال إفادة المسافرين الذين زاروا الدَّيْر".

لم تكن المساجد المذكورة –بما في ذلك المسجد الموجود في قلب فناء دير القديسة كاثرين– مجرد رموز للحكم الإسلامي، بل كانت أماكن للعبادة تقوم بوظائفها كاملة خلال القرون الوسطىٰ وبعدها (موتون ١٧٩). وكان القيمون عليها يعيَّنون مباشرة من قبل قاضي القضاة بالقاهرة، وعادة ما يتكونون من شخص أو شخصين أحدهما يؤم الناس للصلاة، إلىٰ جانب مؤذن وناظر مكلف بالسهر علىٰ البناية (موتون ١٧٩). كان مسجد القديسة كاثرين يقصده الزوار العائدون من الحج إلىٰ جانب الجنود المرابطين بسيناء، ولذلك كان مغلقاً في وجه البدو المحليين المثيرين للمتاعب، وذلك بأوامر من سلطات القاهرة (موتون ١٧٩). فعلىٰ مدىٰ قرون كانت أجراس الكنيسة المنبعثة أصواتها من صومعة الدَّيْر تتناغم مع صوت الأذان الآتي

من المئذنة. إن هٰذا التعبير الصوتي عن الانتماء إلىٰ الملة التوحيدية الواحدة من شأنها أن تبعث في رسول الله ﷺ مشاعر الفخر والاعتزاز. تقول صحيفة Arabic News في هٰذا المضمار ما يلي:

"لا زال المسجد قائماً بوظيفته إلىٰ حدود القرن الرابع عشر الميلادي، رغم ما أصابه من إهمال في العهد العثماني حينما أصبح مستودعاً للحبوب والفواكه. وحسب المخطوط المحتفظ به في مكتبة القديسة كاثرين، كان رهبان الدَّيْر يقيمون اجتماعاتهم في المسجد حوالي سنة ١٥٠٨م".

حينما زار سير فريديرك هينكر (١٧٩٣-١٨٢٥) دير القديسة كاثرين عام ١٨٢٠/ ١٨٢١، لاحظ أن الرهبان كانوا يسمحون لشخص واحد بدخول المسجد يوم الجمعة (العيد الأسبوعي التركي [كذا]). وحينما زار ألكساندر دوما (١٨٠٢-١٨٧٠م) المسجد كان هٰذا الأخير في حالة متدهورة، وكان خاوياً (٢٤٦). ولم يُعَرْ المسجد كبير عناية من قبل السلطات الإسلامية إلا بحلول بداية القرن العشرين، حيث قام الملك المصري فؤاد (١٨٨٦-١٩٣٦م) بتزويد المسجد بالأفرشة، كما قام بزخرفة المنابر بالأعلام الخضراء" (Arabic News). أما بالنسبة للمسجد الجامع الموجود في وسط الدَّيْر، فلم يتم إغلاقه رسمياً إلا في حدود سنة ١٩٨٦م (موتون ١٧٩، عبد الملك ١٧١). وقامت مؤسسة SCA بترميم المسجد سنة ١٩٨٦م بفضل هبة من سلطان عمان قابوس، "كما تم رصد ميزانية للمسجد من أجل أعمال الصيانة الدورية". وباعتبار كون دير القديسة كاثرين هو أول دير في العالم يضم كنيسة ومسجداً في نفس الوقت، فإنه لأمر مشجع أن يرىٰ المرء مجهودات تبذل من أجل المحافظة وصيانة هٰذا الموقع الفريد وما يرمز إليه.

بالإضافة إلىٰ الكهف الذي أمضىٰ فيه النَّبيّ ﷺ ليلته، توجد مواقع كثيرة أخرىٰ بسيناء تعتبر مقدسة عند المسلمين، بما في ذلك ضريح نبي الله صالح الموجود بوادي الشيخ (سكروبوتشا ٥٥). ويحتفل السكان العرب المحليون بذكرىٰ النَّبيّ صالح بمهرجان يدوم عدة أيام يتوج بذبيحة فوق جبل سيناء (٥٥). كما أنهم يحتفون بأثر ناقة يعتقدون أنها هي ناقة النَّبيّ صالح، أو للبراق النبوي حسب البعض الآخر، (أي

للحيوان الروحاني الذي ركبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج) (فريمان-غرينفيل ٢١٠؛ سكروبوتشا ٥٥ وكلايتون ٢٠، فان إيغمونت وهيمان ١٦٦-١٦٧، ستانلي ٢٤٦، هينكر ٢٣٣). وكما يشرح ذلك هوبز:

> "علىٰ بعد مائتي متر تقريباً إلىٰ الشمال الغربي من القمة، توجد حفرة هي أقرب ما تكون في شكلها ومقاسها إلىٰ أثر موطئ ناقة، ويعتقد الجبلية [سكان الجبل] بأن ذلك الأثر هو مطبّ ناقة النَّبيّ صالح رشيد، وهم يعتقدون أنه رجل إما أنه كان نبيـاً من الأنبياء المسلمين الأقدمين، وإما أنه هو جد قبيلة بني صالح. ويفيد البدو الأقدمون قائلين للمسافرين إن الأثر هو لناقة محمد؛ وهي الناقة التي نظراً لعظيم شأنها كانت آثار قوائمها الأخرىٰ في مكة والقدس، أو في دمشق، أو في مكة والقاهرة ودمشق" (١٦٩-١٧٠).

إن الروايات المبكرة التي تقول إن الأثر المذكور هو للبراق يميل الناس إلىٰ تفضيلها أكثر، نظراً لقدمها ومطابقتها لما جاء في التراث الإسلامي. والجدير بالإشارة أن الأحاديث الصحيحة تفيد بأن محمداً ﷺ في سفره ليلة الإسراء والمعراج انتقل بجسده من مكة إلىٰ فناء هيكل سليمان بالقدس علىٰ ظهر البراق. وإذ تتحدث بعض الروايات عن كون السفر كان سفراً روحيـاً، فإن آل بيت النَّبيّ ﷺ يؤكدون دائمـاً أن السفر كان سفراً جسديـاً. فخلال ذلك السفر وبرفقة الملك جبريل، توقف النَّبيّ ﷺ لأداء الصلاة بالمدينة المنورة، ثم بجبل سيناء، ثم ببيت لحم، ثم بالقدس [أخيراً]. ولذلك فسواء اعتقد المرء أن محمداً ﷺ زار دير القديسة كاثرين في الخامسة والعشرين من عمره أو غير ذلك، فإنه من باب الإيمان عند المسلمين أن يكون قد حضر بجسده بجبل سيناء حوالي سنة ٦٢١م.

في رواية له عن سفره إلىٰ سيناء يستهزئ السيد أنطوان موريسن (القرن السابع والثامن عشر) بما يعتبره "شيئـاً مبالغـاً فيه وموضع تقديس عند الأتراك" (٩٥). فهو يقول ما يلي مشيراً إلىٰ ما يعتقده الأتراك:

> "صعد محمد إلىٰ قمة الجبل علىٰ ظهر ناقته، ومن أجل أن يترك

شاهداً ومعلمة ثمينة علىٰ حجه التعبدي الذي قام به، جعل راحلته تترك ذلك الأثر الإعجازي الذي لا زال يُرىٰ إلىٰ اليوم ولا زال الناس يحتفون به. إني أعلم علم اليقين أن ذلك المشرِّع الإسلامي العظيم كان قد حصل له شرف رعاية إبل كانت ملكـاً لدير جبل سيناء. لكنني متأكد من أنه قد غامر بمثل ذلك الفعل المثير، والذي وصل به إلىٰ حد المجازفة بحياته، وكان شيئاً عزيزاً علىٰ قلبه، وصار منذ ذلك الحين أمراً حاسماً لعدد لا يحصىٰ من الأرواح التي انطلىٰ عليها أمر افتتانه وأفعاله السحرية" (٩٥).

وكما يفيد ألبرت كامبدور، فإن بدو سيناء يزورون الموقع كل سنة ويذبحون عنزة أو ناقة في سنوات الخير علىٰ الصخرة المعلومة (٥٠). وكانت دماء البهيمة المنحورة تلطخ بها عتبة وأعمدة المزار الجانبية في فعل يذكر بالأضحية التي أمر الله بها العبرانيين حتىٰ ينزل داء الطاعون بمصر القديمة (٥٠). في سنة ١٥٩٨م أفاد النبيل والرحالة والجندي والكاتب التشيكي كريستوف هارانت (١٥٦٤-١٦٢١م) بأن البدو الجبلية كانوا يقومون بعدد من الطقوس كلما مروا بموطئ الناقة، إذ كانوا يعمدون إلىٰ تقبيله والسجود عليه (١١٩). لكن للأسف سخِر الكثير من الرهبان من المسلمين لتوقيرهم لهذه البقعة خلال الألفية الماضية (انظر ستيفنس ٢٢١ كإحدىٰ الأمثلة علىٰ ذلك). لكن كما يلاحظ صاحب كتاب يوميات سفر من القاهرة الكبرىٰ إلىٰ سيناء، إذا كانت ركبتا ويدا النَّبيّ موسىٰ قد تركتا أثرها منحوتـاً علىٰ صخر سيناء، فلماذا لا يتم ذلك بالنسبة لموطئ منسم ناقة محمد؟ (كلايتون ٢٠). ويشير فرانسيس أروندال (١٨٠٧-١٨٥٣م) إلىٰ أن رهبانـاً آخرين "كانوا يتخذون الاحتياطات كي لا يُمحىٰ ذلك الأثر، لأن احترام تلك البقعة من شأنه أن يلجم ميول العرب المتربصين بنهب الدَّيْر" (٣٢). وإلىٰ جانب موطئ الناقة، فإن قائمة المزارات والمواقع المقدسة في جبل سيناء وحوله هي قائمة استثنائية، وتشتمل علىٰ ما يلي:

"كهف في قمة الجبل حيث أقام النَّبيّ موسىٰ، ويسمىٰ حوريب، وهو المكان الذي التجأ إليه أليجاه هاربـاً من أهاب؛ ثم كهف أليجاه ومذبحه؛ والفضاء المفتوح حيث وقف هٰرون والسبعون نفراً حينما كان موسىٰ بصدد

استقبال الألـواح؛ ومكان النار التي اشتعلت في حطب الأجمة؛ والمكان الذي نودي فيه موسىٰ أن اخلع نعليك؛ والموقعان اللذان عسكر فيهما بنو إسرائيل حينما صعد موسىٰ إلىٰ أعلىٰ الجبل؛ والمكان الذي صُنع فيه العجل الذهبي؛ والفضاء المفتوح الذي رأىٰ منه موسىٰ قومه وهم يرقصون حول العجل الذهبي؛ والصخرة التي كسر عليها موسىٰ الألواح؛ والموقع الذي تم فيه تحطيم العجل الذهبي؛ والصخرة التي استسقىٰ منها موسىٰ الماء لقومه؛ والأماكن التي تزود منها بنو إسرائيل بطير المن والسلوىٰ..." (سكربوتشا ٢٧-٢٨).

هناك مواقع غير هذه التي سبق ذكرها، منها دير الأربعين قديساً، والمكان الذي حملت منه الملائكة جثمان القديسة كاثرين والذي [قيل إنه] مكث فيه علىٰ مدىٰ ثلاثة قرون؛ وهناك دير بدون أجراس لكن يسمع منه صوت الأجراس بشكل إعجازي؛ ثم الشجيرات التي صنع منها موسىٰ عصيه (فريمان غرينفيل ٢١٢). وتشتمل المنطقة أيضاً علىٰ الوادي الذي انتصر فيه بنو إسرائيل علىٰ العمالقة (أفاغارت ١٩٧)؛ والعيون الإثني عشر للقبائل الإثني عشر (١٩٨)؛ والمكان الذي أذابت فيه نساء بني إسرائيل حليهن لصنع العجل الذهبي؛ والجبل الذي عبد فيه العجل الذهبي واحتفل فيه اليهود بالعجل (١٩٩)؛ بالإضافة إلىٰ الجدول الذي رمىٰ فيه موسىٰ حطام العجل بعد تهشيمه (١٩٩). إلىٰ جانب هٰذا هناك أثر موطئ قدم النَّبيّ هٰرون، ومزار بُني احتفاء بذكراه (هوبز ١٧٣)؛ وعيون موسىٰ التي هي عبارة عن واحة توجد علىٰ بعد اثني عشر كيلومتراً من الشط، ولها دلالة كبرىٰ (كامبدور ٥٨).

إن أهمية شخصية القديسة كاثرين الأسكندرانية (حوالي ٢٨٢-٣٠٥م) لا يمكن تجاهلها. وعلىٰ الرغم من استشهادها في مكان يبعد بخمسمائة ميل، فإن التراث المسيحي يؤكد بأن الملائكة حملوا جثمانها إلىٰ قمة جبل كاثرين [المسمىٰ باسمها]، وهي قمة توجد بالقرب من جبل سيناء حيث مكث الجثمان لمدة ثلاثمائة سنة، إلىٰ أن تم تحويله إلىٰ الدَّيْر الذي أنشأه الإمبراطور يوستنيانJustinian أواسط القرن السادس الميلادي. لكن انطلاقاً من رواية للأعراب الجبلية، فلقد عاشت

القديسة كاثرين في جبل سيناء لمدة طويلة في الفترة المبكرة من ظهور الإسلام. فبعد اعتناقها الإسلام [حسب روايتهم]، رجعت إلىٰ بيتها، فاستشاط والدها غضباً جراء إسلامها إلىٰ درجة أنه ضرب عنقها في الحال، فحملت الملائكة جثمانها إلىٰ ما يسمىٰ اليوم 'جبل كاترينا' أي جبل القديسة كاثرين.

إذا كان سكربوتشا يرىٰ أن المعتقدات العربية هي معتقدات "ساذجة"، (٦٢) مدعياً فوق ذلك أن النَّبيّ ﷺ قام باختلاق القرآن انطلاقاً من التراث اليهودي والتراث المسيحي، والذين وصلا إليه عبر الرواية الشفوية (٥٣)، فهو يتعامل بطريقة متضاربة مع التراث اليهودي والنصراني وكأنها حقائق لا غبار عليها. ويؤكد العرب أيضاً أن تاريخ الدَّيْر يرجع إلىٰ عهد النَّبيّ موسىٰ نفسه، والذي كان يريد أن يخلد به ذكرىٰ تخليصه المؤمنين الموحدين من أيادي فرعون الغاشمة (٥٧ ؛ برنشتاين ١٢٣). ويعتبر سكربوتشا أيضاً أن هٰذا مجرد "خرافة متناقضة" (٥٧). لكن مثل هٰذا الكيل بمكيالين لا ينبغي أن يكون له وجود في التقاليد الأكاديمية الحقيقية. فبما أن الديانات السماوية الثلاث الكبرىٰ من يهودية ونصرانية وإسلام، كلها تُعلي من شأن جبل سيناء أيما إعلاء، فإن قدراً من الاحترام واجب في حق تراث الديانات الثلاث بدون تمييز أو استثناء.

إضافة إلىٰ هٰذا، فإنه ينبغي الإقرار انه لولا المساعي الحميدة للسكان العرب الجبلية في شبه جزيرة سيناء، لسار متعذراً علىٰ اليهود كما علىٰ النصارىٰ وعلىٰ المسلمين أنفسهم التعرف علىٰ أي من المواقع المقدسة في المنطقة. ذلك لأن عرب سيناء هم الذين حافظوا علىٰ ذاكرة هذه الأماكن علىٰ مدىٰ آلاف السنين. لقد عبر ماركيز لبود، من بين أشخاص آخرين، عن إعجابه بدقة الرواية العربية (٢٠٤). لقد أضاع اليهود في آخر المطاف التفاصيل الجغرافية المتعلقة بتيههم في صحراء سيناء، حيث إنهم لم يتركوا أي وثائق تذكر تقريباً. أما المسيحيون فإنهم يعرّفون في تراثهم المبكر جبل سيناء 'بجبل سربال'، حيث كان يوجد دير أسس في القرن الرابع الميلادي، ولم يتم تحويله إلىٰ سفح جبل القديسة كاثرين إلا بحلول القرن السادس الميلادي، علىٰ أساس أن جبل سيناء هو أعلىٰ قمة في المنطقة. وأخيراً فإنه لم يتم تحديد موقع

جبل حوريب المحاذي لجبل القديسة كاثرين علىٰ أنه هو جبل سيناء إلا بحلول القرن الخامس عشر الميلادي. وهٰذا التحديد تم علىٰ أساس إفادة التراث التقليدي لبدو المنطقة، الذي ظل يؤكد أن الجبل المعني هو جبل حوريب، وهو المعروف أيضاً بجبل موسىٰ، وهو الموقع الذي وصلت منه إلىٰ بني إسرائيل الوصايا العشر. وهناك مواقع أخرىٰ تم اقتراحها لتكون بمثابة جبل سيناء، بما في ذلك 'جبل اللوز' في شبه الجزيرة العربية و'جبل الشعرة' Jabal Shara بالأردن. والغريب في الأمر أنه تم تحديد جبل اللوز علىٰ أنه جبل سيناء في بعض المصادر الإسلامية المعاصرة. وفي إحدىٰ هذه الخرائط التي ترسم طرق القوافل التي كان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ يستعملها، تشير إلىٰ أنه مر ﷺ بجبل سيناء كموقع موجود بالعربية السعودية. إنه من المحتمل جداً أن المصدر أخطأ في تحديد الطريق التي كان النَّبيّ ﷺ يسلكها في أسفاره التجارية. لكن النَّبيّ ﷺ كان علىٰ علم بالموقع، وقد يكون زار المنطقة سنة ٦٣١م عندما عقد ميثاق مقنة مع يهود الواحة التي تحمل هٰذا الاسم، والذي يسهُل الوصول إليه انطلاقاً من جبل اللوز مشياً علىٰ الأقدام. وعلىٰ الرغم من الادعاءات التي تثبت عكس هٰذا، فإن جبل موسىٰ هو المعروف بصفة عامة علىٰ أنه الجبل ذو القمة الأعلىٰ [في المنطقة] بصفة مؤكدة، وتتفق علىٰ ذلك الديانات السماوية الثلاث التي لعب فيها جبل سيناء دوراً ما. ونظراً من جهة أخرىٰ لغياب أي رغبة من جانب هذه الديانات في إثبات ما هو غير قابل للإثبات أصلاً (هازلتن ٥).

في الوقت الحاضر بالرغم من كون جبل سيناء بمصر يحتوي علىٰ مواقع مقدسة ذات قيمة روحية معتبرة عند المسلمين، فإن السياح المسيحيين والعلمانيين هم من يقومون أساساً بزيارته. علىٰ أنه يبدو أن الشيعة يمثلون استثناء لهذه القاعدة. فكما يقرر ذلك هوبز:

> "لقد قال لي غوردن بروباشر، أحد مرشدي المجموعات السياحية، إنه رأىٰ مئات السياح الشيعة الوافدين من مختلف بقاع العالم، المعروفين بطريقة لباسهم، يعسكرون فوق جبل موسىٰ في الليلة الأخيرة من شهر رمضان، وقد قاموا بذلك مراراً لعدة سنوات في الثمانينات. ذلك لأن جبل

موسىٰ يعد ثالث أقدس مزار بالنسبة للحجاج الشيعة بعد مكة وكربلاء، حسب قوله" (٢١٩).

وإلىٰ حدود القرن الرابع عشر الميلادي كان المسلمون من مختلف المذاهب والمشارب الفكرية يحجون بصفة منتظمة إلىٰ جبل سيناء ويصلّون في المسجد الموجود في باحة الدَّيْر (هوبز ١٦١). وحينما زار غريفين أفاغارت (حوالي ١٥٩٧) الدَّيْر فيما بين سنة ١٥٣٣ و ١٥٣٤م لاحظ ما يلي:

"للأتراك والمغاربة تعلق روحي خاص بهٰذا المكان، لا بسبب الألغاز والأسرار التي كان المكان مسرحاً لها والتي ينص عليها العهد القديم، ولكن أيضاً بسبب القديسة العذراء كاثرين التي يبجلونها أيما تبجيل، وبسببها قاموا ببناء مسجد في الدَّيْر، أي كنيسة يقوم بصيانتها قس ويتولىٰ أمر الصلوات فيها علىٰ طريقتهم الخاصة بهم، وبها يوجد العهد الذي ينص علىٰ الامتيازات التي منحها محمد للدير (١٩٠-١٩١)".

فكما كان التقليد مع الكثير من الكتاب الأوربيين في ذلك العهد، فإن أفاغارت يستعمل المصطلحات المسيحية حيث كان يجب أن يستعمل المصطلحات الإسلامية، ولذلك حينما يتحدث عن "كنيسة وقس" فهو يعني بالفعل "مسجداً وإماماً".

لقد أصبح الآن من الأشياء المألوفة أن يتوجه الحجاج بعد أدائهم لمناسك الحج إلىٰ زيارة قبر النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بالمدينة؛ وقبل الإعلان عن إنشاء [دولة] إسرائيل عام ١٩٤٨ م، كان من عادة المسلمين أن يضيفوا [إلىٰ مناسك حجهم] زيارة المسجد الأقصىٰ بالقدس. ويبدو أنه في القرون الماضية كان بعض المسلمين يضيفون إلىٰ طرق الحج التي كانوا يسلكونها طريقاً بجوار جبل سيناء. لكن باعتبار طريق جبل سيناء كان نوعاً ما يبتعد عن الطريق المألوف ويكلف مصاريف إضافية، فإن طريق الحج عبر جبل سيناء لم تكن دائماً هي الطريق الرئيسة. وكما يشرح ذلك دافيد و. تشانز، لم تكن بعض طرق الحج القصيّة تستعمل أقرب مسافة بين نقطتين، لكنها كانت تسمح للحاج بزيارة المساجد والبقاع المقدسة في الطريق إلىٰ مكة". إضافة

إلىٰ هٰذا، فإن الطريق عبر جبل سيناء هي الطريق الوحيدة السالكة بالنسبة للحجاج القادمين من شمال إفريقيا ومصر، وكانت بعيدة بالنسبة للحجاج القادمين من الأقطار الإسلامية الأخرىٰ.

وبما أن الكثير من طرق الحج كانت أيضاً طرقاً تجارية، فإن إقبال الزوار علىٰ جبل سيناء يعكس إلىٰ حد ما وجود ازدهار اقتصادي له علاقة ما بقضايا البنية التحتية. فحينما أخذت مدينة الطور – وهي المدينة المرسىٰ الموجودة بالقرب من دير القديسة كاثرين– مكان مدينة كليسما، كأهم مرسىٰ علىٰ البحر الأحمر سنة ١٥٠٨م، فقد بدأ عدد كبير من التجار والبضائع والحجاج يسافرون براً من القاهرة وإليها. لكن في ظرف قرن ونصف تناقص عدد وفود الحجاج إلىٰ حده الأدنىٰ. ويرجع السبب في ذلك بدون شك إلىٰ وجود قوات مسيحية معادية في المنطقة. وكما يشرح ذلك ف. إ. بيترس (المولود سنة ١٩٢٧م)، إن خليج العقبة وحصن أيلة قد سقطا في أيدي الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي (بيترس ٩٠). وبما أن الصليبيين الإفرنج كانوا مسيطرين علىٰ الطرق البرية في المنطقة، فإن القوافل كانت مجبرة علىٰ سلك طرق التوائية طويلة في محاولة منها "للتسرب" للحجاز (٩٠، ٩٣). وكما يروي ابن جبير (١١٤٥–١٢١٧م)، فإن أقصر مسافة من مكة وإليها انطلاقاً من القاهرة هو "الطريق الذي يمر بالعقبة أو أيلة في اتجاه المدينة المنورة. وهو سفر قصير يجد فيه المسافر البحر عن يمينه، وجبل الطور (أي جبل سيناء المعروف) عن شماله (بيترس ٩٣). لكن للأسف، بما أن الإفرنج كان لهم حصن منيع في هذه المنطقة، فإن الحجاج كانوا محرومين من استعمال هٰذا الطريق" (بيبرس ٩٣).

في سنة ١٣٧٨ م وبعد تراجع قصير، استأنفت مدينة الطور لعب دورها كأكبر مرسىٰ علىٰ البحر الأحمر. ففي سنة ١٣٨٤ م، وجد ليوناردو دي نيكولا فريسكوبالدي (القرن الرابع عشر الميلادي إلىٰ ما بعد ١٤٠٥م) مائتي راهب يعيشون بجبل سيناء (٥٣٧). ولكن بحلول سنة ١٤٧٩ م أصبح دير القديسة كاثرين مكاناً شبه مقفر مؤقتاً جراء سقوط الإمبراطورية البيزنطية. وفي سنة ١٥١٧ م ومع مجيء الإمبراطورية العثمانية، وبعد بسط هذه الأخيرة نفوذها علىٰ منطقة سيناء، جاءت

فترة تقوّىٰ فيها نشاط بناء التحصينات العسكرية، في كل من [مدينة] الطور، ونخل، ونويبة، والعريش، والقصير. وانتشر الأمن بدرجة عالية بأرجاء المنطقة. ويروي دون أكلانتي روشيتا (وهو من فرسان القبر المقدس الذي زار سيناء فيما بين سنة ١٥٩٨ و ١٥٩٩م) أن السلطان العثماني سليم قد قام ببناء جدار مزدوج حول دير القديسة كاثرين من أجل حمايته من أي هجمة محتملة، سواء أكانت من المسلمين أم من غيرهم (١٥٩). وبينما عرف ازدهار دير القديسة كاثرين تأرجحاً بين الصعود والهبوط فيما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، فإن مدينة الطور عرفت تراجعاً كمرسىٰ كبير، وتجمع سكاني نتيجة للسيطرة المتزايدة الغربية علىٰ طرق التجارة البرية والبحرية. وتزايد الاهتمام بدير القديسة كاثرين مع البعثة النابوليونية إلىٰ مصر في الفترة ما بين ١٧٩٩ و ١٨٠٤ م. وحينما وصل ج. ل. ستيفنس إلىٰ دير القديسة كاثرين عام ١٨٣٦ م، وجد فيها خمسين راهباً يقطنونه. وحينما زار منطقة سيناء سنة ١٨٣٧ م، وجد اللورد ليندزي عشرين راهباً فقط يسكنونه (٢٩١). ولم تسترجع منطقة البحر الأحمر وسيناء ازدهارها ودورها الاستراتيجي إلا بإنشاء قناة السويس سنة ١٨٦٩ م. ونتيجة للجهود التي بذلها النظام المصري الرامية إلىٰ تنمية المنطقة الجنوبية لسيناء، أصبح دير القديسة كاثرين، (سواء اعتُبر ذلك سلباً أم إيجاباً)، موقعاً سياحياً كبير الأهمية يزوره آلاف السياح يومياً إلىٰ جانب عدد قليل من الحجاج الحقيقيين.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون أهمية طريق للحج إلىٰ مكة عبر سيناء قد تناقصت نتيجة التراجع التدريجي للعلاقات بين الديانات السماوية الثلاث، والذي بدأ قبل سنين خلت. والحقيقة أنه لا يزال جل المسلمين في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وأوربا (أي أولئك الذين يرجعون في أصلهم إلىٰ الماضي النصراني المسيحي) يحتفلون بالأعياد المسيحية المهمة، وحصل ذلك خلال قرون بعد اعتناقهم الإسلام. وكانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين تصل في مستوياتها ومتانتها وطيبوبتها إلىٰ درجة أنهم كانوا يحتفلون معاً بعيد ميلاد المسيح وبعيد الفصح كما يحتفلون بعيد الأضحىٰ؛ كما أنهم كانوا يضحون بشاة احتفاء وتمجيداً بذكرىٰ السيدة مريم العذراء (بركلي ١٦٠). ولا تزال بعض الطوائف الإسلامية مثل الطائفة العلوية بسوريا

والطائفة العلوية بتركيا إلىٰ يومنا هـٰذا تحتفلان بعيد ميلاد السيد المسيح وبعيد الفصح وبعيد الطُّهور، إلىٰ جانب احتفالهما بالأعياد الفارسية. وقد يدفع هـٰذا بالمرء إلىٰ التساؤل فيما إذا كان علويّو سوريا وعلويّو تركيا يمارسون طقوساً إسلامية بدائية ظلت جامدة ومتحجرة في الزمان، وتظهر بمثابة بدعة فقط في نظر إسلام وصل إلىٰ مستوىٰ متقدم من التطور. إن الممارسات التعبدية للعلويين السوريين والأتراك -وهي تتعرض لتهمة الإسلام الناقص [أو الأسلمة الناقصة] والجمع بين المعتقدات المتنافرة-، تلتقي في سماتها بالكثير من التعبيرات الإسلامية في المرحلة الأولىٰ من الإسلام المكي وجزئياً في المرحلة المدنية. إنه نتيجة فقط لمجهود جماعي لفقهاء المسلمين تم التخلي عن تلك الأعياد، وتم تعويضها بالاحتفال بالمولد النبوي، أي مولد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ.

ورغم كونه حدثاً نادراً، إلا أن هـٰذا التوافق والتقاطع التعادلي بين المؤمنين الموحدين كان يحدث بين فترة وأخرىٰ في تاريخ الإسلام. ففي سنة ١٣١١ م مثلاً، حينما انتشر وباء الطاعون فجأة، سار يهود ومسلمو ومسيحيو دمشق جنباً إلىٰ جنب في مسيرة جماعية، وهم يصلُّون حاملين كتبهم المقدسة، متضرِّعين إلىٰ الله بالدعاء (ليمور ٢٢١). وفي سنة ١٣١٧م، عندما حلت مجاعة كبرىٰ نتيجة الجفاف، اجتمع مسلمو ومسيحيو ويهود القدس في صلاة جماعية للاستسقاء (ليمور ٢٢٠)؛ وقد استجاب الله تعالىٰ لدعائهم في اليوم الثالث (٢٢٠). وفي سنة ١٣٨٤ م، يروي فريسكو بالدي لقرائه النصارىٰ أن المسلمين يبجِّلون مريم العذراء، ويوحنا المعمدان، (لاحظ جيداً) والقديسة كاثرين (١٠١). وظل الطقس التعبدي النصراني الإسلامي المتعلق بالقديسة كاثرين حياً ووصل أوجه خلال القرن الرابع عشر الميلادي. لكن للأسف لم نشهد أمثلة علىٰ التضامن الروحي [بين الأديان] إلا قليلاً منذ ذلك العهد.

رغم انخفاض عدد الحجاج المسلمين الزائرين لجبل سيناء بشكل كبير في عهد المماليك، إلا أن البعض من أولئك الحجاج استمر في القيام بتلك الزيارة. وبرأي الكاتب براندي راتكليف: "تشير كل الوثائق المحفوظة إلىٰ أن الدَّيْر كان يستقبل في جبل سيناء وفي الأماكن التابعة له حجاجاً مسلمين كانوا يفدون عليه في مرحلة

الحكم المملوكي وهم قادمون من مكة أو متجهين إليها". ويصف فان إيغمونت وجوهن هيمان في كتابهما أسفار في مناطق أوربا وآسيا الصغرىٰ وجزر الأرخبيل وسوريا وفلسطين ومصر وجبل سيناء الخ، علىٰ إثر تجوالهما بالشرق فيما بين سنة ١٧٠٠ و١٧٢٣ م، بأن "كل الأتراك الزائرين لجبل سيناء لأغراض دينية كانوا يجدون المأوىٰ والعناية في الدَّيْر، دون أن تُستثنىٰ النساء في ذلك" (١٦٧). واعتباراً بأن النساء محرم عليهن دخول الدَّيْر، وهو أمر ينطبق علىٰ أي دير ينتمي للكنيسة الأرثودوكسية الشرقية، حيث لا يسمح لولوجها حتىٰ لإناث الحيوانات، فإن الامتياز الممنوح لنساء المسلمين كان في الواقع أمراً استثنائيـاً. بحلول أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، تقلصت حركة وفود الحجاج من القاهرة إلىٰ دير القديسة كاثرين إلىٰ حدها الأدنىٰ. ويصف كوستانتين فرانسوا دو شاسبوف دو فولني، المستشرق والمؤرخ الفرنسي ورجل السياسة، في كتابه أسفار إلىٰ مصر -وهي الأسفار التي قام بها في سنوات ١٧٨٣م و ١٧٨٤م و ١٧٨٥م- "بأن هذه الرحلات لا تتم إلا مرة واحدة في السنة" (٢٠٤). وبمجيء سنة ١٨٣٦م حينما زار ج. ل .ستيفنس دير القديسة كاثرين، لاحظ بأن كلاً من الكنيسة والمسجد الموجودين فوق قمة جبل سيناء كانا في حالة خراب" (٢١٩). ويبدو أنه حزن لرؤية ما اعتبره "مكانـاً مقدسـاً يلتقي فيه أتباع عيسىٰ وَمُحَمَّد في عبادتهما للرب الحي الحقيقي" (٢١٩). وبما أن جبل سيناء يشكل جزءا من طرق الحج إلىٰ مكة فإن محمد علي، حاكم مصر فيما بين سنتي ١٨٠٥ و ١٨٤٨م قام بإصلاحات للدير خلال فترة حكمه. وهناك روايات تعود إلىٰ حدود منتصف القرن التاسع عشر تسجل زيارة بعض الحجاج المسلمين من حين لآخر (١٦١). وتعتبر فترة القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فترة التقهقر الخطير. وفي الوقت الذي تحتاج فيه هذه المسألة إلىٰ فحص عميق فإن أبرز تطور يتبادر إلىٰ الذهن في هذه الفترة يتمثل في ظهور حركة المتشددين التكفيرية خلال القرن الثامن عشر؛ وهناك إفادات أيضـاً صادرة عن بدو سيناء لتلك الفترة مفادها أنه كانت تمارس عليهم من أفراد تلك الحركة المتشددة، والتي كانت لا تعتبرهم مؤمنين حقيقيين. ومن المحتمل أن يكون أن يكون لصعود تلك الحركة [المنغلقة] دور في تحول المنطقة إلىٰ مكان غير آمن بالنسبة للمسلمين والمسيحيين التقليديين علىٰ حد سواء.

وبحلول سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٦م حينما قام ميزرا محمد حسين بأداء مناسك الحج (القرن التاسع عشر) كان العثمانيون المتأخرون يمرون بوادي جبل سيناء كمحطة للحِجر الصحي بعد أداء مناسك الحج علىٰ إثر اندلاع وباء الكوليرا (انظر وولف ٢٩٠-٢٩١). ويبدو أنه لم يمر بخلد الحجاج أنهم كانوا بالقرب من سفح أحد أقدس المواقع في التقليد الديني التوحيدي. وبحلول الثلاثينات من القرن العشرين، أصبح المسجد الموجود بداخل الدَّيْر أصعب ولوجًا حيث لم يعد الرهبان يسمحون للمسلمين بدخوله إلا في شهر رمضان (١٦١). وفي الوقت الذي استمر فيه الزوار المسلمون وخدام الدَّيْر الجبلية في ارتيادهم المسجد إلىٰ غاية الفترة المعاصرة، فإن "بروداً في العلاقات بين الرهبان والسلطات المصرية أدىٰ إلىٰ إغلاقه" (١٦١) في الثمانينات من القرن العشرين. وبتزامن مع صعود نفوذ الإخوان المسلمين في العقد الثاني من الألفية الثانية، فإن سلطات الدَّيْر وجدت نفسها منشغلة بخطر قيام المتطرفين أمثال المنتسبين للحركة السلفية باغتصاب وربما بتدنيس وهدم المواقع المقدسة. وكما سجل ذلك كل من باتريك كينغسلي ومروة عواد، بتاريخ ٥ أيلول/ شتنبر ٢٠١٣، فإن دير القديسة كاثرين اضطر إلىٰ إغلاق أبوابه جراء الوضعية الأمنية المتردية في منطقة سيناء، أي انتشار "الجهاديين" التكفيريين بعبارة أخرىٰ.

ونتيجة لانتشار السلفية المتطرفة التي تقول إن الحج إلىٰ أي مكان آخر غير مكة هو شكل من أشكال الشرك، فإن أدعياء السنة قلما يبدون أي احترام للأماكن المقدسة والمزارات. وبالمقابل فإن المسلمين الشيعة، والذين يقتفون أثر النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ، وأهل بيته، يبدون قدراً أكبر من الاحترام للرموز الدالة علىٰ الله تعالىٰ (انظر الآيات القرآنية الآتية ٢٢:٣٢؛ ٨١: ٤٠؛ ٥:٢٩؛ ٣١:٣٢). ومن هٰذا المنطلق فإنهم يعتبرون الحج إلىٰ المزارات المقدسة أفعالاً تدخل في إطار الورع والتقوىٰ، ولذلك فإنهم يزورون قبور الأربعة عشر معصومـاً، وهم النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ و[ابنته] فاطمة الزهراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والأئمة الإثنا عشر من ذريتهما. كما يزورون قبور المشاهير من الشهداء والأولياء والعلماء. ويزورون بقاعـاً [أخرىٰ] لها صلة بالأنبياء التوراتيين بإيران والعراق والأردن وفلسطين ومصر. وبعملهم هٰذا يشعر الشيعة بأنهم يعملون

علىٰ ربط الصلة بماضيهم الديني ويستعيدون لحظات مهمة من تاريخ الإسلام. ومن البديهي -وهٰذا صحيح- أن أهل السنة التقليديين الذين يوجد بحوزتهم عدد لا يحصىٰ من المواقع المقدسة لا يزالون يحترمون رموز وآيات الله ويبجلون البقاع المقدسة في ربوع العالم الإسلامي. وفي الأرض المقدسة [بفلسطين]، نجد قبر نبي الله داوود علىٰ جبل صهيون (ليمور ٢٢٣)، وقبر القديسة بيلاجية، وقبر رابعة العدوية، وقبر النبية هولدة في جبل الزيتون (٢٢٧) وقبر مريم العذراء في وادي يهو شباط، وكنيسة القيامة (٢٢٠)، إضافة إلىٰ جبل الهيكل، وأماكن أخرىٰ عديدة. في القرن الثامن الميلادي، تم إضافة محراب إلىٰ كنيسة كاثيسما علىٰ الطريق بين القدس والخليل؛ وهو المكان الذي يعتقد أن مريم العذراء استراحت فيه". (انظر راثليف في كتابه الجماعات المسيحية ص٣٤). وقد وصل الأمر بالخليفة الأموي هشام (الذي حكم فيما بين ٧٢٤ و ٧٤٣م) إلىٰ درجة أنه قام بنقل محل إقامته "الملكية" إلىٰ الرصافة أو سيرجيو بوليس، وهو المكان الذي يوجد به مزار القديس سيرجيوس، حيث أمر ببناء مسجد بجانب الكنيسة الشهيرة هناك (راثليف الجماعات المسيحية ص ٣٤؛ وكذلك فلود ٢٤٨). ولقد بنىٰ المسلمون مسجد دمشق الأعظم علىٰ موقع باسيليكا القديس يوحنا المعمدان (راتليف، الجماعات المسيحية، ص ٣٤).

وخلال الحكم العثماني زار المسلمون كنيسة القدس (فاروخي ١٧٠-١٧١) وعلىٰ غرار مكة والمدينة والكوفة وكربلاء، إلىٰ جانب البقاع المقدسة الأخرىٰ فإنه يعتقد أن جبل سيناء لا ينتمي لهٰذا العالم، وأن قيمته هي في حقيقة الأمر بمثابة دوامة روحانية تربط بين هٰذا العالم والعالم الروحي. وقد أدرك ذلك بعمق الكاتب هوبز، وعبر عن ذلك بما يلي: "بواسطة الملك جبريل أوحىٰ الله تعالىٰ لنبيه مُحَمَّد ﷺ بتراث جبل سيناء حتىٰ يكون بمثابة الأساس الصلد الذي عليه بني الإسلام" (٣٣).

وعلىٰ الرغم من ادعاء البعض بأن النَّبيّ ﷺ منع الحج إلا لثلاثة أماكن هي مكة والمدينة والقدس، فقد قام شخصياً بالحج إلىٰ عدد من البقاع المقدسة سواء قبل البعثة أو بعدها. ولقد زار أماكن مقدسة بسيناء والشام في أيام شبابه، كما زار قبور شهداء الإسلام. ويروىٰ أن محمداً ﷺ سجد علىٰ لوح من طين. وبينما يعتبر

هٰذا التقليد مجرد تطوع عند أهل السنة، فإن آل البيت الشيعة يعتبرونه من الفرائض. وتجدر الإشارة إلىٰ أن عادة أخذ التربة والطين من المزارات وأماكن الحج هي عادة كانت متأصلة في الناس حتىٰ قبل مجيء الإسلام. وقد كانت بالفعل عادة معروفة عند النصارىٰ. وتلك الحجارة الطينية التي تمتزج فيها المادة بالصور المقدسة كان يعتقد بأنها تشتمل علىٰ مزايا روحية واستشفائية (فلود ٢٥٠). وكان المؤمنون الحجاج إلىٰ هذه الآثار المقدسة يمسحون بها أعينهم وأفواههم وجباههم (راتليف، السفر إلىٰ المقدّس، ٨٦).

فإن كان المسلمون الشيعة يصلّون فوق أرض كربلاء المقدسة، وأرض النجف الأشرف ومشهد، وغيرها من البقاع المقدسة، فهل يكون النَّبيّ ﷺ قد سجد فوق التربة المقدسة التي أتىٰ بها من جبل سيناء؟ وإن كان الأمر غير هٰذا، فإن النَّبيّ ﷺ يكون بالتأكيد قد سار علىٰ نهج من سبقه من الأنبياء باتباع ذلك التقليد المتوارث. واستناداً إلىٰ تعاليم الإسلام المتوارثة فإن الأرض قد أصبحت طهوراً للصلاة بفضل مشي النَّبيّ ﷺ فوقها، كما أصبحت أرض المدينة المنورة شفاء وعلاجاً [للأسقام] بفضل لعاب النَّبيّ ﷺ الذي ارتوت منه.

نُزُولُ الوَحْيِ وَإِعْلَانُ النُّبُوَّةْ

يبدو أن لقاء النَّبيّ ﷺ بنصارىٰ سوريا والجزيرة العربية وسيناء كان له أثر عميق علىٰ شخصيته. إن هذه الأحداث لم تلهم محمداً ﷺ أو تُوحِ له بإعلان النبوة، كما أنها لم توح البتة بأنه تلقىٰ تعليمه علىٰ يد اليهود والنصارىٰ، كما يدعي ذلك مناوئوه سواء في الماضي أو في الحاضر، ولو أن هٰؤلاء وأولئك لم يقدموا أدنىٰ دليل علىٰ ما يدّعون. لكن تلك اللقاءات المبكرة بالنساك والرهبان والقساوسة النصارىٰ أكدت بالفعل وضعيته كنبي طال انتظاره من قبل اليهود والمسيحيين علىٰ السواء. ويبدو أنها دعمت ثقة النَّبيّ ﷺ في إمكانية الاستعانة بتضامن أهل الكتاب معه. لكن كتّاب السيرة لا يُجمعون علىٰ هٰذا الرأي. يقول م.أ.صلاحي في هٰذا الشأن ما يلي:

"كيفما كانت الحقيقة حول قصة [بحيرا]، والروايات الأخرىٰ، فإنه من المؤكد أنها لم تؤثر في مُحَمَّد ﷺ بأي شكل من الأشكال، بالإضافة إلىٰ هـٰذا فإن الأشخاص الذين سمعوا ما دار بين بحيرا وأبي طالب لم يكلفوا أنفسهم عناء حكايتها للآخرين. إن القيمة الوحيدة التي تشتمل عليها هذه الروايات هي تأكيدها علىٰ أن رجال الدين والعلماء من الديانات الأخرىٰ كانوا واعين بظهور نبي في جزيرة العرب" (٣١).

إن صلاحي ينطلق علىٰ أية حال علىٰ أساس الاعتقاد بأن محمداً ﷺ أصبح رسول الله عند نزول الوحي عليه وهو في سن الأربعين. واعتباراً لرأي الإسلام التقليدي المتوارث، فإن محمداً ﷺ كان دائماً نبياً؛ وبالتأكيد، فإنه كان نبياً منذ خلق الله الخلائق. لقد كانت حياة مُحَمَّد ﷺ وهو في رعاية الله وحماية الملائكة منذ ولد إلىٰ حين وفاته، محاطة بعناية روحية ربانية عميقة، تجلت أماراتها في عدة مناسبات. ولذلك، ونتيجة لتفاعلات النَّبيّ ﷺ المتكررة بالنصارىٰ المنتمين لعدة مشارب منذ طفولته المبكرة إلىٰ حين بلوغه سن الرشد (هايا ١-٣)، فقد أدرك مُحَمَّد ﷺ أن ما يجمعه بأتباع المسيح عيسىٰ بن مريم هو أكبر مما يجمعه بالمشركين المحيطين به.

ففي سنة ٦١٠م حينما بلغ مُحَمَّد ﷺ سن الأربعين، ونزلت عليه أول سورة من الوحي الإلـٰهي، كانت خديجة زوجته والمؤتمنة علىٰ أسراره لفترة بلغت خمسة عشر عاماً، هي أول من آمن به وصدق رسالة نبوته. وبالرغم من أنها لم تكن من أهل الكتاب، فقد كانت مثلها مثل مُحَمَّد ﷺ تنتمي لجماعة الأحناف. وهو مذهب صغير في أوساط العرب ظل محافظاً علىٰ العقيدة التوحيدية للنبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. كما أنها كانت علىٰ صلة وثيقة بالديانة النصرانية عن طريق ابن عمها ورقة بن نوفل. والحقيقة أنه عندما ظهر الملَك جبريل لمُحَمَّد ﷺ، كما تحكي ذلك زوجته عائشة، فإنه:

"رجع مُحَمَّد ﷺ إلىٰ خديجة وقلبه يخفق خفقاناً شديداً؛ فذهبت به إلىٰ ورقة بن نوفل الذي كان علىٰ دين النصارىٰ، وكان يقرأ الإنجيل بالعربية. فسأل نوفل النَّبيّ ﷺ "ماذا رأيت؟" وعندما أجابه قال ورقة: "إنه نفس الملك

الذي أرسله الله تعالىٰ إلىٰ النَّبيّ موسىٰ. وددت لو عشت إلىٰ يوم نزول الرسالة عليك فأكون ممن يؤيدونك بما ملكت يدي". (انظر البخاري).

وفي رواية أكثر تفصيلاً تقول عائشة ما يلي:

"ذهبت به خديجة حينذاك إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ، الذي كان علىٰ دين النصارىٰ في الجاهلية، وكان يعرف الكتابة بالحروف العبرية، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً ضعيف البصر. فقالت خديجة لنوفل: "اسمع لقصة ابن أخيك يا ابن عمي". فسأله ورقة: "ماذا رأيت يا ابن أخي؟" فوصف له رسول الله ﷺ كل ما رآه. فقال له ورقة: "إنه نفس الملك المؤتمن علىٰ الأسرار بعينه الذي أرسله الله لموسىٰ. وددت لو عشت حتىٰ يخرجك قومك. فسأل رسول الله ص: "أوسيخرجوننىٰ؟"، فأجاب ورقة بأن نعم، ثم قال: "كل من جاء بما جئت به كان يلقىٰ نفس العداوة، فلو عشت إلىٰ يوم يطردونك لكنت لك سنداً وعضداً بما ملكت يدي". لكن ورقة توفي أياماً بعد ذلك" (انظر البخاري).

وكما تنبأ بذلك ورقة بالضبط، فقد اضطهد المشركون النَّبيّ ﷺ. لكن ثقته في الطائفة النصرانية لم تتزعزع. وإذا ما صدق كل من كانسينو أسانس (١٨٨٢-١٩٦٤م) وألويس سبرينغر (١٨١٣-١٩٨٣م) فيما قالاه من أن بحيرا انتقل إلىٰ مكة ليعيش بالقرب من النَّبيّ ﷺ (انظر سبرينغر ٥٩١ و أسينس ١٤٨) فإن ثقة مُحَمَّد ﷺ في رسالته لم تكن إلا لتزيد رسوخاً وقوة. لكن رسول الله ﷺ خضع لابتلاء عسير بجميع المواصفات، إذ أنه بحلول سنة ٦١٥م حينما أصبحت الظروف فعلاً لا تطاق بالنسبة لأتباعه بمكة، أشار عليهم بالهجرة إلىٰ الحبشة كلاجئين دينيين تحت حماية النجاشي، الذي كان ملكاً نصرانياً حكيماً. وبحسب ما يذهب إليه الماوردي وأبو موسىٰ فقد رجع رجل يدعىٰ بحيرا مع جعفر بن عبد المطلب من المنفىٰ بالحبشة، (سبرينغر ٥٩١). ويقول ابن حجر إنه شخص آخر؛ غير أن ابن الأثير يعرّفه علىٰ أنه هو بحيرا من بصرىٰ (سبرينغر ٥٩١).

لم تمض إلا أيام قليلة، أي بحلول سنة ٦١٩م حتىٰ توفيت كل من خديجة زوجة النَّبيّ ﷺ المحبوبة إلىٰ قلبه، كما توفي عمه الشهم أبو طالب. وبفقدانهما فقدَ النَّبيّ ﷺ سنداً يصعب عليه تعويضه. لكن في سنة ٦٢٠/ ٦٢١م وجد النَّبيّ ﷺ العزاء الكبير في حادثة الإسراء والمعراج، أو السفر الليلي الذي من خلاله أسرىٰ الله بالنَّبيّ في ليلة واحدة من مكة إلىٰ سوريا، أي إلىٰ بلد إبراهيم الخليل، ومنها إلىٰ فلسطين، موطن عيسىٰ المسيح، ثم إلىٰ جبل سيناء، بلد موسىٰ. وقد لخص القرآن الكريم بإيجاز ذلك السفر الإعجازي، فأقسم الله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ (٩٥: ١-٣). وبما أن إبراهيم الخليل وموسىٰ وعيسىٰ كانوا كلهم أنبياء مقيدين بشريعة إلٰهية أو بمدونة قوانين شرعية إلٰهية بواسطة كتب سماوية هي صحيفة إبراهيم وتوراة موسىٰ وإنجيل عيسىٰ، فإن الله تعالىٰ أكد بذلك أن محمداً ﷺ هو فعلاً آخر رسول بعثه الله وهو خاتم الأنبياء، كما أنه هو النَّبيّ المؤتمن علىٰ القرآن الكريم كآخر وحي أنزله الله تعالىٰ. وبعد فترة قاسية دامت عقداً من الزمن عرف فيها النَّبيّ ﷺ صعوبات جمة، بدأ ﷺ يرىٰ النور في آخر النفق.

صَحِيفَةُ (أَوْ دُسْتُورُ) المَدِينة

بعد أن سمعوا برسالة مُحَمَّد ﷺ وبعد لقائهم به في مناسبتين، وجه عرب يثرب (وهي المدينة الغنية التي كانت تعرف تطاحناً داخلياً شرساً) الدعوة إلىٰ النَّبيّ ﷺ للإقامة بين ظهرانيهم، متخذين منه قائداً روحياً وسياسياً. وفي تقدير مايكل ليكر، فإن بعض الروايات توحي بأن تكون قريش والأنصار (وهٰؤلاء هم مسلمو يثرب الأوائل) قد عقدوا معاهدة بغرض حقن الدماء التي كانت تسفك فيما بينهم (٢٠٠٠: ١٥٧-١٦٧). وبحضور النَّبيّ ﷺ اقتنع سكان المدينة المتحاربين أهلها ما بين قبائل عربية [الأوس والخزرج]، يضاف إليها قبائل يهودية كانت تتحالف مع هٰؤلاء أو مع أولئك، بأن يكون النَّبيّ ﷺ خير حَكَم يفصل بينهم. ولم يكن اليهود مجرد موالي للقبائل العربية بل كانوا يشكلون حلفاء أقوياء نافذين لتلك القبائل (ليكر ٢٠٠٠: ٦٧). وعند وصول النَّبيّ ﷺ إلىٰ يثرب عام ٦٢٢ م، قدم ميثاقاً/ عهداً عرف

بصحيفة المدينة (أو مدونة) المدينة. وتنص هذه الوثيقة بشكل جلي وبدون لبس علىٰ حقوق وواجبات كل أعضاء المجتمع الذين يعيشون في المدينة.

وعلىٰ الرغم من [أن] السيرة (أي سيرة حياة النَّبيّ ﷺ بمنظورها الأورثدوكسي المتوارث والمتفق عليه) تقول إن كتابة الصحيفة وقعت مباشرة بعد حلول النَّبيّ ﷺ بالمدينة، فإن فرانسيس إ. بيترس (المولود سنة ١٩٢٧م) يعتقد بأن "مواد وبنود الوثيقة قد يرجع تاريخ كتابتها إلىٰ عدة أشهر بعد وصول النَّبيّ ﷺ إلىٰ المدينة" (٢٠٠). وهٰذا رأي معقول لكون مُحَمَّد ﷺ كان في حاجة إلىٰ متسع من الوقت لكي يقيّم الوضع الاجتماعي السياسي في الواحة. ولهٰذا فإن بعض الدارسين مثل جوهن ل. إسبوزيتو John L. Esposito (المولود سنة ١٩٤٠م) يعتقدون بأن الوثيقة قد كتبت فيما بين سنة ٦٢٢م و ٦٢٤م (٨٠). وقد تكون كتبت بعد هٰذا التاريخ لأنها لا تذكر لا اسم بني قريظة ولا اسم بني النضير ولا اسم بني قَيْنُقَاع. فإما أن تكون قد كتبت بعد طرد هذه القبائل اليهودية العدوانية، وإما أن تكون أسماؤها قد تم حذفها من النسخة الأصلية للوثيقة؛ إذ يصبح تضمين أسماء قبائل لم يعد تنطبق عليها شروط المعاهدة من باب الحشو الزائد.

هناك أيضًا احتمال أن تكون القبائل اليهودية الثلاث المشار إليها لا تقطن داخل أسوار المدينة وإنما كانت موجودة في بلدة خيبر، كما تنص علىٰ ذلك المصادر الإسلامية المبكرة (شولر ٣٠، م٤٤). لكن مايكل ليكر يفيد بأن يثرب الكبرىٰ كانت في الحقيقة تضم مدينة يثرب ومجموعة من القرىٰ المجاورة. فبينما كان بنو النضير وبنو قَيْنَقَاع يعيشون في بلدتي القُف والزُّهرة، فيما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية للمدينة المنورة، (٢٠١٠ ٦٦، ٧٠)، فإن بني قريظة كانوا يقطنون في المنطقة الجنوبية الشرقية منها (٦٥). لم تقم هذه القبائل اليهودية فقط بمنع انتشار الإسلام في أرجاء المدينة، بل تورطت في أعمال معادية للمصالح الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الإسلامي المديني. ويوضح ذلك بصفة جلية الباحث مايكل ليكر حين يقول: "إن أهم القبائل اليهودية، وهي بنو النضير وبنو قريظة وبنو قَيْنَقَاع، لم يرد ذكرها كأطراف مشاركة في وثيقة صحيفة المدينة لسبب بسيط وهو أنها لم تكن طرفًا معنيًا

بها" (٦٨). وقد يرجع ذلك إلىٰ كونها كانت تعيش في تجمعات خارج أسوار المدينة [أي] في ضواحي المدينة. ويقول الواقدي في هٰذا السياق:

"عندما حل رسول الله ﷺ بالمدينة، سالمه اليهود قاطبة وكتب عهداً بينه وبينهم. وجعل النَّبيّ ﷺ رباطـًا بين كل قبيلة والقبائل الموالية لها. كما عقد حلف حماية بينه وبينهم. وكتب لهم شروطـًا من بينها أن لا يتحالفوا مع أي عدو يكون ضده" (٨٧).

وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذه المعاهدة أو السلسلة من المعاهدات قد تكون مختلفة عن صحيفة أو دستور المدينة. وكيفما كان الأمر، فإن صحيفة المدينة تنص علىٰ ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هٰذا كتاب من محمدٍ النَّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بأنّ المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنّهم أمّة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على رِبعتهم (حالهم، من وردوا المدينة) يتعاقلون بينهم، ويفْدون عانيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عَوْف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي

عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإنّ المؤمنين لا يتركون مفرجًا (المثقل بالديْن والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإنّ المؤمنين المتّقين على من بغى منهم، وابتغى دسيعة (كبيرة) ظلم، أوعدوان، أوفساد بين المؤمنين. وإنّ أيديهم عليه جميعًا ولو ولد أحدهم، ولا يَقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا يُنصر كافر على مؤمن، وإنّ الله واحد يجير عليهم أدناهم. وإنّ المؤمنين بعضهم مولى بعض، دون الناس. وإنّه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإنّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم. وإنّ كلّ غازية غزت معنا، تعقب بعضها بعضًا، وإنّ المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإنّ المؤمنين المتّقين على أحسن هدى وأقومه، وإنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنّه من اعتبط مؤمنًا قتلاً على بيّنة فإنّه قَوَد به، إلاّ أن يرضى وليّ المقتول، وإنّ المؤمنين عليه كافّة، ولا يحلّ لهم إلاّ قيام عليه، وإنّه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا (مجرمًا)، ولا يؤويه، وإنّه من نصره أوآواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وأنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد رسول الله ﷺ. وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإنّ بني عوف أمّة مع المؤمنين، ليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم أوأثم فإنّه لا يُوتغ (يهلك) إلاّ نفسه، وأهل بيته. وإنّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف.

إلاّ من ظلم أو أثم فإنّه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته. وإنّ جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. وإنّ لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ البر دون الإثم. وإنّ موالي ثعلبة كأنفسهم. وإنّ بطانة يهود كأنفسهم. وإنّه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنّه لا يحجز على ثار جرح، وإنّه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، وإلاّ من ظلم، وإنّ الله على أبرِّ هٰذا. وإنّ على اليهود نفقاتهم، وعلى المسلمين نفقاتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأنّ بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفة، وإنّ النصر للمظلوم، وإنّ يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإنّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، وإنّه لا تُجَار حرمة إلاّ بإذن أهلها، وإنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث أو اشتجار يخاف فساده، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنّ الله على من اتّقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وأنّه لا تُجَار قريش ولا من نصرها. وإنّ بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه، وإنّهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنّه لهم على المؤمنين، إلّا من حارب في الدّين. على كلّ أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإنّ ليهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحيين من أهل هذه الصحيفة، لا يكسب كاسب إلاّ على نفسه، وإنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنّه لا يحول هٰذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنّه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلاّ من ظلم أو أثم، وإنّ الله جار لمن برّ واتّقى، وَمُحَمَّدٌ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

صَحِيفَةُ المَدِينَةِ في سِيَاقٍ نَقْدِي

يمكن اعتبار صحيفة المدينة (أو دستور المدينة) من أهم التحف الثمينة لبداية الدعوة الإسلامية. فهي تسلط أضواء كاشفة علىٰ أسس العقيدة الإسلامية. وكما يعترف بذلك روبرت ج. هويلاند (المولود سنة ١٩٦٥م) فإن "الصحيفة أجمع علىٰ أصالتها وصحتها جل الباحثين" (٢٠٠٠ : ٢٩٠، م٥٨). ويذهب إلىٰ حد القول إن الكاتبة باترسيا كرون (المولودة سنة ١٩٤٥م)، رغم كونها شخصاً لا تحب الإسلام كثيراً ولا المسلمين، فإنها تعترف مع ذلك بأصالة الصحيفة في كتابها ***عبيد فوق خيول***(٧). أما دونر (المولود سنة ١٩٤٥) فبالرغم من أن نظرياته حول أصول الإسلام يمكن انتقادها -بل ينبغي ويجب نقدها- علىٰ أنها لا أساس لها مطلقاً، فإنه مع ذلك يمكن الاعتراف له بشيء واحد ألا وهو إقراره بقدم صحيفة المدينة. فهو يشرح ذلك في كتابه ***محمد والمؤمنون*** الذي يقول فيه ما يلي:

> "إن وثيقة الأمة... تبدو علىٰ جانب معتبر من الجودة الوثائقية. فرغم الاحتفاظ بها في مجموعات من النصوص اللاحقة، فإن نصها وأسلوبها يختلف اختلافاً بيناً عن كل شيء آخر تضمنته تلك المجموعات النصية، كما أنها تتميز عنها بطابعها العتيق بشكل بديهي إلىٰ درجة أن أشد الناس تشكيكاً لا يمكنهم إلا أن يسلّموا بأصالتها وقيمتها الوثائقية الفعلية".

الآن وقد أثبتنا القيمة التاريخية لصحيفة المدينة فإنه من المناسب أن نقوم بتحليل مضمونها. ولهٰذا الغرض يجدر بنا أن نعتمد مقاربة ظواهراتية نرىٰ أنها هي الأنسب لذلك، حيث نقوم بربط الوثيقة بسياقها الثقافي مقارنين مضامينها بالممارسات السائدة. كما يتعين علينا التطرق للعناصر السياسية للصحيفة لما لها من تداعيات علىٰ الإسلام في مختلف أرجاء العالم اليوم.

لقد هيأ النَّبيّ ﷺ صحيفة المدينة في تصميم منه علىٰ جعل حد للاقتتال الداخلي الذي كان أمراء الحرب العرب لقبيلة الخزرج يخوضونها ضد منافسيهم من اليهود. وبهٰذا العمل أرسىٰ النَّبيّ ﷺ [قواعد] أول دولة إسلامية. ذلك أن الهوية

والولاء لم تعد تحدده الأسس العشائرية أو القبلية، ولم تعد الهوية مبنية علىٰ أساس القرابة ولا علىٰ أساس الدين نفسه، بل أصبحت الهوية التي تعلو علىٰ كل شيء هي هوية الانتساب إلىٰ أمة مُحَمَّد ﷺ. إن صحيفة المدينة تنص علىٰ أن مواطني الدولة الإسلامية يشكلون وحدة موحدة غير قابلة للانقسام، بغض النظر عن انتمائهم الديني. فسواء أكانوا وثنيين أو كانوا من أهل الكتاب، أو مسلمين، فكل من شملته الصحيفة [ببنودها] فهو عضو كامل العضوية ينتمي للأمة الإسلامية الواحدة. وبعمله هٰذا أنشأ رسول الله ﷺ حكومة متسامحة وتعددية تحمي الحرية الدينية. إن هٰذا الأمر استثنائي خارج عما كان مألوفاً من قبْل إلىٰ درجة أنه يساء معها فهمه.

حينما يتم مواجهة بعض المستشرقين مثل بيترس (المولود سنة ١٩٢٧م) ببند مثل البند الذي ينص علىٰ "أن يهود بني عوف هم أمة واحدة مع المؤمنين"، فإنهم ببساطة يصبحون مشدوهين. يقول بيترس (ص ٢٠١) "إذا كان مسموحا لليهود منذ البدء بممارسة دينهم داخل 'الأمة' التي تشكلت حديثاً، فإن هٰذا يعني أن المجتمع المدني الذي أنشأه محمد هو ببساطة مجتمع علماني، وأن لفظ 'أمة' بالتالي قد تم استعماله بمعنىٰ مغاير للمعنىٰ الذي يحمله في مواضع وروده في القرآن" (٢٠١).

إن طبيعة الدولة الإسلامية الأولىٰ بالنسبة لمعظم الناس بما فيهم أغلبية المسلمين هو مفهوم يوجد خارج إطار ما ألفوه من المرجعية السياسية المعروفة. ولذلك فقد وصفوها بأنها دولة مَلَكية أحياناً، ودولة نظام ثيوقراطي أحياناً أخرىٰ، أو حتىٰ أنها دولة نظام علماني، وكلها تعريفات خاطئة. إن مجتمع النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ كان نظاماً فريداً من نوعه لم يسبقه أو يأت بعده أي نظام آخر، بالرغم من الجهود الصادقة التي حاولت تقليده. ولقد فهمتْ ذلك بوضوح كارين أرمسترونغ (المولودة سنة ١٩٤٤م) حيث إنها تقول في هٰذا الصدد ما يلي:

"في المنظور الإسلامي ليس هناك ثنائية بين ما هو مقدس وما هو دنيوي، وبين ما هو ديني وما هو سياسي، ولا ما بين السلوك الجنسي والسلوك الديني التعبدي. فكل الحياة هي بالأساس ذات حمولة مقدسة، وينبغي أن تكون خاضعة للمشيئة الإلٰهية. والغاية [النهائية] من كل هٰذا هو التوحيد

وإدراج الحياة كلها وفي شموليتها ضمن مجتمع واحد موحد، مما من شأنه أن يعطي للمسلمين الإحساس بالواحد الأحد الذي هو الله" (٢٠٠٠: ١٤-١٥).

في الديمقراطية اليونانية أو الأثينية (خلال القرن الخامس الميلادي) مثلاً، كان الأشخاص الذين يُعتبرون مواطنين هم فقط الرجال البالغون الأحرار، المولودين بأثينا أو بأصبرتا، أما العبيد والنساء والأطفال والأجانب وأغلبية الفلاحين (هٰؤلاء الذين يمثلون نصف السكان) فكانوا كلهم خارج ذلك التصنيف . بعبارة أخرىٰ، كان أكثر من نصف السكان مكونـًا من "كائنات" شبيهة بالبشر لا من بشر حقيقيين. فما كان يدعىٰ "ديمقراطية" أو "حكم الشعب" كان في الحقيقة "ديمقراطية تكرس العبودية" أو "ديمقراطية العبيد والأسياد". وعلىٰ الرغم من أن الإسلام لم يلغ نظام الرق دفعة واحدة، إلا أنه أنشأ نظامـًا من شأنه أن يقضي علىٰ العبودية تدريجيـًا بصفة نهائية. بالنسبة للإسلام لم يكن الرق حالة دائمة؛ فالعبيد ليس بإمكانهم فقط أن يصبحوا كلهم أحراراً بفضل عملهم أو باعتناقهم للدين الإسلامي، لكن كل الأطفال المولودين للعبيد هم أحرار في الإسلام. كما يقضي الإسلام بأن يعامَل العبيد معاملة إنسانية، وينص علىٰ أن تحرير رقاب العبيد هو من باب العبادات وأعمال البر والتقوىٰ؛ بل يعتبر كفارة من بين الكفّـارات عن الآثام والذنوب.

يمكن الدفع في هٰذا المقام بأن تشابه الديمقراطية اليونانية والنظام "الليبرالي" في الديمقراطية الغربية ليس من باب الصدفة. إن صحيفة المدينة يمكن مقارنتها أيضـًا بدستور جمهورية روما (٥٠٩-٢٧ ق.م) حيث كان الرومان الجمهوريون يتحدثون بدورهم عن "حكم الشعب"، لكن هٰذا الأمر كان مسألة نظرية أكثر منها واقعـًا معيشـًا. أما القناصل-وهم الحكام الحقيقيون المتحكمون في رقاب الشعب- فقد كانوا يتصرفون مثل الملوك ويسيطرون علىٰ مجلس الشيوخ كما علىٰ مجلس الشعب. هٰذا الأخير كان مشكلاً من ممثلي فرق الجيش؛ وكان ببساطة يمثل النخبة المتحكمة في الاقتصاد. أما مجلس الشيوخ الذي كان مكونـًا من الأعضاء النافذين علىٰ المستوىٰ السياسي، فقد كان يمثل الطبقة الأرستقراطية. أما عامة الشعب فكانت عبارة عن أرقام

في حساب (ومن باب السخرية أنه في بعض الديمقراطيات الحالية فإن الأعداد ولوائح السواد الأعظم من السكان لا تجد لها كبير أثر في العملية السياسية). أما عامة الشعب (أو الجماهير) التي تشكل أغلبية السكان الرومان، فلم يكن بمستطاعها أن تحكم أو تنتخب الحكام أو أن تمتلك الأراضي، إذ كان كل هٰذا حكراً علىٰ الطبقة الأرستقراطية والنبلاء. وهٰؤلاء، بصفتهم ملاك أراضي، كانوا هم المتحكمين في مجلس الشيوخ. لكن في المجتمع الذي أفرز صحيفة المدينة كان كل عضو فيه يتمتع بالمساواة أمام 'القانون' والشرع. ذلك لأن الامتيازات المبنية علىٰ الطبقية أضحت ملغاة. فالغني والفقير، والشريف والوضيع، والعربي والعجمي، والأبيض والأسود، والرجال والنساء، والأطفال والبالغون، كل عضو في أي فئة من هذه الفئات كان يتمتع بنفس الحقوق. وحتىٰ مُحَمَّد ﷺ بصفته رسول الله لم يكن فوق القانون. فقد قال ﷺ في كلام بليغ ما مؤداه 'فلو أن فاطمة سرقت (وهو أمر لا يمكن مجرد تصوره لأن روح فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا روح معصومة ومنزهة عن ذلك)، لقطع محمد يدها"، مستعداً بذلك لتطبيق حد السرقة علىٰ ابنته نفسها. وباعتبار الطابع التقدمي الأصيل الذي تميزت به صحيفة المدينة، يمكننا أن نتساءل لماذا يتم تجاهل هذه الوثيقة لصالح الاقتراحات الأقل ديمقراطية، والمتمثلة في "الديمقراطية اليونانية"، و"جمهورية روما؟"

فعلىٰ نقيض التأويلات التي جاءت بعد عهد الرسول ﷺ للإسلام، والتي أصبح بمقتضاها أهل الكتاب يُعتبرون كفاراً، وأن أتقىٰ المسلمين فقط هم المؤمنون الحقيقيون، فإن النَّبيّ ﷺ أنشأ مجتمعـًا من المؤمنين يضم داخله كل أعضاء الديانات الإبراهيمية الثلاث. ففي عهد النَّبيّ ﷺ كان أهل الذمة من يهود ونصارىٰ ينتمون لجماعة المؤمنين. أما لفظ "كفار" فقد كان محصوراً في أولئك الذين كانوا يعملون جاهدين علىٰ محاربة الإسلام، ويخططون للقضاء عليه. وهٰذا لا يعني أن الإسلام لم يكن عقيدة متميزة، كما ذهب إلىٰ ذلك فريد م. دونر (المولود سنة ١٩٤٥م) (٥٨)، أو أنه كان بدعة متفرعة عن اليهودية والنصرانية، كما ادعىٰ ذلك بعض المستشرقين. إن الأمر يتعلق فقط بتبيان أن الإسلام، بصفته تتويجـًا للديانات السماوية، فهو ينظر إلىٰ اليهودية والنصرانية كأسس الوحي الإلـٰهي الأخير. وإذ يصح القول مع دونر بأن مفهوم

جماعة المؤمنين كان إطاراً جامعـاً يضم اليهود والنصارىٰ، فإن هٰذا من شأنه أن يبين فقط الطبيعة التوحيدية للإسلام في مرحلته المبكرة. فعلىٰ الرغم من أن المسلمين الأوائل كانوا متسامحين مع أهل الكتاب، واحتضنوهم كإخوة في العقيدة التوحيدية، فإنهم كانوا واعين بهويتهم المتميزة. ويتجلىٰ هٰذا بوضوح في عملية التآخي التي أشرف عليها النَّبيّ ﷺ بين المسلمين المهاجرين والمسلمين الأنصار. تلك الأواصر الأخوية لم تكن مبنية علىٰ رابطة الدم والقرابة أو رابطة اللون أو الطبقة الاجتماعية، بل كانت مبنية علىٰ رابطة الإيمان الجماعي بالدين الإسلامي.

إن ادعاء دونر بان كلمتي "إسلام" و"مسلم" "لم تكن لهما بعد [وفي البداية] حمولة الانتماء الطائفي التي نربطها اليوم بلفظتي "إسلام" و"مسلم" (٧١) لَيُبَيِّنُ جهلاً من جانبه بمبادئ اللغة العربية. فحينما يتحدث القرآن عن "الإسلام" كفعل "استسلام" وعن "المسلم" علىٰ أنه الشخص "المستسلم"، فإن اللفظتين قد تم استعمالهما في معنىٰ غير محدد. لكن حينما يتحدث القرآن عن "الإسلام" كدين وعن "المسلم" كتابع لذلك الدين، فإن المعنىٰ يصبح محدداً يقصد به شيئـاً محدداً بعينه. وحينما يقول القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (٣: ١٩) فإنه يقصد بالتأكيد 'إن الدين عند الله هو الدين الإسلامي'، ولا يقصد بذلك 'إن الدين عند الله هو فعل الاستسلام'. وينطبق هٰذا أيضـاً علىٰ قوله تعالىٰ:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٥: ٣). فالمقصود هنا هو 'الإسلام كدين'، وليس 'فعل الاستسلام'؛ أي أن الإشارة هي إلىٰ الانتماء إلىٰ الديانة الإسلامية، وليس إلىٰ فعل استسلام بدون تحديد. إن الدين الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ مُحَمَّد ﷺ لم يكن عقيدة غير متسامحة أو إقصائية. فقد كانت بمثابة إحياء وتصحيح لملة إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، في سلسلة متعاقبة ختمها رسول الله ﷺ. فكما فهم ذلك جيداً ستيفن أوشي: "إن الرسالة التي نزلت علىٰ محمد، وهو آخر الأنبياء في سلسلة طويلة من الأنبياء، قد عملت علىٰ تحسين ونسخ كل ما جاء قبلها" (١٥). وإذ جاء الإسلام مصدقـاً للديانات الإبراهيمية التي سبقته، فقد جاء أيضـاً لتصحيحها وإتمامها. فلو أن تلك الديانات لم تنحرف عن النهج القويم وعن التطبيق السليم للتعاليم الدينية، فلن

تكون هناك حاجة إلىٰ مجيء نبي أو رسول خاتم. فقد جاء الإسلام من أجل تحيين وإتمام وتصحيح المعرفة الروحية السابقة، ولم يأت كانحراف عنها أو ابتداع مناقض لها. وفي نظر المسلمين، إن اليهودية والنصرانية هما عبارة عن خطوات متتالية علىٰ طريق الخلاص الروحي. والإسلام جاء مصداقاً لكلام الله تعالىٰ كآخر خطوة. وبما أن الإسلام هو المتمم للرسالة التوحيدية، فقد أدمج وسهر وأكمل كل الديانات السماوية السابقة.

ليس هناك أي سند لما يعتقده دونر من كون الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان (الذي حكم ما بين ٦٨٥ و٧٠٥م) قد ساعد علىٰ تحويل 'حركة المؤمنين' إلىٰ ما أسماه "الإسلام" (١٩٤-٢٢٤). فلقد عرّف مُحَمَّد ﷺ نفسه علىٰ أنه نبي الله ورسوله، وعلىٰ أن الدين الذي جاء به هو الإسلام، وان أتباعه هم المسلمون، وذلك في الرسائل العديدة التي بعثها والتي لا تزال محفوظة في المتاحف إلىٰ يومنا هٰذا. ومن بين مجموع الرسائل الإثنتين والستين التي قيل إن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ قد أرسلها والتي كُتبت باللغات العبرية والسريانية والعربية (انظر زيتلين ١٣١)، فإنه يوجد تسع وعشرون نصاً منها رهن الإشارة لمن أراد الاطلاع عليها (انظر دار راه حق: ١٣٣-١٣٤). وهذه النصوص الأخيرة لا تتضمن الرسائل التالية: عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان سيناء، وعهد مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران، وعهد مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ الآشوريين، وعهد مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ فارس، وعهد مُحَمَّد ﷺ للنصارىٰ الأرمن بالقدس، وعهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ العالم (بصيغتيْها الإثنتين)؛ بالإضافة إلىٰ رسائل محتملة أخرىٰ غير هذه. ولذلك فإن ما يربو عن خمس وثلاثين رسالة نبوية قد تحدَّت قروناً من الزمن ولا تزال موجودة إلىٰ يومنا هٰذا. أما دونر فيبدو أنه يمضي سواد وقته وهو يحاول التشكيك في المراجع والمصادر التي ظهرت في القرون التي تلت مباشرة عهد النَّبيّ ﷺ، بينما يتجاهل تماماً المصادر [المباشرة] التي تركها النَّبيّ ﷺ نفسه. فإذا ما ثبت خطأ الادعاء بأن الإسلام كدين متميز قد ظهر تحت حكم عبد الملك بن مروان، فإنه يبقىٰ مع ذلك صحيحاً القول "إن علاقة الثقة المتبادلة والتعايش الذي كان سائداً بين المسلم والنصراني في بداية الحكم الأموي،

فإنها بدأت تتغير خلال حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م)، وحكم أولاده الأربعة الذين تعاقبوا علىٰ سدة الحكم من بعده" (بيتس ٩). وكما تحاول أن تبين ذلك إنغريد ماتسن (المولودة عام ١٩٦٣م): "يبدو أن المسلمين كانوا يبرزون هوية تميزهم عن أهل الكتاب في الوقت الذي كانوا في الآن نفسه يسعون إلىٰ مد يدهم إلىٰ الآخر متخطين في ذلك الحاجز العقدي ومحاولين تجسيره" (١٤٩).

إن تصلب هٰذا الموقف الذي بدأ تحت حكم عبد الملك بن مروان قد ظهر في تجليات متعددة. فانسجاماً مع برنامجه الشامل في فرض الطابع الإسلامي، قام الخليفة [الأموي] ببناء مسجد الصخرة كرمز علىٰ التفوق الإسلامي، كما فرض اللغة العربية كلغة رسمية وجعلها لغة الإدارة (فوس ١٣٦). ولم يكتف بحذف الصليب من النقود المسكوكة وإبدالها بشعارات دينية كتبت باللغة العربية فقط، بل قام بسك زوج من القطع النقدية التي كانت مثار جدل وسجال (١٣٦). أما القطعة النقدية الأولىٰ التي كانت تحمل رقم A٨٩ فكانت تحمل صورة رجل علىٰ وجهها يمكن أن تكون صورة الخليفة الذي كان في الحكم، كما يمكن أن تكون صورة للنبي مُحَمَّد ﷺ نفسه، حسب فوسو و هويلاند. وعلىٰ ظهر القطعة توجد صورة أخرىٰ أكثر غرابة؛ فبالنسبة للبعض فهي تمثل قطباً أو عموداً يرمز إلىٰ الخليفة كنقطة ارتكاز الأمة (فوس ١٣٧، ١٤٢، ٢٨٧، م٨). لكن بالنسبة لآخرين تمثل الصورة صليباً مكسوراً، وهٰذا يرمز إلىٰ انتصار الإسلام علىٰ المسيحية. وبما أن المقصود هو الصورة العاكسة التي ظهرت علىٰ وجه القطع النقدية السابقة (١٤٠، الرسم ٦٥، A٨٦) باستثناء غياب الخطوط الأفقية، فلا يمكنني إلا أن أستنتج أن الصورة ترمز إلىٰ صليب مكسور (١٤٢، A٨٩). وفي الحقيقة يمكن أن تكون بمثابة إشارة إلىٰ الحديث النبوي الذي ينص علىٰ أن المسيح عيسىٰ سيقوم بكسر الصلبان عندما يبعث مجدداً. وكيفما كان القصد من وراء تلك الصورة، فهي تسجل تغييراً جذرياً في العلاقة بين الإسلام والمسيحية. فسواء أكانت صورة الشخص العربي الملتحي الممتشق سيفاً هو الخليفة عبد الملك أم النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ (١٤٢، A٨٩َ)، [فالصورة] تشير إلىٰ سطوة الإسلام. والصورة الموجودة علىٰ ظهر القطعة النقدية C٨٩ الحاملة لصورة رجل إلىٰ جانب الصورة علىٰ وجه

القطعة e٨٩ هما أكثر لغزاً. فكما يؤكد فوس في نصه: "إن الشخص صاحب الصورة يختلف عن الخليفة في معظم قطع السلسلة. والكتابة علىٰ القطع النقدية تقول: "محمد رسول الله". إن الاستنتاج يبدو بديهياً ومفاجئاً إلىٰ حد بعيد: أتكون الصورة للنبي نفسه؟" (١٣٧). إن القطع النقدية التي ضربها الخلفاء في أيام حكمهم فيما بين سنوات ٦٩٤/ ٦٩٥م و٦٩٢/ ٦٩٧م هي آخر القطع التي تحمل صورة إنسان. [وكيفما كان الحال]، لنعد الآن للحديث عن الفترة المبكرة التي تلت حلول النَّبيّ ﷺ بالمدينة.

فإذا كان عرب مدينة يثرب معروفين بأنهم أمراء حرب وبأنهم عدوانيون مولعون بالقتال تستحكم فيهم عادة الأخذ بالثأر، فقد جاءهم النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لإصلاح ذات البين بينهم ولنسيان ضغائنهم الماضية بالرحمة والطيبوبة. وبما أن الأحقاد القديمة والمطالبة بالثأر كانت مشاعر من شأنها أن تهدد الدولة الإسلامية الناشئة، وتشعل الحزازات القديمة من جديد، فقد أولت صحيفة المدينة اهتماماً دقيقاً ومفصلاً لمسار استتباب السلم وإرساء علاقات الاستقرار بين القبائل. فإذا كان قانون 'العين بالعين' سائداً عند الأعراب الرحل فإنه لم يكن فلسفة سكان الحواضر، إذ كان هٰؤلاء يتوقون إلىٰ حياة مزدهرة. ولهٰذا الغرض فإن أداء الدية مالاً لأهل القتيل المغدور أصبح تقليداً معمولاً به بدل عادة الأخذ بالثأر. وفي سعيه لنشر الأمن والسلام في المدينة قرر النَّبيّ ﷺ أن تكون مكاناً محرماً حيث يحرم فيه كل عمل عدواني أو حتىٰ [مجرد] حمل للسلاح. وقد أيد معظم سكان المدينة مجهود النَّبيّ ﷺ السلمي. لكن المنافقين من العرب واليهود بذلوا كل ما في وسعهم من أجل إفشال خطة النَّبيّ ﷺ السلمية، يحدوهم الأمل للعودة إلىٰ عاداتهم القديمة ورغبتهم في تصفية حساباتهم بحد السيف. (إن لفظ "منافقون" تعني أولئك الذين يظهرون الإسلام ويخفون معتقدات أخرىٰ).

في ابتعاد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ عن الفوضىٰ القبلية التي كانت لا تحتكم لأي قانون -حيث كان القوي يضطهد الضعيف، والغني يستغل الفقير- فقد عمل علىٰ حماية الفئات الأكثر هشاشة في المجتمع ومنها النساء والمعوزون. إن أهم ما في

الأمر أن المؤمنين أصبحوا كلهم سواسية أمام الشريعة والقانون. في وقت كان متعذراً علىٰ المظلوم الالتجاء إلىٰ حماية القانون من أجل إنصافه حيث لم يكن هناك أي قانون، فقد أرسىٰ النَّبيّ ﷺ نظاماً قضائياً يستند علىٰ التعاليم الإلٰهية، إذ أصبح القرآن الكريم والسنة مكرسيْن في الواقع كأساس وحيد للتشريع. فكل القضايا كان لزاماً أن تُرد إلىٰ الله ورسوله النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ.

وعلىٰ الرغم من أن غير المسلمين يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون، ولهم حرية القيام بشعائرهم الدينية، فهم كانوا غير مرغمين علىٰ المشاركة في حروب الفتوحات التي كان المسلمون يخوضونها. وبهٰذا المعنىٰ فإنهم كانوا يتمتعون بحقوق دون القيام بواجبات مقابلها. لكن ومع ذلك، كان علىٰ المسلمين وعلىٰ اليهود معاً واجب حماية بعضهما البعض إذا تعرضوا للاعتداء من قبل أعدائهم. وفي مثل هذه الحالات كان علىٰ المسلمين واجب حماية اليهود من أعدائهم، كما علىٰ اليهود واجب حماية المسلمين. وفي الحالات التي تصبح فيها الطائفتان تحاربان في صف واحد، فإن تكاليف الحرب كانت تقتسم فيما بينهما بالتساوي. وقد أظهر النَّبيّ ﷺ طبيعته الرحيمة حينما أدخل واجب الحماية لتشمل المقاتلين وغير المقاتلين طالما لم ينخرط هٰؤلاء في جرائم أو في أعمال وحشية.

ففي إطار هذه الأمة الحديثة التي أنشأها النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لم يصبح الولاء للقبيلة أو للقرابة، بل أصبح الولاء للقانون[أو الشريعة]. لقد أصبح كل المؤمنين إخوة. ومن أجل تطبيق النظرية علىٰ أرض الواقع، سعىٰ النَّبيّ ﷺ إلىٰ مؤاخاة المهاجرين والأنصار، فآخىٰ مثنىٰ مثنىٰ بين غني وفقير، وبين أبيض وأسود، وبين شريف ووضيع. لقد كان هٰذا ميلاد فجر جديد، وميلاد ثقافة وحضارة جديدتين. ما فعله الرسول ﷺ كان شيئاً غير مسبوق: لقد أنشأ دولة جديدة فريدة من نوعها في تاريخ الحضارة الإنسانية الفكري والسياسي، أُسست فيما يزيد عن ألف وثلاثمائة سنة قبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ " (خان ١). واعتباراً للمستوىٰ غير المسبوق الذي تميزت به الحقوق والحريات والحمايات protections، التي سعىٰ النَّبيّ ﷺ إلىٰ إرسائها، فقد أصبح الدخول إلىٰ الأمة الإسلامية شيئاً جد مرغوب فيه لدىٰ العرب

الوثنيين، كما لدىٰ ثلة من اليهود وعدد لا يستهان به من المسيحيين. وبفضل طابعها التعددي كانت صحيفة المدينة إلىٰ حد كبير تعد نداء إلىٰ التعايش السلمي. لقد أتت بحقوق لغير المسلمين وشجعتهم علىٰ الانخراط في المجتمع الإسلامي الواسع.

ردّ فِعْل اليَهود وَالنَّصَارىٰ عَلَىٰ مجيء الإسْلام

عندما حل النَّبيّ ﷺ بالمدينة، سرّ كثيراً بلقاء سلمان الفارسي (المتوفىٰ سنة ٦٥٤م). وكان سلمان عابر سبيل ورحالة روحيًا يطوف طول البلاد وعرضها باحثًا عن الحقيقة. بدأ مشواره زرادشتيًا، ثم اعتنق المسيحية وخدم أسقفين وثلاثة قساوسة. وكان ثالث هٰؤلاء القساوسة هو من أخبره بمجيء النَّبيّ المنتظر. كما سبق أن قال له قس ورع [آخر] بأن ذلك النَّبيّ سيظهر بمكة، ثم سيهاجر إلىٰ مدينة كثيرة النخيل، ويوجد خاتم النبوة بين عظمي كتفيه، ولا يأكل طعامًا أعطيه إلا إذا كان هدية؛ ولا يأكل الصدقة. وفي سعي سلمان الفارسي الحثيث للوقوف علىٰ علامات النبوة [المذكورة] سأل بعض العرب من قبيلة بني كلب أن يأخذوه إلىٰ شبه جزيرة العرب مقابل بعض المال. لكن القوم خدعوه إذ نقضوا عهدهم وباعوه لرجل يهودي. وبعدما أمضىٰ سلمان بعض الوقت في خدمة اليهودي كعبد مملوك له، باعه هٰذا الأخير لابن أخيه من بني قريظة بيثرب. وكان سلمان منقطعًا لأعبائه وواجباته في خدمة سيده إلىٰ درجة أنه لم يصله خبر أن النَّبيّ قد صدع بدعوته وأعلن نبوته بمكة وبات يدعو الناس للإسلام. وبمرور السنين هاجر النَّبيّ ﷺ أخيراً إلىٰ يثرب. فعلم سلمان حينها بمقدمه وسر لذلك الخبر المفرح وناله جراءه فيض من السعادة والحبور. ويشرح سلمان ذلك بنفسه عندما ذهب للقاء النَّبيّ ﷺ، حيث يقول:

> "عند حلول المساء حملت بعض الزاد وذهبت للقاء النَّبيّ ﷺ وكان بقباء. فقلت: "لقد قيل لي إنك رجل تقي ورع وأنه معك بعض المسافرين. إن معي شيء من الصدقة، فقلت في نفسي إنك أحق الناس بها، خذها مني وكل شيئًا منها. لكن النَّبيّ ﷺ سحب يده من الطعام وامتنع عن الأكل منه، ثم دعا أصحابه للأكل. حينها قلت لنفسي: "هذه إحدىٰ الأمارات التي حدثني

شيخي عنها". وبينما أنا عائد رأيت أن النَّبيّ ﷺ كان يتهيأ للذهاب إلىٰ المدينة، فحملت الطعام إليه وقلت: "رأيت أنك لم تأكل من هذه الصدقة، والحال أنني لم أقدمها كصدقة وإنما قدمتها كهدية. هنالك أكل النَّبيّ ﷺ مع صحابته، فقلت في نفسي: "هذه ثانية الأمارات". وفيما بعد ذلك اقتربت من النَّبيّ ﷺ وهو يشيع جنازة. وأذكر أنه كان يرتدي رداءين، وكان برفقة أصحابه، وكنت أختلس النظر علّي أرىٰ خاتم النبوة علىٰ ظهره، فرمقني النَّبيّ ﷺ في تلك اللحظة وقد أدرك أنني كنت أريد أن أتأكد مما قيل لي، فترك رداءه ينزل شيئا ما، فأبصرت خاتم النبوة بين عظمتي كتفيه تماماً كما وصفها لي معلمي، فارتميت علىٰ النَّبيّ ﷺ أقبّل يديه ورجليه، ثم بدأت أبكي، فقال لي النَّبيّ الكريم ﷺ: "يا سلمان، حدثنا عن قصتك".

جلست أمام النَّبيّ ﷺ وحكيت له قصتي آملاً أن يسمعها أصحابه أيضـاً. وحينما انتهيت قال لي النَّبيّ ﷺ : "يا سلمان أطلب من سيدك أن يعتقك"، فقبل سيدي أن يعتقني لكن مقابل ثلاث مائة نخلة وستمائة قطعة من الفضة. عندها أعانني الصحابة بأن وهبوا لي ما بين عشرين وثلاثين غرسـاً من النخل لكل واحد منهم، وعُشُر ما يملك كل واحد منهم من الأرض؛ فقال لي النَّبيّ ﷺ: "احفر حفرة لكل غرس من أغراس النخل، وإذا فرغت من ذلك أخبرني كي آتي لأثبت كل أغراس النخل في مكانها بيدي". ثم حفرت الحفر حيث كان يجب أن توضع الشتائل بمساعدة أصحابي، فجاء النَّبيّ ﷺ فيما بعد ووقفنا بجانبه نمده بالشتائل وهو يثبتها في الأرض. فبالذي بعث محمداً نبيـاً ما ماتت منها شتلة واحدة".

ثم كان علي أن أؤدي ما علي من الفضة، فجاء رجل إلىٰ النَّبيّ ﷺ يحمل بعض الذهب كان قد أتىٰ به من المناجم، وكان بحجم بيضة حمامة تقريبـاً. فقال النَّبيّ ﷺ "يا سلمان خذ هـٰذا وأد به ما عليك". فأجبته "يا رسول الله كيف يكون هـٰذا كافيـاً لدَيْني؟" فقال: "إن الله تعالىٰ سيجعله كذلك". بهـٰذا الكلام أُقسم بالله لقد فاق وزن الذهب ألفـاً وستمائة قطعة من الفضة،

فلم أؤد ما علي من دين فحسب، بل ما بقي عندي كان بمقدار ما أعطيتهم" (Inter-Islamic).

ونتيجة لفضائل النَّبيّ ﷺ الحميدة وأوصافه الجسدية التي سبقت الإشارة إليها، اعتنق سلمان الإسلام وأعتقه النَّبيّ ﷺ من سيده اليهودي مؤدياً ثمن عتقه عنه. وبحكم أن سلمان كان نصرانياً وعالماً بأمور الدين، واعترف للنبي ﷺ بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فإن محمداً ﷺ عقد آمالاً عراضاً علىٰ أن تعتنق القبائل اليهودية بيثرب الإسلام كذلك. فبالإضافة إلىٰ اشتمال القرآن الكريم علىٰ مضمون واسع ذي طابع نصراني، فإنه وجه الكثير من حكمته نحو بني إسرائيل. ففيما يتصل بمسائل التوحيد، والطهارة ومحرمات الأكل والشرب، واتخاذ بيت المقدس قبلة [أولىٰ] للصلاة، فإن الإسلام يُعتبر إلىٰ حد بعيد إحياءً للتعاليم اليهودية الحق. إن قصة الحصين بن سلام بن الحارث (المتوفىٰ سنة ٦٣٠م، وهو الحبر الأعظم بيثرب)، لهو دليل علىٰ ميل اليهود للإسلام. يقول الحصين بن سلام ما يلي:

"حينما سمعت بظهور رسول الله ﷺ بدأت أسأل عن اسمه ونسبه وطباعه وعن مكانه وزمانه؛ وبدأت أقارن ذلك بما جاء في كتبنا، ومن هذه التحريات اقتنعت بصدق نبوته وصدّقت حقيقة رسالته، لكنني أخفيت عن اليهود ما توصلت إليه وكتمته في صدري... ثم جاء اليوم الذي غادر فيه النَّبيّ ﷺ أرض مكة قادماً إلىٰ يثرب، فلما وصل إلىٰ يثرب ونزل بقباء، جاء رجل مهرولاً إلىٰ المدينة ويصيح في الناس يخبرهم بمقدم النَّبيّ ﷺ. في تلكم اللحظة كنت موجوداً علىٰ أعلىٰ نخلة أقوم ببعض الأشغال وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت النخلة. فلما سمعتُ الخبر بدأت أصيح 'الله أكبر ! الله أكبر !'. حينما سمعتني عمتي أُكَبِّرُ، نهرتني وهي تقول: 'قبحك الله... فوا لله لو أنك سمعت موسىٰ قادماً ما كنت قد أظهرت كل هٰذا الحماس'؛ قلت 'يا عمتاه إنه والله أخو موسىٰ ومتبع دينه. لقد أرسل بنفس الرسالة التي أتىٰ بها موسىٰ'. سكتت لحظة ثم قالت: 'هل هو النَّبيّ الذي حدثتَنا عنه وقلتَ إنه سيأتي ليصدق الحق الذي جاء به الأنبياء من قبله ويتم رسالة ربه؟' 'قلت: أي نعم'.

ودون تردد أو تأخير ذهبت إلىٰ لقاء النَّبيّ ﷺ. فرأيت حشداً من القوم أمام بابه فسرت وسط الحشد إلىٰ أن اقتربت منه. وكان أول ما سمعته منه قوله: 'أيها الناس، أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام'. نظرت إليه ملياً وحدقت فيه فتأكدت بأن وجهه ليس وجه مفتر أفَّاك. دنوت منه أكثر وشهدت أن لا إله إلّا الله وان محمداً رسول الله'. التفت إلي النَّبيّ ﷺ وسألني: 'ما اسمك؟' قلت 'الحصين بن سلام'. فقال وهو [يسميني] اسماً جديداً 'إنه الآن عبد الله بن سلام'، قبلت الاسم وقلت: "نعم هو عبد الله بن سلام. فوا الذي بعثك بالحق إنني لا أحب أن يكون لي اسم غيره ابتداء من هٰذا اليوم' (Islamic Web).

بالإضافة إلىٰ سلمان الفارسي، هناك نصارىٰ آخرون اعتنقوا الإسلام وضمنهم شاب مسيحي من نينوىٰ أُسر في الطائف. وأبرز عمليات دخول المسيحيين في الإسلام وقعت في بداية الإسلام. ويشير ابن اسحق (٧٠٤/ –٧٧٠/ ٧٦١م) إلىٰ ذلك فيما يلي:

"عندما كان الرسول ﷺ في مكة جاءه وفد يتكون من عشرين مسيحياً من الحبشة علىٰ إثر سماعهم بخبره. وجدوه بالمسجد، فجلسوا إليه وتحدثوا معه، فبدؤوا يسألونه بعض الأسئلة بينما كان بعض القرشيين في ناديهم خلف الكعبة. وحينما فرغوا من طرح كل أسئلتهم ودوا لو أن الرسول دعاهم لله وقرأ لهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت عيونهم من الدمع ولبوا نداء الله، فآمنوا به وشهدوا له بالحق. فلقد وجدوا فيه ما تحدثت عنه كتبهم. ولما قاموا منصرفين اعترضهم أبو جهل مع نفر من قريش فقال لهم: "ويحكم ما أتعسكم من قوم ! إن قومكم أرسلوكم لاستخبار أمر الرجل لكن ما إن جلستم إليه حتىٰ تركتم دينكم وصدقتموه. ألا والله إننا لم نر أحداً أغبىٰ منكم' (أو كلاماً من هٰذا القبيل). أجابوه: 'سلام عليكم، إننا لا نريد الخوض في جدال عقيم معكم. لنا ديننا ولكم دينكم. إننا لن نألو جهداً لاختيار الأحسن'".

قيل إن هٰؤلاء النصارىٰ جاؤوا من نجران، والله أعلم إن كان

الأمر كذلك. وقيل أيضاً إن الآيات الآتية نزلت في حقهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٢٨:٥٢-٥٥) (ص١٧٩).

كان نصارىٰ نجران حسب كودرز Godders علىٰ مذهب النصارىٰ التوحيديين monophysites (١٦). واستناداً إلىٰ Betts فإن هٰذا المذهب لم يكن معروفاً في عصر النَّبيّ ﷺ: 'إن نصارىٰ نجران شمال اليمن كانوا توحيديين أول الأمر بفعل تأثير الاحتلال الحبشي، ثم تحولوا بعد ذلك إلىٰ المذهب النسطوري حينما أصبحوا تحت دائرة الهيمنة الفارسية سنة ٥٧٥م" (٥). فإذا كان النسطوريون عبارة عن ماء وزيت زيتون، أي يؤمنون بأن طبيعة المسيح البشرية وطبيعته الإلٰهية لا يمكن أن تمتزجا، فإن التوحيديين كانوا بمثابة 'الماء والخمر'، أي أنهم كانوا يعتقدون أنه رغم تمازج الطبيعتين، فإن ذلك الامتزاج يبقىٰ عصياً علىٰ الإدراك والتحليل اللاهوتي (روجرسن Rogerson ٨٢). في مسألة الإيمان والعبادة كانت تجمع القومَ أشياءٌ كثيرة بالمسلمين. وهو ما سهل دخولهم للإسلام.

وكانت هنالك شخصيات أخرىٰ معروفة أسلمت علىٰ يد النَّبيّ ﷺ ومنهم قيس عبد الرشيد (٥٧٥- ٦٦١م) الذي يقال عنه إنه كان الجد الأسطوري تقريباً لقبيلة البشتون. فعلىٰ الرغم من القول إن الأفغان قبل الإسلام كانوا بوذيين وزرادشتيين وهندوسيين، ويهوداً فإنهم يعرِّفون أنفسهم بأنهم من بني إسرائيل. فقد زعموا أن قيس عبد الرشيد مثلاً هو الحفيد السابع والثلاثون للملك شاوول، مروراً بملك أفغانة Afghanah . وهٰذا الأخير هو أحد أحفاد الملك شاوول. فبعد ما سمع قيس بمجيء الإسلام في شبه جزيرة العرب، قيل إنه أُرسل إلىٰ المدينة للقاء النَّبيّ ﷺ. وإذ اقتنع بالحق الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ فقد رجع إلىٰ أفغانستان وأدخل قومه إلىٰ الإسلام.

لم يعتنق الحبر الأعظم بيثرب الإسلام وحده، بل انضم إليه في ذلك سائر أهله المقربين. فكما يشرح ذلك عبد الله بن سلام بنفسه:

"لقد أخفيت الأمر عن اليهود، ثم ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ وقلت 'إن اليهود قوم كذابون؛ وددت لو أخفيتني في أحد بيوتك منهم. ثم اسْألْهم عني ليقولوا لك ما هو قدري عندهم وقيمتي قبل أن أصبح مسلماً، لأنهم إن عرفوا هٰذا قبل أن تسألهم لافتروا علي الأكاذيب'. ثم آواني النَّبيّ ﷺ فجاء اليهود فسألهم عن قدري عندهم، فقالوا: 'إنه سيدنا وابن سيدنا وهو حبرنا وأعلمنا'. وحينما قالوا هٰذا خرجت عليهم وقلت: 'معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا بما أرسل الله إليكم. فإنه والله لتعلمون أنه رسول الله، وأنكم لتجدونه مذكوراً عندكم في التوراة بالاسم حتىٰ. وإنني أشهد أن لا إله إلا الله، أُومن به وأصدقه وأعترف به'. فاتهموني بالكذب وبدأوا يسبونني. ثم ذكّرت الرسول ﷺ بما قلته له بأنهم سيفعلون هٰذا، ذلك لأنهم قوم مخادعون وكذابون وأشرار. أعلنت إسلامي علىٰ الملإ، فتبعني في ذلك أهلي وعمتي خالدة" (ابن اسحق ٢٤١).

ورغم محاولة البعض من انتقاص قدر عبد الله بن سلام فإن نزاهته قد شهد له بها القرآن نفسه، الذي يقدمه كشاهد يهودي علىٰ الحق: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (٤٦ : ١٠).

وإذ آمن الكثير من اليهود [غير ابن سلام] واعترفوا بأن محمداً ﷺ رسول الله، فإن أغلبهم فضلوا مناوأته لأنه من ولد إسماعيل وليس من أبناء إسحق. فكما تروي ذلك صفية بنت حيي بن الأخطب، زوج النَّبيّ ﷺ: "كان أبي وعمي ياسر يفضلانني عن سائر الأطفال. وحينما أكون أمامهم فإنهما لا يلتفتان لأي أحد من أطفالهما. وعندما حل الرسول ﷺ بقباء عند بني عمرو بن عوف ذهب الإثنان للقائه في الصباح قبل طلوع الشمس ولم يعودا إلىٰ أن جن الليل، وقد نال منهما العياء والإنهاك كثيراً، فأقبلت عليهما في مرح وحبور الأطفال كما تعودت أن أفعل، فكانا في غاية العبوس والكآبة حيث إنهما لم يلتفتا إلي. فسمعت عمي يقول لأبي: "هل هو هو؟ أتعرفت عليه؟ وهل أنت متأكد من ذلك؟". "نعم"، [أجاب أبي]. "وبم تحس تجاهه؟" سأله

عمي. فردّ أبي: "والله إني لأظل عدواً له ما دمت حياً" (ابن اسحق ٢٤٢).

إلىٰ جانب عبد الله بن سلاّم، كان الشخص الوحيد الآخر الذي اعتنق الإسلام من اليهود البارزين هو حبر آخر يدعىٰ مخيرق والذي يتحدث عنه ابن اسحق ويصفه كما يلي:

> "كان حبراً عالماً يمتلك الكثير من النخيل. تعرف علىٰ رسول الله ﷺ من خلال أوصافه وبما علمه من العلم، وأحس بميل إلىٰ دينه، وحينما جاء يوم أُحُد الذي صادف يوم السبت، ذكّر اليهود بأن عليهم واجب مساندة مُحَمَّد ﷺ، فاعترضوا عليه بأن اليوم يوم سبت، فأجابهم "لا جعل الله لكم يوم سبت". ثم أخذ سلاحه والتحق بالنَّبيّ ﷺ بأحد. وترك وصية عند قومه تقول: "إذا قتلت اليوم فإن ما أملك سيترك لمُحَمَّد ﷺ ليستعمله كما أراد الله أن يستعمله"، فقتل في المعركة الموالية. وقد رُوِيَ لي أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ كان يقول: 'أفضل اليهود مخيرق'. فأخذ الرسول ﷺ أملاكه وكانت كل الصدقات التي وزعها في المدينة مما تركه [مخيرق]". (٢٤١)

أما بالنسبة لباقي يهود المدينة فإنهم تحالفوا مع المنافقين في محاولة منهم إطفاء نور الإسلام المتنامي. وقد سعىٰ أعداء الإسلام هٰؤلاء ما وسعهم الأمر إلىٰ إيذائه وخلق البلبلة حوله. وذهب الأمر ببعض الأحبار إلىٰ التظاهر بالإسلام في محاولة منهم تقويض الإسلام من الداخل. فكما يروي ابن اسحق (٧٠٤- ٧٦١/ ٧٧٠م):

> "كان هٰؤلاء المنافقون يجتمعون في المسجد ويستمعون إلىٰ قصص المسلمين فيضحكون منهم ويستهزئون بدينهم. وجاء يوم فرأىٰ النَّبيّ ﷺ بعضاً منهم يتناجون بينهم وهم متحلقون حول بعضهم البعض. فأمر بطردهم وبإخراجهم ببعض العنف". (٢٤٦)

ولما أدرك يهود المدينة محدودية المعارضة الشديدة التي واجهوا بها النَّبيّ ﷺ، سواء منها الداخلية أو الخارجية فقد عمدوا إلىٰ التآمر ضده مع المشركين لقتله وإطفاء الحركة الإسلامية من علىٰ وجه الأرض عن طريق القضاء علىٰ [مؤسسها].

المُعَارَضَة اليَهُودِيَّة: حَالَة بني قَيْنَقَاع وَبَني النَّضِير وبني قُرَيْظَة

بعد الهزيمة النكراء التي مني بها مشركو مكة في معركة بدر سنة ٦٢٤م، يروىٰ أن النَّبيّ ﷺ جمع يهود بني قَيْنَقَاع ودعاهم للإسلام قائلاً:

"معشر اليهود احذروا أن يصيبكم غضب من الله كما أصاب به قريشاً. أدعوكم للإسلام؛ وإنكم لتعلمون إني رسول الله. وتجدون ذلك مكتوباً عندكم في كتبكم وفي ميثاق الله الذي أخذه منكم" (ابن اسحق ٣٦٣). وكان جواب اليهود أبعد ما يكون عن اللباقة والكياسة، بل كان ردهم عبارة عن إعلان حرب. فقالوا: 'يا محمد يبدو أنك تفكر أننا من قومك. كلاً فلا توهمن نفسك، لأنك قد حاربت قوماً لا علم لهم بأمور الحرب فهزمتهم. ذلك إنه والله إن قاتلناك لوجدتنا رجالاً صناديد أشاوس' (ابن اسحق ٣٦٣).

وكما يروي ابن اسحق (٧٠٤– ٧٦١/ ٧٧٠م) كان الرد اليهودي كما وصفته الآيات القرآنية التي نزلت في هٰذا السياق؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ (٣: ١٢–١٣).

وبما أن بني قَيْنَقَاع نكثوا عهودهم ومواثيقهم، مع النَّبيّ ﷺ بل هددوه، فقد روي أن محمداً ﷺ تحرك ضدهم وحاصرهم مدة أربعة عشر أو خمسة عشر يوماً. وبعد المفاوضات استسلمت القبيلة دون شروط. وبما أنهم نقضوا عهد المسلمين، وقد يتحولون إلىٰ طابور خامس موال للمشركين، فقد كان من حق النَّبيّ ﷺ ومن صلاحياته الحربية أن يعمل فيهم السيف. لكن كرجل رحمة، قرر مُحَمَّد ﷺ أن يعامل القبيلة باللين والرفق وأمرها بالجلاء فقط. وقد ذهب إلىٰ حد السماح لها بجمع الديون المستحقة التي كانت لها علىٰ بعض سكان المدينة (الواقدي ٨٩). كما سمح لهم بأخذ كل ما يملكون معهم وانتقلت القبيلة إلىٰ مستوطنات بوادي القرىٰ شمال المدينة. وفي آخر المطاف استوطنت القبيلة بلدة درعا بسوريا بصفة نهائية غرب

سلخاد حيث اختلطت بالجماعات اليهودية الموجودة بالمنطقة.

لكن إن كان يهود بني قَيْنَقَاع قد ناصبوا محمداً ﷺ العداء شفوياً فقط، فإن يهود بني النضير قد دبروا مكيدة دنيئة لاغتياله. فبعد محاولتين علىٰ الأقل استهدفتا حياته، وكانت إحداهما قاب قوسين أو أدنىٰ من أن تجعل النَّبيّ ﷺ يبتلع لقمة مسمومة تؤدي بحياته، إذّاك قرر النَّبيّ ﷺ -وهو القائد الأعلىٰ لجماعة المسلمين- نفي بني النضير من المدينة سنة ٦٢٥م. ولكن اليهود، رغم قبولهم في البداية الانصياع إلىٰ قرار الإبعاد والنفي، وبتحريض من عبد الله بن أبي، زعيم المنافقين، فإنهم تحصنوا في قلاعهم المنيعة المحصنة، حيث وعدهم حليفهم المزعوم بتعزيزات قوامها ألفان من المقاتلين. غير أن يهود بني النضير انهزموا شر هزيمة أمام جيش المسلمين. لكن بدل أن يعمل النَّبيّ ﷺ السيف فيهم، فقد فتح لهم ممراً آمنا للخروج. وقد استقر معظم بني النضير في خيبر، بينما سافر آخرون منهم إلىٰ سوريا. ورغم هٰذا استمر من بقي من اليهود في إذكاء نار الفتنة والعداء ضد الإسلام. فإذا كانت مكائد بني النضير قد فشلت بدءاً في الوصول لأهدافها، فإن يهود بني قريظة انتقلوا من مؤامرة الاغتيال باستهداف الأفراد إلىٰ التآمر العسكري مع أعداء المسلمين.

ففي سنة ٦٢٧م حينما كان المسلمون محاصرين من قبل وثنيي قريش، فإن يهود بني قريظة في تنكر منهم للمواثيق والعهود التي قطعوها علىٰ أنفسهم، دخلوا في مفاوضات مع القوات المحاصرة. وكانت المآمرة تقتضي أن يتعرض المسلمون المحاصَرون لهجمة مزدوجة واحدة من الخارج بواسطة المشركين والأخرىٰ من الداخل بواسطة بني قريظة. يقول قريشي Qureshi في هٰذا السياق ما يلي:

> ”خلال غزوة الأحزاب تحالفت قبيلة بني قريظة مع العدو وتنكرت لشروط صحيفة المدينة. فقد سبق للمسلمين أن أبرموا معاهدتين معها كانت أولاهما صحيفة المدينة والأخرىٰ عقدت أثناء المعركة مع بني النضير“ (٢٦١).

وبمجرد اكتشاف المؤامرة وُجهت تهمة الخيانة للقبيلة اليهودية. فضُرب

حصار علىٰ بني قريظة الذين تحصنوا داخل قلاعهم المنيعة، ودام الحصار مدة خمسة وعشرين يوماً وانتهىٰ باستسلام القبيلة. لقد اعتنق بعض اليهود من بني قريظة الإسلام خلال فترة الحصار، واعترفوا بالفعل بأن محمداً ﷺ هو النَّبيّ الذي بشر به أكابرهم. فَوَقَوْا أرواحهم وأموالهم وأهلهم نتيجة إسلامهم (الواقدي ٢٤٧). وعلىٰ الرغم من نكث قريظة للعهود المبرمة، فقد حضَّهم مبعوث النَّبيّ ﷺ إليهم بالدخول في معاهدة جديدة مع رسول الله ﷺ يُسمح لهم بمقتضاها الحفاظ علىٰ دينهم مقابل أداء الجزية. لكن بني قريظة تمادوا في تحديهم وصلفهم وصرحوا بأنهم يفضلون الموت علىٰ أداء الجزية (٢٤٧). ونتيجة لموقفهم هٰذا اشتد عليهم الحصار إلىٰ أن أصبحوا عاجزين عن تحمله. وعند استسلامهم بدون شروط طلبوا فقط أن تتم محاكمتهم علىٰ يد رجل من القبيلة التي كانوا ينتمون إليها (نافزيغر Nafziger ووالتن Walton ص ٩- ١٠). ويؤكد نافزيغر Nafziger (المولود سنة ١٩٤٩م) ومارك و. والتن Mark W. Walton بأنه قد تمت تلبية طلبهم بالفعل، لكن الكاتبين يستدركان قائلين: "لكن الحكم الذي تم إصداره كان قاسياً" (١٠). وبحكم أن الأفراد الذكور تمت إدانتهم بالخيانة العظمىٰ، فقد قيل إنه ضربت رؤوسهم. بينما أخذت النساء والأطفال سبايا. وتزوجت إحدىٰ تلك النساء السبايا رسول الله ﷺ وهي ريحانة بنت زيد بن عمرو، والتي أسلمت فيما بعد، وتوفيت سنة ٦٣١م بعد مدة قصيرة من حجة الوداع، أي سنة واحدة قبل وفاة النَّبيّ ﷺ.

لكن ينبغىٰ التأكيد علىٰ أن تاريخية عملية الإعدام الجماعي هذه والتي بت فيها قاضي عيَّنه اليهود أنفسهم، والذي حكم بمقتضىٰ أحكام التوراة، كانت موضع تساؤل (دونر Donner ٧٣). فالصراعات بين النَّبيّ ﷺ ويهود المدينة قد تكون مبالغاً فيها إلىٰ حد كبير، وقد تكون بعض التفاصيل الزائدة من اختلاق الرواة (٧٣). فبينما أصبح تسلسل الأحداث كما رواها ابن اسحق هي الرواية المعتمدة، فإن مصادر أخرىٰ مثل رواية محمد الكلبي (٧٣٧- ٨١٩م) لا تذكر حادثة بني قَيْنَقَاع (شولر Scholler ٢٦-٢٧). فإذا كان ابن اسحق يذكر أن حادثة بني قَيْنَقَاع قد وقعت بعد غزوة بدر، وأن حادثة بني النضير وقعت بعد غزوة أحد، وأن حادثة بني قريظة قد وقعت بعد غزوة

الخندق، فإن رواية الكلبي تفيد بأنه لم يقع أي صراع مع اليهود قبل غزوة أحد (٢٦–٢٧). فبالنسبة لشولر Scholler، إن الأدلة المتوافرة تشير إلىٰ أنه ليس هناك حادث بني قَيْنَقَاع ولا حادث بني النضير، كما نقرأ ذلك في السيرة 'المعتمدة' [لابن اسحق]. ولكن هناك فقط حادث كبير لصراع واحد (٢٨– ٢٩). وبحسب شولر Scholler فإن هٰذا الصراع بين النَّبيّ ﷺ واليهود يمكن أن يكون قد وقع بالمدينة، وقد يكون وقع بخيبر (٣٠). أما فيما يتصل بما وقع بخيبر، فإن هناك عدة روايات مختلفة للأحداث.

فبدل أن يكون النَّبيّ ﷺ قد أقدم علىٰ إعدام يهود بني النضير، فقد يكون قد سمح لهم بالانتقال إلىٰ واحة خيبر التي توجد علىٰ بعد ١٥٠ كيلومتراً من المدينة، حيث كانت تقطن بها قبائل يهودية أخرىٰ. فبدل العمل علىٰ تحسين علاقتهم بالمسلمين شرع بنو النضير في تأليب القبائل العربية المجاورة ضد جماعة المسلمين. وبتفضيلهم للمشركين علىٰ الموحدين، فقد شكل يهود خيبر خطراً داهماً علىٰ مسلمي المدينة علىٰ المستوىٰ السياسي والعسكري والاقتصادي. وكان المسلمون مطوَّقين بالأعداء المتربصين بهم من جميع الجهات: في الشمال يوجد يهود خيبر مع حلفائهم من العرب المشركين، وفي الجنوب نجد وثنيي قريش المكيين. فلهٰذا السبب حمل المسلمون علىٰ خيبر، وطوقوا المدينة وأجبروا اليهود علىٰ الاستسلام، وكانت إحدىٰ السبايا واسمها صفية البالغة من العمر سبعة عشر سنة، قد بادرت باعتناق الإسلام وأصبحت زوجة للنبي ﷺ. لقد عرض الرسول ﷺ عليها الإسلام قائلاً:

> "إذا أردت البقاء علىٰ دينك، فإننا لا نفرض عليك تركه، لكن إذا اخترت الله ورسوله فإني آخذك زوجة لي".(الواقدي ٣٤٨). أجابت: "كلا إني اخترت الله ورسوله". وجراء هٰذا أعتقها النَّبيّ ﷺ ثم تزوجها، وكان صداقها هو عتق رقبتها (٣٤٨).

والواضح أن يهود خيبر قد استسلموا دون كبير مقاومة. وأن معاهدة تم إبرامها بواسطة مبعوثين (٣٩). أما بالنسبة لما حدث فيما بعد فهناك ثلاث ادعاءات: أولاها أن النَّبيّ ﷺ ترك الأرض الفلاحية لليهود علىٰ شرط الاشتراك في اقتسام المحاصيل؛ والثانية أن النَّبيّ ﷺ أخذ بعض الأرض لنفسه ووزع الباقي علىٰ مقاتليه؛ والثالثة أن

أرض فَدَك عادت لمُحَمَّد ﷺ وحده، لكنه تركها لليهود شريطة اقتسام المحاصيل الزراعية (شولرSchoeller ٣٨-٣٩). وهذه الرواية الأخيرة هي الأقرب إلىٰ الحقيقة لأنها مدعومة بشهادة فاطمة الزهراء رَضِيَٱللَّهُعَنهَا بنت مُحَمَّد ﷺ؛ وهي شهادة لا تقبل الطعن. وإذا كان كتاب سيد بركات أحمد (المتوفىٰ سنة ١٩٨٨م) محمد واليهود: إعادة نظر، ليس بالكتاب المقنع تماماً، فإنه مع ذلك يثير الشكوك حول مصداقية رواية ابن اسحق المتعلقة بالعلاقة بين النَّبيّ ﷺ واليهود، والتي يمكن أن تكون قد اصطبغت بالأفكار العباسية. ومن الأرجح أن يكون ابن هشام (المتوفىٰ سنة ٨٣٣م) وهو المراجع editor الذي قام بتلخيص وإدراج الحواشي وأحياناً بتغيير سيرة ابن اسحق (انظر غيوم xvii) ،Guillaume . وابن هشام هو الذي كان مسؤولاً عن وجهة النظر المثيرة للجدل هذه. فإذا أخذنا في الاعتبار رأي سيد بركات أحمد فإنه لم يتم لا إعدام ولا طرد أي يهودي من المدينة في حياة مُحَمَّد ﷺ. والحقيقة أن الكثير من الروايات تحكي أن اليهود لم يُطردوا من خيبر إلا في ولاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٥٧٩- ٦٤٤م) (انظر شولر ٣٩، م٧٨). وبعد هٰذا وذاك كان هناك ما يفوق عشرين قبيلة يهودية تقطن بالمدينة حينما بدأ رسول الإسلام دعوته (ليفي ١٥٨)، والتدوين التاريخي يشير إلىٰ أن النَّبيّ ﷺ كانت له مشكلات مع بعض من تلك القبائل فقط.

لكن إذا صدقنا فعلاً أن سبعمائة رجل من قبيلة قريظة قد قُتلوا، وأن زوجاتهم وأولادهم قد تم سبيهم فإن الأدلة تتجه بشكل متزايد نحو الفكرة التي مؤداها أنه لا يمكن أو يجوز أن نحكم علىٰ هٰذا الحدث الفظيع بمقاييس عصرنا هٰذا. وكما تشير إلىٰ ذلك كارين آرمسترونغ:

> "لقد كان هٰذا المجتمع مجتمعاً بدائياً؛ لقد كان المسلمون أنفسهم قاب قوسين أو أدنىٰ من خطر الإبادة؛ فلو قدر لمحمد أن يكتفي بنفي قريظة لزاد هٰؤلاء في عدد المعارضة اليهودية أضعافاً في خيبر ولجروا حرباً أخرىٰ علىٰ الأمة الإسلامية الناشئة. ففي جزيرة العرب خلال القرن السابع [الميلادي]، كان غير وارد أن يُظهر أي قائد أية رحمة تجاه الخونة من أمثال

قريظة؛ فالإعدامات وجهت رسالة صارمة إلىٰ [قبائل] خيبر وساعدت علىٰ تهدئة غلواء المعارضة الوثنية بالمدينة، علماً بأن قادة الوثنيين كانوا متحالفين مع اليهود المتمردين. وإذن كانت هذه معركة حياة أو موت، وكان الجميع يدرك أن الرهانات هي رهانات حاسمة، والصراع لم يكن يتجه نحو مهادنة اليهود بصفة عامة بل اقتصر علىٰ القبائل المتمردة الثلاث. فالقرآن لم ين يذكّر باحترام أنبياء بني إسرائيل ويحث المسلمين علىٰ احترام أهل الكتاب. فقد استمرت مجموعة يهودية صغيرة في العيش في المدينة، ثم أصبحت الطائفة اليهودية فيما بعد، علىٰ غرار الطائفة النصرانية، تتمتع بكامل الحرية الدينية في ظل الإمبراطورية الإسلامية" (٢٠٠٠: ٢١).

وإذا كان قد اعتنق الإسلام جزء يسير من الطائفة اليهودية، فإن أغلبية العبرانيين رفضوا رسالة محمد ﷺ لأسباب عنصرية يعترفون بها هم أنفسهم، ذلك لأن النَّبيّ كان [في نظرهم] ينبغي أن ينحدر من ولد إسحق لا من ولد إسماعيل. فلو أنهم خضعوا [لحكم المسلمين] وأدوا الجزية وسالموا المسلمين لكانوا قد استمروا في العيش في شبه الجزيرة العربية. لكنهم فضلوا النفاق والخيانة والغدر وتحالفوا مع الكفار وادعوا بأن المشركين هم أفضل عندهم من المسلمين. وبفعلهم هٰذا فقد قرروا مصيرهم نهائياً. وهكذا وبحزم ومضاء تحرك النَّبيّ ﷺ ضدهم وأوقع فيهم هزائم عسكرية واقتصادية واضطرهم إلىٰ طريق المنفىٰ. وإذا كانت معاملة النَّبيّ ﷺ مختلفة عن معاملته للنصارىٰ فالسبب في ذلك لا يمكن أن يخفىٰ علىٰ أحد. فكما عبر عن ذلك قريشي: "لقد كان الخطر الحقيقي علىٰ المسلمين يأتي من المشركين واليهود، لأن النصارىٰ لم يكونوا ينشطون بجزيرة العرب" (٢٧٤). فعلىٰ الرغم من كون مشركي ويهود المدينة قد عملوا علىٰ إذاية النَّبيّ ﷺ وأصحابه إذاية شديدة، وكما ورد علىٰ لسان الواقدي (٧٤٨- ٨٢٢): "فإن الله تعالىٰ أمر النَّبيّ ﷺ وأصحابه بأن يصبروا ويصفحوا" (٩١). لقد كانت مقاربة النَّبيّ ﷺ دائما تجنح للسلم. وقد حض اليهود علىٰ الدخول في عهود ومواثيق وحينما نقضوا تلك العهود حثهم علىٰ التوبة وتجديد الولاء. وحينما رفضوا ذلك طلب منهم النَّبيّ ﷺ الاستسلام وأداء الجزية. فلم يلتجئ الرسول ﷺ إلىٰ الحرب معهم إلاّ بعد استنفاد جميع المساعي السلمية

وبعدما اختار اليهود أنفسهم الحرب. أما بالنسبة للقبائل والعشائر اليهودية التي التزمت الحياد، وهٰذا بشهادة الموسوعة اليهودية: "فإنه سمح لها بالعيش في المدينة دون أن تمس بسوء" (انظر ليفي ١٦٢).

تعزيز الحركة التوحيدية

إضافة إلىٰ المجموعات اليهودية والنصرانية ومجموعة الأحناف التي دخلت الإسلام فإن معظم أتباع مُحَمَّد ﷺ يتشكلون أساساً ممن كانوا مشركين. فبعد أن قام الرسول ﷺ بنفي مناوئيه من اليهود، أصبح بوسعه أن يركز جهوده علىٰ نشر الإسلام في أوساط باقي القبائل العربية وأن يعزز قبضته ويحكمها علىٰ شبه الجزيرة العربية. إن الصورة التي رسمها المستشرقون القائلون إن النَّبيّ ﷺ قد نشر الإسلام بحد السيف، هي صورة مغلوطة، ونفس الشيء يقال بشأن الأدلة التي تقدمها تلك الفئة من المسلمين المنافحين عن الإسلام بغير علم، والتي تدعي أن النَّبيّ ﷺ قد مارس نوعاً من 'الجهاد السلمي'(peace jihad). لقد استعمل رسول الله ﷺ استراتيجية سياسية وعسكرية معروفة منذ أقدم العصور، إذ قدم كل ما يمكن تقديمه من المكاسب لمن دخل معه في معاهدة؛ وفي حالة الإخلال بشروط المعاهدة كان النَّبيّ ﷺ يشترط الشروط التي يتعين علىٰ الرافضين التكيف معها.

بطبيعة الحال، لم تكن المكاسب مكاسب نظرية أو مجرد تصريحات، بل كانت مكاسب حقيقية وثابتة أرساها النَّبيّ ﷺ وأصحابه. بالإضافة إلىٰ هٰذا فإن جمال وروعة القرآن الكريم وحكمة الأحاديث النبوية وسمو خلق النَّبيّ ﷺ، كل هٰذا شكل تياراً مغرياً وجارفاً حيث أصبح حكم الإسلام ببساطة [قوة روحية] لا تقاوم. إن المكاسب التي جاء بها الرسول ﷺ اتخذت شكل معاهدات واتفاقيات ومواثيق سخية وخيّرة منحها للمجوعات والطوائف التي دخلت في حظيرة الدولة الإسلامية عن طيب خاطر. ففي حالات كثيرة كانت شروط التحالف في غاية الإيثار إلىٰ درجة أن الحلفاء كانوا يُمنحون حقوقاً وامتيازات دون أن تترتب عن ذلك واجبات من أي نوع مقابلها. لقد كانت للنبي ﷺ مهمة واحدة نصب عينيه، هي فتح قلوب المشركين

لرسالة الإسلام.

لكن إذا ما تبين أن المعاهدة التي تقدم بها النَّبيّ ﷺ لم يتم رفضها فقط، بل تم التمادي في معارضتها بصورة عدائية، فإن المناوئين له كانوا يعلمون علم اليقين ما ينتظرهم من جانب المقاتلين المسلمين الأشاوس المتمرسين علىٰ فنون الحرب. فقد قيل عنهم إنهم كانوا حملاناً [انظر سورة المائدة، ٥٤] [﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المترجم] مع المؤمنين لكن سرعان ما يتحولون إلىٰ أسود كاسرة مع الكفار في ميدان المعركة. لقد انتشر نبأ النصر الإعجازي بغزوة بدر سنة ٦٢٤م -حيث هزم ٣٠٠ من المسلمين ٩٠٠ من أعدائهم- بمثابة النار في الهشيم. ووصل ذلك الخبر عبر طرق القوافل إلىٰ كل بقعة وركن قصي من أركان شبة جزيرة العرب. وبعد انتكاسة صغيرة بغزوة أحد، ذهل جراءها المسلمون وصدموا، وجه النَّبيّ ﷺ ضربات موجعة إلىٰ أعدائه سواء علىٰ المستوىٰ العسكري أو المادي، مما حط من معنوياتهم وأحبطها.

لقد كان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ قائداً عسكرياً فذاً، حيث إنه شارك في العديد من الحملات العسكرية والسرايا التي كانت تعترض قوافل المشركين بما في ذلك سرية ودان، وبواط، وصفوان، وذي العشير، وبدر الأولىٰ، وقدر، وسويق، وقَيْنَقَاع، وغطفان، وبهران، وأحد، وأسد، ونجد، وبدر الثانية، وجندل الأولىٰ، والخندق، وقريظة، ولحيان الثانية، والمصطلق، والحديبية، وخيبر، وفدك، وقرة الثالثة، وذات الرقة، وبقراء، ومكة، وحنين، وأوطس، والطائف، وتبوك. كما أرسل النَّبيّ ﷺ سرايا دون أن يشارك فيها بشكل مباشر: منها سرية نخلة، ونجد، وأسد الأولىٰ، ولحيان الأولىٰ، والراجي، وأمية، وبئر مؤونة، وسرية اغتيال أبي رافع، ومسيلمة، وأسد الثانية، وطلبة الأولىٰ، وطلبة الثانية، وذي قراض، وجموم، والعيس، وطلبة الثالثة، وحسمة، وقرة الأولىٰ، وجندل الثانية، وعلي الأولىٰ، وقرة الثانية، وعرينة، وراحة، وعمر، وأبي بكر، ومرة، وأوال، وفدك الثالثة، واليمن، وسليم، والكديد، وبني ليث، وأمير، وذات أطلاح، ومؤتة، وعمرو، وأبي عبيدة، وأبي حدرد، وإدام، وخضيرة، و [غزوة] خالد بن الوليد الأولىٰ، وتحطيم صنم سَمْوَة، وتحطيم [صنم] مناة، وخالد بن الوليد

الثانية، وتحطيم يغوث، وأوطس الأولىٰ، وأوطس الثانية، وبني تميم، وبني [خثعم]، وبني كلاب، وجدة، وعلي الثالثة، وأضرع، وخالد بن الوليد الثالثة، وخالد بن الوليد الرابعة، وأبي سفيان، وجرش، وعلي الثانية، وعلي الثالثة، وذي الخلاصة، وجند أسامة، وهي آخر سرية أرسلها رسول الله ﷺ.

إن الرسول ﷺ بغاراته التي استهدف بها قوافل العدو، جعل مصالح العرب المشركين في خطر؛ ثم إنه باستهدافه القبائل الوثنية كان بذلك يضغط عليها حتىٰ تتجه شطر السلطة الإسلامية الناشئة. وبقدر ارتفاع عدد المدن المحصنة التي فتحها النَّبيّ ﷺ، بقدر ما اتسعت مساحة الأراضي الزراعية التي حازها، وبقدر ما ازدادت قوته. وبما أن الناس يحترمون القوة والثروة بدل الضعف والفقر، فإن ارتفاع قوة النَّبيّ ﷺ العسكرية والاقتصادية زاده سلطة واحتراماً. وعلىٰ الرغم من عدد لا يحصىٰ من الغزوات والغارات والسرايا التي خاض غمارها النَّبيّ ﷺ وأصحابه، فقد انتهىٰ معظمها بدون إراقة دماء ما عدا في حالات قليلة. فلقد كانت معظم تلك الغزوات عمليات محدودة وسريعة، إذ يقدر أن النَّبيّ ﷺ لم يمض سوىٰ تسعة وثمانين يوماً في المعارك خلال حياته كلها. فلم يستعمل النَّبيّ ﷺ العنف من أجل العنف لإقناع الناس لاعتناق الإسلام. غير أنه استعمل فعلاً التهديد باستعمال القوة كخطة من أجل إقناع بعض القبائل بالتحديد أنه من مصلحتها أن تلتحق برابطة المؤمنين القوية. وعندما قام النَّبيّ ﷺ بإرسال جنوده في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها، دون أن يترك أي تجمع سكاني إلا وزاره، فقد عمل بذلك علىٰ استعراض قوته الكاسحة. لقد كانت استراتيجيته الفذة من الروعة بمكان. فلقد تمكن بكيفية فردية من إخضاع شبه الجزيرة العربية قاطبة إلىٰ حظيرة الدولة الإسلامية، ولم يخلف ذلك كله أقل من ألف من الضحايا تقريباً. لقد كانت فتوحاته مثار إعجاب فائق إلىٰ درجة جعلت بعض المتشككين الغربيين أنفسهم يتساءلون عن إمكانية أن يكون للفتح الإسلامي طابع إلٰهي. (انظر نافزيغر Nafziger ووالتن Walton ص٢٤). واقتفاء بآثار الرسول ﷺ فقد أظهر الصحابة من بعده للقوىٰ العظمىٰ في عصرهم، المتمثلة في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية أن الإسلام قد أصبح قوة يحسب لها ألف حساب.

وبقدر ما كان المسلمون الأوائل شرسين في ساحة المعركة، بقدر ما قاموا بتسيير الأراضي التي فتحوها بالحلم والعدل. حيث إنهم عملوا علىٰ صيانة حقوق الأقليات وحمايتها، كما عملوا علىٰ إنتاج ثقافة كسمبوليتية cosmopolitan تعددية تعد الأولىٰ من نوعها في [تاريخ البشرية]. كيف تم ذلك؟ فحسب نافزيغر (المولود سنة ١٩٤٩) ووالتن "فإن هناك تفسيراً وحيداً لذلك النجاح العربي [الساحق]: إنه روح الإسلام" (ص٣٤). أما فاودن Fowden فإنه يقول "إن إعلان محمد لوحي جديد منزّل من إله واحد، إلىٰ جانب نظريته وممارسته السياسية، هما اللذان أديا إلىٰ خلق تلك الوثبة التوسعية الكاسحة" (نقلاً عن زيتلين Zeitlin ص١٦٤).

سِيَاسَةُ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ الدَّاخِلِيَّة وَالخَارِجِيَّة

لقد كان النَّبيّ ﷺ أولا وأخيراً رجل سلام. وبهذه الصفة قام بنشر السلام أينما حل وارتحل. غير أنه من باب المفارقة أو مجانبة الواقع أن يتم تقديم النَّبيّ ﷺ كرجل سلام علماً أنه قد شن حروباً وخاض معارك عديدة. لكن ليس هناك تناقض في واقع الأمر، بل هناك انسجام تام وكلي. فليس الأمر سيان أن تتصرف انطلاقاً من مراعاة المصالح الجماعية بدل المصالح الذاتية. فالمصالح الجماعية تسبق المصالح الشخصية. لكن إذا ما رأىٰ شخص ما أنه يريد أن يعطي خده الأيمن لكي يُصفع بعد أن كان قد صفع علىٰ خده الأيسر، فذاك شأنه. وذلك أمر شخصي. لكن حين يتعرض أمن أمة بكاملها واستقرارها للتهديد، فإن المصلحة العامة تصبح هي العامل المحدد لأي قرار يتم اتخاذه. إن القضية تختلف تماماً بين ما هو مصالح جماعية وما هو مصالح ذاتية. وفي هذه الحالة فإن الشخص الذي يمثل حركة تنشد السلم وتحب السلام، وتسعىٰ لإرساء علاقات محبة بين بني البشر أينما كانوا علىٰ وجه البسيطة، لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يحقق مثل هذه الأهداف بقبول الظلم أو التسامح معه، مهما كانت درجة ذلك الظلم. وهٰذا هو الدور الذي لعبه النَّبيّ ﷺ بالتحديد. لقد كان القائد، وحامل راية حركة تسعىٰ لنشر الوئام الاجتماعي عبر العالم. وعبر هٰذا الدور بالتحديد دشن النَّبيّ ﷺ حركة كانت غايتها هو تحييد المصالح الأنانية الدنيئة.

ومن أجل هٰذا الدور تمت معارضته ومحاربته. لقد كان النَّبيّ ﷺ رجل الكلمة الطيبة، لكنه كان أيضـاً رجل الجد والحسم؛ ويتجلىٰ ذلك في أحد أحاديثه إذ يقول ﷺ: "أنا أحارب وأبتسم معـاً" (عن ابن تيمية، ذكره حميد الله في كتابه *Muslim Conduct of State* [سلوك الدولة الإسلامية]).

وإذا كان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ قد لاقىٰ مقاومة من هٰذا الجانب أو ذاك، فلأن الإسلام كنظام حياة كاملة ومتكاملة، قد شكل تهديداً للمصالح الاقتصادية لتلك الجهات. وبما أن النَّبيّ ﷺ قد حرم الاضطهاد والاستغلال فإن مراكز الثروة والسلطة للمناوئين له أصبحت مهددة؛ ولذلك سارعوا إلىٰ مناهضة حركته السلمية. إن القولة المأثورة التي جاءت علىٰ لسان Flavius Renatos Vegeitus حوالي القرن الرابع الميلادي "إذا كنت تريد السلام، فاستعد للحرب"، قد تم تطبيقها بشكل مثالي. غيرأنه يجب مع ذلك التنبيه إلىٰ أنه لا ينبغي أن يفهم من هذه القولة أنها تشجيع علىٰ العدوان أو التوسع الإمبريالي، بل هي دعوة لعكس هٰذا تماماً؛ أي إلىٰ ما يفيد أنه يتعين إنشاء قوة عسكرية لكي تكون رادعـاً لأي عدوان خارجي، وثني وتحييد أي عدو محتمل. وباعتماد النَّبيّ ﷺ علىٰ العقيدة الإلٰهية، ظل حريصـاً علىٰ تطبيقها؛ فمن أراد إشاعة السلم في العالم كأعز مطلب عنده، فيجب عليه أن يعمل كل ما في وسعه وبما ملكت يداه أن يحارب الظلم بجميع أشكاله ويعمل علىٰ محوه من علىٰ وجه الأرض.

لقد فهم النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، أكثر من أي أحد غيره، أن الشرط الأساس الذي لا محيد عنه لإشاعة الأمن والسلام يتجلىٰ في إقامة العدل. لقد فهم أن شرط إشاعة السلم يكمن في بناء نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي في صورته الربانية الأسمىٰ، ألا وهو نظام مستمد من الشريعة الإسلامية التي يتضمنها الوحي الذي نزل عليه. فبعد عقد من الاضطهاد بمكة، وجد الرسول ﷺ أخيراً ملجأً آمنـاً نسبيـاً بالمدينة المنورة. فبعد أن تمكن من تحييد أعدائه الداخليين المتحالفين مع مناوئيه الخارجيين، اعتمد خطة استباقية لبناء السلام بكيفية تدريجية. فكل من سالم المسلمين سالموه. ولذلك قدّم النَّبيّ ﷺ عروضـاً سخية في العهود والمواثيق التي عقدها مع مختلف القبائل والأمم، سواء أكانت وثنية أم يهودية أم نصرانية، ما دامت قد عبرت عن نيتها في الدخول في حلف مع المسلمين.

فإذا ما عبرت قبائل أو أمم عن نية مبيتة للعدوان علىٰ المسلمين، فإن النَّبيّ ﷺ كان ينذرها بالعواقب الوخيمة التي تنتظرها؛ فإما أن تسلم وأما أن يتم غزوها. وهٰذا لا يعني أنه يجب علىٰ أولئك الأقوام أن يعتنقوا الإسلام قسراً. وبصفته مخططاً ذا نظرة استشرافية بعيدة، فقد فهم النَّبيّ ﷺ أن انتشار الإسلام قد يستغرق قروناً كاملة. ولذلك فما أراد أن يهيئه هي الشروط التي تساعد علىٰ زرع بذور الإسلام بتعهدها بالماء كي تنبت وتنمو وتنتشر. فإذا ما فضلت فئة من الناس أن تبقىٰ علىٰ ديانتها -سواء أكانت وثنية أو نصرانية و [أو] يهودية-، فلها ذلك شريطة أن تدخل في علاقة ذمة مع الدولة الإسلامية، وتكون تحت حمايتها. لكنها إذا ما رفضت عروض النَّبيّ ﷺ السلمية وعبرت عن عدوانها أو عن المشاركة في أعمال عدوانية فإنها ستتعرض للغزو. وعلىٰ الرغم من خضوعها لواجب أداء الجزية، فإنها تبقىٰ علىٰ دينها إن أرادت. ويؤكد القرآن الكريم ذلك بشكل واضح حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة [٢]: ٢٥٦). وكما يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ (يونس [١٠]: ٩٩). ويوضح الإسلام بجلاء بأن الله تعالىٰ يحب التنوع ويحبذه، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (٤٩: ١٣).

في السنة الثانية للهجرة عقد النَّبيّ ﷺ معاهدة مع شيخ قبيلة بني ضمرة، وتنص علىٰ [أن] "لا يُغِيرُ [النبي] علىٰ بني ضمرة ولا يغيرون عليه، ولا يدعمون صفوف عدوه أو يساعدون أعداءه أية مساعدة كانت" (انظر البهنساوي عن ابن سعد والقاري، ص٧٨). وعندما انضمت أسر كثيرة والتزمت بالمعاهدة، تم توسيعها وتغييرها من معاهدة الكف عن العدوان إلىٰ معاهدة تنص علىٰ حلف مساعدة متبادلة والتزام بالحياد في بعض الظروف والحيثيات. وهكذا أصبح نص الاتفاق موسعا علىٰ النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم . هٰذا كتاب محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون علىٰ أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر علىٰ من رامهم، إلا أن

> يحاربوا في دين الله، ما بل بحر صوفة، وإن النّبيّ ﷺ إذا دعاهم إلىٰ النصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة رسوله، ولهم النصر من برّ منهم واتقىٰ" [ورد، حميد الله، *السلوك الإسلامي*، (٣٢٩-٣٠)

ونتيجة لجهود النَّبيّ ﷺ العسكرية والدبلوماسية، خضع الكثير من السكان العرب لحكم الإسلام من دون قتال. فبالرغم من عداوتهم القديمة للنبي ﷺ ومشاركتهم في الكثير من الحروب ضد المسلمين، بالمدينة، فلقد عقد رسول الله ﷺ معاهدة مع بطن من قبيلة غطفان. ففي معاهدة مع قبيلة أشجع والتي حررها عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م) يؤكد النَّبيّ ﷺ علىٰ الالتزام المتبادل بين الطرفين:

> "بسم الله الرحمن الرحيم.هٰذا كتاب معاهدة لنعيم بن مسعود الأشجعي كتبه بشرط المساعدة. وهٰذا وعد قائم ما قام جبل أحد وما بل بحر صوفة" (عن قرشي ص١٥٣).

ومقابل التزامه بالتعاون المتبادل دخلت عشيرته الإسلام كلها في السنة الخامسة للهجرة. واستناداً إلىٰ ما جاء في حوليات سيئيرت Chronicles of Séert فلقد بدأ العرب [المسلمون] فتوحاتهم في السنة الخامسة للهجرة (أي ما يوافق سنة ٦٢٧/٦٢٨م)، وأصبح الإسلام قوة جامحة يضرب لها ألف حساب (انظر شير Scher، ص ٢٨٠-٢٨١ ؛ ص ٦٠٠-٦٠١). وتجاوباً مع نهوض القوة الإسلامية، فإن سجلات الرهبان النسطوريين تؤكد علىٰ أن سكان نجران وعلىٰ رأسهم سيد الغساني ذهبوا للقاء النَّبيّ ﷺ وتبادلوا معه الهدايا والثناء (٢٨١/ ٦٠١). وبالرغم من أنهم لم يعتنقوا الإسلام، إلا أنهم عرضوا علىٰ النَّبيّ ﷺ أن يحاربوا بجانبه وتحت رايته إذا ما طلب منهم ذلك (٢٨١/ ٦٠٨). وقد قبل النَّبيّ ﷺ هداياهم وأنعم عليهم بميثاق معاهدة (٢٨١/ ٦٠١). وتحكي الرواية بأن ذلك العهد قد اعترف به عمر بن الخطاب فيما بعد، وهو الذي منحهم عهداً للحماية في خلافته ملخصاً ومؤكداً الامتيازات التي كان الرسول ﷺ قد منحها لهم من قبل (٢٨١/ ٦٠١). إن عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران يمكن اعتباره أول اتفاقية لحماية الطائفة المسيحية، ومن الممكن أن تكون قد سبقت عهد النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء. والتزاماً بوعد كان النَّبيّ ﷺ قد سبق

أن عقده مع رهبان الدَّيْر قبل سنين خلت، فقد أبدىٰ النَّبيّ ﷺ رغبة كبيرة في إبرام ميثاق مع رهبان القديسة كاثرين بجبل سيناء. وعلىٰ غرار العهد الذي عقده النَّبيّ ﷺ مع نصارىٰ نجران، فإنه ﷺ لم يكن يتوقع من نصارىٰ سيناء أن يعتنقوا الإسلام. كل ما كان يسعىٰ إليه هو حصوله علىٰ تضامنهم معه. وينص ميثاق القديسة كاثرين الذي أملاه النَّبيّ ﷺ علىٰ المغيرة والذي تم توقيعه في السنة السادسة للهجرة علىٰ ما يلي:

"كل ما يملكه جيران الله ورسوله في كنائسهم وأديرتهم وأسقفياتهم كبيرًا كان أو صغيرًا يبقى لهم. فلا يُخرج أسقف من أسقفيته ولا راهب من ديره ولا يغير أي شيء من حقوقهم أو من سلطانهم أو من أي شيء آخر هو في ملكهم ما داموا مسالمين [للإسلام والمسلمين]. ولهم حقوقهم لا يَظلِمون ولا يُظلَمون" (عن قرشي ص ١٥٥).

وفي رسالة منه إلىٰ حاكم اليمامة والتي أرسلها مع سليط بن عمرو العامري أملىٰ النَّبيّ ﷺ ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. السلام على من اتبع الهدى. اعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر. اسلم تسلم. وأجعل لك ما تحت يديك" (عن قرشي ص ٤٠).

وكان رد هوذة بن علي علىٰ رسالة النَّبيّ ﷺ كما يلي:

"ما أحسن ما تدعو إليه وما أجمله. إني شاعر قومي وخطيبهم. والعرب تهابني. فاجعل لي بعض الأمر اتبعك".

وعلىٰ الرغم من أن النَّبيّ ﷺ لم يقبل بشروط هوذة، قائلاً إن هذه الأمور بيد الله، إلا أنه جعل منه حليفـًا. لكنه لم يلبث أن مات بعد مدة قصيرة للأسف.

كان من عادة النَّبيّ ﷺ أن يربط الاتصال مع زعماء العالم آنذاك يدعوهم إلىٰ الإسلام. وفي حالة ما إذا أصروا علىٰ البقاء علىٰ دينهم، كان النَّبيّ ﷺ يقترح عليهم الدخول في تحالف معه. وكان سبق له أن ربط اتصالات دبلوماسية مع ملك

الحبشة بواسطة الصحابة الذين كان قد أرسلهم إليه كلاجئين. ثم أبرم علاقة رسمية مع النجاشي بعدما استقر له الأمر بالمدينة. وكانت هذه هي الرسالة التي أملاها وأرسلها إليه:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ عَظِيمِ الْحَبَشَةِ. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى مِنْ رُوحِهِ وَنَفخه، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُوَالاةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ، وإني أرسلتُ إليك ابن عمي جعفرَ في نَفَرٍ من المُسْلِمينَ فَأَحْسِنْ إليهم، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي. وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى". (عن قرشي صص٣٤–٣٥؛ انظر أيضاً ابن اسحق ٦٥٧–٦٥٨).

وكان جواب النجاشي كما يلي:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إلى محمد رسول اللهِ، من النجاشي أصحمة، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمةُ الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هُوَ، أما بعد: فقد بلغني كِتابُك يا رسولَ الله فيما ذكرتَ مِن أمر عيسى، فوربِّ السماءِ والأرضِ، إنَّ عيسى لا يزيدُ على ما ذكرتَ ثُفْروقاً، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهدُ أنَّك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابنَ عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين. وقد أرسلتُ إليك ابني أرحة. وأنا لا أملك إلا نفسي فإن أردتني أن آتيك فعلت يا رسول الله. وإني أشهد أن ما تقوله هو الحق". (عن ابن اسحق ص٦٥٧–٦٥٨).

وبما أن النجاشي قام بواجباته حيث آوىٰ المسلمين الذين كانوا قد التجأوا إليه، وسالم النَّبيّ ﷺ فإنه ﷺ اتخذ من الأحباش أصدقاء وحلفاء. وبحكم أن

النَّبيّ ﷺ كان يستشرف ما سيقع في المستقبل من تغيير في الحياة السياسية والدينية، فقد أوصىٰ أصحابه بالوصية التالية: "دعوا الأحباش بسلام إلا إذا اعتدوا" (عن أبي داود والنسائي). وبعبارة أخرىٰ، كان النَّبيّ ﷺ يسالم من سالمه. لكن كل من عبر عن عدوان تجاهه أو تصرف تصرفًا عدوانيًا أو حربيًا ضده فكان الغزو مآله. وفي رسالة النَّبيّ ﷺ إلىٰ هرقل، والتي قد يكون بعث بها إليه سنة ٦٢٧ م، فقد دعا فيها الحاكم الروماني إلىٰ اعتناق الإسلام وهٰذا نص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و ﴿... يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران:٦٤]" (النظر قرشي ٣٧-٣٨).

بينما أبدىٰ هرقل في بادئ الأمر استعداده لاعتناق الإسلام، إلا أنه، و تحت ضغط رجال الدين من مستشاريه، رفض دعوة مُحَمَّد ﷺ. وبدل أن يختار السلام فقد جهز جيشه وعبأه للحرب بالقرب من مدينة دمشق. بعدما استولىٰ علىٰ لخم وجذام، كان ينوي غزو المدينة المنورة. وعندما وصل النَّبيّ ﷺ إلىٰ تبوك بعث كتابه الآتي إلىٰ هرقل (حكم ما بين ٦١٠-٦٤١م).

"من محمد رسول الله إلى عظيم الروم. أدعوك للإسلام، فإن فعلت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. وإن توليت فعليك أداء الجزية. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ (التوبة:٢٩) (انظر البهنساوي ٣١-٤١).

علينا أن نوضح منذ البدء أن "الجزية هي ضريبة حربية كانت تدفعها القبائل

التي لم يكن مطلوبـاً منها أن تشارك المسلمين في حروبهم، وتلتزم مقابل ذلك السلطة الإسلامية بالدفاع عن تلك القبائل وحمايتها حتىٰ في وجودها ان اقتضىٰ الحال " (رمضان: ١٨٩). وإذ يعتبر بعض المفكرين المعاصرين أن هٰذا التعامل هو بمثابة اعتبار دافعي الجزية مواطنين من الدرجة الثانية، فإنه يعتبر "تعاملاً راقياً جداً" (إسبوزيتو، ص٧١). وكما يؤكد هٰذا الأخير، فإن "هٰذا التسامح غير موجود في المسيحية، حيث إن اليهود والمسيحيين وبعض [الطوائف] المسيحية ... كانوا يجبرون علىٰ التنصير أو يضطهدون، أو يطردون" (ص٧١). في الواقع "كان من الأفضل بصفة عامة وخلال قرون عديدة أن تكون مسيحياً أو يهودياً في مجتمع مسلم من أن تكون يهودياً أو مسلماً في مجتمع مسيحي" (أرمور Armour ص٢٩). وفي الوقت الذي قد يبدو أمر اعتناق الإسلام أو أداء الجزية مقابل ذلك شيئاً مذهلاً بالنسبة للعقول المعاصرة، فإنه كان في واقع الأمر شيئاً ثورياً جداً. وبدل أن يسالم هرقل النَّبيّ ﷺ ويعقد معاهدة معه، فقد اختار أن يتخذ موقفاً عدوانياً تجاهه. فبينما وعد رسول الله ﷺ بحماية أهل الكتاب، فإن هرقل اتخذ الموقف المناقض بعد مرور بضع سنوات. في الواقع، "في سنة ٦٣٢ م، وعشية الفتح الإسلامي، فرض هرقل تعميد جميع اليهود الموجودين داخل الإمبراطورية البيزنطية" (آرمور ص٢٧). ونتيجة لذلك "فإن تعاطف اليهود كان قليلاً جداً مع البيزنطيين، وكما كان متوقعاً" (ص٢٧). وبرفض هرقل لدعوة النَّبيّ ﷺ ومحاولته فرض المسيحية بالقوة، فإنه قد جر علىٰ نفسه الهلاك؛ ذلك أن اليهود والطوائف المسيحية المضطهدة وقفت بجانب الجيوش الإسلامية التي كانت قد وعدت بحماية حقوقهم. وبرأي ستيفن فاين Steven Fine "فلقد رأىٰ اليهود في الفاتحين المسلمين بشارة علىٰ ظهور "المسيح" المخلّص الذي سيخلّصهم من "إمبراطورية الشر" المتكونة من "الوثنيين المسيحيين" القارئين للتوراة قراءة تلغي ما قبلها" Supersessionist. (ص ١٠٣).

وفي رسالة مماثلة لحاكم الإسكندرية ومصر، والتي حملها حاطب بن أبي بلتعة اللخمي والتي لا تزال محفوظة في إحدىٰ المكتبات المصرية، يقول الرسول ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط:
سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم

يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم القبط ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (٣:٦٤).

وقد وضع المقوقس رسالة النَّبيّ ﷺ في صندوق من العاج وأمر كاتبه أن يرسل الجواب التالي إلىٰ مُحَمَّد ﷺ:

"بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك".

لكن لم يتحل كل الحكام بلباقة المقوقس، كما يتضح ذلك في حالة كسرىٰ إمبراطور الفرس. وكان النَّبيّ ﷺ قد أملىٰ رسالته إلىٰ كسرىٰ علىٰ النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام الله على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بداعية الله عَزَّوَجَلَّ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك". (دار الحق ص١٣٤).

استشاط كسرىٰ غضبًا من رسالة النَّبيّ ﷺ إلىٰ درجة جعلته يمزقها. فقد كان حنقه ناتجًا عن كون النَّبيّ ﷺ خاطبه كندّ له بقوله "من محمد [رسول الله] إلىٰ عظيم فارس". ولما وصل خبر ردة فعل كسرىٰ إلىٰ الرسول ﷺ قال: "مزق الله ملكه". وكما سيعترف المؤرخون بذلك فيما بعد، فإن المسلمين قد تمكنوا من غزو فارس في غضون عشر سنوات قصار. وبما أن الحكام المصريين والبيزنطيين والفرس عبروا

جميعهم عن غضبهم وأبدوا مشاعر العدوان تجاه النَّبيّ ﷺ، فقد تم اعتبارهم قوة معادية يتعين التعامل معها مستقبلاً بما يناسب موقفها في الوقت المناسب بعد أن يكون المسلمون قد تقووا عدة وعدداً. وفي انتظار ذلك ركز النَّبيّ ﷺ علىٰ بسط نفوذه داخل شبه الجزيرة العربية.

ففي رسالة وجهها إلىٰ ملك البحرين، دعا الرسول ﷺ سكان الجزيرة الفرس إلىٰ اعتناق الإسلام. فإذا ما فعلوا ذلك عن صدق وأقاموا ما يتعين عليهم القيام به من الواجبات الدينية فلهم أن يحتفظوا بجميع حقوقهم في أملاكهم بمجرد إشهار إسلامهم. وفي إطار دعمهم للدولة الإسلامية، فإنه يتعين عليهم إعطاء جزء من محاصيلهم من تمر وحبوب إلىٰ [بيت مال المسلمين]. والشيء الوحيد الذي أضافه النَّبيّ ﷺ هو ما يتعلق بمعبد النار. فلقد قرر النَّبيّ ﷺ أنه عندما يعتنق القوم الإسلام، فإن البناية يتم تحويلها إلىٰ ملكية الدولة الإسلامية؛ فإما أن تهدم وإما أن تحول إلىٰ مسجد للصلاة. فإذا ما فضل البحرينيون البقاء علىٰ دين المجوسية فلهم كامل الحرية في ذلك شريطة أن يدفعوا الجزية (أو ما يسمىٰ الضريبة علىٰ الأفراد)، وذلك كعربون خضوع للحكم الإسلامي. وكانت الشروط التي شرطها النَّبيّ ﷺ علىٰ النحو التالي:

"سلام. فإن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأخلصتم لله ورسوله، ودفعتم عشر التمر ونصف عشر الحبوب، ولم تمجِّسوا أبناءكم، فلكم ممتلكاتكم التي كانت عندكم. لكن لله ورسوله الحق في بيت النار. وإن أبيتم فعليكم الجزية" (قرشي ص٣٥).

وكرد علىٰ رسالة النَّبيّ ﷺ بعث إليه المنذر بن ساوىٰ حاكم البحرين الرسالة التالية:

"أما بعد يا رسول الله، لقد وصلتني أوامرك، وقبلها قرأتُ كتابك على أهل البحرين تدعوهم فيها للإسلام، فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه. وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث في ذلك أمرك".

فبعث الرسول ﷺ الرد التالي إلىٰ حاكم البحرين:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد: فإني أُذكّرك الله عزّ وجلّ، فإنّه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يُطع رُسُلي ويتّبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإنّ رُسُلي قد أثنوا عليك خيرًا. وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه. وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم. وإنّك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهوديّته أو مجوسيّته فعليه الجزية". (قرشي ٣٥)

وفي رسالة موالية أخبر النَّبيّ ﷺ والي البحرين أنه ما دام متصرفاً بنزاهة فإنه لن يُعزل من منصبه. بعبارة أخرىٰ، من دخل الإسلام فلا خوف عليه ولا شيء يخسره. وقد استأمن أيضاً أهل الكتاب، مؤكداً لهم أن الذين قرروا أن لا يتركوا مجوسيتهم أو يهوديتهم فعليهم أداء الجزية. بعبارة أوضح، إن علىٰ من اعتنق الإسلام أداء الزكاة وخمس المحاصيل كواجب ديني، بينما علىٰ غير المسلمين أداء الجزية (الضريبة علىٰ الأفراد) مقابل عدم مشاركتهم في الخدمة العسكرية للمسلمين. لقد أطاع شعب البحرين أوامر الرسول ﷺ، فمنهم من أسلم ومنهم من بقي علىٰ دين أجداده. وقد كلف أبو هريرة -وهو أحد الصحابة (٦٠٣-٦٨١م) بالذهاب إلىٰ جزيرة البحرين لجمع الضرائب والزكاة المفروضة (٣٦).

وقد عرض النَّبيّ ﷺ "في رسالة إلىٰ ملكي عمان"، كتبت بيد أبي بن كعب، وحملها عمرو بن العاص (ت. سنة ٦٦٤م)، المقترح الآتي إلىٰ حاكمي المملكة [وهما جيفر وعبد، ابني الجلندي] في الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وكان مضمونها علىٰ النحو التالي:

"من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما

بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى فى ملككما".

وبعد جدل ونقاش طويل قرر الأخوان الحاكمان اعتناق الإسلام وقاما بمساندة النَّبيّ ﷺ وأبليا البلاء الحسن في نشر العقيدة الإسلامية.

إذا ما دخلت دول إلىٰ الإسلام وعقدت معاهدات ومواثيق مع الدولة الإسلامية، فإنها تصبح تحضىٰ بمعاملة الإخوان والأخوات في إطار وحدة يتم بمقتضاها تبادل المنافع بكيفية متساوية، مما ينجم عنه الازدهار الاقتصادي والتضامن الاجتماعي الديني والحماية العسكرية. أما إذا رفضت القبائل والدول أو الإمبراطوريات دعوة النَّبيّ ﷺ السلمية وقابلتها بالغضب أو العدوان فإن محمداً ﷺ كان يقوم بتعديل سياسته الخارجية وفق ذلك. وكان يتسامح مع تلك القوىٰ ما دامت لم تغر علىٰ البلاد الإسلامية ولم تضطهد السكان المسلمين. أما إذا ما باشرت أعمالاً عدوانية ضد مصالح المسلمين، فإن النَّبيّ ﷺ كان يعلن الجهاد عليها. وكان هٰذا ما حصل مع الغساسنة.

فحسب غودار،

"كان الغساسنة ... من القبائل التي تكون قد قبلت الديانة المسيحية في القرن الرابع [الميلادي]. وفي القرن السادس الميلادي ارتقىٰ الغساسنة إلىٰ وضعية هيمنوا من خلالها علىٰ المنطقة نتيجة تعيين زعيمهم الحارث بن جبلة شيخاً حاكماً علىٰ قبيلته" (ص١٥). وبصفتهم أتباعاً موالين للبيزنطيين، فقد أُعطي زعيم الغساسنة المنذر بن الحارث لقب "ملك العرب" من قبل الإمبراطور هرقل (شوب ١٣). وبحكم ديانتهم المسيحية، "فإن الملوك الغساسنة كانوا سنداً قوياً للمذهب الوحداني اليعقوبي (روجيرسن ٨٢) . وبالتأكيد، "فإنهم قاموا بإنشاء سلسلة من الأديرة والصوامع علىٰ طول ساحل البحر الأحمر وكان لهم حضور قوي باليمن. وكانت نجران وظفار وعدن وصنعاء و[جزيرة] سقطرىٰ ومأرب كلها مواقع مسيحية قبل مجيء

الإسلام إلىٰ جزيرة العرب. إن القصة المتعلقة براهبي بصترة المسيحيين بحيرا ونسطور الذيْن تعرفا علىٰ محمد علىٰ أنه النَّبيّ [المنتظر] كانت دون شك ذات صلة بالكنيسة اليعقوبية في بلاد العرب. وكان لهذه الكنيسة سند يرعاها في شخص النجاشي ملك الحبشة الذي كان يدعم أنشطتها" (روجرسن ٨٢-٨٣).

وحوالي سنة ٦٢٨م اتصل النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بالحارث حاكم الغساسنة سائلاً إياه أن يراجع تحالفه مع البيزنطيين، وينضم إلىٰ حظيرة الدولة الإسلامية. وحمل الرسالة التي وجهها إليه النَّبيّ ﷺ شجاع بن وهب الأسدي، وكان نصها كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق. وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك".(عن قرشي ص٤١).

بعدما قرئت الرسالة علىٰ الحارث بن أبي شمر، أرغد زعيم دمشق وأزبد، وسأل مستنكراً: "من يجرؤ علىٰ إزالة الملك مني فأنا سائر إليه". وبما أن الحارث اختار معارضة الإسلام أرسل النَّبيّ ﷺ قواته لغزو بلاد الغساسنة. ومع مرور الوقت، كانت هناك كيانات سياسية اختارت أن تغير ولاءها حين أدركت مدىٰ قوة النَّبيّ ﷺ العسكرية. وكان هٰذا حال أمير دومة الجندل.

تقع مدينة دومة الجندل (وتدعىٰ اليوم مدينة الجوف) علىٰ بعد ٥٠٠ كيلومتر من المدينة المنورة، وعلىٰ بعد سبعة أيام علىٰ الجمال جنوب دمشق. وكانت [هذه المدينة] قد أظهرت في السابق عداءها للمسلمين حيث إنها كانت تصد القوافل المتجهة نحو المدينة [المنورة]؛ كما أنها كانت تهدد بغزو مدينة النَّبيّ ﷺ. وكانت دومة الجندل بحكم موقعها في الطرف الجنوبي لوادي سرحان، تعتبر "معبراً هاماً يربط شمال الجزيرة العربية بجنوب سوريا" (هويلاند ٢٠٠١: ٦٨). وبحكم وجود المدينة في ملتقىٰ طرق تجارية بالغة الأهمية، حيث إنها كانت تربط بلاد الرافدين وسوريا وشبه الجزيرة العربية، فإن النَّبيّ ﷺ كان يدرك مسؤولية واجب حماية

المصالح الاقتصادية للأمة الإسلامية.

وإذن فلقد كانت ردة فعل النَّبيّ ﷺ سريعة حيث إنه أرسل ٧٠٠ رجل تحت إمرة عبد الرحمن بن عوف لمواجهة قطاع الطرق واللصوص. وقد حض النَّبيّ ﷺ قائد الجيش علىٰ ما يلي:

"حاربوا كل من يقف في وجه الدعوة إلى الله [وكل من ناصبكم العداء أو خذلكم]، واقتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله" (ص٦٧٢). "لا تغتروا بالغنائم ولا تغدروا ولا تعتدوا أو تقتلوا طفلاً"، يقول النَّبيّ ﷺ محذرًا: "هٰذا أمر الله وسنة رسوله بينكم" (عن ابن اسحق ص٦٧٢).

واتباعًا للتقليد الإسلامي دعا عبد الرحمن بن عوف الناس إلىٰ الإسلام، وأمهلهم ثلاثة أيام يعلنون فيها إسلامهم وإلا عليهم أن يواجهوا الهجوم العسكري. فدخل الإسلام الإصبغ شيخ قبيلة بني كلب المسيحي وتبعه في ذلك الكثير من أفراد القبيلة. أما من اختار منهم البقاء علىٰ مسيحيته، فقد تم السماح لهم بذلك مقابل أداء الجزية بصفة منتظمة. ومن أجل توطيد علاقته بالمسلمين، زوج الأصبغ ابنته تضامر لعبد الرحمن بن عوف؛ وهكذا رجعت ابنة الملك المسيحي مع ممثل رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة.

وبعد مضي عدة سنوات اختلق خليفة الأصبغ مشكلات للنبي ﷺ حيث إنه قام بمضايقة القوافل القادمة من الشمال. وكانت هذه مناسبة لإرسال النَّبيّ ﷺ خالد بن الوليد لمواجهة أقيدر عبد الملك الكندي الأمير المسيحي لدومة الجندل. وقتل أخو أقيدر خلال المعركة وتم أسر أقيدر ونقله إلىٰ النَّبيّ ﷺ. وبدل أن يقتله لنكثه العهد الذي سبق للأصبغ أن عقده مع المسلمين، فإن النَّبيّ ﷺ عفا عنه مقابل الشروط اللآتية: أولاً علىٰ الأمير [الأسير] أن يعتنق الإسلام، ثم عليه أن يلتزم بمسالمة المسلمين، وعليه ثالثًا أن يجمع زكوات دومة وتبوك وعيلة وتيماء. بعد ذلك تم افتداء أقيدر بألفين من الإبل و٨٠٠ شاة و٤٠٠ درع، و ٤٠٠ رمح. وأهم من كل هٰذا فقد دعاه النَّبيّ ﷺ إلىٰ إبرام معاهدة وهي المعاهدة المعروفة بمعاهدة دومة الجندل أو

معاهدة أقيدر. وتقول هذه الوثيقة ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله لأقيدر دومة حين أجاب دعوة الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، وقطب دومة مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكافها: أن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن. ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم ولا تعد فارتكم ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق. وشهد بذلك الله والمؤمنون الحاضرون". (عن قريشي ص ١٧٩).

هذه الوثيقة التي تظهر بصورة مخالفة قليلاً عن الصيغة التي ترجمها فرازيي يقال إنها ممهورة بإبهام رسول الله ﷺ لأنه لم يكن يحمل معه خاتمه آنذاك (انظر الواقدي ص ٥٠٥). من الواضح إذن أن الترجمة التي قام بها قريشي هي ترجمة رديئة. ولو أن المشكلات المتعلقة بالمضمون هي أهم من هفوات الأسلوب والتركيب. فلماذا يعمد النَّبيّ إلىٰ التحدث عن الابتعاد عن الآلهة والأصنام حينما يراسل زعيماً نصرانياً؟ قد تكون الإشارة إلىٰ الإله غير الحق إلىٰ [نبي الله] عيسىٰ، الذي يعتبره أغلبية المسيحيين إلهاً، لكن القرآن ينفي عنه هذه الصفة. وقد تكون الإشارة إلىٰ الأصنام يقصد بها التماثيل التي تمثل عيسىٰ ومريم والقديسين، والذين كانوا موضع عبادة لا مجرد توقير من قبل بعض المسيحيين، مما يعني أنهم كانوا يخالفون بذلك تعاليم الكنيسة. ثم إلىٰ أي مدىٰ كان الغساسنة متشبعين بالمسيحية، يبقىٰ سؤالاً مطروحاً.

إن العديد من السكان الذين اعتنقوا المسيحية سواء كان ذلك في إفريقيا أم في القارة الأمريكية أم في غيرها من المناطق، يقومون بممارسة نوع هجين من التدين حيث يجمعون بين المذهب الإحيائي وعبادة الأوثان والشرك، ويخلطون كل ذلك بالديانة المسيحية، فكان علىٰ المسيحية أن تواجه هٰذا النوع من الوثنية في العالم اليوناني الروماني. فهل تم إضافة تمثال المسيح إلىٰ بانثيون مجموعة الأصنام العربية؟

فكيفما كان الحال، كان تمثالا المسيح ومريم موجودين ضمن الأصنام المنصوبة بالكعبة. ومن المحتمل بنفس الدرجة أن يكون الحكام الغساسنة المسيحيون علىٰ رأس رعية تدين في أغلبيتها بالديانة الوثنية؛ ولذلك حينما عرض النَّبيّ ﷺ الإسلام علىٰ المشركين وناشدهم بترك الأوثان، فإنه لم يكن يرمي إلىٰ ذلك فحسب، بل كان يروم العمل علىٰ تطهير الديانة النصرانية من التأثيرات الوثنية الدخيلة.

ومهما يكن من أمر، فعندما أطلق النَّبيّ ﷺ سراح أقيدر تم إبرام عدة معاهدات مع حكام مسيحيين آخرين (قريشي ٢٨٨). ولم يمر وقت طويل علىٰ الرغم من الشروط السخية للميثاق، حتىٰ أقدم أقيدر علىٰ نكث وعده وتنكر للميثاق الذي أبرمه مع النَّبيّ ﷺ. ولم يمنع ذلك النَّبيّ ﷺ من الاستمرار في حملته الساعية إلىٰ خلق تحالفات مع النصارىٰ في جميع مناطق الشرق الأوسط. ففي السنة الثامنة للهجرة (الموافقة لسنة ٦٣٠م) مثلاً استقبل النَّبيّ ﷺ وفداً من قبيلة عبد قيس، وهي فخذ من قبيلة ربيعة استقرت بالبحرين، وكانت تضم بعض النصارىٰ. كان الوفد يضم أربعة أفراد وعلىٰ رأسه جرود بن عمرو، والذي كان يدين بالملة النصرانية، قدموا خصيصاً لإعلان بيعتهم للنبي ﷺ.

وفي نفس الفترة تقريباً، عقد النَّبيّ ﷺ معاهدات مع شيوخ القبائل المسيحية واليهودية من العقبة ومقنة وأضروح والجربة بجنوب الأردن (ص١٢). وفي 'رسالة موجهة لليهود'، يقول النَّبيّ ﷺ ما يلي:

> "بسم الله الرحمن الرحيم، هٰذا كتاب من محمد رسول الله أخي موسى بن عمران والمصدق لما جاء به من الرسالة، إني أستحلفكم بالله وبما أنزل على موسى من التعاليم بجبل سيناء هلاَّ أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم بشارة عن نبوتي لبني إسرائيل وغيرهم من الأقوام؟ فإن وجدتم ذلك فاتقوا الله وأسلموا، وإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، قد تبين الرشد من الغي، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه" (عن دار الحق، صص: ١٣٧-١٣٨).

وفي ميثاق مقنة، الذي عقده مُحَمَّد ﷺ مع يهود بني جنبة وبني حبيبة (أو بني حنينة) في السنة التاسعة للهجرة، تم الاتفاق التالي بين النَّبيّ ﷺ واليهود سكان المدينة المرفإ الموجودة علىٰ خليج العقبة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى بني حبيبة وأهل مقنة. سلام عليكم، لقد علمت أنكم عائدون إلى قريتكم فحين يصلكم كتابي هٰذا فأنتم آمنون، فلكم أمان الله وحمى رسوله، إن رسول الله يتجاوز عن ذنوبكم وكل خطاياكم، لا عداوة ولا إثم عليكم، ولا عدوان عليكم بعد اليوم، وإن رسول الله يدفع عنكم كل ما يدفع عن نفسه ما عدا ما استثناه رسول الله ورسله: إن أثوابكم وعبيدكم وخيلكم ودروعكم هي لرسول الله كما هو الحال لربع زرعكم من واحاتكم ومن السمك من مراكبكم وكل ما غزلته نساؤكم، والباقي لكم. ثم إن رسول الله قد أعفاكم من الجزية ومن السخرة، فإن سمعتم وأطعتم فرسول الله يحترم من احترم منكم ويعفو عن المذنبين. وأي حاكم اختاره بنو حبيبة ومقنة فهو يحترمه كذلك. كل من اعتدى على مسلم فإنه يجازى بمثل ما فعل. لا يتولى عليكم إلا من كان واحداً منكم أو كان من آل بيت النبي" (ورد عن قريشي ص ١٨٢).

وهناك صيغة متميزة عن هذه المعاهدة أوردها موشي غيل في كتابه تاريخ فلسطين، تقول ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى أهل حنينة وهم يهود مقنة وأهل مقنة قرب أيلة، سلام عليكم، لقد وصلني طلبكم الذي أرسلتموه إثر رجوعكم إلى مدينتكم. فبوصول كتابي هٰذا إليكم فأنتم في ذمة الله وحمى رسوله، ورسول الله يعفو عنكم ويتجاوز عن خطاياكم وما اقترفتم من ذنوب؛ وذلك فأنتم في ذمة الله ورسوله لا تظلمون ولا يمسكم سوء. ذلك أن رسول الله هو الذي يحميكم من نفسه (كذا). أسلحتكم هي لرسول الله كما هو حال العبيد الذين في ملككم وحليكم، إلا ما سمح به رسول الله أو مبعوث رسول الله أن تحتفظوا به. عليكم من اليوم

أداء ربع التمر وربع ما تصيدونه من البحر وربع ما غزلته نساؤكم، وما عدا هٰذا فأنتم معفون من أي مكس أوضريبة، فإن سمعتم وأطعتم فإن رسول الله يحترم الشريف منكم ويتجاوز عمن أذنب منكم. وليكن في علم المؤمنين والمسلمين أن كل من أتى مقنة وسعى في خير أهلها فله ماكسب وكل من أراد بهم شرًا يجازى بما عمل. لا يولى عليكم إلا من رضيتموه منكم أوكان من أهل رسول الله. والسلام."

وفي رسالة لأهل اَضروح يقدم الرسول ﷺ للقوم الضمانات الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد نبي الله و[رسوله] إلى أهل أضروح لهم الأمن برسالة الأمان من الله ورسوله. عليهم أداء ٢٠٠ دينار بالقسط والميزان كل رجب، وإن أحد منهم فر خوفًا ورهبة من المسلمين، وهم خائفون من المسلمين، فهم آمنون يعيشون مطمئنين إلى أن يلتقي بهم محمد قبل أن ينصرف."
(أورده موشي ص٣٠، انظر أيضًا الواقدي ص٥٠).

وفي "كتاب [محمد ﷺ] إلىٰ يوحنا بن رباح" الذي كان حاكمًا علىٰ منطقة العقبة علىٰ البحر الأحمر، أملىٰ النَّبيّ ﷺ الرسالة الآتية:

"إلى يوحنا بن رباح ووجهاء عائلة أيلة، سلام عليكم. الحمد لله وحده ولا إله إلا هو، لا أريد محاربتكم قبل أن أكاتبكم. عليكم أن تسلموا أو الجزية. أطيعوا الله ورسوله ورسل رسوله. أكرموهم وألبسوهم أحسن اللباس لا لباس المغيرين، ألبسوا زيدًا خير اللباس فإن أرضيتم رسلي فقد أرضيتموني. تعملون ولا شك ما عليكم من جزية، فإن أردتم الأمان في البر والبحر أطيعوا الله ورسوله يرفع عنكم ما كنتم تؤدونه للعرب والعجم، إلا ما كان لله وهو ما تؤدونه لرسوله. لكن احذروا ألا تفعلوا فإني لا أقبل شيئًا منكم وسأسبي الصغار وأقتل الكبار. فأنا رسول الله بالحق. ألا فلتؤمنوا بالله وبكتبه ورسله، وبالمسيح بن مريم فهو كلمة الله وأنا أومن به فهو رسول الله. تعالوا قبل أن تحل

بكم مصيبة. لقد أوصيت رسلي عنكم: أعطوا حرمل ثلاثة أوساق من الشعير، فحرمل هو وليكم وفاعل الخير فيكم، ولولا فضل الله عليكم لما أرسلت إليكم رسلاً بل كنتم ترون جيشاً. ولذلك إن أطعتم رسلي فلكم أمان الله وَمُحَمَّد ومن والاه. ورسلي هم شرحبيل بن أبي، وحرملة، وحريث بن زيد الطائي، كل ما يفعلونه معكم فهو بأمر مني ورغبتي. لكم أمان الله وَمُحَمَّد رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتموني، وأهل مقنة ستعيدونهم إلى ديارهم" (انظر موشي ٢٨-٣٠).

لم يكتف يوحنا بن رباح بالإجابة عن رسالة النَّبيّ ﷺ بل إنه قدم بنفسه إلىٰ المدينة للقاء النَّبيّ ﷺ وقد عامله رسول الله ﷺ معاملة الضيف وخاض معه في حديث ومناظرات، وخلع عليه بردة، ثم عقد معه معاهدة تحت اسم "معاهدة أيلة". وتقول الوثيقة ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم هٰذا كتاب أمنة من الله وَمُحَمَّد النَّبيّ رسول الله، ليوحنة بن رباح وأهل أيلة. سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه... وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو من بحر" (أورده قريشي ص ١٨٠، وبيترس ص ٢٤١).

وبما أن سكان المنطقة كانوا من النصارىٰ فكان عليهم أداء دينار واحد عن كل فرد بالغ كجزية، كما أنهم التزموا بإيواء وإطعام أي قوة من الجيوش الإسلامية المارة بالمنطقة، (قريشي ١١٧-١١٨). كما أن أهل طبالة التزموا بنفس الاتفاقية. ومقابل دخولهم الإسلام، اتفق النَّبيّ ﷺ علىٰ المحافظة علىٰ وضعهم علىٰ حاله. ونتيجة لذلك كان عليهم جمع دينار واحد عن كل فرد من أفراد أهل الكتاب الذين فضلوا البقاء علىٰ دينهم؛ كما كان عليهم الالتزام بتزويد جيش المسلمين بما يحتاجونه إذا ما دعت الضرورة لذلك (١٨٤).

وفي السنة العاشرة للهجرة، أخبر ملوك حمير المسيحيون النبيَّ مُحَمَّد ﷺ أنهم تركوا عبادة الشرك وعَادَوْا المشركين ودخلوا الإسلام. فأرسل لهم رسول الله ﷺ الرسالة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله الذي لا إله إلا هولكم. فقد وصلني رسولكم عند رجوعي من أرض الروم والتقى بي في المدينة فأعطاني خطابكم وأخباركم وما كان من أمر إسلامكم وقتلكم للمشركين [الذين يحاربون الله ورسوله]. لقد هداكم الله بهدايته. فإن أحسنتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وأديتم الزكاة وخُمُسَ ما لله ولرسوله، وخراج ما يجب على المؤمنين من الأراضي، وهو العشر على الأراضي المسقية بالعيون والمطر، والعشرون بما يسقى بالدلو، وعن كل أربعين بعيراً لبون، وعن كل ثلاثين بعيراً فصيل، وعن كل خمسة جمال شاة واحدة، وعن كل عشرة جمال شاتان، وعن كل أربعين بقرة بقرة واحدة، وعن كل ثلاثين بقرة عجل، وعن كل أربعين شاة في المرعى شاة واحدة. هٰذا ما فرضه الله على المؤمنين، فمن تطوع خيراً فهو خير له. وكل من أدى ما عليه وشهد على إسلامه وأعان المؤمنين على المشركين فهو مؤمن، له ما للمؤمنين وعليه ما عليهم، وهو في ذمة الله ورسوله. إن أسلم يهودي أو نصراني فهو مؤمن، له ما للمؤمنين وعليه ما عليهم. وكل من بقي على دينه وتمسك به يهودياً كان أو نصرانياً لا يجبر على تركه، وعليه الجزية: دينار واحد أو عدله من المعافر عن كل بالغ حر ذكراً كان أو أنثى. من أدى ذلك لله ورسوله فله أمان الله ورسوله، ومن امتنع فهو عدو لله ولرسوله".

ولقد أرسل محمد النَّبيّ رسول الله إلىٰ زرعة بن ذي يزن:

"إذا أتاك مبعوثي معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة ومن رافقهم فإني أوصيك بهم خيراً. خذ

الصدقات والجزية من مناطقك وأودعها مع رسلي وعلى رأسهم معاذ بن جبل ولا تدعه يعد إلا وهو راض. يشهد محمد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

لقد أخبرني مالك بن مرة الرهوي أنكم أول من أسلم من أهل حمير، وأنكم قاتلتم المشركين، فطوبى لكم. أوصيكم بأهل حمير خيرًا وأن لا تفتروا على الناس ولا تخادعوا فرسول الله هو مولى الفقراء والأغنياء منكم، إن الصدقات ليست لمحمد ولا لآل بيته، بل هي للفقراء من المسلمين وأبناء السبيل. لقد أورد مالك الأخبار واحتفظ بما يبقى سرًا، أوصيكم به خيرًا. لقد بعثت إليكم أناسًا من خيرة أصحابي من الورعين العالمين بأمور الدين، فإني أوصيكم بهم خيرًا لأنهم رجال جديرون بالاحترام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته". (عن ابن اسحق ص: ٦٤٣-٦٤٤).

عندما شيع رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وكان معروفًا بحماسه العارم [في أمور الدين]، خاطبه قائلاً:

"يسر ولا تعسر، كن لينا لا فضًا، شجع ولا تقمع، خاطبهم بما يستميلهم إليك لا بما ينفرهم منك، وفق بين الناس ولا تستعدهم" (البخاري).

ثم تابع النَّبيّ ﷺ قائلاً:

"إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افْتَرَضَ عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب". (البخاري).

وهو يلخص ما ينبغي أن يكون عليه حال من أوكل إليه أمر نشر الدين الإسلامي

من الصفات، أردف النَّبيّ ﷺ قائلاً: "يا معاذ كن سمحاً ليناً مع الناس" (انظر مالك)، مما يؤكد أن الإسلام يبلِّغ بالتدريج ويعلم بالقدوة والأسوة الحسنة.

في السنة العاشرة للهجرة، جاء وفد من اليمن قدم إلىٰ النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ يعرض عليه إسلامه. وكان الوفد المتكون بما بين خمسة عشر وعشرين رجلاً يرأسه سراد بن عبد الله، وقد تعرف عليه النَّبيّ ﷺ بصفته شيخ وزعيم عشيرته. وبما أنه أصبح حليفاً للمسلمين، فإن سراد سيكون عرضة لهجمات أعداء الإسلام ويتعين عليه بالتالي أن يدافع عن الوحدة الترابية لدولة الإسلام. وقد توجه سراد بن عبد الله نحو مدينة جرش المحصنة والتي التجأ إليها أفراد من [قبيلة [خثعم الفارين من قوات المسلمين الزاحفة. وعلىٰ الرغم من الحصار الذي ضرب علىٰ المدينة لمدة شهر كامل، رفض السكان فتح أبواب المدينة. قرر سراد تغيير استراتيجيته فقام بانسحاب وهمي. لكنه في الحقيقة انسحب فقط إلىٰ التلال المجاورة للمدينة لكي ينصب كميناً لأهل جرش. فسقط المشركون في الفخ وتكبدوا خسائر فادحة. وعلىٰ الرغم من كون المغيرين قد اعتدوا علىٰ المسلمين دون سابق إنذار، وعلىٰ الرغم من كونهم رفضوا التسوية السلمية، فإن صحابة النَّبيّ ﷺ قتلوا فقط من حمل السلاح ضد المسلمين. أما بالنسبة لبقية السكان، فكل ما لحقهم هو أن يلتزموا بأداء دينار واحد كل سنة عن كل فرد كجزية وأن يقوموا بالاعتناء بالمسلمين المسافرين المارين بالمنطقة (قريشي ١٧٥). وهٰذا المبلغ الذي يتكرر في العديد من الرسائل والعهود والمواثيق النبوية، قد تأكد في وثيقة أخرىٰ منسوبة للنبي ﷺ وكانت في ملكية الإمام محمد الباقر (٦٧٦-٧٣٣م). وتخلص الوثيقة في تناولها للصدقة (أو الزكاة) إلىٰ ما يلي: "كل من كان علىٰ دين اليهود أو النصارىٰ ورفض الخروج منه، عليه دينار واحد عن كل ذكر بالغ أو ما يعدله من الثياب" (الواقدي ٥٣١).

وقد شهدت السنة العاشرة الهجرية أيضاً الخضوع التام لكافة نصارىٰ نجران في جنوب الجزيرة العربية. ونتيجة لخضوع بني الحارث عقد معهم رسول الله ﷺ المعاهدة التالية:

رسالة إلى عمرو بن حزم من بني الحارث

"بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا بلاغ من الله ورسوله: 'يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود' [٥:١].

هٰذا كتاب من محمد النَّبِيّ رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق، كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، وأن ينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر، وأن يخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين لهم في الحق ويشتد عليهم في الظلم، فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال: 'ألا لعنة الله على الظالمين' (٧:٤٤)،

وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس بالنار وعملها، ويستأنف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج، وسننه وفرائضه، وما أمره الله به، والحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة: وأن ينهى الناس أن يصلي الرجل في ثوب واحد صغير إلا أن يكون واسعاً فيخالف بين طرفيه على عاتقيه، وينهى أن يحتبي الرجل في ثوب واحد ويفضي بفرجه إلى السماء، ولا ينقض شعر رأسه إذا عفى في قفاه، وينهى الناس إن كان بينهم هيج أن يدعو إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى العشائر والقبائل فليعطفوا فيه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، وأن يمسحوا رؤوسهم كما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ، وأمروا بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود، وأن يغلس بالصبح، وأن يهجر بالهاجرة حتى تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو النجوم في السماء، والعشاء أول الليل. وأمره بالسعي إلى

الجمعة إذا نودي بها، والغسل عند الرواح إليه وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار فيما سقى المغل وفيما سقت السماء العشر، وما سقى الغرب فنصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شياه، وفي أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد فهو خير له، ومن أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه فدان دين الإسلام فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته، فإنه لا يغير عنها، وعلى كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه من الثياب، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله ورسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين جميعاً" (ابن اسحق ص: ٦٤٧-٦٤٨).

على الرغم من كثرة علماء الدين السلبيين البعيدين عن السياسة الذين يعارضون إقامة الحكومات الإسلامية، محبطين كل إرادة لإقامة الشريعة الإسلامية، "فإن النَّبيّ ﷺ -إن كان الأمر في حاجة إلى تأكيد- كان سبق له أن أسس الدولة الإسلامية في المدينة" (انظر بانغاش 'السير على المنهاج'). وكما لا حظ ظفر بانغاش (المولود سنة ١٩٥٠)، هناك بعض العلماء مثل شاه ولي الله دهلبي وهو من علماء الهند في القرن الثامن عشر الذي يفيد بأن النَّبيّ ﷺ أسس الدولة الإسلامية بمكة، ولو أنها كانت دولة ذات سلطة محدودة. وهذا بالطبع يحيل على الفترة التي سبقت الهجرة، وهذه مسألة خلافية، لكن بانغاش يؤكد بأن ليس هناك خلاف في أن النَّبيّ ﷺ "قد أسس الدولة الإسلامية [الأولى] بالمدينة، حيث لم تمر عشر سنوات على تأسيسها حتى توسعت في أرجاء الجزيرة العربية كلها". ويوضح بانغاش الأمر أكثر قائلاً: "باتباعهم للسنة، كان من المتعيَّن على المسلمين أن يعيشوا في كنف دولة إسلامية، وحتى لو لم تكن مثل هذه الدولة موجودة، فلقد كان عليهم أن يسعوا لإقامتها". إن المسلمين الذين لا يقبلون بمبدإ سيادة الشريعة الإسلامية، ويفضلون بدلها الحكم الملكي أو الدكتاتورية الاستبدادية أو النظام "الديمقراطي" في الأقطار

الإسلامية، فإنه يتصرف تصرفاً ينافي القرآن والسنة. كل عالم دين مسلم يعارض إقامة الحكم الإسلامي في البلاد الإسلامية يجعل التزامه الصحيح بالقرآن والسنة محل شبهة. وكما يعترف بذلك الرهبان النسطوريون الذين دونوا 'سجلات سيئرت': "لقد كان محمد بن عبد الله ذا قوة ونفوذ كبيرين (انظر المجلد ٢٨٠/ ٦٠٠)؛ فلم تكن قوة النَّبيّ ﷺ قوة روحية فحسب، بل كانت أيضاً قوة عسكرية وسياسية.

باعتناق شيوخ القبائل الإسلام، أو بمجرد تحالفهم مع دولة الإسلام، فقد أصبحوا ضامنين لاستمرار سيادتهم علىٰ أوطانهم. فلم يكن النَّبيّ ﷺ امبريالياً مسيطراً؛ لقد كان كل همه هو نشر الدين الإسلامي لا استعمار الممالك والإمبراطوريات المجاورة. وإن كان ولا بد، فإن إدخال العديد من الممالك للإسلام كان القصد منه هو إنشاء دولة 'الولايات المتحدة الإسلامية' أو دولة الوحدة الإسلامية. لقد كان النَّبيّ ﷺ إنسانا ملهماً من الله تعالىٰ لكي يرسي أسس الأمة الإسلامية، أو "رابطة المسلمين العالمية" أو "جماعة المسلمين العالمية"، حيث لا يكون الحكم المحلي مسموحاً به فقط بل يحظىٰ بالتشجيع ما دامت رابطة التضامن الإسلامي تأتي في المقام الأول وتسبق غيرها من الاعتبارات. وعلىٰ الرغم من كون الكثير من المشركين واليهود والنصارىٰ نكثوا عهودهم كما كان الحال أيضاً مع بني خزاعة وبني مدلج وبني بكر وبني دمرة وبني سليم، فإن الصحابة الراشدين ساروا علىٰ نهج النَّبيّ ﷺ في تعاملهم مع غير المسلمين، سواء أكانوا نصارىٰ أو يهوداً من الشرق الأوسط، أو من أوربا أو كانوا من الهندوس أو البوذيين في جنوب شرق آسيا.

حينما انتشرت جيوش عمر بن الخطاب (٥٧٩-٦٤٤م) في سيناء سنة ٦٣٤م بقيادة عمرو بن العاص (المتوفىٰ سنة ٦٦٤م) "لم يبد الفاتحون أدنىٰ اهتمام بدخول الرهبان إلىٰ الإسلام، " (حسب كرون وكوك، ص ١٢٠). في كتاب تحت عنوان المذهب الهاجري Hagarism الذي يقال عنه 'إنه كتبه كافر لكفار' يجادل المؤلفان (ص٨) مايكل كوك Michael Cook (المولود سنة ١٩٤٠م) وباترسيا كرون Patricia Crone(المولودة سنة ١٩٤٥م) بان مثل هٰذا السلوك ينم عن كون العرب لم يكونوا "مسلمين" بالمعنىٰ الذي نفهمه اليوم (ص٨). "فلماذا كان المسلمون الفاتحون إذن

مسالمين؟"، يتساءل زكري كرابال Zachary Karabell (ص٢٨). الجواب بسيط حسب هٰذا الكاتب: "إن القرآن قد أمر المسلمين باحترام أهل الكتاب، وهٰذا ما فعلوه بالتحديد" (ص٢٨). وكما يشرح ذلك كرابال، فـ"قد استغل عمرو بن العاص واقع كون المسيحيين الأقباط كانوا "موحدين"؛ أي أنهم كانوا يعتقدون بأن المسيح كان شخصاً مفرداً بطبيعة واحدة، وذلك من أجل تأكيد شبههم بالدين الإسلامي، مما يتعارض مع فكرة التثليث (ص٢٨). وهٰذا ما يفسر لماذا سقطت مصر بتلك السرعة في يد جيش لا يتجاوز تعداده خمسة ألف مقاتل (ص٢٨). واستناداً إلىٰ كرابال:

'ذهب الرواة العرب إلىٰ حد القول إن الكنيسة القبطية ساعدت بالفعل العرب وأعانتهم علىٰ هزم الحاميات [العسكرية] البيزنطية في الدلتا، حيث إن عمرو [بن العاص] كان قد وعدهم بأن كنائسهم لن تمس بسوء وأنه سيتم تخفيض جزيتهم. بالنسبة للأقباط وأساقفتهم كانت هذه صفقة مقبولة. لقد كانوا يعلمون أن عليهم أداء الضرائب لطرف ما [علىٰ كل حال]، ولكن علىٰ الأقل في حالة المسلمين سيسمح لهم بممارسة عقيدتهم كما يحبون، ويتحررون بذلك من قبضة القسطنطينية القمعية والمتغطرسة" (ص٢٨).

هٰذا لا يعد دليلاً مقنعاً نظراً لان أغلبية السكان المسيحيين في الجزيرة الأيبيرية اعتنقت الإسلام في آخر المطاف. في الوقت الذي يرىٰ فيه المسلمون التقليديون أن معتنقي عقيدة التثليث هم بالمعنىٰ الدقيق للكلمة بعيدون عن مبدإ التوحيد [الإسلامي]، فإنهم مع ذلك لا يعتبرونهم مشركين. في أيامنا هذه، إنه من باب السخافة وضع مبدإ التوحيد ومبدإ التثليث في مركز النقاش والقول إن قبول هٰذا المذهب ورفض المذهب الآخر هو 'مسألة حياة أو موت'. وبصفة أدق، إنه من السخافة في عصرنا هٰذا مناقشة فيما إذا كان المسيحيون موحدين، بعيداً عن الفكرة التي مؤداها أن هناك "ثلاثة في واحد"، و"واحد في ثلاثة". إن الله تعالىٰ كان دائماً واحداً أحداً بالنسبة للمسيحيين. في الحقيقة لقد أكد علماء اللاهوت الكاثوليك دائماً أن الله واحد، وأن طبيعته هي طبيعة فوق الإدراك البشري.

فلو أن المسلمين في عصرنا هٰذا ألحوا علىٰ أنه يجب علىٰ المسيحيين أن يتركوا عقيدة التثليث قبل الجلوس إليهم من أجل مناقشة الطرق المؤدية إلىٰ خلق مجتمع أكثر عدلاً كبديل عن المجتمع الذي فرضته بقوة الحديد والنار الأنظمة الرأسمالية والشيوعية، فإن أتباع مُحَمَّد ﷺ قد يجدون أنفسهم في وضعية بعيدة عن المنطق السليم. فكما قال أحد الزعماء المسلمين لأحد الزعماء المسيحيين في نهاية السبعينات من القرن الماضي: "لنعمل سوياً علىٰ إقامة مجتمع أكثر عدلاً، ولندع مسائل مثل مسألة التوحيد والتثليث لعلمائنا كي يتداولوا بشأنها فيما بينهم". إن هذه هي بالضبط السمة التي تميز عهود النَّبيّ ﷺ مع الأمة المسيحية. ومن أجل ذلك تحديداً قبل النصارىٰ بتلك العهود. ولذلك فإننا حينما نتحدث أو نناقش مثل هذه المواضيع، يتعين علينا أن نتموقع تموقعاً صحيحاً. علينا أن نجعل دائماً الأهم من الأشياء نصب أعيننا حتىٰ يتسنىٰ لنا أن نواجه أولئك الذين يسعون للحؤول دون إقامة علاقة منطقية وطبيعية بين المسيحيين والمسلمين، ويعملون علىٰ خلق الفرقة وتأجيج الصراع الدموي انطلاقاً من المبدأ الماكيافيلي الذي يقول 'فرق تسد'، وهي استراتيجية تم تطبيقها بمنتهىٰ الفظاعة. وإذن، إذا ما تركنا جانباً مسألة التثليث وما يلفها من غموض، فإن القضية الشائكة الأخرىٰ بين المسلمين والمسيحيين تبقىٰ هي الاعتقاد في ألوهية المسيح؛ وفي هٰذا المجال، فإن الفروق بين مختلف المذاهب المسيحية تختفي. فبينما يحرم القرآن بصفة قطعية علىٰ المسلمين نسب الألوهية للمسيح، علىٰ اعتبار أن ذلك يعد شركاً من أكبر الكبائر، فإنه من الواضح أن النَّبيّ مُحَمَّداً ﷺ، بما أنه كان يعرف أن الأغلبية الساحقة من المسيحيين يعتبرون المسيح "ابن الله الأوحد"، فإنه كان من أجل ذلك أكثر تسامحاً حيال 'ألوهية' المسيح من بعض المسيحيين أنفسهم، في انسجام مع منطوق آيات القرآن الكريم التي تقول: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ (٢٩:٤٦). ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (٥:٤٨). فلو أن النَّبيّ ﷺ كان قد هاجم النصارىٰ علىٰ مستوىٰ كل نقطة خلاف اختلفوا فيها مع الإسلام، أو

أنه تورط في الصراع الطائفي بين المسيحيين، مهما بلغت درجة ذلك الصراع، ما كان بوسعه ﷺ أن يؤسس إمبراطورية موحدة. لم تكن روح التسامح تلك مبنية علىٰ اعتبارات سياسية نفعية، ولو أن ذلك كان جزءاً منها بالتأكيد، إلا أنها بالإضافة إلىٰ ذلك كانت تستند إلىٰ الاعتراف بأن المسائل اللاهوتية التي تتعدىٰ المبادئ المؤسسة للتوحيد- أي الإيمان بإله واحد، واستحالة مقارنة ذلك الإله بأي مخلوق آخر، إذ أن من شأن مثل تلك المقارنة أن تؤدي إلىٰ الوثنية وما إلىٰ ذلك، - فمن الأجدىٰ أن يناقشها العلماء والفقهاء وأهل الاختصاص فيما بينهم، تماشياً مع المبدإ الإسلامي المتوازن والحكيم القاضي بالتمييز بين ما هو ظاهر وما هو باطن، والتمييز بين ما يقبله عامة المسلمين وما لا يفهمه إلا القلة القليلة منهم.

في كتابه تحت عنوان *رحلات جاليفر*، كتب جوناثان سويفت عن الخلاف الذي دار بين 'مناصري الطرف الأعلىٰ' و'مناصري الطرف الأسفل'، الذين دخلوا في حرب بينهما حول مسألة هل تقشر البيضة المسلوقة نصف سلقة من طرفها الأعلىٰ أو من طرفها الأسفل؟ لقد كانت هذه هي طريقة الكاتب [جوناثان سويفت] في التهكم والسخرية من الصراعات اللاهوتية. لكن بعض المسائل مثل قضية هل يمكن للجن أن يكونوا وسطاء بين الإنس والله تعالىٰ؛ أو قضية هل لله تعالىٰ "بنات"؛ أو هل كان من الممكن أن ينزل القرآن علىٰ أي واحد من البشر أو أنه فقط "صادف" فقط أن نزل علىٰ مُحَمَّد ﷺ؟، تلك كانت قضايا حاسمة كان يتعين تسويتها إن كان للإسلام أن يجد له موطئ قدم، ولو أن القرآن نفسه كان قد حسم هذه الأمور. لم تكن تلك القضايا مسألة أسلوب أو مسألة ميول شخصية تم النفخ فيها لتصل إلىٰ مستوىٰ القضايا اللاهوتية [الشائكة]، بل كانت قضايا قد تؤدي بالمرء إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار. وعلىٰ غرار هٰذا، كان الكثير من الخلافات (لا كل الخلافات) بين المذاهب المسيحية -ولا تزال- قضايا ذات مدلول روحي حقيقي. لكن وكما أسلفت القول، كان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ في سلوكه يقابل بكثير من الأريحية الخلافات الموجودة بين أهل الكتاب ما دامت تلك الخلافات لا تمس المبادئ الأساس التي تنبني عليها عقيدة التوحيد، مثل مبدإ وجود الإله الواحد، وعدم تمثيل الإله بأي مخلوق (إذ من شأن هٰذا التمثيل

أن يؤدي إلىٰ عبادة الأوثان وما إلىٰ ذلك). فلو أن النَّبيّ ﷺ خاض في الصراعات المذهبية المسيحية لَلَـقِيَ سعيُه لتأسيس أمة موحدة كثيراً من العراقل. لكن حين تعلق الأمر بالمسلمين أنفسهم فإن النَّبيّ ﷺ والقرآن كانا أكثر حزماً وصرامة.

إن قضية انضمام نصارىٰ مصر والأقاليم المجاورة للمسلمين لم يتم الحسم فيها بما فيه الكفاية. ما هو واضح مع ذلك هو "أن المسلمين بفضل جبايتهم لضرائب مخفضة تم استقبالهم كمحررين لا كغزاة" (نافزيغر ووالتون (ص ٣٣). يقول ميخائيل السوري، وهو أحد بطريركيي الكنيسة غير الخلقلدونية السورية: "إن الإله المنتقم، لما رأىٰ شرور الروم البيزنطيين، أتىٰ بأبناء إسماعيل من المنطقة الجنوبية كي يخلصنا من أيدي الروم" (أورده بينز ص ١٧٢). واستناداً إلىٰ وليام أيسنير ويغرام، "لقد شكل مجيء العرب [الفاتحين] خلاصاً بلا شك" بالنسبة للنصارىٰ الآشوريين، (انظر ويغرام في كتابه الآشوريون، ص ٣٣). أما بالنسبة لنصارىٰ فارس، "فإن مقدم الجيوش الإسلامية تم الترحيب به بالإجماع علىٰ انه أمل في الخلاص من حكم الوثنية المستبد" (إمهاردت ولمزا ص ٧٥). لقد حاول الكثير من الباحثين تفسير الأسباب التي جعلت النصارىٰ الوحدانيين (المونوفيزيين) واليهود المسيحيين ينضمون إلىٰ المسلمين. فبالنسبة للبعض منهم، كان ذلك عبارة عن رد سياسي- اجتماعي طبيعي علىٰ القهر البيزنطي. وبالنسبة للآخرين، كان الموقف نابعاً من معارضتهم المذهبية للكنيسة الكاثوليكية. وبالنسبة لكلود كاهن (١٩٠٩-١٩٩١)، قد يكون هناك سبب مخالف لكل ما ذكر. ويفسر ذلك علىٰ النحو التالي:

> "الإسلام كما هو معروف، يعترف بكون الخطاب الإلٰهي الموجه لليهود والنصارىٰ كان خطاباً حقيقياً بالرغم من كونه ظل غير مكتمل ولحقه ما لحقه من التحريف فيما بعد. في الشرق ربما كانت هناك ذهنية بالمقابل تقول إن الكثير من العقول تقر بوجود رسالة دنيا لكن حقيقية موجهة إلىٰ الذين لم تصلهم الرسالة المسيحية. وبصفة أوضح، من المعلوم أن بعض الطوائف بقيت متشبثة بانتظارها مجيء أنبياء آخرين، حتىٰ بعد المسيح" (ص٥٧).

علىٰ الرغم من أن العرب الفاتحين الأوائل كانوا لا يعرّفون أنفسهم

حقيقة بـ"المسلمين"، فإن سلوكهم وأعمالهم تؤكد بما لا شك فيه بأنهم كانوا واعين بما يتطلبه القرآن منهم –وبصدق– بأنهم مسلمون مؤمنون. فكما يقول ريشارد فليتشر في هٰذا الشأن:

في التراث الإسلامي المكتوب... نجد تعبيراً عن المودة يخترق [ذلك التراث] تجاه الديانة المسيحية. لكن في الواقع لم يتم دائماً العمل وفق ذلك بطبيعة الحال. فقد اشتكىٰ البطريرق سوفرونيوس من هدم الكنائس والأديرة الذي رافق غزو المسلمين لفلسطين. لقد وقعت تلك الأشياء أثناء الحرب. لكن سجلات عهود الاستسلام التي لا زالت موجودة تشير إلىٰ أن قيادة [المسلمين] كانت تتمسك بتعاليم القرآن" (ص ٢٠-٢١).

ويفيد جوهن ف. إيسبوزيتو (المولود سنة ١٩٤٠م) بشكل أكثر توسعاً:

حينما غزا المسلمون بيزنطة، لقوا ترحيباً من قبل بعض الطوائف والمجموعات المسيحية التي كانت مضطهدة من قبل الكنيسة 'الرسمية' (أي الكنيسة الكاثوليكية) بدعوىٰ أنها كانت 'خارجة عن الدين'. فقد رحب الكثير من المسيحيين بالحكم الإسلامي الذي منحهم حرية أكبر لممارسة عقيدتهم وخفّض من الضرائب المترتبة عليهم. وعلىٰ الرغم من التخوفات التي سادت في البداية، فقد ظهر المسلمون الفاتحون علىٰ أنهم أكثر تسامحاً من [الكنيسة] المسيحية المسيطرة، حيث إنهم منحوا حرية كبرىٰ للكنائس المسيحية الأصيلة ولليهود" (ص٨٢).

يقول ريشارد فليتشر، "بالنسبة للمسيحيين المونوفيزيين (الموحدين) المضطهدين في مصر وسوريا، كان المسلمون بالنسبة إليهم بمثابة مخلّصين. ويمكن القول نفسه بالنسبة ليهود إسبانيا المضطهدين" (ص١٦). فحينما دخل المسلمون إلىٰ الأندلس سنة ٧١١م بطلب من اليهود الذين استصرخوهم وطلبوا منهم أن يحرروهم، فقد"وعد العربُ السكانَ المحليين أن مساكنهم وأراضيهم سوف لن تمس، وأن عاداتهم الدينية سوف يتم احترامها" (كارابيل

ص ٦٦). وكما يوضح ذلك إسبوزيتو، "فقد منح الحكم الإسلامي السكان اليهود والمسيحيين (الذين كانوا يلتمسون التحرر من النظام الطبقي لأوروبا) إمكانية أن يصبحوا ملاكـًا مزدهرين داخل ضيعاتهم الصغيرة" (ص٨٣). وحينما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس سنة ١١٨٧م فلقد عكس سلوكه حقيقة شهامة رسول الله ﷺ حيث إنه "كان رحيمـًا رؤوفـًا بأهلها حيث إنه أعطىٰ الحجاج المسيحيين حرية الحركة في كل أرجاء البلاد التي كانت خاضعة له" (هوبز ٢٢٦). إن الأدبيات الإسلامية التاريخية تزخر بالأمثلة الدالة علىٰ معاني الرحمة لدىٰ الجيوش الإسلامية. إن الأمر السلطاني الذي أصدره السلطان [العثماني] سليم الأول (الذي حكم ما بين ١٥١٢-١٥٢٠م) عقب فتحه للبقاع المقدسة [بالقدس] تعطي مثالاً ساطعـًا عن روح التسامح تلك (انظر قاتوري). "علىٰ العموم"، يفيد جوهن غالي "فان المسلمين يتميزون بسجل سلوك أفضل فيما يخص التسامح الديني مقارنة بالمسيحيين. ويؤيد هـٰذا وجود دير [القديسة كاثرين بسيناء] بمثابة جيب داخل الأراضي الإسلامية كتراث متواصل يتحدىٰ الزمان" (ص١٣). لقد تم الحفاظ علىٰ دير القديسة كاثرين من قبل النَّبيّ ﷺ ومن قبل الخلفاء والسلاطين الذين جاؤوا من بعده. في سنة ١٥١٧م حينما سقطت منطقة سيناء بيد الحكم العثماني، أصدر السلطان سليم الأول 'فرمانـًا' إلىٰ جواكيم، بطريق الإسكندرية (حوالي ١٤٤٨-١٥٦٧م) يقدم فيه ضمانات كل الامتيازات الكنسية، وحرية المعتقد الديني، والحماية من الاضطهاد. وبرأي الصفصافي أحمد القاتوري "تم الاحتفاظ بمرسوم السلطان سليم الأول الذي كتبه لرهبان دير القديسة كاثرين إلىٰ حين الاحتلال الإسرائيلي لسيناء". الظاهر أن مكان وجود [هـٰذا المرسوم] أصبح غير معروف. ولحسن الحظ تمكنتُ من الوقوف علىٰ ترجمة لميثاق سليم الأول في كتاب تاريخ ارتقاء واضمحلال الإمبراطورية العثمانية لصاحبه ديمتريوس كانتمير (١٦٧٣-١٧٧٤م). حينما مر بمدينة أدرنة حالفه الحظ بأن قرأ ترجمة تركية عن الأصل العربي [للوثيقة]. وفيما يلي يورد المؤلف الترجمة الإنجليزية للترجمة اللاتينية لكانتمير، والتي قام بإكمالها ن.

تيندال (١٦٨٧-١٧٧٤م)، قس مقاطعة والثام الكبرىٰ بإيسكس:

بما أن رهبان جبل سيناء قد قدموا إلىٰ ديواننا السامي، وذكرونا بكل تواضع بأنهم أكرموا وفادة [نبينا] محمد المصطفىٰ (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) في ديرهم أثناء سفره، وبأنه مقابل تلك الحفاوة والإكبار الذي لقيه [النَّبيّ ص) منهم أوصىٰ ﷺ بإعفاء هذه الطائفة من الرهبان النصارىٰ من أداء الضريبة السنوية؛ ولتأكيد ذلك أعطاهم عهداً مكتوباً موقعًا بيده. واقتداء بسنته ومشياً علىٰ خطاه ﷺ، فإننا نصدر أوامرنا بتمتيع الرهبان المشار إليهم بالإعفاء من أداء الضريبة السنوية [الجزية] التي يؤديها باقي [أهل الكتاب]"؛ وأن يعاملوا بدون مضايقة في كنائسهم وعند القيام بعبادتهم وفق شريعتهم المتوارثة. ومن أجل هٰذا لقد منحناهم نسخة من الميثاق النبوي الشريف، مصدّقاً من جانبنا. وعليه فإننا نأمر كل شخص بيده سلطة أو مخول له ممارسة القضاء الشرعي في سائر مملكتنا ألاّ يطالبوا الرهبان من قوم عيسىٰ المشار إليهم بأداء أي ضريبة أو القيام بأي واجبات سياسية أخرىٰ. وكل من خالف أمرنا الشريف هٰذا فليعلم أنه سيلقىٰ العقاب والتأديب المناسبين. وحرر بكايري الخ (١٦٨-١٦٩).

منذ حكم السلطان سليم الأول إلىٰ نهاية الإمبراطورية العثمانية، ظل من التقاليد المرعية أن يقوم كل سلطان جديد بإصدار أوامره لباشا مصر بحماية دير جبل سيناء (هوبز ١٦٠). وكما يفيد براندي راتليف، فإن "الوثائق الصادرة عن الحكومة الإسلامية بالقاهرة... تشير إلىٰ التقليد الإسلامي الذي يراعي الإحسان للدير؛ وخلال الحكم العثماني كان باشا مصر يجدد [أوامره] بحماية الدَّيْر كل سنة" (ص١٥). ويقول توماكديس (ص١٤) "بصفة إجمالية، حرص المسلمون علىٰ احترام دير [جبل سيناء]". ويردف قائلاً: "إن روح التسامح مردها لوجود 'الأختنام' النبوي الشهير، أي إلىٰ 'الوصية' التي تركها النَّبيّ مُحَمَّد الذي أجار رهبان جبل سيناء من أخطار كثيرة وأعفاهم من الضرائب الثقيلة" (ص١٤).

في الوقت الذي تعرض فيه الدَّيْر إلىٰ عدة هجمات علىٰ يد البدو فإنه لا ينبغي لوم الإسلام علىٰ ذلك بأي حال من الأحوال. وكما لاحظ غريفن أفاغارت الحاج الفرنسي [للبقاع المقدسة] (المتوفىٰ حوالي سنة ١٥٥٧م) في كتابه العلاقة بالأرض المقدسة (١٥٣٣-١٥٣٤م)، فإن البدو يقولون إنهم مسلمون، لكنهم لا يحترمون الشريعة الإسلامية (ص١٨٦). فهو يصفهم بكونهم عصابة من قطاع الطرق الكريهين الغاشمين (ص٦٢)، الذين لا يتورعون في الهجوم علىٰ قوافل قد يصل عدد أفرادها إلىٰ ستة آلاف تاجر، ولا يهمهم في ذلك إن كان هٰؤلاء أتراكاً أو مغاربة أو مسيحيين أو يهوداً (ص١٨٦). وبالرغم من تعهد النَّبيّ ﷺ والحكام المسلمين الذين جاءوا من بعده بحماية الدَّيْر، فإن البدو غير الخاضعين لأي نظام قاموا مراراً بالسطو علىٰ الرهبان وسرقتهم، وفي أحيان كثيرة أرغموهم علىٰ الهرب إلىٰ فاران أو إلىٰ غيرها من الأماكن (انظر شامبدور ص ٣٣). فسلوك البدو الأعراب في ذلك الوقت ينطبق عليهم وصف القرآن لهم [في سورة الحجرات [٤٩: ١٤]: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾.

أما بالنسبة لمسلمي مصر من الحضر، فقد كان أفغارت (وهو من طبقة الفرسان الفرنسيين) أكثر تسامحاً بشأنهم بصورة غير متوقعة. ذلك لأنه وصفهم بكونهم صادقين وأهل ثقة (ص١٨٦)، وأنهم رجال أمناء (أفغارت، ص١٨٨) . وكتب موتون يقول: إن بدو سيناء "يشكلون في الغالب فئة من المسلمين لا تخضع لا لسلطة الرهبان ولا لسلطة الحكم الإسلامي" (موتون ص١٨٠). لقد كان لهٰؤلاء البدو تاريخ طويل من مخلتف أنواع المضايقة ارتكبوها في حق الرهبان (موتون ص١٨١). وبصورة تكاد تكون منتظمة، كانت مخلتف السلطات الإسلامية في تلك الآونة تحكم لصالح الرهبان تأخذ لهم حقهم من البدو من أهل الشقاق والنزاع (موتون، ص ١٧٩-١٨١). وكيفما كان الحال، وعلىٰ الرغم من بعض الشقاق، " فقد عاش رهبان [دير] القديسة كاثرين في وئام وتناغم مع البدو علىٰ مدىٰ ١٣٠٠ سنة" (انظر صوسكيس ص١١٦).

خُلاصَات

مع استثناءات قليلة مؤسفة، ضمِن الحكم الإسلامي بمختلف أشكاله وبشكل يكاد يكون مستمراً حماية الأقليات؛ رغم أن هذه السياسة لم تشمل دائماً كل المذاهب الإسلامية. كانت هناك بالطبع استثناءات كما كان حال يزيد الثاني (ح ٧٢٠-٧٢٤م) الذي اضطهد المسيحيين وحطم رموزهم حيثما كانت في رقعة الخلافة (إروين ص٢٣). لكن مثل هٰؤلاء كانوا طغاة يضطهدون كل رعاياهم مسلمين كانوا أو غير مسلمين بغض النظر عن ديانتهم. ومع ذلك، حتىٰ في حال اقتراف المظالم ضد المسيحيين، فإنها لم تكن تدوم طويلاً وسرعان ما يتم تصحيح الأمور. فمثلاً، قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (ح ٧٠٥-٧١٥م) بمصادرة كنيسة من المسيحيين من أجل توسعة مسجد. فلما اعتلىٰ خليفته كرسي الخلافة، جاء المسيحيون لهٰذا الأخير يشكون إليه ما لحقهم من ضرر من الخليفة السابق. فأمر الخليفة الجديد بإرجاع الكنيسة للمسيحيين ولو أدىٰ ذلك إلىٰ هدم المسجد (انظر هاية ص٥). فإذا كان هٰذا هو سلوك الخلفاء الأمويين المعروفين بكونهم أسوأ خلفاء المسلمين، فبوسع المرء أن يتصور التعامل المثالي الذي كان النَّبيّ ﷺ (٥٧٠-٦٣٢م) والإمام علي (ح٦٥٦-٦٦١م) يخصان به رعاياهم.

حينما عين الإمام الأول والخليفة الرابع محمد بن بكر (٦٣١-٦٥٨م) واليا علىٰ مصر، أوصاه بأن يقيم:

"[...] ...العدل علىٰ أهل الذمة وبإنصاف المظلوم وبالشدة علىٰ الظالم وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطعت والله يجزي المحسنين ويعذب المجرمين" (ذكره جرداك ص١٨٦).

كما أوصىٰ الأمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) معقل بن قيس بأن لا يظلم المسلمين وألاّ يضطهد االنصارىٰ (ذكره جرداك ص ١٨٥). كما أوصىٰ[عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)] بما يلي:"إنك إن اتبعت طريق الحق واتضحت لك شعائر الدين، فلا يظلمن عندك مسلم ولا [ذمي/ نصراني]" (جرداك ص١٨٥). وفي وصية للإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ

وَجْهَه) لمالك الأشتر (المتوفىٰ سنة ٦٥٨م) واليه علىٰ مصر، كتب إليه يقول:

"فإنّهم صنفان : إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتىٰ علىٰ أيديهم في العمد والخطإ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضىٰ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه"، (ذكره جرداك ص١٨٣). وكما عبر عن ذلك جورج جرداك (المعروف بجرجي زيدان) (١٨٦١-١٩١٤م) بشكل بليغ: "المسلم هو أخ المسيحي شاء ذلك أم أبىٰ، لأن الإنسان أخو الإنسان سواء أقر بذلك أم لم يقر" (ص ١٨٤) نتيجة شيمه العالية، فقد كان عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) "محبوباً بفضل عدله عند علماء النصارىٰ سواء في وقته أو بعد مماته". فقد أجمعوا كلهم علىٰ امتداحه والثناء عليه. يقول العلامة ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة:"ما الذي يمكنني أن أقوله عن ذلك الرجل؟ [يقصد عليّاً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)] الذي أحبه الرعايا [المسيحيون] حباً جماً بالرغم من أنهم لم يعترفوا بنبوة مُحَمَّد ﷺ" (ص١٨٦). وكيفما كان الحال، وعلىٰ الرغم من نواقص الأمويين والتي تم توثيقها توثيقاً جيداً، فإنهم مع ذلك "كانوا مثالاً في التسامح الإسلامي المتأصل في هذه الديانة حيال المسيحيين" (شبول ص ١٢٧). والحق أنه كان "دائماً من شيم العرب أن يعاملوا رعاياهم بالحسنىٰ، وأن يهبوا لنجدتهم وأن يثأروا لهم من أي اعتداء تعرضوا له" (أرمسترونغ ٢٠٠٠: ٣١). وعلىٰ الرغم من كون الأئمة بعد عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) كانوا لا يملكون أية سلطة سياسية إلا أنهم مع ذلك كانوا يلحون علىٰ تطبيق التعاليم الإسلامية الصحيحة. فحينما قام الإمام زين العابدين (المتوفىٰ سنة ٧١٢م) بشرح تفاصيل الحقوق والواجبات في الإسلام، فإنه "أكد علىٰ أنه من حق أهل الذمة أن يقبل منهم ما قبله الله تعالىٰ منهم وأن لا يُظلموا ما داموا ملتزمين بميثاق الله تعالىٰ" (ص١٨).

لقد أكد كل منظري الفكر الإسلامي السياسي أمثال آية الله محمد باقر الصدر(١٩٣٥- ١٩٨٠م) (انظر الركابي ص ٢٥٨)، والإمام روح الله الخميني

(١٩٠٢-١٩٨٩م) (ص٤٢) علىٰ أنه يتعين علىٰ كل نظام سياسي أن يضمن حقوق وحريات جميع المواطنين مهما كانت ديانتهم. وقد ذهب الإمام الخميني إلىٰ حد أنه وعد بحماية اليهود الإسرائيليين حيث قال: "إن اليهود يختلفون عن الصهاينة، فإذا انتصر المسلمون علىٰ الصهاينة، فسيتركون اليهود لحالهم، فهم أمة كباقي الأمم؛ وحياتهم ستستمر ولا يجوز أن يرفضهم المسلمون" (ص٤٢). وحزب الله اللبناني، وهو يستلهم سلوكه من التعاليم النبوية، ما فتئ ينادي بالحوار المستمر بين المسلمين والمسيحيين كما أنه نادىٰ بتأسيس نظام سياسي غير طائفي (انظر ممداني ص١٧٢). والحزب يجعل من مساندة المرشحين السنة والمرشحين المسيحيين سياسة تنبني علىٰ القول والفعل، وذلك من أجل ضمان توسيع جاذبية أولئك المرشحين (ص١٧٢). ومثل هٰذا الموقف يتطلب قدراً هائلاً من الصبر والتحمل نظراً لما ارتكبه المسيحيون اللبنانيون من أعمال وحشية في حق اللبنانيين المسلمين خلال الحرب الأهلية. لقد قام حزب الكتائب -وهي حركة فاشية مكونة من المسيحيين المارونيين- بذبح ثلاثمائة مسلم في يوم الجمعة الأسود من عام ١٩٧٥؛ كما قاموا بتقتيل الفلسطينيين في مخيم تل الزعتر سنة بعد ذلك. (داركيمبل ص٢٢٦). إن أعمالاً إرهابية يقترفها مسلمون أو أشخاص مقنعون في ثوب مسلمين-وهم في الحقيقة عناصر [مخابراتية] محرضة، إلىٰ جانب هجمات أخرىٰ يتم إحباطها غالبـاً في اللحظة الأخيرة، كل هٰذا يجد له صدىٰ وتغطية واسعة في وسائل الإعلام الغربية. وما لا يتم تغطيته في تلك الوسائل هو التاريخ الطويل للاستعمار الأوربي وتاريخ الاستعمار الجديد لأوربا والولايات المتحدة في شقيهما العسكري والاقتصادي، والذي كان العالم الإسلامي علىٰ الدوام ضحيتهما والخاسر في كل مرة [في صراعه معهما]. يتعرض الإسلام للانتهاك علىٰ المستوىٰ الأيديولوجي، كما يتم القذف في أقدس رمز له بشكل يكاد يكون يوميـاً، ويكون ذلك أحيانـاً علىٰ يد أولئك الأشخاص أنفسهم المتظاهرين بالإعلاء من شأن قيم "الاختلاف"، و"التعدد الثقافي"، و"التعدد الديني". ولكن يبقىٰ مع ذلك أن المسلمين عبر العالم [ومعهم الأقليات الدينية الأخرىٰ] عرفوا تحت حكم الإسلام أكبر قدر من الحقوق والحماية والحريات، لا تحت حكم الليبرالية الديمقراطية الغربية-هٰذا مع العلم أن هٰذا الحكم [الغربي] قد تم فرضه علىٰ الناس بقوة السلاح.

وعلىٰ النقيض من هٰذا فإن الفترات التي عرفت أكبر قدر من اللاتسامح تزامنت مع الاحتلال الإمبريالي [الغربي] سواء في الماضي أو في الحاضر.

الفصل ٢

النبيُّ محمدٌ ﷺ ورهبانُ جبلِ سيناء

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ
ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن
يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(قرآن كريم؛ سورة آل عمران ٣: ١١٣-١١٥).

مُقَدِّمَة

إن عهد مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء هو وثيقة خلافية كثر حولها الجدل والتنازع. ففي الوقت الذي يسارع فيه المستشرقون إلىٰ وصفه بأنه وثيقة مزورة، فإن الكنيسة الأورثدوكسية الموقرة، إلىٰ جانب أجيال من العلماء المسلمين من مختلف المذاهب قد أكدوا صحتها. وعلىٰ الرغم من كونه علامة بارزة في العلاقات الإسلامية المسيحية، فإن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء لا يكاد يعرف عنه أغلبية المسلمين شيئًا. وبالمقابل حظي باهتمام كبير واعتراف وتداول أكبر عند المسيحيين الناطقين بالعربية واللاتينية والإنجليزية. هل هي وثيقة صحيحة أم لا؟ هل هي تحفة ثمينة؟ أم هي فقط نتاج تزوير مشين؟ هذه هي القضايا التي تواجه الباحث الذي ينكب علىٰ دراسة عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء.

نسخ للعهد النبوي العربية في شكل لفافات

رقم اللفة	الحجم (بالسنتمترات)	مادة الصنع	التاريخ
١	٢٧×٧٨	ورق	١١٥٠هـ/١٧٣٧-١٧٣٨م
٢	٢٧×٥٠	ورق	١١٩٢هـ/١٧٧٨م
٣	٢٢×٦١	ورق	١٢١٥هـ/١٨٠٠-١٨٠١م
٤	٢٤,٥×٤٤,٥	ورق	بدون تاريخ
٥	٣٨×٤٩	ورق	بدون تاريخ (عطية ٢٦)
٩٦١	٤٩×٥٣	ورق	بدون تاريخ (٧٤)

نسخ للعهد النبوي العربية/ التركية المصنفة وفق نظام الكوديس (CODICE)

رقم الكوديس	المقاييس (بالسنتمترات)	مادة الصنع	التاريخ
٦٩٥	١٤,٥×١٠	ورق	١٦٨٣-١٦٨٤ م
٦٩٦	١٩×١٤	ورق	١٥٦١ م

قَضَايَا حَقِيقَة العَهْد النَّبَوي

لقد تم إبرام عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء في السنة الثانية للهجرة. وهذه السنة توافق السجلات المحفوظة لدىٰ الرهبان منذ الفترة الأولىٰ لظهور الإسلام. ونظراً لكون العهد النبوي كان ميثاق حماية كتبه الرسول ﷺ بنفسه، فإنه ظل مصونـاً صيانة كبرىٰ من قبل رهبان جبل سيناء علىٰ مدىٰ ما يناهز تسعة قرون. واستناداً إلىٰ ماري-جوزيف دو جيرامب، Marie-Joseph de Géramb ١٧٧٢-١٨٤٨م)، الذي كان جنرالاً (أو لواء) عسكريـاً منتميـاً لطائفة الرهبان الترابيين Trappists، فإن عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء قد تم الاحتفاظ به في ʼبيت التجلي الإلـٰهي المقدسʻ بدير القديسة كاثرين (انظر جيرامب في كتابه الحج، ص٢٩٤؛ ص٢٤٥). "حينما احتلت الجيوش العثمانية منطقة سيناء سنة ١٥١٧م قامت بإرسال العهد النبوي الأصلي [الفرمان] إلىٰ قصر السلطان سليم الأول. (هوبز ص١٦٠). واستناداً إلىٰ غريفيث فـ"إن رهبان جبل سيناء قدموا له الأختنام الأصلي فوق طبق وغطوه بقماش من الحرير الأخضر، وهو اللون المرتبط [بالنبي] محمد" (ص٦٤). وقبل إرسال النسخة الأصلية من العهد النبوي إلىٰ تركيا فقد تم تعويضها بنسخة منقولة عن الأصل؛ وهي النسخة التي يقوم الرهبان بعرضها بأحد الأروقة الأكثر زيارة بالدَّيْر حيث يمكن لكل زائر أن يشاهدها" (ص١٦٠). وبحسب هوبز (ص١٦٠)، فإن العهد النبوي يعتبر بحق أهم وثيقة من بين الوثائق التي توجد بالدَّيْر، كما يعتبرها باحثون

آخرون أحد أشهر الأعمال الموجودة بالدَّيْر.

وفي كتاب لعطية (١٨٩٨-١٩٨٨م) تحت عنوان المخطوطات العربية بجبل سيناء، يقول هٰذا الأخير إن الدَّيْر يحتفظ بست نسخ عربية من العهد النبوي مؤرخة بتاريخ غير معروف وإلىٰ غاية سنة ١٨٠٠-١٨٠١. هناك أيضاً عدد كبير من نسخ العهد النبوي مترجمة إلىٰ اللغة التركية، وهي مصنفة من رقم ٠١ إلىٰ رقم ٤٣؛ وهي مذكورة في الفهرس (أ) في آخر الكتاب (انظر عطية ص٨٠). لكن هذه التواريخ تعطي الانطباع الخاطئ بأن أقدم نسخ العهد النبوي لا تتجاوز أقدميتها أربعة قرون ونصف، أي منذ عهد السلطان [العثماني] سليمان القانوني (ح ١٥٢٠-١٥٦٦م) (انظر موتون ص١٨٢، م٧، وكذلك موريتز ص١٩٠: ٩١، ٩٦؛ وكلارك ص٣٨، ٥٢؛ وفاتال ص٣٠). وبالرغم من مساهمة عطية القيمة في تصنيف الوثائق فإن إحصاءه للمخطوطات العربية تبقىٰ ناقصة. بالإضافة إلىٰ ذلك وكما يعترف هو نفسه، "إن تأريخ الكثير من الوثائق تحفه الكثير من الصعوبات (صxxx)". وبما أن الكثير من المخطوطات غير مؤرخة، فإنه لا يمكن الجزم بأن أقدم وثيقة يرجع تاريخها إلىٰ سنة ١٥٦١م، إذ أن بعض نسخ العهد النبوي غير المؤرخة قد تكون أقدم من ذلك.

وبما أن أقدم النسخ بدأ التلف يصيبها جراء عوامل القدم، فقد تم استنساخ نسخ جديدة من العهد النبوي من أجل إيصاله إلىٰ الأجيال اللاحقة. وبالطبع، كان من شأن أن تكون أقدم نسخ العهد النبوي لا يتعدىٰ تاريخها بضعة قرون مدعاة لجعل بعض الباحثين يشكّون في صحة وأصالة العهد المحمدي. لكن وباعتبار أن بعض نسخ العهد غير مؤرخة، فإنه من المحتمل أن تكون إحدىٰ تلك النسخ قد تم استنساخها عن الوثيقة الأصلية.

إن الباحثين الذين يلحون علىٰ الطابع المزيف لعهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، يعتمدون في المقام الأول علىٰ دلائل مشكوك فيها. فهم يدفعون مثلاً كحجة أن أقدم نسخ العهد النبوي التي لا تزال موجودة يرجع تاريخها إلىٰ القرن السادس عشر الميلادي. ومما يجدر ذكره أن أقدم نسخة لكتاب الإلياذة لهوميروس يرجع تاريخها إلىٰ القرن العاشر الميلادي، علماً بأن هوميروس عاش في القرن الثامن

قبل الميلاد. كما أن أقدم نسخة للتوراة اليهودي (أو التناخ) قد كتبت ما بين سنة ١٥٠ وسنة ٧٠ قبل الميلاد، وأقدم نسخة كاملة للإنجيل (العهد الجديد) هي التي توجد في المخطوطة السينائية (Codex Sinaiticus)، وهو عمل لا يتجاوز تاريخه ١٦٠٠ سنة، وأن أقدم نسخة كاملة من القرآن الكريم يرجع تاريخها إلىٰ سنة ٦٥١م أي بعد تسعة عشر عاماً من وفاة الرسول ﷺ. هناك بطبيعة الحال أجزاء من القرآن كتبت بيد كتّاب الوحي في حياة النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. (انظر أيدين ص٨٧-٩٠)، وأن أقدم مجموعات الحديث النبوي قد تم تصنيفها وجمعها ١٥٠ سنة بعد وفاة الرسول ﷺ. ولذلك وبناء علىٰ هٰذا النوع من الاستدلال، فإنه لا يمكن تصور تاريخ سابق من التصنيف والكتابة. إن "منطقاً" من هٰذا النوع لا يمكن الاعتداد به من الناحية العقلية لأنه من الراجح أن تكون هناك نية مبيتة سابقة عن كل تحليل أو تحر [موضوعيين].

حينما تكون هناك افتراضات قبلية، ينتج عن إثباتها وعود بمنافع مادية أو مكاسب إيديولوجية قريبة إلىٰ القلب، فإن الاستراتيجية التي يتم اللجوء إليها في الغالب هي اعتماد حجج تبدو معقولة في شكلها، لكنها تحاول [في العمق] أن تقنع الناس برفض أطروحة قد تم الحكم عليها مسبقاً، ولو صيغت الحجج في ظاهرها في قالب من التقصي الجدي الواسع العلمي المنظم (ولاسيما) الموضوعي. بعبارة أخرىٰ فإنه غالباً ما يكون الحكم قد تم إصداره قبل الشروع في التداول بشأن القضية المطروحة أصلاً. ومن أجل فهم أعمق لهٰذا الاتجاه، لنأخذ كمثال الخلاف القائم بين نظرية الخلق ونظرية التطور. فالباحث ريتشارد ليونتيين (ولد سنة ١٩٢٩م) المنتمي لجامعة هارفرد يقر ويعترف علناً بأن نقطة الانطلاق في بحثه هو حكم مسبق مؤداه أن أي موضوع خاضع للبحث يجب أن يؤدي بالضرورة إلىٰ نتائج تؤيد النظرية المادية وعدم وجود الله. ويؤكد هٰذا المنحىٰ في التفكير ما يذكره هٰذا العالم المتخصص في علم الإحياء والوراثة فيما يلي:

"ليس بدعوىٰ أن منهجيات ومؤسسات البحث العلمي ترغمنا بشكل أو بآخر علىٰ قبول تفسير مادي لعالم الظواهر، لكن علىٰ العكس من ذلك لأننا مجبرون -بقوة انخراطنا المسبق في الأسباب المادية- علىٰ خلق

أداة بحث ومجموعة مفاهيم تنتج تفسيرات مادية (لا يهمنا في ذلك درجة البداهة والحدس عند العوام، ولا يهمنا درجة حيرتهم وإرباكهم)، بل فوق هٰذا وذاك، ولأن النظرية المادية هي نظرية مطلقة، فإنه لا يمكننا أن نسمح لأرجل أهل الدين أن تطأ عتبة بابنا" (ص٢٨)

بنفس الطريقة التي يعتبر من خلالها بعض العلماء الرفض المسبق لنظرية الخلق علىٰ أنها أهم من التحليل النزيه المحايد، فإن هناك بعض المؤرخين الذين يفضلون رفض المواقف الصحيحة والأصيلة للإسلام تجاه الديانة المسيحية والمسيحيين علىٰ مبدإ قبول تحليل موثَّـق مبني علىٰ أرضية صلبة للعلاقات الإسلامية المسيحية. إن بعض أولئك الباحثين من هٰذا الصنف تحركهم اعتبارات ايديولوجية وسياسية، بينما تجد الآخرين تستهويهم الإغراءات الدنيوية المادية.

لنعد الآن إلىٰ ما كنا بصدده. فإذا كان النقش علىٰ الحجر والنحت علىٰ عظام الحيوان قد يدوم آلاف السنين، والنقش علىٰ ألواح الخشب قد يقاوم عاديات الزمن قرونـاً، فإن معظم المخطوطات قد تمت كتابتها علىٰ مواد مطواعة سهلة الاستعمال مثل البردي والرق والورق. فالبردي الذي كان يتم تصنيعه في مصر قبل ما يزيد عن ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد هي مادة تقاوم التحلل في ظروف المناخ الجافة لكنه سريع التأثر بالرطوبة التي تسبب في الأرضة، كما يتأثر بالجفاف المفرط الذي يؤدي إلىٰ هشاشته فيصير سريع الانكسار. وخارج مصر، وفي مناطق من أوربا كان الأمر من باب المعجزة أن تدوم مادة البردي لمدة قرن أو قرنين، ذلك لأن الظروف المناخية لم تكن في صالحه. أما الرق وهو المادة المصنوعة من الطبقة الرهيفة من جلد الغنم أو الماعز أو جلد البقر، فقد تم إنتاجه قرونـاً قليلة قبل ميلاد المسيح. فبالإضافة إلىٰ كونه أمتن وأكثر مقاومة لعوامل الزمان من ورق البردي فإنه يدوم مدة أطول بقرون إن تم حفظه في مكان جاف. لكن الرطوبة تكون سبباً في إتلافه إذ تساعد علىٰ تعفنه وتحلله. أما الجفاف المفرط فهو يشكل خطراً علىٰ الوثائق والمخطوطات بنفس الدرجة. ورغم متانة الرق ومقاومته الأولية للظروف المناخية، فإنه بالرغم من ذلك قد يفقد زيوته الطبيعية مع مرور الوقت، فيصير هشـاً ويتعرض للتكسر والانسحاق. ثم

إن كلفة إنتاجه المرتفعة تشكل قيداً ومثبطاً آخر.

إن المحاولات الأولىٰ لإنتاج مادة الورق ظهرت بالصين قبل قرنين من ميلاد المسيح. ولم تنتشر صناعة الورق بالشرق الأوسط، ومن ثم إلىٰ أوربا وباقي مناطق العالم إلا بمجيء القرن العاشر الميلادي. ثم إن مما جعل مادة الورق هي المادة الأكثر استعمالاً من غيرها هو أنها أصبحت تنتج بكيفية صناعية وبتكلفة منخفضة. لكنها تبقىٰ مادة لا تقاوم عوادي الزمان، ذلك لأن معظم أصناف الورق قد يصبح هشاً بعد مرور ما بين ٢٥ إلىٰ ٣٠ سنة، باستثناء أجود الأنواع منها التي قد تعمر مائة سنة في ظروف حفظ مناسبة. ولهٰذا فإنك تجد كتباً من مائة وخمسين سنة أحسن حالاً من كتب بلغت خمسين سنة فقط. ما نود قوله هنا هو أن مخطوطات مكتوبة علىٰ الرق بلغت من القدم ٥٠٠ سنة أو ألف سنة أو ألفاً وخمسمائة سنة قد تكون في حالة سيئة جداً. فإذا كان العهد النبوي لرهبان جبل سيناء قد أخذه السلطان سليم من الدَّيْر عقب الغزو العثماني سنة، ١٥١٧م (كما أورد ذلك بلثزار دو مونكونيس (١٦١١–١٦٦٥م –انظر كتابه السّفَر ص٩٢)؛ وأيضاً بوكوك (١٧٠٤– ١٧٦٥م، ص١٤٨)؛ وأومنيتز المحال عليه في فولكوف ص١٢٨، وسكربوتشا ص٥٧، وهوبز ص١٦٠،) فإن الميثاق [المشار إليه] يكون قد عمّر ٩٠٠ سنة تقريباً. فلو بقيت الوثيقة الأصلية في دير القديسة كاثرين لكانت قد تحولت الآن إلىٰ رماد. فإذا كانت النسخ الموجودة الآن من العهد النبوي قد قاومت عامل الزمان فإن ذلك يرجع إلىٰ عوالم جغرافية وعوامل أخرىٰ لها علاقة بالظروف المناخية. والحقيقة أنه من بين مائة رسالة رسمية بعثها النَّبيّ ﷺ في إطار حملته الدبلوماسية، فإنه بقي منها فقط حوالي ستين نصاً محفوظاً في المصادر التاريخية، ولم يبق منها سوىٰ عشر نسخ أصلية قاومت عاديات الزمان.

وبالرغم من أن بعض الكتّاب أمثال دين ستانلي (١٨١٥–١٨٨١م) يعتقدون بأن العهد النبوي "إن كان له وجود أصلاً، فقد اختفىٰ"، إذ كان السلطان سليم قد أخذه إلىٰ القسطنطينية وعوضه بنسخة لم يرها أي زائر لحد الآن ((٣٤٤، إلاّ أن توماداكيس يشدد علىٰ أن العهد النبوي لا يزال موجوداً إلىٰ يومنا هٰذا:

"مع غزو الأتراك لسيناء، قام رجل يوناني من الأعيان ببذل مساعي

حثيثة من أجل إعادة تجديد الامتيازات المخولة لدير [جبل سيناء]. لقد كانت لتسيرنوطابي Tsernotabey بعض الحظوة عند السلطان سليم سنة ١٥١٧م؛ وعندما حل هٰذا الأخير بالقاهرة، قام بترتيب لقاء بين رهبان جبل سيناء والسلطان سليم بغرض إطلاعه علىٰ 'الأختنام' والحصول علىٰ مزيد من الامتيازات. لكن السلطان أخذ الوثيقة الأصلية وحملها إلىٰ القسطنطينية حيث لا تزال محفوظة في الأرشيف" (ص١٦).

إن الميثاق النبوي إن توافرت له ظروف الحفظ المواتية يمكن أن يتحدىٰ عوامل الزمان، علىٰ غرار الكثير من رسائل النَّبيّ ﷺ. فأقدم وثيقة عربية في ملكية مكتبة دير سيناء هي وثيقة يرجع تاريخها إلىٰ الفترة الفاطمية؛ وقد تكون كتبت سنة ١١٠٦م (انظر ديغباسانس ص٣٦١). وحسب هٰذا الكاتب فإن "الوثائق الفاطمية والأيوبية والمملوكية ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي وما تلاه قد تم حفظها إما في شكلها الأصلي أو في شكل نسخ منها" (ص٣٦١). وهٰذا يدل علىٰ أن الوثائق المستنسخة هي نسخ صحيحة تم نقلها عن النسخ الأصلية، والتي تم حفظها إلىٰ إن تحولت إلىٰ غبار.

ذلك لإنه في الوقت الذي يرجع تاريخ أقدم نسخ العهد النبوي المحفوظة في دير جبل سيناء إلىٰ عهد السلطان سليمان القانوني، (ح ١٥٢٠-١٥٦٦م) فإن وجود النسخة الأصلية قد شهد لها وصادق علىٰ صحتها السيد غريفين أفاغارت (حوالي ١٤٩٠م أو ١٤٩٥م إلىٰ حوالي ١٥٥٧م)، وهو الشخص الذي حج إلىٰ دير القديسة كاثرين فيما بين سنتي ١٥٣٣ و١٥٣٤م. ولذلك فحينما زار جوهن لويس بوركهارت الدَّيْر سنة ١٨١٦م سُنحت له فرصة فحص نسخة العهد النبوي التي كانت معروضة؛ وهي النسخة التي يمكن أن تكون علىٰ الأرجح هي النسخة المؤرخة بعام ١٨٠٠/ ١٨٠١م. لقد لاحظ -وهٰذا غاية في الأهمية- "أنه في إحدىٰ الملحوظات يستفاد بشكل صريح بأن النسخة الأصلية التي كتبها عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)، قد ضاعت وأن النسخة الحالية قد تم نقلها عن النسخة الرابعة من سلسلة النسخ المنقولة عن الوثيقة الأصلية" (انظر الفصل السابع). وبما أن أي مخطوط ورقي

ينتظر أن يعمر نحو مائة سنة في ظروف حفظ مواتية، فإنه منطقي أن يتم كتابة نسخة عند نهاية كل قرن تقريبـًا. وهـٰذا مما يؤيد تأييداً قويـًا الرأي القائل إن النسخة الأصلية للعهد النبوي كانت بحوزة كنيسة القديسة كاثرين إلىٰ غاية القرن السادس عشر الميلادي. إن النسخة الأصلية من الأرجح أن تكون محفوظة في مكان آمن بينما يتم عرض نسخ منها عند مرور كل مائة سنة أو ما يقرب من ذلك. وعلىٰ كل حال فإن رهبان جبل سيناء كانوا مهرة في فن الاستنساخ كمـًا ونوعـًا. إن استنساخ الوثائق وإعادة استنساخها هو شغلهم وديدنهم. فإذا كانت الوثيقة المكتوبة في سنوات القرن التاسع عشر الميلادي متطابقة مع النسخة المكتوبة في سنوات القرن الثامن عشر ونسخة القرن الثامن عشر مطابقة لنسخة سنوات القرن السابع عشر فإنه من المنطقي جداً أن نقوم بعملية استقراء انطلاقـًا من المعطيات المتوافرة ونستنتج أن سلسلة الاستنساخات الأمينة تعود كلها إلىٰ النسخة الأصلية للعهد الذي كتبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بنفسه والمحرر بخط يد الإمام عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م). هناك إذن قرون وقرون من النسَخ المتعاقبة والمتطابقة للعهد النبوي لرهبان جبل سيناء؛ وكل ما يميزها عن بعضها البعض هو الاختلاف في الأختام المستعملة، والملحوظات والحواشي وملاحظات النسّاخ والعلماء والعدول الذين شهدوا بصحة النسخ.

بينما تجمع المصادر كلها علىٰ أن سنة ١٥١٧م هي السنة التي تم فيها نقل العهد النبوي [الأصلي] إلىٰ العاصمة العثمانية وتعويضه بنسخة مطابقة له، (انظر راتكليف ص١٤-١٥) فإن الباحث أفغارت يقول إن النسخة الأصلية ظلت محفوظة بمسجد الدَّيْر لمدة سبع عشرة سنة بعد النقل المزعوم للوثيقة إلىٰ القسطنطينية. ويشرح ذلك في كتابه Relation de Terre Sainte في الاقتباس التالي الذي ترجمه المؤلف عن اللغة الفرنسية الوسيطة:

> "لقد أخبرنا الرهبان أن [محمداً] قد زار هـٰذا المكان في حياته وأن الرهبان طلبوا منه أن يمنحهم بعض الامتيازات ويمنع أتباعه من عرقلتها، وقد أعطاهم النَّبيّ ما طلبوا وبصم بيده علىٰ الوثيقة. وبما أن [النبي] كان لا يعرف الكتابة، فإنه غمس يده في الحبر ووضعها علىٰ قرطاس لأنه كان لا يعرف

التوقيع بأية طريقة أخرىٰ. لقد اقترح الأتراك منح الرهبان مبلغاً كبيراً من المال مقابل ذلك الرمز الذي كان علىٰ شكل [صورة] يد، وذلك من أجل تحويله إلىٰ أثر مقدس يتبركون به. لكن الرهبان رفضوا التخلي عنه لأنه بفضله فهم معفون من أداء أية ضريبة" (ص١٩١).

وإذا صدق غريفن أفغارت (المتوفىٰ سنة ١٥٥٧م) فيما يقول، فإن هناك ملاحظتين أساسيتين ينبغي استحضارهما: أولاهما أن العهد النبوي لم يكن محفوظاً بالدَّيْر بل في المسجد الموجود بالدَّيْر؛ والثانية أن الأتراك لم يُقنعوا الرهبان ببيع النسخة الأصلية للعهد النبوي ويكتفوا بالاحتفاظ بنسخة منه. السؤال هو هل فعلاً اطلع أفغارت علىٰ وثيقة العهد النبوي في المسجد؟ هل قيل له إنه يوجد محفوظاً بالمسجد أم أنه افترض فقط بأنه يوجد هناك؟ فإذا ما صح ما ورد عن اللورد كورتايس دي بويس Courteilles du Bois، فإنه ينبغي تغيير تأريخ العهد النبوي. فمن المحتمل أن يكون السلطان العثماني سليم قد اشترىٰ الوثيقة أو استولىٰ عليها في تاريخ لاحق. فإذا كانت النسخة الأصلية للعهد فعلاً محفوظة بدير القديسة كاثرين فيما بين سنة ١٥٣٣م وسنة ١٥٣٤م، فإن ذلك يعني بأن السلطان سليمان القانوني يكون قد أخذها [في وقت سابق] إذ كان حكمه ممتداً فيما بين سنة ١٥٢٠م إلىٰ أن توفي سنة ١٥٦٦م (انظر موتون ص١٧٨). وهٰذا منطقي جداً لأنه عُرف عن هٰذا السلطان بأنه كانت له علاقة ودية مع الفرنسيين الكاثوليك، وكان يشجع عليها، كما أنه مد يده أيضاً للحكام البروتستانت (كرابيل ص١٧٨-١٧٩).

بما أن السلطان سليم الأول (ح ١٥١٢-١٥٢٠م) قد أرسل مبعوثيه إلىٰ مختلف البلاد الإسلامية طولاً وعرضاً بحثاً عن الآثار المقدسة، فإنه يبدو منطقياً أن يكون قد أخذ وثيقة العهد النبوي إلىٰ خزانة قصر توبكابي. ومعلوم بأن جناحاً كاملاً من ذلك القصر كان مخصصاً للمآثر التاريخية التي جلبها سليم الأول عند عودته من غزو مصر سنة ١٥١٧م. فقاعة التحف تضم بردة النَّبيّ ﷺ وسيوفه، والرسالة التي بعث بها النَّبيّ ﷺ إلىٰ المقوقس حاكم مصر، كما تم الاحتفاظ هناك بشعرات من لحية النَّبيّ ﷺ، وتربة من قبره، وإحدىٰ أسنانه، إضافة إلىٰ موطئ قدم له. وهذه

فقط بعض من التحف المقدسة التي أتىٰ بها السلطان سليم الأول إلىٰ إسطنبول من متاحف الدولة المملوكية، ومن الخلافة العثمانية ومن إمارة الحجاز. ومن أجل تقدير أشمل لتلك الكنوز والتحف المقدسة، وطُرُق الحصول عليها، يمكن للقراء أن يرجعوا إلىٰ كتاب الآثار المقدسة *The Sacred Trusts* لحلمي عايدين، وهو عمل رائع فعلاً. ويشرح أندرو ويتكرافت هذه المسألة فيما يلي: "بحيازة السلاطين العثمانيين لألقاب الإسلام ورموزه، تمكنوا من الاستيلاء علىٰ قيادة العالم الإسلامي بدون منازع" (ص٥٢). وباعتبارهم حراساً للأماكن المقدسة وطرق الحج، فإن "امتلاك الأماكن المعتبرة مقدسة عند المسلمين السنّة كانت أكبر ضامن للسلالة العثمانية علىٰ الحصول علىٰ شرعية غير مطعون فيها" (فينكل ص١١٠). وعلاوة علىٰ هٰذا فلقد تمكن السلطان سليم بفضل غزوه لمصر وحيازته للرموز المشار إليها من إعطاء نفسه لقب 'الخليفة' (إيفرسلي ص١١٢).

إن احتمال أن يكون العهد النبوي الأصلي محفوظاً بإحدىٰ الخزانات في ركن من أركان قصر طوبكابي بأسطنبول التركية، هو مسألة أقل ما يمكن القول عنها إنها غاية في الإثارة. إن اكتشاف العهد النبوي من جديد من شأنه أن يؤرخ لحدث بارز في تاريخ الإسلام، إذ سوف لن يؤكد فحسب الطابع التاريخي للنبي مُحَمَّد ﷺ لكن أيضاً تعامله بالحسنىٰ مع أهل الكتاب. وهٰذا من الأهمية بمكان لأن من شأنه -كما أشار إلىٰ ذلك الباحث بوكوك (١٧٠٤-١٧٦٥م) (ص٢٦٩)- أن يبين أن العهد المحمدي لم يكن يخص رهبان جبل سيناء فقط، بل يشمل المسيحيين قاطبة. بينما تقول معظم المصادر ببساطة إن السلطان سليم أخذ العهد النبوي إلىٰ إسطنبول، فإن عدداً منها تدقق في الأمر بتبيان أنه كان محتفظاً به في 'السراي' (حسب موريسون ص١٠٥-١٠٦) أو في 'السيراليو' (حسب تعبير فان إيغمونت وهايمن، ص١٦١). وبالرغم من كون لفظتي 'سراي' و'سيراليو' تنطبقان أساساً علىٰ قصر توبكابي، فإنهما تنطبقان أيضاً علىٰ غيره من القصور التركية التقليدية. ولذلك، فإن كان ينبغي أن يشرع البحث في متحف توبكابي، فإنه يجب أن يمتد أيضاً ليشمل القصور القديمة الأخرىٰ.

وكما تم تبيان ذلك في مختلف السجلات (انظر الجزء الأول)، فإن نسخة من

العهد الذي كتب لدير القديسة كاثرين لها وجود فعلي في المصادر الإسلامية بالرغم من وجود أوجه تشابه فيما يتصل بالمحتوىٰ وخصوصاً فيما يتعلق في ذلك بمسألة حماية النَّبيّ ﷺ لرهبان الدَّيْر، إلا أن نص الرواية التي يذكرها ابن سعد (المتوفىٰ سنة ٨٤٥م) هي أقصر بكثير من نص النسخة المعروضة في دير جبل سيناء. وهٰذا لا يفيد مع ذلك ولا يعتبر دليلاً علىٰ أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء هو وثيقة مختلقة أو مزورة. إن ابن سعد يعتبر مصدراً ثانوياً، فهو قد قدم أساساً اقتباساً من العهد النبوي ولو لم يكن بالضرورة مالكاً لنسخة كاملة من الوثيقة. فالمعلومات التي كانت لديه يمكن أن تكون قد وصلت إليه عن طريق الرواية الشفوية، أو عن طريق نسخة مكتوبة مقتضبة. إن الرهبان الحاليين في دير جبل سيناء يمتلكون نسخة أصلية a primary source ولو أنها هي في شكل نسخة منقولة، عن نسخة منقولة، عن نسخة منقولة تم توارثها من جيل لجيل، وتم الاحتفاظ بها بمثابة أعز كنز في الدَّيْر. وبما أن النَّبيّ ﷺ كان يكتب العهود تلو العهود لنفس الأطراف، وقد يجدد تلك العهود ويتوسع فيها، فمن المحتمل أن يكون قد وقّع أكثر من ميثاق مع رهبان جبل سيناء، كما يلخص ذلك هوبز فيما يلي:

> ”تفيد بعض سجلات الدَّيْر بأن وفداً من الرهبان سافروا إلىٰ المدينة [المنورة] سنة ٦٢٥م والتقوا بالنَّبيّ في سعي منهم للحصول علىٰ حمايته ورعايته. ويقول الرهبان والبدو معاً إن النَّبيّ سبق له أن زار الدَّيْر قبل مرحلة نزول الوحي عليه خلال إحدىٰ الأسفار التي قام بها كتاجر. وتقول بعض الروايات إنه منح حمايته للدير أثناء تلك الزيارة“ (ص١٥٩).

من الواضح إذن أن التواصل بين النَّبيّ ﷺ والرهبان لم ينقطع، كما كان حال العلاقة التعاقدية بينهما. وكما سبق لي أن أشرت إلىٰ ذلك، يبدو أن النَّبيّ ﷺ قد زار الدَّيْر قبل نزول الوحي عليه أثناء قيادته لقوافل زوجته خديجة، أو ربما حتىٰ قبل ذلك. وحسب بعض روايات الدَّيْر، فإن وفداً من الرهبان سافر إلىٰ المدينة سنة ٦٢٥م أي فيما بين السنة الثانية والثالثة للهجرة، أي بُعيد الفترة التي استتبت فيها للنبي ﷺ السلطة السياسية. وكما سبق أن

قام بذلك في مناسبات مشابهة، فإنه يبدو شبه مؤكد أن النَّبيّ ﷺ منح الرهبان عهداً للحماية. إن سجلات الدَّيْر تتفق مع ما جاء في مضمون الميثاق النبوي نفسه الذي يقول إنه كُتب بخط يد عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م) في السنة الثانية للهجرة. وبالتالي فإنه يُحتمل أن يكون ميثاق القديسة كاثرين الذي تم توقيعه في السنة السادسة للهجرة كان بمثابة تجديد وتأكيد لمحتوىٰ النسخة الأولىٰ من العهد النبوي لرهبان جبل سيناء في صيغته الكاملة.

وبصفتهم خداماً ومؤتمنين علىٰ العهد النبوي، فإن رهبان جبل سيناء ظلوا يؤكدون بالإجماع ودون أدنىٰ لبس علىٰ صحة العهد وأصالته؛ وتأكيدهم هٰذا توارثوه جيلاً بعد جيل علىٰ مدىٰ قرون من الزمن. وإذا ما حدث أن تورط أولئك الرهبان في عملية تزوير ما، فقد يكون ذلك بمثابة سر من الأسرار الدفينة في التاريخ. وبما أن المنطقة خضعت للغزو الفرنسي ابتداء من سنة ١٧٩٨م إلىٰ سنة ١٨٠١م، وللاستعمار البريطاني ما بين سنتي ١٨٨٢م و ١٩٥٢م، فإن رهبان جبل سيناء لم يتغير موقفهم من العهد النبوي طوال قرن ونصف القرن من الحكم الأوروبي المسيحي. كما أن نابليون الذي لم يكتف فقط بادعاء أنه اعتنق الإسلام، بل ادعىٰ أيضاً بأنه المهدي المنتظر، أكد كذلك صحة العهد النبوي وأصالته، كما يورد ذلك الكاتب توماداكيس Tomadakis:

"خلال حملة نابليون الأول في مصر، استفادت منطقة سيناء كثيراً، فلم يساعد نابليون فقط علىٰ إعادة بناء الجدار الشمالي للدير الذي سقط علىٰ إثر أمطار شهر دجنبر سنة ١٧٩٨م الطوفانية الطويلة، بل أصدر أيضاً مرسوماً خاصاً في ٨ دجنبر [من نفس السنة] أكد فيه حرصه علىٰ حماية الامتيازات التي كان يتمتع بها سكان جبل سيناء، كما منح للرهبان حرية التنقل والتواصل وأعفاهم من مختلف الأعباء المالية" (ص١٦).

والحق إن المرسوم الذي أصدره نابليون في ١٩ دجنبر ١٧٩٨م، والذي أخضع بموجبه الدَّيْر لحمايته الخاصة، هو تأكيد للامتيازات التي سبق للنبي ﷺ أن منحها [للدير]. وكما يؤكد كذلك البرت شامبدور، "إن هٰذا الأمر القاضي بحماية

الدَّيْر والمحافظة علىٰ امتيازاته هو نظير وتأكيد لعهد محمد" (ص٣٥). والحقيقة أنه جاء في مقالة لجريدة الفيغارو [الفرنسية] (ظهرت سنة ١٩٨٦م) أن نابليون تعمد تقليد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ في تبني العهد النبوي (أو الأختنام) (ص١١٤). فالمرسوم الذي اطلع عليه فازاكيرلي Fazakerly خلال زيارته لدير القديسة كاثرين سنة ١٨١١م (انظر ص٣٧٨) يؤكد احترام الجمهورية الفرنسية لشريعة موسىٰ والأمة اليهودية ولسكان الدَّيْر المتعلمين. وتمنع بنود المرسوم جماعات البدو المتناحرة من طلب اللجوء إلىٰ الدَّيْر، كما أنها تضمن لهم حرية ممارسة عقيدتهم الدينية، وتعفي [الرهبان] من أداء المكوس والضرائب المفروضة علىٰ السلع (ص٩٩–١٠٠). فإذا كان موريتز يرفض صحة العهد النبوي لرهبان جبل سيناء لأنه يرىٰ أنه من قبيل المستحيل قبول فكرة أن يتم إعفاء الرهبان من أداء الضرائب، فَعَنَّ له أن يشك –تماشيا مع نفس المنطق– في صحة مرسوم نابليون. وقبل هٰذا وذاك، قلَّ من السياسيين من يجرؤ علىٰ حذف الضرائب.

لقد أكد الفاطميون صحة العهد النبوي (ح ٩٠١–١١٧١م)، ثم تبعهم في ذلك الأيوبيون (ح ١١٧٤–١٢٤٩م)، والمماليك (ح ١٢٥٠–١٥١٧م) والعثمانيون (١٥١٧–١٨٠٥م)، وذلك من خلال سلسلة من المراسيم (انظر عطية ٣٢–٣٠؛ ٨٠).

وقد أصدر الفاطميون مراسيمهم في وقت مبكر ابتداء من سنة ٩٧٥م ولاحقاً عبر السنوات الآتية: ١١٠٩م، ١١١٠م، ١١٣٥م، ١١٥٤م، وانتهاء بسنة ١١٥٦م (ص٢٦)؛ كما أصدر الأيوبيون مراسيمهم في السنوات الآتية: ١١٩٥م، ١١٩٩م، ١٢٠١/ ٠٢م، وأخيراً في سنة ١٢١٠/ ١١م؛ وأصدر المماليك مراسيمهم في سنوات ١٢٥٩م، ١٢٦٠م، ١٢٦٨/ ٦٩م، ١٢٧٢م، ١٢٨٠م، وأخيراً في سنة ١٥١٦م؛ و أصدر العثمانيون مراسيمهم ابتداء من سنة ١٥١٩م إلىٰ سنة ١٨١٨/ ١٩م. وكما يشرح ذلك عطية (١٨٩٨–١٩٨٨م) فقد "كانت المراسيم بمثابة مدونات لمختلف الحريات التي منحها الخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا علىٰ الحكم في مصر في القرون الوسطىٰ لدير [جبل سيناء]. وبإقدامهم علىٰ ذلك فقد كانوا يظهرون أنهم يتبعون خطوات النَّبيّ من خلال عهده الشهير. ويعود أقدم المراسيم إلىٰ العهد

الفاطمي. وخلال حكم السلالة المملوكية ارتفع عدد المراسيم بشكل ملحوظ. وأصدر بعض السلاطين بعضاً منها لفائدة الدَّيْر خلال عهد [سلطان واحد]. وكانت توقيعات وتأشيرات السلاطين تتصدر الكثير من المراسيم، وفي أحيان كثيرة تكون بجانب تأشيرات مختلف الوزراء ودواوينهم بالبلاط السلطاني بالقاهرة. ولهذه الوثائق قيمة استثنائية...(xxx)"

ولم تكتف مختلف تلك السلالات الحاكمة بتأكيد صحة عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، بل ألحت أيضاً علىٰ تأكيدها بصفة دورية ومنتظمة بواسطة تصريحات سياسية. فهناك ١٧٤٢ "فرماناً" باللغة العربية والتركية محفوظة في مكتبة دير القديسة كاثرين، ومن بينها ٢١٠ مرسوماً سلطانياً صدر عن واحد وعشرين سلطاناً عثمانيا بالتتابع، (انظر عطية، ص xxxi). وكما يشرح ذلك عطية:

> "إن قراءة شاملة للكم الهائل من الفرمانات السلطانية التي تشتمل عليها مكتبة دير [جبل سيناء] تثبت أن العهد النبوي (سواء أكان حقيقياً أو كان مزوراً) قد تم تجديده علىٰ يد الحكام المسلمين الذين تعاقبوا علىٰ الحكم في مصر؛ وأن الامتياز وحظوة الحماية الواجبة لرهبان دير القديسة كاثرين قد تم الالتزام به بدون انقطاع خلال تعاقب الحكم الإسلامي (xviii)"

وبما أن الحكم ذا الطابع الدنيوي هو خاضع للتغيير، وأن الاعتراف بالحكم الدنيوي هو رهين بالزمان، فإن مسيحيي جبل سيناء حصلوا أيضاً علىٰ أوامر وأحكام وفتاوىٰ صدرت عن المذاهب السنية الأربعة، تؤيد كلها العهد النبوي لرهبان جبل سيناء. يقول عطية في هٰذا الشأن:

> "تتجلىٰ أهمية الفتاوىٰ أساساً في الامتيازات الممنوحة للرهبان في كونها قد تم اعتمادها من قبل أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة من مالكية وشافعية وحنفية وحنبلية. وموضوع كل فتوىٰ من الفتاوىٰ كان يأتي علىٰ أعلىٰ صفحة الوثيقة، يليه رأيٌ موقعٌ بيد إمام [من الأئمة الأربعة] (xxx)".

> في الوقت الذي صدرت فيه أول فتوىٰ عن أئمة الشيعة الفاطميين

سنة ٩٧٥م فإن آخر فتوىٰ صدرت عن العثمانيين السُّنة كان في سنة ١٨٨٨م. وإذا كانت مدونة [العهد النبوي] الأصلية قد حملها السلطان سليم الأول إلىٰ إسطنبول عقب الغزو العثماني لمصر سنة ١٥١٧م، فهٰذا معناه أن العلماء المسلمين كان لديهم اطلاع علىٰ وثيقة العهد الأصلية طوال فترة استغرقت ٥٤٢ سنة. فإذا ما قاموا بإصدار فتاوىٰ فإنهم كانوا يفعلون ذلك وهم مقتنعون بصحة الوثيقة شكلاً ومضموناً. أما بالنسبة للعلماء والأئمة الذين أصدروا فتاوىٰ علىٰ مدىٰ ٣٧١ سنة الموالية، فإنه لا بد أن يكونوا -علىٰ غرار العلماء السابقين- مقتنعين هم أيضاً من كون الوثيقة التي راجعوها كانت منقولة نقلاً صحيحاً ودقيقاً عن الوثيقة الأصلية. وينطبق ذلك علىٰ ولاة العثمانيين علىٰ مصر، الذين "أصدروا ١٦٦ مرسوماً لحماية الدَّيْر والرهبان" (عطية، ص(xxx . ونتيجة لذلك فإن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء كان يتم إقراره واعتماده من قبل القيادة الإسلامية السياسية والدينية لما يزيد عن ألفية كاملة. ويفيدنا المؤرخ اليوناني أمانطوس Amantos في هٰذا الشأن بما يلي:

"لا يمكن لدير سيناء أن يبقىٰ قائماً بأي حال من الأحوال لولا الحماية التي حظي بها من لدن [النبي] محمد ومن أتىٰ من بعده [من الخلفاء والسلاطين]... بالإضافة إلىٰ هٰذا فإن العدد الكبير من المراسيم التي أصدرها حكام مصر ا لمسلمون يؤكدون فيه أن الحماية الواجبة للدير لا بد من أن تكون ناتجة عن كون [النبي] محمد نفسه قد منح تلك الحماية لسيناء (نقلاً عن شاه كاظمي).

أن ينفي المرء نفياً بالجملة ما أجمع عليه العلماء طوال مدة بلغت ألف سنة من الزمان دون تقديم أدلة علىٰ ذلك، فهٰذا ما لا يمكن أن يدخل ضمن التقاليد العلمية المقبولة. بل أقل ما يمكن أن ينعت به هو أنه ناتج عن أفكار إيديولوجية وسياسية مسبقة. خذ كمثال علىٰ هٰذا ما جاء علىٰ لسان مويهليسن أرنولد Muehleisen Arnold : "لو كان عهد [النبي] محمد لرهبان جبل سيناء (باريس ١٦٣٠ وهامبورغ ١٦٩٠) وثيقة صحيحة والأمر ليس كذلك، فلن يكون ذلك إلا مجرد 'خدعة وتضليل'". مثل هٰذا

الاستدلال بطبيعة الحال لا ينبغي أن يفاجئنا إذا علمنا بأنه صادر عن رجل دين يشتغل بالتبشير علىٰ شاكلة أرنولد Arnold ، والذي يصرح علىٰ غلاف كتابه بأن " عائدات هٰذا العمل جميعها سوف تمنح لفائدة 'إنشاء جمعية تسعىٰ لنشر الإنجيل في أوساط المسلمين'".

يقول طوماداكس Tomadakis "إذا كان البعض يشك في صحة الأختنام، فإن الحقيقة أنه كان دائماً محل احترام وتوقير من قبل الحكام المسلمين، وعلىٰ رأسهم الحكام العرب، ثم الاتراك فيما بعد، مما يفيد بأن المسلمين يعتبرونه وصية من النَّبيّ [محمد]" (ص١٤). وكما يفسر دميتريوس كانتمير Demetrius Cantemir (١٦٧٣-١٧٢٣م) هٰذا الأمر قائلاً ما يلي:

> "يبقىٰ من الحقائق الثابتة بأن إعفاء الرهبان من أداء الضرائب قد استمر طوال الحكم العثماني إلىٰ غاية عهد السلطان سليمان الثاني، الجد الأعلىٰ للسلطان [الإمبراطور] الحالي، حيث بدأ الأتراك يجمعون منهم الخراج علىٰ يد... مصطفىٰ باشا، الذي لم يتورع في نعت وثيقة العهد النبوي بأنها عمل مزور. ومن أجل منع هٰذا ذهب ثلة من الرهبان إلىٰ مدينة أدرنة Adrianople بغرض طلب الإعفاء، الذي اطلعت علىٰ نصه ونقلته. وقد تمكنوا فعلاً من الحصول علىٰ الإعفاء لفائدتهم وفائدة ديرهم، لكن لم يتم تعميم ذلك علىٰ كافة الأديرة" (ص١٦٩).

وكما يبين ذلك كانتمير، فإن الصدر الأعظم ميرزفنلو قارا مصطفىٰ باشا، الذي خدم السلطان سليمان الثاني ما بين ١٦٦٣ و ١٦٦٦م قد قرر بطلان العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء واعتبره عملاً مزوراً، وذلك بغرض إلزام المسيحيين اليونان بأداء ضريبة الخراج (أو الضريبة علىٰ الأراضي). وعند مواجهته بالحقائق، تراجع شخصياً قائلاً إن رهبان جبل سيناء كانت لهم حصانة أعطاهم إياها رسول الله ﷺ. غير أن هٰذا لم يمنعه من حصر العهد النبوي في رهبان جبل سيناء (انظر كانتمير في كتابه التاريخ، ص٣٥٧). إذ أنه من الناحية الفقهية كان يعتقد بأن الشروط التي تتضمنها وثيقة العهد النبوي لا يمكن تعميم أحكامها علىٰ سائر المسيحيين في

كل مكان وزمان. لكنه -وهو مقتنع بكون الوثيقة تمثل وصية النَّبيّ ﷺ- فلقد عمل علىٰ الاستمرار في إعفاء دير القديسة كاثرين من أداء الضرائب.

ما يلفت النظر ويجدر تذكره هو أن عهد النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء قد قبله الشيعة والسنة علىٰ حد سواء. فالسنة عموماً يتصرفون بحذر وشك تجاه الشيعة ويميلون نحو رفض مصادرهم دون نقاش. فالعثمانيون الذين كانوا من أهل السنة استلموا العهد النبوي من المماليك؛ وهٰؤلاء رغم كونهم سنة، عاملهم الأتراك العثمانيون كأهل بدعة وضلالة بسبب دعمهم للشيعة الصفويين. والمماليك (الذين هم سنة) استلموا العهد النبوي من الفاطميين الشيعة؛ والفاطميون الشيعة استلموا بدورهم العهد النبوي من أعدائهم العباسيين السنة؛ والعباسيون السنة استلموا العهد النبوي من الأمويين الذين كان العباسيون يعتبرونهم فاسقين وينعتونهم بالكفار. وقد استولىٰ العباسيون علىٰ الحكم عن طريق استغلال المشاعر الشيعية. وأما الأمويون الذين كان علىٰ رأسهم معاوية بن أبي سفيان (المتوفىٰ سنة ٦٨٠م)، والمعروف عنهم بغضهم لآل البيت، فقد استلموا العهد النبوي من عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م)، واستمالوا عنه بغير حق جزءاً كبيراً من الأمة الإسلامية. وعلىٰ الرغم من كل الخلافات القائمة بين السنة والشيعة والشرخ الذي يفصل بينهما، فإن المسلمين [بصفة عامة] قد اعتبروا علىٰ الدوام عهد النبي(ص) لرهبان جيل سيناء من الثوابت. وليس هناك دليل واحد يشير إلىٰ أن السنة أنكروا العهد النبوي علىٰ أنه بدعة شيعية مصدرها 'الروافض'، (وهٰذا اللفظ الأخير هو لفظ قدحي يعني من بين ما يعنيه 'التطرف' و'الانتقاد الجارح' و'الهرطقة' و'البدعة' و'الضلال' و'التمرد' و'الإباق' أو ('المروق') الخ. وهذه أوصاف تطلق علىٰ 'الخونة' و'الأفّاكين' وعلىٰ 'خائني العهود'. وعلىٰ غرار ذلك ليس هناك من دليل علىٰ أن الشيعة أنكروا العهد النبوي لكونه تزويراً سنياً نسيبياً (ولفظ 'النسيبي' هنا يطلقه الشيعة علىٰ الذين يكرهونهم -أي علىٰ من يبغض آل بيت نبي الإسلام). فمقتدىٰ الصدر يستعمل هٰذا اللفظ للإشارة إلىٰ السلفيين. لكن العهد النبوي يمكن القول إنه قد جمع السنة والشيعة. فبينما اختلفت الطائفتان في قضايا كثيرة، فإنهما تتفقان فيما بينهما علىٰ كيفية تعامل المسلمين مع

الأقليات المسيحية المسالمة والمحترمة للشريعة الإسلامية.

وعلىٰ الرغم من هٰذا الإجماع الذي لا مثيل له بين المرجعيات الإسلامية علىٰ مدىٰ قرون من الزمان، فإن بعض العلماء والباحثين يصرون علىٰ أن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء يرجع تاريخه إلىٰ سنة ١٥١٧م. إن دعاوىٰ مثل هذه يمكن دحضها بكل سهولة نظراً لأن الميثاق المحمدي قد تم توكيد صحته من قبل الحكام المسلمين والمرجعيات الإسلامية منذ سنة ٩٧٥م؛ وبالتالي فإن الادعاء بأن العهد النبوي كان بمثابة حيلة أو خدعة اختلقها الرهبان الإغريق سنة ١٠١٠م ليس له سند يذكر. ففي حالة نادرة من الموضوعية في تاريخ الاستشراق الغربي يؤكد ألبرت شامبدور بأن عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء كان بالفعل موجوداً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ح ٦٣٤-٦٤٤م). ويشرح ذلك هٰذا الخبير كما يلي:

"إن رهبان جبل سيناء كانوا بالكاد مقبولين -أو قل كانوا مقبولين علىٰ مضض- من قبل [السكان] العرب أيام حكم الخليفة عمر بن الخطاب؛ وهٰؤلاء السكان كانوا مستقرين في واحة فران منذ ٦٣٤م بعد أن تم طرد سكانها المسيحيين. إن فرسان الله لم يجرؤوا أبداً علىٰ احتلال دير القديسة كاثرين، علماً بأنهم كانوا قادرين علىٰ ذلك دون مواجهة أية مخاطر تذكر، والسبب في ذلك هو أن ذلك الموقع كان محمياً بموجب عهد نبوي (Akd Nâmé) كتب بيد عليّ بن أبي طالب، ووقّعه محمد -نعم أقول وقعه- محمد بنفسه ! ومن البديهي أن مجرد خليفة مثل عمر بن الخطاب بالرغم مما يكون قد حازه من سلطة ونفوذ كخليفة للمسلمين، فإنه لم تسول له نفسه ولو للحظة واحدة أن يتنكر لذلك الحدث الدبلوماسي الذي يقر لرهبان القديسة كاثرين، مقابل ما برهنوا عليه في يوم من الأيام من حفاوة وطيب ضيافة للنبي، أن يعبدوا الله كما يشاءون وأن يخدموه كما يريدون. وعلاوة علىٰ ذلك، فإن تلك الوصية النبوية جعلت الرهبان أحراراً، وفي حل من الخضوع للسلطات الإسلامية" (ص٣٢).

وتذهب الباحثة هيلين س. إيفانس أيضـاً إلىٰ أن العهد النبوي قد أُعطِيَ لرهبان

القديسة كاثرين بسيناء "في السنوات الأولىٰ من فتح المسلمين لشبه جزيرة سيناء" (١٠)؛ وبالتالي يرجع تاريخه إلىٰ عهد عمر بن الخطاب حيث تم تجديده فقط. وقد عمل الخليفة عمر بن الخطاب (٥٧٩-٦٤٤م) علىٰ إرساء تقليد استمر إلىٰ عهد الإمبراطورية العثمانية، حيث إنه لم يكتف بالاعتراف بعهد مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، بل أصدر أمراً يؤكد ما جاء فيه. إن العهد المذكور يتميز بشكل مناقض عن المطالب التمييزية الواردة في 'العهد العمري'. فشامبدورChampdor لا يعترف فقط بأن العهد النبوي كان موجوداً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وفي إطار سلسلة غير منقطعة تبتدئ حلقاتها بالنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وتمتد إلىٰ الوقت الحاضر، بل إنه يعترف أيضـاً بأن الميثاق النبوي كان بصفة عامة معمولاً به من قبل الحكام المسلمين. يقول شامبدور: "علىٰ العموم، إن الخلفاء [المسلمين] ببغداد والقاهرة ودمشق قد عملوا علىٰ احترام بنود هٰذا الاتفاق كـ'اتفاق رجال'(a gentlemen's agreement)، وأكدوا ذلك في مناسبات عديدة" (٣٢). لكن العمل بوصية النَّبيّ ﷺ وتلبية أقواله والبر بمشيئته لم يكن شيئاً مقبولاً في كامل المنطقة. ذلك لأن أعراب شبه جزيرة سيناء شككوا بالفعل في صحته أو تجاهلوا وجوده أصلاً كذريعة للهجوم علىٰ الرهبان العزل ونهبهم (٣٢-٣٣).

وعلىٰ الرغم من المعاناة التي كان رهبان سيناء يكابدونها من حين لآخر جراء الأفعال المستهجنة الصادرة عن المسلمين ذوي المعرفة السطحية بالإسلام، والذين كانوا لا يلتزمون ولا يقتدون بالسيرة النبوية، فإن رهبان جبل سيناء ظلوا دائماً حريصين علىٰ الدفاع علىٰ صحة وأصالة العهد النبوي وذلك علىٰ مر الزمان وعلىٰ امتداد التاريخ المدون. فكما يفيد الأب مكاريوس Makarios أحد رهبان جبل سيناء: "كيف يمكن أن يكون حال الدَّيْر اليوم لو أنه أوصدت الأبواب في وجه محمد حين قدم [ضيفاً] عليه؟" (انظر هوبس ٢٨٠-٢٨١). وبرأي قوستنطينوس أ. منافيس:

> "إن المحافظة علىٰ الطابع اليوناني للدير تمت بفضل إمكانياته ومؤهلاته الذاتية، ولا سيما بفضل الموقف الذي أبان عنه رهبان الدَّيْر، الذين استطاعوا أن يكسبوا احترام حماية العرب والأتراك والمصريين بفضل عهد

الأختنام [المحمدي] الشهير الذي أعطاه محمد مؤسس العقيدة الإسلامية بنفسه من أجل المحافظة علىٰ حقوق الدَّيْر" (٢٢).

في الوقت الذي قد يقول قائل إنه من مصلحة الرهبان أن يدافعوا عن صحة العهد النبوي فإن الأمر لم يكن كذلك في عهد الاحتلال الأوربي؛ ذلك لأنه لو تم كشف الزيف [المزعوم] للوثيقة لاعتبر ذلك إنجازاً كبيراً وحدثاً صاعقاً. ولو تم ذلك لكان معناه القتل المؤكد للرهبان والتدمير المحتمل للدير. إضافة إلىٰ هٰذا فإنه من المستبعد جداً أن يكون بالدَّيْر من يكون له دراية دقيقة وعميقة باللغة العربية حيث يتمكن من تقليد فحوىٰ كلام النَّبيّ ﷺ وتقليد خط الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)؛ إضافة إلىٰ الإلمام الدقيق بالأحداث التي ميزت فجر الإسلام، والذي كان ضرورياً لمثل هٰذا العمل المحفوف بالمخاطر. وحتىٰ بالنسبة لعطية، الذي كان مسيحياً، فإنه يورد ما يلي:

"إن نُسَخ ميثاق العهد المحمدي هي نسخ متماثلة شكلاً ومضموناً؛ إنها نسخ من المحتمل أن تكون منقولة عن نسخة أصلية كتبها الخليفة عليّ [بن أبي طالب] وختمها محمد بكفه حيث يطلب من جميع المسلمين المؤمنين الحرص علىٰ الحفاظ علىٰ الدَّيْر وسلامة الرهبان. لقد تم التصديق علىٰ بعض النسخ من العهد المحمدي في المحاكم علىٰ يد قضاة مسلمين ختموا عليها كإشهاد رسمي علىٰ صحة الوثيقة. وتقول رواية إن النسخة الأصلية للعهد النبوي قد أخذها السلطان العثماني سليم الأول إلىٰ إسطنبول عندما غزا مصر سنة ١٥١٧م. وتقول الرواية أيضاً إن [السلطان] أعطىٰ الرهبان نسخة مصدقة مكان النسخة الأصلية ضامنا بذلك حمايتهم تحت راية الإسلام. وتجدر الإشارة في هٰذا السياق الىٰ أن فرمان سليم الأول قد ضمته فعلاً مجموعة الوثائق التركية. وعلىٰ الرغم من كونها لا تحتوي علىٰ وثيقة نص العهد المحمدي فإنها مع ذلك تثبت وتشهد علىٰ السلوك الأمين لرهبان جبل سيناء" (xxix).

إن الفرق الوحيد بين مختلف النسخ [من العهد النبوي] يتجلىٰ فقط في عناصر

الزخرفة. يقول دغباسنيس Digbassanis: "إن بعض النسخ المتأخرة –بالإضافة إلىٰ رسم لدير جبل سيناء– فهي تشتمل علىٰ طابع كف من خمسة أصابع، وترمز إلىٰ النَّبيّ مُحَمَّد وإلىٰ أهله فاطمة وعليّ والحسن والحسين" (ص٣٦١). فإذا كانت النسخة الأصلية للعهد النبوي تتضمن فعلاً طابع كف الرسول ﷺ وهو رمز آل البيت فهي لا محالة تؤيد دعوىٰ الشيعة بأحقية الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) بالخلافة، وبأن رسول الله ﷺ قد عين أهل بيته وذريته المباشرة أئمة وخلفاء من بعده علىٰ الأمة الإسلامية. إن النَّبيّ ﷺ من خلال ختمه وثيقة العهد بكفه حيث إن الأصابع الخمس تمثل كلاً من مُحَمَّد ﷺ وفاطمة الزهراء وعليّ والحسن والحسين؛ والسلاميات الأربعة عشر تمثل الأئمة الأربعة عشر المعصومين وهم النَّبيّ ﷺ وابنته فاطمة والأئمة الأثنا عشر، فإن رسول الله ﷺ كأنما منح الحماية لنصارىٰ سيناء باسمه وباسم كافة أهل بيته الكرام. وهذه ليست مسألة تدعو للاستغراب ومن شأنها أن تفسر تاريخ القمع الذي تعرض له المذهب الشيعي في مصر. فالمنطقة كانت علىٰ كل حال تحت حكم عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)؛ وكان والياً عليها آنذاك محمد بن أَبِي بَكْر، وهو ابن الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) بالتبني وأحد أتباعه الأوفياء. ولم تسقط المنطقة في يد الأمويين سنة ٦٨٥م إلا نتيجة تمرد معاوية بن أبي سفيان. وحينما انتهىٰ فرانسيس أروندايل Francis Arundale (١٨٠٧–١٨٥٣م) من سفر له بسيناء عام ١٨٣١م، فقد لاحظ أن معظم البدو هناك كانوا شيعة، ويفسر ذلك علىٰ النحو التالي:

> "إن البدو أو العرب الرحالة...يشكلون أقوىٰ القبائل ويحكمهم أمير لهم وشيوخ. وهم يحتقرون الأتراك ويعتبرونهم متسلطين علىٰ بلادهم. إن تدينهم بشكل ما مغاير للديانة المحمدية، وإن كانوا يقيمون نفس الصلوات ويصومون نفس الصيام، إلا أن فروقاً كثيرة تميز مشاعرهم الدينية بحكم كونهم في أغلبيتهم من أتباع عليّ [بن أبي طالب].

ومن البداهة وبحكم أن البدو كانوا علىٰ ما يبدو من أتباع عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) فإن ذلك لا يعني أن ديانتهم كانت "تصحيحاً للعقيدة المحمدية" (ص٦–٧). وقد يكون هٰذا هو السبب الذي جعل الأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين يصفون

بدو سيناء بأوصاف تحط من شأنهم. والسبب في ذلك قد لا يكمن فقط في كونهم مسلمين 'غير أسوياء'، بل في كونهم ببساطة 'مسلمين من النوع غير المقبول'. بما أنهم رفضوا الخضوع للحكم المركزي، فقد تم اعتبارهم مصدراً للقلاقل والتهديد. وقد يفسر هٰذا لماذا اختفىٰ عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء في آخر المطاف من خزانة اسطنبول. فمن الجائز أن يكون أعداء آل البيت قد أتلفوه لأنه كان يؤيد القضية الشيعية أكثر مما ينبغي في نظرهم.

إن دغباسنيس Digbassanis هو مخطئ طبعـًا حينما يدعي أن طابع الكف [النبوي] قد تمت إضافته فيما بعد علىٰ صفحة وثيقة العهد النبوي، كما تم إثبات ذلك في العديد من المصادر القديمة. ففي كتابه تحت عنوان رياضة الروح والذاكرة Jeux d'esprit et de mémoire المنشور سنة ١٩٤٧، يروي كاتب يرمز إلىٰ اسمه بأحرف M.L.M.D.C أن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ قد أهدىٰ هدايا ثمينة لدير القديسة كاثرين، وقد حركه لفعل ذلك صداقة كانت تجمعه بأحد الرهبان، إذ أهدىٰ للدير امتيازات سخية من بينها الإعفاء من أداء الجزية (٨٥-٨٦). وينص أيضـًا علىٰ أن تلك الحقوق الممنوحة قد تم التنصيص عليها في عهد مكتوب وقع عليه النَّبيّ ﷺ بكفه (٨٦). ويضيف الكاتب إن النَّبيّ ﷺ قد قام بغمس كفه في محبرة ثم بصم به علىٰ صفحة الرق (٨٦). ويفسر نفس الكاتب أن محمداً ﷺ لم يسبق له أبداً أن استعمل ريشة أو أداة كتابة باستثناء كفه (٨٦). ويعبر النَّصّ عن رأي مشير [عسكري] حيث يقول:

"يستمر الضابط برتبة لواء في كلامه قائلاً إنه قرأ مرة [كتاب] تاريخ الأتراك، وأنه يتذكر تمامـًا أن إمبراطور الأتراك سليم هو الذي أخذ بصفة رسمية ذلك الأثر المقدس الثمين [المتمثل في] العهد النبوي الذي كان بحوزة دير أولئك الرهبان المنتسبين للكنيسة الشرقية. فقد كان شهادة امتياز patent مزدوجة وصحيحة حيث إنه كان يشتمل علىٰ كل الشكليات الضرورية بالإضافة إلىٰ اشتماله علىٰ الصورة الدقيقة لكف النبي، وهي تمثل أقدس تحفة عند العثمانيين. (٨٧)

لقد كانت صورة كف النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ أو "خمسته" علىٰ صفحة العهد النبوي شيئـًا موثقـًا، وشهدت بذلك جميع المصادر القديمة. ويبدو أن الاستثناء الوحيد في

هٰذا الباب هو رواية فان إغمونت Van Egmont وجون هيمان John Heyman التي تدعي أن النَّبيّ ﷺ غمس أصبعـًا واحداً في الحبر وأمضىٰ ببصمة واحدة (١٦١). وبما أنه لم يسبق لأي من هذين الرجلين أن رأىٰ العهد النبوي فعلاً، فإن روايتهما يمكن إسقاطها من الحساب لكونها مجرد سوء فهم.

وباعتبار أن بعض نسخ العهد النبوي لرهبان جبل سيناء يرجع تاريخها إلىٰ القرن السادس عشر الميلادي، فإن بعض الباحثين الذين يساورهم بعض الشك في مضمونه يدعون بان الميثاق كان مزوراً وتم تلفيقه من قبل الرهبان، في محاولة يائسة منهم لإنقاذ أنفسهم من بطش جيش المسلمين المتعطشين للدماء. وكما يلاحظ هوبز، فإن بعض الباحثين يذهبون إلىٰ أن العهد النبوي كان مجرد أحبولة (ص١٦٠). إن "أكاذيب الرهبان" 'monkish impostures' لها تاريخ طويل لدىٰ العلماء البروتستانت لما يحملونه من الكراهية للكاثوليك. فعلىٰ الرغم من أن هوبز لا يذكر من يكونون ولا الحجج التي يقدمونها لإثبات اتهاماتهم، فإنه يقول: "إن الكثير من الملاحظين يعتقدون أن الرهبان، وليس النَّبيّ مُحَمَّداً، هم الذين كانوا وراء كتابة النسخة الأصلية من 'الفرمان' حينما كان جيش المسلمين يهدد الدَّيْر حوالي سنة ١٠١٠م" (١٦٠-١٦١). فبرأي هذه الكاتب،

> "إن تهديداً حقيقيـًا قد يكون وراء جعل الرهبان يقومون بمثل هٰذا الإجراء غير المسبوق من أجل حماية أنفسهم، وقد يكونون بلا شك اتخذوا إجراءات مماثلة في سنة ١٠٠٩م عند مهاجمة المسيحيين علىٰ يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [الفاطمي] بتونس الذي يشاع أنه كان يعاني مرضـًا ذهانياَ، حيث أنه قام بتحطيم الكنيسة مرقد المسيح المقدس بالقدس. ويقال إن قواته عمدت إلىٰ هدم دير القديسة كاثرين وتسويته بالأرض. وهناك عدة روايات لما وقع فيما بعد، من بينها أن العهد النبوي (أو الفرمان) الذي يحتمل أن يكون قد كتب حديثـًا بغرض إبعاد الجيش المغير. وهناك رواية أخرىٰ تقول إن الخليفة قرر ألا يهاجم الدَّيْر وأنه ندم علىٰ ما فعل عندما علم بان الجبل كانت تلتهمه النيران مرة أخرىٰ. وفي رواية أخرىٰ قيل إن جمعـًا من الرهبان ذهب

لملاقاة الخليفة وهو في طريقه لتدمير الدَّيْر، وناشدوه بان لا يفعل، باعتباره مكاناً مقدساً عند المسلمين. وأثناء ذلك اللقاء قيل إن مجموعة أخرىٰ من الرهبان قامت علىٰ قدم وساق -وبكيفية محمومة- ببناء مسجد وسط أسوار الدَّيْر فوق مكان قالوا عنه إن النَّبيّ مُحَمَّداً وقف فوقه. وهذه هي الرواية التي لا يزال الرهبان متمسكين بها إلىٰ اليوم. وهناك رواية أخرىٰ تقول إن [الخليفة] الحاكم في سعيه الحثيث لتدمير الدَّيْر أقنعه الرهبان بالعدول عن خطته، فقام بإصدار أوامره للرهبان ببناء مسجد فوق المكان الذي وقف عليه [النبي] محمد وذلك من أجل تهدئة تعطش جنوده لدماء النصارىٰ". ويبدو في الحقيقة بأن المسجد قد تم بناؤه حوالي سنة ١١٠٦م علىٰ عهد الخليفة الفاطمي الفضل الذي جاء بعد الخليفة الحاكم بأمر الله، [مع العلم] أن الصليبيين كانوا قد احتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٩، وأن المسجد من المفترض أن يكون بني من أجل حامية لجيش المسلمين تم إرسالها للدفاع عن الموقع ضد جيش الصليبيين، أو كوسيلة لصد أي هجمة قد تشنها الجيوش العثمانية" (هوبز، ص١٦١).

لكن وكما يعترف بذلك هوبز: "هناك روايات متضاربة بشأن اتصال النَّبيّ بالدَّيْر" (ص١٥٩). وهٰذا تقييم تاريخي معقول. أما الجزء الثاني من الجملة الذي يفيد بأن "هناك أسئلة مطروحة فيما إذا كان هناك اتصال بالفعل أم لا" (ص١٥٩)، والتي تطرح إشكالية؛ فإن كانت هناك روايات متعددة تتعلق بحدث ما، فإنها توحي بأن الحدث وقع بالفعل، ولا توحي بأن الحدث لم يقع. وفي غياب دليل حاسم يؤكد بأن وثيقة شهيرة هي وثيقة مزورة، فإنه يتعين علىٰ المؤرخين أن يكفوا عن التشكيك في صحتها بناء علىٰ مجرد فرضيات. وكما يعترف بذلك فقهاء الشيعة، إنه لا تأويل مع وجود النص. ويشرح دغباسنيس المسألة علىٰ النحو التالي:

"يضم القسم العربي من الأرشيف وثائق تخبرنا عن العلاقات التي كانت سائدة بين الدَّيْر والحكام العرب، بالإضافة إلىٰ المراكز الإسلامية منذ وقت مبكر جداً؛ هناك مثلاً نسخ محفوظة من 'الأختنام' (أي العهد النبوي)

وهو عهد الأمان الذي أعطاه محمد والذي يقول عنه التراث إن محمداً نفسه قد أقره وأضفىٰ عليه طابع القداسة بالإمضاء عليه بكفه. وترجع النسخ إلىٰ القرن السادس عشر [الميلادي] حينما منحت النسخة الأصلية للسلطان سليم الأول عقب غزوه لمصر سنة ١٥١٧م" (ص٣٦١).

فإذا كان تاريخ سجلات الدَّيْر يرجع إلىٰ الفترة المبكرة من الإسلام، وإذا صح أن هذه الوثائق توثق للقاءات التي تمت بين رهبان جبل سيناء والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، فإنها صالحة لأن تؤكد العهد النبوي. فالذين يريدون أن يدفعوا بخلاف هٰذا عليهم أن يبينوا لا عدم صحة العهد النبوي فقط، بل عليهم أن يثبتوا أيضاً بأن جزءاً كبيراً من أرشيف الدَّيْر قد تم تزويره. فالحجة في ذلك هي علىٰ عاتق من يتهم. ولحد الآن لم يتم صياغة ولو إدانة واحدة للعهد النبوي بصورة جدية. وكما سجل ذلك ستانلي (١٨١٥–١٨٨١م) قبل ما يزيد عن قرن من الزمان:

"لا يمكن لأي أحد أن يثبت اليوم أو يدحض الرواية القائلة إن محمداً وهو لا يزال يسوق قوافل الإبل في جزيرة العرب وصل به المطاف إلىٰ الدَّيْر الكبير الذي لم يكن آنذاك قد بلغ قرناً من الزمان. إنه علىٰ أقل تقدير لأمر ليس بالمستحيل، علماً بأن الإحالات المتكررة علىٰ حجر موسىٰ في القرآن والذي هو معروض وبكيفية واضحة؛ وعلىٰ الوادي المقدس طوىٰ، وهو اسم لم يعد مستعملاً الآن لكن يبدو أن المراد منه هو الوادي الموجود بالدَّيْر، ثم هناك الخطابات الموجهة إلىٰ موسىٰ سواء في المنحدر الغربي للوادي أو المنحدر الجنوبي، كل هٰذا يجعل من [هذه القصة] قصة ممكنة الحدوث. إن اسمه بالتأكيد لا يزال محفوظاً سواء عن طريق سياسة الرهبان أو صداقتهم. فنحن لا نجد مكاناً آخر في العالم المسيحي وصلت فيه مشاعر الود تجاه النَّبيّ العربي وأتباعه كما كان الشأن بالنسبة لجبل سيناء والمآثر الموجودة في محيطه. فكما تقول القصة التي تُروىٰ عبر الزمان بروايات متعددة ومتقاربة: 'بينما كان [النَّبيّ مُحَمَّد] يستريح هو وإبله علىٰ جبل المنجية، شوهد نسر ينشر جناحيه فوق رأسه، والرهبان –وهم يشاهدون تلك الإشارة– علموا ما

ينتظر الرجل من أمر جلل في مستقبله، فقرروا أن يضيفوه في ديرهم، وكان عليه بحكم أنه لا يعرف الكتابة أن يرد الجميل بالمثل، فأمضىٰ عهداً للأمان والحماية بكفه المغموسة في الحبر علىٰ رق غزال تم الحفاظ عليه بأرشيف الدَّيْر" (ص٣٤٤-٣٤٥).

وكما يعترف ستانلي بذلك، إن الاختلاف في الروايات المتعددة هو اختلاف طفيف، وهو نتيجة طبيعية لحدث تم سرده عبر الأزمنة. وكما يشير هوبز إلىٰ ذلك، إن السكان المحليين من الجبلية القاطنين بجبل سيناء يعتقدون عن خطإ بأن العهد النبوي قد كتبه عمر بن الخطاب (٥٧٩-٦٤٤م). وهم في ما يبدو يخلطون بين العهد النبوي لرهبان جبل سيناء والعهد العمري من جهة، وبين الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م) وعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من جهة أخرىٰ. "إن الوثيقة في حد ذاتها (حسب هوبز) تميل إلىٰ كونها كانت من إملاء النَّبيّ [محمد] وكتبها بخط يده ابن عمه وصهره عليّ [بن أبي طالب] سنة ٦٢٣م" (هوبز ص١٥٩).

إن النَّصّ المكتوب ينبغي أن تكون له الأسبقية علىٰ الرواية الشفوية، واستناداً إلىٰ هوبز فإن الجبلية يروون أن الخليفة عمر بن الخطاب (ح ٦٣٤-٦٤٤م) قد أمر باعتناق الإسلام علىٰ جميع سكان سيناء ما عدا الرهبان، وأن نسخاً من هٰذا الأمر لا تزال موجودة بالدَّيْر" . (١٥٨). وكما تشير إلىٰ ذلك السجلات التاريخية فإن الأمر لم يكن كذلك، بالإضافة إلىٰ هٰذا فإنه ليس هناك تدوين لمثل ذلك الأمر في أرشيف دير جبل سيناء. فبدل أن تدل الروايات المتعددة والمتضاربة المتعلقة بعلاقات النَّبيّ ﷺ بدير جبل سيناء بأن القصة مفتعلة، فهي تميل إلىٰ تأكيد اللقاء بين الطرفين. ويبدو أن الروايات المتكررة ذهاباً وإياباً قد تم دمجها في سردية واحدة مع مرور الوقت. إن الروايات المتعددة رغم تباين تواريخها وتفاصيلها، فهي تؤكد كلها العلاقة الطيبة بين النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ورهبان جبل سيناء، كما تؤكد بأن سلسلة من المعاهدات والمواثيق قد تم إبرامها بين الجانبين. ورغم ذلك فإن هٰذا غير كاف لإقناع حفنة من السلفيين المتنطعين.

وعلىٰ الرغم من أن أغلب علماء المسلمين التقليديين يتفقون علىٰ أن عهد النَّبيّ

مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء هو عهد صحيح وحقيقي، فإن مجموعة من الإسلامويين المتطرفين يرفضون محتواه جملة وتفصيلاً. إن هٰؤلاء التكفيريين الذين هم في العادة ماهياويون، essentialists وأصوليون، fundamentalists ؛ أي أنهم أشخاص يعتقدون بوجود تأويل حرفي أحادي للمصادر، يظهرون بمظهر من قطع الصلة تماماً بالأعراف والمواضعات العلمية الإسلامية المتوارثة بتصريحهم بأن الأحاديث النبوية الصحيحة الوحيدة [في زعمهم]، هي المثبتة في كتب السيرة لصحابة النَّبيّ ﷺ والتابعين. وبما أن العهد النبوي لرهبان سيناء ليست له سلسلة أسانيد فهم يرون أنه شيء ملفق. إن لامعقولية هٰذا الدفع تثير الاشمئزاز. ذلك لأن الناس لم يكونوا في حاجة إلىٰ سلسلة الأسانيد في حياة الرسول ﷺ، ولا في عهد صحابته ولا في عهد التابعين. فالناس كانوا يروون مباشرة عن النَّبيّ ﷺ لأنهم سمعوا عنه مباشرة. فلم تظهر الحاجة للأسانيد إلا بعد مرور قرن من الزمان حينما بدأت الذاكرة تخبو. فظهر علم الحديث كعلم قائم الذات متعارف عليه علىٰ نطاق واسع. وبما أن معظم الأحاديث النبوية لم يتم جمعها إلا بعد مرور ستة أجيال بعد وفاة النَّبيّ ﷺ، فقد ظهرت الحاجة إلىٰ تأصيل وتصحيح تلك الأحاديث. غير أن هٰذا المعيار غير ضروري حينما نكون أمام وثيقة أولية أصلية primary document مثل وثيقة العهد النبوي التي أملاها النَّبيّ ﷺ وكتبها عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) وشهد عليها عدد من الصحابة، وبصم عليها رسول الله ﷺ بكف يده. بالإضافة إلىٰ هٰذا هناك عديد من الأحاديث النبوية التي تعتبر صحيحة أو علىٰ الأقل مقبولة بالرغم من كونها ضعيفة الأسانيد، أو ناقصة الأسانيد أو لا أسانيد لها بالمرة. في الحالة المثلىٰ ينبغي أن يتوافر المحتوىٰ الصحيح والسند الصحيح معـاً. لكن ليس السند هو المقياس الوحيد المعتمد في علم الحديث. إنه من السخافة قبول حديث غير معقول أو غير منطقي لمجرد أنه روي بأسانيد صحيحة. ذلك لأنه في متناول أي فقيه أو عالم دين يساوي العمامة التي يضعها فوق رأسه أن يختلق أسانيد أو يزوّرها. وموازاة مع هٰذا فإنه من السخافة رفض حديث نبوي يتفق مع نص القرآن الكريم والسنة النبوية لمجرد أن أسانيد روايته غائبة أو ناقصة.

إن السلفيين القلائل الذين سمعوا –مجرد السماع– بالعهد النبوي يحاجون

بأنه غير صحيح بدعوىٰ أنه لا وجود له في مجموعة الأحاديث التي وصلتنا إلىٰ حد الساعة. لكن العهد منصوص عليه ولو بشكل مجتزأ في الكتابات التاريخية الإسلامية الكلاسيكية. لكن بما أن كتب التاريخ مثل كتاب الطبري (المتوفىٰ سنة ٩٢٥م)، وابن سعد المتوفىٰ سنة ٨٤٥م) وغيرهما لا تعتمد علىٰ إسناد، فإن التكفيريين المناوئين للفكر السليم anti-intellectuals يرفضونها عل هٰذا الأساس. أي أنهم يتساءلون لماذا-إن كانت العهود النبوية صحيحة- لا توجد ضمن مجموعة الأحاديث المروية المعتمدة؟ والجواب البديهي هو أن علماء الحديث كانوا مهتمين بجمع الحديث النبوي لا بجمع الروايات التاريخية والمعاهدات والعهود والمواثيق، والتي تركوا شأنها للمؤرخين. وهٰذا بالتأكيد أمر مؤسف لأن العهود النبوية لها قيمة فقهية jurisprudential تشريعية كبرىٰ، وأن الكثير من الأحكام الشرعية يمكن أن تستمد منها. رغم تجوال علماء الحديث في الشرق الأوسط في إطار مهمة جمع الحديث، فإن القليل منهم فقط من ذهب إلىٰ شمال إفريقيا، وأقل من ذلك من وصل إلىٰ الأندلس. هٰذا بالإضافة إلىٰ أنهم اقتصروا في بحثهم عن الأحاديث النبوية علىٰ المراكز الحضرية الكبرىٰ حيث كان يتمركز المسلمون؛ ولم يصلوا إلا نادراً -هٰذا إن فعلوه أصلاً- إلىٰ الثغور القصيّة الموجودة علىٰ التخوم، مثل دير القديسة كاثرين بجبل سيناء. ففي اعتقاد أي محدث من المحدثين، لا يمكن أن تجد حديثاً نبوياً في أديرة النصارىٰ الموجودة بجبل سيناء أو بشبه الجزيرة العربية أو بالعراق.

والكثير من أمثال هٰؤلاء المسلمين قد يرفضون وجود العهود النبوية لمجرد أنها كانت محفوظة عند النصارىٰ أو نقلها النصارىٰ. لقد ضاعت النسخة الأصلية لعهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، ولذلك كل ما تبقىٰ لدينا هو عدد من النسخ تناقلها هٰؤلاء الرهبان جيلاً بعد جيل عبر قرون من الزمن. والنسخة الأصلية من عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران، التي عثر عليها الراهب حبيب سنة ٨٧٨/ ٨٧٩م قد تم حفظها بواسطة رواية تاريخية نصرانية chronicle.

أما بالنسبة لعهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم، فقد وصل إلينا بفضل المسيحيين العرب والأوروبيين الذين عاشوا في القرنين الخامس عشر والسادس

عشر الميلاديين. إنه نتيجة تشكيكهم العميق في المسيحيين، دون ذكر حالات العداوة الكثيرة والكره العلني في حقهم، فإن بعض المسلمين يرفضونه جملة وتفصيلاً. أما بالنسبة للباحثين والمؤرخين المتجردين من قيود الأصولية والتعصب، فإن الحجج التي يأتي بها منظرو الإرهاب لا تنال منهم شيئاً. ذلك لأنه لا يجوز بالتأكيد أن تطلق الرصاص علىٰ الرسول ﷺ، خاصة إذا كان يوزع جواهر وأحجاراً كريمة لا تقدر بثمن. وعلىٰ كل حال، فقد اشترىٰ أبو العباس السفاح الخليفة العباسي الأول [وثيقة] عهد مقنة من أهل أيلة بما قدره ٣٠٠ دينار (انظر Gil ص٢٩، ٢٥). فبالإضافة إلىٰ عهد الذمة (الحماية)، فقد احتفظ أهل أيلة بعباءة النَّبيّ ﷺ التي سبق له أن أهداها إياهم (ص٢٩، ٢٥). وينطبق نفس القول علىٰ رسالة النَّبيّ ﷺ للمقوقس زعيم الأقباط والتي عَثَرَ عليها فرنسي يدعىٰ برتلمي داخل غلاف نسخة من الإنجيل القبطي في دير أحمين قرب سعيد[كذا]Saide سنة ١٨٥٠م (انظر عايدين ص٩٦). وإذا كان الكثير من المسلمين، بمن فيهم سلاطين الإمبراطورية العثمانية، إضافة إلىٰ العشرات من العلماء المسلمين قد اعترفوا بصحة تلك الرسالة التي تم اكتشافها سنة ١٨٥٠م، فإن العهد النبوي الذي طبع بباريس سنة ١٦٣٠م، والعهد النبوي الذي تم العثور عليه سنة ٨٧٨/ ٨٧٩م، والعهد النبوي الذي اكتُشفَ سنة ١٥٣٨م وعثِرْتُ عليه مرة أخرىٰ في المدة الأخيرة، وعهد مقنة الذي تم اشتراؤه ما بين سنة ٧٥٠ وسنة ٧٥٤م، فإنه ينبغي أن تحظىٰ كل هذه الوثائق بنفس الدرجة من الاحترام إن لم نقل بمزيد من التقدير لأنها وثائق أقدم بكثير من تلك الرسالة.

هناك من يؤكد أنه لا يمكن للمسلمين أن يعتمدوا علىٰ المصادر اليهودية أو المسيحية حينما يكونون بصدد بناء أو إعادة بناء تاريخهم الديني. فهم يدفعون بفكرة أن الإسلام ينبغي أن ينبني علىٰ المصادر الإسلامية فقط، وبصفة خاصة علىٰ القرآن والسنة. غير أن وجهة النظر هذه لا تأخذ في الحسبان كون التراث الإسلامي هو ببساطة متشبع بالمواد اليهودية والمسيحية. مرة أخرىٰ أنا لا أقول إن المسلمين الأوائل استنسخوا أو قلدوا اليهود والنصارىٰ، لكنهم قبلوا أي شيء وكل شيء ينتسب للعقيدتين الإبراهيميتين ولا يتناقض مع القرآن والسنة. وبعد هٰذا وذاك، فقد روي عن

النَّبيّ ﷺ أنه كان يشجع صحابته بأن "يرووا عن بني إسرائيل لأنه لا عيب في ذلك" (رواه الشافعي). فعلىٰ الرغم من أن الإمام عليّاً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) شكك في نزاهة كعب الأحبار (المتوفىٰ سنة ٦٥٢م) فإنه يصعب رفض الروايات اليهودية والنصرانية التي جاءت علىٰ لسان وهب بن منبه (٦٥٥-٧٣٢م)، لا سيما تلك التي نقلها ابن عباس (٦١٩-٦٨٧م). وبما أن للمسلمين إرثاً طويلاً من الاعتماد علىٰ المصادر الدينية اليهودية والنصرانية التي تؤكد ما جاء في القرآن والسنة، فليس هناك مانع من أن لا يقوموا بنفس الشيء عندما يتعلق الأمر بالعهود والمواثيق النبوية. كما أن للمسلمين أيضاً ميراثاً طويلاً في الاعتماد علىٰ المصادر اليونانية والفارسية والهندية وحتىٰ الصينية من أجل توسيع معارفهم في مختلف الميادين. أما فيما يخص الدعوىٰ القائلة إن المصادر اليهودية والنصرانية هي عبارة عن بحور من الأكاذيب، فإن نفس هذه الدعوىٰ يمكن الدفع بها فيما يتعلق بأدبيات رواية الحديث الإسلامي. وكما هو معلوم عند علماء الحديث المسلمين، فإنه من بين ملايين الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ، فإن عدداً قليلاً منها فقط هي أحاديث صحيحة. ولذلك فإن مجرد وجود بعض الافتراء في المصادر غير الإسلامية لا يعني أنه علينا أن نرفضها جملة وتفصيلاً. إنه بتطبيق منهجية علمية نقدية نستطيع أن نميز بين ما هو صحيح وما هو مزيف. ففي سعيهم للبحث عن المعرفة، يتعين علىٰ المسلمين أن ينفتحوا علىٰ جميع المصادر، ذلك أن النَّبيّ ﷺ ألح علىٰ أصحابه وأتباع ملته أن "يطلبوا العلم ولو بالصين" (رواه البيهقي). ولهٰذا فإن لنا ما يسوغ طلبنا للعلم بسيناء.

وإذا تركنا السلفيين جانباً، فإن الانتقاد الأكثر تفصيلاً لعهد النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء هو الذي جاء علىٰ لسان برنار موريتز Bernhard Moritz. لكن وبما أن هٰذا الباحث كتب باللغة الألمانية، والكتاب الحالي مكتوب وموجه لقراء اللغة الإنجليزية فإنني سأرفع الحرج علىٰ قرائي وأحيلهم علىٰ ملخص للكاتب سكربوتشا الذي يلتقي مع موريتز حول نفس الآراء. يقول سكربوتشا ما يلي:

"أن ترجع هذه النسخة من [العهد النبوي] في الأصل إلىٰ كتابة موثقة للنبي (محمد) ومبصومة بأصبعين من يده، فهٰذا ما قام بدحضه موريتز

لاعتبارات تاريخية وأسلوبية ومضمونية. إن الحجة الأساس التي يرافع بها ضد صحة الوثيقة هي أنه خلافاً لرسائل الحماية الصحيحة للنبي، والتي لا تزال موجودة [لحد الآن]، فإن الوثيقة [المعنية] لا تنص علىٰ طلب القيام بأي واجب، ومقابل هٰذا وبالرغم منه، تم تقديم وعود سخية [للرهبان]. هناك علىٰ سبيل المثال إعطاء الحرية للمسيحيين في تحديد [مبلغ] الضرائب المترتبة عليهم بأنفسهم، مما يتناقض مع ممارسة الحكم الإسلامي، والذي لا مثيل له في مصادرنا.

ويلاحظ أيضاً أن دير سيناء لم يذكر بشكل صريح، وأن أجزاء من محتويات العهد [النبوي]-علىٰ سبيل المثال ما تعلق منه بالجزء الذي يتحدث عن النساء، والخدمة العسكرية، والتجارة- ليس له علاقة بالدَّيْر أو بظروفه الخاصة. لكن 'رسالة الحماية' المنسوبة لمحمد هذه، من الممكن أن تكون مماثلة للوثيقة المنصوص عليها في 'فرمان' ١١٣٤ [م]... إن اضطهاد المسيحيين وهدم كنائسهم وأديرتهم وقهر السكان من أهل الذمة، كل ذلك قد وصل أوجه في مصر تحت حكم الخليفة الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١م)، ولذلك فإن هذه الوثيقة 'السينائية' قد تكون صادرة من مصر عن تلك الفترة. وفي هٰذا السياق فإن مسألة كونها لم تكن مزورة بمهارة كبيرة يمكن تفسيرها بغياب الحس النقدي عند "المحمديين" فيما يتعلق بأمور الدين ولتوقيرهم الزائد للنبي. علينا أن نأخذ في الحسبان أن النَّبِيّ كان قد كتب بلا أدنىٰ شك رسائل حماية صحيحة، منها مثلا الرسالة التي كتبها ليهود مقنة علىٰ خليج العقبة. لقد تم إثبات أنه في حالة وجود رسائل حماية صحيحة وأخرىٰ مزورة منسوبة للنبي، فإن الحكام المسلمين في حالة الشك التزموا بمبدإ تغليب جانب الصحة علىٰ جانب التزوير، إلىٰ درجة أنهم قاموا بتجديد حق الحماية في غياب أي دليل وثائقي، أصلياً كان أم ثانوياً. فقد نسب إلىٰ السلطان المملوكي جاكماك (١٤٣٨-١٤٥٣م) أنه في سنة ١٤٤٢م وبتحريض من رجال الدين المتعصبين، قام بتوجيه السؤال إلىٰ رؤساء الكنيسة الأورثدوكسية، وجماعة الكراييت Karaite وجماعة اليهود السامريين Samaritans، عن 'رسائل الحماية التي كتبت لأسلافهم'، وبما أنهم كانوا يجهلون

كل شيء عن تلك الرسائل، فقد قرر مجلس الدولة أن يجدد وضعيتهم كأشخاص محميين استناداً إلىٰ سابقة تركها عمر بن الخطاب".

لقد كان مصير دير سيناء المسيحي مرتبطًا ارتباطًا حاسمًا باعتقاد المسلمين في وعد النَّبيّ بحماية الدَّيْر. فمهما بلغت درجة احتمال أن يكون عهد النَّبيّ بحماية [دير سيناء] ضعيفة، فإن أثره علىٰ الواقع التاريخي –في هذه الحالة كما في حالات مماثلة– لا يتوقف أبداً علىٰ مدىٰ ما للوثيقة من صفات الصحة أو الصدقية (انظر سكربوتشا، ص ٥٨–٥٩).

علىٰ الرغم من اتفاقه مع الأدلة التي أتىٰ بها موريتز، فإن سكربوتشا لا يعتقد بأن النسخة الحالية من عهد محمد لرهبان جبل سيناء هي نسخة صحيحة، فهو يعتقد بأنها كانت تستند إلىٰ مصادر سابقة:

"إن بعض الوثائق القديمة دون شك –سواء أكانت صحيحة أو غير صحيحة، فهٰذا يبقىٰ سؤالاً مطروحًا– لا بد أنها كانت موجودة. ذلك لأن خليفة في وقت مبكر مثل الخليفة الحافظ (١١٣٢–١١٤٩م) يوصي في فرمان له عامله علىٰ العقبة باحترام الاتفاقيات القديمة مع الرهبان، كما أن فرمانات أخرىٰ تتضمن إحالات صريحة علىٰ عهد حماية مقدس للنبي [محمد]" (ص٥٧–٥٨).

إن الادعاء بأن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء قد تم تزويره علىٰ عهد الخليفة (المستبد) الحاكم بأمر الله (حكم ما بين ٩٩٦ و ١٠٢١م) لا أساس له. ففي سنة ١١٣٤م، حينما أمر الخليفة الفاطمي الحادي عشر الحافظ عامله باحترام الاتفاقيات القديمة مع رهبان جبل سيناء، فإن تلك الوثائق كانت وثائق متقادمة. فكما يفيد جوستين هيرمونك: "إن هذه الوثائق التي كان ينظر إليها علىٰ أنها وثائق قديمة آنذاك، كانت موجودة قبل بضعة قرون خلت" (ص٥١). ومن الواضح انه إذا كان عمرها يصل إلىٰ ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة آنذاك، فإنه لا يمكن أن تبقىٰ وثائق مزورة علىٰ مدىٰ قرون من الزمان.

إن الحجج التي قدمها برنار موريتز في كتابه Beirtrage zur Geschichte

ses Sinai Klosters Im Mittelalter Nach Arabischen Quellen ١٩١٨ والتي تبناها سكربوتشا ليست قائمة علىٰ أسس صحيحة ولا هي مقنعة لعدة أسباب سبق ذكرها. إن السيد موريتز الذي شغل منصب قيّـم المكتبة الخديوية في القاهرة لم يكن بالرجل الموضوعي المتجرد. لقد كان الرجل عميلاً في خدمة المصالح الألمانية الإمبريالية وأداة لآلتها الدعائية (انظر ماك ميكن ص: ٨٨، ٩٢، ٩٦، ١٤٧، ٣٧٢، م١٢). ففي نظر ليو فروبينيوس (١٨٧٣-١٩٧٣م) وهو جاسوس آخر متحمس وعميل سياسي، إن موريتز "كان في قرارة نفسه وأعماق أعماقه رجلاً يحتقر الشعوب الشرقية" (انظر ماك ميكن ص ١٤٧). لقد كان موريتز ينتمي لطغمة ألمانية صغيرة من العلماء الذين عملوا علىٰ إشعال نار الفتنة في العالم الإسلامي من أجل خدمة أهدافهم السياسية والاقتصادية والعسكرية. فعلىٰ غرار دور البريطانيين الفعال في نشر الحركة التكفيرية والتطرف 'الإسلامي' أثناء الثورة العربية من أجل القضاء علىٰ ما تبقىٰ من الإمبراطورية العثمانية، فإن الألمان أيضـًا لعبوا علىٰ وتر القومية العربية والمشاعر الدينية الإسلامية من أجل خدمة قضيتهم. إن عملاء من أمثال موريتز كان منوطـًا بهم دور إقناع العرب بأن المصالح الألمانية ومصالح المسلمين هي مصالح واحـدة. فهم عن طريق أدائهم لنوع من الجزية لبعض المراجع السنية والشيعية تمكنوا من استصدار فتاوىٰ تساند "جهاد" الألمان ضد الحلفاء (انظر ماك ميكن ص: ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١٤-٢١٥، ٢٣٣). في الوقت الذي أضفىٰ فيه أولئك المرتشون من رجال الدين علىٰ تلك الرشاوىٰ طابعـًا دينيـًا، فإن كل الفرقاء تعرفوا علىٰ طبيعتها علىٰ أنها رشاوىٰ أعطيت مقابل أداء خدمة للسلطات الاستعمارية. فإذا كان الألمان يسعون لحشد تأييد الأتـراك والأمازيغ والفرس وبعض العرب، فإن البريطانيين كانوا ينشرون الأفكار الدينية المتشددة في جزيرة العرب، وذلك في محاولة منهم إخراج العثمانيين من الشرق الأوسـط. وبارتقاء الولايات المتحدة إلىٰ مستوىٰ الدولة الإمبريالية خلال القرن العشرين، فقد ورثت الحركةَ التكفيرية من البريطانيين، واستعملتها في خدمة أجندتها في العالـم الإسلامي. ولمزيد من المعلومات حول الموضوع يمكن مراجعة كتاب : *The Two Faces of Islam* ['الوجه المزدوج للإسلام'] للكاتب ستيفن شوارتز (المولود سنة ١٩٤٨) وكتاب ['إرهابيو

الإلـه]: *God's Terrorists Jihad* للكاتب تشارلز آلن.

وكما بين ذلك شون ماك ميكن بوضوح في كتابه ['خط برلين-بغداد: الإمبراطورية العثمانية وسعي ألمانيا للهيمنة علىٰ العالم'] *Berlin Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*، فإن هٰؤلاء المستشرقين الجواسيس المندسين عملوا علىٰ تجميع جيوش من العناصر المتشبعة بالإيديولوجيا الإسلاموية، عن طريق استعمال آيات من القرآن أخرجوها عن سياقها، وأدخلوا إلىٰ أذهان الجهاديين الموالين للألمان بأنه أصبح من الواجب عليهم شرعـاً قتال الكفار اليهود والمسيحيين، ويستثنون بالطبع الألمان الذميين الذين قاموا بتجييشهم (٨٦-٩٣، ٩٦-٩٩، ١١٨، ١٢٤-١٣٧، ١٦٠-١٦١، ١٧٢-١٧٩، ١٨١، ٢٠٢-٢٠٩، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٦٣-٢٦٥، ٢٦٧-٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٣-٢٧٤، ٣٣٣، ٣٣٨). وبما أن موريتز كان يشتغل عميلاً لوزارة الدعاية في الحكومة الألمانية، فإن إنتاجه العلمي لا يمكن أن يوصف إلا بكونه مجرد دعاية. فقد كان موريتس شخصـاً يودّ أن يقتل المسلمون المسيحيين ويضطهدوهم. وبالطبع فقد نعت عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء بكونه عملاً مزوراً. ذلك لأن معاملة المسلمين للمسيحيين بالحسنىٰ كانت تتعارض مع مصالح الإمبريالية الألمانية. في الوقت الذي كان يبدو متوقعـاً من موريتز أن يأخذ العبرة من هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولىٰ، فقد انضم إلىٰ النازيين في السنوات التي أعقبت ذلك، ووصل به الأمر إلىٰ أن قام بمراجعة النسخة العربية لكتاب كفاحي لأدولف هتلر (هيرف ص٢٤-٢٥). وكما يشرح ذلك جيفري هيرف بتفصيل في كتابه الدعاية النازية الموجهة للعالم العربي، : "إن الجهاد من صنع ألمانيا"، واستنهاض العرب للثورة ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي كانا من مكونات السياسة الألمانية خلال الحرب العالمية الأولىٰ" (٦). واستمر ذلك بقوة متزايدة قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية. كل هذه الحقائق ينبغي استحضارها أمام الادعاءات التي يعبر عنها موريتز بخصوص العهد النبوي. ورغم ما يدعيه موريتز بخلاف ذلك، فإن تاريخ العهد النبوي تؤكده المصادر الإسلامية كما تؤكده السجلات الموجودة بدير القديسة كاثرين. أما فيما يتعلق بأسلوب ومضمون

العهد النبوي فهما ينسجمان مع العهود النبوية الأخرىٰ المصدَّقة التي كتبها النَّبيّ ﷺ.
إن أهم دليل يقدمه موريتز ضد صحة العهد النبوي الذي عقده لرهبان جبل سيناء هو الذي يدور حول مسألة أن النَّبيّ ﷺ لم يطلب أية مطالب من الطرف المسيحي؛ وهٰذا بالنسبة لموريتز يتعارض بوضوح مع العهود النبوية الصحيحة الحمائية الأخرىٰ. إن هذه دعوىٰ واضحة وضوح الشمس؛ ذلك أن منطق مُحَمَّد ﷺ بخصوص هذه المسألة بديهي. فإن كان رسول الله ﷺ لم يطلب أية مطالب من الطرف المسيحي، فلأنه كان يتعامل مع جماعة من الرهبان، أي مع جماعة من الإخوة في الإيمان نذروا حياتهم لله تعالىٰ وانقطعوا لعبادته. فإذا كان النَّبيّ ﷺ قد تقدم بطلبات في مواثيقه الأخرىٰ فلأنه كان يتعامل مع ملوك ودول وجماعات وبلديات ومجموعات كانت علىٰ العموم تتعاطىٰ للفلاحة والتجارة. ويجادل موريتز أيضـًا بأن تمكين مسيحيي سيناء بتقدير طوعي من عندهم للمبلغ الذي يلتزمون بأدائه من الضريبة، يخالف ما هو متداول في أسلوب الحكم الإسلامي، وأنه ليس له مثيل في أية مصادر أخرىٰ. مرة أخرىٰ لو كان النَّبيّ ﷺ بصدد التعامل مع مدينة لها وضعية دولة a city state فقد يكون لهذه الحجة مسوغ ويكون لها جانب من القبول. لكن ما يسترعي الانتباه هنا وله دلالة في هذه النازلة هو أن النَّبيّ ﷺ قام بإبرام اتفاقية [ميثاق] مع دير معين لكي يرد جميلاً، ويعبر عن امتنانه علىٰ كرم الرهبان وإحسانهم له. وهٰذا شيء لا مثيل له في أي سياق آخر. فإن كانت الوثيقة قد تميزت بالسكوت عن مواد كان من المفروض أن تتضمنها، فلأن النازلة كانت من النوع الاستثنائي. إن رسول الله ﷺ كان حريصـًا أن يتعامل مع ظروف كل جماعة علىٰ حدة. وأخيراً وبما أنه كانت هناك معاهدات سلام أبرمها النَّبيّ ﷺ مثل صحيفة المدينة، ومعاهدة صلح الحديبية مع القرشيين، ومعاهدة يهود خيبر، ومعاهدة نصارىٰ نجران وغيرهم من الطوائف، فإنه لم يكن لرهبان جبل سيناء أي داع لتزوير معاهدة. وحتىٰ إن كانوا قد قرروا تزوير معاهدة، فإنه كان من باب استعمال الحس السليم أن ينصّوا تنصيصـًا صريحـًا علىٰ أنهم هم المعنيون بها مباشرة. لكن بدل المخاطرة بأن يكونوا هدفـًا للتجديف نتيجة لاختلاقهم أكاذيب ينسبونها لله تعالىٰ ولرسوله، فإنه بات من الأنسب لرهبان جبل سيناء أن يطلبوا فقط من المسلمين احترام ما أوصىٰ به النَّبيّ ﷺ في مواثيق سابقة، والتي هم مطلعون عليها

غاية الاطلاع. والحقيقة أن المسلمين خلال التقائهم بالطوائف الجديدة من اليهود والنصارىٰ، فإن طائفة النصارىٰ لم تساورهم فكرة اقتراف خدعة التزوير. فكما نص علىٰ ذلك جاك واندربورغ، فإن "معاهدات السلام السابقة التي عقدها النَّبيّ أصبحت نماذج تحتذىٰ خلال حروب الفتوحات [الإسلامية] وبعدها" (ص١٧، م٢٢). وفي هٰذا الصدد تعترف براندي راتليف بأن:

> "الوثيقة تشبه إلىٰ حد بعيد عدداً من الوثائق الأخرىٰ المحفوظة لدىٰ عدد من الطوائف الدينية في الشرق الأدنىٰ، وهذه الوثائق تشبه بكيفية لافتة الرسالة التي وجهها النَّبيّ مُحَمَّد إلىٰ نصارىٰ نجران التي تم اكتشافها سنة ٨٧٨م في دير بالعراق؛ والرسالة محفوظة في حولية سيئيرت Chronicle of Séert. وتمنح الرسالة الطوائف المسيحية في البلاد الإسلامية الحماية من أعمال العنف وحماية الأماكن المقدسة، والإعفاء من الضرائب" (ص١٥).

وعلىٰ الرغم من وجود الأدلة التي تثبت الأصل المشترك [للوثائق] فإن راتليف لا تستسيغ أن يكون النَّبيّ ﷺ هو صاحبها. إن راتليف في خروجها عن المنهجية العلمية التي تقتضي أن يتم البدء بالسبب البديهي بدل الخوض في النظريات المستبعدة، فهي تعمدت أن تروي بأن شخصاً ترك الإسلام واعتنق المسيحية وصار راهباً في دير مار صابة ثم التحق بجبل سيناء وصار رئيس الدَّيْر هناك في آخر المطاف. (ص١٦). وهٰذا الشخص المسمىٰ عند ولادته ربيع بن قيس بن يزيد الغساني والمولود بنجران، قام باستبدال اسمه ليصبح عبد المسيح. وعلىٰ الرغم مما يشوب القصة من ابتذال وتكلف، فإن راتليف تبدو مأخوذة بفكرة العربي المسيحي الذي يرتقي إلىٰ أعلىٰ قمة في هرمية دير القديسة كاثرين. وأما المخطوط الذي يتضمن هذه المعلومة فأصله من جبل سيناء ويرجع تاريخه إلىٰ القرن التاسع أو القرن العاشر الميلادي. وبحسب ما يفيد به سيدني هـ. غريفشس، فإن عبد المسيح قد استشهد في سنوات الستينات من القرن التاسع الميلادي (راتليف ص١٧، م٣٢). وبما أن راتليف لا تمتلك الشجاعة لتقول ذلك صراحة، فإن ما تريد الوصول إليه واضح: إن عبد المسيح حسب زعمها كعربي ومسلم سابق، كان يمتلك المهارات اللغوية والمعرفة اللاهوتية

معاً مما مكنه من تزوير العهد النبوي الشهير. وعلىٰ الرغم من أن راتليف تستنكف عن التعبير عن ذلك بصفة شخصية، فهي تحاول أن تثبت وتعطي المصداقية لما لا يمكن إثباته أو تصديقه. ففي ما يتعلق بالعهد النبوي الحمائي تقول راتليف ما يلي: "ابتداء من القرن التاسع عشر [الميلادي] بدأ الباحثون في التشكيك في جوانب من الوثيقة" (ص١٧، م٩؛ انظر أيضاً موتون ص١٧٧). وأول من فعل ذلك بالطبع كان يوهان لودويغ بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧م) وهو المستشرق والرحالة السويسري الذي لخص أدلته علىٰ النحو التالي:

"إنه اعتقاد أثير لدىٰ رهبان جبل سيناء أن يكون محمد قد صعد شخصياً أثناء أحد أسفاره إلىٰ داخل أسوار الدَّيْر، وأنه-وهو منبهر برهبة وجلال جبل موسىٰ- قد قام بمنح فرمان [عهد] للدير الذي سيكون محل توقير واحترام لدىٰ كافة أتباعه. ويقال إن عليّاً [بن أبا طالب] هو الذي قام بكتابته. وأن محمداً (الذي كان لا يعرف الكتابة) صادق عليه بالبصم علىٰ الرق بكفه المغموسة في الحبر. ويقال إن هٰذا الفرمان بقي في الدَّيْر إلىٰ أن فتح سليم الأول مصر. وعندما سمع السلطان العثماني بتلك التحفة المباركة أرسل في طلبها لكي يضمها إلىٰ التحف النبوية الأخرىٰ الموجودة في الخزانة السلطانية بالقسطنطينية، وأعطىٰ للدير مقابل ذلك نسخة منقولة عن الأصل موقعة بطابعه السلطاني. وقد اطلعتُ علىٰ هذه النسخة المحفوظة بدير سيناء بمصر؛ غير أنني لا أظن أنها وثيقة صحيحة. فلا أحد من كتَّاب السيرة ومؤرخي [النبي] محمد الذين دونوا كل صغيرة وكل كبيرة من معاملاته اليومية في حياته، ذكروا أي شيء عن سفره إلىٰ سيناء، سواء في شبابه أو بعدما أصبح نبياً؛ وأن يكون قد منح المسيحيين أي امتياز هو شيء مناقض تماماً لمنطق التاريخ، مثل تلك الامتيازات المذكورة في الفرمان، وإحداها أنه يتعين علىٰ المسلمين مساعدة الرهبان النصارىٰ في إعادة بناء كنائسهم المهدمة؛ فهٰذا شيء مناقض تماماً لمنطق التاريخ. وتجدر الإشارة أيضاً إلىٰ أن هذه الوثيقة تنص علىٰ أنها كتبت بيد عليّ، لا في الدَّيْر بل في المسجد

النبوي بالمدينة [المنورة] في السنة الثانية للهجرة، ولا تتوجه لدير سيناء خصوصـًا بل تشمل جميع النصارىٰ وقساوستهم. وقد ذيلت الوثيقة بأسماء اثنين وعشرين شاهداً من صحابة النبي؛ وكتبت عليها ملحوظة تقول بصريح العبارة إن النسخة التي كتبها عليّ قد ضاعت وأن النسخة الحالية هي نسخة منقولة عن نسخة رابعة ضمن سلسلة النسخ المنقولة عن الأصل. ولذلك يبدو أن علاقة القساوسة بالوثيقة التي يحيلون عليها هي علاقة اختلاف وتعارض؛ وأنا أميل إلىٰ استنتاج أن تلك العلاقة كانت عبارة عن أسطورة وأن الوثيقة مزورة" (انظر الفصل ٧، ص ٥٤٦-٥٤٧).

إن بوركهارت المعروف أيضـًا تحت اسم جوهن لويس أو جان لووي الذي يكون قد اعتنق الإسلام إما عن قناعة أو خلاف ذلك، كان يرتدي الزي العربي وكان يُدعىٰ الشيخ ابراهيم بن عبد الله. فإذا كان اعتناقه للإسلام اعتناقـًا صحيحـًا، كما يعتقد ذلك بول لوند فإن كتابه سفر إلىٰ سوريا والأراضي المقدسة *Travel to Syria and the Holy Land* يمكن اعتباره بمثابة أول عمل نقدي لعهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء. علىٰ الرغم من كون أفراد عائلة بوركهارت ينفون الدعاوىٰ التي تقول إن بوركهارت (أو جوهن لويس) قد اعتنق الإسلام، فلقد تم دفنه بالفعل علىٰ الطريقة الإسلامية في القاهرة عن سن اثنتين وثلاثين عامـًا، وتحت اسم الشيخ إبراهيم. إنه من المرجح جدا أن يكون لويس قد ادعىٰ الإسلام -كما فعل آخرون- فقط من أجل تسهيل أسفاره عبر الديار المقدسة، بما في ذلك مدينة مكة المكرمة.

وبغض النظر عن قناعته الدينية، فقد أبدىٰ بوركهارت ملاحظات مهمة، فهو يشير إلىٰ أن "لا أحد من مؤرخي محمد الذين دونوا كل معاملاته اليومية تقريبـًا، نصَّ علىٰ أنه زار جبل سيناء سواء في شبابه أو بعدما أصبح نبيـًا" (الفصل ٧). يبدو أن المستشرق السويسري قد نسي أن حياة مُحَمَّد ﷺ قبل البعثة تكاد تكون مجهولة ولا يعرف عنها الشيء الكثير. فعند بلوغ رسول الله ﷺ سن الأربعين، يكون أغلب من رافقه في طفولته قد توفوا. فباستثناء النَّبيّ ﷺ نفسه ورهبان جبل سيناء، لا أحد بإمكانه أن يتقدم كشاهد علىٰ الأحداث المبكرة التي ميزت تلك الفترة. ومع ذلك،

فقد تكون قصة لقاء النَّبيّ ﷺ بالراهب بحيرا هي بمثابة رجع صدىٰ للقائه برهبان جبل سيناء. إن ادعاء بوركاهرت بأن "يكون النَّبيّ قد منح النصارىٰ امتيازات شبيهة بتلك الامتيازات المذكورة في 'الفرمان'، من بينها أنه أمر المسلمين بمساعدة النصارىٰ علىٰ إعادة بناء كنائسهم المهدومة" (الفصل السابع)، هو ادعاء باطل بالبديهة. وكما تبين ذلك الدراسة الحالية بصفة مستفيضة، فقد قام النَّبيّ ﷺ بإصدار وصايا وقرارات عديدة تنص علىٰ حماية أهل الكتاب، كما أنه وقَّع علىٰ الكثير من مذكرات التفاهم.

ويجادل المستشرق السويسري أيضـًا بان العهد النبوي "ينص في متنه علىٰ أنه كتب بيد عليّ [بن أبي طالب]، لا في الدَّيْر، بل في مسجد النَّبيّ بالمدينة في السنة الثانية للهجرة، وأنه لا يخص رهبان دير سيناء وحدهم بل هو موجه إلىٰ جميع المسيحيين وقساوستهم" (الفصل ٧). فلو كان بوركهارت مطلعـًا علىٰ رسائل ومواثيق النَّبيّ ﷺ لكان قد عرف أن الكثير من تصريحات الرسول ﷺ لا تخاطب المعنيين بتلك الوثائق مباشرة. فحينما كان يطرح سؤال علىٰ النَّبيّ ﷺ، فقد كان ﷺ يأتي بحكم مباشر لكنه بعيد المعنىٰ؛ أي أنه يأتي بحديث لا يزال فقهاء الشيعة يعملون بمقتضاه إلىٰ يومنا هٰذا؛ فالجواب من المفروض أن ينطبق علىٰ الجميع. إن المبادئ التي أرساها النَّبيّ ﷺ لا تنطبق علىٰ رهبان جبل سيناء فحسب، بل تهم جميع المسيحيين الموجودين عبر العالم. إن هذه المقاربة الكونية حاضرة في العهود الأخرىٰ التي أبرمها رسول الله ﷺ. فعلىٰ أساس الأدلة التي راكمها بوركهارت، استنتج هٰذا الأخير بأن علاقة القساوسة بمُحَمَّد ﷺ هي محض أسطورة، والعهد النبوي وثيقة مزورة (الفصل السابع).

فبدل أن يقوم المستشرقون من أمثال راتليف وموتون بفحص الأدلة التي أوردها من سبقوهم لتبيان مغزاها ومعناها، وتحديد مدىٰ صحتها، فقد قاموا بمجرد ابتلاعها دون تمحيص وعملوا علىٰ إشاعتها وإعادة توزيعها؛ بما في ذلك حالة الإثنين وعشرين شاهداً، إذ يقول موتون بصددها ما يلي: "إن قوائم الشهود الذين شهدوا علىٰ صحة الوثيقة تدعو إلىٰ الشك هي أيضـًا، ذلك لأن البعض منهم أمثال أبي هريرة وأبي الدرداء لم يكونوا قد أسلموا بعد في تلك الفترة، بل كانوا في صفوف من شارك في محاربة الإسلام" (ص١٧٧).

وبما أن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء مؤرخ بيوم ٠٣ من شهر محرم في السنة الثانية للهجرة، الموافق لـ ٠٧ يوليوز سنة ٦٢٣م (من التقويم الغريغوري)، وأن أبا هريرة (٦٠٣-٦٨١م) يقال إنه التحق بالنَّبيّ ﷺ في السنة السابعة للهجرة بالمدينة، (أي في سنة ٦٢٨/ ٦٢٩م) فإن هٰذا يجعل موتون يستنتج أن الميثاق مزور (ص ١٨٢، م٥). لكن ما لم يقله موتون هو أن أبا هريرة سبق له أن زار النَّبيّ ﷺ بمكة. ولذلك، وبصفته أحد المعارف، وحتىٰ قبل أن يصبح من صحابة رسول الله ﷺ كان الوارد جداً أن يزور أبو هريرة النَّبيّ ﷺ في مناسبات أُخَر.

أما بالنسبة لأبي الدرداء، فإن موتون يقول إنه لم يدخل الإسلام إلا عقب موقعة بدر، التي دارت رحاها يوم ١٣ مارس سنة ٦٢٤ م، وبما أن العهد النبوي كتب يوم ٠٧ يوليوز سنة ٦٢٣م، فإن موتون يستنتج من ذلك أن وثيقة العهد النبوي كانت مزورة. يبدو أن موتون يعطي الانطباع بان أبا الدرداء كان يقاتل في صفوف مشركي مكة ضد مسلمي المدينة. لكن غاب عنه أن أبا الدرداء لم يكن مكياً بل كان مدنياً. ولذلك فإن الادعاء بأن أبا الدرداء حارب الإسلام هو ادعاء مبني علىٰ مقدمة غير صحيحة. وبصفته أحد سكان المدينة، فإن أبا الدرداء كان شخصاً متزنا ولم يكن من النوع المتسرع في اتخاذ قراراته. وإذا كان محتملاً أن أبا الدرداء قد اعتنق الإسلام سنة ٦٢٤م، فإنه قد روي أيضاً أنه أسلم سنةً واحدةً بعد الهجرة (أي سنة ٦٢٣م)، وهي نفس السنة التي تم فيها إبرام المعاهدة مع رهبان جبل سيناء. وسواء دخل أبو الدرداء الإسلام في السنة الأولىٰ من الهجرة أو في السنة الثانية، فهٰذا لا يهم كثيراً ما دام يعيش في المدينة كتاجر وعضو محترم داخل جماعته، وتربطه علاقة ود بالنَّبيّ ﷺ. وكان مصادقاً للإسلام. وإذن كل هٰذا يمكن اعتباره مسوغاً كافياً لكي يُطلب منه أن يكون شاهداً علىٰ العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ جبل سيناء.

ومما يجدر التذكير به هو أن الأسانيد (أو سلسلة الروايات المتواترة التي تهم رواية الحديث النبوي بصفة خاصة)، لم تتخذ كتقليد معتمد للتأكد من صحة الحديث إلا بعد مضي ما يزيد عن قرن من الزمان علىٰ وفاة النَّبيّ ﷺ. في الوقت الذي كانت فيه الأحداث لا تزال طرية في أذهان الناس، وكان شهود تلك الأحداث

لا يزالون علىٰ قيد الحياة ورهن الإشارة، فإنه لم يكن من اللازم إيجاد الأسانيد لجميع الروايات. فهٰذا أمر فارق لا يلتفت إليه الكثير من المؤرخين والعلماء المسلمين. ولم يحس الفقهاء بضرورة إيجاد نظام يساعدهم علىٰ التأكد من صحة رواية الحديث إلا بعد وفاة الصحابة والتابعين. وهكذا شرعوا في ربط سلسلة الروايات بعضها ببعض في صلتها بأحاديث النَّبيّ ﷺ، وذهبوا إلىٰ حد تضمينها في النصوص التاريخية. وفي كثير من الحالات، تم جمع سلسلة الروايات هذه بعد مضي عدة قرون علىٰ وقوع الحدث. لكن هٰذا لا يعني بالضرورة أن الحديث أو الرواية مزورة أو مختلقة؛ إنما يعني ذلك أنه من المحتمل أن يرتكب العالم/ الفقيه [الراوي] خطأ غير مقصود في رواية الحديث وإرجاعه إلىٰ أصله. أضف إلىٰ هٰذا، وبما أن الكثير من الوثائق لا تزال محفوظة في أصلها (وتتعلق بالنَّبيّ ﷺ)، ثم لا تكون متضمنة لأسماء الشهود، فإنه من الممكن أن يكون الشهود المذكورون في بعض العهود والمواثيق قد أضيفت أسماؤهم بعد الحدث، وذلك من أجل استيفاء الشروط العلمية المطلوبة آنذاك ومن أجل إسكات المتشككين. إن ارتكاب خطإ في الرواية معناه ما يلي: فهو إما أن يكون خطأ في الرواية كان وراءه عدم الانتباه أو السهو أو النسيان أو عدم العلم بالخبر. وينبغي التذكير هنا بأن المسلمين هم الذين انفردوا باستعمال آلة الإسناد قصد إرجاع كل حديث إلىٰ أصله. أما في باقي أرجاء العالم، فإنهم يكتفون بالإحالة علىٰ مصدر واحد ووحيد؛ وهي كافية في تقاليدهم العلمية. ومن جهة أخرىٰ، فإن العلماء المسلمين يشترطون تاريخاً كاملاً من الإحالات المعتمدة علىٰ مصادر ومرجعيات موثوق بها؛ وهذه أسمىٰ درجة من درجات الضوابط العلمية. المفارقة هنا هي أن أعمال غير المسلمين التي لا تعتمد علىٰ سلسلة الأسانيد المتواترة لا تثير زوبعة من الانتقادات في العالم الإسلامي وتتهمها بأنها غير صحيحة، علىٰ اعتبار أن المنهجية الإسلامية في التثبت من صحة الوثائق لا مثيل لها حتىٰ بالمقاييس العصرية (انظر عزمي ص٧٥).

إن موريتز وهو يعتمد علىٰ استعمال لفظة "كذا" (sic) والتي تتخلل طريقة ترجمته للنص العربي للعهد النبوي، فهو يبدو أنه يوحي بأن تلك الهنات [اللغوية]

هي مدعاة للريبة والشكوك (ص ٦-٨). وبما أن القرآن الكريم كان أول كتاب تمت كتابته بالحروف العربية، فإن النحو والإملاء انتظرا قروناً من أجل تقعيدهما. ولذلك فإنه من المتوقع أن تجد ما يسمىٰ بـ'الأخطاء الإملائية' في المخطوطات العربية الأولىٰ. وفي غالب الأحيان، قد تكون تلك الأخطاء ناتجة عن اختلافات لهجية جهوية [أو لغات] علىٰ غرار ما كان سائداً في تلك الفترة التاريخية [علىٰ الساحة اللغوية]. وبشكل مماثل، يمكن إيراد حالة اللغة الإنجليزية في شكلها المكتوب، حيث كانت في فترة مبكرة تفتقر لقواعد الإملاء المعيارية. فمثلاً وقّع شكسبير وصيته الأخيرة بخط يده بطريقتين مختلفتين: 'Shakespere' و 'Shakespeare'. أما اسم السير والتر رالي (Walter Raleigh) فقد كتبه مجايلوه علىٰ النحو التالي: .Raleigh, Raliegh, Ralegh, Raghley, Rawley, Rawly, Rawlie, Rawleigh, Raulighe, Raughlie, Rayly.

فبينما يمكن أن تكون هناك اختلافات لهجية [أو لغات]، في المخطوطات المبكرة في العصر الإسلامي الأول، فمن المحتمل أن تكون تلك "الأخطاء" الملاحظة في فترة متأخرة ناتجةً عن زلات قلم النساخ. فمن حيث الإملاء والأسلوب والاستعمال اللغوي 'السليم'، يتضمن العهد النبوي كثيراً من الاستعمالات اللغوية المتقادمة.

وفي ما حسبه جان ميشال موتون بمثابة الضربة القاضية الموجهة للعهد النبوي، يشير هٰذا الكاتب إلىٰ أن الميثاق "مؤرخ بيوم ٠٣ محرم من السنة الثانية للهجرة، في وقت كان التقويم الهجري لا يزال لم يُعتمد بعد، حيث لم يتم اعتماده إلا بحلول سنة ٦٣٧م من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، الذي سنّه بأثر رجعي وجعل بدايته سنة ٦٢٢م" (انظر ص١٧٧). غير أن ما تعمّد موتون تجاهله هو أن من اقترح التقويم الهجري علىٰ عمر بن الخطاب (٥٧٩-٦٤٤م) كان هو الإمام عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م). وبما أن الإمام عليّاً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) هو من كان وراء فكرة التقويم الهجري، فمن السهل أن نتصور أن [عليّاً] كان يستعمل هٰذا التقويم [فيما مضىٰ] وقبل تلك الفترة بوقت طويل. أضف إلىٰ هٰذا أنه كان هو

من قام بتحرير وثيقة العهد النبوي [بإملاء من النَّبيّ ﷺ]. كما أنه من المعقول التأكيد علىٰ أن يقوم الإمام عليّ بتأريخه بالتاريخ الهجري. ومن جهة أخرىٰ تؤكد المراجع الفقهية الشيعية علىٰ نطاق واسع علىٰ أن الإمام عليّا (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) والأئمة الشيعة الأحد عشر الذين جاؤوا من بعده، كانوا هم ورثة علم النَّبيّ ﷺ وفقهه. بعبارة أخرىٰ، كل ما كان بحوزة الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) من علم فقد استمده مباشرة من رسول الله ﷺ، بما في ذلك التقويم الإسلامي الهجري.

إذا أقررنا بأن عمر بن الخطاب قد يكون هو أول من سن استعمال التقويم الهجري الإسلامي بصفة رسمية، في الوقت الذي كانت تستعمل فيه عدة تقويمات مختلفة آنذاك، فإن ذلك لا يمنع إمكانية أن يكون التقويم الهجري مستعملاً قبل ذلك التاريخ. فمن المعروف جداً أن تَعتمد مجموعات سكانية علىٰ مستوىٰ الكرة الأرضية إجراءات مدنية عملية بصفة غير رسمية قبل أن تصبح جزءاً من الترسانة القانونية بوقت طويل. فقد كانت هناك عدة أنظمة تقويم متضاربة مستعملة في أيام النَّبيّ ﷺ، أي في الفترة التي كُتب فيها العهد النبوي. ولذلك اعتمد الخليفة عمر بن الخطاب التقويم الإسلامي وفرضه بصفة رسمية نظراً لبساطته وطابعه 'التوحيدي'. وكما يعترف موتون بذلك، كانت التواريخ تُضبط بكيفية رجعية، وبالتالي فإن كانت هناك وثيقة مؤرخة حسب تقويم لم يعد مستعملاً، فإنها تُستنسخ وتُؤرخ بالتقويم الجديد. لكن هٰذا الخط الاستدلالي يتوقف علىٰ فرضية أن الإمام عليّاً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) هو الذي تصور التقويم الإسلامي وأقنع الخليفة عمر بن الخطاب باستعماله علىٰ نطاق شامل.

إن ما يتجاهله موتون بكيفية تريحه وتناسب أهواءه هو أن بعض الفقهاء المسلمين يعتقدون أن التقويم الهجري كان قد سنه النَّبيّ ﷺ نفسه. فكما يشرح ذلك قاسم سولوم، إن التقويم الهجري تم اعتماده في السنة الثانية للهجرة. وبدون وجود تقويم إسلامي عملي فعال، يتعذر تحديد شهر الصيام ويوم عيد الأضحىٰ، ونتيجة لذلك "كان ينبغي اعتبار التقويم الجديد كجزء من الممارسات التقويمية في عهد النبي" ورغم أن عمر بن الخطاب أحدث تغييرات طفيفة علىٰ تقويمه الرسمي المعتمد، فإنها كانت كلها تغييرات مبنية علىٰ "التقويم الإسلامي الأصلي" والذي كان

النَّبيّ ﷺ يستعمله ابتداء من السنة الثانية للهجرة.

أما فيما يتعلق بوجود اختلافات في تواريخ الوثائق الإسلامية فيمكن تفسير ذلك بسهولة. إن أول شيء يمكن ملاحظته هو أن الوثائق قلَّما كانت تؤرخ، وكانت لا تؤرخ إطلاقاً في الأزمنة الغابرة. يقول ليمنس: "إن العرب لم تكن تعرف الحساب علىٰ مدىٰ حقب طويلة" (ص١٩٥). وكان أجيال من الناسخين الذين أتوا فيما بعد هم الذين حاولوا تأريخ الوثائق من أجل ترتيب تسلسل الأحداث. واستناداً إلىٰ ابن قتيبة (٨٢٨-٨٨٥م) فإن حذيفة بن اليمان (المتوفىٰ سنة ٦٥٦م) -وهو صحابي معروف- قد اعترف بما يلي: "إننا عرب، فعندما نروي شيئاً ما فإما نزيد أو ننقص من تاريخه، إننا نزيد وننقص كما نريد، لكن دون أن نقصد من ذلك الكذب". (نقله عن باركلي ص٥٨). ونتيجة لاعتماد هٰذا التأريخ بأثر رجعي، فإن بعض الأحداث التاريخية والوثائق يمكن تأريخها خطأً بعدة سنوات. وقد تم تناول قضايا التأريخ في العهد الإسلامي الأول من قبل عدة باحثين ومنهم ف. إ. بيترس F.E. Peters (المولود سنة ١٩٢٧)، والذي يشرح المسألة علىٰ النحو التالي: "كانت السلطات الإسلامية في عهد لاحق تميل إلىٰ لف حياة النَّبيّ ﷺ بمكة برداء من الغموض الضمني فيما يخص التأريخ وترتيب الأحداث في تلك الفترة. وكانوا يحسون كما نحس نحن كذلك، أن الأرضية التاريخية لم تكتسب صلابتها إلا عند هجرة النَّبيّ مُحَمَّد للمدينة" (ص١٠٣).

وكما يقر بذلك هاشم أمير علي (١٩٠٣-١٩٨٧م): "لقد لف رداء من الفوضىٰ التأريخية تلك السنوات العشر [الأولىٰ] من رسالة محمد بالمدينة كما لم يشهده أي عقد من تاريخ البشرية، سواء أكان ذلك قبل هذه الفترة أو بعدها" (ذكره بيترس ص٢٥٣). إن التقويم الذي يعتمد علىٰ حركة الشمس والقمر، والذي كان معمولاً به في السنوات الأولىٰ من ظهور رسالة الإسلام، كان يعتمد مبدأ الإقحام، أي إقحام (أو إدراج) شهر زائد بين الشهور intercalary month. ولا ندري بالضبط متىٰ حذف النَّبيّ هٰذا الشهر الذي تم إقحامه (لامرس ٢٠٤). وحينما شرع الخليفة عمر بن الخطاب (٥٧٩-٦٤٤م) في اعتماد التقويم القمري الصرف، فقد أزاح إلىٰ حد ما

نظام التأريخ القديم الذي كان يتضمن نظام الإقحام ... الذي وجد طريقه بطبيعة الحال إلىٰ تواريخ العديد من مؤرخي تلك المرحلة" (بيترس ص٣٠٩، م١١). وعلىٰ الرغم من كون التقويم الإسلامي يبدأ بهجرة النَّبيّ ﷺ من مكة إلىٰ المدينة -وهو حدث وقع في شهر شتنبر من سنة ٦٢٢م، فإن "بداية التحقيب الأولي قد تم إرجاعه إلىٰ الوراء ليبتدئ مع بداية أول يوم من أول شهر من تلك السنة، أي يوم فاتح محرم (أو ما يوافق ١٦ يوليوز ٦٢٢ ميلادية)" (بيترس ص٢٥٢-٢٥٣). بينما أحدث هٰذا الإجراء ترتيباً ودرجة من الهوية الذاتية في شؤون الأمة الإسلامية الناشئة، "فإن ما ترتب عنه من نتائج سلبية جانبية لم تكن في الحسبان، تمثل ذلك في درجة من الفوضىٰ همت تذكّر المسلمين لتواريخ لأحداث في فترة التقويم المعتمد علىٰ إقحام الشهر الزائد في المدينة" (بيترس ص٢٥٣). وتم تصحيح عدة تواريخ لكي توافق تواريخ فلكية بشائرية، أو أياما مقدسة. كما تم إحداث طرائق تساعد علىٰ تذكر الأحداث من أجل إرساء نمط سردي مقبول (فايزر XV). وحتىٰ أعمار بعض الشخصيات تم تغييرها لأسباب رمزية وإيديولوجية وتماثلية symmetrical متعددة، بما في ذلك سنة ميلاد مُحَمَّد ﷺ وعُمُر [زوجته خديجة] عند زواجها، وتاريخ ميلاد فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وبما أن التخمينات كثرت، فقد تم ارتكاب أخطاء غير متعمدة. يقول الأمير ليوني كايتاني (١٨٦٩-١٩٣٥م) إن هناك خطأً في تحقيب حياة النَّبيّ مُحَمَّد قد يصل إلىٰ ثلاث سنوات (انظر لامينس ص١٨٨). وبالنسبة لهٰذا الأخير [هنري لامينس]، وهو الذي نظر إلىٰ القرآن نظرة "ازدراء تعبدي" (pious contempt)، والمعروف عنه أنه كان يعتمد مصادر مغرضة من أجل دعم ادعاءاته، فإنه من الممكن أن تكون أضيفت عشر سنوات كاملة إلىٰ حياة مُحَمَّد ﷺ (ص١٩٧). فاستناداً إلىٰ أحد النقوش الحجرية، "فإن أبرهة [الحبشي] قد قاد إغارات كبرىٰ علىٰ القبائل العربية التي كانت تتحداه والموجودة بجوار مكة سنة ٥٥٢ م" (انظر شولز). ونتيجة لذلك، "يعتبر بعض المؤرخين الغربيين هذه السنة [أي سنة ٥٥٢م] هي سنة ميلاد [النبي] محمد الحقيقية". وبالنسبة للعهد النبوي لرهبان جبل سيناء أبدىٰ دافنبورت الملاحظة المهمة الآتية: "إن كان من العادة آنذاك ألا يتم تأريخ الوثائق، فإنه من المحتمل جداً ألا تحمل المعاهدة الأصلية أي تاريخ، وأن التاريخ المثبت في النَّصّ قد تم إقحامه

في وقت لاحق من قبل الناسخ" (ص١٥١). ومن المحتمل أيضـاً أن دير جبل سيناء كانت بحوزته أكثر من نسخة من المعاهدة الأصلية، كما أنه كان معهوداً لدىٰ النَّبيّ ﷺ وخلفائه من بعده أن يعمدوا إلىٰ تجديد مثل تلك العهود والمواثيق مرة كل سنة تقريبـاً. لكن من المحتمل جداً أن يكون قد تمت إضافة التواريخ واسم الناسخ وأسماء الشهود في وقت لاحق، حينما تبين أن تلك المعلومات أصبحت ضرورية من لدن العلماء والفقهاء المتخصصين في رواية الحديث. وبالنسبة لـجوزي بلانيا، فإن الوثائق التي شهد عليها معاوية [بن أبي سفيان] (٦٠٢-٦٨٠م) في السنة الرابعة للهجرة هي وثائق معيبة؛ أما المخطوطات المنسوبة لعليّ بن أبي طالب والمكتوبة في السنة الثانية للهجرة فقد وصفت بكونها "معقولة وممكنة الحدوث" (ص ٦٦-٦٧). لكن إيراد أسماء الشهود بصفة خاصة تكتنفه الشكوك؛ إذ كانوا يذكرون أبا بكر أولاً وعمر ثانيـاً وعثمان ثالثـاً وعليّـاً رابعـاً ومعاوية خامسـاً (أي أنهم كانوا يلتزمون بالترتيب السني المعروف عند أهل السنة. وبالرغم من عدم إدراك جل أهل السنة لهٰذا الأمر، فإن عليّـاً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) لم تتم إضافة اسمه إلىٰ لائحة الخلفاء الراشدين إلا في زمن الإمام أحمد بن حنبل(٧٨٠-٨٥٥م)، أي بعد مضي قرنين علىٰ خلافته. فلم يكن عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) مستثنىٰ من صفة الخليفة فحسب، من قبل الامويين، الذين استعملوا مصطلح 'أهل السنة والجماعة'، لمعاكسة مصطلح 'آل بيت الرسول ﷺ'، بل كان عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) يُسب علىٰ المنابر في مختلف مناطق الإمبراطورية الأموية. وإذا كان هناك ما يسترعي الانتباه، فإن ترتيب أسماء الشهود علىٰ الطريقة المذكورة أعلاه توحي بأن القائمة قد أضيفت في وقت لاحق، وعلىٰ الأرجح إلىٰ حين ولاية عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠م) الخليفة الأموي الذي أمر بالكف عن العادة المستحكمة في عموم الأمويين بسب الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) عند ختام خطبة الجمعة. فـ'عمر الثاني' كما كان يلقب، كان أول من أمر بصفة رسمية بجمع الحديث النبوي الذي خاف عليه من الضياع إلىٰ الأبد. ومن البديهي أن تكون لائحة الشهود قد أضيفت في وقت لاحق. ولكن لا يمكن أن نتصور أنها أضيفت قبل هذه الفترة بأي حال من الأحوال.

ومن أجل حشد الدعم لموقفه المعارض وتأييد تهمه بان زيارة النَّبيّ ﷺ

لجبل سيناء هي أسطورة مختلقة، وأن الفرمان المنسوب للنبي ﷺ هو مجرد تزوير، يؤكد جان ميشال موتون أن الوثيقة المحفوظة بكنيسة القديسة كاثرين لا تشتمل علىٰ أي شيء أصيل فعلاً، وأنها وثيقة تنتمي لمجموعة وثائق مماثلة محفوظة في عدة مؤسسات بالشرق الأدنىٰ منذ القرون الوسطىٰ (ص١٧٧). بالنسبة لموتون، كل تلك الوثائق لها مصدر واحد: أي ما يعرف برسالة مُحَمَّد ﷺ الموجهة إلىٰ المسيحيين والتي تم اكتشافها سنة ٨٧٨م بأحد الأديرة العراقية (ص١٧٧). وبحكم جازم يدعي موتون بأن "هذه الرسالة الأصلية هي أيضـًا مزورة اختُلقت من دون شك بأمر من العائلة الوزيرية لبني مخلد، التي كانت من أصل نسطوري. وقد زوروا هذه الوثائق من أجل حماية جماعتهم (ص١٧٧).

وإذ تُكرر الوثيقة المحفوظة بكنيسة القديسة كاثرين نفس النقاط الواردة في العهد النبوي لرهبان جبل سيناء في الميثاق النبوي لنصارىٰ نجران، والذي تم العثور عليه بالعراق، فإنه لا يصح القول أنه "لم يبذل الرهبان علىٰ ما يبدو أي جهد توفيقي في تزويرهم للعهد الموجود بكنيسة القديسة كاثرين" (١٧٧). يبدو موتون كعادته وكأنه يسبح في عالم من الافتراضات غير المؤسسة علىٰ أي دليل، بل علىٰ مجرد تخمينات. إنه لم يقدم قلامة ظفر من الحجج علىٰ أن رهبان جبل سيناء قاموا بتزوير العهد النبوي، بناء علىٰ وثيقة عهد آخر مزور [هو الآخر] عثر عليه بالعراق. وإذ تبدو معظم النقاط الواردة في الوثيقتين متشابهة –وهٰذا شيء مفهوم إذا كانتا مكتوبتين من قبل شخص واحد– فهما ليستا متماثلتين تمامـًا من حيث المحتوىٰ. فبعد مقارنتي للوثيقتين مقارنة دقيقة، أستطيع أن أؤكد أنهما لم تخضعا البتة لعملية استنساخ بكيفية حرفية. فبالرغم من تحرير الوثيقتين في لغة عربية كلاسيكية فصيحة تنتمي لذلك العصر، هناك فرق في الأسلوب يميزهما. فوثيقة سيناء تتميز بأسلوبها المباشر، بينما تتميز الوثيقة 'العراقية' بكونها أكثر تدبيجـًا، علىٰ الأقل فيما يتصل بمقدمتها المطولة قبل تناولها لقائمة الامتيازات الممنوحة للرهبان. أضف إلىٰ هٰذا أنه ليس هناك أدنىٰ دليل يثبت أن بني مخلد كان معروفـًا عنهم أنهم كانوا يزوّرون عهود النَّبيّ ﷺ ومواثيقه من أجل حماية طائفتهم المسيحية. من المؤكد أنه كان لدىٰ الخلفاء العباسيين كتّاب

دواوين مثل سعيد بن مخلد (المتوفىٰ سنة ٨٨٩م)، والذين كانوا في البداية مسيحيين نسطوريين ثم أسلموا وأصبحوا وزراء فيما بعد. وقع هٰذا تحديداً في فترة ولاية العهد [للأمير] الموفق علىٰ أخيه المعتمد [إلىٰ حين بلوغ هٰذا الأخير سن الرشد] في الفترة ما بين ٨٧٨م و٨٨٥م. لكن ليس هناك ما يثبت أن بني مخلد أمروا أي أحد بانتحال أحاديث ونسبها إلىٰ النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، مع العلم أن مسار وظيفة سعيد بن مخلف توقف فجأة نتيجة محاولة أخيه النصراني الحصول علىٰ معاملة خاصة لصالح الطائفة النصرانية التي كانت تعيش في كنف الدولة العباسية. وكان هناك وزير آخر ذائع الصيت هو الحسن بن مخلد الجراح (المتوفىٰ سنة ٨٨٢م)، وكان رجل دولة في البلاط العباسي واشتغل كاتباً تحت خلافة المتوكل (ح ٨٤٧-٨٦١)، ثم أصبح وزيراً تحت حكم المعتمد (ح ٨٧٧ ثم ٨٧٨-٨٧٩). وهناك مسيحي نسطوري آخر اعتنق الإسلام في آخر حياته وهو الحسن بن مخلد، الذي طرد من قبل الموفق أخي الخليفة، وتم نفيه إلىٰ مصر ثم إلىٰ أنطاكيا . ولهٰذا فمن المستبعد جداً أن يتم تزوير وثيقة نبوية لم يسمع بها أحد إلىٰ حدود تلك الفترة، ثم لا يثير ذلك انتباه أي أحد، وأن لا يتم معاقبة من أقدم علىٰ مثل ذلك العمل. إن تدوين مثل هذه الفضيحة كان لا محالة سيصلنا في حالة حدوثها، ذلك أن أدبيات رواية الحديث تشتمل علىٰ الأمثلة علىٰ تزوير الأحاديث النبوية. وأخيراً فعلىٰ الرغم من توظيف العباسيين للكثير من غير المسلمين في دواوينهم، فإنهم كانوا حريصين "علىٰ ألاّ يعطوا لأهل الكتاب نفوذاً كبيراً في البلاط وفي الإمبراطورية"" (كرابيل ص ٤٦).

في الوقت الذي انصب فيه اهتمام الباحثين علىٰ صحة وثيقة عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، لم يول أي اهتمام بالمقابل للقصة التي اكتنفتها، لا سيما فيما يتعلق في ذلك بقصة حضور طائر العُقاب. فبحسب جميع الروايات المختلفة، التي تروي قصة حج النَّبيّ ﷺ إلىٰ جبل سيناء، فإن طائر عقاب بشائري ظهر وبدأ يحوم حول من سيكون نبي الله مستقبلاً ناشراً ذراعيه فوق رأسه. إن العقاب في الكثير من التقاليد والثقافات يعتبر بالطبع حامل رسالة [رمزية] من الخالق. ففي السياق اليهودي يرمز العقاب إلىٰ القدرة الإلـٰهية علىٰ التحرير من نير العبودية وعلىٰ

الرعاية والحماية الإلٰهية. وفي السياق المسيحي ينظر إلىٰ العقاب كأحد المخلوقات الأربعة المحيطة بعرش الحمل في سفر الرؤيا، وكرمز للقديس يوحنا الإنجيلي؛ بينما في السياق الإسلامي تظل صورة العقاب مرتبطة بالملك جبريل. وكون طائر العُقاب قد حام حول النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، فإن ذلك يرمز إلىٰ أن رعاية الله كانت تحميه. وبما أن القديس يوحنا الإنجيلي يُرمز إليه بصورة العقاب، فهو يبشر بمجيئ النَّبيّ البشير المخلص The comforter and Paraclete (١٤:١٦؛ ١٥:٢٦؛ ١٦:٧)، ومن شأن العقاب أن يكون بشارة بمجيء مُحَمَّد ﷺ كرسول طال انتظاره. وكرمز لجبريل، يعتبر العقاب تجسيداً لملَك الوحي. إن البراق كحيوان مبارك ركبه النَّبيّ ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج قد وُصف بأن له جناحي عقاب عملاق. ففي الوقت الذي يعتبر فيه العقاب رمزاً ذا أهمية كبرىٰ في الإسلام، فإنه من الغريب أن نجد أن الراية المحمدية السوداء كانت معروفة ’براية العُقاب‘ بالرغم من كونها سوداء كلها. والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: ألا يكون من شأن الراية المحمدية أن تحيل علىٰ بشارته بالنبوة وهو في جبل سيناء؟ إن الله ورسوله وحدهما أعلم بهٰذا.

وكما تمت الإشارة إلىٰ ذلك سابقـاً، فإن رمز العقاب لا يتم ذكره إلا نادراً في المصادر السنية؛ فهو لا يظهر في أية رواية من الروايات المتعلقة باتصال مُحَمَّد ﷺ بالنصارىٰ. ففي قصة بحيرا كانت الغمامة (وليس العقاب) هي التي كانت تتبع محمداً ﷺ فوق رأسه وتظـلله. ولذلك فإن قصة العقاب تبدو مرتبطة فقط بمُحَمَّد ﷺ في اتصاله برهبان جبل سيناء. لكن المصادر الشيعية تحتوي علىٰ أصداء ذلك الحدث. ففي كتاب ***حياة القلوب*** للمجلسي، مثلاً، نجد أن محمداً ﷺ كانت له اتصالات كثيرة بالرهبان النصارىٰ منذ طفولته إلىٰ مرحلة البلوغ. فكطفل صغير، سبق لعبد المطلب جد النَّبيّ ﷺ أن أخذ [حفيده] محمداً ﷺ إلىٰ دير جحفة حيث عالجه طبيب نصراني رأىٰ فيه النبيَّ المنتظر (انظر الجزء الرابع). وعندما كان النَّبيّ ﷺ في حضانة مرضعته حليمة السعدية تم التعرف عليه أيضـاً من قبل أربعين راهبـاً علىٰ أنه هو النَّبيّ المنتظر (انظر الفصل الرابع).وفي مناسبة أخرىٰ حينما كان الرسول ﷺ لا يزال طفلاً صغيراً، تقول الرواية إن طائراً أبيض حمله إلىٰ مكان أكل فيه فاكهة وشرب ماء من جدول

هناك؛ وذلك الطائر وصفه محمد ﷺ بأنه الملك جبريل (انظر الجزء الرابع). ولهٰذا فإن المصادر الشيعية علىٰ الأقل تتحدث عن لقاءات مُحَمَّد ﷺ بالرهبان في طفولته المبكرة، كما تتحدث عن الحضور الرباني للطائر السماوي. وإذ يرفض الكثيرون جزءاً كبيراً من هذه الروايات التي أوردها مجلسي، ويعتبرونها تطورات أسطورية نشأت فيما بعد، فإن هناك قصصاً شبيهة بها موجودة في المصادر المسيحية المبكرة.

من أقدم كتب السيرة التي لا تزال موجودة وكتبها كاتب مسيحي نجد كتاب حياة محمد *Istoria de Mahomet* وهو عبارة عن كتاب متحامل بذيء حرر باللاتينية يعود تاريخه إلىٰ حوالي سنة ٨٥٠م تقريباً. وبينما يتميز الكتاب بالقذف والتشويه ويتسم بنية الإساءة والدعاية المغرضة، فإن كاتبها المجهول الهوية يبدو أنه "علىٰ درجة عالية من المعرفة بالإسلام". (انظر جيرفيرس ص٩٥). فهو يروي مثلاً أن الشيطان أرسل إلىٰ مُحَمَّد ﷺ عقاباً بوجه مذهَّب، وأقنعه بأنه هو الملك جبريل (تولان ص٤٢، كريستيس ص٦٢، كونستابل ص ٤٨-٤٩، جيرفيرس ٩٧-٩٩). وبما أن المؤلف قام بتشويه متعمد لتفاصيل حياة النَّبيّ ﷺ جاعلاً من العقاب نسراً ومن الملك جبريل شيطاناً، فإن الأمر لم يقف لديه عند هٰذا الحد من الغرائبية. السؤال الحقيقي هو من أين استقىٰ هٰذا الكاتب اللاتيني معلوماته؟ إن قصة مُحَمَّد ﷺ في علاقتها بسيناء لا أثر لها في [أي] من المصادر العربية الإسلامية المتاحة. وما لم يكن المؤلف قد اطلع علىٰ المصادر الإسلامية التي تكون قد اندثرت وطواها الزمان، فإنه لا بد أن يكون قد استقىٰ معلوماته من المصادر المسيحية.

إن كتاب *Tultuscreptru del Libro Metoibii* لصاحبه يولوجيوس القرطبي يشير أيضاً إلىٰ مُحَمَّد ﷺ وإلىٰ مخلوق شبيه بالطير. وفي هذه القصة الغريبة فإن رجلاً يحمل اسم أوزيوس Osius رأىٰ رؤيا جمعته بملكٍ أَمَرَهُ أن يذهب لنشر الحقيقة وسط عبدة الأوثان سكان Erribon (أو يثرب) في الجزيرة العربية (جيرفيرس ص٩٤). وبما أنه أحس بأن صحته المريضة لا تسمح له بالقيام بواجبه، فقد أرسل أحد رهبانه وهو أوزيم Ozim مكانه. وفي طريقه إلىٰ المكان الذي أرسل إليه التقىٰ الولد بملَك شرير أي بملك لعين أو شيطان واقف فوق شجرة سنديان (ص ٩٤-

٩٥). وادعىٰ الملَك الشرير أنه نفس الملك الذي ظهر لسيده. فطلب منه أوزيوس أن يغير اسمه لكي يصبح بدله اسم 'محمد'، وأمره أن يقوم بنشر عبارة يمكن ترجمتها بشكل تعسفي بما يشبه "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله محمد رسول الله" (ص ٩٥). وبرأي المؤلف فإن الولد الغر أوزيم/ محمد لم يكن يعلم بترديده لتلك العبارة أنه كان يستحضر الشياطين (٩٥). ونتيجة لتدخل الملَك الشرير، قام محمد بتحريف الرسالة الصحيحة الحقيقية لأوزيوس وأضل العرب الذين كان ينوي إنقاذهم من الضلال. (٩٤-٩٥).

وبما أن كلتا هاتين الوثيقتين اللاتينـيتين اللتين تناولتا حياة مُحَمَّد ﷺ في مرحلتها المبكرة، تتحدثان عن مخلوقات طائرة وعن رهبان، فإنه يبدو أنهما تستمدان معلوماتهما من الروايات المبكرة عن لقاء النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ برهبان جبل سيناء. وهٰذا من شأنه أن يثبت بأن الأحداث الإعجازية التي أحاطت بحج مُحَمَّد ﷺ إلىٰ جبل سيناء كانت متداولة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم تكن مختلقة بعفوية في العصر الفاطمي قبل بضعة قرون من قبل النصارىٰ بغاية طلب الحماية والحفاظ علىٰ النفس. ومهما بلغت سفالة وانحطاط تلك الروايات المبكرة، فإنها تشترك في عناصر أساسية مع الروايات التي تناقلتها أجيال رهبان جبل سيناء. وبهذه الصفة فهي تصلح لأن تؤيد رواية الأحداث في طبيعتها المتوارثة الصحيحة. وحينما يدّعي باحثون أمثال أرثير جيفري (١٨٩٢-١٩٥٩) بأن التطور الأسطوري للأحداث مثل ذلك الموجود في مصادر مثل كتاب ***حياة القلوب*** مصدره ذو طبيعة مسيحية (٣٥٢)، فإنهم يفعلون ذلك في محاولة منهم لدحض الرواية الإسلامية النابعة من التراث الإسلامي. لكن في الحالة التي تتعلق بلقاء مُحَمَّد ﷺ بالرهبان المسيحيين، فإن مثل هذه الحجة يمكن اتخاذها دليلاً لإثباتها. وإذا كانت أسطورة سرجيوس بحيرا قد اختُلقت في القرن التاسع الميلادي، من أجل محاربة الإسلام، فهي تشير إلىٰ وحي نزل علىٰ بحيرا فوق جبل سيناء. وهٰذا أمر غاية في الغرابة لأنه لا توجد رواية إسلامية تربط بحيرا بجبل سيناء. وبغض النظر من كون الأسطورة العربية والآرامية قد تكون عبارة عن مجموعة من الأكاذيب اختلقها بعض المسيحيين، فهي تستند في جزء منها

إلىٰ عناصر موجودة في الروايات الإسلامية للحدث. وأما لماذا لم يُذكر جبل سيناء في الرواية الإسلامية المتعلقة بالراهب الغامض بحيرا، فإن ذلك يترك المرء حائراً فيما إذا كان المسيحيون الذين اختلقوا أسطورة الراهب سيرجيوس بحيرا علىٰ اطلاع علىٰ تردد مُحَمَّد ﷺ المتكرر علىٰ دير القديسة كاثرين. في الوقت الذي نجد فيه أن نيتهم المبيتة كانت سجالية، فإن المسيحيين الذين اختلقوا الأسطورة يمكن أن يكونوا قد ساعدوا دون قصد منهم علىٰ المحافظة علىٰ دليل من نوع ما علىٰ وجود علاقة بين مُحَمَّد ﷺ ودير القديسة كاثرين.

وإذا ما عدنا إلىٰ العصر الحاضر، فإنه يجب إعادة النظر في الفكرة القائلة إن الأتراك العثمانيين قد نفوا صحة العهد النبوي الذي كتبه مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء. فإذا سلمنا بأن عدداً من الأتراك رفضوا الاعتراف بالعهود والمواثيق النبوية، فإنه لم يكن ذلك بالضرورة بسبب أنها لم تكن عهوداً صحيحة. لكن قد يكمن السبب في أنها كانت تمنعهم من استخلاص ضرائب الجزية من المسيحيين، كما تمنعهم من فرض الإسلام عليهم، ومن قتلهم. وهذه دوافع سياسية اجتماعية واقتصادية ولا علاقة لها بالدين. وأما أن يكون بعض الأتراك ضد المواثيق النبوية فذلك لا يمكن بالضرورة أن يقام دليلاً علىٰ أن تلك المواثيق كانت مختلقة، لأن عدداً أكبر من هٰؤلاء يؤيدون صحتها. بالنسبة للأب غولوبوفيتش Golubovich، إن أولئك الإداريين الأتراك كانوا "متواطئين" مع المسيحيين الاورثدوكس (انظر المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية، ص ٦٣٧). لكن ما الذي يدعو بعض المسلمين لاختلاق شيء ونسبه للنبي ﷺ؟ ما الذي سيكسبونه بإقدامهم علىٰ مثل هٰذا الفعل؟ لماذا سيتجرأ دبلوماسي عثماني ما علىٰ الله تعالىٰ ويستوجب غضبه وغضب الرسول والأئمة والسلاطين والوزراء والعلماء والجيش الانكشاري؟

إذا كان العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء يعود تاريخه للقرن السادس عشر الميلادي، فلماذا توجد إشارات إليه في القرن الخامس عشر؟ ففي اتفاقية أبرمت بين 'أخوية' بيت القديس يوحنا Order of Saint John وسلطان مصر سنة ١٤٠٣م، فهي تحيل علىٰ "إشارة إلىٰ [...] الحجاج إلىٰ كنيسة القديسة

كاثرين بجبل سيناء، وإلىٰ ترخيص تم منحه للدير من أجل ترميم بناية الكنيسة وإقامة بنايات جديدة" (انظر لابورد ص ٣٣٢-٣٣٣). وهٰذا القرار ينسجم مع الأمر النبوي القاضي بحماية وبناء وترميم الكنائس والأديرة المسيحية. وقد أشار الماركيز دولابورد سيمون جوزيف ليون إيمانويل (١٨٠٧-١٨٦٩م)، عالم الآثار والسياسي الفرنسي، إلىٰ أن هذه الاتفاقية قد أبرمت خلال الحروب الصليبية. وكما يعترف بذلك لابورد: "إنه لأمر مدهش ملاحظة ذلك التسامح الذي قابل به 'المسلمون' أولئك المسيحيين الذين عبروا بلادهم" (ص٣٣٣). وعلىٰ الرغم من امتداد الحرب [الصليبية] إلىٰ قرنين كاملين بين المسلمين والمسيحيين، فإن الأماكن المقدسة -وهنا أقصد بالأماكن المقدسة جميع البقاع المقدسة بدون استثناء سواء منها اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية- كان المستأمنون عليها المسلمون يستقبلون فيها الحجيج المسيحيين الوافدين إليها من مختلف مناطق العالم الغربي. وحتىٰ في الظروف التي كان الصليبيون يقيمون فيها حصاراً علىٰ الأماكن المقدسة، كان المسلمون مطالبين بحمايتها وحماية الحجاج الوافدين القادمين إليها؛ وهم بفعلهم ذلك كانوا يمتثلون لأوامر عليا- علىٰ الرغم من أن هٰذا المثال في التسامح لم يكن له أي مسوغ من الناحية العسكرية، لأن الكثير من أولئك الحجاج المسيحيين كانوا فرساناً مقاتلين.

لا يكفي أن يكون ميثاق ما قد تم نقله في سنة ١٦٣٠م أو في سنة ١٥٦١، أو في سنة ١٥٣٨م أو في أي سنة أخرىٰ من القرن العاشر مثلاً لكي نقول إنه قد أُبرم في ذلك التاريخ. وإنه من باب اللامعقول القول إن العهود كلها كانت مزيفة. فإذا كانت العهود النبوية برمتها مختلقة أو مزورة في القرن التاسع الميلادي مثلاً علىٰ يد قساوسة ورهبان مسيحيين، فلماذا التزم المسلمون ببنودها وأوامرها ابتداء من الأيام الأولىٰ من الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي؟ فإذا نظرنا إلىٰ القوانين التي طبقها الخلفاء الأوائل (انظر فورتسكيو ص٢٢٦) فهي صورة طبق الأصل للقوانين الموجودة في المواثيق النبوية. وهٰذا يدل علىٰ أن العهود والمواثيق [النبوية] كانت معروفة ومطبقة منذ الفترة الأولىٰ من الحكم الإسلامي. وعليه، فإنه لا يهم في شيء أن تكون نسخ العهود الأولىٰ المعروفة لتلك المواثيق يعود تاريخها إلىٰ القرن التاسع

أو السادس عشر أو السابع عشر.

تَعليقٌ عَلىٰ مُحتَوىٰ المِيثَاق

بعد البسملة واستحضار عظمة الله تعالىٰ، يتناول عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء مباشرة وبتفصيل العناصر التي يشتمل عليها. فهو يفيد بأن "الله تعالىٰ هو الأكبر والأجل، وهو الحاكم، وهو تعالىٰ المرسل لجميع الأنبياء، ولم يكتب علىٰ الله تعالىٰ الظلم". فليس الله تعالىٰ كبيراً فقط، يقول الرسول ﷺ- وهو يملي بنود الميثاق- ولكنه هو الحاكم. إن هذه النقطة مهمة سواء من الناحية اللاهوتية أو من الناحية السياسية. فمن الناحية اللاهوتية، كان اليهود والنصارىٰ يخوضون في سلسلة من السجالات بشأن دور الخالق. فقد ادّعىٰ بعض أحبار اليهود بأن الله تعالىٰ قد انسحب من التدخل الفاعل في عالم المخلوقات بعد فترة خلق الخلائق؛ وهٰذا الموقف قد اتخذه بعض أصحاب المذهب الربوبي (deism)، إلىٰ جانب أتباع مذهب عصر الأنوار، وبعض المفكرين المسيحيين المعاصرين من أمثال إرنستو كاردنال. أما الموقف الإسلامي الذي يتبناه النَّبيّ ﷺ فهو ينسجم مع التقليد الكاثوليكي الذي يقول إن الله تعالىٰ يشارك بفعالية في عملية دؤوبة من الخلق وإعادة الخلق. وبالتالي، فهو خالق الكون وراعيه ومتعهده.

فإن كان الله تعالىٰ هو الحاكم فإن ما يستتبع هٰذا هو أنه هو الذي يحكم الأرض [ومن عليها]؛ وهٰذا الأمر يطرح مسألة حاسمة تتمثل في الآتي: "إنه هو المخول أن تكون له سلطة تطبيق شرعه في الأرض، وأن شرعه هو السائد في الأرض كما في السماوات. وأنه لا أحد غير أنبياء الله مخولون لذلك، ومنهم مُحَمَّد ﷺ رسول الله وخاتم أنبيائه. من هنا تنبع فكرة خاتم [الأنبياء] والرسل. ومما يتجلىٰ بوضوح من فكرة خاتم الأنبياء أنه هو 'الحارس الأمين علىٰ العالم بأسره". وبهذه الصفة فإن العهد النبوي الذي كتبه مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء ليس موجهـًا لكافة المسلمين فحسب، وإنما إلىٰ الأمة المسيحية أيضـًا. وكما يقول النَّبيّ ﷺ: "هٰذا كتاب لكل الناس من شعبه ومن ملته، وصية ووعد يلتزم به أمام الأمة المسيحية". ففي وقت كان فيه النظام

الطبقي سائداً في كل مناحي الحياة، ويحدد لكل فرد دوراً داخل مجتمعه، لم يوجه النَّبيّ ﷺ عهده للأغنياء أو للأقوياء النافذين أو النبلاء علىٰ وجه التحديد، ولا أعطىٰ كلمته فقط للمؤسسة الدينية. لقد عقد النَّبيّ ﷺ ميثاقه مع كل فرد مسيحي علىٰ حدة؛ إذ يقول ﷺ: "كائناً من يكونون، سواء أكانوا أشرافاً أو غير أشراف، نبلاء أو غير نبلاء". إن العهد النبوي يرفض إذن بكيفية صريحة [مفاهيم] الطبقية والنخبوية والعرقية. ولذلك نجده في وفاق تام مع محتوىٰ 'دستور المدينة': الجميع سواسية أمام الله، وأهم شيء عند كل واحد ليس هو اللغة أو لون البشرة أو الوضع الاجتماعي أو الطبقي وكل ما يقصي الآخرين، بل التقوىٰ والإنسانية وحب الآخرين (الذي لا يشمل أبناء البشر فقط، ولكن مخلوقات الطبيعة كلها)، إضافة إلىٰ صدق العقيدة، وقبول أوامر الله تعالىٰ [واجتناب نواهيه]، والإقرار والإيمان والتصديق بالمكانة الخاصة بالأنبياء والرسل والأئمة.

وبما أن العهد النبوي كتب باسم الله تعالىٰ وباسم أشرف رسول من رسله، فإنه من اللازم أن يتقيد به جميع المسلمين في كل زمان. إن البند الأول من العهد النبوي هو إنذار صارم لكل من خالف عهد النَّبيّ ﷺ:

١. "كل من سعىٰ من أمتي إلىٰ نقض عهدي ونكث ميثاقي ويميني الذي عقدته في هٰذا الاتفاق، فهو ينقض عهد الله وينكث الميثاق ويصبح ناقضاً للعهد والملة (الذي يحرمه الله تعالىٰ) ويستحق غضب الله تعالىٰ".

مرة أخرىٰ يكرر النَّبيّ ﷺ رفضه للعنصرية والنخبوية والطبقية، ويحذر من أن غضب الله تعالىٰ سيصيب كل من نكث عهد الله "سواء أكان حاكماً أو رجلاً فقيراً"، فإذا كان كلام الناس من ذهب فإن كلام النَّبيّ ﷺ هو من معدن البلاتين ومن أنفس ما يمكن تصوره من الدرر والجواهر. لقد وعد النَّبيّ ﷺ بنفسه بأن يحمي ويعطي الأمان لجميع المسيحيين الذين تشملهم مقتضيات العهد النبوي.

٢. "كلما عنّ لراهب من الرهبان أثناء سفره أن يستقر في جبل من الجبال أو علىٰ تل أو قرية، أو في أي مكان آخر يريد أن يقيم فيه، سواء في البحر أو الصحراء أو

أي دير أو كنيسة أو دار عبادة، فسأكون معه في كل مكان من تلك الأماكن حارساً له وحامياً، أحميه وأحمي أمواله وأمتعته بروحي وعوني وحمايتي"

وبما أنه يتعين علىٰ المسلمين كافة أن يخضعوا لمشيئة الله تعالىٰ ورسوله، فإن الميثاق النبوي هو ملزم لجميع المؤمنين. إن عهد الأمان الذي أعطاه النَّبيّ ﷺ لم يعطه باسم الله ورسوله فقط، ولكن باسم جميع من تبعه. وكما يوضح النَّبيّ ﷺ ذلك بكل جلاء، فإن الميثاق قد تم عقده بصفة جماعية باسم الأمة الإسلامية كافة. وبدل أن يعتبر المسيحيين بمثابة 'آخرين'، أو 'غرباء أجانب'، فإن رسول الله ﷺ يؤكد أنهم جزء من أمته؛ وبذلك فهو يبين بوضوح أن أصحاب السلطة يكبر قدرهم بحسب احترامهم للأقليات التي تعيش بين ظهرانيهم. وكما يثبت هٰذا العهد النبوي بصورة لا تقبل الشك، فإنه لن يدعي أحد شرفاً حين يقدم علىٰ إبادة أفراد أو أقليات، أو عند خوضه غمار حروب دينية أو عرقية أو عند قيامه ب"تطهير عرقي". إن احترام القانون يتجلىٰ في احتضان التنوع والتعددية الثقافية، كما يؤكد علىٰ ذلك القرآن الكريم (انظر سورة الحجرات [٤٩]: ١٣). فخارج البنية الإسلامية ساد عدم التسامح بدل التسامح، وصار اللاتسامح هو القاعدة بدل أن يكون هو الاستثناء. لقد أمضىٰ الفرنسيون والإنجليز والأسبان (هٰذا إذا اقتصرنا علىٰ هٰؤلاء فقط) ألفية كاملة في سعيهم الحثيث لفرض لغة واحدة ودين واحد علىٰ أممهم علىٰ حساب أقلياتهم الدينية واللغوية. وحتىٰ استراليا -مثلها في ذلك مثل كندا- التي كانت تروج فيما سبق لشعار التعدد الثقافي، أصبحت الآن تنادي بالإدماج الثقافي اللغوي assimilation. إن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بدفاعه عن التعددية قد سبق زمانه حين أرسىٰ أنموذجاً للعدالة الاجتماعية قل نظيره زماناً ومكاناً. إن النَّبيّ ﷺ لم يفرض الشريعة الإسلامية علىٰ غير المسلمين؛ فاليهود كانوا يحاكمون علىٰ أساس القانون اليهودي، والنصارىٰ كانوا يحاكمون علىٰ أساس القانون المسيحي. وقد حذا حذو النَّبيّ ﷺ في ذلك الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه). فعندما بويع الإمام عليّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) بالخلافة من قبل الشعب قال كلمته الشهيرة:

"اسألوني قبل أن تفقدوني، اسألوني فلدي علم الأولين والآخرين.
فإذا أعطيتُ وسادة القاضي فإني أحكم لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل

بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولأهل الفرقان بفرقانهم، حتىٰ يكون كل واحد من هذه الكتب قد حكِّم ويقول: 'رب إن عليّا قد حكم بحكمك'" (مفيد ص ٢١).

ولأن الرهبان يشكلون طائفة دينية لا مقاولة تجارية، فإن النَّبيّ ﷺ منحهم وضعية تعفيهم من أداء الضرائب؛ يقول النَّبيّ ﷺ في العهد الذي أعطاهم: "علىٰ جميع المأمورين ألا يطالبوهم بأي جزية أو مكس أو أي ضريبة أخرىٰ، ولا يلزمون أو يضطرون إلىٰ أي شيء من ذلك". وعلىٰ النقيض من الحكام الطغاة المستبدين الذين حكموا في الماضي أو الذين لا يزالون يحكمون في الحاضر، والذين نهبوا خزائن السلطات الدينية، فإن النَّبيّ ﷺ اعتبر السلطات الدينية كيانات لا تسعىٰ للربح المادي لأن هدفها هو خدمة الأغراض الخيرية والاجتماعية والروحية. ولم يكتف النَّبيّ ﷺ بمنحها الاستقلال الذاتي الكنسي بل تعداه إلىٰ الاستقلال السياسي علىٰ غرار دولة حرة شريكة [للدولة الكبرىٰ]، أو منطقة تتمتع بالاستقلال الذاتي. ولكن علىٰ خلاف الدول ذات وضعية الدول الشريكة -مثل دولة بورتو ريكو التي يُمنع مواطنوها من حق التصويت- فإن الطوائف المسيحية كانت تتمتع بحرية انتخاب ممثليها السياسيين وأعضاء هيأة القضاء: "لا يغير قضاتهم ولا عمالهم"-يقول النَّبيّ ﷺ مصرحـًا-"لكن سيبقون في مناصبهم ولا يطردون منها". مرة أخرىٰ وعلىٰ النقيض من الحكام الآخرين الذين يعمدون إلىٰ تغيير نظام التسلسل التراتبي السابق حالما يستولون علىٰ الحكم، مزيحين عن طريق الاغتيال والنفي والسجن بقايا النظام السابق، ويعوضونهم بالعناصر الوفية لهم، فإن النَّبيّ ﷺ -بدل كل هذه الأمور- يسهر علىٰ الحفاظ علىٰ نفس الأنظمة الإدارية والقضائية، ولا يطلب منها مقابل ذلك غير المحبة والولاء. إن معظم زعماء ذلك العصر والكثير من زعماء العصر الحاضر يسلكون سلوك نظام الغاب، مثلهم في ذلك مثل الأسود والدببة المسيطرة التي تذهب إلىٰ حد قتل أشبال منافسيها السابقين أو المحتملين؛ فالكثير من الزعماء العسكريين

أو السياسيين المنتصرين لا يزالون يقومون بالتطهير المادي لزعماء الإدارة السابقة. وانطلاقـًا من أفعال النَّبيّ ﷺ فإنه لا يمكن تصنيفه أنه "من مؤيدي النظام المركزي" "centrism"، بل كان بالأحرىٰ من أنصار النظام الفدرالي. فـ'النظام المركزي' هو تركيز السلطة السياسية في مركز واحد، علىٰ خلاف النظام الفدرالي الذي يتميز بالاندماج الطوعي للمحافظات والولايات التي تفوض بعضـًا من سلطاتها للحكم المركزي وتحافظ في نفس الوقت باستقلالها الذاتي. فالنظام الفدرالي إذن هو أنسب طريقة عملية لإقامة نظام يعترف بالتعددية لمكوناته ويحافظ علىٰ مرتكزاتها الأساس. ولذلك فإن ما كان النَّبيّ ﷺ يؤسس له هو إنشاء جهات أو كيانات أو دول تتمتع بمجموعة واسعة من الحقوق والحريات داخل الإطار الأوسع للأمة الإسلامية. وهٰذا هو النظام الفدرالي؛ وقد يوصف بالفدرالية الإسلامية ولكنها فدرالية في جميع الأحوال.

يتمثل البند الخامس الذي بشر به النَّبيّ ﷺ في حرية التنقل. وهو حق يعتبر تحصيل حاصل في نظر الكثير من الناس في عالم اليوم. ومع ذلك -وإلىٰ عهد قريب- كانت حرية التنقل محظورة وغير متاحة في معظم الدول الشيوعية. وحتىٰ في بعض الدول غير الشيوعية داخل العالم الإسلامي يفرض علىٰ المواطنين الحصول علىٰ رخصة خاصة للسفر داخل مناطق الدولة نفسها. وفي إحدىٰ هذه البلدان أيضـًا، لا تستطيع النساء قيادة السيارة فأحرىٰ أن يسافرن بدون [مرافق] متمثلا في آبائهن أو أزواجهن أو أحد أقربائهن البالغين. وفي أحد بلدان شمال إفريقيا، تحتاج سيارات الأجرة بين المدن إلىٰ ترخيص خاص، كما يتم مراقبة أوراق الهوية بكيفية روتينية في نقط تفتيش مبثوثة عبر البلاد يقيمها رجال الشرطة والدرك، وعلىٰ المواطنين أن يحملوا أوراق الهوية باستمرار وإلا تعرضوا للمساءلة. إن حركات السكان تخضع للمراقبة بشكل دائم في كثير من الدول والأمم. لكن قبل مجيء الإسلام وفي السنوات الأولىٰ من ظهوره، لم تكن هناك حرية تنقل، أو لنقل بكيفية أدق، كانت سلامة المسافرين غير مأمونة، وكانت البلاد مسرحـًا يعيث فيها فساداً قطاع الطرق واللصوص والمغتصبون

والناهبون السالبون والمتاجرون في أرواح البشر وأعراضهم. ولذلك اضطر العرب إلىٰ أن يحملوا السلاح ويسافروا ضمن جماعات من أجل توفير الحماية لأنفسهم. لكن في المناطق التي خضعت لراية الإسلام، فقد تعهدت الدولة الإسلامية بتوفير الحماية للمسافرين علىٰ طول شرايين الطرق التجارية. وسواء أكان المسافرون يهوداً أو نصارىٰ أو أفراداً من ديانات أخرىٰ، فقد تعهد النَّبيّ ﷺ بأن "لا أحد يعترض سبيلهم وهم مسافرون في الطريق".

في البند السادس سهر النَّبيّ ﷺ علىٰ توفير الحماية لكل المؤسسات الدينية علىٰ اختلافها: "كل الكنائس التي هي في حوزتهم لا أحد يمنعهم منها". في أغلب الدول الشيوعية، لم تكن للطوائف الدينية أية حقوق أو لنقل كان لهم شيء قليل منها فقط. ففي الاتحاد السوفياتي سابقـًا، وفي الصين مثلاً، تم هدم عشرات الآلاف من المساجد. والمسلمون في فرنسا هم ممنوعون عن عمد من توفير أماكن الصلاة عبر سياسات حكومية مدروسة. وفي أمريكا القرن الواحد والعشرين، يواجه المسلمون في عدد من الولايات معضلات حقيقية حينما يتقدمون بطلبات بناء مساجد. وفي العديد من الدول الغربية –وحتىٰ ضمن الدول التي تدعي أنها تدافع عن حقوق الإنسان وترفع شعار 'الحرية الدينية'– فإن المساجد هناك تتعرض للتخريب أو للإحراق دون أن تحرك السلطات المعنية ساكنـًا، وكأنها لا ترىٰ ولا تسمع. لكن الرسول ﷺ تعهد شخصيـًا بحماية كل أماكن العبادة. ونتيجة لذلك فقد ازدهر بناء البيع اليهودية والكنائس المسيحية في العصر الإسلامي الذهبي. وهٰذا لا يعني أن الدولة الإسلامية تسمح بالتبشير في ربوعها. ففي الوقت الذي يسمح فيه لغير المسلمين بحرية ممارسة العبادة، فإنه لا يسمح لهم بالقيام بأنشطة تبشيرية في أوساط المسلمين؛ وهٰذا لا يمنعهم بطبيعة الحال من نشر الإنجيل بين الوثنيين والمشركين.

وكنموذج للمعلم المثالي، كان النَّبيّ ﷺ لا يني يكرر أهم النقاط لديه. فالبند السابع لا يتعلق بحق من الحقوق وإنما هو تكرار لإنذاره في الجزء الافتتاحي من العهد النبوي: "كل من سعىٰ إلىٰ إلغاء أي من المراسيم المذكورة فليأذن بحرب من الله ورسوله". أما أولئك الذين يدَّعون أنهم من 'أهل القرآن'، ويرفضون السنة في

نفس الوقت، فإن عليهم أن يعرفوا أنهم ضد القرآن والسنة معـاً. وكما يقول القرآن الكريم، علىٰ المسلمين أن "يطيعوا الله ورسوله" (الآيات: ٢٨٥:٢، ٣٢:٣، ١٣:٤، ١٤:٤، ١:٨، ٢٠:٨، ٢٤:٨، ٤٦:٨، ٧١:٩، ٥١:٢٤، ٥٢:٢٤، ٣٣:٣٣، ٦٦:٣٣، ٧١:٣٣، ١٧:٤٨، ١٤:٤٩، ١٣:٥٨، ١٢:٦٤، ٢٣:٧٢). وإذا كان للقرآن الأسبقية، في الوقت الذي يجب فيه أن تخضع السنة لأقصىٰ درجات التمحيص والتحري، فإنه من الواجب علىٰ المسلمين أن يتبعوا ما جاء في الأحاديث الصحيحة لرسول الله ﷺ. وإذ يتبع أغلب المسلمين تعاليم النَّبيّ ﷺ بحذافيرها في عديد من القضايا، فإن الكثير منهم -إن لم نقل جلهم- يتجاهلون وصاياه المتصلة بمسألة التسامح تجاه الأقليات الدينية التي تعيش بين ظهرانيهم. فإذا كانت المساجد تاريخياً أماكن مفتوحة في وجه أي شخص أبدىٰ اهتماماً بالدين الإسلامي، فهي الآن موصدة في وجه غير المسلمين في العديد من الدول الإسلامية. فإذا كان اسم الجلالة "الله" المرادف للإله الواحد الأحد في اللغة العربية، فإن الماليزيين يعملون جاهدين علىٰ منع المسيحيين من استعماله، في الوقت الذي كان عليهم أن يشجعوهم علىٰ تداوله. فبدل أن تحترم الكثير من الدول الإسلامية أقلياتها الدينية اليهودية والمسيحية فإنها، علىٰ العكس من ذلك تقوم باضطهادها وطردها. يقول وليام دالريمبل: "كان الإسلام وظل متسامحاً عبر الأجيال مع الأقليات الدينية، إلا أن ذلك التقليد المتوارث من التسامح أصابه الكثير من الضمور إلىٰ حد بعيد" (ص١٩). "فبعد قرون من التعايش السلمي عموماً مع جيرانهم المسلمين-يضيف دالريمبل متأسفاً- "أصبحت الوضعية الآن صعبة بالنسبة لآخري مسيحيي الشرق الأوسط" (ص١٩).

لا يمكن بالطبع توجيه كل اللوم للمسلمين لعدم التزامهم بالمُثُل السامية التي جاءت مصاحبة للإسلام في بدايته. ذلك لأن المسلمين [عبر التاريخ] فُرضت عليهم مواجهة قرون من الحروب الصليبية والاستعمار والإمبريالية، والإمبريالية الجديدة. فإذا كان المسلمون بصفة عامة متسامحين مع أهل الكتاب، فإنه مع مرور الوقت تطور موقفهم كرد فعل علىٰ الظروف المتغيرة الطارئة. بحلول القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر [الميلاديين]، اتخذ الفقهاء موقفاً أكثر تقييداً تجاه غير

المسلمين. وكما يلاحظ هامفريز: "إن الكثير من هذه النصوص هي نصوص متأخرة إلىٰ حد كبير...وتمثل فترة انحدرت فيها وضعية غير المسلمين كثيراً قياساً عما كانت عليه في السابق؛ هنا -كما في أماكن أخرىٰ- لا يمكن اتخاذ أي نص من النصوص أساساً لأحكام تعميمية" (ص٢٥٩). بعبارة أخرىٰ، إن لكل فعل رد فعل. فإذا سبق أن عاش المسلمون واليهود في وئام في عدة دول عربية، حيث كانت تجمعهم نفس اللغة والثقافة والعادات والتقاليد، إلا أن إقامة الكيان الصهيوني [علىٰ أرض فلسطين] هدم ألفية ونصف الألفية من العيش المشترك. إن قروناً من العدوان الاستعماري، والذي لا يزال مستمراً إلىٰ حدود الساعة عن طريق التدخل الغربي والغزو الغربي والاحتلال الغربي، لم يزد إلا كراهية للمسيحيين بصفة عامة. إن محاولات تنصير المسلمين بواسطة الحملات التبشيرية وتوجيه الهجمات المتتالية إلىٰ كل ما يعتبره المسلمون مقدساً لديهم، وعلىٰ رأس ذلك القرآن الكريم والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، كل ذلك أدىٰ بالمسلمين إلىٰ التعامل مع المسيحيين بكثير من الريبة وإلىٰ اعتبار كنائسهم بمثابة أحصنة طروادة.

وعطفاً علىٰ البند الخامس في العهد النبوي، حيث يتناول النَّبيّ ﷺ مسألة الجباية بتفصيل أكبر، ثم بمزيد من التوسع في البند الثامن، فيقول ﷺ: "لا أحد من قضاتهم ولا من حكامهم ولا رهبانهم ولا مماليكهم ولا أتباعهم ولا أحد ممن هو تابع لهم سيؤدي أي جزية، أو يناله عسف جراء ذلك". وإذ يتخوف النَّبيّ ﷺ -وكان في ذلك محقاً، من أن الذين سيأتون من بعده سيحاولون قراءة ما جاء في نص البند الخامس قراءة مغرضة، حيث سيحاجّون بأن الرهبان هم وحدهم من يستفيد من الإعفاء الضريبي، وأن ذلك لا ينطبق علىٰ هيأة قضاتهم، ولا علىٰ مواليهم أو طلبتهم، ولا علىٰ من هم تابعون لهم، فإن النَّبيّ ﷺ يؤكد بأن الاستثناء الضريبي ينطبق علىٰ جميع أفراد جماعة المسيحيين في جبل سيناء. فيكرر النَّبيّ الأكرم ﷺ مرة أخرىٰ إنذاره قائلاً: "أنا أحميهم سواء أكانوا في البر أو في البحر، في الشرق أم في الغرب، في الشمال أو في الجنوب، ذلك أنهم كلهم وما يملكون هو منصوص عليه في عهدي وميثاقي هٰذا". إن النَّبيّ ﷺ ليس حاكمهم فقط بل هو حاميهم. فلم يكن رسول الله ﷺ

قائد جيش محلياً يحكم المدينة فقط، ولم يكن زعيم الأمة الإسلامية فحسب، بل هو -كما يقول ذلك بنفسه- الحاكم الشرعي للعالم أجمع بتفويض من الله تعالىٰ؛ وهو ليس حامي حمىٰ الإسلام فقط، وإنما هو أيضاً حامي الديانات الإبراهيمية الأخرىٰ. وبهذه الصفة فهو المؤتمن علىٰ أهل الكتاب.

بما أن شبه الجزيرة العربية في شموليتها كانت تحتضن عدداً كبيراً نسبياً من النساك والرهبان والعبّاد الجوالين من أمثال بحيرا الراهب ومشاهير الرهبان الآخرين، فإن النَّبيّ ﷺ قد منح حمايته لكل واحد منهم:

"والذين يعيشون في سكينة وحدهم في الجبال، فإنهم لايؤدون أية جزية أو خراج أو مكس علىٰ مداخيلهم ولا يجوز لأي مسلم أن يقتسم معهم ما عندهم لأنهم يكافحون من أجل أن يبقوا أحياء."

لم يعمم النَّبيّ ﷺ حمايته للمتعبدين النساك من أهل الكتاب فقط، بل عمل أيضاً علىٰ أن يتم تزويدهم بما يحتاجونه من زاد: "فإذا جاء وقت جني غلال الأرض وكانت وفيرة، فإن علىٰ السكان أن يعطوهم مكيالاً عن كل قنطار". وبذلك أعطىٰ النَّبيّ ﷺ المثال علىٰ أنه لا يهتم فقط باختياراتهم الروحية، وإنما كان حريصاً أيضاً علىٰ رفاهيتهم المادية. إن النَّبيّ ﷺ بدعمه لأهل الكتاب كان يهدف إلىٰ تشجيع التفاهم والعلاقات الودية بين الأمة الإسلامية والأمة المسيحية. فحينما تكلأ حكومة شعبها برعايتها فإن ذلك الشعب (باستثناء الخونة منهم) سيكون دائماً وفياً ومحباً لتلك الحكومة. لقد كانت سياسة النَّبيّ ﷺ تعتمد علىٰ كسب قلوب غير المسلمين بواسطة سلوك من الإيثار والبر والإحسان.

بما أن رهبان دير القديسة كاثرين كانوا أناساً مسالمين نذروا حياتهم للعبادة، فإن النَّبيّ ﷺ لم يتصور في أية لحظة أو مناسبة أن يرسلهم للقيام بأعباء الحرب. ولذلك فإنه قد أعفاهم من الخدمة العسكرية. ويقرر ذلك البند الحادي عشر من الميثاق كما يلي: "ولا يخرجون من ديارهم في أوقات الحرب، ولا يفرض عليهم الذهاب إلىٰ الحروب، ولا أن يؤدوا أي جزية". وحين يتعلق الأمر بالقبائل والطوائف المسيحية

واليهودية، فقد قبل النَّبيّ ﷺ منهم ان يؤدوا الجزية مقابل الخدمة العسكرية. ولهذه الطوائف أن تقرر بكيفية مستقلة فيما إذا كانت تريد أن تؤدي الجزية أو تفضل بدل ذلك أن تنظمّ إلىٰ الجيش إذا ما طلب منها ذلك. لكن هٰذا الأمر لا يسري علىٰ السكان بصفة عامة ويُستثنىٰ منه ديرُ الرهبان، إذ أن النَّبيّ ﷺ لم يطالبهم لا بجزية ولا بخدمة عسكرية. والخلاصة أنهم منحوا حقوقاً وحماية دون واجبات، ما عدا ما عليهم أن يلتزموا به من الوفاء للنبي مُحَمَّد ﷺ. وفيما يتصل بهٰذا الولاء للنبي ﷺ فإنه ليس من النوع المذل حيث يكون فيه العبد خاضعاً لسيده في خنوع وإذلال، كما كان الأمر (مثلاً) في علاقة بعض الهنود أمام مستعمريهم البريطانيين، بل إن 'الولاء' (أو الوفاء) هنا يعني احتراماً صادقاً للعهود والمواثيق التي تم إبرامها معهم.

وكما يشرح النَّبيّ ﷺ ذلك، فإن البنود الإحدىٰ عشر السالفة الذكر تنطبق خصيصاً علىٰ رهبان سيناء. أما البنود السبعة الموالية فهي تنطبق علىٰ المسيحيين بصفة عامة. فالبند الثاني عشر يتناول مسألة الجباية مرة أخرىٰ. فالضرائب المعنية لم تكن ضرائب تعسفية، أو نوعاً من الابتزاز كما هو حال بعض الضرائب المفروضة في الماضي ولا تزال تفرض في كثير من مناطق العالم. فهي ضرائب تفرضها الدولة من أجل توفير خدمات يستفيد منها جميع أفراد الأمة الإسلامية بغض النظر عن ديانتهم. فبالنسبة للذين يحاجون بأن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ كان زعيماً دينياً فقط، وعلىٰ أنه "ليس هناك سياسة في الإسلام" أو أن "السياسة هي مسألة ثانوية في الإسلام" فإن الأدلة تثبت أنهم أبعد ما يكونون عن الواقع التاريخي. إن هذه المعتقدات الخاطئة قد تجعلهم يتصرفون بطريقة تتضارب مع شهادات موثقة لا تقبل التشكيك. إن السياسة هي التي جعلت الإسلام يحتل صدارة الاهتمام علىٰ الساحة الدولية. إن المقصد الأسمىٰ للإسلام لا ينحصر فقط في التبشير بيوم الميعاد، ولا باستحضار عميق لله تعالىٰ في حياة الناس الدنيا، لكنه يسعىٰ أيضاً لإنشاء نظام اقتصادي واجتماعي عادل مبني علىٰ الأخلاق الفاضلة علىٰ الأرض، ويساعد علىٰ إرساء أسمىٰ قيم الإنسانية الروحية. إن هٰذا النظام الشامل ذا الطابع الإنساني هو الذي من شأنه أن يساعد علىٰ سمو الروح؛ فالأنظمة الفاسدة لا تنتج إلا فساداً، والأنظمة اللاأخلاقية تحارب الأخلاق الحميدة.

إنه فقط بفضل إرساء جمهورية إسلامية يستطيع المسلمون أن يحققوا أسمىٰ ما لديهم من مخزون الإمكانات، ويضمنوا لأنفسهم أحسن ما يوجد في الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة. إن رسول الله ﷺ قد ضمن بفضل هذه الوثائق التي بين أيدينا ومثيلاتها أن يمد يده إلىٰ جميع أهل الكتاب من أجل أن ينخرطوا في هٰذا الكيان السياسي المتوازن.

إن النَّبيّ ﷺ وهو يستشعر أن أتباعه قد يتعسفون علىٰ أهل الكتاب بإرهاقهم بضرائب لا طاقة لهم بها، فلقد عين لها حدوداً. كما تم تبيان ذلك في البند الثاني عشر، فإن "المسيحيين المقيمين والقادرين علىٰ أداء الجزية بما يملكون من الثروة والتجارة، لا يؤدون سوىٰ اثني عشر درهماً لا غير". من الواضح أن هٰذا الحد لم يكن جامداً، بل هو قابل للتغيير مستقبلاً لامتصاص أثر التضخم [المالي]. لكن كان من اللازم أن تكون لكل زيادة ما يسوغها. بعبارة أخرىٰ، أن أي ضرائب تفرض مستقبلاً يجب أن يُتحرىٰ فيها أنها تساوي قيمة اثني عشر درهماً بالنسبة لاقتصاد تلك الفترة التاريخية. ليس هناك أدنىٰ شك إذن أن النَّبيّ ﷺ قد استشعر احتمال حدوث تغيير في الأوضاع والمجتمع والثقافات. فعلىٰ خلاف العديد من الدول مثل الولايات المتحدة التي تضع العبء الضريبي في مجمله علىٰ عاتق الطبقة المتوسطة، بينما يتهرب كبار الأغنياء من أداء مساهمة ضريبية دالة للمجتمع، فإن الدولة الإسلامية التي أنشأها النَّبيّ ﷺ فرضت نفس المبلغ الضريبي علىٰ جميع الملزمين بها. علىٰ أنه ينبغي مع ذلك التنبيه هنا (ولم لم يتم التنصيص علىٰ ذلك في العهد النبوي)، إلىٰ أن قوانين الشريعة الإسلامية لا تطالب الفقراء بأداء الضريبة. ومعلوم أن تحديد مفهوم الفقر هو تعريف فضفاض جد سخي، إذ يعتبر فقيراً من لم يكن يملك من المدخرات المالية ما يسمح له بنفقة عام كامل بدون عمل. في الولايات المتحدة هٰذا يساوي عشرين ألف دولار أمريكي في سنة ٢٠١٣م، وذلك تبعاً للمكان الذي يقطن فيه السكان. وهٰذا لا يعني أن المبلغ المقدر هو رصيد مالي تحت تصرف الشخص المعني، بل قد يعني ضمانة كما في حالة أداء أقساط منزل تم شراؤه عن طريق الرهن؛ وقد يعني أيضاً قيمة السيارات التي يملكها الأفراد. ومع ذلك فإن الأشخاص الذين يعيشون بأجر شهري

يلبي بالكاد حاجاتهم ولا يقدرون علىٰ توفير قدر مالي يفضل عن الحاجة، هم غير ملزمين بأداء الضريبة في الشريعة الإسلامية. فإذا كانت أوربا في فترة ما بعد العصر الوسيط قد عُرفت بسمعتها السيئة فيما يتصل بنظام جبايتها الذي كان عبئاً ثقيلاً علىٰ الفقراء (حيث كانت ترهق بها كاهل اليهود، واضطر العديد من سكان مختلف مناطق أوربا بالهجرة هرباً منها إلىٰ القارة الأمريكية)، فإن الشريعة الإسلامية علىٰ العكس من ذلك كانت تمثل تحرراً. وعلىٰ الرغم من أن أعداء الإسلام يثيرون الكثير من اللغط بشأن ضريبة الجزية التي يؤديها أهل الذمة، فإن الحقيقة التي يجهلها معظم الناس هي أن الجزية المطلوبة من أهل الذمة تقل في الحقيقة عن نسبة ٥,٢٪، التي هي نسبة الزكاة التي علىٰ المسلمين من أهل السنة أداؤها؛ وتقل بكثير جداً عن ٢٠ ٪، وهي نسبة الخُمُس التي علىٰ المسلمين الشيعة أداؤها. فأهل الذمة يخضعون في الحقيقة لجباية أخف مما هو مطلوب من المسلمين أداؤه في الدولة الإسلامية. وهٰذا هو ثمن السلام الذي يتعين علىٰ المسلمين أداؤه. أما بالنسبة لأولئك المثقفين المنتقدين "للضرائب الباهظة" التي يزعمون أن المسلمين كانوا يفرضونها علىٰ أهل الذمة، فإنه يتعين وضع الأشياء في سياقها الاقتصادي، فما الذي كانت تمثله بالضبط عشرة دراهم في عهد النَّبيّ ﷺ؟ فاستناداً إلىٰ إفادة محمد حميد الله (١٩٠٨-٢٠٠٢م) كان هٰذا المبلغ "يمثل مصاريف عائلة لمدة عشرة أيام" (انظر المقدمة ص١٤٩). وهٰذا المبلغ أبعد عما يسميه حبيب ليبي (ص١٦٥) "الجزية السنوية الفادحة" والتي يود أن يستنكرها.

قد يدعي البعض أن ضريبة الجزية هي ضريبة تمييزية لأنها فرضت علىٰ اليهود والنصارىٰ فقط، بينما تستثني الطوائف الأخرىٰ من غير المسلمين. لكنهم لا ينتبهون إلىٰ أن الجزية لم تفرض في الأيام الأولىٰ لنشأة الإسلام، وأن الكثير من الفقهاء يرون أنه من الجائز إيقافها شرعاً (انظر حميد الله ص١٤٩-١٥٠). ولهٰذا فإن الجزية ليست مسألة يصح لأي فرد غير مسلم أن يزايد بها علىٰ المسلمين ولو عن حسن نية؛ فالحقيقة أن الجزية قد تم إلغاؤها في آخر المطاف. وما لم يتم إلغاؤه أبداً علىٰ العكس من ذلك هو الحماية التي كان جميع مواطني الدولة الإسلامية يستفيدون

منها، وليس اليهود والنصارىٰ وحدهم علىٰ وجه الخصوص. في الوقت الذي يلح فيه بعض المحافظين من علماء الإسلام علىٰ أن اليهود والنصارىٰ من أهل الكتاب هم الذين تنطبق عليهم وحدهم صفة "الذميين" الذين يستوجبون حماية المسلمين، يرىٰ علماء آخرون أنها تشمل أيضاً الزرادشتيين والمانويين والبوذيين وحتىٰ الهندوس. إن بعض المسلمين مثل البيروني (٩٣٧-١٠٤٨م)، وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٧-١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م)، ورشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م)، كلهم يقولون إن مفهوم الذمة كان مفهوماً شمولياً؛ وهو يبنون أدلتهم علىٰ القرآن والسنة، ويشيرون إلىٰ أن أتباع [الملل الأخرىٰ] القائلين بنظريات نشأة كون مختلفة يتبعون "كتباً مقدسة سرية" أو ["الكتاب المكنون"] (انظر الآية الكريمة ٥٦: ٧٧-٨٠) توارثوها عن رسل سابقين. وهم يستدلّون في هٰذا بمثال الإمام عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م) الذي طلب من عامله علىٰ مصر أن يعامل كل رعاياه بالرأفة والمحبة والإحسان، لأنهم "سواسية في الخلق" (ص٢٧٨). ففي عهد الحكم المغولي بالهند مثلاً، "كان الحكام وعمالهم يصدرون نفس الأحكام علىٰ الجميع بدون تمييز، ويسمحون لكل واحد بالعبادة وفق الإرث الديني الذي ورثه عن أسلافه" (ليبير ٢٩٨). إن ما يقدمه المفكرون المسلمون الحداثيون من حجج لا تخلو من أخطاء، حيث إن كتب الفيدا والزند أفيستا Zend Avesta، والكتب البوذية الأخرىٰ، لم تكن كتباً سرية. بالإضافة إلىٰ هٰذا، فمهما بلغت درجة "ليبرالية" أو "تقدمية" أولئك الباحثين، فإنهم يترددون في قبول تلك الكتب. فإن كان المسلمون يعطون حقوقاً لأصحاب الديانات الأخرىٰ، فإن ذلك يكون من باب الاعتراف لهم 'بحقوق إنسانية' لا بحقوق دينية، ذلك لأن جميع أبناء آدم لهم نفس الحق في الكرامة.

البند الثالث عشر [في العهد النبوي] هو استرسال في سياسة النَّبيّ ﷺ في ندائه بإشاعة السلم والرخاء. فقد حذر ﷺ المسلمين من الإساءة للمؤمنين سواء أكانوا يهوداً أو نصارىٰ، إذ يقول ﷺ ما يلي:

"ولا يكلف أحد منهم شططاً، ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ... ﴾ [العنكبوت (٢٩: ٤٦)]، ونخفظ لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم

أدب المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا".

ولا ينبغي للمسلمين أن يبروا بأهل الذمة فقط ويقسطوا، ولكن يجب عليهم أيضاً أن يدفعوا عنهم أذىٰ الآخرين من أي نوع كان. وإن كان لا يجوز أن يكون الإسلام أو النَّبيّ ﷺ عرضة للاستهزاء والسخرية، فإنه لا يجوز لأي كان أن يسخر أو يستهزئ باليهودية أو النصرانية. وكما لقن النَّبيّ ﷺ أتباعه في ذلك، إن أهان المرء ديناً سماوياً واحداً فكأنما أهان الأديان كلها؛ ومن عادىٰ ديناً واحداً فقد عادىٰ باقي الأديان. وباعتبار الإسلام ديناً يعلي من شأن ما هو مقدس علىٰ حساب ما هو دنيوي، فإنه يحرم الإساءة للذات الإلٰهية وللرسل وللديانات السماوية، ولأي شيء مقدس عند المؤمنين. إن احترام الإسلام لأهل الكتاب ينطبق علىٰ جميع مجالات التعايش الاجتماعي بما في ذلك ما يتعلق بمسألة الزواج. فكما بين النَّبيّ ﷺ في البند السابع عشر، نقرأ ما يلي:"وإن صارت النصرانية عند المسلم فعليه رضاها وتمكينها من الصلاة في بيعتها ولا تحيل بينها وبين من هو دينها".

وإذا كان الإسلام الشيعي علىٰ مذهب الإثني عشرية يحرم الزواج الدائم بين المسلمين والكتابيين، فهو يبيح الزواج إلىٰ أجل محدد، والذي قد يصير شرعياً مدىٰ الحياة. قد يرىٰ بعض الغربيين في هٰذا نوعاً من الازدواجية في المعايير، وشكلاً من أشكال التمييز، إلا أن كلا الصيغتين من الزواج سواء الزواج الدائم أو الزواج المحدد يتم عقدهما بصفة آلية بين الأزواج المسلمين. وإذا كان الإسلام الصحيح يقتضي أن رجلاً مسلماً وامرأة مسيحية يعقدان عقد نكاح محدد في الزمان، فإن هٰذا النوع من الزواج يتيح للمرأة غير المسلمة قدراً اكبر من الحقوق والحرية ويضمن لها حماية كبرىٰ. وعلىٰ الرغم من أن أمة المسلمين قد تسعىٰ وتود لو أن الزوجة المسيحية اعتنقت الإسلام في آخر المطاف، فإنها تبقىٰ حرة في الحفاظ علىٰ دين آبائها والتمسك به. إن الدين الحقيقي هو الدين المتسامح إلىٰ أقصىٰ الحدود. فإذا كان محرماً علىٰ المسلم تحريماً قاطعاً تناول الخمر وأكل لحم الخنزير، فإن الشريعة الإسلامية تبيح للزوجة المسيحية ذلك؛ وإذا كان منتظراً من المرأة المسلمة أن تلبس الحجاب، فإن المرأة المسيحية ليست مطالبة بذلك، ويمكنها أن تلبس ما شاءت حسب أعراف طائفتها.

ومن البديهي أنه من باب الحفاظ علىٰ النفس أن يقتضي الإسلام أن الطفل المولود نتيجة زواج مختلط يجب أن يربىٰ تربية إسلامية. وهٰذا الأمر ينطبق علىٰ المسيحيين الكاثوليك الذين يتزوجون زواجـًا مختلطـًا، إذ يتعين في هذه الحالة أن يربىٰ الأطفال تربية كاثوليكية. في الأصل يحرم القانون الكنسي الكاثوليكي الزواج بين رجل (أو امرأة كاثوليكية) وامرأة (أو رجل) غير كاثوليكي؛ وهو إجراء أكثر تضييقـًا مما تنص عليه الشريعة الإسلامية. لكن الأساقفة الكاثوليك غالبـًا ما يسمحون به، شريطة أن يتم الالتزام بتنشئة الأطفال تنشئة كاثوليكية. وإذا كان الإسلام لا يسمح بالزواج بين النساء المسلمات والرجال غير المسلمين، فالسبب في ذلك واضح ولا يحتاج إلىٰ شرح، ذلك لأن الرجل المسلم بصفته مسؤولاً عن عائلته فإنه لا يجوز له أن يسيء إلىٰ شرف عيسىٰ أو موسىٰ أو إبراهيم، أو يحط من شأنهم. إن هذه الضمانات لا يمكنك أن تجدها عند الرجل المسيحي أو اليهودي الذي قد يتصرف تصرفـًا غير متسامح؛ وقد يعتبر أن محمداً ﷺ ليس بنبي بل هو مجرد مدع دجال.

وحينما سعىٰ النَّبيّ ﷺ إلىٰ حماية الكنائس والأديرة فإنه حرص أيضـًا علىٰ أن يتم تعهدها وترميمها بصفة منتظمة. وكما نص علىٰ ذلك البند الخامس عشر من العهد النبوي، فإنه لا أحد يعترض علىٰ إصلاح كنائس المسيحيين. إن بعض المسلمين المفتقدين إلىٰ الحكمة والتبصر (وبعض المضللين منهم) رغم أنهم يحجمون عن هدم الكنائس، إلا أنهم قد لا يفعلون شيئـًا لإيقاف التدهور الذي قد يطال بعضها ويهددها بالخراب. إن النَّبيّ ﷺ من خلال هذه الوصية قد عمل علىٰ استمرار الطائفة والمجتمع المسيحيين. وفي نظر الإسلام، فإنه بقدر ما يكثر عدد من يعبد الله تعالىٰ، بقدر ما تكون الإنسانية بخير. إن الإسلام ينظر إلىٰ الدين علىٰ أنه قوة اجتماعية إيجابية. قد يحدث أن تبرز هناك خلافات تتعلق بإشكالات لاهوتية، إلا أن الديانات السماوية جميعها تلتقي حول نفس المبادئ التوجيهية. إن الإسلام تحت القيادة والتوجيه الرباني للنبي مُحَمَّد ﷺ قد ركز علىٰ كل ما من شأنه أن يجمع بين الديانات السماوية جميعها، لا علىٰ ما يفرق بينها؛ إذ حاول أن يوحد اليهودية والنصرانية تحت راية الإسلام الحاضنة للجميع، في إطار حركة توحيدية منسجمة. إن الإسلام بحمايته للديانات الأخرىٰ،

فهو يحمي نفسه أيضـًا من انتشار سرطان المذاهب العلمانية الليبرالية والمادية.

فإنْ كانت التحذيرات السابقة كلها غير مقنعة، فلقد زاد النَّبيّ ﷺ في وصيته في البند السادس عشر بصفة أكثر إلحاحـًا وتأكيداً علىٰ أن كل من خالف ما منحه النَّبيّ ﷺ من تعهدات، أو قام بأي شيء مناف لها أو ينقضها، فهو قد حاد عن جادة الطريق الإلـٰهية، وحادَّ الله ورسوله، لأن عهد الذمة الذي أعطاه النَّبيّ ﷺ للمسيحيين هو عهد كتبه النَّبيّ ﷺ باسم الله تعالىٰ. ويكرر النَّبيّ ﷺ تعهده والتزامه في الميثاق بإعفاء النصارىٰ المسيحيين من الخدمة العسكرية؛ فإذا كان المسيحيون غير مطالبين بحماية الدولة الإسلامية فإن هذه الأخيرة علىٰ العكس من ذلك مطالبة بحمايتهم. وكما يتعهد بذلك النَّبيّ ﷺ في البند السابع عشر من العهد النبوي، فإنه لا أحد من المسلمين سيحمل السلاح ضد المسيحيين؛ بل علىٰ العكس من ذلك فإنه من واجب المسلمين حمل السلاح ضد من يريد بهم شراً. ويختم النَّبيّ ﷺ العهد النبوي بقوة بالبند الثامن عشر حيث يلتزم بأنه لا أحد من أمته سيعمل عملاً أو يقوم بشيء ينقض وصيته إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن التعبير الأخير جدير بالملاحظة، إذ يحمِّل من خلاله النَّبيّ ﷺ المسؤولية لجميع المسلمين أينما كانوا بضرورة الالتزام بما جاء في العهد النبوي. لكن للأسف هناك الملايين من المؤمنين الذين يجهلون كل شيء عن الميثاق الذي عقده النَّبيّ ﷺ ولا يعرفون شيئـًا عن نواياه ولا عن مراميه ومقاصده.

إنه مما لا شك فيه أن الالتزام النبوي بحماية [المسيحيين] إلىٰ يوم القيامة هو رهين بالتزام الجانب الآخر بما يتعين عليه القيام به. فإن ثار هـٰذا الجانب ضد الحكم الإسلامي أو هو والىٰ وساعد أو حرض أعداء الإسلام كما كان الحال مع الصليبيين، أو المستعمرين، أو الإمبرياليين الأمريكيين في الآونة الأخيرة، فإن العهد سوف لن يساوي الحبر الذي كتب به، ويصير لاغيا بقوة الأشياء. وهـٰذا لا يعني بأن العهد النبوي قد أصبح باطلا وعديم الأثر في الوقت الراهن، أو أنه أخلف وعده مع التاريخ بحيث صار يمثل فرصة تاريخية ضائعة لا يمكن تداركها؛ فالحقيقة أنه قد تم الالتزام به إلىٰ حد كبير علىٰ مدىٰ ما يفوق ألفية كاملة. كما أن هـٰذا ليس معناه أن

النَّبيّ ﷺ قد غاب عنه ما يكتنف الطبيعة البشرية من عيوب ونزعات شريرة. فالميثاق النبوي يبقىٰ علىٰ مر الزمان وكما كان دائماً أنموذجاً مثالياً للعلاقات التي ينبغي أن تسود بين المسلمين والمسيحيين، وإطاراً صالحاً لإقامة جسور من التفاهم بينهما. إنه المرتكز الذي ينبغي أن تبنىٰ عليه جميع المفاوضات والعهود والمواثيق والاتفاقيات بين المسلمين والمسيحيين.

علىٰ الرغم من أن الكثير من الجماعات المسيحية نكثت عهودها، فإن رهبان جبل سيناء قد التزموا بأقصىٰ درجات الاحترام تجاه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ . ولم يكتفوا فقط بالالتزام بالعهد الذي عقده النَّبيّ ﷺ معهم، بل اعتبروه علىٰ الدوام أغلىٰ كنز بحوزتهم. ففي تصريح عن دير القديسة كاثرين مؤخراً ورد فيه ما يلي بخصوص العلاقة بالنَّبيّ ﷺ، وباتصالاته برهبان الدَّيْر وبالميثاق الذي عقده معهم:

"بالنظر إلىٰ التقليد المرعي في سيناء، فإن محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عرف الدَّيْر وزاره، كما زار الرهبان/ الآباء في سيناء. إن القرآن يذكر الأماكن المقدسة بسيناء. ففي السنة الثانية للهجرة (والتي توافق ٦٢٦م) طلب وفد من سيناء من مُحَمَّد ﷺ كتاب أمان. فكان لهم ذلك، وقد وافق عليه وصادق عليه النَّبيّ ﷺ ببصم كفه علىٰ الوثيقة. وفي سنة ١٥١٧م أكد السلطان العثماني سليم الاول الامتيازات التي منحت للدير، لكنه أخذ وثيقة الميثاق الأصلية من أجل حفظها في الخزانة الملكية بالقسطنطينية، وأعطىٰ للدير نسخاً مصدقة عليها صور لكف النبي، عربوناً علىٰ أنه قد مس النسخة الأصلية"

وباعتبار أن دير القديسة كاثرين بسيناء يحتوي علىٰ أضخم مجموعة من الوثائق المسيحية و'الكوديسات' بعد الفاتيكان، وبالنظر إلىٰ أنه وُصف بكونه "أضخم خزانة للشرق المسيحي" (انظر غيهن ص١٦٣)، فإن مكتبة جبل سيناء هي تحديداً المكان الذي يمكن أن تجد فيه وثائق لا تقدر بثمن مثل العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء.

وإذ يختلف المسلمون والمسيحيون بشأن بعض المسائل، إلا أنهم يتفقون

علىٰ مضمون العهد النبوي. إن أصالة الميثاق وصحته قد أقرها (بالإضافة إلىٰ رهبان جبل سيناء) الكاتب جوهن دافنبورت John Davenport في كتابه الذي يحمل عنوان *Apology for Mohammed and the Koran* [دفاعـًا عن محمد وعن القرآن] (ص ١٤٨). فبالنسبة لدافنبورت،:

"إن الحقائق والأدلة التي يشتمل عليها العهد النبوي هي كافية لكي تقنع كل ذي عقل سليم مبني علىٰ الفطرة وعدم التعصب بأن التهمة الموجهة ضد محمد والتي مؤداها أن الإسلام قد انتشر بحد السيف وخلف خسائر ومعاناة بشرية كبرىٰ هي تهمة لا تستند إلىٰ أي أساس، وهي [إذن] تهمة باطلة بشكل مخز وفاضح" (ص١٥١).

والحقيقة أن صحة وأصالة العهد النبوي لرهبان جبل سيناء قد تم الإقرار بها من قبل عدد كبير من العلماء المسلمين بمن فيهم د. أ. زهور و د. ز. حق ود. مقتدر خان، كما تبنته العديد من الجمعيات الإسلامية مثل المجلس الإسلامي الأعلىٰ بكندا. فعلىٰ هـٰذا النحو إذن كانت العلاقة المسيحية الإسلامية في حقيقتها.

إذا كان متن وثيقة العهد النبوي لرهبان جبل سيناء يشكل مرجعـًا خصبـًا للتفسير الأكاديمي، فإن الملاحظات في حواشي الكثير من نسخها قد تصلح لنفس الغرض الأكاديمي. فالنسخة التي تم اعتمادها للتعليق عليها في هـٰذا الكتاب هي النسخة المعروضة في الدَّيْر المقدس للقديسة كاثرين بجبل سيناء، والتي قام بنسخها موريتز. ونقرأ في هذه النسخة ما يلي:

"كُتب عهد الحماية هـٰذا بخط عليّ بن أبي طالب في مسجد النَّبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم الثالث من شهر محرم في السنة الثانية من هجرة النَّبيّ ﷺ".

صحيح أن عليّـًا (كَـرَّمَ اللهُ وَجْهَه) هو الذي كتب العهد النبوي من إملاء الرسول ﷺ، كما سبق أن فعل ذلك في مناسبات عديدة، لكن يبقىٰ مع ذلك أن السنة المثبتة علىٰ وثيقة العهد النبوي قد تم إضافتها في تاريخ لاحق. فإلىٰ أن جاء عهد عمر

بن الخطاب (ح ٦٣٤-٦٤٤م)، كانت العرب توقع وثائقها بكتابة تاريخ اليوم والشهر لكن لا تكتب السنة. وهٰذا ما يجعل بعض الوثائق تبدو وكأنها كتبت بدون تاريخ. لكن لا يشكل هٰذا عيباً وسبباً كافياً لاستبعاد مثل تلك الوثائق. إن الناسخ -(كاتب الوثيقة)- يلاحظ ما يلي:

"وأودعت نسخته في خزانة السلطان، وختم بختم النَّبيّ عليه السلام، وهو مكتوب في جلد أديم طائفي" (انظر النسخة الإنجليزية، ص٢٢٠).

وهذه النسخة من العهد النبوي لا تحمل تاريخاً. لكن يمكن التعرف عليه من خلال تحديد تاريخ الناسخ والقاضي الذيْن وقعاها وصادقا عليها. وبالتالي يمكن أن يكون التاريخ هو سنة ١٨٠٠/ ١٨٠١م. إن معنىٰ الخاتم هنا غير واضح بما فيه الكفاية، هل المقصود منه كف النَّبيّ ﷺ، أم هو بالفعل الطابع الذي في خاتمه الذي كان يغمسه في الحبر ويؤشر به علىٰ الوثائق؟ إن النسخة العربية التي بحوزتي تقول إن العهد النبوي قد كتب علىٰ الجلد، وهو ما يوافق التقليد النبوي فيما سبق. ذلك أن ما تبقىٰ من المخطوطات الأولىٰ من القرآن الكريم التي دونها كتاب الوحي كتبت علىٰ الجلد. لكن هـ . غريفيث ترجم كلمة 'جلد' بـ'الرق' parchment (ص ٦٣). فبينما يمكن أن تكون النسخة الأصلية قد كتبت علىٰ الرق، فإن هذه الترجمة لم تكن ترجمة دقيقة للكلمة الموجودة في وثيقة العهد النبوي. فالناسخ يؤكد إن الوثيقة كانت صحيحة، وإلا فإنه لا محل للعبارة التالية في سياق ما كتبه: "فطوبىٰ ثم طوبىٰ لمن عمل به وبشروطه، ثم طوبىٰ وهو عند (كذا) الله من الراجين عفو ربه" (انظر النسخة الإنجليزية ص ٢٢٠). وتقول الوثيقة [بصفة أكثر تفصيلاً]:

"وفي الأصل المنقول منه هذه النسخة المتوجة بالنيشان الشريف السلطاني ما صورته. نقلت هذه النسخة من النسخة التي نقلت من النسخة الكائنة بخط أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه" (انظر الكتاب باللغة الإنجليزية ص٢٢٠).

وهٰذا يؤكد أن النسخة الرسمية الأولىٰ المعتمدة التي أعطاها السلطان العثماني

سليم الأول لرهبان جبل سيناء سنة ١٥١٧م كانت موقعة من قبل هٰذا السلطان. وأما العبارة الموالية فيكتنفها اللبس؛ فهل تعني أن النسخة المعنية بالأمر [المتروكة للرهبان] هي النسخة الثالثة المنقولة عن الأصل الذي كتبه الإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) (المتوفىٰ سنة ٦٦١م)؟ أم أن القصد منها هو أن النسخة التي أخذها السلطان سليم هي النسخة الثالثة المنقولة عن الوثيقة الأصل؟ وعلىٰ الرغم من اشتمال الوثيقة علىٰ الكثير من المؤشرات، إلا أنها لا تساعد بالضرورة علىٰ توضيح هذه المسالة الغامضة. تقول الوثيقة:

> "بالأمر الشريف السلطاني لا زال نافذاً بعون المعين السبحاني. ووضعت بأيدي طائفة الرهبان القاطنين بجبل طور سينا لكون النسخة المنقولة من نسخة بخط أمير المؤمنين ضائعة، وليكون سنداً علىٰ ما تشهد به المراسيم السلطانية والمربعات والسجلات التي في أيدي الطائفة المزبورة" (انظر الكتاب باللغة الإنجليزية، ص٢٢١).

بما أنه لم يتم ذكر اسم السلطان العثماني، فإنه غير واضح فيما إذا كان المقصود هو سليم الأول أو السلطان الذي كان في الحكم أيام تم نقل هذه النسخة، أي في عقود القرن التاسع عشر الميلادي (سنوات ١٨٠٠). فالتعبير العربي، كما فهمتُه، يقول إن الأصل من وثيقة العهد النبوي قد ضاع، وأن السلطان قد منح نسخة منه [للرهبان] كتعويض عنه. أفلا يكون القصد ببساطة من هٰذا هو أن السلطان قد أخذ الأصل بدل القول إن الأصل قد ضاع؟ فإذا كان فقيه متضلع في علم الحديث يركز اهتمامه علىٰ عنصري الإسناد والمتن معـًا، فإن هٰذا لا ينطبق علىٰ وثيقة مفروض فيها أن تكون نسخة من أصل أملاه النَّبيّ ﷺ بنفسه؛ إننا لسنا هنا أمام شيء يتم تناقله شفاهـًا، مهما كانت درجة صحة الرواية فيه، بل في حاجة إلىٰ دليل وعمل توثيقي. إن مسألة صحة أو عدم صحة العهد النبوي لرهبان جبل سيناء يجب حسمها بصفة حصرية بواسطة تحليل المحتوىٰ content analysis. وفي هٰذا الصدد، فإن العهد النبوي يكون قد اجتاز الاختبار بنجاح. فالملحوظات المثبتة في حواشي النسخ الأخرىٰ تحمل علىٰ درجة أعلىٰ من الثقة والاطمئنان. هناك نسخة من العهد النبوي مكتوبة بالخط العربي

العثماني سنة ١٨٥٨م، وتحمل خاتم مقاطعة تابعة لدير سيناء بخانية (بجزيرة كريت)، كما تحمل الملحوظة التالية:

'فيما يلي السبب الداعي إلىٰ كتابة هذه الوثيقة ذات الأسلوب البياني، والظروف التي دعت إلىٰ صياغة هذه الوثيقة المحتوية علىٰ حقائق لا يتسرب إليها الشك". (انظر غريفيث، ص ٦٣-٦٤). فأن يكون الميثاق النبوي قد أكد صحته "السلطان سليم ومن أتىٰ من بعده من الحكام [العثمانيين]، إلىٰ حين مجيء السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٤م (ص٦٤)، فإن هٰذا من شأنه أن يخفف من روع وهواجس معظم الباحثين.

خُلَاصَات

في الوقت الذي سيكون هناك دائماً رافضون ومعترضون ومشككون وجاحدون متعصبون يزرعون الشكوك حول كل شيء وأي شيء من شأنه أن يكشف عن الوجه المشرق الإيجابي للإسلام، ويبين أنه قوة إيجابية، فإن معظم الأكاديميين النزهاء [علىٰ العكس من ذلك] يعترفون بصحة وأصالة العهد النبوي لرهبان جبل سيناء في غياب أدلة قاطعة تثبت أنه عمل مزور. ولحد الساعة، لم يُقِم باحث واحد مدقق أي دليل قوي علىٰ أن الميثاق النبوي كان عملاً مختلقاً. إننا إذا اعتبرنا الأسفار المتكررة التي قام بها النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ في طول بلاد الشام الأكبر وعرضها، فإن لقاءاته المؤكدة بالنصارىٰ المسيحيين في أماكن كثيرة، وخبر اتصاله الثابت برهبان القديسة كاثرين، إلىٰ جانب تأكيد أصالة الميثاق وصحته، سواء بشهادة أولئك الرهبان أو العلماء المسلمين من مختلف المذاهب الفقهية، إضافة إلىٰ اكتشاف 'فرمان' السلطان سليم الأول وسط إحدىٰ مجموعات التحف التركية، أو الدراسة المقارنة للعديد من العهود والمواثيق النبوية، كل هٰذا يؤكد صحة وأصالة العهد الذي كتبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء.

الفَصِل ٣

النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ

وَنَصَارى فَارِس

مُقَدِّمَة

في الوقت الذي نجد فيه عدداً قليلاً فقط من الباحثين والقراء المثقفين الذين اطلعوا علىٰ العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ ﷺ لرهبان القديسة كاثرين، ولمسيحي نجران، فإن عدد أولئك المطلعين علىٰ عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ للمسيحيين الأرمن هو أقل من ذلك؛ إلا أن المطلعين علىٰ العهد النبوي لنصارىٰ فارس يقل عن ذلك بكثير. إن هٰذا العهد الأخير يشبه شبهـًا كبيراً ولافتـًا العهد النبوي الذي عقده النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء إلىٰ درجة أن بعض الباحثين أكدوا الرأي القائل إن هٰذا العهد هو ترجمة فارسية له. إلا أن العهد المكتوب باللغة الفارسية والذي لم يبق له وجود ما عدا في نسخة مترجمة إلىٰ اللغة الإنجليزية، يتضمن عناصر غير موجودة في العهد المكتوب باللغة العربية، والذي يدّعون إنه الأصل الذي ترجم منه [العهد الفارسي]. وإذن فنحن أمام ثلاث احتمالات: أولها، أن النسخة الفارسية هي ترجمة فارسية ترجمت بكثير من التصرف عن النَّصّ العربي الأصلي؛ وثانيها، أن النسخة الفارسية قد تم التلاعب بها علىٰ يد بعض علماء الشيعة؛ وثالثها، ولو أنه احتمال ضعيف جداً، إن النسخة العربية من عهد النَّبيّ ﷺ لرهبان دير سيناء هي ترجمة عن نص أصلي فارسي.

قَضَايَا أَصَالَة وَصِحَّة الوَثِيقَة

لقد ورد عن الكاتب الأرمني الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي جيرانغوس فارباتيد أن رسول الله ﷺ قد منح المسيحيين الأرمن القاطنين بفارس حرية المحافظة علىٰ عقيدتهم المسيحية مقابل أداء أربعة دراهم نقداً، وثلاثة أوساق من القمح، وسرجـًا وحبلاً من الشعر وثوبـًا (انظر أربي ص٣٥٥). وبالنسبة لهٰذا الأخير، (ليون أربي ١٨٧٧-١٩٤٧م) وهو قس بريسبتيري (مشيَخي Presbyterian) ومؤرخ أمريكي ولد بتركيا وسط عائلة أرمينية، فإن عهد

النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي فارس والذي يجد القارئ نسخة منه ضمن هٰذا الكتاب "هو استنساخ لعهد كان في الأصل قد أعطاه النَّبيّ مُحَمَّد لدير القديسة كاثرين بجبل سيناء، وكان الغرض الذي ابتغاه منه النَّبيّ هو أن يكون شاملاً لجميع المسيحيين أينما كانوا" (ص٣٥٥). وكما يشرح ذلك أربي: "إن جلفة الجديدة New Julfa [...] كانت مقر إقامة أسقف معترف له بكونه الزعيم الروحي للسكان الأرمن في فارس والهند وجاوا؛ وكان يحمل عهداً مستنسخاً عن النَّصّ الأصلي تم فيه تحديد حقوق وواجبات الطائفة المسيحية تحت الحكم الشيعي (ص٢٣٥). والظاهر أن أربي كان ينطلق من مسلمات، ونتيجة لمعرفتي الدقيقة بعهد النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء فإنني أستطيع أن أؤكد أن الميثاق الذي كتبه النَّبيّ ﷺ لمسيحيي فارس ليس نسخة مترجمة -لا كاملة ولا دقيقة- للعهد الأول.

في سنة ١٩٤٦م، وهي السنة التي طبع فيها كتابه، يفيد أربي بأن العهد النبوي لمسيحيي فارس "قد تم حفظه في أرشيف الأسقف الأرميني بجلفة الجديدة (ص٣٥٥)؛ ويفيد أيضـاً بأن الوثيقة سُلمت لأسقف جلفة الجديدة في القرن السابع عشر الميلادي من قبل شاه فارس (ص٣٥٥)، وهو شاه عباس الأول الذي تقول المصادر الأمريكية والأوربية إنه قام بإعادة توطين مائة وخمسين ألف من الأرمن سنة ١٦٠٦م من جلفة (أو جوغة أو دجوغة) في منطقة ناخيشيبان إلىٰ جلفة الجديدة، وهو اسم لحي أرمني أُحدث بأصفهان بأمر الحاكم الصفوي. وتقول الروايات الفارسية إن الأرمن لم يتم اقتلاعهم بالقوة من أرمينيا التاريخية، بل علىٰ العكس من ذلك لقد فروا من اضطهاد الأتراك العثمانيين (انظر بورنوتيان ص ٢٠٦). لقد تم استقبال الأرمن للشاه استقبال محرر برأي بورنوتيان؛ "[فهم] لم يستطيعوا تحمل مزيد من الضرائب الباهظة التي كان العثمانيون يفرضونها عليهم" (ص٢٠٨). ولقد بنىٰ لهم عباس كاتدرائية جديدة بجلفة الجديدة، كما منحهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وقروضـاً بدون فوائد، ورخص لهم انتخاب رئيس بلدية منهم. وبالنسبة للكاتب أ. كريستيان فان غولدر "من المحتمل أن يكون الصفويون قد عاملوا الأرمن معاملة أحسن من معاملة العثمانيين، ومن المحتمل أن يكون الأرمن قد وجدوا فيهم حلفاء

وربما محررين" (ص٦٣). وفي نظر يهود فارس "إن المسيحيين، لا سيما مسيحيي الأرمن، كانوا يعيشون حياة مريحة" تحت حماية الشاه عباس (ليفي ص٢٦٥). وقد وصف بورنوتيان تأسيس مدينة جلفة الجديدة كما يلي:

"لقد شارك كل من البنائين من الفرس والصناع الأرمن في تشييد المستوطنة الجديدة. لقد تم تأسيس عدة كنائس ما تزال ثلاثة عشر منها قائمة إلىٰ يومنا هـٰذا. لقد كان للأرمن حقوق لم تعط لغيرهم من الأقليات الأخرىٰ. لقد كان لهم حرية انتخاب رئيس بلديتهم، ويدقون أجراس كنائسهم ويقومون بالاستعراضات الدينية الخاصة بهم، ولم يكن عليهم أن يتقيدوا بلباس خاص ولا بقيود في عصر خمورهم. علىٰ أنه منع علىٰ أي مسلم أن يقيم في جلفة الجديدة. وقد أعطي رئيس البلدية الأرميني أحد الأختام الملكية للشاه حتىٰ يتمكن من تخطي العراقل والتعقيدات البيروقراطية. وكانت دائرة حكمه تضم ما يفوق عشرين قرية من القرىٰ المحيطة بمدينة أصفهان". (ص٢٠٩)

بالنسبة لأربي، كما يشرح ذلك سيتا ب. دادويان، "لقد قام الشاه الصفوي عباس بعقد عهدة مع الأرمن علىٰ غرار صحيفة المدينة؛ وهـٰذا العهد الأخير هو عبارة عن اتفاق مصادق عليه بواسطة نسخة لالتزام مديني قديم زعم أنه منح لمسيحيي سوريا" (ص٦٠-٦١). أما كيف وأين حصل الشاه علىٰ ذلك العهد فهو أمر غير واضح. ورغم أنني اطلعت عملياً علىٰ كل المصادر الشيعية المتاحة، إلا أنني لم أجد أثراً لعهد النَّبِيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء من بين تلك المصادر. وبالرغم من أنني قد أكون أخطأته -لأن المسألة شبيهة بالبحث عن إبرة وسط أكوام من التبن، فقد يكون العهد النبوي قد تناولته إحدىٰ المصنفات الشيعية التي لم يعد لها وجود. وبما أن العهد النبوي لرهبان جبل سيناء لا يوجد في أي مصدر من المصادر السنية أيضاً، فإن نفس التفسير ينطبق علىٰ هذه الحالة أيضاً. وهـٰذا من شأنه أن يجعل الطائفة المسيحية بمثابة المصدر الأساس للعهد النبوي. فإما أن الشاه قد حصل عليه عن طريق طائفة مسيحية في إمبراطوريته، أو يكون قد حصل عليه في منطقة من المناطق المتحدثة باللغة العربية؛ وغالب الظن أن يكون ذلك المكان هو دير القديسة كاثرين. أما الاحتمالات

التي يمكنني أن أقف عندها فهي كما يلي: (أولاً) أن يكون المسيحيون الأرمن من جلفة قد أعطوا الشاه عباس نسخة من العهد النبوي في محاولة منهم ثنيه عن اقتلاعهم من موطنهم، ولو أن ذلك لم يمنعه من الإقدام علىٰ إعادة توطينهم، واقتنع مع ذلك بمنحهم حقوقاً خاصة. (ثانياً) إن تقديم مسيحيي الأرمن نسخة من العهد النبوي للشاه عباس في إطار البحث عن الحماية والأمان داخل الإمبراطورية الصفوية كانت محاولة يسعون من خلالها إلىٰ الحصول علىٰ وضعية خاصة كلاجئين. (ثالثاً) لقد حصل الحكام الصفويون علىٰ نسخة من العهد النبوي من الرهبان المسيحيين. (رابعاً) قد يكون الحكام الصفويون حصلوا علىٰ نسخة من العهد النبوي عن طريق علماء الشيعة العرب الذين هاجروا إلىٰ بلاد فارس بصورة جماعية خلال حكم شاه عباس.

من المحتمل أن يكون المسيحيون الأرمن قد حصلوا علىٰ نسخة من العهد النبوي ﷺ وتناقلوه جيلاً بعد جيل إلىٰ حدود القرن العشرين، حيث اختفت الوثيقة الأصلية للعهد أو نسخة منه علىٰ ما يبدو. وكما أنه من باب الاحتمال أن يكونوا قد حصلوا علىٰ نسخة من عهد النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء، والذي يخول لهم من وجهة نظرهم بموجبه الحماية والأمان، ما دام العهد النبوي يتوجه إلىٰ مجموع مسيحيي العالم. وبما أن مسيحيي جلفة الجديدة كانوا يتحكمون في شبكة تجارية عالمية واسعة، فقد كانوا علىٰ صلة وثيقة ببقية المسيحيين الأرمن عبر العالم، بما في ذلك أولئك الموجودين بأوربا، وخاصة بفرنسا (انظر بورنوتيان ص ٢٠٩). ومن المحتمل أن تكون نسخة من العهد النبوي لرهبان جبل سيناء قد وصلت إلىٰ مسيحيي فارس بواسطة شبكة الطرق التجارية الأرمينية، كما أنه من الممكن أن يكون الشاهات الصفويون قد حصلوا علىٰ نسخة من العهد النبوي مباشرة بواسطة الرهبان المسيحيين عبر القنوات الدبلوماسية. وكما يلاحظ جورج أ. بوبنوتيان فإن معظم الدبلوماسيين الغربيين والسياح والتجار الذين زاروا بلاد فارس كانوا يستضافون بمدينة جلفة (ص٢٠٩). وإذا كان العهد النبوي لا يصل في امتداده التاريخي إلىٰ جلفة، فمن المحتمل أن يكون قد أوتي به إلىٰ جلفة الجديدة من خارج البلاد علىٰ يد الرهبان

المسيحيين أو من المبعوثين في مهمات خاصة.

لقد أرسل الشاه إسماعيل (ح ١٥٠١-١٥٢٤م) مبعوثين فارسيين إلىٰ المجر وإلىٰ مصر (انظر ليفي ص ٢٧٧). فمن الممكن أن يكون رسول فارسي قد أتىٰ بنسخة من العهد النبوي بمصر. وقد استقبل الشاه إسماعيل عدة سفراء أجانب، بمن فيهم بطرس الجبلاوي Petrus del Monte، وهو راهب ماروني من جبل لبنان وصل إلىٰ بلاد فارس سنة ١٥١٦م كسفير مبعوث من قبل العاهل المجري لويس الثاني. كما استقبل الشاه أيضاً سفيراً مبعوثاً من قبل ملك إسبانيا شارل الخامس في نفس الفترة. لكن الراهب الماروني علىٰ وجه الخصوص يبرز كأول شخصية تتجه نحوه الأنظار. إن سنة ١٥١٦-١٥١٧م تميزت بكونها سنة تم فيها تحويل عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء إلىٰ خزانة الإمبراطورية العثمانية. قد يبدو الأمر مسألة صدفة أو اتفاق أن تصل نسخة من العهد النبوي لرهبان جبل سيناء إلىٰ كل من السلطان العثماني وإلىٰ الشاه الصفوي في نفس الوقت بالتحديد. وكون بطرس الجبلاوي ينحدر من جبل لبنان -وهو نفس المكان الذي أعطي فيه الأب سكاليغر Scaliger نسخة من العهد النبوي لمسيحيي العالم علىٰ أيدي الرهبان الكابوتشيين العرب-، فهٰذا أيضاً أمر يدعو لإثارة الانتباه. علىٰ أن الشاه طهماسب [الأول] Tahmasp (١٥٢٤-١٥٧٦م) بالرغم من كونه لا يكِنُّ كبير ود للمسيحيين، فإنه مع ذلك استقبل سفير انجلترا أنطوني جينكنز مبعوثاً من قبل الملكة إليزابيث (ليفي، ص ٢٦٣).

وبما أن الشاه عباس حكم فيما بين ١٥٨٧ و ١٦٢٩م وأن الأب سكاليغر Scaliger كان في فارس في الفترة ما بين سنة ١٦٢٨ و١٦٢٩م، ألا يمكن لهٰذا المبشر الفرنسي أن يكون قد منح الحاكم الصفوي نسخة من العهد النبوي التي كان قد عثر عليها؟ ورغم كون هٰذا من السيناريوهات الممكنة، إلا أنه يبدو مستبعداً نظراً لطابعه المتأخر. وكيفما كان الحال فإن جبل الكرمل ظل دائماً متميزاً كمصدر إشعاع. فالفرق المسيحية علىٰ اختلافها كانت نشيطة للغاية في الشؤون السياسية لتلك الفترة. فكانت تقف وراء شبكات دبلوماسية واسعة، وكانت لها تمثيليات في معظم الحكومات الإسلامية. وكان الهدف من تلك الشبكات هو السعي لخدمة طوائفها. وبحلول عهد

الشاه عباس الثاني ازداد نفوذ المبشرين المسيحيين الكابوتشيين (ليفي ص٢٨٨). وبما أن هٰؤلاء كانوا ينشطون في العلن بدل السرية، فإن إمكانية اقترافهم للغش والتدليس في واضحة النهار كانت تبدو محدودة. وعلىٰ أي حال فإنهم لم يكونوا ينشرون وثائق من نوع جديد بل كانوا بالأحرىٰ ينشرون عهوداً ومواثيق للنبي ﷺ كانت معروفة منذ الأيام الأولىٰ لظهور الإسلام.

وإذا كان فقهاء الشيعة هم حكام البلاد في الداخل، فإن عباس الأكبر قد استعان بمسيحيين كممثلين له في الخارج. وهكذا قرر تعيين روبرت شيرلي -وكان هٰذا الأخير قد انضم إلىٰ البلاط الصفوي صحبة أخيه سنة ١٥٩٨م- سفيراً ممثلا شخصياً له لدىٰ ملوك أوربا حيث أرسله إلىٰ ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا وروما (ليفي ص٢٦٦). علىٰ أن الشاه عباس استقبل بالمقابل سفارات من إسبانيا والبرتغال من بين دول أخرىٰ (جردي أبي سعد ص٨٠). وكما يصف ذلك حبيب ليفي، فقد أضحت بلاد فارس آنذاك عبارة عن "سيرك لجواسيس أوربا" (ص٢٥٩). "فلم يمض وقت طويل -يقول ليفي- حتىٰ أصبحت إيران ساحة تعج بمحركي الفتن والقلاقل الأوربيين المقنَّعين تحت لباس تجار ومسافرين ورسامين وفنانين وسفراء وأمراء وأصحاب مشورة وممثلين دبلوماسيين وموظفين ومبشرين ومدرسين" (ليفي ص٢٦٣). وإذن فإن أي واحد من هٰؤلاء كان بإمكانه أن يهدي الشاه نسخة من العهد النبوي كعربون عن حسن نيته.

وكيفما كان الأمر، يبدو أن عباس الأكبر قد حصل علىٰ العهد النبوي عن طريق الأرشيف الحكومي للدولة الصفوية؛ ومن المحتمل أن يكون قد أعطاه راهب مسيحي لإسماعيل قرناً قبل ذلك. غير أن العهد النبوي ينسجم انسجاماً تاماً مع برنامج عباس الإمبراطوري حيث إن تسامحه مع المسيحيين يندرج في إطار سياسته الرامية إلىٰ ربط علاقات صداقة مع القوىٰ الأوربية في إطار محاربة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يشكلون عدوهم المشترك. ومن صدف الأقدار أنه إذا كان الصفويون يسعون إلىٰ إقناع الأسبان بأن الشيعة يعاملون رعاياهم المسيحيين معاملة حسنة، فإن العثمانيين كانوا يفعلون نفس الشيء مع الفرنسيين. وإذن فإن كلاً من الشيعة والسنة كانا يحملان

نسخاً من العهد النبوي من أجل كسب عطف وتأييد قوىٰ غربية مسيحية متصارعة. ومما يدعو للغرابة فإن مسيحيي إسبانيا كان بإمكانهم أن يتعاملوا بإيجابية مع الشيعة عن طريق دعم انتشار المذهب الشيعي بين مورسكيي شمال إفريقيا بغية زعزعة الحكم العثماني هناك (انظر كوتلاس فيرير ص٤٩-٦٤). وأن يكون العثمانيون والصفويون كل منهما يحمل نسخاً متباينة لما يمكن أن يكون نفس العهد الأصلي، هو سؤال مفتوح ينتظر الجواب.

وباعتبار أن العديد من علماء الشيعة الإثني عشرية المرموقين قد انتقلوا للإقامة داخل الإمبراطورية الصفوية خلال حكم الشاه عباس، فمن المحتمل أن يكونوا قد اصطحبوا معهم نسخة من العهد النبوي. وإذا كانت هذه الوثيقة قد اختفت من المصادر الشيعية، فإن مرد ذلك جزئياً إلىٰ كونها قد تكون تعرضت للإحراق عندما أقدم جمال باشا -السلطان العثماني- علىٰ حرق آلاف الكتب التي ألفها علماء شيعة ينتمون لجبل عامل بسوريا (انظر جردي أبي سعد، ص٢١٨، م١٢). وإذا كان الإمام جعفر الصادق قد شهد علىٰ صحة العهد النبوي، [وبما أن [هٰذا] العهد النبوي] يشتمل علىٰ مواد شيعية واضحة، فمن المحتمل أن يكون العلماء الشيعة الإثني عشرية قد أتوا به إلىٰ الإمبراطورية الصفوية، وليس الرهبان المسيحيين. وهٰذا لا يتعارض مع إمكانية أن يكون علماء الشيعة العامليون قد حصلوا علىٰ نسخ من العهد النبوي علىٰ يد بعض رجال الكنيسة المسيحيين. وبما أن العلماء العامليين الذين كانوا في خدمة الشاه، أمثال أحمد بن زين العابدين العلوي العاملي (المتوفىٰ سنة ١٦٤٤م)، قد ألفوا مصنفات ذات طبيعة سجالية هدفها حث المسيحيين علىٰ اعتناق الإسلام، فإن العهد النبوي قد يكون لعب دور ترغيب أتباع المسيح وتشجيعهم علىٰ اعتناق المذهب الشيعي. هناك أيضاً احتمال ضعيف مؤداه أن العهد النبوي كان في ملكية المسلمين من سكان جلفة. وحسب جورج أ. بورنوتيانن فإن الشاه عباس قد استقبله ورحب به المسيحيون والشيعة معاً كمحرر. وهٰؤلاء هم سكان منطقة ناخيشيفان Nakhichevan (ص٢٠٨). وعليه، فمن المحتمل أن يكون إحساس من التضامن قد شمل الشيعة والمسيحيين معاً تحت الحكم العثماني.

أما بالنسبة لقراء تستهويهم نزعة التسرع في استنتاج النتائج، فإن الجواب [عن هذه التساؤلات] يتمثل ببساطة فيما يلي: بما أن العهد النبوي لمسيحيي فارس يحتمل انه كتب بالفارسية، والعهد النبوي لرهبان جبل سيناء كتب بالعربية، فإن النسخة الفارسية لا بد أن تكون بطبيعة الأشياء ترجمة عن الأصل العربي. أما بالنسبة للباحث الأكاديمي، فإن المسألة معقدة أكثر من ذلك بكثير؛ ذلك لأن بعض النسخ العربية للعهد النبوي لرهبان جبل سيناء هي بالفعل ترجمات للنسخ التركية للعهد. فعلىٰ سبيل المثال، إن عهد النَّبِيّ مُحَمَّد *Oath of The Prophet Mohammed* للكاتب ف. حداد هو في الحقيقة ترجمة انجليزية عن ترجمة عربية للكاتب نوفل أفندي نوفل، وهو مسيحي من طرابلس بسوريا. وهذه الترجمة العربية التي وجدت في كتاب ألفه هٰذا الكاتب والمعروف بـ"سنجات الطرب" كان ترجمة عن نسخة تركية عن الأصل العربي للعهد النبوي لرهبان جبل سيناء. والنسخ العربية ذاتها للعهد النبوي توجد بها عدة أخطاء. ومن هنا يمكننا أن نرافع بأن النسخة العربية الأصلية قد تُرجمت إلىٰ اللغة التركية أو إلىٰ اللغة الفارسية، وأن النسخة العربية [الأصلية] قد ضاعت، وأن بعض النسخ العربية التي لا تزال موجودة هي في الحقيقة ترجمات رديئة عن اللغة التركية أو الفارسية قام بها أناس تعتبر اللغة العربية بالنسبة إليهم لغة ثانية أو ثالثة. وإلا فإن الأخطاء التي ارتكبت في النسخ العربية هي أخطاء ارتكبها الناسخون من غير العرب.

وبالرغم من كون ذلك مستبعداً لدىٰ كثير من الناس، إلا أنه يمكن للمرء أن يرافع بأن العهد النبوي الأصلي قد تمت كتابته باللغة الفارسية، وعلىٰ أن الأخطاء الموجودة في النَّصّ العربي هي ناتجة عن ترجمة رديئة. وإذا تركنا المسائل اللغوية جانبًا، فما الذي يمكن أن يفسر الفروق من حيث المحتوىٰ بين النسخة العربية والنسخة الفارسية؟ مرة أخرىٰ إن الجواب قد يبدو سهلاً بالنسبة للبعض، ذلك لأن الشاه عباس قام بإضفاء الطابع الشيعي علىٰ العهد النبوي، علىٰ غرار قيامه بفرض المذهب الشيعي كمذهب رسمي في ربوع إمبراطوريته. وقد يبدو هٰذا مثالاً واضحًا علىٰ تحريف الشيعة للمصادر أو التلاعب بها. غير أنه بإمكان الشيعة أن يجيبوا علىٰ هٰذا الاتهام بالقول إن الأتراك أو العرب هم الذين قاموا بتجريد العهد النبوي من كل

العناصر والخصائص العلوية [الإمامية]. وفي الحقيقة فإن التلاعب الأموي بالكثير من العهود النبوية يبدو بشكل جلي، علىٰ الأقل فيما يخص قائمة الشهود. فلماذا يتم [مثلاً] إقحام اسم معاوية بن أبي سفيان -وهو العدو اللدود للإسلام- ككاتب للنبي ﷺ ومحرر لعهود ترجع إلىٰ فترة سابقة عن إسلامه؟

في رأي دادويان إن ادعاء أربي بشأن العهد النبوي لمسيحيي فارس هو "أمر مشكوك فيه جداً بالرغم من كونه مثيراً للاهتمام" (ص٦٠). وعلىٰ الرغم من كون المبشر الأمريكي يدعي أنه أخذ [العهد النبوي] من كتاب تاريخ جلفة الجديدة بأصفهان، فإنه يؤكد بأن لا وجود لمثل هذه الوثيقة في هٰذا الكتاب، ولا يوجد أي تدوين لمثل هذه الوثيقة في أرشيف أسقفية جلفة الجديدة" (ص٦٤، م٥٦). بالإضافة إلىٰ هٰذا فإنه " لا وجود لأثر الوثائق التي يشير إليها في الأسقفية الأرمينية لجلفة الجديدة، " (ص٦١). إن الاتهامات التي يأتي بها دادويان تبدو وكأنها اتهامات حاسمة ومبنية علىٰ حقائق. لكن إذا فحصنا الأمر فحصاً دقيقاً فهي لا تعدو أن تكون مبنية علىٰ مجرد افتراضات. يقول أربي: "إن الوثيقة الحالية هي ترجمة عن نسخة يوهانياز Johanianz (جلفة الجديدة ١٨٨١)". (ص٣٥٥). في الحقيقة هناك علىٰ الأقل ستة كتب تتناول تاريخ أرمينيا مكتوبة باللغة الأرمينية ونشرت في سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١. فالعهد النبوي من المحتمل أن يكون موجوداً في تاريخ أرميني آخر.

فإذا صحت بالفعل التهم التي عبر عنها سيتا ب. دادويان، فلماذا مرت ستون سنة دون أن ينبري مؤرخ واحد للرد علىٰ ادعاءاته؟ فإذا كانت عملية تزوير الأحاديث النبوية مسألة سهلة نسبياً تحت حكم الأمويين والعباسيين، فإن تقديم عهد نبوي مزور في سنة ١٩٤٨م يكون من باب الانتحار الأكاديمي. فبادئ ذي بدء، إن أربي ليس له ما يكفي من الإتقان اللغوي الذي من شأنه أن يمكنه من إعادة تأليف وثيقة بحجم العهد النبوي باللغة الفارسية المستعملة في القرن السابع عشر الميلادي، ولا كان لديه إلمام كاف بمذهب التشيع يسمح له بإخراج مُنْتَج مقنع. أضف إلىٰ هٰذا أنه لم يكن لديه شيء يربحه باقترافه لعملية تزوير تاريخي: لا سمعة ولا ثروة، بل علىٰ العكس من ذلك فإنه قد يتسبب في الأذىٰ لنفسه بصفة مؤكدة علىٰ يد خبراء الميدان. وعند قراءة

أعمال أربي، فهو يبرز كمؤرخ جدي وأعماله في الغالب هي موضع تنويه وإشادة من قبل خبراء الميدان. فماذا عسىٰ أن يكون الحافز وراء العمل علىٰ هدم صرح بنيانه الأكاديمي بإقدامه علىٰ تضمينه وثيقة مشكوك في أمرها؟ إن تفسير هـٰذا الأمر قد يبدو بسيطاً. ففي الخمسينات من القرن الماضي لم يكن معظم الباحثين يرقنون مخطوطاتهم، بل كانت السكريتيرات هن من يقمن بهذه المهمة. وكانت الملحوظة التي تأتي في آخر النَّصّ بالأخص تطرح مشكلات حقيقية، فمن الممكن أن يكون أربي أو إحدىٰ الراقنات أو من قام بالمراجعة والتصحيح أو السحب قد ارتكب خطأ في الإثبات المرجعي referencing للعهد النبوي لمسيحيي فارس. أما بالنسبة لادعاء دادويان بإن العهد النبوي لا يوجد بأرشيف الأسقفية الأرمينية بجلفة الجديدة فهذه مسألة غير ذات بال. لقد كتب أربي يقول: "إن دير جلفة الجديدة، مقر الأسقفية التي كانت تحتوي في السابق علىٰ مكتبة، قد تم نهب معظم تحفها القيمة" (ص٢٣٥). قد يكون قصد أربي من هـٰذا هو أن يكون العهد النبوي محفوظاً في مكتبة الأسقفية قبل أن يتم نهب الدَّيْر. وكيفما كان الأمر، فالمسألة يكتنفها كثير من الغموض، وهي في حاجة إلىٰ مزيد من البحث والتقصي. فالكثير من الأرشيفات تحتوي علىٰ أعمال في الخزانات ولا يتم جردها في الفهارس.

فإذا كان تاريخ نسخة العهد النبوي المحفوظة بأرشيف أسقفية جلفة الجديدة يعود إلىٰ القرن السابع عشر الميلادي، فإنها تكون بالطبع منقولة عن نسخة أقدم منها. وكما يفيدنا أربي، "إن الإمام السادس جعفر الشيعي (الذي عاش في القرن الثامن الميلادي) يشهد بصحة النسخة بعد مقارنة النَّصّ المكتوب بخط يده بالنسخة الأصلية" (٣٥٥)، وقد يكون هـٰذا أقوىٰ دليل لتبني صحة العهد النبوي علىٰ الإطلاق. فبالنسبة للشيعة، إن الإمام جعفر الصادق هو رجل معصوم، ويعتبر بحق خليفة شرعيا للرسول ﷺ. إن سلطته الروحية ليست محل نقاش. فإذا صرح بأن العهد النبوي لمسيحيي فارس هو ميثاق صحيح بالمعنىٰ الحرفي للكلمة، وأنه مطابق للنسخة التي كانت بحوزته، والتي ورثها عن آبائه وأجداده، (أي عن الأمام محمد الباقر، والإمام زين العابدين، والإمام الحسين، والإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)، والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ)،

فإن هذه النسخة هي النسخة الأصلية، بينما يعتبر العهد النبوي لرهبان جبل سيناء إما نسخة مترجمة، وإما نسخة مأخوذة من نص أصلي، وإما وثيقة فريدة مستقلة في حد ذاتها.

وحسب الباحث جيراغوس فارتابيد، فـ"إن الكاثوليكي جوهن أوتزون قدم عند استقباله من قبل الخليفة العربي (الذي عرفه بكونه هشام) عريضة باسم شعبه واستجاب لها الخليفة. وتهم العريضة ثلاث مطالب هي حرية المعتقد كأمر يهم الفرد، وثانياً حرية العبادة الجماعية، وثالثاً إعفاء الكنائس ورجالها من الضرائب (انظر أربي ص ٣٥٥). وفي تقدير أربي إن منح هذه الحقوق بل تأكيدها من قبل الخليفة عمر[بن عبد العزيز] أو هشام قد يكون له وقع تاريخي. إن الخليفة عمر الثاني [بن عبد االعزيز] (ح ٧١٧-٧٢٠)، والخليفة هشام (ح ٧٢٤-٧٤٣) والكاثوليكي جوهن أوتزن (٧١٧-٧٢٨م) والشاهد علىٰ الوثيقة الموالية، الإمام محمد جعفر بن محمد (٧١١-٧٣٦م)، كانوا كلهم معاصرين لبعضهم البعض" (ص٣٥٥).ولذلك وبالرغم من كون النسخة الموجودة للعهد النبوي لمسيحيي فارس يرجع تاريخها إلىٰ القرن السابع عشر الميلادي، فإننا قد وقفنا علىٰ أدلة تشير إلىٰ أنه قد تم تبنيها والإعلاء من شأنها في القرن الثامن عشر الميلادي، وأن مرجعاً دينياً بارزاً متمثلاً في الإمام جعفر الصادق قد قام بتحقيقها وتأصيلها. فأن يقوم النَّبيّ ﷺ بعقد عهود مع نصارىٰ فارس لا يطرح أية مشكلة علىٰ الإطلاق. وكما يفسر ذلك أربي "لم يكن علىٰ محمد أن يراسل الدول والحكام الذين لم يسبق له أن التقىٰ بهم عن كثب" (ص ٣٥٥). إن ما كان يقوم به النَّبيّ ﷺ هو عمل فذ استشرافي من وجهة نظر استراتيجية. لقد كان النَّبيّ ﷺ يهيئ السبيل لفتح فارس، ذلك الفتح الذي سيتم مستقبلا عن طريق إنشاء حلف بين المسيحيين المضطهَدين والمسلمين ضد مضطهِديهم من المشركين والوثنيين.

تَعليق عَلَىٰ مُحْتَوَىٰ العَهد النَّبَوي لِنَصارَىٰ فَارِس

يبدأ العهد النبوي لمسيحيي فارس بالبسملة. وخلافًا لبعض العهود النبوية الأخرىٰ التي تركز علىٰ واجبات المسلمين تجاه المسيحيين في البداية، وتختم بالكلام عن واجبات المسيحيين تجاه المسلمين، فإن هٰذا الميثاق، أي ميثاق النَّبيّ ﷺ لمسيحيي فارس، يبدأ الكلام عن الطاعة الواجبة علىٰ "كل الأمم المسيحية ...في العالم قاطبة "والذين يعيشون شرق الجزيرة العربية وبلاد فارس، سواء أكانوا علىٰ اتصال مباشر أو غير مباشر بالمسلمين. ولا يعد العهد ملزمًا للمسيحيين فحسب، بل من الواجب عليهم أن يتقيدوا بمقتضياته وشروطه". فكل من عمل به، يقول النَّبيّ ﷺ، فهو صادق العقيدة؛ وكل من حرفه أو ألغاه يستحق العقاب، بغض النظر عن دينه أو وضعه الاجتماعي أو مرتبته السياسية. فبالنسبة لمن يضع أقوال النَّبيّ ﷺ في المرتبة الثانية بعد قول الله تعالىٰ -أي القرآن الكريم- فإن رسول الله ﷺ يؤكد هنا أن كلمات هٰذا العهد جاءت بوحي من الله تعالىٰ. فالعهد النبوي إذن هو صادر عن الله تعالىٰ وليس صادراً عن البشر، ووزنه ثقيل لدرجة أن لا نبي فيما سبق ولا الملائكة المقربون كلفوا بحمل شيء مثله. وبهٰذا الاعتبار، "إن كلمات هٰذا العهد يجب أن تطاع" من قبل جميع أمة النَّبيّ ﷺ. فإذا كان موسىٰ قد أخذ الله منه ميثاقًا، فهو ميثاق يتعلق ببني إسرائيل، وعلىٰ خلاف مُحَمَّد ﷺ، لم يقع علىٰ عاتق موسىٰ واجب حماية أفراد الديانات الأخرىٰ خارج ديانته.

يقول النَّبيّ ﷺ "علىٰ كل المؤمنين الورعين واجب الدفاع عن المؤمنين ومساعدتهم حيثما كانوا، قريبين أو بعيدين". إن اعتبار المسيحيين هنا كمؤمنين، ينسجم مع مقتضيات 'صحيفة المدينة' التي تُعَدُّ إحدىٰ أقدم الوثائق في تاريخ الإسلام، كما تعد دليلاً علىٰ قدم وثيقة عهد النَّبيّ ﷺ لمسيحيي فارس. إن واجب المسلمين الذي يفرض عليهم الدفاع عن المسيحيين يتجاوز 'دار الإسلام' حيث يعيش أغلبية المسلمين، بل يشمل بلاد المسيحيين Christendom حيث يجب علىٰ أتباع النَّبيّ ﷺ أن يحموا الكنائس والأديرة، إضافة إلىٰ الرهبان والقساوسة. وحيثما

وُجد المسيحيون فإنه من واجب المسلمين أن يدافعوا عنهم. والمقصود بالمسيحيين هنا -بطبيعة الحال- هم المسالمون منهم وأصدقاء الإسلام، أي الإخوان والأخوات في الإيمان، وليس الصليبيين أو الاستعماريين أو الإمبرياليين. من المنتظر بلا شك أن يكون هٰذا المبدأ محل معارضة واستنكار من قبل التكفيريين والإرهابيين. ومهما بدت هذه النصيحة النبوية مخالفة للمعقول ولما هو عملي في نظر الكثير من الناس اليوم، فإن الحكام المسلمين الأوائل كانوا يعملون بها ويطبقونها. فكما يفيد محمد حميد الله في هٰذا الباب: "تقول وثيقة يرجع عهدها إلىٰ فترة حكم الخلفية عمر بن عبد العزيز (روايةً عن ابن سعد) إن أداء الحكومة الإسلامية للفدية كانت تشمل أيضـاً تحرير الأفراد غير المسلمين الذين يقعون أسرىٰ في يد العدو" (المقدمة ص١٢٧). فحتىٰ الأمويين المعروفين بكونهم أكبر الكاذبين في تاريخ الإسلام، لم يُتوقع منهم أن يضطلعوا بمثل هذه المهمة، إلا أن عمر بن عبد العزيز، الخليفة الراشد الوحيد في سلالة الخلفاء الأمويين، لم يكن ليشذ عن الالتزام بسنة سبق أن سنها رسول الله ﷺ، والمتمثلة دون شك في العهد الذي أعطاه ﷺ لمسيحيي فارس. واستناداً إلىٰ النظرية الإسلامية المعتمدة، فإن المواطن هو مواطن بغض النظر عن ديانته، إذ من واجب الدولة الإسلامية أن تحميه سواء أكان يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو غير ذلك، لا داخل حدودها فقط بل خارج تلك الحدود أيضـاً. في القرن الواحد والعشرين، أضحت هذه الدرجة من الالتزام من قبل الدولة تجاه مواطنيها من اختصاص أقوىٰ الدول وأكثرها تطوراً في العالم فقط.

وفيما يتعلق بالنَّبيّ ﷺ، فإن الحرص والاهتمام بأهل الذمة يعد جزءاً من القاعدة [الأخلاقية] الذهبية التي تقول: 'عامل الناس كما تريد أن يعاملوك'. غير أن رسول الله ﷺ ارتقىٰ بهذه القاعدة درجة أسمىٰ فأمر المسلمين أن يحترموا المسيحيين بدرجة احترامهم لشخصه نفسه. فعليهم أن يتحروا العدل في جبايتهم [لأهل الذمة] [ص١٠٥]. ففي الوقت الذي كانت هناك حالات أثقل فيها المسلمون كاهل المسيحيين بالضرائب، فقد كانت هذه حالات شاذة عن القاعدة. إن الروايات التي تتحدث عن 'إرهاق جبائي' مزعوم كان ضحيته المسيحيون، هي ببساطة أقوال ناتجة

عن دعاية مناوئة للإسلام والمسلمين، يضاف إليها الادعاء بأن الحكام المسلمين كانوا يمنعون بناء الكنائس والأديرة. فكما يأمر النَّبيّ ﷺ بذلك:

”لا تمس مبانيهم ولا يؤذى قساوستهم عند القيام بعملهم، ولا يضطهدون بسبب عقيدتهم وتقاليدهم، بل يسمح لهم بالعبادة كما يشاؤون في أماكن عبادتهم ووفق طقوسهم، ولا تهدم كنائسهم ولا تصادر ديارهم ولا قصورهم من قبل المسلمين لكي يحولوها إلى مساجد أو مساكن دون موافقتهم. وكل من خالف ما هو مكتوب هنا وتنكر لأوامري فهو مستخف بهٰذا العهد ومنكر جاحد لكلمة الله ورسوله“

كان المسيحيون يُجبوْن بمقدار أربعة دراهم عن كل شخص بالغ، تؤدىٰ نقداً أو بضاعة. وهٰذا المال لا ينبغي أن يصير ملكية شخصية لأي سيد أو عامل أو سلطان، بل يجب أن يوضع في بيت مال المسلمين من أجل الإنفاق العمومي. أما التجار والأغنياء وصيادو اللؤلؤ ومستخرجو المعادن ومالكو العقارات، فإن مبلغ الجباية الواجب عليهم أداؤه لا ينبغي أن يتعدىٰ اثني عشر درهماً. وعلىٰ الرغم من الاتهام الذي يقول إن أهل الكتاب فقط هم من يتمتع بقدر محدود من الحقوق، بينما تسلب جميع الحقوق من ”الكفار“ بالمرة، فإن النَّبيّ ﷺ أمر بأن يؤدي غير المسيحيين مبلغ أربعة دراهم في السنة. بعبارة أخرىٰ، إن اليهود والزرادشتيين والمشركين والأرواحيين وحتىٰ الملحدين يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسيحيون. أما الخراج (أو ضريبة الأراضي) فلا تطبق –بطبيعة الحال– إلا علىٰ السكان المقيمين، لا علىٰ السكان الرحل. فإذا كانت بعض العهود النبوية تستعمل لفظة ’سلطان‘ للإشارة إلىٰ الحاكم، ففي العهد النبوي لمسيحيي فارس تستعمل كلمة ’إمام‘ لنفس المدلول. وبكل صدق وأمانة، فإن هٰذا هو المصطلح الذي يبدو أن النَّبيّ ﷺ قد استعمله أصلاً ثم تم تغييره فيما بعد ليوافق هوىٰ العرب والعثمانيين السنة. ذلك لأن القرآن والحديث النبوي لا يستعملان لفظ ’سلطان‘ بل لفظ ’إمام‘.

بينما يُعفىٰ المسيحيون من أداء واجب الخدمة العسكرية تجاه الدولة

الإسلامية، فيؤدون الجزية مقابل ذلك، فإنه يبقىٰ علىٰ عاتق المسلمين واجب الدفاع عنهم: "لا أحد من النصارىٰ يُجبر علىٰ الإسلام قهراً"، يأمر النَّبيّ ﷺ. كما يوصي بأن تسود المحبة والود دائماً العلاقة بين الجانبين. وما دام المسيحيون يؤدون واجباتهم تجاه الدولة الإسلامية، فإنه "لا يجوز أن يُـرهق أي مسيحي أو يُضطهد". ومن الأهمية بالمقابل أنه "لا يجوز للمسيحيين بدورهم أن يرهقوا المسلمين أو يضطهدوهم من الآن إلىٰ ما شاء الله"، ذلك لأن السلام ليس طريقاً وحيد الاتجاه، وبالتالي، يحظر علىٰ المسيحيين أن يضطهدوا المسلمين أو يوالوا أعداء الإسلام. إن هذه الجملة الأخيرة يبدو أنها تتنبأ بالصراع النهائي بين أتباع المسيح والإمام محمد المهدي [من جهة] والمسيح الدجال من جهة أخرىٰ، حيث يجب علىٰ كل فرد من أفراد البشرية أن يختار فريقه.

"لا يتزوج مسلم امرأة أو أمة نصرانية بالقوة"، كان هٰذا أمر النَّبيّ ﷺ. وهو بذلك يعطي الدليل القاطع علىٰ الجرائم التي ارتُكبت في حق النساء الأمازيغيات علىٰ يد المسلمين الفاتحين الأوائل، أو علىٰ ما قام به صيادو العبيد والنخاسون من الأمور التي يحرمها الإسلام لكونها جرائم شنيعة يعاقب الله تعالىٰ مرتكبيها في الدنيا والآخرة. ومن الجدير بالإشارة بصفة خاصة ما يقول بصدده الرسول ﷺ ما يلي: يجوز للنساء المسيحيات إن كان ذلك بمحض إرادتهن، وكان دافعهن إلىٰ ذلك هو دافع الحب، أن يتزوجن رجالاً مسلمين سواء بصفة دائمة أو بصفة محدودة".

إن الإشارة هنا هي بشكل لا لبس فيه إشارة لزواج النكاح وزواج المتعة معاً. وكما يعلم جميع علماء المسلمين الأمناء فإن زواج المتعة لم يكن مباحاً في زمن النَّبيّ ﷺ فقط بل كان مرغَّباً فيه فعلاً من أجل منع حوادث السفاح والزنا والاعتداءات الجنسية، لا سيما إذا غاب الأزواج عن نسائهم لمدد طويلة، كما كان يحدث ذلك في أيام الحرب. ويحتج بعض السنة أن زواج المتعة قد حرمه رسول الله ﷺ. لكن التواريخ التي يشيرون إليها مثل غزوة خيبر أو غزوة أوطاس أو فتح مكة هي كلها تواريخ متضاربة. بالإضافة إلا هٰذا، فإنه لا أحد من الأحاديث التي تحرم زواج المتعة هي أحاديث متواترة السند (انظر كاشف الغطاء، ص٨٤). فالصحابة أمثال عبد الله بن

عباس ومجاهد والطائي وجابر بن عبد الله الأنصاري وسلامة بن الأكوع وأبي سعيد الخدري والمغيرة بن شعبة وسعيد بن جرير وابن جارح، كلهم يؤكدون إباحة زواج المتعة. إن الإمام علياً (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) وأحفاده من آل البيت يؤكدون بأن زواج المتعة كان ساري المفعول إسلامياً إلىٰ أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب فحرمه. وإذن فلقد تم وضع حديث يحرم فيه النَّبيّ ﷺ زواج المتعة، وجاء هٰذا الحديث لدعم ذلك التحريم بعد وفاة النَّبيّ ﷺ. وكما تجمع المصادر علىٰ ذلك، كان عمر بن الخطاب هو أول من حرم زواج المتعة (انظر كاشف الغطاء، ص٨٠-٨٣؛ الحسين ٣٠٤؛ طباطبائي ٢٢٧؛ رزفي ٧٤-٧٥). وكما يعترف بذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: "متعتان كانتا في زمن النَّبيّ ﷺ وفي زمن أَبِي بَكْر منعتهما، وسأعاقب من خالف أوامري، هما متعة الحج ومتعة النساء" (ذكره طباطبائي ص ٢٢٧).

ليس لهٰذا التحريم قوة إلزامية، لأنه يتعارض مع القرآن الكريم والذي تعد أحكامه صالحة لكل زمان. فالله تعالىٰ يبين ذلك في كتابه حيث يقول:﴿ ... فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (٤:٢٤). ويحاج بعض السنة بأن هذه الآية قد تم نسخها. لكن لا يمكن للصحابة أن يستمروا في ممارسة زواج المتعة لو كان الأمر كذلك. وحتىٰ بعض كبار علماء السنة أمثال الزمخشري وحكم بن عينية يقولون إن آية زواج المتعة لم تنسخ (انظر كاشف الغطاء ص ٧٩). وفي العقود الأخيرة مارس التكفيريون زواج المتعة في الوقت الذي خرقوا فيه كل شروطه وأركانه. وكما هو معهود فيهم، فهم ببساطة يستهزئون بالإسلام من خلال تأويلاتهم الملتوية علىٰ غرار جعلهم التكبير مرادفاً للقتل والدمار والترهيب. في حالة زواج امرأة مسيحية برجل مسلم بمحض إرادتها، فإن لها حرية البقاء علىٰ عقيدتها المسيحية. ولذلك فإن العادة التي تشترط علىٰ النساء المسيحيات اعتناق الإسلام قبل زواجهن برجال مسلمين هي عادة غير مؤسسة علىٰ أي سند. وإذا ما وضع رجل مسلم ضغوطاً علىٰ امرأة مسيحية من قبيل أن تعتنق "إسلام المظاهر"، فإنه يكون بذلك قد ارتكب إثماً، ويكون في تناقض صارخ مع العادات الثقافية الإسلامية حيث يتم إرغام البنات علىٰ زواج مصلحي مفروض عليهن، فإن النَّبيّ ﷺ يشير إلىٰ أن أبرز شرط من شروط

الزواج هو الحب والمودة، وأنه لا ينبغي أن يتم أي زواج إذا لم تكن المرأة راغبة فيه. وبالرغم من كون علماء المسلمين يبدون وعيهم بهذه الأحاديث النبوية، فإن هناك فرقاً شاسعاً بعد السماء عن الأرض ما بين نظرية الإسلام وبين ممارسته وتطبيقه علىٰ أرض الواقع. ففي العديد من الحالات، فإن عادات 'المسلمين الثقافيين' تتناقض تناقضاً صارخاً مع القرآن والسنة والشريعة.

يسمح للمسيحيين بترميم كنائسهم وصوامعهم وأديرتهم؛ والمسلمون أحرار في مساعدتهم علىٰ ذلك إن أرادوا، كما يُطلب من النصارىٰ بالمقابل مساعدة المسلمين علىٰ بناء مساجدهم كعربون علىٰ الصداقة وحسن النوايا. وطالما ظل النصارىٰ مدينين بالولاء للحكم الإسلامي وراغبين في الحماية الإسلامية لهم، فإن أي مساعدة تقدم لهم من قبل المسلمين هي مساعدة مشروعة من جميع الجوانب. وعلىٰ خلاف عهد النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء حيث لم يطلب من الرهبان أن يخدموا المسلمين ككشافة أو جواسيس أو عملاء، فقد رفع النَّبِيّ ﷺ هٰذا القيد عن عوام النصارىٰ: "فإذا أرسل أحدهم كمفاوض علىٰ السلم للتوسط بين المسلمين والمشركين، فلا أحد يمنعه من ذلك، وإذا ثبت أنه مفيد لمصلحتنا وقضيتنا، فليقبل منه هٰذا العمل".

في سنة ٦٥٠م دخل معاوية [بن أبي سفيان] بصفته عاملاً علىٰ سوريا، بجيش كبير فاتحاً لمعظم الأراضي الأرمينية، (بورنوتيان ص٧٢). فلم يقتصر علىٰ إعفاء الأرمن من أداء الضريبة المترتبة عليهم لعدة سنوات، بل وافق أيضاً علىٰ أن يحتفظوا بخيلهم ما دام للعرب المسلمين حاجة إليها في وقت الحرب (ص٧٢). منح معاوية الأرمن الحكم الذاتي بالرغم من كونه كان يأتمر بأمر الخليفة عثمان بن عفان. ولم يعين عاملاً علىٰ أرمينيا، إلا أنه وعد بأن تحمي الجيوش العربية هٰذا البلد المسيحي إذا ما تعرض لأي اعتداء علىٰ يد الدولة البيزنطية (٧٢). وكما يسجل ذلك بورنوتيان، فإن ثيودور رشتوني، الذي تم تعيينه أميراً علىٰ أرمينيا من قبل الإمبراطور هيراكليس قد تمكن من الحصول علىٰ شيء لم يستطع أن يفتكَّه من الإمبراطور المسيحي لبيزنطة"(٧٣). ويؤكد ملاخيا أورمانين أنه "كانت للخلفاء مصلحة في رؤية الأرمن

يقومون بأنفسهم بأعباء أمورهم الدينية بطريقة مخالفة للأفكار اليونانية" (٤٤). وبدل أن يفرض الخلفاء المسلمون دينهم علىٰ الشعوب التي فتحوا أراضيها، فقد فضلوا أن يمنحوهم حق تسيير أمورهم بأنفسهم سواء منها الإدارية أو الاجتماعية. وحينما شن البيزنطيون حملتهم علىٰ أرمينيا، وطردوا رشتوني، أرسل معاوية جيشاً جديداً اضطر معه البيزنطيون علىٰ الانسحاب، وتم إعادة رشتوني إلىٰ سدة الحكم مرة أخرىٰ"(٧٣). وهٰذا مثال واضح علىٰ قيام القوات الإسلامية بإنقاذ الحلفاء المسيحيين المتمتعين بالحكم الذاتي وإنقاذهم من أعدائهم المسيحيين.

إن المسيحيين الموجودين تحت راية الإسلام يعتبرون جزءاً من طائفة المؤمنين ولا يعدون كفاراً. ولكي ينتسبوا إلىٰ أمة المؤمنين وإلىٰ العائلة الإبراهيمية، يتعين علىٰ المسيحيين أن يلتزموا بما يلي:

"عليهم ألا يقدموا أية مساعدة للمشركين سواء كان ذلك علناً أو في الخفاء، وألا يستقبلوا بديارهم أعداء المسلمين مخافة أن يغدروا بهم إذا تحينوا الفرصة لذلك. وعليهم ألا يسمحوا للأعداء بالتوقف عند ديارهم أو كنائسهم، وألا يؤووا جيوش العدو أو يمدوهم بالرماح والنبال والسيوف والخيل وما إلىٰ ذلك.

ولا يجوز أن يشتغلوا كمرشدين لهم أو يطلعوهم علىٰ كيفية إعداد الكمائن؛ ولا أن يستودعوا عندهم الودائع، ولا ينبغي أن يتواصلوا معهم أو يساعدوهم بفعل أو قول، أو يؤووهم إلا مضطرين.

وإذا ما حدث أن دخل مسلم دار مسيحي، فيمكن له أن يقيم بها ثلاثة أيام وثلاث ليال. ولا يتعدىٰ ذلك إلا لضرورة. وعلىٰ المسلمين تجنب إذاية المسيحيين وقهرهم علىٰ غرار ما يفعل المستبدون بهم.

في حالة اضطرارهم لإخفاء مسلم في ديارهم وبروجهم، فعليهم أن يعطوه مكاناً ينام فيه ويعتنوا به، وألا يتركوه بلا أكل ما دام متخفياً عندهم. وعليهم ألا يخذلوا أو يكشفوا نساء وأبناء المسلمين للعدو. وعلىٰ المسيحيين

ألا يحيدوا عن هذه الأوامر."

يحذر النَّبيّ ﷺ كل مسيحي تصرف تصرفًا مناوئًا لمقتضيات العهد النبوي أو تجاهله أنه يعتبر أنه "ناقض للعهد". ومثل هٰذا الشخص "يمقته الله ورسوله ويعاقب بما قدمت يداه". ويلخص النَّبيّ ﷺ العهد النبوي بالقول إنه ملزم للنصارىٰ إلىٰ ما شاء الله. وفي مثال آخر عن الآثار الشيعية العلوية في العهد النبوي، يتبع اسم محمد بعبارة 'صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم'. وإذ يكتفي المسلمون السنة علىٰ 'الصلاة والسلام علىٰ النبي'، فإن المسلمين الشيعة غالبًا ما يصلون علىٰ رسول الله وعلىٰ آل بيته الطاهرين. إضافة إلىٰ هٰذا فإن اسم علي [بن أبي طالب] في قوائم أسماء الشهود هو متبوع بعبارة 'عليه السلام'. بينما كانت بعض المراجع السنية المبكرة تستعمل هذه العبارة من حين لآخر، بعد ذكر اسم علي، فإن هٰذا التقليد أصبح فيما بعد مرتبطًا بصفة حصرية في شيعة آل البيت. وأخيراً فإنه علىٰ غرار العهود النبوية الأخرىٰ، فإن العهد الذي نحن بصدده هو مؤرخ كذلك في السنة الرابعة للهجرة؛ وهو تاريخ قد يكون أثبته أحد النساخ في وقت من الأوقات خلال انتقال الوثيقة من يد ليد، والذي يبدو انه لم يكن مثبتًا في النسخة الأصلية.

مُلَاحَظَات خِتَامِيَّة

إن عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي فارس هو وثيقة ذات قيمة تاريخية بالغة الأهمية، غير أنها لا تخلو من بعض المشكلات. ذلك أن أصلها وتطورها ينبغي أن يحضيا بتدقيق علمي حثيث ومتواصل. تقول سيتا ب. دادويان في هٰذا المضمار، وفي الظروف الراهنة، إنه لا يمكن إثبات صحة العهد النبوي (ص٦١). وأريد أن أرد عليها: "كما أنه لا يمكن نفيها". ذلك أن مسؤولية الإثبات تقع علىٰ المتّهِم the accuser . وكيفما كان حجم الشكوك التي واجهت بها سيتا ب. دادويان هٰذا العهد النبوي، وكيفما كان مجهود أربي في تفسير العهد النبوي، فإن دادويان تعترف بأن "تاريخ جلفة الجديدة في إطار الدولة الإسلامية تثبت بطريقة ما هذه الفرضية الجامحة" (ص٦١). في الوقت الذي يبدو أن وثيقة العهد المتحدث عنه قد ضاعت، فإنها ببساطة قد يكون إما تغير مكان حفظها، وإما تعرضت للسرقة. فلا يسع المرء إذن إلا أن يأمل أن يعاد اكتشافها، حيث يتمكن العلماء من فحصها بمزيد من التدقيق والتمحيص. وكما تشير إلىٰ ذلك دادويان بصورة ضمنية، إن العهد النبوي لمسيحيي فارس لا يمكن إلا أن يكون موجوداً في فترة تاريخية معينة. فعلىٰ امتداد مائتين وخمسين عاماً فيما بعد، -تقول دادويان- وعلىٰ الرغم من الفروق الكبيرة في الظروف والملابسات، فإن النسختين من 'التنظيمات' العثمانية (أو الإصلاحات لسنتي ١٨٣٩ و ١٨٥٦م) لم تَعْدُوَا كونهما نسختين مستمدّتين من النظام المديني [نسبة إلىٰ المدينة المنورة] الذي يتم بمقتضاه تنظيم وضعية الرعايا من أهل الذمة" (ص٦١). وتضيف دادويان قائلة: "في الوقت الراهن في الكثير من البلدان الإسلامية لا تختلف وضعية الأقليات المسيحية كثيراً عن هٰذا التقليد الإسلامي المبكر في المرحلة الأولىٰ من الدعوة الإسلامية، إضافة بالطبع إلىٰ تحسينات واضحة علىٰ مستوىٰ حقوق الإنسان المدنية" (ص٦١). مرة أخرىٰ إننا أمام حالة واضحة من الاستمرارية في مسار التشريع الرسمي القانوني. إن التسامح بين المسيحيين الذين يعيشون في وئام مع المسلمين يشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الإسلامي.

الفصل ٤

النبيّ محمّد ﷺ ونصارى نجران

مُقَدِّمَـة

إذا كان العهد الذي عقده النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع رهبان جبل سيناء هو ميثاق لا يعرفه الكثيرون، فإن عهد مُحَمَّد ﷺ مع نصارىٰ نجران هو ميثاق لم يسمع به عملياً سوىٰ دائرة ضيقة من المستشرقين غير المسلمين. فإذا كان العهد النبوي مع نصارىٰ سيناء قد حظي بمراجعات متباينة الرؤىٰ حيث يقر بعض الباحثين ويشهدون علىٰ صحته، بينما يعتبره الآخرون مزوراً، فإن عهد النَّبيّ ﷺ مع نصارىٰ نجران قد تم الطعن في صحته سواء من قبل المستشرق الذي أماط عنه الغطاء أو من قبل عدد محدود من المستشرقين الذين اطلعوا عليه.

قَضَايَا أصَالَة وَصِحَّة الوَثِيقَة

اكتُشفت [وثيقة] عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع نصارىٰ نجران حينما ظهرت النسخة العربية [المترجمة] عن الفرنسية لكتاب التاريخ النسطوري غير المسبوق: حولية سيئرت *Histoire nestorienne inédite : Chronique de Séert* لصاحبه أداي شير(١٨٦٧-١٩١٥م) وهو كبير أساقفة الكاثوليك الكلدانيين الآشوريين بسيئرت، المدينة التي تقع في الجنوب الشرقي من تركيا. وظهر المقال المترجم في مجلة Patrologia Orientalis بعد خمس سنوات علىٰ مقتل الكاتب علىٰ يد أفراد حزب تركيا الفتاة. وبحسب التاريخ الأحداثي نفسه، فإن نسخة من العهد (أو الميثاق النبوي) قد تم استخراجها انطلاقاً من وثيقة عثر عليها عام ٢٦٥ هجرية (الموافق لسنة ٨٧٨/ ٨٧٩م) كانت بحوزة حبيب في مدينة بيرمانثا Birmantha (انظر شير ص ٢٨١/ ٦٠١). واستناداً إلىٰ شهادة حبيب، فإن النسخة التي كانت بحوزته كانت قد كتبت انطلاقاً من نسخة أصلية كانت موجودة بخزانة الفلسفة حيث كان حبيب يشتغل مديراً للخزانة قبل أن يتحول إلىٰ راهب (٢٨١/ ٦٠١). وبرغم الاكتشاف الذي

قام به الأسقف أداي شير والذي لا يقدر بثمن، فقد ألقىٰ به جانباً في آخر المطاف مستنتجاً النتيجة التالية:

> "إن هٰذا الميثاق لا شك مزور، فقد تم اختلاقه من قبل المسيحيين لكي يتخذوه وسيلة يدرأون بها شر المسلمين. فكل طائفة مسيحية في الشرق بحوزتها نسخة من الميثاق تختلف عن بعضها البعض... وهذه النسخة كتبت بلغة ركيكة وبها أخطاء" (٢٨٢/ ٢٠٢).

واعتباراً للطابع الوثوقي لادعـاءات شير، فإنه من الأهمية بمكان مطالبة هٰذا الأخير بالإتيان بالحجج التي يدعم بها تلك الادعاءات، وفق ما يقتضيه البحث الأكاديمي الرزين. ذلك أنه من الطبيعي أن كل من ادعىٰ أمراً فعليه واجب إثباته. وكما يقول القرآن الكريم. "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" (٢: ١١١). لكن الأسقف لم يأت بدليل واحد من أجل إثبات دعاويه، كما أنه لم يأت ولو بقلامة ظفر من البينة للبرهنة علىٰ أن العهد النبوي الذي نحن بصدده كان مزوراً. كل ما ادعاه هو القول إن العهد كان مختلقاً. وقد يتساءل المرء علىٰ أي أساس قد تم ذلك التزوير. لقد ادعىٰ الأسقف شير أن الميثاق اختلقه النصارىٰ من أجل أن يأمنوا شر المسلمين. لكن التاريخ يثبت دائماً أن المسلمين احترموا بصفة عامة حقوق الطوائف الدينية الأخرىٰ. وبما أن هاجسهم كان هو التوسع المجالي، واستخلاص الضرائب، فإنه لم يكن في صالحهم أن يقوموا بالتنكيل بالسكان الذين يعيشون في كنفهم.

لقد ادعىٰ الأسقف شير أيضاً أن كل جماعة من المصلين في الكنيسة كان بحوزتها نسخة من العهد النبوي، وهي نسخ متشابهة لكنها تختلف إلىٰ حد ما عن بعضها البعض. وهٰذا بكل بساطة ليس صحيحاً. إن العهد النبوي المتداول بين المسيحيين الأرثوذكس هو الميثاق نفسه؛ وإن كان به اختلاف طفيف. فإذا كانت في حوزة الطوائف المسيحية الأخرىٰ مثل طائفة نجران وطائفة العراق وطائفة سوريا مواثيق تختلف إلىٰ حد ما عن بعضها البعض، فإن ذلك يرجع إلىٰ أن النَّبيّ ﷺ كان قد أبرم مواثيق مختلفة مع مختلف الطوائف كل واحدة علىٰ حدة. وبما أن تلك المواثيق كانت مختلفة أصلاً، فإنه لا يمكن اعتبار وحدة شكلها دليلاً علىٰ صحة أو عدم صحة

الوثيقة. ويدعي الأسقف شير من جهة أخرىٰ أنه كانت هناك مؤامرة رهيبة بين الطوائف المسيحية المختلفة والمتصارعة فيما بينها في الشرق الأوسط. كما يدعي أن تلك الطوائف سعت كلها إلىٰ كتابة عهود مزورة سعت فيما بعد إلىٰ عزوها للنبي ﷺ. ولو فعلت ذلك جميعها بمعزل عن بعضها البعض لكانت النتائج بلا شك مختلفة جذرياً. ذلك لإنها لا تمتلك نفس درجة الإتقان في فهم القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي القديم. ولو فعلت ذلك بتعاون مع بعضها البعض فان النتيجة ستكون إنتاج عهود تكون متماثلة كلها. والأمر الوحيد الذي يفسر الاتساق ووجود الفروق في الأسلوب والبنية بين العهود التي كتبها النَّبيّ ﷺ لرهبان جبل سيناء، ونجران، وفارس وأرمينيا، والعالم، هو أنها كتبت من لدن شخص واحد هو محمد رسول الله ﷺ. وهذه الاختلافات هي نفسها التي نجدها في مختلف المواثيق والعهود التي عقدها النَّبيّ ﷺ مع مختلف الشعوب.

بالإضافة إلىٰ اتهام الكنائس المسيحية جميعها باقتراف تزوير شنيع، فإن كبير الأساقفة يصف المسلمين بالغباوة، وبأنهم قوم يجهلون عاداتهم إلىٰ درجة يصبح معها من السهولة تضليلهم بوثائق مزورة. وكأن الأمة الإسلامية تعدم علماء يستطيعون تقييم مدىٰ صحة وأصالة الأسلوب الإنشائي للنبي ﷺ. أما الحقيقة التي يتغافل عنها الأسقف شير فهي أن المسلمين يحترمون بالفعل مقتضيات تلك العهود والمواثيق. إن الإلحاح علىٰ أن النَّبيّ ﷺ لا يمكن أبداً أن يكون قد قام بكتابة أو منح تنازلات سخية هو معناه اتهام المسلمين الأوائل بكونهم يفتقدون روح المدنية والتسامح الأساس، بينما نجد في الحقيقة أن الإسلام هو دين كله معاملة بالحسنىٰ. وإذا تركنا قضايا المعاملة جانباً فإن هذه الوثائق ومدىٰ احترام المسلمين لها تثبت النبل الروحي للقوم وشهامتهم. وأخيراً يدعي شير بأن العهد النبوي قد كتب بلغة غير سليمة، غير أنه لا يستعمل درايته اللغوية من أجل إثبات دعواه. ومن المفارقة ومن سخرية الأقدار أن الشخص الذي طالما ألح علىٰ أن محمداً لم يعقد أي ميثاق يحمي النصارىٰ ويمنحهم امتيازات قد تم اغتياله علىٰ يد شباب "تركيا الفتاة" خلال المجازر التي راح ضحيتها الآشوريون عام ١٩١٥م.

وبدل أن يسعىٰ إلىٰ الإعلاء من شأن عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران ويستنكر الأتراك المتغرّبين لعدم احترامهم مبادئ الإسلام المتعلقة بما ينبغي التقيد به من أخلاق وسلوك في وقت الحرب، فماذا كان عساه أن يقول لهم؟ لقد كان من المفروض أن يقول لهم إنهم جماعة من الأشرار [المحسوبين علىٰ] المسلمين تصرفوا كما كان منتظراً منهم بالضبط. إن الأسقف شير (١٨٦٧-١٩١٥م) بإقباله علىٰ خفض مستوىٰ انتظاراته بشأن الممارسة الإسلامية، فقد رفض الاستناد إلىٰ وثيقة كان من شانها أن تحمي حياته. إن قتله من قبل أشخاص مارقين هو درس للمسيحيين والمسلمين علىٰ السواء، المتمثل في أن من يُقدِم علىٰ الحط من قيمة الأخلاق الإسلامية أو الذهاب إلىٰ حد نفي وجود تلك الأخلاق، هو بالفعل شخص يسهم في تحقيق رؤيا يكون هو الأول من يروح ضحيتها.

ومن أجل فهم أعمق لهذه الظاهرة، فإنه من الضروري تحليل العوامل التي أدت إلىٰ انهيار الإمبراطورية العثمانية. لقد سقطت آخر إمبراطورية إسلامية نتيجة تراكم عوامل: منها عدم الكفاءة وانتشار الفساد وتفشي الجهل. ونتيجة لهذه العوامل الثلاث، تمكنت القوىٰ الغربية من التحرك سريعاً مخططة ومنظمة ومطبقة خططاً كان الهدف منها تقويض أعمدة خلافة منخورة حتىٰ النخاع، والتي كانت رغم ما بها من عيوب تعتبر آخر معقل لسلطة إسلامية تمتد علىٰ مدىٰ رقعة البلاد الإسلامية برمتها. إن العالم الغربي الذي كان ينظر إلىٰ الإسلام كأكبر تهديد للتوسع الأوروبي والهيمنة الأوربية قد استعمل من بين أدواته جماعة الضباط العسكريين سيئي الذكر المنتمين لحركة 'تركيا الفتاة'. وعلىٰ الرغم من كون هٰؤلاء الضباط جزءاً من الجيش العثماني لكنهم بصفتهم جماعة من الملاحدة المستغربين، فهم يعتبرون بمثابة طابور خامس مغروس في قلب الخلافة العثمانية.

وحيث إنهم يستمدون أفكارهم من أوربا، فإن شباب 'تركيا الفتاة' عملوا جاهدين علىٰ القضاء علىٰ الإمبراطورية العثمانية وإحلال دولة علمانية مكانها. بعد تنظيم أنفسهم في إطار حزب سياسي سنة ١٩٠٦م، قام أولئك الضباط المنتسبين لتركيا الفتاة بانقلاب عسكري في يوليوز سنة ١٩٠٨م مجبرين السلطان علىٰ قبول

دستور سنة ١٨٧٦م. وكان من نتيجة هٰذا أن تمكن الضباط من التلاعب بالسلطان واتخاذه ألعوبة بين أيديهم. إن هٰؤلاء الضباط والقوىٰ الغربية التي ساندتهم هم الذين قاموا باقتراف المجازر ضد الآشوريين سنة ١٩١٥م. وبحلول السنة الموالية (أي سنة ١٩١٦م)، تمكنوا من كسب ما يكفي من السلطة والنفوذ ليعلنوا ميلاد الجمهورية التركية. إن هٰؤلاء الملاحدة العلمانيين عبدة الغرب، هم الذين كانوا وراء اقتراف المجازر الجماعية بحق الأرمن. وفي سنة ١٩٢٢م ألغىٰ كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) الخلافة العثمانية في خطوة كانت هي الضربة القاضية علىٰ ما تبقىٰ من رموز الإمبراطورية العثمانية، ودخل بذلك بوابة التاريخ البئيس. وينبغي هنا توضيح مسألة مؤداها أن من كان مسؤولاً عن اقتراف الجرائم بحق الآشوريين والأرمن ليس المسلمين وإنما فتيان تركيا الفتاة الذين كانوا عبارة عن جماعة من الملحدين المتغربين المناوئين للإسلام. وكما يلاحظ ويلهلم فون بريسيل المكنىٰ بـ'أبي سكة حديد بغداد'، حوالي سنة ١٨٧٦م: فـ"إن الأتراك العثمانيين المسلمين يعاملون المسيحيين باللين والصداقة مادام هٰؤلاء لا يثيرون تعصبهم الديني" (انظر ماك ميكن ص ٢٣٢).

وكما يبين فاهاكن ن. دادريان في كتابه ***مسؤولية ألمانيا في حرب الإبادة ضد الأرمن***: مراجعة تاريخية عن التواطؤ الألماني، فإن المجازر التي تعرض لها المسيحيون في الإمبراطورية العثمانية كانت إلىٰ حد بعيد نتيجة للسياسة الألمانية. فإذا كان البريطانيون قد خلقوا وشجعوا واستغلوا التطرف الإسلاموي من أجل دعم خططهم، فكذالك فعل الألمان، مرسين بذلك قواعد الإرهاب الإسلاموي الحالي. فبدل توجيه التهمة للإسلام والقرآن كان المطلوب هو تحليل الأصولية الإسلاموية تحليلاً دقيقا للكشف عن إيديولوجيا منغرسة عميقـًا في الأفكار التي كان ينشرها الغرب في المرحلة الاستعمارية. إنه عبارة عن تأويل مغرض للإسلام قامت بطبخه الإمبريالية، وتم ترويجه في أوساط الجمهور من الجهلة المحسوبين علىٰ الإسلام بغرض جعلهم يخوضون الحروب ويقاتلون نيابة عن القوات الإمبريالية.

من المفيد أيضـًا أن نتذكر أن الطائفة الأرمنية في تركيا لم تكن مجرد "أقلية مسيحية عزلاء من السلاح" كما أنه لا يمكن القبول بمناقشة أحداث سنتي ١٩١٥

و ١٩١٦م دون الإشارة إلىٰ دور الطابور الخامس المكون من ثوار الأرمن" (لوي ص ٢٦٨-٢٦٩). إن مقارنة حرب الإبادة -التي تعرض لها الأرمن والتي أثير خلاف بشأنها- بالمحرقة اليهودية هي مقارنة تبسيطية، مختزلة، ومضللة، وغير دقيقة من حيث أحداثها. إن القوىٰ الأوربية في تلك الفترة كانت تتحفز لتقسيم العالم الإسلامي، واعدة يهود أوربا والعرب والأكراد والآشوريين والأرمن بإقامة أوطان لهم علىٰ أنقاض الإمبراطورية العثمانية (بورنوتيان ص ٣٠١). قد يكون الأتراك ارتكبوا مجازر، لكن ليس هناك ما يثبت أنه كان بنيتهم إبادة جنس بأكمله. إن خطتهم رغم ما يكتنفها من تخبط وعشوائية وسوء تطبيق كارثي، كانت تهدف إلىٰ ترحيل من كانوا يعتبرون عناصر مسيحية خطيرة غير وفية [للدولة العثمانية] من الأماكن الاستراتيجية الحساسة إلىٰ أماكن أقل أهمية وخطورة من الناحية الجيوسياسية (لوي ص ١٥٠-١٦١).

وبما أن التاريخ هو معلمنا الأكبر، وأن التاريخ يعيد نفسه [أحيانًا]، فإنه من المفيد أن نتعلم الدروس من الماضي. وعلىٰ هٰذا الأساس فإنه من الأهمية أن نسجل أن الخطط التي استلهمها أولئك الضباط العلمانيون من الشباب [الأتراك] هي نفس الخطط التي استعملتها القوىٰ الغربية في البوسنة والهرسك، كما في فلسطين ونيجيريا، كما في الهند والباكستان، والعراق. فهم يقومون بتنظيم اعتداءات علىٰ المسيحيين وعلىٰ السنة والشيعة. ويصورونها للناس علىٰ أنها "اعتداءات" دينية طائفية بين ملل ومذاهب مختلفة، وذلك بغرض إثارة الفرقة والتناحر الطائفي. والجماهير -وهي تتعرض للتضليل والتلاعب بعقولها وعواطفها- لا يسعها إلا أن تندد بكون تلك الجرائم الوحشية هي من عمل 'الإرهاب الإسلاموي' الذي يقف وراءها 'الأصوليون المسلمون'. ثم تجد تلك الجماهير نفسها منساقة إلىٰ أتون صراع مفتعل. وفي غضون ذلك فإنك تجد القوىٰ الأجنبية التي أشعلت تلك الصراعات في المقام الأول هي من تستعملها غطاء لتدخل سافر أو تحت غطاء ما من أجل إقامة حكومة عميلة. وهٰذا لا يعني أن المتطرفين الإسلامويين غير موجودين كفاعلين مستقلين أو أنهم لا يتحركون بمحض إرادتهم. لكن كل ما في الأمر أن استعمال مثل هذه الجماعات المتعصبة من قبل القوىٰ الغربية هي أمور موثقة ولها تاريخ طويل. وهنا

من المفيد والأجدر الاطلاع علىٰ المؤلفات الآتية: المسلمون الأخيار والمسلمون الأشرار: أمريكا، ا لحرب الباردة وأصل الإرهاب، للكاتب محمود ممداني (ص ٩٧، ١٠٨-١٠٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦-١٣٧، ١٤٠-١٤٤، ١٥٦-١٥٨، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٧، ٢١٠-٢١١، ٢٣٥-٢٣٧). صدر باللغة الإنجليزية تحت عنوان [*Good Muslim, Bad Muslim : America, The Cold War, and The Root of Terror*]؛ وكتاب لريشارد لابوفيير تحت عنوان: دولارات وإرهاب: الولايات المتحدة والإسلام، *Dollars for Terror : The United States and Islam*، (ص ٩٩، ٣٨٧، ٣٩٠، والفصل ٥ و ٦ بأكملهما)؛ وكتاب الإرهاب المتشابك : *Terror Incorporated Tracing the Dollars Behind the Terror Networks* للكاتبة لوريتا نابوليوني (ص ٧٢-٧٣، ٨١-٨٥، ٨٧، ١١٨، ١٣٨)، ؛ وكتاب لـبيتر لانسPeter Lance تحت عنوان: *1000 Years of Revenge : International Terrorism and the FBI : The Untold Story* ألف سنة من الثأر: الإرهاب الدولي ومكتب التحقيق الفدرالي: القصة التي لم ترو من قبل (ص ٢٥، ٣٩، ٤٢).

وإذا لم تكن لآراء الأسقف أداي شير كبير وزن -كما سبق أن رأينا- فيما يتعلق بالعهود النبوية، فهي آراء تطرح أقل قدر من الإشكال بالنسبة للباحثين. إن أقوىٰ حجة يمكن توجيهها ضد العهد النبوي لمسيحيي نجران تتمثل في كونه غير مذكور في أي مصدر من المصادر الإسلامية المعتمدة التي لا تزال موجودة لحد الساعة. إنه انطلاقاً من هذه الحجة يُجمع أغلبية الباحثين علىٰ أنها وثيقة مشكوك في أمرها. لكن إذا نظرنا إلىٰ هٰذا الموقف من منظور واسع، فإنه يبدو أنه موقف رجعي متصلب. فعلىٰ غرار عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء، فإن العهد النبوي لمسيحيي نجران لا يمكن أن يولد من فراغ، بل إن رسول الله ﷺ قد التقىٰ بوفود نصارىٰ نجران في مناسبات عديدة. وقد استقبل أول وفد من هذه الوفود بمكة قبل ليلة الإسراء والمعراج، أي قبل سنة ٦٢١م. يقول ابن اسحق بهٰذا الصدد ما يلي:

"حينما كان الرسول ﷺ بمكة أتاه حوالي عشرين نفراً من النصارىٰ لما سمعوا به. وجدوه في المسجد وجلسوا إليه وتحدثوا معه. سألوه أسئلة،

وكان بعض الأفراد من قريش في ناديهم خلف الكعبة. وحينما طرحوا كل ما لديهم من الأسئلة، دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ الله وقرأ عليهم القرآن. وحينما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، وقبلوا دعاء الله وآمنوا به واعترفوا بحقيقته. لقد وجدوا ما هو مذكور عندهم في كتابهم، وقيل إن أولئك النصارىٰ قدموا من نجران والله أعلم" (ص١٧٩).

وقد قيل إن هٰؤلاء النصارىٰ قدموا من نجران منذ السنة الثانية للهجرة وذلك بعد إقامة الدولة الإسلامية بالمدينة، وقد استقبل النَّبيّ ﷺ وفداً منهم عام ٦٣٠م وهي السنة الثامنة للهجرة. وقد بسط ابن اسحق في سيرته الجزئيات والتفاصيل المتصلة بذلك الوفد الذي كان يضم ستين فارساً بقيادة أربعة عشر من أشراف القوم منهم. لقد كان الرسول ﷺ في غاية التسامح والكرم والوداعة تجاه ضيوفه النصارىٰ إلىٰ درجة أنه سمح لهم بإقامة قداسهم داخل مسجده بالمدينة (انظر شاه كاظمي ص ١٢٥، وخان ص ٢٤٧، وابن كثير عن هايا Haya ص ٥). وكما يروي ذلك ابن اسحق:

"حينما قدموا المدينة دخلوا إلىٰ مسجد الرسول ﷺ والنَّبيّ يصلي صلاة العصر، وكانوا يرتدون ألبسة وعباءات يمانية بأناقة رجال بني الحارث بن كعب. وقال من رأوهم من الصحابة في ذلك اليوم إنهم لم يروا مثلهم من الوفود التي جاءت فيما بعد. وعندما حل وقت قداسهم وقفوا وصلوا في مسجد الرسول ﷺ، وقال الرسول ﷺ 'اتركوهم يصلوا'. وقد صلوا متجهين جهة الشرق. (ص٢٧١).

لقد دخل النَّبيّ ﷺ وأسقف نجران في جدال مستفيض بشأن الديانة المسيحية وصل بهما إلىٰ الباب المسدود. هناك نزل الوحي علىٰ النَّبيّ ﷺ يأمره بأن يدعو النصارىٰ إلىٰ المباهلة [أو الملاعنة]، حيث يقسم كل طرف إنه يقول الحق ويستحق لعنة الله إن كان من الكاذبين [﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ (قرآن كريم) (٣:٦١)]، حتىٰ ينجلي الحق من الباطل. وفي صباح الغد عند موعد المباهلة جاء النَّبيّ ﷺ ومعه فاطمة والحسن والحسين، و كانت هالة ساطعة من النور تكتنف النَّبيّ ﷺ وأهل بيته إلىٰ درجة أن الأسقف الحارث بن علقمة أيقن آنئذ أن

لعن مثل هٰؤلاء الأشخاص المقدسين كان بمثابة فعل انتحاري. وعندما ناقش نصارىٰ نجران الأمر، قرروا أن يتصالحوا مع النَّبيّ ﷺ وأن ينصرفوا بسلام. ثم كتب لهم النَّبيّ ﷺ عهداً وودعهم (مفيد، ص ١١٨).

وعندما نكث نصارىٰ نجران عهدهم مع النَّبيّ ﷺ أرسل إليهم الرسول ﷺ تحذيراً قوياً في رسالة منه إلىٰ أهل نجران يقول فيها:

> "بسم الله الرحمن الرحيم، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام". (انظر قرشي ص ٥٤).

وتعاقد نصارىٰ نجران مع النَّبيّ ﷺ علىٰ أداء الجزية في السنة التاسعة للهجرة، ومُنحوا عهداً كان نصه كما يلي:

> "يعطون ألفين من الألبسة كل عام للمسلمين في دفعتين، إحداهما في شهر صفر والأخرى في شهر رجب. وإذا حدث تمرد أو قلاقل في اليمن، فهم يرسلون ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين سلاحًا من أي نوع. والمسلمون مسؤولون عن ردها إليهم. وبالمقابل، لا تمس كنائسهم ولا يخرج قساوستهم، ولا يفرض عليهم ترك دينهم، ما لم يتعاملوا بالربا أو يتمردوا" (انظر قرشي، ص ١١٧).

لكن النصارىٰ لم يكونوا علىٰ العموم راضين علىٰ المعاهدة الأولىٰ التي وقعوها. ولذلك أرسلوا وفداً إلىٰ المدينة كي يلتقي بالنَّبيّ ﷺ سنة ١٠ هجرية. وكان الغرض من ذلك هو التفاوض علىٰ تفاهم أوسع، وهو ما أدىٰ إلىٰ معاهدة نجران التي تحدد الحقوق والواجبات بين النصارىٰ والمسلمين علىٰ الشكل التالي:

معاهدة نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا كتاب حماية كتبه محمد رسول الله لأهل نجران. ولو أن له الحق أن يأخذ نصيباً من فاكهتهم وذهبهم وفضتهم وحديدهم (أسلحتهم) وعبيدهم، فقد ترك كل هٰذا لهم مقابل أن يؤدوا أَلْفَيْنِ من الكسوة بقيمة مقدَّرة معلومة كل عام، ألفاً منها في شهر رجب، والألف الأخرى في شهر صفر. وكل ثياب يساوي أوقية واحدة وكل ما زاد عن هٰذا أو نقص فيحسب. إن الدروع والخيل والمطايا الممنوحة ستحسب أيضاً. وعلى أهل نجران أن يضيِّفوا رسلي ويمدوهم بالطعام والمأوى. ولا يزيد الرسول في إقامته عن شهر واحد. وإذا حدثت قلاقل باليمن، فعلى أهل نجران أن يلتزموا بإقراض ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين ناقة. وإذا حصلت خسارة أو تلف في أي ملك من الأملاك فلأهل نجران أن يعوَّضوا على ذلك. ولنصارى نجران وما يحيط بهم حماية الله وعناية رسوله، وتشمل حياتهم ودينهم وأموالهم. وينطبق هٰذا على حاضرهم وغائبهم. فلا أحد يمنعهم من القيام بأمور دينهم وعبادتهم، ولا يغير شيء من حقوقهم وامتيازاتهم؛ لا يطرد أسقف من أسقفيته، ولا راهب من صومعته، ولا قس من كنيسته. فلهم كل ما كانوا عليه من قبل جميعاً، كان ذلك صغيراً أم كبيراً. لا تُنزع صورة أو يهدم صليب، لا يَظلمون ولا يُظلمون. ولا يتعاملون بأخذ الثأر كما كان حالهم في الجاهلية، ولا يُسأل أي واحد منهم أن يؤدي العُشُر، ولا يطلب منهم منح الزاد لجيوش المسلمين. وإذا طلب الواحد منهم حقه بينكم فأقيموا العدل بينكم، لا تظلِمون ولا تظلَمون. وكل من أكل الربا منكم بعد هٰذا فأنا بريء منه وقد خرج من ذمتي، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكل ما كتب في هٰذا الكتاب هو بإذن من الله، وَمُحَمَّدٌ مسؤول عنه إلى أن يرى الله أمراً كان مفعولاً. وهٰذا الكتاب ملزم ما داموا قائمين على العهد يؤدون واجباتهم ويتركون ما ليس بحق" (عن قرشي ص١٨٢ - ١٨٣).

إن معاهدة نجران التي كتبت بخط يد عبد الله بن أَبِي بَكْر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي وشهد عليها أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، وعقرة بن حبيس، والمغيرة بن شعبة، تمثل وثيقة غاية في التسامح، ويشرح قرشي ذلك كما يلي:

"إنها تمنح لغير المسلمين الذين يعيشون داخل الدولة الإسلامية الاستقلال الديني والإداري، إنها علامة فارقة تشهد علىٰ روح التسامح والشهامة ونبل المشاعر. وفي رأي سيد أمير علي، "إن هذه الوثيقة قد أعطت لكافة الحكام المسلمين المبدأ الذي يتعين عليهم الاستنارة به في تعاملهم مع رعاياهم غير المسلمين. وإن حدث لهم أن حادوا عنه في أية لحظة من اللحظات، فإن سبب ذلك يرجع إلىٰ طبع الحاكم المعني بالأمر" (ص١٨٣).

وبما أن نصارىٰ نجران سبق لهم أن عقدوا عدة عهود ومواثيق مع النَّبيّ ﷺ، حيث إنه منحهم حقوقاً وحريات لا عهد لهم بها، فليس هناك من سبب منطقي يجعلهم يزوّرون عهداً هو عبارة عن نسخة لمواثيق أعطيت لهم من قبل. وعلىٰ الرغم من ادعاء فيليب خوري حتي (١٨٨٦-١٩٧٨م) ما يفيد عكس هٰذا، حيث يدعي "أن عمر بن الخطاب، تماشياً مع سياسة سلفه [أبي بكر] "الوطنية" قد عمد إلىٰ طرد المسيحيين من نجران" (ص٢٨) بعد أن عوضهم علىٰ ذلك وسمح لهم بالهجرة إلىٰ سوريا (ص٢٨)، حيث اتخذت طائفة نصارىٰ نجران منها موطناً قروناً بعد ذلك (انظر غودار ص ٤٢-٤٣). وقد يكون عمر بن الخطاب نفىٰ علية القوم فقط كما فعل البابليون باليهود.

ومن المحتمل أن يكون عمر بن الخطاب (الذي تولىٰ الخلافة ما بين ٦٣٤ و٦٤٤م) قد خير النصارىٰ بين أداء الجزية أو الإقامة بسوريا بعد أن منحهم تعويضاً مالياً. ويبدو أن بعض المسيحيين قد هاجروا إلىٰ سوريا في ذلك الوقت، بينما استقرت غالبية المهاجرين في الكوفة، التي هي معقل شيعة عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه). وقد يكونون اختاروا الاستقرار هناك، إحساساً منهم بأنهم سيحضون باحترام أكبر وهم بين ظهران أتباع آل البيت. وكيفما كان الأمر، فإن تاريخية هذه

الأحداث الموثقة هي مثار تساؤل. فبالاستناد إلىٰ بعض المصادر، فإن نصارىٰ نجران استمروا فـي التمتع بنفوذ وازن إلىٰ حدود أواخر القرن التاسع الميلادي (انظر غودار ص ٤٢-٤٣).

إن أول إمام زيدي باليمن هو الهادي (ح ٨٩٧-٩١١م)، ويروىٰ عنه أنه عقد معاهدة مع أهل الكتاب من سكان الواحة سنة ٨٩٧ م (دوبسون ص٩٠). وهناك مصدر يمني آخر يرجع تاريخه إلىٰ سنة ٩٩٩/ ١٠٠٠م يشير إلىٰ الحضور المسيحي المتواصل بنجران (انظر غرابار وبراون وباورستوك، ص ٧٥٣). وقد وصف الرحالة الفارسي يوسف بن يعقوب بن المجاور (الذي عاش فـي القرن الثالث عشر الميلادي) الواحة بكون ثلثها مسيحي وثلثها يهودي. وإذن فإن الحضور المسيحي بنجران يمتد إلىٰ حدود القرن الثالث عشر الميلادي (ص٧٥٣). وبصفته مسيحياً عربياً فإن بحوث حِتِّي (١٨٨٤-١٩٧٨م) تتميز بغلبة الطابع الذاتي عليها، كما تتميز بمحاولة التقليل من شأن المسلمين. وباعتبار الحجج الموضوعية فإن جفري يبدو أنه وصل إلىٰ الخلاصة الصحيحة القائلة إن القبائل المسيحية المعنية بالأمر "قد حظيت بمعاملة خاصة ومنحت لها شروط وامتيازات خاصة من قبل النَّبيّ ﷺ وبقيت تلك الشروط سارية المفعول خلال حكم أَبِي بَكْر وَعُمَر" (ص١١٣).

إذا كان تزوير ميثاق - منسوب زعماً إلىٰ النَّبيّ ﷺ- لم يكن فعلاً خطيراً بما فـيه الكفاية، فإن المزورين المتهمين بتزوير ميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع مسيحيي نجران، قد يكونون ولا شك قد جازفوا بحياتهم بإدراجهم للائحة طويلة من الشهود. وإذا كان لهٰؤلاء الدجالين المتهمين بالتلفيق والدجل معرفة بمواثيق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ فهم قد يعرفون، مع استثناءات قليلة، أنها لم تكن موقعة من لدن الشهود. هذه العهود كانت عبارة عن رسائل قصيرة أرسلها النَّبيّ ﷺ. ولذلك فإن إدراج أسماء اثنين وثلاثين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ هو شيء غير عادي. فإذا لم يكن من شروط صحة وثيقة ما هو أن تتضمن قائمة طويلة من الشهود، فإن وجود مثل هذه القائمة يمكن اعتباره دليلاً علىٰ التزوير. ومن الناحية النظرية، لم يكن الرهبان ليعرفوا أن إثبات قائمة طويلة من الشهود، [علىٰ الوثيقة] من شأنه أن يجعل الوثيقة تبدو مزورة بدل

أن تكون صحيحة. وبما أن تحركات الصحابة كانت جد معروفة وكانت موثقة توثيقاً صحيحاً، فإن المزورين كانوا يغامرون مغامرة كبرىٰ بادعائهم إن كل أولئك الصحابة كانوا كلهم حاضرين في المدينة وفي نفس التاريخ بل في نفس الوقت؛ ذلك لأن الكثير من الصحابة كانوا يسافرون أو يشاركون في الغزوات. ولذلك فإنه ليس هناك ما يضمن أن يكونوا كلهم مجتمعين في زمان ومكان واحد. إن الباحثين الذين درسوا الميثاق النبوي دراسة سطحية يجادلون بأنه لا أبا هريرة ولا معاوية بن أبي سفيان (٦٠٢–٦٨٠م) كانوا قد دخلوا الإسلام وقتذاك، وأن سعد بن معاذ كان قد توفي آنئذ، وأن جعفر بن أبي طالب كان منفياً في الحبشة.

إن ما يدعو للاستغراب حقاً، أن ما يبدو لأول وهلة خطأ جسيماً، من شأنه أن يشكل دليلاً يؤكد صحة الميثاق النبوي. وذلك عن طريق إثبات أن الشهود كلهم كانوا حاضرين يوم توقيعه. والواقع أنه من الممكن أن يكون ميثاق النَّبيّ ﷺ مع رهبان جبل سيناء وميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع نصارىٰ نجران، وميثاق النَّبيّ ﷺ مع مسيحيي العالم هي مواثيق أعدت لتكون مواثيق غير عادية. فبخلاف المواثيق النبوية الأخرىٰ والتي كانت في الغالب قصيرة ومقتضبة، فإن هذه المواثيق المذكورة هنا كانت طويلة ومفصلة. فلربما كانت معدة لتكون بمثابة نماذج للألفيات اللاحقة؛ وهٰذا ما يفسر القوائم الطويلة بأسماء الشهود التي كان الغرض منها إثبات صحة الوثائق. غير أنه من باب المفارقة وسخرية الأقدار أن ما كان القصد منه إقناع القراء بصحته قد استعمله النقاد للطعن في صدقيته. فكما كان الأمر بالنسبة لميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع رهبان جبل سيناء، فإنه من الممكن أن تكون سلسلة الأسانيد قد أثبتت بالوثيقة في وقت واحد. ولنعد الآن إلىٰ المسألة التي تعنينا. فانطلاقاً من الآيات القرآنية التي يشير إليها ميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مع نصارىٰ نجران، إضافة إلىٰ الإشارة إلىٰ الأحداث التاريخية، فإنه يبدو لأول وهلة أن الوثيقة قد تمت كتابتها في فترة الصراع مع اليهود، ومن المحتمل جداً أن يكون قد تم ذلك مباشرة بُعيْد غزوة خيبر. وعلىٰ الرغم من أن أبا هريرة (٦٠٣–٦٨١م) لم يعتنق الإسلام [حسب بعض الروايات] إلاّ سنتين قبل وفاة الرسول ﷺ، فإنه كان في واقع الأمر أحد الأفراد الأوائل الذين أسلموا. لقد كان

يدعىٰ في الأصل 'عبد شمس'، وأصله من اليمن من قبيلة بني دوس التي أسلمت علىٰ يد شيخها طفيل بن عمرو، الذي سبق له أن التقىٰ بالنَّبيّ ﷺ في مكة. فبعدما أسلم من سيصبح اسمه فيما بعد 'أبا هريرة'، رافق طفيلاً إلىٰ مكة من أجل لقاء النَّبيّ ﷺ. لقد غير الرسول ﷺ اسمه فسماه عبد الرحمن. وبعد أن عاد إلىٰ قبيلته ومكث بها عدة سنوات، هاجر أبو هريرة إلىٰ المدينة عام ٦٢٨/ ٦٢٩م حيث أقام ثلاث سنوات بصحبة النَّبيّ ﷺ، يعيش داخل وبجوار المسجد النبوي. وبما أن أبا هريرة كان معروفًا عنه أنه كان يزور النَّبيّ ﷺ، فإنه لا شك أنه حضر كتابة عهد النَّبيّ ﷺ مع نصارىٰ نجران وتوقيعه.

أما سعد بن معاذ فإنه يروىٰ عنه أنه توفي متأثراً بجروح أصيب بها بعد عودته من غزوة الخندق. فإذا كان الميثاق قد تم عقده بُعيْد غزوة الخندق، فإن سعد بن معاذ قد يكون في وضعية تسمح له بالشهادة عليه. والجدير بالذكر أن معظم الوفيات في القرون الوسطىٰ لم تكن تقع مباشرة في ساحة الحرب بل كانت تقع أسابيع بل شهوراً بعد ذلك نتيجة التعفنات والغرغرينا (الموات). وهناك أيضًا احتمال أن تكون السيرة لم تسجل بدقة سنة وفاة سعد بن معاذ، حيث إن اسمه ظهر في الأحاديث النبوية والمعاهدات التي تشير إلىٰ أحداث لها صلة بغزوة خيبر. بالإضافة إلىٰ هٰذا فإن مجموع الأحداث المحيطة بما يدعىٰ المجزرة التي تعرضت لها قبيلة بني قريظة قد تمت مراجعتها من قبل المؤرخين. فإن كانت قصة إبادة بني قريظة غير صحيحة، فإن جميع التفاصيل المتصلة بها -بما في ذلك الدور الذي قام به سعد بن معاذ ووفاته- هي بالتالي مجرد اختلاقات من صنع الرواة. غير أن ما هو صحيح هو أن جعفر بن أبي طالب هاجر علىٰ رأس وفد من المسلمين إلىٰ الحبشة سنة ٦١٦م، في الوقت الذي لا يلتفت فيه منتقدو العهد النبوي إلىٰ كونه قد عاد إلىٰ المدينة سنة ٦٢٦[م]، إثر رجوع مُحَمَّد ﷺ من غزوة خيبر بالضبط. أما بالنسبة لمعاوية بن أبي سفيان (المتوفىٰ سنة ٦٨٠م) فإنه لم يكن قد دخل الإسلام بعد. لكن معاوية، بمعية أبيه، كان يتنقل بانتظام بين مكة والمدينة في مهمات دبلوماسية. وباعتباره من أعيان المجتمع العربي، فإنه ليس غريبًا أن يكون قد طلب الرسول ﷺ أو نصارىٰ نجران من معاوية أن يكون شاهداً علىٰ الميثاق.

وأخيراً وكما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك في هٰذا المؤلف، تبقىٰ إمكانية إضافة الأسانيد الروائية قد تمت قرونـاً بعد ذلك، حينما أصبح هٰذا الإجراء شرطـاً ضروريـاً من شروط رواية الحديث. وكما يشرح ذلك محمود أبو رية في كتابه ***أضواء علىٰ السنة المحمدية*** أو دفاعـاً علىٰ الحديث، "هناك من لم يتعمد وضع أو تزوير الحديث، لكن يأتي بأسانيد صحيحة" (ص١٤٤) لنص تنقصه تلك الأسانيد، سواء أكان صحيحـاً أو غير صحيح . فلا أحد يمكن أن ينفي أن الأمويين والعباسيين قد فتحوا الباب علىٰ مصراعيه لوضع الأحاديث وتلفيقها، ولم يدخروا جهداً في تزوير السنة النبوية. ولم يكونوا وحدهم في القيام بذلك بالطبع، ذلك لأن أوج تزوير الحديث تم في السنوات الأربعمائة الأولىٰ من تاريخ الإسلام" (براون ص٧١).

وفي رأي الإمام أبي زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي (١٢٣٤-١٢٧٨م)، كانت السنة تزوَّر من قبل الزنادقة أو الخارجين عن الدين الكارهين لله وللإسلام، بدافع التحيز أو الغلو في الدين، أو التمرد أو التعصب الأعمىٰ، أو موالاة طرف من الأطراف، إضافة إلىٰ حب الظهور أو الحصول علىٰ المكافأة المالية (أبو رية، ص ١٤٤). وقد أورد أبو رية أسبابـاً أخرىٰ كثيرة كانت تدفع الناس إلىٰ وضع الأحاديث ونسبها بالباطل إلىٰ النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، بما في ذلك خلق الفرقة والشقاق بين المسلمين، وتشجيع المذهبية والانقسام الطائفي، والإهمال، أو محاباة الحكام، أو بسبب الخطإ أو السهو أو الذاكرة المعيبة أو الاضطراب الذهني، أو الأنانية أو حب السمعة والظهور. بالرغم من وجود بعض اليهود المعروفين بوضعهم للأحاديث وتزويرها إلىٰ درجة أنهم خلقوا جنسـاً بذاته يدعىٰ "الإسرائيليات"، فإنه يبدو أن المسيحيين لعبوا دوراً غير ذا بال فيما يتعلق باختلاق الأحاديث النبوية. فإذا كانت بعض المفاهيم المسيحية قد دخلت إلىٰ الإسلام، فإنما يرجع ذلك في الغالب إلىٰ بعض المُتَصَوّفة المبتدعين الذين استهوتهم الرهبانية، والذين كانوا يروون أحاديث توراتية إنجيلية وأخرىٰ مشكوك في صحتها تنسب للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ لسان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ (رزفي ص٤١).

بينما يعتقد أغلب النقاد أن العهد النبوي الذي كتبه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ

نجران يرجع تاريخه إلىٰ السنوات الأولىٰ من الهجرة، فإنهم يفعلون ذلك انطلاقاً من التاريخ الموجود في المصادر السنية التي ترجع تاريخ زيارة الوفد من نصارىٰ نجران للنبي ﷺ إلىٰ فترة سابقة لغزوة بدر. وفي الحقيقة هٰذا غير معقول، لأن النَّبيّ ﷺ لم يكن معروفاً آنذاك بما فيه الكفاية في جزيرة العرب، ولم يكن وقتها يشكل أي تهديد للقبائل، ولم يكن هناك ما يدعو مسيحيي نجران لطلب عقد معاهدة من أي نوع، أو السعي للحصول عليه. إن التأريخ الأكثر معقولية يأتي من المصادر الشيعية، والتي تنص علىٰ أن زيارة الوفد المسيحي وحدث المباهلة وقعا بعد فتح مكة (ص١١٦). وكما يؤكد الشيخ المفيد في كتابه تحت عنوان ***كتاب الإرشاد***:

> "حينما انتشر الإسلام بعد فتح مكة وكثرت الغزوات عقب ذلك، وتقوت شوكة الإسلام، بدأت الوفود تصل تباعاً إلىٰ النَّبيّ صلىٰ الله عليه وآله، فدخل بعضها الإسلام بينما سعت الأخرىٰ إلىٰ طلب الحماية لكي تعود إلىٰ قومها وتخبرها برأيها في الرسول ﷺ. ومن بين الوفود التي جاءته كان وفد بني حارثة، أتىٰ أسقف نجران علىٰ رأس ثلاثين من النصارىٰ من بينهم العقيب the deputy والسيد the chief وعبد المسيح. وصلوا المدينة عصراً، وكانوا يرتدون ثياباً من الحرير ويحملون الصلبان.

اقترب منهم اليهود فبدأوا يسألون بعضهم بعضاً؛ فقال النصارىٰ لليهود "لستم علىٰ شيء"، فأجابهم اليهود "لستم أنتم علىٰ شيء". عندها أنزل الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (٢:١١٣).

وعندما صلىٰ النَّبيّ ﷺ صلاة العصر، تقدموا إليه وكان علىٰ رأسهم الأسقف فقال له: "يا محمد، ما تقول في الرب، المسيح؟". أجابه النَّبيّ ﷺ: إنه عبد الله اختاره الله تعالىٰ"؛ فأجابه الأسقف: "هل تعلم يا محمد أنه ولد من أب؟". فأجابه النَّبيّ ﷺ: "لم يولد من جماع ليكون له أب". فسأل الأسقف: "كيف تقول إنه مخلوق وأنت

تعلم أن عبداً مخلوقـاً لا يولد إلاّ من جماع و[بالتالي] يكون له أب؟" فأنزل الله تعالىٰ الآيات التالية في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ (٣: ٥٩-٦١). فقرأ النَّبيّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم الآية علىٰ النصارىٰ وتحداهم، داعيـاً إياهم إلىٰ المباهلة قائلاً: "لقد أخبرني العزيز المتعال أن لعنة الله تحل بالكاذبين بعد المباهلة، حين يتبين الحق من الباطل".

عندها دعا الأسقفُ عبدَ المسيح والعقيب the deputy للتشاور، فأجمعوا أمرهم علىٰ أن ينتظروا حتىٰ يأتي الصبح. وحينما أتوا قومهم قال لهم الأسقف: "انظروا إلىٰ محمد يوم غد، فإن هو أتىٰ بأبنائه وأهله، فاحذروا أن تتباهلوا معه؛ لكن إذا خرج ومعه أصحابه [فقط]، فتباهلوا معه؛ فهو ليس علىٰ شيء آنئذ".

وفي اليوم الموالي خرج النَّبيّ صلىٰ الله عليه وآله ويده في يد عليّ بن أبي طالب، بينما كان الحسن والحسين عليهما السلام يمشيان أمامه، وفاطمة عليها السلام تمشي وراءه. وخرج النصارىٰ يتقدمهم الأسقف. حينما رأىٰ الأسقف النَّبيّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله مقبلاً مع من كان معه سأل عنهم، فقيل له: "ذاك ابن عمه عليّ بن أبي طالب الذي هو صهره وأبو سبطيه وأحب خلق الله إليه. وهٰذان الطفلان هما ولدا ابنته فاطمة من علي عليه السلام. وهما أعز المخلوقات عنده؛ وتلك البنت هي ابـنته فاطمة عليها السلام، وهي أعز الناس إليه وأقربهم إلىٰ قلبه".

نظر الأسقف إلىٰ العقيب وإلىٰ الرئيس وعبد المسيح فقال لهم: "أرأيتم أنه أتىٰ مع خاصة أولاده وأهله لكي يقوم بالتباهل معهم، وهو واثق من صدقه، فوا لله إنه ما كان ليصطحبهم معه لو خاف أن يكون الحق ضده. ولهٰذا حذر الأسقف من المباهلة معه. فو الله لولا مكانة قيصر (الإمبراطور البيزنطي) لأسلمت علىٰ يده. لكن الآن سالموه علىٰ ما تتفقون عليه معه؛ ثم ارجعوا إلىٰ بلدكم وفكروا في الأمر مليـاً".

أجابوه: "إن نظرنا هو ما ترىٰ". ثم نادىٰ الأسقف: "يا أبا القاسم، نحن لن نتباهل معك ولكن سنسالمك، فلتسالمنا إذن كما نريد مسالمتك". ثم سالمهم النَّبيّ ﷺ علىٰ شرط أداء ألفين من الدروع، كل درع يساوي أربعين درهمـاً من الذهب، مع تقدير قيمتها زيادة أو نقصانـاً. ثم أمر النَّبيّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم بكتابة كتاب تسطر فيه الشروط التي سالم القوم عليها. وكان نص الوثيقة كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الذهب والفضة والزرع والعبيد، لا يؤخذ شيء منها باستثناء ألفين من الدروع، كل درع بقيمة أربعين درهمـاً مع اعتبار قيمتها زيادة أو نقصانـاً؛ يؤدون ألفـاً منها في شهر صفر والألف الأخرىٰ في شهر رجب. وعليهم أيضـاً أداء أربعين درهمـاً بدون زيادة من أجل إيواء رسولي. وكلما حدث حادث باليمن، يطلب من المقيمين منهم (dhi'adan) كما تم الاتفاق علىٰ ذلك بين الجانبين ثلاثين درعـاً وثلاثين من الخيل، وثلاثين من الإبل. فلهم جوار الله وذمة محمد بن عبد الله. وكل من أكل الربا منهم بعد هٰذا العام فلا ذمة له عندي. وهٰذا كتاب كتبه محمد النَّبيّ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله لأهل نجران وأتباعهم (ص ١١٦-١١٨).

وكما هو الحال بالنسبة لأي حدث تاريخي، هناك اختلافات طفيفة في التفاصيل التي توردها الروايات المختلفة. يذكر فخر الدين الرازي (١١٤٩-١٢٠٩م) في تعليقه علىٰ ما ورد علىٰ لسان الأسقف ما يلي: "معشر النصارىٰ، إني أرىٰ وجوهـاً لأناس لو طلبوا الله أن يحرك جبلاً لفعل. فلا تطلبوا اجتماعـاً بهم، وإلا دُمِّرتم فلا يبقىٰ نصراني واحد علىٰ وجه الأرض إلىٰ يوم القيامة" (ذكره أردوني ص١٥٨). وبعدما طلب الوفد [النصراني] الإعفاء من المباهلة قال لهم رسول الله ﷺ: "لأفعلن، فوالذي بعثني بالحق شهيداً علىٰ الناس ... لو أنني لعنتكم فإن الله تعالىٰ ما كان ليبقي نصرانيـاً علىٰ وجه الأرض" (ذكره اردوني ص١٥٨).

من المهم أن نذكر أن كتَّـاب السيرة مثل ابن اسحق والواقدي، والذين كانوا يعملون تحت أعين عتاة الحكام الذين عاشوا تحت سلطتهم، قد حذفوا أو أسقطوا

الاعتبار الواجب لأهل البيت، الذين إلىٰ جانب النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بصفته رب العائلة النبوية، فهم يتكونون من فاطمة وعلي، والحسن والحسين، وهم الذين يشكلون [الأئمة] الخمسة المعصومين المطهرين. ومما يجدر ذكره أيضـًا كيف أن كتَّاب السيرة الشيعة مثل الشيخ المفيد يلخصون المناظرة التي جرت بين النَّبيّ ﷺ وأهل الكتاب، في حين أنها حظيت بتركيز أكبر عند ابن اسحق (ص٢٧٠-٢٧٧). إن المناظرة بين النصارىٰ واليهود والتي جرت أمام النَّبيّ ﷺ لم يذكرها ابن اسحق واختصرها الشيخ المفيد في جملتين. علىٰ أن ميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران يتناول هذه الحادثة بتفاصيل أوفىٰ. فبالنسبة للعلماء السنة مثل ابن اسحق، كان من اللازم حذف كل ما يبين نوعـًا من التعاطف مع الشيعة؛ وعلىٰ خلاف ذلك، فإن العلماء الشيعة -مثل الشيخ المفيد- كان من اللازم عليهم إبراز ذلك. لقد كانوا يعتمدون كلهم نفس المصادر، لكنهم كانوا يتصرفون فيها بالحذف والزيادة خدمة لأغراضهم الإيديولوجية. وهٰذا سبب آخر للقول إنه لا يمكن الحصول علىٰ صورة مكتملة للفترة الأولىٰ للإسلام باعتماد المصادر السنية فقط أو المصادر الشيعية فقط. إنه فقط بضم جميع الروايات إلىٰ بعضها البعض سواء منها التي تركها السنة أو التي تركها الشيعة أو النصارىٰ، إلىٰ جانب العهود النبوية، نستطيع إذاك فقط أن نحصل علىٰ التفاصيل ذات الصلة بالموضوع.

وبما أن فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت لا تزال صغيرة السن ولا يسمح لها سنها بالمشاركة في حادثة [مثل حادثة] المباهلة في السنوات الأولىٰ من الهجرة، فإن عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران من الضروري أن يكون مؤرخـًا في السنة الأخيرة من حياة النَّبيّ ﷺ. وإذن فإنه من الممكن من الناحية العملية أن يكون معظم الشهود المذكورين في العهد النبوي حاضرين للتوقيع عليه. وينبغي الاعتراف أنه لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث سوىٰ في فترة زمنية وجيزة، غير أنه يبقىٰ مع ذلك أنه قد وقع في إطار ما هو ممكن. وبما أن الرسائل والعهود والمواثيق النبوية أصبحت تتسم بالطول مع مر السنين، فإن هٰذا من شأنه أن يفسر سبب طول عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران. إن أغلب الوثائق النبوية التواصلية الأولىٰ لم يكن يحضرها شهود. لكن عدد الشهود

ارتفع فيما بعد، وتضاعف مع مرور الوقت من بضعة شهود ليصل إلىٰ ما يزيد عن ثلاثين شاهداً. وقد يكون من بين التفسيرات لهٰذا الأمر ارتفاع نسبة القراءة والكتابة في أوساط الصحابة.

بعد شير Scher كان الشخص الأكثر اعتراضاً علىٰ العهد النبوي لنصارىٰ نجران هو كلود كاهن (١٩١٩-١٩٩١)، وهو مستشرق ومؤرخ فرنسي ماركسي اعتبر العهد النبوي "عبارة عن تزوير من وضع الرهبان النساطرة في القرن التاسع الميلادي، وكان القصد منه التعبير عن مشاعر ورع كاذبة (انظر نيرسيسيان). وهٰذا الرأي غير المؤسس علىٰ أي سند، قبل به بصفة عمياء فريج نيرسيس نيرسيسيان. وبالرغم من كون الميثاق قد احتفظ به مصدران ينتميان للمسيحية الشرقية، هما 'حولية سيئيرت'، والرواية الكهنوتية لبار هبراؤوس The Ecclesiastical Chronicle of Bar Hebraeus ، فإن نيرسيسيان يصرح بأنه "تلفيق واضح قد يكون من عمل أحد الرهبان أو القساوسة النساطرة" دون أن يكلف نفسه إضافة أي شيء لدعم دعواه. إن اجترار مثل هذه الآراء بكيفية ببغاوية لا يضيف أي شيء للنقاش الأكاديمي العلمي، ولا يسهم بأي حال من الأحوال في الرفع من مستوىٰ المعرفة بالموضوع.

أما بالنسبة لأحدث الآراء التي استهدفت صحة العهد النبوي لنصارىٰ نجران، فإن مصدرها براندي راتليف الذي يعتمد علىٰ آراء شير (١٨٦٧-١٩١٥م) (ص٦٠٢، م١)؛ ولويس ماسنيون (١٨٨٣-١٩٦٢م) (انظر ص٢٥٠-٢٥٧) وباربرة روغيما. فهذه الأخيرة مثلا تلاحظ في مقال لها تحت عنوان: 'دير القديسة كاثرين في جبل سيناء والجماعات المسيحية في أقطار الخلافة': بـ"أن بعض جوانب هذه الرسالة كانت موضع تشكيك أيضاً؛ ويبدو أنها كانت من عمل بعض وزراء العهد العباسي، والذين كانوا ينتمون إلىٰ الطائفة النسطورية من حيث أصلهم، وكانوا يريدون من خلال ذلك حماية أهل مذهبهم" (ص١٧، م١١). غير أن هٰذا الادعاء كان قد سبق أن تقدم به ماسنيون، وهو رجل كان تعاطفه مع الدين الإسلامي متسماً بالتذبذب (إيروين ٢٢٤). وبالفعل لقد كتب في إحدىٰ المناسبات انه درس لغة القرآن من أجل القضاء علىٰ القرآن. أما راتليف، فإنها لم تأت بأي جديد فيما يخص الأدلة الخاصة بها، بل

اعتمدت علىٰ أفكار وتخمينات المستشرقين الآخرين. ولم يُعرف عن مسيحيي العالم الإسلامي أن لهم تاريخاً من التزوير الذي يمس الأحاديث أو الوثائق النبوية. وبما أن حقوقهم كانت مكرسة ومنصوصاً عليها في القرآن الكريم، والسنة والشريعة، فإنه لم تكن لهم أية مصلحة حقيقية في تزوير عهد امتيازات، ذلك لأنه بفعلهم ذلك قد يعرضون أنفسهم لأخطار حقيقية. فمهما بلغت درجة انتشار وضع الأحاديث، فإن الكثير من واضعي الحديث في العصر العباسي قد ضُربت أعناقُهم من أجل جعلهم عبرة للآخرين. بالإضافة إلىٰ هٰذا، فإن كل عمليات التزوير كان مصدرها بالفعل مركز السلطة. بعبارة أخرىٰ، كانت الأحاديث الموضوعة تؤيد آراء الحكام السياسية والأيولوجية والدينية والمذهبية. أما العباسيون فلم يكونوا في حاجة لتزوير عهد نبوي ما دامت حقوق الأقليات كانت مكفولة بنصوص القرآن والسنة والشريعة.

وعلىٰ الرغم من ذكرها للعهد النبوي لنصارىٰ نجران بطريقة عرضية، في معرض حديثها عن قصة بحيرا فإن باربرة روغيما تبدو متصلبة في مواقفها. ففي نظرها إن التصريح الافتتاحي للنبي مُحَمَّد ﷺ في مدخل نص المعاهدة هو 'محض خيال' (ص١١٦). إن فكرة امتداح النَّبيّ ﷺ للمسيحيين وإدانته لليهود والمشركين هي فكرة لا تستسيغها تماماً. وأما ما يعقب ذلك، أي ما يتعلق بنص المعاهدة نفسه، فإنها تصرح أنه "كان بالتأكيد من تحرير المسيحيين" (ص١١٧). غير أنها تبدو حذرة حين تقول إن الميثاق نفسه "لا ينبغي اعتباره مزوراً جملة وتفصيلاً"، ذلك لأن الميثاق يشتمل علىٰ لائحة من الواجبات تجاه المسيحيين ينص عليها العهد العمري، وأنه يذكّر ببعض المطالب والعهود النبوية لأهل نجران، كما تنص علىٰ ذلك المصادر الإسلامية" (١١٧). وكما تعترف بذلك روغيما نفسها، فإن الميثاق الموجود في حولية سيئرت، "ينص علىٰ واجبات شبيهة [بما ينص عليه] العهد العمري، من قبيل استضافة المسلمين لمدة ثلاثة أيام وعدم إيواء أعداء المسلمين؛ ويضيف أبو يوسف يعقوب والبلاذري اتفاقاً بين النَّبيّ ونصارىٰ نجران في مؤلفاتهما. وبمقارنة نصوصهما بالنص الموجود في تاريخ سيئرت فإن المرء يجد نفس طريقة التعبير عن الالتزام بعدم التعرض والتدخل في شؤون الأديرة والكنائس، بينما ينص الاتفاق المزعوم الموجود

في تاريخ سيئرت علىٰ أنه إذا لم يستطع المرء أن يزود المسلمين بالثياب، فبإمكانه أن يؤدي مقابله نقداً. وهٰذا في الغالب ما يشكل جواباً علىٰ مقتضىٰ النَّبيّ بأن علىٰ أهل نجران أن يؤدوا ألفين من الثياب كل سنة، كما هو منصوص عليه في المصادر الإسلامية المعنية بالأمر" (ص١١٧).

ومن أجل إسناد ادعائها بأن المسيحيين زوروا الوثائق ونسبوها إلىٰ النَّبيّ ﷺ، تشير روغيما إلىٰ أن بعض اليهود كانوا قد وجهت إليهم نفس التهمة (ص١١٨، م ٦٨). وتتساءل الكاتبة فيما "إذا كان الكتاب المسيحيون الذين كتبوا تلك الوثائق يريدون أن يؤسسوا بصفة نهائية لسياسة لم تكن موجودة بشكل واضح جلي" أم أن "كتاب تلك النصوص... يعتبرون القاعدة بمثابة معطىٰ تاريخي بالرغم من بعض التباينات في تطبيقها؟" (١١٨). لقد سبقت الإجابة عن هذه الأسئلة. وإذ يمكن للمرء أن يجعل موضع تساؤل إشارات وإحالات علىٰ المواثيق النبوية الموجودة في المصادر التاريخية التي يرجع تاريخها إلىٰ قرون بعد حدوثها، فإنه لا يمكن للمرء أن يضع محل تساؤل وثائق مصدقة صحيحة وأصيلة نذكر منها النسخ التي لا تزال موجودة للعهود والمواثيق التي أشر عليها النَّبيّ ﷺ بخاتمه. إن هٰذا الدليل القوي يعطي مصداقية للمواثيق الموجودة في المصادر التاريخية المبكرة. أما بالنسبة لأعمال التزوير المزعومة -التي قيل إن أهل الكتاب كانوا يخرجونها عندما كان يطرق بابهم جابي الضرائب والزكوات، أو حينما كانوا يريدون إيقاف من جاء ليهدم أماكن عبادتهم التي بنوها بشكل مخالف للقانون وبدون ترخيص، أو بنوها علىٰ أراض لم تكن في ملكيتهم- فأين إذن ما يدل علىٰ أن الوثائق كانت مزورة بالفعل؟ إن النَّبيّ ﷺ قد أرسل كما هو معروف ما يزيد عن مائة رسالة إلىٰ الطوائف الدينية في العالم المعروف آنذاك. ومن المحتمل أن تكون تلك الرسائل محفوظة عند قادة الطوائف اليهودية والنصرانية علىٰ مدىٰ قرون من الزمن. أما بخصوص فكرة اتخاذ حرية التصرف لبعث الحياة من جديد في وثائق سابقة عن طريق استعمال الغش والتضليل، فإن هٰذا ما لا يمكن للعقل أن يستوعبه. فلو أن المسيحيين مثلاً كانت بحوزتهم نسخ من الاتفاقيات التي عقدها النَّبيّ ﷺ مع طوائفهم، فلماذا يلجأون إلىٰ تزوير اتفاقيات جديدة؟ بالنسبة

لروغيما، إن العهد النبوي لنصارىٰ نجران هو صورة طبق الأصل للمواثيق النبوية السالفة وللعهد العمري، أضيفت إليها عناصر جديدة. فهي تصل إلىٰ هٰذا الاستنتاج لا باعتماد مبدأ الشبه بين نصوص الوثائق فقط، وإنما انطلاقا من التماثل في طريقة التعبير. لكن إذا كانت كل هذه المصادر متشابهة إلىٰ هٰذا الحد، بل إلىٰ حد التماثل، أفلا يكون أبسط وأيسر وأعقل أن ننسبها إلىٰ نفس المؤلف الأوحد؟

فإذا كان التحريف شيئًا ممكنـًا، فهو ليس بالضرورة أمراً واقعـًا. والحقيقة أنه حينما نقارن بين مختلف نسخ العهود والمواثيق والاتفاقيات التي عقدها النَّبيّ ﷺ مع نصارىٰ سيناء ونجران، فإننا نجد بعض الفروق الطفيفة بينهما؛ وهي نفس الاختلافات الصغيرة التي توجد في الأحاديث النبوية وتقع بصورة طبيعية، ولكن بشكل عرضي من خلال عملية الرواية الشفوية. وقد يكون سببها أيضـًا إدخال علامات الترقيم والحركات والضبط علىٰ كتابة كانت في الأصل بدائية لا تشتمل علىٰ هذه العناصر، فصارت النصوص بها أوضح وأسهل للقراءة. وعلىٰ غرار كل وثائق ذلك العصر فإن رسائل النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ قد تمت كتابتها بخط عربي جد بسيط. إن عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء والعهد النبوي لنصارىٰ نجران قد تم استنساخهما وأعيدت كتابتهما بالخط العثماني، مما ساهم في تسهيل قراءتهما. وباعتبار طبيعة الخط العربي البدائي وما يميزه من غياب للحركات، بل غياب النقط فوق الحروف وتحتها، كان من الصعب قراءة النصوص وازداد الوضع صعوبة مع حالة المخطوطات المهترئة.

وعند المقارنة، تبدو الاختلافات الموجودة بين مختلف وثائق العهود ناتجة عن قراءات مختلفة للنص الأصلي غير المشكول وغير المنقط. إن الاختلافات بين ميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران وميثاق النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم هي اختلافات تشبه في طبيعتها تلك الموجودة في النسختين المختلفتين لمعاهدة مقنة الموجودتين في كتاب ابن سعد (المتوفىٰ سنة ٨٤٥م) وعند البلاذري (المتوفىٰ سنة ٨٩٢م). وكما يفسر ذلك موشي غيل (المولود سنة ١٩٢١م)، فإن "بعض العبارات أصبحت غير متداولة في زمن ابن سعد، فحاول أن يشرحها في سياق نسخة المعاهدة لكن بصورة غير دقيقة" (ص ٢٩-٣٠، م٢٧). في بعض الأحيان كان الرواة يلجأون

من أجل تسهيل القراءة إلىٰ تحديث لغة رواياتهم. فإذا كانت رواية البلاذري تشير إلىٰ قبيلة "حبيبة"، فإن ابن سعد كان يشير إليها علىٰ أنها قبيلة "جنبة". لكن كلا القراءتين ممكنتان، باعتبار أن حروف الحاء والخاء والجيم لا يمكن التمييز بينها إذا كانت غير منقطة، وقُلْ نفس الشيء بالنسبة لحروف الباء والتاء والثاء والنون. أضف إلىٰ هٰذا، وكما يشرح ذلك البلاذري، فإنه حصل علىٰ نسخة من الوثيقة عن طريق شخص مصري رأىٰ أصلها في مقنة (غيل ص ٢٩-٣٠، م ٢٧). وحسب السند المصري الذي اعتمده البلاذري، فإن كتاب الأمان قد كتب علىٰ رقع أحمر وكانت الكتابة عليه قد تلاشت (غيل ص ٢٩-٣٠، م ٢٧). وانطلاقاً من هذه المعلومة، يبدو أن الاختلافات الموجودة بين نسخ بعض المواثيق التي نحن بصددها كانت ناتجة عن اختلاف في القراءات الممكنة للكتابة التي تعتمد نظام الصوامت فقط (بدون حركات). ويبدو أيضاً أن النسخ الأصلية للعهود كان قد بدأ يصيبها التلف عندما تم استنساخها بالخط العثماني. قد تكون بعض الكلمات أو بعض الجمل -وحتىٰ بعض الفقرات الكاملة- غير واضحة، بينما تكون أخرىٰ قد انمحت تماماً، مما يجعل الناسخ يواجه خيارين: فإما أن يقفز علىٰ الموضع الذي يطرح له مشكلة ويتركه؛ وإما أن يحاول ترميمه بما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً. فإذا كان الأمر قد وقع كما تم وصفه هنا، فإنه لا مجال لاتهام الناسخ بالتزوير لأن أي خطإ يُرتكب يكون خطأ غير متعمد وعن حسن نية. وأخيراً حينما يعتبر المرء التشابه الحاصل بين مختلف المواثيق النبوية، مع العلم أنها توجد في مناطق جغرافية مختلفة، فإنه يستطيع أن يستنتج بأنها تنبع من مصدر واحد. في دراسة الحديث يعرف هٰذا بتعدد الرواة transmitters ، وتعتبر بمثابة طريقة لتحقيق النصوص (عزمي ٣٣-٤٢). إن المواثيق النبوية قد تم العثور عليها في عدة مناطق وتتضمن نفس الشكل والمعنىٰ تقريباً في جميع نسخها. وهٰذا يدل علىٰ أن لها نفس المصدر.

تَعليق على مَضمُون العَهد النَّبَوي لِنَصارىٰ نَجْران

يعد عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران أطول ميثاق عقده الرسول ﷺ. وعلىٰ خلاف الميثاقين الآخرين اللذين يتناولان مباشرة القضايا المطروحة، فإن الوثيقة التي نحن بصددها تبتدئ بالبسملة المألوفة، أي بسم الله الرحمن الرحيم. وعلىٰ خلاف الميثاق المعقود لرهبان جبل سيناء والميثاق المعقود للنصارىٰ الآشوريين، يشتمل ميثاق نصارىٰ نجران علىٰ جزأين متمايزين: مقدمة تمهيدية تضع العهد في السياق، ومضمون نص العهد نفسه.

تنص مقدمة الميثاق علىٰ الغرض منه منذ الوهلة الأولىٰ، وتؤكد علىٰ أنه "ميثاق أمان من الله ورسوله لأهل الكتاب من النصارىٰ المنتمين لدين نجران أو لأي مذهب نصراني آخر". وعلىٰ غرار القرآن والسنة، الذين يشتملان علىٰ تعاليم محددة في الزمان، وعلىٰ تعاليم خالدة صالحة لكل زمان ومكان، فإن الميثاق النبوي لنصارىٰ نجران ينطبق علىٰ هذه الطائفة من النصارىٰ بالتحديد كما ينطبق علىٰ طائفة النصارىٰ الواسعة برمتها، ما دامتا خاضعتين للحكم الإسلامي، علىٰ غرار باقي نصارىٰ جنوب الجزيرة العربية.

تثبت الوثيقة أن كاتبها هو محمد رسول الله ﷺ إلىٰ الناس كافة كضامن لذمة وحماية من الله ورسوله، وجعل تلك الذمة ملزمة للمسلمين الذين سيأتون من بعده، والذين من واجبهم أن يكونوا واعين بها ويعترفوا بصحتها ويؤمنوا بها ويحافظوا عليها لصالحهم [كذا]. إن استعمال فعل 'كتب' كان وما يزال مدعاة للأسىٰ والإحباط لأغلبية المسلمين الذين يعتقدون أنه من باب الورع والتقوىٰ أن محمداً ﷺ كان أمياً [لا يعرف مبادئ القراءة والكتابة]. فهٰؤلاء يحاجون بأن رسول الله ﷺ كان باعتباره أميا لا يمكن أن يكون قد كتب الميثاق المعني بالأمر. إن القضية مع ذلك قد تم تناولها بما فيه الكفاية في دراسة لي تتناول العصر الجاهلي والعصر الإسلامي الأول في كتاب تحت عنوان التاريخ الثقافي للقراءة:

"فاستناداً إلىٰ القرآن الكريم، كان النَّبيّ ﷺ أمياً (انظر الآية ٧: ١٥٧–١٥٨).

ولفظة 'أمي' تعني عند أغلبية علماء السنة المسلمين 'من لا يعرف مبادئ القراءة والكتابة'. وعلىٰ الرغم من كون كلمة 'أمي' تتضمن في استعمالها الحديث معنىٰ عدم الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة، فهي تعني أيضـًا 'قاطن مكة' بحكم أن مكة تعرف أيضـًا بـ'أم القرىٰ'؛ كما أنها تعني 'الأغيار' gentiles (أي من لا ينتمي لأهل الكتاب، وقد تعني 'الجاهل' "unlettered" بمعنىٰ من لم يتلق تربية نظامية . وحسب آل بيت النَّبيّ ﷺ فإن محمداً ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة في سبعين لغة. فهم يلحون دائمـًا علىٰ أن لقب 'النَّبيّ الأمي' يشير إلىٰ كونه ينتمي لمكة أم القرىٰ.

وحسب الكثير من المستشرقين أمثال ماكسيم رودنسون، ومونتغومري واط، وألبرت غيوم، فإن النَّبيّ ﷺ كان بالفعل يعرف القراءة والكتابة قبل نزول الرسالة عليه، إذ هي مهارة كان في حاجة إليها إذاك كل تاجر عاش في تلك الفترة. وفي بعض المصادر الشيعية، فإن النَّبيّ ﷺ كان يوصف بكونه يعرف القراءة والكتابة قبل أن ينزل عليه الوحي، بينما يحاج الآخرون بأنه تعلم القراءة والكتابة عند نزول الوحي عليه. وعلىٰ الرغم من كون أمر قرائية literacy النَّبيّ ﷺ قبل نزول القرآن عليه هي مسألة فيها جدال، فإن كون مُحَمَّد ﷺ كان يكتب الرسائل ويوقعها في حياته هو دليل كاف علىٰ أنه كان يطبق ما كان يدعو إليه.

وتقديراً منه لأهمية القراءة والكتابة، فقد خاض النَّبيّ ﷺ حملة محو الأمية في العالم العربي. وكان أساس وصلب تلك الحملة ولا يزال، هو القرآن الكريم الذي يعتبر بمثابة النَّصّ الأول لتعليم القراءة والكتابة في العالم الإسلامي إلىٰ يومنا هٰذا. إن أحاديث النَّبيّ ﷺ الكثيرة التي تحث علىٰ التعليم والتربية تتضمن أحاديث مثل "العلم عبادة"، 'أطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد"، و"طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة"، و"اطلبوا العلم ولو في الصين".

وقد شجع النَّبيّ ﷺ صحابته المتعلمين علىٰ تعليم الصحابة غير المتعلمين مبادئ القراءة. ونظراً للنقص في عدد المعلمين فقد عمد الرسول ﷺ إلىٰ توظيف أسرىٰ الحرب كمعلمين، وسمح بإطلاق سراح كل من علم مسلمين اثنين القراءة. وعلىٰ الرغم من أن النَّبيّ ﷺ تولىٰ أمر المدينة لفترة دامت عشر سنوات فقط، إلا أنه

تمكن من خلق جيوش من المسلمين المتعلمين ومن العلماء الأفذاذ الذين وصلوا إلىٰ أعلىٰ المراتب العلمية. (٥٢٦)"

حينما كان الأئمة [الشيعة يسألون إن كان النَّبيّ ﷺ أميـًا، كانوا يجيبون: "فوالله إنه لكان قادراً علىٰ القراءة والكتابة بسبعين لغة" (مجلسي). ويقال إن هذه القدرة الخارقة قد ورثها عنه كل واحد من الأئمة الإثني عشر. وكما قال الإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) في حديث الطريق، "إن الإمام مكرم في مقامه السني بمعرفته بجميع اللغات وألسنة الخلائق". وكما تبين الكثير من الأحاديث النبوية فإن النَّبيّ ﷺ والأئمة كانوا يعرفون جميع اللغات. فهناك أحاديث تروىٰ عن السنة تبين علىٰ أن النَّبيّ ﷺ والحسن والحسين كانوا يتحدثون باللغة الفارسية. وكثير من الأئمة روي عنهم أنهم كانوا يتكلمون اللغة العبرية. وكان الإمام علي الرضا (٧٦٥-٨١٨م) يعرف عنه أنه كان يتحدث بطلاقة بجميع اللغات المعروفة في منطقته من العالم. ومعلوم أن أول أمر تلقاه النَّبيّ ﷺ كان ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (٩٦: ١). وهكذا فإنه من العار أن يقال إن النبيﷺ كان لا يمارس ما كان يحض عليه. ففي الوقت الذي يترجم فيه فعل الأمر "اقرأ" أحيانـًا بما يفيد معنىٰ "استظهر" في اللغة الإنجليزية (recite) والتي قد تعني إما اقرأ نصـًا بصوت مرتفع، أو استظهر ما حفظته شفويـًا، فإن الفعل العربي 'قرأ' يعني [أيضـًا] 'قرأ' ("to read") في اللغة الإنجليزية، بينما تؤدي الأفعال الأخرىٰ مثل 'سمع'، و'ألقىٰ' و'سرد' معنىٰ 'استظهر' (أي recite). ففي الوقت الذي كان من الممكن أن يكون النَّبيّ ﷺ أميـًا [لا يعرف مبادئ القراءة والكتابة]، في الفترة الجاهلية قبل نزول الرسالة، ومن ثم لا يمكنه أن يكون قد اختلق القرآن، (صالح ص٣٣)، وهو ما يفسر أيضـًا توقيعه لعهد أبرمه في المراحل الأولىٰ من الرسالة مع رهبان جبل سيناء، بوضع كفه عليه بعد أن غمسها في الحبر، فإنه من غير المحتمل أن يكون قد بقي علىٰ هذه الحالة بعد أن تلقىٰ الوحي. وبعد هٰذا وذاك فقد روي في كتاب بحار الأنوار أن النَّبيّ ﷺ قد أُعطي العلم بجميع اللغات عندما نزل إليه جبريل للمرة الأولىٰ وأنه علَّم عليـًا (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) فيما بعد مختلف الكتابات والخطوط scripts التي كان يستعملها من سبقه من الأنبياء (XVIII، ٢٦٦، ٢٧٨-٢٨٢)؛ وأن سورة 'العلق'

تصف الله تعالىٰ بكونه ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (٩٦: ٤-٥)، مما يدل علىٰ أن النَّبيّ ﷺ قد علمه الله تعالىٰ بواسطة جبريل القراءة والكتابة أو ألهمه تعلمهما.

وحينما يقول القرآن الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (٩٦: ١-٥)، فإن تطور الإنسان في نشأته انطلاقاً من بويضة مخصبة إلىٰ أن يصل إلىٰ مرحلة البلوغ، والمرور من مرحلة السماع إلىٰ مرحلة القراءة والكتابة، قد تم تقديمهما علىٰ أنهما مرحلتان متماثلتان تماماً. ففي لمح البصر في تلك اللحظة الخاطفة فهم مُحَمَّد ﷺ علاقة التلفظ (أو القراءة) بالكتابة، وعلاقة السماع بالقراءة، وعلاقة الاستجابة الفورية لأمر الله بالاستيعاب الكلي لذلك الأمر واستقراره في قلبه. في علم التصوف، يعرف المرور من الملفوظ من الكلام إلىٰ المكتوب منه بكونه مروراً من الحال إلىٰ المقام (أو المحطة). إن محمداً ﷺ، باعتباره نبيا، فإنه قد تعلم القراءة كما أمره الله تعالىٰ بذلك، وكذلك الأمر بالنسبة للكتابة، وهي مهارة لقنها النَّبيّ ﷺ لأصحابه وعلىٰ رأسهم عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه). إن رسول الله ﷺ قد وقف بمثابة المتحدث تجاه الكاتب، وكالمستمع من أجل الاحتفاظ بتراتبية الوحي، ومن أجل الإبقاء علىٰ كلمة الله تعالىٰ نظرة، حية، ومسموعة resonant . ولهٰذا فإن القرآن الكريم كان بمثابة مدرسة تعلم فيها كل ما كان في حاجة إلىٰ تعلمه؛ وهي المدرسة التي تلقىٰ فيها المبادئ الأولية للقراءة والكتابة.

وإذا أخذنا المسالة من زاوية عرفانية وباطنية ضيقة، فأن يكون المرء أمياً unlettered لا يعرف القراءة والكتابة هو معناه أن تكون له القابلية الكاملة لتلقي الكلمات الإلٰهية، كما تتقبل الصفحة البيضاء ما يخط القلم فوقها. إن قلوب أغلبية الناس منا مليئة بالخربشات وأنصاف الجمل، والجمل الممحوة أنصافها، بحيث لا نترك لله تعالىٰ حيزاً يكتب عليه؛ لكن قلب النَّبيّ ﷺ كان قلباً 'بكراً'. فليس من باب الصدفة أن يتجلىٰ جبريل لمُحَمَّد ﷺ كما لمريم العذراء لإشعارهما بنزول الوحي الإلٰهي. ولفظة أميّ قد تكون أيضاً إشارة غير مباشرة إلىٰ نوع العلم الذي نكتسبه

مع 'حليب أمهاتنا'، أي من المصدر الأول من خلال الوحي والإدراك المباشر. أما المصدر الأول فهو الله تعالىٰ، باعتبار أن كلاً من 'الرحمة' و'الذات' هما اسمان مؤنثان، وأن اللغة التي نتعلمها بواسطة الاستماع لا تزال تُدعىٰ 'اللغة الأم'.

فسواء كانت المقدمة التي تتصدر الميثاق المبرم مع نصارىٰ نجران مكتوبة بخط يد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ أو بخط يد أحد كتابه، فإنها تحذر من أنه "يحرم علىٰ أي رجل سواء أكان عاملاً أو صاحب سلطة أن يبطل الميثاق أو يخرقه". وباعتباره وثيقة تفصل بين مختلف الطوائف، فهي وثيقة ملزمة من الناحية القانونية: إنها اتفاقية أبرمها النَّبيّ ﷺ باعتباره قائداً يتمتع بالإجماع الشعبي حوله. تنص مقدمة الميثاق علىٰ "أنه لا يجوز للمؤمنين أن يحملوا [نصارىٰ نجران] شروطاً أخرىٰ لا يتضمنها هٰذا الكتاب"، وبالتالي فهي تمنع أي تغيير في شرط من الشروط حيث تكون في غير صالح النصارىٰ: "إن الذي يحفظها ويحترمها ويعمل بمقتضياتها -تقول الوثيقة- "يكون قد أدىٰ واجباته ويكون قد التزم بميثاق رسول الله ﷺ". إن طاعة الميثاق هي [إذن] طاعة لله ورسوله. "[أما] من خالفها أو عارضها أو غيرها -تحذر وثيقة الميثاق- "فإنه يحمل وزره معه"، لأنه يكون قد خان ميثاق الله ونقض إيمانه بالله وتحدىٰ سلطته وانتهك مشيئة رسوله، ويصبح بذلك أَفَّاكـاً في أعين الله. إن عبارة 'يحمل وزره معه' تبدو متناغمة مع البيان القرآني الذي يتحدث عن المجرمين الذين يؤخذون بالنواصي: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ (٥٥: ٤١؛ وانظر أيضـاً ٩٦: ١٥-١٦).

ويؤكد النَّبيّ ﷺ ما يلي: "لقد نصر الله تعالىٰ دينه والميثاق الذي أخذه أوجب [عليه] الأمان والذمة". إن الرسول ﷺ يتكلم هنا بصورة واضحة من موقع قوة. فالميثاق (أو العهد) لم يبرم من قبل أطراف متساوية؛ إن الدولة الإسلامية هي السلطة المرجعية. فمهما بلغت درجة سخاء الشروط المتعاقد بشأنها، فهي في آخر المطاف شروط رضوخ وتسليم. فالميثاق لم يكن خطوة كريمة من قبل النَّبيّ ﷺ تجاه الطائفة النصرانية فحسب، بل كان وثيقة تستلزم الطاعة لأمره المهيمن والحاكم الشرعي علىٰ العالم المادي. ولذلك يقول الرسول ﷺ: "من لم يعمل بما جاء في هٰذا الميثاق

يكون قد خرق واجباته المفروضة؛ ومن خرق واجباته المفروضة فقد نكث العهد، وهو منبوذ من الله تعالىٰ ومن صالح المؤمنين". وكما يصرح بذلك القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (٢: ١٥٩).

وتستمر مقدمة الميثاق في تبيان مدىٰ سخاء النَّبيّ ﷺ في إرسائه للشروط التي تعاقد بشأنها مع نصارىٰ نجران. فكما يتضح من الوثيقة، فإن الجزاء الذي منح لهم كان له ما يسوغه، فهو جزاء مستحق حق الاستحقاق: "إن السبب الذي جعل النصارىٰ جديرين بميثاق الله وعهد رسوله والمؤمنين هو أنه حق يستحقونه"؛ وبهٰذا المعنىٰ فإنه "عهد علىٰ كل مسلم أن يتمسك به ويحترمه ومن واجب كل مسلم أن يعمل به ويتقيد به ويحترمه ويدافع عنه ويحافظ عليه ويحميه إلىٰ الأبد وما دام حيـًا". إن التفسير المنطقي التالي له دلالة كاشفة. فكما يفسر ذلك النَّبيّ ﷺ :

> "إن الذين اتبعوا ما مضى من الملل القديمة وما أُنزل من الكتب جهروا بالعداء لله ولرسوله وتولوا معرضين عنهما بكفرهم برسالة النَّبيّ [محمد ص] الذي بشر به الله تعالى في كتابه. وهٰذا دليل على زيغ صدورهم وسوء نيتهم وقساوة قلوبهم. وحملوا بأنفسهم وزر ما قدمته أيديهم وكتموا ما أراد الله تعالى أن يظهره عليهم بإظهارهم إياه بدل إخفائه، والإشهاد عليه بدل إنكاره".

تسلط هذه الفقرة الضوء علىٰ الطريقة التي استقبل بها العرب الأقدمون الرسالة المحمدية. إن ذكر عبارة 'متبعي الملل القديمة' قد تكون إشارة إلىٰ الصابئة وإلىٰ المجوس، وربما حتىٰ إلىٰ المشركين. أما "أتباع الكتب القديمة"، فقد تكون الإشارة بها إلىٰ أهل الكتاب، وهو ما اتفق عليه جمهور العلماء بأنهم اليهود والنصارىٰ؛ وقد يتعدىٰ الأمر ذلك عند أقلية من العلماء ليشمل الزرادشتية والهندوس والبوذيين. إن هذه الألفاظ تبدو وكأنها تذكرنا بما حذر به القرآن الكريم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ (٢٢: ١٧). في الوقت الذي ارتفع فيه نقاش

حول من تكون الفئات التي يتضمنها مفهوم 'أهل الكتاب'، فإن الممارسة النبوية وممارسة الخلفاء الراشدين قد أقرتا بأن جميع الفئات من غير المسلمين يمكن التعامل معها كأهل ذمة أو رعايا [الدولة الإسلامية] (انظر حميد الله في ***السلوك الإسلامي*** ص١١٢-١١٣). وهٰذا أيضاً رأي الشيباني (٧٤٩/ ٧٥٠- ٨٠٥م)، ومحمد بن محمد السرخسي (المتوفىٰ حوالي سنة ١٠٩٦م)، وأبي حنيفة (٦٩٩- ٧٦٧م) وأبي يوسف (المتوفىٰ سنة ٧٩٨م)، (ص١١٣). أما بخصوص قساوة قلوب ومرض النفوس فإن هذه مجازات تكرر استعمالها في القرآن الكريم مثل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ١٠﴾ (٢: ١٠). (وانظر أيضاً الآيات الآتية: (٢: ٧٤؛ ٣: ٧؛ ٥: ١٣؛ ٥: ٥٢؛ ٦: ٤٣؛ ٨: ٤٩؛ ٩: ٧٧؛ ٩: ١٢٥؛ ٢٢: ٥٣؛ ٢٤: ٥٠؛ ٣٣: ١٢؛ ٣٣: ٦٠؛ ٣٩: ٢٢؛ ٤٧: ٢٠؛ ٤٧: ٢٩؛ ٧٤: ٣١؛ ٨٣: ١٤؛ الخ...).

وكما يبين ذلك رسول الله ﷺ فإن رسالته لم يتم قبولها بصدر رحب من قبل الجميع. وبالتأكيد فما كان له أن ينتظر استقبالاً حاراً. وعلىٰ أي فإن القرآن الكريم قد بين كيف أن اليهود ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ﴾ (٣: ١١٢؛ ٤: ١٥٥). ويضيف النَّبيّ ﷺ قائلاً:

"إن هٰؤلاء القوم خالفوا ما أمروا به، ولم يقدروه حق قدره، ولم يتبعوا المحجة البيضاء، وتآمروا على إظهار الإثم والعدوان تجاه الله ورسوله وصد الناس بالبهتان والباطل، والقول إن الله تعالى لم يرسله للناس بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، يبشر بالجنة من أطاعه وينذر بنار جهنم من تولى".

وإذ لا يذكر النَّبيّ ﷺ يهود المدينة بالإسم، فإنه مع ذلك يشير إليهم تلميحاً بكيفية واضحة. إن الروايات التاريخية تؤيد بعضها البعض في اتجاه أن اليهود والنصارىٰ معاً كانوا ينتظرون بفارغ الصبر مجيء نبي مرسل طال انتظارهم له. إن مصادر مثل *حياة القلوب* للعلامة مجلسي (١٦١٦-١٦٨٩م) يضم الكثير من النبوءات التي تتناول ميلاد مُحَمَّد ﷺ ووضعه، بالإضافة إلىٰ الأمارات ا لتي

أحاطت بمحمد رسول الله ﷺ (انظر الجزء الثاني [من هٰذا الكتاب). ورغم اعترافهم بمُحَمَّد ﷺ بما هو عليه، فإنهم رفضوه لكونه عربياً وليس يهودياً. وعلىٰ العكس من ذلك، وكما بين العديد من العلماء، فإن هناك ما يكفي من الحجج في التوراة (أي في العهد القديم) وفي الإنجيل (العهد الجديد) التي تؤيد الدعوىٰ بأن محمداً ﷺ كان بالفعل خاتم الأنبياء الذي بشر به الأنبياء من قبله. إن أعمالاً مثل كتاب ***محمد في التوراة*** لعبد الحميد داوود (١٨٦٧-١٩٤٠م) والذي كان يدعىٰ سابقاً دايفيد بنيامين كولداني David Benjamin Koldani وهو أسقف أورميا، وكتاب ***ماذا تقول التوراة عن مُحَمَّد*** ﷺ؟ لأحمد ديدات (١٩١٨-٢٠٠٥م)، وكتاب ***محمد في التوراة*** لجمال بدوي، كلها أعمال يمكن أن تصلح كمنطلق لأي بحث في الموضوع. واستناداً إلىٰ أبراهام إسحق كاتز، (حوالي ١٩٠٨-١٩٩٨م) وهو عالم يهودي، فإن النَّبيّ ﷺ كان متأثراً كثيراً بالديانة اليهودية إلىٰ درجة يمكن اعتباره معها أنه كان متهوداً تقريباً (ص xxv). غير أنه يدعي أن ليس هناك أي شيء لم يقم به النَّبيّ ﷺ من أجل إقناع اليهود باعتناق الإسلام (ص xvii). وبالنسبة لعالم يهودي آخر يدعىٰ هيربرت بوس : "لقد كان مسعىٰ ميئوساً منه محاولة إدخال اليهود للإسلام" (ص١٩).

غير أن هٰذا الرأي هو رأي خاطئ بوضوح، ذلك لأن الكثير من اليهود اعتنقوا الإسلام ابتداء من وقت النَّبيّ ﷺ إلىٰ الوقت الحاضر. فقد كان بعض صحابة رسول الله ﷺ أمثال عبد الله بن سلاّم من اليهود الذين دخلوا الإسلام، وكذلك كان الحال بالنسبة للكثير من الشخصيات البارزة في تاريخ الإسلام، من أمثال هبة الله أبي البركات البغدادي، وابن يحي المغربي، ورشيد الدين الهمذاني، ويعقوب بن قليس، وابن يحي الإشبيلي، وشبطاي زيفي، ويعقوب قريدو. كما أن القرن العشرين عرف إسلام ليوبولد ويس (١٩٠٠-١٩٩٢) ويوسف درويش (Lev Nussimbaum) (١٩٠٥-١٩٤٢م)، وعبد الله شليفر، ومصطفىٰ مولد، إلىٰ جانب مريم جميلة (١٩٣٤-٢٠١٢م) وميكائيل وولفر، (المولود سنة ١٩٤٥م)، وسامويل ل. لويس (١٨٩٦-١٩٧١م)، وليونارد ليوشان، وكبير هيلمنسكي، وغيرهم كثير. كما ان عدداً متزايداً من اليهود الإسرائيليين اعتنقوا الإسلام في الآونة الأخيرة ممن خاب ظنهم في الدين

اليهودي وانقشعت عن أذهانهم أوهام الصهيونية (انظر بالتر) وعلىٰ رأسهم وأشهرهم طالي فهيمة (المولودة سنة ١٩٧٦) وهي ناشطة مؤيدة للقضية الفلسطينية. إن كتاب ***يهود الله*** هو جدير بالقراءة لمن أراد الاطلاع علىٰ هذه الظاهرة المثيرة. والحقيقة أن يهود المدينة المنورة كانوا في أغلبيتهم مناوئين لما جاء به النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ من تجديد قدم فيه اليهودية والنصرانية كديانتين أُرجعتا إلىٰ منبعهما الصافي.

وكما يبين الله تعالىٰ لنبيه في القرآن الكريم إذ يقول في سورة البقرة: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٢: ١٠٥). كما يضيف في آية أخرىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ (٢: ١٠٩). ويتهم الله تعالىٰ اليهود في القرآن الكريم لا بالدس علىٰ الحقيقة فحسب (انظر الآية ٢: ١٤٦)، بل إنه يحذر أيضاً من محاولة بعض اليهود [تضليل المسلمين المؤمنين] في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (٣: ٦٩). إن إشارة رسول الله ﷺ إلىٰ 'المصباح المنير' أي إلىٰ الحقيقة ونورها الساطع الذي يسعىٰ الكفار لإطفائه بأفواههم (انظر الآية ٩: ٣٢) هو إحالة علىٰ سورة النور بشكل مباشر حيث يقول الله عز وجل: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (٢٤: ٣٥).

بالإضافة إلىٰ محاولة اليهود زرع الفتنة والتضليل في نفوس المسلمين الأوائل، فإنهم تعدوا مستوىٰ الجدال العقيم إلىٰ مستوىٰ التآمر الفاضح؛ وكما يشرح ذلك تصدير العهد النبوي exordium:

"إنهم تجاوزوا حدود المعارضة عن طريق تحريض الآخرين بالقيام بما لم يتجرؤوا القيام به هم أنفسهم، أي بالكفر بما جاء به [النبي] ورفض

رسالته والسعي بالمكيدة إلىٰ إسقاطه في المهالك. إنهم لم ينكثوا العهود التي عقدوها مع النَّبيّ فقط، بل ساعدوا وحرضوا الأعداء المشركين وحاولوا مراراً أن يغتالوا رسول الله ﷺ".

كما نقرأ في تصدير العهد النبوي، ما يلي:

"لقد استهدفوا نبي الله ﷺ وقرروا قتله. لقد دعموا حزب المشركين وقبيلة قريش وقبائل أخرىٰ من أجل محاربته والطعن في عقيدته وجعله يتخلىٰ عنها، ومعاكسته وتكذيبه"

لقد ألقت امرأة يهودية حجراً في اتجاه رأسه في محاولة منها لقتله. وقامت يهودية أخرىٰ بتسميمه فعلاً لو لا أن قطعة اللحم المسموم نطقت للنبي ﷺ محذرة إياه بكونها مسمومة، فالقاها النَّبيّ ﷺ من فمه في آخر لحظة وإلا لكانت أودت بحياته. ومع ذلك فإن أثر السم أصاب أعضاءه الداخلية محدثـًا آلامـًا مبرحة في معدة رسول الله ﷺ عانىٰ منها لمدة سنين قبل أن يسقط ويسلم الروح لباريها. من أجل هٰذا فإن الكثير من المؤرخين وعلماء الدين المسلمين يعتبرون أن محمداً ﷺ لم يكن نبيـًا ورسولاً فحسب، بل كان شهيداً أيضـًا. ولهٰذا السبب أيضـًا، يقول تصدير الميثاق، "فقد باؤوا بحرمانهم من ذمة الله وحمايته". ويشير النَّبيّ ﷺ إلىٰ مؤامرات ومكائد يهود المدينة خلال العديد من الأوقات العصيبة التي عرفها المسلمون:

"إن تعاملهم/ وسلوكهم يوم حنين وفي المعارك ضد بني قَيْنَقَاع وبني قريظة وبني النضير معروف لدىٰ الجميع. فقادتهم وسادتهم ساعدوا سكان مكة أعداء الله ضد رسول الله ﷺ، كما ساعدوهم بالجيش والسلاح ضد النَّبيّ ﷺ كرهـًا ومقتـًا للمؤمنين"

وهٰذا ما يفسر لماذا تم استثناء السكان اليهود العدوانيين من عهود الحماية التي عقدها النَّبيّ ﷺ. وهٰذا لا ينطبق طبعـًا علىٰ الجماعات اليهودية التي سالمت النَّبيّ ﷺ أمثال سكان بلدة مقنة. وعلىٰ العكس من ذلك فإن المسيحيين رفضوا شن الحرب علىٰ الله ورسوله؛ والله تعالىٰ يشهد للمسيحيين بأن عطفهم ومودتهم

للمسلمين كانت مودة حقيقية. وكدليل علىٰ أن نصارىٰ نجران كانوا يتصرفون آنئذ بصدق، فإن النَّبيّ ﷺ أشار إلىٰ كلمات الثناء التي خصهم بها القرآن الكريم. فمن بين كلمات الحمد والثناء التي أغدقها الله تعالىٰ علىٰ النصارىٰ في كتابه ووحيه، وبعدما تبينت له قساوة اليهود، نوه بميل النصارىٰ إلىٰ المؤمنين وعطفهم عليهم، إذ يقول الله تعالىٰ في سورة المائدة (٥: ٨٢- ٨٤) :

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وكما يلخص ذلك أحمد شبول "إن موقف القرآن من الورع والتقوىٰ والمعاني الروحانية هو موقف اعتراف واحترام" (ص١٢٣). وإذ يتجاوز النَّبيّ ﷺ نداء الواجب، فهو يشرح ﷺ الأمر علىٰ النحو التالي: "إن بعض النصارىٰ الجديرين بالثقة والذين يعرفون دين الله أعانونا علىٰ الصدع بهٰذا الدين ولبوا نداء الله ورسوله، عندما دعوا الناس إلىٰ مشيئته وإلىٰ إتمام رسالته". بعبارة أخرىٰ، إن بعض النصارىٰ الذين تعاطفوا مع نبي الإسلام قد ساعدوا رسول الله ﷺ بدحضهم للدعاوىٰ التي جاء بها اليهود المناوئون. ويبدو بالتأكيد أن هٰذا كان قد حدث خلال اللقاءات التي جمعت النَّبيّ ﷺ بنصارىٰ نجران.

وإذا لم تصلنا تفاصيل هذه الأحداث فقد يعود ذلك إلىٰ الطعم المر الذي خلفه الصليبيون في أفواه العلماء المسلمين إلىٰ درجة أن هٰؤلاء استنكفوا عن إبراز تلك الفترة المضيئة -رغم قصرها- من التعايش الودي بين المسيحيين والمسلمين. وبطرد النصارىٰ في آخر المطاف، ونفيهم من جزيرة العرب، وانقسام العالم إلىٰ 'دارإسلام' و'دار كفر'، فإن مجرد التفكير في أن اليهودية والمسيحية والإسلام من الممكن أن يتعايشوا جنباً إلىٰ جنب في وئام وسلام، كانت بعيدة عن أذهان الكثير

من المسلمين. فلقد كان ذلك ببساطة شيئـًا لا يمكن لهم أن يرتبطوا به كتجربة معيشة خلال الحروب الصليبية وفترة الاستعمار. وفي آخر المطاف، عادت فعلاً العلاقات الودية بين اليهود والمسيحيين والمسلمين إلىٰ مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، لكن سرعان ما تحطمت مرة أخرىٰ علىٰ يد محدثي الصراعات ومشعلي الفتن، والتي لا زلنا نعيشها اليوم في حاضرنا. ويواصل النَّبيّ ﷺ في شرحه لطبيعة لقائه الأول المبكر بنصارىٰ نجران علىٰ النحو التالي:

"لقد جاء السيد بسيسو وابن هجرة وإبراهيم الراهب والأسقف لملاقاتي رفقة أربعين فارسـًا من نجران، إلىٰ جانب آخرين من أمثالهم ممن يدينون بدين النصارىٰ من بلاد العرب والعجم، وقد حدثتهم عن رسالتي وطلبت منهم تأييدها والدعوة لها ونصرتها. وبما أن قضية الله تعالىٰ بدت واضحة لهم فإنهم لم يتولوا علىٰ أعقابهم ولا رجعوا أدراجهم بل علىٰ العكس من ذلك وقفوا متراصين ثابتين، فوافقوا وساعدوا وأيدوا ووعدوا وعداً حسنـًا، وأخلصوا النصح، وثبتوني بالعهود والمواثيق أنهم سيقفون إلىٰ جانب الحق الذي جئت به، وأنهم سيصدون من أباه وخالفه".

تبدو الرواية السابقة متفقة مع المدونات التاريخية. وتقول المصادر الإسلامية المبكرة إن نصارىٰ نجران أرسلوا وفدين إلىٰ المدينة. فوصلت المحادثات الأولىٰ إلىٰ الباب المسدود، وتم إيجاد حل له عن طريق حادثة المباهلة. وعندما تراجع وفد النصارىٰ أعد النَّبيّ ﷺ معاهدة سلام لفائدتهم. (انظر قرشي ص٨٥). وعندما غادر هٰذا الوفد، وصل وفد آخر أكبر حجمـًا. وبالنسبة لقرشي "كان الوفد يضم ستين شخصـًا وكان علىٰ رأسهم أبو الحارث الأيهم وعبد المسيح. وبالإضافة إليهما، كان هناك أيضـًا أربعة وعشرون شيخـًا مشهوراً ضمن هٰذا الوفد" (ص٨٥). ومن الواضح أن قرشي قد التبست عليه أسماء المشاركين. فاستناداً إلىٰ المصادر السنية والشيعية معـًا، فإن من قاد الوفد النصراني كان عبد المسيح، الذي كان بمثابة العقيب؛ أي رئيس الوفد أو نائبه، إلىٰ جانب 'السيد'، الذي كان بمثابة مدير شؤون الوفد، وكان اسمه

الأيهم، والأسقف أو الحبر المعروف باسم أبي حارثة بن علقمة (انظر ابن اسحق ص ٢٧١؛ ومفيد ص ١١٦). وأما السيد أبسيسو المذكور في عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران فقد يكون هو الأيهم الذي لم يُذكر أبوه في سيرة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الإرشاد. إن لقب 'ابن هجرة' يمكن أن يكون لقباً لعبد المسيح. كما يمكن أن يكون اسم 'عيسىٰ' هو الاسم الشخصي لأبي حارثة بن علقمة، والذي يشار إليه فقط بكنيته في المصادر الإسلامية. وهذه الاختلافات في الأسماء ليست في الحقيقة قضايا ذات بال. وينطبق هٰذا بالفعل علىٰ عدد من المسيحيين، إذ يتحدث ابن اسحق عن ستين فارساً منهم أربعة عشر من أشرافهم (ص٢٧٠). ويذكر الشيخ المفيد ثلاثين نصرانياً (ص١١٦)، بينما يتحدث العهد النبوي لنصارىٰ نجران عن أربعين نصرانياً. ومما يجدر ذكره في هٰذا المقام إنه في اللغات السامية تستعمل هذه الأرقام للدلالة علىٰ الكثرة ومن هٰذا المنظور تتفق حولية سيئيرت Chronicle of Séert مع المصادر الإسلامية المبكرة.

إن نصارىٰ نجران هم الذين بادروا بربط الاتصال بالنَّبيّ ﷺ، علىٰ غرار ما فعلته الطوائف لأخرىٰ في العقود الأولىٰ للدعوة الإسلامية. ففي مجتمع كان يتميز بالتناحر القبلي ويعتمد علىٰ قانون القوة والخوف، كانت التحالفات هي كل شيء. ففي الأوساط العربية كما هو الحال بالنسبة لسكان أمريكا الأصليين Amerindians لا يمكن لشخص معزول عن قبيلته أن يضمن لنفسه البقاء خارجها. فكان الكيان الأول يتكون من الأسرة المباشرة الضيقة، وكانت هذه الأخيرة تنتمي للأسرة الموسعة المشكلة من عدد من العشائر، وتشتغل هذه العشائر ضمن إطار أكبر من منظومة قبلية كبرىٰ تشتغل ضمن ائتلاف قبلي أوسع. فكيف كان ينظر إلىٰ النَّبيّ ﷺ في الفترة الأولىٰ من الدعوة الإسلامية ؟ إنه شيء يصعب تحديده والجواب عنه. هل كان مجرد قائد عسكري ناشئ؟ أم كان ينظر إليه علىٰ أنه ثائر اجتماعي روحي وسياسي جاء مبشراً بمشروع يفسح الفرصة لنظام جديد، ومجتمع جديد ونظام جديد أحسن مما كان عليه الحال في السابق؟ وبما أن عدداً متزايداً من القبائل العربية عقدت تحالفات

مع النَّبيّ ﷺ فإنه يبدو أن هٰذا الفهم الأخير هو الذي كان سائداً. فالذي جاء ليبشر به رسول الله ﷺ كان شيئاً بسيطاً وثورياً في نفس الوقت، أي أنه كان جذريا في ثوريته إذ فسح المجال لنمط حياة راق من جميع الأوجه. فقد التحق معظم أفراد القبائل [العربية] بالرابطة الإسلامية [أو الأمة الإسلامية]، لا نتيجة لعامل الخوف بل بفعل عامل الأمل المتصل بالقناعة التي تؤكد أن العدالة ستسود وستنتصر بالتأكيد.

وخلافاً للمجموعات الأخرىٰ فإن مجموعة نصارىٰ نجران هذه بالضبط لم تنقض عهد النبي؛ ويؤيد هٰذا ما جاء علىٰ لسان رسول الله ﷺ نفسه إذ يقول:

> "عندما عادوا إلىٰ أبناء دينهم لم ينقضوا عهدهم ولم يغيروا رأيهم، بل علىٰ العكس من ذلك تمسكوا بما وعدوني به عندما غادروني وعلمت بمزيد من الفرح أنهم أثبتوا وفاءهم لقتال اليهود، وأنهم تفاهموا مع أهل الدعوة علىٰ أنهم سينشرون كلمة الله، ويدعمونها ويدافعون عن أنصارها. وأنهم فضحوا زيف حجة اليهود التي اعتمدوها لنفي ومعارضة رسالتي وكلمتي. لقد سعىٰ النصارىٰ إلىٰ إسناد عملي وقاتلوا من كره عقيدتي ومن أراد دحضها وتبديلها وجحدها وتغييرها وإسقاطها".

علىٰ ضوء ما سبق ذكره، من المهم إيضاح بعض النقاط. ففي الشرح الذي قدمه رسول الله ﷺ أعلاه، كما في أماكن أخرىٰ من هٰذا العمل، يجد القارئ نفسه وجهاً لوجه مع موقفين جد متباينين تجاه نبي الإسلام ﷺ، سواء بالنسبة للنصارىٰ أو اليهود. فبالاستناد إلىٰ المدونات التاريخية، تشير هذه الأخيرة إلىٰ أنه كانت للمسيحيين علاقة صداقة وتفاهم ووئام ووفاء وأمانة وتعايش اجتماعي وتوادد تجاه المسلمين، الأمر الذي كان غائباً بوضوح في علاقة الطائفة اليهودية بالمسلمين. وحينما نقرأ عن مثل هذه الأحداث في القرن الحادي والعشرين بدل معاينتها في القرن السابع الميلادي، فإن الإيحاءات والاستنتاجات والتحليلات والتأويلات تكون مختلفة تماماً. ففي ذلك الماضي السحيق، لم يكن يمر بخلد أحد أن يتحدث عما يدعىٰ بـ'مناهضة السامية' أو شيء من هٰذا القبيل. غير أنه في زمننا هٰذا، من المستحيل تجنب مثل هذه الأحكام القيمية التي إن طُبقت علىٰ الماضي البعيد فإنها

تنتج عن ذلك سخافات لا يستسيغها العقل السليم. إن المسافة القصيرة عند أصحاب العقول غير المتزنة أن يدّعوا من أجل ذلك أن رسول الله ﷺ كان 'مناهضاً للسامية' مما ينتج عنه أن أي نقد للعلاقات المتضاربة بين فرقاء مختلفين يتم إقحامها تحت يافطة 'العنصرية'. لكن جورج ف. نافزيغر (المولود سنة ١٩٤٩م) ومارك و. ولتون يلاحظان ما يلي: "إنه من الواضح لقراء التوراة الغربيين أن هٰؤلاء لم يكونوا أول العبرانيين الذين كانت لهم مشكلات مع نبي" (٤).

فكيفما كان الصراع بين مسلمي ويهود المدينة، فانه لم يكن صراعاً عنصرياً ما دام الفريقان ينتميان معاً للجنس السامي. ورغم أننا لا نعرف سوىٰ القليل عن يهود جزيرة العرب، ورغم أن العلماء ليسوا حتىٰ متيقنين فيما إذا كانوا فعلاً عبرانيين أو عرباً اعتنقوا الديانة اليهودية، فإن اليهود والمسلمين كانوا يقتسمون نفس اللغة والثقافة العربيتين. وفيما يتعلق بتهمة 'مناهضة السامية' الموجهة ضد النَّبيّ ﷺ، فإنها تهمة باطلة وأبعد ما تكون عن الحقيقة. ففي ذلك العهد كان السب والاقتتال والقتل والسبي والاسترقاق تعتبر أموراً عادية جداً. ولا يهم إن كان الضحايا مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو وثنيين أو مشركين أو ملحدين. فهذه كانت ممارسات شائعة ومتجذرة ومقبولة في سلوك الناس اليومي.

لكن في أزمنة حديثة نسبياً فإن أي انتقاد يوجه إلىٰ 'اليهود' أو إلىٰ 'الديانة اليهودية' يعتبر من الأفعال 'المناهضة للسامية'، وحتىٰ لو وقع الشيء الذي هو موضع التحليل أو النقد ألفاً أو ألفين من السنين قبل ذلك. بطبيعة الحال، إنه مهم أن نؤكد أن مواقف مثل هذه لا تعمل سوىٰ علىٰ الوقوف في وجه التحليل النقدي للأحداث سواء في الماضي أو في الحاضر. ففي الوقت الذي يُتهم المسلمون عادة بكونهم مناهضين لليهود في وسائل الإعلام الجماهيرية، فإن 'مناهضة السامية' هي خطيئة مسيحية (٢١). فكما تعترف بذلك عن حق كارين أرمسترونغ:

> "إن كراهية اليهود لم تظهر بجلاء في العالم الإسلامي إلا بعدما أنشئت دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، وما تلا ذلك من ضياع لفلسطين العربية. فالمسألة ذات دلالة أن المسلمين وجدوا أنفسهم مرغمين علىٰ استيراد

الأساطير المناوئة لليهود من أوربا، وعلىٰ ترجمة بعض النصوص المعروفة بشدة مناهضتها لليهود مثل كتاب ***بروتوكولات حكماء صهيون*** إلىٰ اللغة العربية، ذلك لأنهم لم تكن لديهم تقاليد تخصهم في هٰذا الشأن. ونظراً لهذه العداوة الجديدة ضد الشعب اليهودي، فإن بعض المسلمين اليوم يحيلون علىٰ بعض المقاطع من القرآن التي تشير إلىٰ صراع النَّبيّ مُحَمَّد مع القبائل اليهودية الثلاث، من أجل تعليل أفكارهم المسبقة. فعن طريق إخراج تلك الآيات عن سياقها فهم يشوهون الرسالة التي جاء بها القرآن و موقف النَّبيّ أيضـًا، الذي لم يكن يحمل أي شعور من الكراهية ضد اليهودية" (٢٠٠٠ : ٢٢).

فإذا نظرنا إلىٰ التاريخ الإسلامي بصفة شمولية، فإننا نجد أن بعض الزعماء الدينيــين والسياسيين اضطهدوا اليهود، لكن ذلك الاضطهاد كان اضطهاداً يقع بشكل عرضي ومتفرق ولم يكن قاعدة أو سلوكـًا ممنهجـًا. إن الإجـراءات التي اتخذها محمد تقي مجلسي الهادفة إلىٰ الحد من حرية اليهود في القرن السابع عشر الميلادي (انظر ليفي ٢٩٣-٢٩٥) تعتبر خرقـًا لواقع الإسلام وروح الإسلام معـًا. لقد اتسم حبيب ليفي، وهو يهودي فارسي، بالحصافة التي جعلته يميز بين المسلمين الحقيقيين والموالي المزورين. فكما يشرح هو ذلك بنفسه: "نقول موالي مزورين ولا ندرج الزعماء الذين يفهمون حقيقة الدين ويسعون إلىٰ حماية أتباع جميع الديانات ولا سيما الديانات التوحيدية" (ليفي ص ٢٨٨). وهو يشير بفخر إلىٰ فتاوىٰ صدرت عن خمسة فقهاء إيرانيين سنة ١٨٤٢م لصالح اليهود كمثال علىٰ الطبيعة الحقيقية للإسلام (انظر الرسم ١١، ص ٣٩٠-٣٩١). فالإسلام -دون أن نكون في حاجة إلىٰ تأكيد ذلك- لا يتعارض مع اليهودية. فالحقيقة أن المسلمين أقرب إلىٰ اليهود من حيث المعتقد من النصارىٰ. والفروق بين شريعة موسىٰ وشريعة مُحَمَّد ﷺ هي فروق طفيفة. لقد عاش اليهود والمسلمون جنبـًا إلىٰ جنب في وئام خلال معظم التاريخ الإسلامي. لكن هذه العلاقة تم تخريبها عمليـًا بإقامة دولة إسرائيل. ورغم ذلك فإن المسلمين يميزون بين اليهود أتباع ملة إبراهيم، والذين لا يجدون أية مشكلة معهم،

والصهاينة الذين يعارضونهم بشدة باعتبارهم مغتصبين ومضطهِدين.

وبالرجوع إلىٰ تحليل الفقرة المذكورة آنفاً، فإن التأكيد علىٰ الوحدة التي تجمع بين النصارىٰ والمسلمين في السنوات الأولىٰ من مجيء الرسالة المحمدية، تبدو أنها تؤيد دعوىٰ فريد دونار (المولود سنة ١٩٤٥) التي مفادها أن الإسلام بدأ كحركة واسعة لمؤمنين موحدين تضم مسلمين ملتزمين إلىٰ جانب يهود ومسيحيين أتقياء، والذين رغم تميزهم عن بعضهم البعض فإنهم يتفقون جميعاً علىٰ مبادئ كونية. ونتيجة لأنشطة المبشرين النصارىٰ انتشرت الرسالة المحمدية في جميع الاتجاهات، وكانت النتائج باهرة. ويعترف بذلك رسول الله ﷺ إذ يقول ما يلي:

"كل شيوخ العرب وكل قادة المسلمين وجميع عباد الله المخلَصين أرسلوا إلي رسائل تعبر عن محبة النصارى لقضيتي واستماتتهم في دفع الغارات على قلاعهم المحصنة حول حدود مناطقهم، وإصرارهم على احترام العهد الذي أبرموه معي حينما التقوا بي والذي منحته إياهم، ذلك لأن الأساقفة والرهبان أبدوا في الحقيقة وفاء لا يتزعزع في تشبثهم بقضيتي، وإخلاص شخصهم لتثبيت رسالتي ونشرها"

يبدو أن هذه الكلمات النبوية يؤيدها ما ادعاه دونر من أن حركة النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ الإيمانية لم تقتصر علىٰ المسلمين بل شملت أيضاً اليهود والنصارىٰ (ص٦٨-٧٤). وقد حارب هٰؤلاء اليهود والنصارىٰ إلىٰ جانب المسلمين ولعبوا أدواراً مهمة في إدارة شؤون المسلمين في المراحل الأولىٰ (ص ١٧٦، ١٧٧، ١٨١-١٨٣). وقد كان النصارىٰ بصفة خاصة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بآل بيت النبي، بالإضافة إلىٰ ارتباطهم بالأمويين والعباسيين. أما في المغرب، فقد كان للملوك العلويين ميل إلىٰ توظيف اليهود كمستشارين. وكمثال علىٰ ذلك حالة جوهن بن هاواي، والمعروف بيوحنا الأسود الذي كان نصرانياً من أصل حبشي. لقد كان مولىٰ للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري (المتوفىٰ سنة ٦٥٢م) وأصبح فيما بعد من شيعة الإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) والإمام الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والإمام الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واستشهد في كربلاء سنة ٦٨٠م.

وهناك أمثلة أخرىٰ لمسيحيين أوفياء مخلصين كانوا متشبثين بقضية الإسلام إلىٰ درجة أنهم ضحوا بحياتهم وأرواحهم أحياناً دفاعاً عن الإسلام. وأحسب أن هٰذا ا لأمر يشبه حالة المسيحيين الكاثوليك الذين ساندوا الحركات اليسارية الملحدة في أمريكا اللاتينية، وحالة الماركسيين الملحدين الذين ساندوا الإسلاميين ضد شاه إيران، كما أنه شبيه بحالة اليهود والمسلمين والمسيحيين الذين يساندون الديمقراطية العلمانية علىٰ الطريقة الغربية. كما يذكرنا أيضاً بمساندي حركة لاهوت التحرير الإسلامي المسيحي التي تتكون أساساً من قدماء الثوار اليساريين الذين يرون أن الإسلام هو القوة الوحيدة التي بمقدورها مجابهة الرأسمالية المعولمة. في الوقت الذي نجد فيه بعض هٰؤلاء النشطاء من معتنقي الإسلام بإخلاص وقناعة، فإن مجموعات أخرىٰ تتبنىٰ الإسلام كإيديولوجيا سياسية ولا تطبقه كعبادة بأي شكل من الأشكال. وهناك من يساند 'الإسلام الثوري' بينما يبقون علىٰ معتقدهم الإلحادي أو المسيحي أو أي معتقد آخر كانوا يدينون به قبل التحاقهم بمساندي القضية الإسلامية؛ وهٰذا موضوع سبق لي أن تطرقت إليه في كتابي تحت عنوان: ***الدين والثورة: الإسلام الروحي والسياسي عند إرنستو كاردينال***. ومن الممكن أيضاً أن بعض المسيحيين وبعض اليهود الذين انضموا إلىٰ قضية الإسلام وتكتلوا حولها لم يجدوا فيها فقط القوة السياسية، التي يتعين التعامل معها والتي قد تصبح مفيدة بالنسبة إليهم من عدة وجوه، بل أدركوا أيضا أن فيها تجسيداً لذلك الوحي الإلٰهي الشقيق، الذي لم يكن مسانداً سياسياً فقط بل مسانداً روحياً لوحيهم أيضاً. إن الإسلام فيها إذن قد مثل شكلاً من أشكال التحالف الإبراهيمي سواء علىٰ مستوىٰ الجانب الاجتماعي السياسي أو علىٰ المستوىٰ الروحي.

إن دور هٰؤلاء النصارىٰ المساندين لمُحَمَّد ﷺ والذين قاموا بدور الممثلين والسفراء للسلطة الإسلامية أمام أقوامهم يحتاج إلىٰ مزيد من الدراسة المستقصية الدقيقة. فلربما كانوا يحاولون أن يدخلوا النصارىٰ مباشرة للإسلام والالتحاق بقضيته. لكنهم بالتأكيد قاموا بتليين موقفهم تجاه حكم الإسلام. وبينما ظل هٰؤلاء 'الإسلاميون

المسيحيون' محافظين علىٰ معتقداتهم، فإنهم اتفقوا مع ما جاء به الإسلام حول معظم النقاط اللاهوتية، وربما اتفقوا مع الإسلام في شموليته حينما يتعلق الأمر بالقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. بالإضافة إلىٰ هٰذا، فإنه لا محالة أنهم كانوا جد مسرورين حينما حاكم النَّبيّ ﷺ والإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) وغيرهما اليهود استناداً إلىٰ التوراة، والنصارىٰ استناداً إلىٰ الإنجيل. إن هٰؤلاء النصارىٰ الواقفين في صف المسلمين من المؤكد أنهم قدموا حججاً وجيهة لأفراد طائفتهم وأهل ملتهم [من باب مثلا] أن نبي الإسلام قد وعد بأن يقوم بما لم يقم به المسيحيون من قبل: وهو أن يحكم وفق التعاليم التي جاء بها المسيح. وإذن كانت هذه وضعية يجد جميع المؤمنين فيها ضالتهم، وبأنهم رابحون بكيفية متساوية.

وخلافـًا لليهود الذين انضموا إلىٰ صف المشركين، فإن نصارىٰ نجران قد انضموا إلىٰ صفوف المسلمين. ويمكن أن تكون للكراهية التي حملها النصارىٰ تجاه اليهود علىٰ مدىٰ ألفية ونصف من الزمان قد لعبت دوراً هاماً في اتخاذ موقفهم ذاك. وبما أن الجزيرة العربية كانت ملجأً لمختلف المذاهب المسيحية المبتدعة أو 'الضالة' [في رأي الكنيسة] التي كانت تقضي سحابة يومها في التناحر المذهبي والسجال العقدي، فإن الإسلام قد عمل علىٰ تشجيعها علىٰ الالتقاء حول المسائل الأساس، وألا تدع الخلافات اللاهوتية تهدد ذلك الاتفاق حول الأهم. وبما أن القرآن الكريم يعبر عن مشاعر المحبة والإعجاب تجاه المسيح ومريم، وبما أن المسلمين يعتقدون أن المسيح كان النَّبيّ والمسيح الذي ولد من أم عذراء، فإن قضية ألوهيته ومشكلة صلبه تبدو غير ذات قيمة مقارنة بكفر اليهود بعيسىٰ المسيح بن مريم. لقد كان نصارىٰ ذلك العهد واعين كل الوعي بالتُّهم الفظيعة التي وجهها بعض اليهود في حق عيسىٰ وأمه مريم (انظر القرآن الكريم، ٤: ١٥٦). إنهم لم يكتفوا باعتبار عيسىٰ نبيـًا مزوراً ومسيحـًا مزوراً بل اتهموا أمه بارتكاب الزنا مع الجنود الرومان. لقد كان عيسىٰ بالنسبة للكثير من يهود تلك الفترة مجرد لقيط ابن باغية. وهو قذف مثبت في التلمود اليهودي بشكل لا لبس فيه. وبرأي النَّبيّ ﷺ فإن مؤيديه من النصارىٰ دافعوا بحماس كبير عن

جهوده الرامية إلىٰ إحداث إصلاح ديني ثوري:

''أريد أن تنتشر رسالتي. أطلب منهم أن يجتمعوا حول هٰذا المبتغى ضد من يتولون عني ويكفرون بأركان عقيدتي، الساعين إلى القضاء عليها، وباتهام [أولئك الأعداء] والحط من شأنهم.

لقد سمعوا لأوامري واطرحوها جانباً، وعملوا جاهدين لإجبارهم على الإقرار بالحق وهم صاغرون، ويلبوا نداء الله طوعاً أم كرهاً. وسمحوا لهم بالدخول في الإسلام كأناس فتحت بلادهم. ولقد سلك النصارى هٰذا السلوك احتراماً للمواثيق المبرمة بيني وبينهم، وذلك من أجل ألا يستنكفوا عن القيام بواجباتهم التي التزموا بها خلال اللقاء الذي جمعني بهم ومن خلال روح من الحماس للوقوف مع قضيتي وإشهار رسالتي''

والظاهر أن نصارىٰ نجران أقبلوا علىٰ الدفاع عن النَّبيّ ﷺ في مناظرة كانت له مع اليهود. وقد أورد ابن اسحق أن مناظرة جمعت النصارىٰ باليهود في حضرة النَّبيّ ﷺ (٢٥٨). وبما ان اليهود كفروا بعيسىٰ والإنجيل، فإن النصارىٰ كانوا أقرب من موقف النبي، ومن هنا تكون حججهم عموماً مؤيدة للدعاوىٰ التي عبر عنها النَّبيّ ﷺ. إضافة إلىٰ مساندتهم للنبي ﷺ ضد اليهود حول بعض القضايا اللاهوتية، فإن نصارىٰ نجران ساندوه عسكرياً كذلك. وفي الوقت الذي لا يعترف بهم إلا لماماً –وقد يتم تجاهلهم عموماً، فإن الفرسان والمحاربين النصارىٰ شاركوا في العديد من المعارك التي قاتلوا فيها المشركين جنباً إلىٰ جنب مع المسلمين. وكما يعترف بذلك النَّبيّ ﷺ حيث يقول: ''إن نتيجة وفائهم الشديد هو الذي جعلهم يحاربون اليهود وقريشاً وسائر المشركين''. وإذ أبان النصارىٰ عن أسمىٰ درجات التفاني ونكران الذات، فإنهم ''لم يظهروا أي رغبة في الربح الدنيوي الذي يسعىٰ إليه اليهود ويتعطشون إليه بتعاملهم بالربا والبحث عن المال وبيعهم شريعة الله بثمن بخس، وبئس من يعمل لهٰذا المسعىٰ وبئس لهم مما كتبوا وبئس لهم

مما كسبوا مما قدمت أيديهم". وكرسول لله مبعوث للناس كافة، فإن النَّبيّ مُحَمَّداً ﷺ جاء ليؤكد تحريم الربا؛ فهو يحذر من يتعامل بالربا فيما يلي: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ (٢: ٢٧٥).

لقد علم رسول الله ﷺ الناس ما يلي في قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾. كما حض النَّبيّ ﷺ الناس علىٰ الخضوع لأمر الله تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ (٢: ٢٧٨). وحذرهم بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾. ورغم كل تحذيرات النَّبيّ ﷺ ونواهيه فإنهم استمروا في التعامل بالربا، حيث يقول الله تعالىٰ في حقهم: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ (٤: ١٦١). وبما أن الله تعالىٰ قد كتبهم ككفار ينتظرهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾، فإن النَّبيّ ﷺ لم يأل جهداً في محاولة استمالة قلوبهم وعقولهم. ومن أجل ذلك يفسر النَّبيّ ﷺ الأمر كما يلي:

"إن اليهود والمشركين من قريش وآخرين أرادوا أن يكونوا أعداء الله ورسوله بما أبدوه من مكائد دبروها ضدي وما شنوه من الحروب المتواصلة في تحالف مع أعدائي، قد صاروا أعداء الله ورسوله وصالح المؤمنين".

وعلىٰ خلاف [سلوك] اليهود والمشركين فقد وصف النَّبيّ ﷺ سلوك النصارىٰ بأنه كان علىٰ العكس تماماً؛ وقد تحدث النَّبيّ ﷺ عن النصارىٰ بتفصيل واصفاً أفعالهم الحميدة علىٰ النحو التالي:

"لقد احترموا تحالفهم معي واعترفوا بما لي من حقوق عليهم، موفين

بالعهد الذي عاهدوه في لقائنا، وساعدوا السرايا التي أرسلناها إلى الحدود. وقد استوجبوا نيل عنايتي ومحبتي عند ما أدوا واجباتهم التي عقدتها معهم بشكل عفوي باسم جميع المسلمين المنتشرين في بقاع الأرض شرقًا وغربًا، ما دمت حيًا وبعد مماتي عند ما يتوفاني الله إليه. وما دام الإسلام منتشرًا ورسالة وعقيدة الحق تكبران فإن هٰذا العهد ملزِم لجميع المؤمنين والمسلمين ما ملأت المياه قاع البحار، وما نزل مطر من السماء وما أنبتت الأرض نباتًا، وما سطعت نجوم في السماء وما بزغ فجر للسراة. ولا يجوز لأي كان أن ينكث هٰذا العهد أو يغيره أو يضيف إليه أو ينقص منه، ذلك لأن مثل تلك الإضافات تغير مضمون الميثاق، والحذف منه يضعف حمايتي"

وبعد جعل معاملاته مع نصارىٰ نجران في سياقها وبعد تفسيره للأسباب المؤدية إلىٰ عقد الميثاق المذكور، ألح النَّبيّ ﷺ علىٰ الطابع الإلزامي للعهد حيث إنه يقول ما يلي: "هٰذا العهد الذي قيدت به نفسي يلزمني، وكل من نقض ميثاق الله هٰذا من أفراد أمتي، فإن برهان الله سيكون ضده، وكفىٰ بالله شهيداً".

ويشرح النَّبيّ ﷺ الأمر قائلاً: "إن ما جعلني أفعل هٰذا هو أن ثلاثة أفراد من غسان سألوني أن أكتب لهم كتابًا هو ضمانة بمعاهدتهم تعترف بوفائهم لوعودهم للمسلمين وللمعاهدة التي أبرمتها بمحض إرادتي معهم". فالطلب كان بطبيعة الحال جد معقول، ذلك لأن السفر في صحراء الجزيرة العربية وعبر كثبانها الرملية وسلسلة جبالها الصخرية البركانية كان بمثابة مغامرة حقيقية. فإذا كانت تضاريس الأرض والطقس محفوفين بمختلف الأخطار، فإنهما لا يمثلان شيئًا قياسًا بالمخاطر التي تشكلها القبائل المتعطشة لسفك الدم والقتل والنهب، والتي كانت تتحيَّن الفرصة السانحة للانقضاض علىٰ ضحاياها علىٰ حين غرة. فبوجود كتاب حماية من النَّبيّ ﷺ الذي يطلع عليه المصادقون للرسول كما أعداؤه، فإن المسافرين النصارىٰ سيتمكنون بفضل هٰذا العهد من بلوغ وجهاتهم بسلام وأمان.

بالرغم من تعدد المذاهب عند المسيحيين حيث يتهم كل مذهب غيره من

المذاهب الأخرىٰ بالخروج عن الدين الصحيح ويدخله في دائرة الهرطقة، فقد اعتمد النَّبيّ ﷺ موقفاً يثير الإعجاب، ذلك أنه اعترف بتلك المذاهب النصرانية جميعها دون استثناء. وكما يشرح ذلك الرسول ﷺ، فإن العهد النبوي قد تم التصديق عليه لا مع النساطرة فحسب، وإنما أيضاً مع كافة المذاهب النصرانية علىٰ اختلافها، وبذلك كان الميثاق الذي أعده النَّبيّ ﷺ بمثابة وثيقة لا يجوز المساس بها، بل يجب احترامها من قبل المسلمين والمؤمنين كافة. واستعمال لفظة 'المؤمنين' هنا تشمل المسلمين كما تشمل أهل الكتاب المتقين، فهو استعمال ينسجم مع الأسلوب الذي تم اعتماده في 'دستور المدينة' أو [صحيفة المدينة]، ويبين بالتالي أنه في الفترة الأولىٰ من ظهور الإسلام كان مصطلح 'مؤمنون' يطلق علىٰ أي عضو من أعضاء الدعوة المحمدية التوحيدية، بينما كانت لفظة 'مسلمون' (أو 'خاضعون لله') يقصد بها المسلمون علىٰ وجه التخصيص. وبما أن النَّبيّ ﷺ كان يهدف إلىٰ سن سنة واضحة للأجيال اللاحقة، وبكيفية تضمن عدم التشكيك في تاريخية الحدث، فإنه حرص ﷺ علىٰ إشهاد أقرب الصحابة إليه إلىٰ جانب زعماء النصارىٰ:

> "أنا طلبت من شيوخ المسلمين ومن أبرز صحابتي -يصرح بذلك النَّبيّ ﷺ - وبما أني وقفت ضامناً لمطلب النصارى، فإني هيأت هٰذا الكتاب [الوثيقة] للمسلمين سواء أكانوا حاكمين أو محكومين. ، فإن عليهم واجب المحافظة عليه من جيل لجيل، عليهم أن يعاملوا إخوانهم النصارى وأخواتهم النصرانيات بالحسنى".

ويردف النَّبيّ ﷺ قائلاً:

> "العمل على طاعة أوامري من أجل الانقياد لواجب الولاء والاحترام تجاه من طلبوا هٰذا العهد مني والإيفاء بالالتزامات التي عقدتها، لكي لا يتهموا بأنهم عصوا أمري"

إن واجب العدل مطلوب لا من السلطات الحاكمة ولكن من الأمة الإسلامية

جمعاء؛ فإن حاد حكام المسلمين عن الطريق السوي، فإنه من واجب الجماهير الإسلامية أن تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا حاد الجمهور عن الطريق السوي فإنه من واجب الحكام المسلمين أن يتصرفوا بطريقة هم أهل لها. فسواء أكان المسلمون في وضعية أغلبية أم في وضعية أقلية، فإنه من واجبهم أن يتجنبوا إيذاء النصارىٰ. وكما يقول رسول الله ﷺ:

> "من واجب الشعب أن يتجنب إيذاءهم، وان يحترموا العهد الذي كَتبته لهم لكي يلجوا معي أبواب الإيمان ويسهموا في باب الخير الذي أكسبته للذين هم أهله؛ أولئك الذين صدقوا رسالتي وأغاظوا الكفار والمشككين".

هكذا يختتم النَّبيّ ﷺ المقدمة الاستهلالية للعهد الذي كتبه لنصارىٰ نجران، حيث إنه يذكّر جميع المؤمنين بأن يكونوا من أهل الخير، يحضون علىٰ الإرادة الحسنة، يأمرون بالمعروف، ويصدقون القول والفعل، ويقيمون العدل. هكذا تختتم مقدمة الميثاق النبوي وهكذا يبتدئ متن الميثاق.

يستهل الميثاق النبوي المكتوب لنصارىٰ نجران الكلام بالبسملة المعهودة 'بسم الله الرحمن الرحيم' ؛ وبثقة عالية في سلطته الروحية وباقتناع تام، يعلن النَّبيّ ﷺ أنه "رسول الله للناس كافة، أرسله الله تعالىٰ بشيراً ونذيراً، وأودعه الله تعالىٰ وديعة من بين خلائقه حتىٰ لا يكون للناس علىٰ الله حجة، بعد إرسال رسله ووحيه من العزيز الحكيم". فلم يكن النَّبيّ ﷺ حاكماً علىٰ المدينة فحسب، ولم يكن حاكماً علىٰ الجزيرة العربية فقط، بل كانت عينه علىٰ الكرة الأرضية برمتها. غير أنه لم يكن بالإمبريالي التوسعي الساعي إلىٰ خدمة أغراضه الذاتية الأنانية، إذ أن نيته كانت تتمثل في عتق الناس وتحريرهم وليس استعبادهم.

لقد تم إبرام الميثاق المحمدي مع السيد بن حارث بن كعب، ومع من معه من أهل ملته، وجميع من يدينون بالديانة النصرانية، سواء أكانوا في الشرق أم في الغرب، وسواء أكانوا قريبين أم بعيدين، وسواء أكانوا من العرب أم من العجم، وسواء أكانوا معروفين أم غير معروفين.

لقد كان النَّبيّ ﷺ شخصـًا أمميـًا cosmopolitan حقيقيـًا، ولم يكن أبداً إمبرياليـًا (بحسب ما تؤديه هذه اللفظة في العصر الحاضر). وقد أصدر النَّبيّ ﷺ مرسومـًا يطبق علىٰ كافة المسيحيين علىٰ المستوىٰ العالمي بغض النظر عن البلاد الأصلية أو الجنسية أو المجموعة العرقية أو الانتماء اللغوي. إن رسول الله ﷺ يصف العهد بأنه "عقدة صحيحة وشهادة صحيحة مبنية علىٰ أساس من 'المعروف والعدل'، كما أنه عهد 'لا يجوز نكثه'. إن القراء ذوي الاطلاع علىٰ هذه الفترة التاريخية التي نحن بصددها -ألا وهي فترة الحكم الروماني الغاشم، وصعود أتيلا الهوني، وفترة الوندال أصحاب السلب و النهب- يدركون جيداً أن العالم كان محرومـًا من معاني الرأفة والعدل. وبالفعل، إن الأنظمة الاجتماعية آنذاك كانت تكتنفها -كشيء ملازم لها- قيم الظلم، كما يسودها انعدام الأخلاق بشكل فظيع. فبالنسبة للأوربيين المتوحشين في ذلك الوقت، إن التحدث عن معاني الرأفة والعدالة كان شيئـًا يثير السخرية ويجعل المرء موضع استهزاء؛ فكان الرجل القوي يبطش بأعدائه بلا شفقة ولا رحمة، في الوقت الذي يستعبد ويعذب ويهاجم بل يغتال في حالات معينة حتىٰ أعضاء عائلته. وبالرغم من وصايا المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الأناجيل التي تتحدث عن العطف والمحبة تجاه الأعداء، فإن كل ذلك كان يعتبر سلوكـًا عاديـًا جداً بينما يشتمل الميثاق النبوي الذي نحن بصدده علىٰ معاني الرحمة، كما يعبر علىٰ ذلك النَّبيّ ﷺ علىٰ النحو التالي:

"كل من احترم هـٰذا العهد فهو متشبث بالإسلام، وهو جدير بأحسن ما يكون عليه الأمر في الإسلام. وعلى النقيض من ذلك، فكل من نقضه ونكثه وغيره وعصا أوامري يكون قد نقض عهد الله وتجرأ على حلفه واحتقر ميثاقه، وباء بغضب الله سواء أكان حاكمـًا أو محكومـًا"

وبدلاً من أن يقيم النَّبيّ ﷺ مسافة بينه وبين هـٰذا الحلف وبدل أن يحتمي وراء سلطة المؤسسة، فإنه تحمل المسؤولية الشخصية فيما يخص الميثاق الذي نحن بصدده. وبصفته رسولاً مبعوثـًا من الله تعالىٰ والحاكم الشرعي بالحق علىٰ خلقه، باعتباره خليفة لله علىٰ خلقه فإن النَّبيّ ﷺ يتحدث باسم السلطة الأسمىٰ المخولة له. وبهـٰذا المعنىٰ أيضـًا فهو يتحمل المسؤولية

الأولىٰ والأخيرة عن أعمال أمته:

"إني ألتزم معهم بحلف وعهد من الله وأضعهم في ذمة أنبيائه وصفوة خلقه وأوليائه وسائر المسلمين والمؤمنين من أولهم إلى آخرهم. هٰذا هوعهدي وميثاقي معهم"

إن الإشارة إلىٰ 'صفوة خلقه' يبدو أن النَّبيّ ﷺ يقصد بها آل البيت: أي آل بيت النَّبيّ ﷺ واللائمة الإثني عشر من عترته المطهرة. في الوقت الذي قد تحيل لفظة 'أوليائه الصالحين' علىٰ صحابة النَّبيّ ﷺ فهي قد تنطبق أيضاً علىٰ آل بيت النَّبيّ ﷺ، ذلك أنه وعلىٰ الأقل فيما يخص الشيعة فإن الإمامة هي امتداد للنبوة، وعليه فإن تضمين 'آل البيت' في العهد النبوي يبدو منسجماً مع العهود والمواثيق التي أبرمها النَّبيّ ﷺ . فمثلاً في عهد مقنة يؤكد النَّبيّ ﷺ علىٰ ما يلي: "لا أحد يتولىٰ أمركم سوىٰ واحد منكم أو واحد من أهل البيت". وعلىٰ العموم فسواء أكانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم أو غير ذلك، فإن علىٰ سكان المنطقة أن يدينوا بالولاء للسلطة الأسمىٰ لأهل البيت بعد وفاة النَّبيّ ﷺ. فلم يكن رسول الله ﷺ إذن يؤسس للحكم النبوي فحسب، وإنما كان يرسي بكيفية عملية أسس الإمامة. ومن منطق ووجهة نظر صوفية، قد يكون المراد بـ'أولياء الله الصالحين' جماعة النساك والزهاد المنقطعين لعبادة الله، وأهل الله الذين يجسدون السلطة الروحية للنبي ﷺ.

وإذ يبرهن النَّبيّ ﷺ مرة أخرىٰ ولكل ذي سمع وبصيرة، بأن الإسلام ليس بملة جديدة، وإنما يمتد عميقاً بجذوره إلىٰ الديانات التوحيدية التي سبقته؛ فهو يمد يده إلىٰ بني إسرائيل مصدقاً في ذلك ومؤيداً لاستمرارية شريعة النَّبيّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وداعياً النصارىٰ إلىٰ العودة إلىٰ شريعة الله تعالىٰ منادياً إياهم بما يلي: "أدعو مرة أخرىٰ بني إسرائيل إلىٰ ميثاق الله الذي أخذه الله منهم كواجب لطاعته وعمل بشريعته واحترام لعهده". فإذا كان بعض اليهود مهووسين بالشريعة، وكان بعض المسيحيين قد استصغروا شأن الشريعة وتشبثوا بالعقيدة بكيفية مسرفة، فإن النَّبيّ مُحَمَّداً ﷺ أكد أن النجاة والفلاح يكمنان في الإيمان والعمل بشريعة الإسلام في نفس الآن. فرسول

الله ﷺ لم يرفض الديانة اليهودية، وإنما اعتنقها بغرض تخليصها من الشوائب التي علقت بها، وبغرض تحيين 'شريعة الهلاخة'. كما لم يرفض رسول الله ﷺ المسيحية، بل اعتنق ملة المسيح التاريخية الحق، وقام بتشذيبها مما علق بها من عناصر دخيلة نتيجة احتكاكها بالتراث اليوناني-الروماني. فلم يقم النَّبيّ ﷺ بنزع الطابع الأسطوري عن المسيحية، كما يفعل الآن عتاة "المسيحيين" العلمانيين الساعين إلىٰ تقويض أسس الإرث المسيحي، بل علىٰ العكس من ذلك، كانت معجزة الولادة العذراء، ووصف المسيح بأنه 'روح الله'، والبشارة بأن المسيح سيعود ثانية إلىٰ الأرض للقضاء علىٰ المسيح الدجال، كل هذه عناصر تشكل جزءاً لا يتجزأ من الإسلام، وهي نفس العناصر من الأساطير الغامضة التي تسعىٰ جماعة النقاد اللادينيين المعاصرين إلىٰ دحضها واطراحها جانباً. لقد كان النَّبيّ ﷺ يدعو اليهود إلىٰ التقوىٰ والإيمان والتصديق بعيسىٰ كنبي ومسيح، كما دعا النصارىٰ إلىٰ العودة إلىٰ الشريعة بما في ذلك إلىٰ سنة الختان، والصلاة المفروضة، والصوم، والانتهاء عن أكل ما حرم الله. حينما يتم فهم الإسلام فهماً صحيحاً، فهو لا يمكن اعتباره ديناً جديداً؛ إنه نفس الحركة التي تدعو إلىٰ تحقيق العدالة الاجتماعية، ونفس المدرسة التي تؤسس لتزكية النفس البشرية، وهي نفس الدعوة الداعية إلىٰ ذكر الله في كل وقت وحين، والتي علمها الأنبياء والمرسلون ابتداء من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وهٰذا ما بينه عبد الأحد داوود في فصلين من فصول كتاب له عنونهما كما يلي: 'محمد في العهد القديم' 'محمد في العهد الجديد'. وعنوان الكتاب هو ***محمد في التوراة***. ولهٰذا السبب بالذات يؤكد الدكتور ر.ف. شيدنغر بأن عيسىٰ كان مسلماً بالمعنىٰ الواسع للكلمة، لا بالمعنىٰ الحصري، علىٰ غرار ما كان عليه سائر أنبياء الله الذين جاؤوا قبله.

وفي إبـرام النَّبيّ ﷺ عهداً مع النصارىٰ لم يُقدِم علىٰ إحلالهم وضعية مواطنين من الدرجة الثانية، ولا أخضعهم لحياة العبودية، بل عاملهم علىٰ العكس من ذلك كمواطنين داخل النظام الإسلامي العالمي واعتبرهم أعضاء ضمن رابطة الأمة الإسلامية. إن للنصارىٰ حقوقاً خاصة بهم، كما يتمتعون بحق الأمان والرعاية، وهٰذا ما صرح به النَّبيّ ﷺ في نص العهد حيث يقول:

"أعلن هنا أن فرساني ومشاتي وجيوشي ومؤونتي وأتباعي من المسلمين سيدافعون عن النصارى مهما بعدت أماكن إقامتهم، سواء أكانوا داخل حدود دولتي أم في أي مكان آخر، قريباً كان أم بعيداً، في وقت السلم كما في وقت الحرب. أتعهد بالوقوف إلى جنبهم والذود عنهم وعن كنائسهم وصوامعهم وأديرتهم ومساكن نسَّاكهم أينما كانت في الجبل أو في الوادي، في الكهوف أو في المناطق المأهولة، في السهول أو في الصحراء. أحمي دياناتهم وكنيستهم في كل مكان، سواء أكانت في البر أم في البحر، في الغرب أم في الشرق، وبكامل الحيطة والحذر من قبلي ومن قبل أهل بيتي والمسلمين كافة. أجعلهم في ذمتي وحمايتي، أواليهم وأتعهد بحمايتهم من أي أذى أو اعتداء، وأعفيهم من أي عبء وحمل مالي ثقيل كما أحميهم بشخصي وأعواني وأتباعي وأمتي ضد أي عدو يتهددني أو يتهددهم".

إذا كانت الحقوق الفردية تكاد تكون غير موجودة في أوربا، حيث إن بلداناً بكاملها بسكانها ومواردها كانت تعتبر ملكاً حصرياً في يد السلطة الحاكمة، فإن النَّبيّ ﷺ التزم بأنه من واجبه أن يحكم بين جميع رعاياه بالعدل والإنصاف. وقد كتب النَّبيّ ﷺ في الميثاق ما يلي:

"وبحكم سلطتي عليهم علي أن أحكم بينهم وأحميهم من كل أذى، وأسعى إلى أن لا يلحقهم إلا ما يلحق بي أو بأصحابي الذين يدافعون معي عن قضية الإسلام".

وبما أن الجيوش الإسلامية كانت تخوض بفعالية حروباً تحريرية في ربوع الجزيرة العربية والشام، فإن محمداً رسول الله ﷺ قد أمر قواد جيوشه بالالتزام بعدد من الأوامر والنواهي المتعلقة بالنصارىٰ: "يحرم علىٰ كل الفاتحين من الحكم عليهم خلال الغزوات، أو إلزامهم بأداء الضرائب إلا إذا فعلوا ذلك عن طيب نفس منهم. ولا يجوز أبداً أن يخضع أي نصراني لأي طغيان أو قمع في هٰذا الباب". وهٰذا الاستثناء

من دفع الضريبة بالنسبة لنصارىٰ نجران قد ينطبق علىٰ رجال الكنيسة فقط، كما كان الحال بالنسبة لرهبان جبل سيناء. وكبديل عن هٰذا الإجراء كان الحل الآخر الذي هو في يد النصارىٰ يكمن في أداء الجزية أو المساهمة في الخدمة العسكرية. ومن باب التذكير ورجع الصدىٰ للعهد المكتوب لرهبان دير القديسة كاثرين، فلقد تعهد النَّبيّ ﷺ بحماية المؤسسة الدينية المسيحية:

"لا ينزع أسقف من أسقفيته ولا راهب من ديره، ولا ناسك من حياة زهده، ولا يهدم جزء من كنائسهم أو يؤخذ جزء من مبانيهم لبناء مسجد أو منزل للمسلمين. ومن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وعصا رسوله وخرج من عهد الله وميثاقه".

وبما أن نصارىٰ نجران قد دخلوا طوعـاً في أمة الإسلام التي أسسها رسول الله ﷺ كفسيفساء متعددة الأعراق والديانات والثقافات والألسن، حيث كرس الوحدة ضمن التعددية والاختلاف، فإن النَّبيّ ﷺ كان سخياً في مسألة الضرائب. في المقام الأول، استثنىٰ رجال الكنيسة علىٰ النحو التالي:

"لا تفرض جزية ولا أية ضريبة أخرى على الرهبان أو الأساقفة أو غيرهم من النساك الزهاد ولا على لابسي الصوف القاطنين الجبال أو الأماكن المقفرة". أما النصارى من غير رجال الدين فعليهم أداء ضريبة الجزية: "ليكن هناك حد أربعة دراهم في السنة يدفعها النصارى الآخرون الذين ليسوا من رجال الدين أو من الرهبان أو النساك".

وبلطف النَّبيّ ﷺ بالناس كما كان عهده دائماً فقد أعطىٰ ﷺ المسيحيين الخيار بين الأداء نقداً أو عيناً. فبدل "أداء ضريبة أربعة دراهم سنوياً بإمكانهم أداء لباس من الثياب أو عمامة يمانية واحدة مطرزة أو ثوب حيرة أو عصب يماني".

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه استناداً إلىٰ الشريعة الإسلامية، لا يطلب أداء

الجزية إلا من البالغين الأصحاء جسداً. وقد أكد هذه الحقيقة خالد بن الوليد (٥٩٢-٦٤٢م) أحد صحابة رسول الله ﷺ في عهده الذي كتبه لنصارىٰ العراق حيث أورد فيه ما يلي:

"كل النصارى العاجزين عن تدبر أمرهم لكبر سنهم، والمرضى والمعدمين الذين يتوقفون في عيشهم على صدقات أهل ملتهم هم معفون من الجزية. وسوف يصرف عليهم من صندوق مال المسلمين. وينطبق هذا على الشخص المعفى كما ينطبق على من يتكفل به" (انظر هايا ص٥).

وبشفافية لا مثيل لها في العالم الغربي، كان النَّبيّ ﷺ حريصاً علىٰ أن يسأل عن أي درهم في ملكية بيت مال المسلمين. فالأموال النقدية والسلع التي يتم جمعها كانت ترصد "لمساعدة المسلمين والإسلام في تنمية بيت مال المسلمين". وبدل التفكير في حاضر دائم علىٰ حساب المستقبل، فلقد انشأ النَّبيّ ﷺ خزينة وطنية وميزانية حكومية.

فإذا كانت الجزية المتمثلة في أربعة دراهم سنوياً تؤديها الطبقة العاملة، فإن النَّبيّ ﷺ خطط لضرائب أعلىٰ بالنسبة لملاك الأراضي، وملاك المؤسسات الكبرىٰ، وملاك المناجم، كما بالنسبة لمن ورثوا الثروات الطائلة. وبالرغم من أن الأغنياء كانوا مطالبين بالأداء أكثر من غيرهم، فقد تم تحديد الحد الأقصىٰ الذي يتعين عليهم أداؤه، ويتجلىٰ في اثني عشر درهماً تدفع كل سنة. بعبارة أخرىٰ فإنه علىٰ الأغنياء أن يؤدوا ثلاثة أضعاف المبلغ الذي تدفعه الطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة. ولم تكن هذه المبالغ اعتباطية ولم تأت من فراغ، بل جاءت نتيجة تفكير عميق وتدبر مستلهم من الوحي. فقد كان رسول الله ﷺ يسعىٰ حثيثاً إلىٰ إرساء قواعد نظام الاقتصاد الإسلامي.

فإذا كان من اللازم جباية سكان الدولة الإسلامية، فقد استُثني من ذلك المسافرون غير القاطنين في البلد، أو أبناء السبيل الذين لا يعرف لهم مكان إقامة. ففي القرون الوسطىٰ لم تكن متاحة للناس حرية التنقل، إذ كان السفر محفوفاً بالمخاطر.

فكان أبناء السبيل يتعرضون للسلب والنهب والسبي أو حتىٰ للقتل. فكان النَّبيّ ﷺ لما له من الحصافة والعقل الثاقب لا يكتفي فقط بإعطاء حرية التنقل لسكان دولته، بل رخص أيضـًا لغير السكان حرية التنقل في الأراضي الإسلامية. فخلال أسفار جان دو تيفونوت (١٦٣٣-١٦٦٧م) عبْر الإمبراطورية العثمانية فيما بين ١٦٥٥م و١٦٦٣م، أكد أن جميع الأفراد النصارىٰ واليهود الذكور كانوا يؤدون أربعة قروش ونصف قرش كجزية سنوية ابتداء من عامهم التاسع فما فوق (ص١٥٩). وقد أشار إلىٰ أن القساوسة ورجال الدين المسيحيين إلىٰ جانب الربيين اليهود كانوا مستثنين من أداء الجزية، كما كان الحال أيضـًا بالنسبة للنساء. كما لاحظ المستشرق الفرنسي أيضـًا أن اليهود والنصارىٰ من مواطني الدولة الإسلامية، والذين هم رعايا الخليفة، هم فقط من كانوا ملزمين بأداء تلك الجزية (ص١٥٩). وأما اليهود والنصارىٰ القادمين من البلدان المسيحية فقد كانوا يُمنحون تأشيرةَ سفر أو تجارة تعفيهم من أداء أي ضريبة. وتؤكد هذه الإفادات بأن معاملة أهل الكتاب المستمدة من التوجيه النبوي كانت لا تزال سارية المفعول في العهد العثماني. إن المبلغ البسيط من الجزية الذي كان أهل الكتاب يؤدونه هو مبلغ يدعو للدهشة مقارنة بالضرائب الباهظة التي غالبـًا ما كانت تُفرض لا علىٰ اليهود والمسلمين فحسب، وإنما كانت تفرض أيضـًا علىٰ المسيحيين وفي بلدان تدَّعي أنها تتبع تعاليم السيد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

لم يكن النَّبيّ ﷺ من المؤيدين للضرائب المتعددة، فعلىٰ الناس أن يؤدوا إما ضريبة الجزية وإما ضريبة الخراج، لكن الدولة الإسلامية تحتفظ بجباية الممتلكات الموروثة؛ والسبب في ذلك يكمن في كون المال المجمد لا يخدم الاقتصاد، بل يسيء إليه. ولكي يكون الاقتصاد في وضعية جيدة، يتعين أن تُروَّج الأموال. فعلىٰ المال ألا يبقىٰ -ولا يمكن أن يبقىٰ- حبيس الخزائن. ويتعين علىٰ ملاَّك الأرض، علىٰ غرار العمال أن يساهموا بقسطهم في 'الوعاء الضريبي'. ولكن -مرة أخرىٰ- لا يطلب منهم أداء سوىٰ حصتهم التي يتعين عليهم أداؤها. وإذا كان ملاك الأراضي لا يُرهَقون بالضرائب، فكذلك الشأن بالنسبة للعمال من مزارعين وفلاحين وعمال يدويين؛ فهم يؤدون الضريبة دون إحساس بالإرهاق. وكما يقول النَّبيّ ﷺ: "فليؤدوا

كما يؤدي كل من كان في وضعيتهم".

وإذا كان المسلمون لا يؤدون ضريبة الجزية فإنهم مع ذلك يدفعون ضريبتين شرعيتين واجبتين، كما يتحملون واجب الدفاع وحماية الدولة الإسلامية. ومقابل الجزية التي يؤديها نصارىٰ نجران، فهم غير مطالبين بالخدمة العسكرية. ويشرح ذلك النَّبيّ ﷺ كما يلي:

"إن القوم الموالين لنا ليسوا مجبرين على محاربة العدو بجانب المسلمين ومهاجمة ذلك العدو وأسره. إن أعضاء التحالف معنا سوف لن يشتركوا في حرب. وبغرض إعفائهم من هٰذا الواجب كتبنا لهم هٰذا العهد، ثم من أجل تأكيد ضمان حماية ومساعدة المسلمين لهم، لا يجبر أي نصراني على منح أي عتاد لأي مسلم من مال أو سلاح أو خيل في حالة ما شن المسلمون حرباً على عدوهم، إلا أن يفعلوا ذلك تطوعاً منهم. ومن تطوع فله الثناء والشكر على ذلك ولا ينسى له خير".

وبما أن المسلمين غالباً ما تعرضوا لهجمات المسيحيين العدوانيين القادمين من أوربا، فإن محمداً ﷺ لم يرد إجبار مسيحيين علىٰ قتل غيرهم من المسيحيين. فمن وجهة نظر عسكرية، إن وجود مسيحيين في صفوف المسلمين قد تثير بعض المخاوف نظراً لأنهم قد يشكلون طابوراً خامساً. في بعض الظروف الاستثنائية كانت هناك فئات من المسيحيين تفضل أداء الخدمة العسكرية بدلاً من أداء الجزية، فكانت تنظمُّ للجيوش الإسلامية وتقف في صف واحد مع المسلمين تحارب أولئك الذين يعادون الحلف الإسلامي المسيحي.

فإذا كان ملوك دول أخرىٰ يعتبرون أنه من حقهم أن يفرضوا ديانة من الديانات علىٰ رعاياهم بقرار إداري أو عن طريق القوة، ويقتلون كل من اعترض ذلك، فإن النَّبيّ مُحَمَّداً ﷺ ألح علىٰ مسألة حرية العقيدة، مبيناً ذلك فيما يلي:

"لا يجبر نصراني على اعتناق الإسلام بالقوة. ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (٢٩: ٤٦). ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة، ويدفع عنهم كل مكروه قد يلحقهم في أي مكان يكونون فيه أو بلد يقيمون به".

وبما أنه منتظر من المؤمنين ستر ذنوب وخطايا غيرهم من المؤمنين، فإن النَّبيّ ﷺ قد حضَّ المسلمين علىٰ منح نفس الستر للنصارىٰ. ولم يكن هٰذا بدافع أن يمكنوهم من التهرب من العدالة والمحاسبة، ولكن من أجل حمايتهم من الثأر، ومن أجل التشجيع علىٰ ترك عادة الاقتتال القبلي والأخذ بالثأر. وكان علىٰ المسلمين مساعدة وحماية شركائهم النصارىٰ. وفي حالة ارتكاب النصارىٰ مخالفات، فإن المسلمين كانوا يرغِّبون في التسامح معهم والصفح عنهم. وفي حالة ارتكاب النصارىٰ لجرائم وأفعال خطيرة عن غير قصد -مثل القتل الخطأ (غير العمد)- فإنه يتعين علىٰ المسلمين تشجيع مشاعر العفو والصفح، وتسوية مطالب المطالبين بالحقوق عن طريق أداء الدِّية المالية. وكان منتظراً من المسلمين والمسيحيين مساندة بعضهم البعض في الرخاء كما في وقت الشدة، علىٰ غرار شريكين في الزواج، كما يفسر النَّبيّ ﷺ ذلك فيما يلي:

"لا يجوز لمسلم أن يتخلى عن نصراني أو يهمله أو يتركه بدون مساعدة أو دعم، بما أنني كتبت لهم هٰذا العهد، عهد الله من أجل ضمان أنه كل شيء حسن يصيب المسلمين فهو يصيب النصارى، وكل شيء يضر المسلمين فهو ضار بالنصارى أيضًا. وبموجب هٰذا العهد، فإن للنصارى حقوقًا لا تنتهك تستلزم حمايتنا لهم، وتحميهم من أي خرق لحقوقهم؛ فهم شركاء للمسلمين في السراء والضراء"

ففي وقت كانت فيه الفتيات يُزوَّجن بشكل عرفي عادي وفق نكاح مفروض عليهن وضد إرادتهن، أوجد النَّبيّ ﷺ حماية لا للنساء المسلمات فقط، بل للنساء كافة. فلقد كان الرسول ﷺ سباقًا لزمانه بألفي سنة عندما صرح بما يلي:

"لا يجوز أن يخضع النصارى للمعاناة والقهر في أمر الزواج ضد رغبتهم. ولا يجوز للمسلمين نكاح الفتيات النصرانيات ضد رغبة والديهن، كما لا يجوز أن تعامل عائلاتهن معاملة سيئة في رفض خطبة أو نكاح. وهٰذا الزواج لا يتم بدون رغبتهن وموافقتهن وقبولهن"

وفي حالة الزواج المختلط [بين رجل مسلم وامرأة نصرانية] فالاحترام واجب بينهما:

"إذا تزوج رجل مسلم بامرأة نصرانية، فعليه أن يحترم معتقداتها، وعليه أن يمنحها حرية الاستماع إلى القائمين على أمور الديانة كما تريد، وأن تتبع سبيل دينها. وكل من خالف هٰذا الأمر وأجبر زوجته على أن تتصرف ضد أمر من أمور دينها، فقد نكث عهد الله ودخل في حرب ضد عهد رسوله وكتبه الله من المنافقين"

وكأنه يذكر بما جاء بالشروط الموضوعة في العهود النبوية المبرمة مع نصارىٰ جبل سيناء والآشوريين، فقد أمر النَّبيّ ﷺ أتباعه بمساعدة المسيحيين لتكون تلك المساعدة بمثابة عمل بر وإحسان؛ ويتضح ذلك في ما يلي:

"إذا جاء نصارى يطلبون مساعدة المسلمين على ترميم كنائسهم وأديرتهم، أو من أجل ترتيب أمور تتعلق بأمور دينهم، فإنه على المسلمين مساعدتهم ورفدهم، ولكن لا ينبغي أن يفعلوا ذلك مقابل أي جزاء، بل على العكس من ذلك عليهم أن يقوموا بذلك ترميمًا لتلك الديانة ووفاء منهم لعهد رسول الله، تطوعًا خالصًا ومحتسبًا لوجه الله تعالى"

وبالرجوع إلىٰ مسألة الحرب، فقد نهىٰ النَّبيّ ﷺ أمراءه عن إرغام النصارىٰ علىٰ التجسس لصالح الدولة الإسلامية، وقد رأىٰ النَّبيّ ﷺ ذلك أمراً مستهجنًا

ومقاربة تنطوي علىٰ مخاطرة. ذلك لأن هٰذا المسعىٰ من شأنه أن يعطي نتائج عكسية لما كان متوخىٰ منه بسهولة. ونتيجة لهٰذا فقد أمر النَّبيّ ﷺ بما يلي:

"في حالة الحرب بين المسلمين وأعدائهم فإنه لا يجوز للمسلمين أن يستعملوا أي نصراني ككشاف أو مرشد أو جاسوس، ولا في أية مهمة من مهمات الحرب. وكل من أجبر أحدًا منهم على فعل ما ذكر فهو يتعدى حدود الله، ويحاد رسوله، وهو خارج عن ذمته. لا شيء يحل لمسلم على نصراني خارج الامتثال لهذه الأوامر التي أمر بها محمد بن عبد الله لصالح ملة النصارى".

إذا بدا أن كل هٰذا متحيز جداً وأدىٰ ببعض الإسلامويين إلىٰ استكبار هذه المواثيق والعهود علىٰ أنها من اختلاق النصارىٰ حيث إنها تسعىٰ لتقديم النَّبيّ ﷺ علىٰ أنه قائد مائع وليس رجلاً متسمـاً بما ينبغي من الصرامة والصلابة اللازمة، فلقد فرض العهد النبوي [لنصارىٰ نجران] قائمة من الواجبات علىٰ النصارىٰ أن يتقيدوا بها. وبما أن الحقوق تأتي من الواجبات فقد صرح النَّبيّ ﷺ بما يلي:

"وأشترط عليهم أمورًا يجب عليهم في دينهم أن يتمسكوا بها ويفوا بما عاهدوا عليه؛ منها أن لا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا على أحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته، ولا يؤوي في منزله أي أحد من أعداء المسلمين يريدون به تحيّن الفرصة وانتهاز الوثبة، وألا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا شيء في مساكن عبادتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا أحدًا من أهل الحرب على المسلمين بتقوية لهم بسلاح أو خيل أو رجال أو غير ذلك، وأن يقروا من نزل عليهم من المسلمين ثلاثة أيام بلياليها في أنفسهم ودوابهم حيث كانوا وحيث مالوا، يبذلون له القرى الذي منه يأكلون، ولا يُكَلَّفُوا سوى ذلك فيحملوا عنهم الأذى والمكروه. وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم وعند منازلهم ومواطن عبادتهم، أن يؤوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا

مجتمعين، وأن يكتموا عليهم ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم. ومن نكث شيئًا من هذه الشرائط وتعداها إلى غيرها فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله".

وكما يبين النَّبيّ ﷺ ذلك بجلاء ووضوح، فإنه لا يجوز لأي نصراني أن يساعد أو يرفد عدواً من أعداء الإسلام، ولا أن يؤوي عدواً من أعداء الإسلام. ولا يجوز للنصارىٰ أبداً أن يسمحوا للقوات المعادية أن تحتل أراضيهم أو منازلهم. ولذلك فإن السماح للقوات الأجنبية الكافرة باستعمال القواعد العسكرية أو القواعد الجوية أو البحرية [في ملك دولة ما]، أو إقامة قواعد لها علىٰ أرض ما، هي محرمة تحريمًا قاطعًا في الإسلام. فمن ساعد عدواً فقد تحول إلىٰ عدو. ومساعدة عدو الإسلام بالمؤن محرم أيضًا. ولا يجوز تزويد ذلك العدو بالسلاح والطعام أو المؤونة. إن حلفاء الإسلام من النصارىٰ هم ممنوعون أيضًا حتىٰ من معاملة المسيحيين المناوئين للإسلام معاملة حسنة. فإذا كان محظوراً علىٰ المسلمين مساعدة قوات العدو بأي شكل من الأشكال أو بأي وجه من الوجوه، فعليك أن تتصور مدىٰ خطورة ما يقوم به مسلم (بالاسم فقط) من الانضمام إلىٰ جيش دولة تشن حربًا علىٰ الإسلام [والمسلمين]، وتحتل بلداً من بلدان المسلمين، وتقتل مدنيين مسلمين أبرياء من رجال ونساء وأطفال. إن هٰذا الفعل يساوي كفراً من دون شك.

إن شركاء المسلمين من النصارىٰ منتظر منهم إيواء وإطعام أي مسلم يمر بهم بصفة عابرة. إن هٰذا الواجب، الذي قد تم التنكر له بكيفية صارخة في أوربا والأمريكيتين، كان مهينا وجارحا في الواقع إلىٰ درجة أنه تم اعتباره منافيًا للقانون في مدونة الحقوق الأمريكية American Bill of Rights. وقد كان الجنود البريطانيون الذين وجدوا أنفسهم في المستعمرات الإنجليزية يسمحون لأنفسهم باحتلال منازل الأشخاص وأكل كل الطعام وترك مالكي المنزل والأطفال يتضورون جوعًا؛ إضافة إلىٰ اعتدائهم علىٰ النساء من سكان تلك المنازل. لقد جعل النَّبيّ ﷺ حدوداً واضحة بين معسكرات الجيوش الإسلامية ومنازل السكان الخاصة بهم، ومنع الجنود من التصرف تصرفًا يخل بسلوك المؤمنين. فعند حديث الرسول ﷺ عن النصارىٰ المضيفين للمسلمين، وكما رأينا ذلك فيما سبق، يقول ما يلي:

"وأن يقروا من نزل عليهم من المسلمين ثلاثة أيام بلياليها في أنفسهم ودوابهم حيث كانوا وحيث مالوا يبذلون لهم القرىٰ الذي منه يأكلون، ولا يكلفوا سوىٰ ذلك فيحملوا الأذىٰ عليهم والمكروه. وإذا احتيج إلىٰ إخفاء أحد من المسلمين عندهم وعند منازلهم ومواطن عبادتهم أن يأووهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين وأن يكتموا عليهم ولا يظهروا العدو علىٰ عوراتهم ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم".

فإذا كان النَّبيّ ﷺ قد حذَّر المسلمين من غضب الله تحذيراً قوياً، وألح علىٰ ذلك إن هم نكثوا العهد الذي أعطاه للنصارىٰ، فإن كلامه وهو يخاطب هٰؤلاء كان صارماً أيضاً: "كل من نكث شيئاً من هذه الشرائط أو تعداها إلىٰ غيرها فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله". بعبارة أخرىٰ، إذا ما خان النصارىٰ دولة الإسلام فسيكونون تحت رحمة الكفار، الذين علىٰ خلاف المسلمين لا يتورعون في معاملة السكان الخاضعين لهم معاملة لا سبيل لمقارنتها بمعاملة المسلمين المتسمة بالعدل والرأفة. وبعبارة أخرىٰ، إذا لم يلتزم النصارىٰ المسيحيون بما هو مطلوب منهم من جهتهم، فإن المسلمين سوف يكونون غير قادرين علىٰ حماية السكان المتاخمين للثغور من هجمات الجيوش الأخرىٰ. ثم إن النصارىٰ الخونة قد يتعرضون للنفي من دار الإسلام ويجبرون علىٰ العيش تحت الحكم المسيحي، حيث يشكل ذلك عقاباً شديداً لهم. ذلك أن ظروف العيش في الأندلس الإسلامية [مثلاً] كانت بمثابة الجنة قياساً بظروف العيش التي كانت سائدة تحت راية إسبانيا المسيحية.

وفي الختام يختم النَّبيّ ﷺ الميثاق النبوي بأمنياته ودعواته الصادقة: "وعليهم العهود والمواثيق التي أخذتها عن الرهبان وأخذها وما أخذ كل نبي علىٰ أمته من الأمان والوفاء لهم وحفظهم به" ويؤكد النَّبيّ ﷺ علىٰ أن أعماله هي أعمال تنسجم مع أعمال الأنبياء من قبله الذين عقدوا مواثيق مع مختلف الأقوام. ذلك أن كلمات النَّبيّ ﷺ الختامية كانت صارمة: "ولا ينقض ذلك ولا يغير إلىٰ أن تقوم الساعة إن شاء الله". أما الشرط في ذلك فواضح: إذا ما خذل النصارىٰ المسلمين، وساعدوا أعداءهم ورفدوهم، وهاجموا المسلمين، فسيكونون قد خرجوا من دائرة الرابطة

الإسلامية Islamic Alliance . وعلىٰ خلاف معظم المواثيق والعهود التي عقدها النَّبيّ ﷺ، فإن عهد مُحَمَّد ﷺ لنصارىٰ نجران حضره وشهد عليه في هذه الحالة بالذات ثلاثون من صحابة النَّبيّ ﷺ المقربين.

خَاتِمَة

يعتبر العثور علىٰ وثيقة عهد النَّبيّ ﷺ لنصارىٰ نجران كنزاً تاريخياً ثميناً وذا أهمية بالغة. فقد تم نشره لأول مرة في مجلة استشراقية مغمورة سنة ١٩١٩م، حيث إن الناشر/ المترجم طعن في صحة العهد النبوي واعتبره عملاً مزوراً. فلا يستغرب المرء إذن لماذا ظلت هذه الوثيقة غير معروفة خارج دائرة حفنة من المستعربين ودارسي التراث الإسلامي. ورغم إعادة طبعها سنة ١٩٥٦م في كتاب لمحمد حميد الله تحت عنوان ***مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة***، ثم في كتاب ***الإسلام والآخر***، لصاحبه محمد عمارة سنة ٢٠٠٢م، فإن الوثيقة لم تصل إلىٰ جمهور القراء كما كان مفترضاً ومطلوباً. في العالم الإسلامي الذي لم يستيقظ من سباته وجموده الفكري الذي استغرق قروناً إلا في الآونة الأخيرة، فإن الأغلبية الساحقة من علماء الدين والأساتذة والباحثين والمفكرين والقراء المثقفين ظلوا يجهلون إلىٰ حد الآن حتىٰ مجرد السماع بوجود هٰذا العهد النبوي الذي نحن بصدده. وأما الذين سمعوا به، فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء إخضاعه للتمحيص الأكاديمي والدراسة العلمية الأكاديمية المتفحصة، وأدنىٰ من ذلك السعي للتعريف به لدىٰ جمهور المسلمين الواسع الذي كان سيفيد منه بلا شك أيما إفادة.

الفَصْل ٥

النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وَمَسِيحُوّ العَالَم

مُـقَدِّمَة

إن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم، المعروف في اللغة العربية بـ'العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية'، مجهول المصدر. إذ كما هو الشأن بالنسبة لـ'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'، و'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' (اللذين تجمعه بهما قواسم مشتركة لافتة)، فإن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم لم يُوثَّق في أية مصادر إسلامية معروفة أو لا تزال موجودة. وبينما يبقىٰ مساره القديم غير معروف، فمن المؤكد أن نسخاً وترجمات من هٰذا العهد كانت متداولة في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية وأوروبا في أوائل القرن السابع عشر.

قَضَايَا المَوْثُوقِيَّة

يُشار إلىٰ وثيقة 'العهد والشروط' في اللغة الإنجليزية باسم Treaty of Muhammad (معاهدة محمد) أو The Patent of Muhammad (ميثاق محمد).(١) ويشكل هٰذان الاسمان الإنجليزيان مصدر التباس بسبب تطابقهما مع الأسماء المنسوبة لـ Pactum Muhammedisi الذي عقده النَّبيّ مُحَمَّد مع رهبان جبل سيناء. وللوضوح، فقد أسميت معاهدة دير القديسة كاترين عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء، والمعاهدة المعقودة مع مسيحيي جنوب شبه الجزيرة العربية عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران؛ أما الوثيقة الحالية، التي وجهها إلىٰ جميع المسيحيين، وليس إلىٰ جماعة معينة، فقد أسميتها عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم.

وخلافاً للعهد الأول والعهد الثاني، فإن مصدرعهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي

---

(١) تُعرف هذه الوثيقة، في اللغة اللاتينية بالأسماء التالية:
Testamentum et pactiones, Testamentum Muhammedis, Muhammedis Testamentum, Testamentum Mahometi

العالم هي أكثر غموضـاً. وقد "قيل"، استناداً إلىٰ فورتيسكيو، "بأن يوشوياب الثاني Yeshu'yab II قام بزيارة محمد، وحصل منه علىٰ وثيقة تمنح إمتيازات للنساطرة" (٩٢). وفي تقديره، إن "هٰذا هو 'عهد محمد' الشهير، الذي نشره جبرائيل الصهيوني (أو غابرييل صيونيتا Sionita) (باريس، ١٦٣٠)" (٩٢، م٥). ووفقـاً لمصادر من القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإن الشخص الذي أتىٰ بالنسخة الأصلية إلىٰ أوروبا هو الأب باسيفيك سكاليغر Father Pacifique Scaliger (المتوفىٰ سنة ١٦٤٨م)، ويعرف في اللاتينية باسم Scaliger Pacificus، وهو راهب كبوتشي (دولينجر ٢٩١؛ كوجيت Goujet ١٠٠ ؛ موشيم Mosheim ٢٥٥؛ باسناج دي بوفال de Beauval ٨٢؛ غيسلير Gieseler ٥٦٣، م٧؛ بايل Bayle، ١٧٣٥: ٢٤١). وفي اعتقاد بايل، إن هٰذا العهد "قد تم العثور عليه في دير في جبل الكرمل" (بايل ٢٤١). وهٰذا يعني أن الوثيقة اكتُشفت في فلسطين، قريبـاً جداً من لبنان. تم تأسيس الرهبنة الكرملية، وهي إحدىٰ أقدم هيئات الرهبان الكاثوليك في الأرض المقدسة، من قبل برتولد، الفرنسي، الذي توفي سنة ١١٨٨م. وبما أنه لم يكن هناك وجود لرهبان كرمليين في فلسطين في القرن السابع الميلادي، فلا يمكن تصور أن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ كان قد أعطىٰ لهم عهداً. لكن حسب الدستور الكرملي لسنة ١٢٨١م، فقد كان الموقع محتلّا، بصورة دائمة، في البداية من قبل أنبياء يهود، وبعد ذلك من قبل الرهبان ورجال الدين المسيحيين، منذ عهد إيليا واليشع إلىٰ حين تأسيس الدَّيْر. ولذا فمن الراجح أن الكرمليين لم يحصلوا إلا علىٰ نسخة من العهد الذي كان الرسول ﷺ قد أبرمه مع أسلافهم. لقد كانت مِلكية الموقع تتغير باستمرار خلال الحروب الصليبية. فبينما كان ديراً خلال بعض الفترات، فإنه كان يتحول الىٰ مسجد خلال فترات أخرىٰ. ومن الناحية الزمنية، تصح فرضية وجود دير كاثوليكي في جبل الكرمل خلال زمن سكاليغر.

وفقـاً لمصادر عديدة من القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، فقد اكتشف الأب باسيفيك سكاليغر (١٥٨٨– ١٦٤٨م) 'العهد' في دير يملكه الرهبان الكرمليون (فان دايك ٨٥ ؛ بايل ٢٤١). وكما يؤكد السير بول ريكو Ricaut (١٦٢٩–

١٧٠٠م) في كتابه تاريخ الحالة الراهنة للإمبراطورية العثمانية (١٦٧٠)، فإنه:

"تم العثور علىٰ 'العهد'... في دير لرهبان جبل الكرمل، علىٰ مقربة من جبل لبنان، علىٰ بعد رحلة يوم واحد من مكة المكرمة، في مكان يقوم فيه الحجاج المسلمون بنحر أضاحيهم قبيل دخول مدينة مكة. ويقال إنه تم الإتيان بالنسخة الأصلية إلىٰ مكتبة ملك فرنسا" (٣٢٠). إذا كان الأمر كذلك، فقد تم اكتشاف عهد النَّبِيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم في الجزيرة العربية، وليس في فلسطين. فالواقع أن الرحلة من الحجاز إلىٰ سوريا أو العراق قد تستغرق حوالي أربعين يوماً بالقافلة. ومن الواضح أن هٰذا يطرح جملة من المشكلات. فهل كان الدَّيْر يقع علىٰ بعد رحلة يوم واحد إلىٰ الشمال من مكة المكرمة، أو رحلة يوم الىٰ الجنوب من هذه المدينة المقدسة؟ وفي كلتا الحالتين، لن يؤدي هٰذا إطلاقاً إلىٰ أي أمر ذي أهمية تذكر. فلن يكون بإمكان حتىٰ أسرع المسافرين إلا بلوغ محطات القوافل؛ إذ من غير المتصور عملياً الوصول إلىٰ غدير خم، الذي هو عبارة عن مستنقع أو بركة في وادي رابغ، في مدة تقل عن ثلاثة أيام. ويقع الطائف علىٰ بعد رحلة يوم من مكة المكرمة. لكن لا توجد أية وثيقة تثبت وجود المسيحيين هناك. فالمدينة الكبرىٰ الوحيدة شمال مكة هي المدينة المنورة. والمدينة الكبرىٰ الوحيدة جنوب مكة المكرمة هي نجران. أما عن المكان الذي هو علىٰ بعد رحلة يوم واحد من مكة المكرمة، والذي يقوم فيه المسلمون بنحر الأضاحي، فهو منىً، أي مدينة الخيام، التي هي في الحقيقة مجرد حي من أحياء المدينة المقدسة. والواقع أنه لم يكن هناك أبداً وجود لأية أديرة مسيحية في منىً. فهل أخطأ ريكو في حسابه؟ علىٰ ما يبدو، هٰذا هو واقع الحال بالتأكيد. هل أخطأ فقط في تقدير المسافة؟ أم أنه كان مخطئاً أيضاً في ما يتعلق بالنظام الديني؟ بينما من الممكن أن يكون سكاليغر (١٥٨٨–١٦٤٨م) قد وجد 'العهد' في دير يملكه الكرمليون، فإن هٰذا يكون قد حدث في أحد أديرة الروم الأرثوذوكس، مثل مار سابا، وهو الدَّيْر الذي كان مأهولاً باستمرار لأطول فترة زمنية في الشرق الأوسط، وغالباً ما كان

> يوصف أيضاً بأنه ‘دير’. وكما هو شأن دير القديسة كاثرين، فإن دير مار سابا يحتوي علىٰ العديد من المخطوطات القديمة، ومن الممكن أن تكون إحداها نسخة من ‘العهد’ الممنوح من قبل النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ.

وإذ أشك في التفاصيل التي قدمها ريكو، فكذلك كان الأمر بالنسبة للمؤلِّف نفسه. فهو يستعمل عبارة "On dit"، التي تعني "يُقال"، أو "ويُزعم" أنه تم إحضار الوثيقة من دير جبل الكرمل الىٰ مكتبة ملك فرنسا (٣٢٠). وتأتي بعد هٰذا مباشرة عبارة "quoiqu'il en soit"، التي تعني "مهما كان الأمر"، فإن الوثيقة "قديمة وفريدة" (٣٢٠). ومن المدهش حقاً أن الكثير من العلماء كرروا تفاصيل ريكو كما لو أنها حقائق ثابتة، في حين من الواضح أنه كان لدىٰ المؤلف نفسه شكوك حولها. وعلىٰ الرغم من أن الباحثين نقلوا من ريكو خارج السياق لعدة قرون، فإنهم لم يفكروا أبداً في تعقب مصدر هذه القصة، المتمثل في الأب باسيفيك سكاليغر نفسه، لاكتشاف مفاجأة ذات دلالة كبرىٰ. ورغم التأكيد الذي قدمه كاتب بعد آخر بأن الأب باسيفيك سكاليغر اكتشف ‘عهد النبي’ في دير جبل الكرمل، فإن هٰذا الكاهن والمبشر لم يقدم أية إشارة تفيد هٰذا الأمر في كتابه حكاية السفر الىٰ بلاد الفرس (١٦٣١). في الفصل الأخير من هٰذا الكتاب، المعنون ‘عهد محمد’: قطعة نادرة وفريدة جداً، " يصرح رجل الدين هٰذا قائلا:

> "لا أريد إنهاء هذه الحكاية دون أن أتقاسم معكم شيئاً نادراً جداً وقع بين يدي بالصدفة، نتيجة فضولي، ويتعلق الأمر بـ‘عهد محمد’. ولكي تفهموا كيف ولماذا تم إبرام هٰذا ‘العهد’، يجب أن تعلموا أن هٰذا العام الأخير، ١٦٢٨، تميز بإضطهاد عنيف، لكنه عابر، شمل تضييقاً اقتصادياً ضد رجال الدين والتجار المسيحيين: إذ بذريعة حاجتهم للعيش في تلك البلدان، كان مطلوباً من كل فرد منهم دفع مبالغ معينة من الدنانير وفقاً لوضعهم المالي. ومن أجل مكافأة أولئك المسيحيين، ووضعهم تحت حمايته وقيادته، فقد أبرم [محمد] المواثيق والعقود التالية معهم."(٤٠٥ - ٤٠٦)

كما يمكن أن يدرك القراء، لم تَرِد هنا أية إشارة لأي اكتشاف. يقول سكاليغر

ببساطة أن المخطوط "وقع صدفة بين يديه" نتيجة لفضوله. ومن البديهي أن هٰذا لا يستبعد فكرة الاكتشاف؛ لكنه يدفع المرء إلىٰ التساؤل عن سبب إصراره علىٰ التضمين بدل الإشارة التصريحة. إن المعلومات الشحيحة التي قدمها سكاليغر تفيد بأن 'العهد' قد أُعطي له. فعلىٰ سبيل المثال يؤكد إ. ريهاتسيك E. Rehatsek أن "النسخة الأولىٰ من هذه الوثيقة أتىٰ بها إلىٰ أوروبا باسيفيك سكاليغر، الذي كان قد حصل عليها من رهبان كابوتشيين عرب" (٩٧ م١٤١ أ). أما عن محاولة سكاليغر توضيح مصدر الوثيقة، فإنها تفضي إلىٰ مزيد من الغموض بدلاً من الإيضاح. إذ يبدو وكأنه يحاول إيجاد مسوغ لتزويرها. ففي الوقت الذي يتحدث عن فترة وجيزة من اضطهاد المسيحيين عام ١٦٢٨، فإنه يؤكد أنه ["هو"] من وضعهم تحت حمايته، وأبرم ["هو"] عهداً معهم. فمَن المقصود يا ترىٰ بلفظة "هو"؟ هل يتعلق الأمر بالسلطان أم بالنَّبيّ ﷺ؟ ولماذا هذه القفزة الزمنية العملاقة نحو الماضي؟ بدل إلقاء ظلال من الشك علىٰ 'العهد'، وهو لا يبدو أنه كان يقصد ذلك، هل كان الأب سكاليغر يحاول فقط تفسير سبب بروز 'العهد' الىٰ السطح؟ بعبارة أخرىٰ، عندما أطل الاضطهاد برأسه القبيح، لجأ المسيحيون لعادتهم القديمة المتمثلة في إظهار عهد من عهود النَّبيّ ﷺ للدفاع عن حقوقهم.

أما بالنسبة للعهد نفسه، فقد وصفه الأب سكاليغر بكونه" 'عهد محمد' الذي يسميه الأتراك يده أو توقيعه، والذي عقده لصالح المسيحيين قبل وفاته، وبحضور الشهود الموقعين أدناه، وهم أتباعه، ومصادق عليه من قبل السكرتير وكاتب العدل، كما سترون" (٤٠٧). وعلىٰ ما يبدو، فإن هذه المعلومة تعني أنه لم يكن هناك أي اكتشاف بالمرة، وأن 'العهد' الذي أظهره المسيحيون كان مشهوراً عند الأتراك. ومن المدهش أن سكاليغر يقول إن الأتراك كانوا يشيرون إليه بـ"يد محمد" أو "توقيع محمد." هل كانت الوثيقة التي "أعاد اكتشافها" ذلك القس الفرنسي تُظهر بصمة يد النَّبيّ ﷺ مماثلة لتلك التي وُجدت في دير القديسة كاثرين؟ هل قام رسول الله ﷺ بتوقيع مجموعة من العهود بنفس الطريقة؟ أم أن مسيحيي بلاد الشام حذوا حذو رهبان جبل سيناء حتىٰ فيما يخص بصمة اليد؟ إن الأتراك، علىٰ ما يبدو، لم يشكّوا

أبداً في الوثيقة. وأستعمل هنا كلمة 'الأتراك' للإشارة إلىٰ إدارييهم وعلماء الدين عندهم وحتىٰ السلطان. عندما تعرض السلطان إبراهيم الأول لضغوط الدبلوماسيين الأوروبيين لمنح مفاتيح كنيسة القيامة في القدس لكنيسة الروم الكاثوليك، أجاب بأن محمداً نفسه ﷺ كان قد منح ملكية تلك المواقع المقدسة للمسيحيين اليونانيين منذ زمن سحيق، وبأنه لن ينتهك بنود تلك المعاهدة مهما كان الثمن (لامارتين ٣٥٦). لم يكن السلطان، الذي حكم من سنة ١٦٤٠ إلىٰ سنة ١٦٤٨ م، يشير إلىٰ العهد الذي تم اكتشافه آنذاك ونُسب إلىٰ النَّبيّ ﷺ وتم نشره في باريس سنة ١٦٣٠م؛ بل كان يتحدث عن وثيقة قديمة قدم الزمن نفسه. لم تكن لدىٰ الأتراك معرفة قديمة بـ'العهد' فحسب، بل من المرجح أن يكونوا هم من قام بتقديم نسخة منه لسكاليغر، وليس المسيحيون. ولد سكاليغر بفرنسا عام ١٥٨٨م، واسمه الفرنسي الكامل René de l'Escale dit Pacifique de Provins. وقد وصل إلىٰ القسطنطينية عام ١٦٢٢م ثم سافر إلىٰ مصر والأرض المقدسة وسوريا قبل العودة إلىٰ إيطاليا سنة ١٦٢٣م. هناك التقىٰ بالبابا غريغوري الخامس عشر لمناقشة مسألة إنشاء بعثات كابوتشية في الشرق الأوسط. وبعد ذهابه إلىٰ باريس، حيث قام بتنظيم الشبكة التبشيرية، توجه إلىٰ سوريا وجبل لبنان عام ١٦٢٨م حيث حصل علىٰ إذن من العثمانيين لإقامة أديرة. وبعد تأسيس بعثات في حلب وقبرص، سافر إلىٰ بلاد فارس وأنشأ بعثات في بغداد وأصفهان، كما أقام علاقات دبلوماسية بين الفرنسيين والفرس. ثم عاد أخيراً إلىٰ أوروبا سنة ١٦٢٩م وقضىٰ عدة سنوات في باريس. وفي عام ١٦٤٥م شرع في رحلة إلىٰ العالم الجديد، وتحديداً إلىٰ جزر الأنتيل الفرنسية. ثم عاد لفترة وجيزة إلىٰ باريس سنة ١٦٤٦م؛ وبعد فترة قصيرة، قرر القيام بنشر الإنجيل في غويانا الفرنسية، إلا أن المنية وافته خلال رحلته سنة ١٦٤٨م (بويون Pouillon ٧٣٤). لقد قدمت هذه النبذة التاريخية المقتضبة من أجل هدف محدد. استناداً إلىٰ المعلومات التي قدمها الأب باسيفيك دي بروفينس، يمكننا أن نستنتج بأنه حصل صدفة علىٰ العهد بين سنتي ١٦٢٧ و١٦٢٨م. هٰذا يتزامن مع االفترة الزمنية التي قضاها في بلاد الشام علىٰ مقربة من جبل لبنان؛ وبالتالي فإن فرضية أن 'العهد' أوتي به من دير في جبل الكرمل يمكن أن تكون صحيحة حقـًا. بيد أن هٰذا كان أيضـًا هو الوقت الذي حصل فيه سكاليغر علىٰ

إذن من العثمانيين لإنشاء بعثات وأديرة كابوتشية عبر كل أنحاء إمبراطوريتهم. وكما أورد في كتابه حكاية الرحلة الىٰ بلاد فارس، فإن السلطان مراد الرابع (ح ١٦٢٣- ١٦٤٠م) أصدر مرسومين اثنين لصالح الرهبان الكابوتشيين في أبريل سنة ١٦٢٧م؛ المرسوم الأول يأذن لهم بالإقامة في حلب، والثاني يأذن لهم بالإقامة في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية (٢٣٣- ٢٣٦). هذه الوثائق، التي توجد فيها أصداء عهد النَّبيّ ﷺ، توفر للآباء الكابوتشيين الحماية وحرية التنقل وممارسة الشعائر الدينية، فضلاً عن حرية التبشير والتعليم في كنائسهم علىٰ أساس أنهم ينتمون إلىٰ دولة حليفة (٢٣٦). هل يمكن أن يكون الأب سكاليغر قد قدم 'العهد' للعثمانيين من أجل دعم قضية الكابوتشيين الراغبين في الإقامة في الشرق الأوسط؟ أم أن العكس هو الصحيح؟ هل قدم العثمانيون نسخة من 'عهد محمد' للأب سكاليغر كبادرة حسن نية تجاه مسيحيي فرنسا؟ ورغم تديّنهم الكبير، فقد عمل الكابوتشيون كدبلوماسيين وسفراء، بل حتىٰ كعناصر سرية وجواسيس في خدمة الملك الفرنسي. أليس أمراً ذا مغزىٰ أن يغادرالأب سكاليغر الإمبراطورية العثمانية سنة ١٦٢٩م ويتوجه مباشرة إلىٰ باريس حيث قام بتقديم الوثيقة لملك فرنسا؟ هل يمكن أن تكون نسخة 'العهد' هدية من السلطان مراد للملك الفرنسي؟

ما نعرفه فعلاً هو أن 'العهد' كان في يدي فرانسوا هوتمان علىٰ الفور تقريباً. يدّعي شيفر أنه "تم إرسال نسخة من 'عهد محمد' من قبل الأب باسيفيك من المشرق الىٰ فرانسوا هوتمان، وهو مستشار في برلمان باريس" (ثينود، Thenaud ٧٢، م٢). بما أن الأب باسيفيك سكاليغر سافر شخصياً من بلاد الشام إلىٰ باريس فلم يكن في حاجة إلىٰ إرسال 'العهد' بواسطة البريد. الأرجح هو أن يكون قد سلمه شخصياً لهوتمان بما أن هٰذا الأخير كان الممثل الشخصي لملك فرنسا في برلمان باريس. وشاء القدر أن يكون فرنسوا هوتمان مضيفاً لجبرائيل الصهيوني، وهو أستاذ اللغة العربية والسريانية في المعهد الملكي Collège Royal منذ سنة ١٦١٨م (برنارد ٤٣؛ ثينود ٧٢، م٢)، فأوكله مهمة ترجمته من اللغة العربية إلىٰ اللاتينية. ما لم يكن بصدد إطلاق مزحة كبرىٰ، فقد كان سكاليغر علىٰ قناعة بأن 'العهد' أصيل. وسواء حصل

عليه من الرهبان الكرمليين أو الكبوشيين أو من السلطان نفسه فهذه مسألة غير ذات أهمية تذكر. إذ يبدو أن الملك قد قبله كشيء أصيل. وكان لدىٰ ممثله فرانسوا هوتمان نفس الاعتقاد، وكذلك لدىٰ جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ - ١٦٤٨م). الأهم من ذلك، كان الأب باسيفيك دي بروفينس حاضراً في باريس من سنة ١٦٢٩ إلىٰ سنة ١٦٤٥ م وقد شهد صدور Testamentum et pactiones طبعة بعد طبعة ابتداء من عام ١٦٣٠ م. إذا كان معظم هذه الطبعات باللغتين العربية واللاتينية، وبعضها فقط باللاتينية، فقد نشر الأب باسيفيك ترجمته الفرنسية الخاصة من 'عهد محمد' عام ١٦٣١ م كفصل أخير من كتابه حكاية السفر الىٰ بلاد فارس. في الواقع، منذ لحظة اكتشاف وتسليط الضوء علىٰ 'العهد' حتىٰ لحظة وفاته عام ١٦٤٨ م، لم ينكر باسيفيك دي بروفينس هذه الوثيقة أبداً.

إنني مقتنع بأن الأب باسيفيك سكاليغر (١٥٨٨-١٦٤٨م) اكتشف 'العهد' فعلاً في دير بمنطقة الشرق الأوسط، وعلىٰ الأرجح في بلاد الشام. لكن، بما أنه سافر من بلاد الشام إلىٰ بلاد فارس، فبالإمكان أن يكون قد حصل عليه بالصدفة في أي مكان علىٰ طول الطريق. أنا مقتنع أيضاً بأن الأب سكاليغر أتىٰ به إلىٰ فرنسا، وهو الأمر الذي يتفق حوله جميع الباحثين (بايل ١٧٣٧ : ٣٨؛ بايل، ١٧٣٥، ٢٤١)، حيث تم إدخاله أخيراً إلىٰ مكتبة الملك الفرنسي (كوجيه ١٠٠). وإدراكاً منه لأهمية 'العهد'، فقد "كلف فرانسوا هوتمان-المستشار ببرلمان باريس—جبرائيلَ الصهيوني بترجمته الىٰ اللاتينية" (كوجيه ١٠٠). واستناداً الىٰ كوجيه فإن "هٰذا العالم الماروني كان محبوباً جداً لدىٰ هٰذا القاضي الذي آواه في منزله لمدة طويلة" (كوجيه ١٠٠). أنا أرفض كذلك قبول الادعاء بأن الأب باسيفيك سكاليغر قد قام شخصياً بتزوير المخطوطة (بايل، ١٧٣٥ : ٢٤١). أولاً، ليس هناك أي دليل علىٰ الإطلاق بأن الأب سكاليغر كان يتقن اللغة العربية الفصحىٰ بما فيه الكفاية وعلىٰ دراية جيدة بالدراسات الإسلامية للقيام بمثل هذه المهمة بنجاح. ثانياً، لم يكن الأب سكاليغر عالماً فحسب، بل كان أيضاً شخصية ورعة مشهوراً بالصدق والتقوىٰ. وقد وصفه راهب كابوتشي كما يلي:

'لقد كرس الأب باسيفيك سكاليغر، المنحدر من عائلة نبيلة وعريقة

تحمل اسمه، حياته لخدمة الأغراض السامية للمبادئ الإنجيلية المطلقة وذلك من خلال التحاقه بكابوتشيي غويانا الفرنسية. وقد تميز بالورع والصوم والزهد في الحياة. وكانت هذه الأعمال معززة بصلوات خاشعة ومعرفة لاهوتية واسعة لدرجة أنه كُلف بمهمة التدريس. وفي جذوة حماسه لإنقاذ الأرواح، سافر إلىٰ بلاد فارس وأمريكا لنشر المعرفة بالإله الحقيقي. ونتيجة لذلك أدت جهوده الرسولية إلىٰ اهتداء العديد من الناس إلىٰ الدين المسيحي' (٤٣٣ - ٤٣٤).

بالنسبة للبعض، يجب أن أُقر، قد يعني هٰذا "الحماس لإنقاذ الأرواح" أنه من الممكن أن يكون الأب سكاليغر قادراً علىٰ الخداع باسم الدين؛ لكن لأي غرض؟ إذ من غير المعقول أن يساهم 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' في اعتناق المسلمين للمسيحية. بل علىٰ العكس من ذلك، يبدو أن هٰذا العهد ملائم لإجتذاب المسيحيين الىٰ الإسلام. هل كان يبحث فقط عن حماية إخوانه المسيحيين في البلاد الإسلامية؟ لكن خلال تلك الفترة، التي تزامنت مع الحكم العثماني، لم يسبق للمسيحيين أن عوملوا أفضل من ذلك. إذ لم ينعموا بتسامح المسلمين فحسب، بل قد يجزم البعض بأنهم كانوا مفضَّلين مقارنة بالأقليات الأخرىٰ. أيضـًا، بما أن سكاليغر كان رجل ورع وتقوىٰ بامتياز، ففي اعتقادي أنه ببساطة لا ينسجم مع سيرة الشخص الذي من شأنه أن يسعىٰ الىٰ تكريس خديعة دينية. ويجب هنا أن نتذكر أن ملك فرنسا، والفريق الهائل من العلماء والمتخصصين المحيطين به، لم يكونوا بلهاء. لقد كان العاهل الفرنسي يعمل جاهداً للحصول علىٰ المخطوطات القديمة من الشرق الأوسط. ولم يكن هناك دافع بالنسبة للأب سكاليغر لتضليل أو خداع ملك فرنسا والفريق العلمي المتمركز في باريس. كان ذلك سيتنافىٰ تمامـًا مع شخصية الكاهن الورع.

إذا كان 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' معروفـًا في عالم اليوم، فإن الفضل في ذلك يعود الىٰ مجهودات غابرييل صيونيتا (١٥٧٧- ١٦٤٨م). هٰذا الكاهن الماروني المثقف، والمعروف في العربية باسم جبرائيل الصهيوني، اشتهر بكونه من قام بنشر النسخة الباريسية متعددة اللغات من الكتاب المقدس. كما أنه

المسؤول عن تقديم طبعة عربية من ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم‘ فضلاً عن ترجمة لاتينية. وقد يكون السفير الفرنسي السابق لدىٰ تركيا، سافاري دي بريفس Safary de Brèves، الذي كان لديه اهتمام بالدراسات الشرقية، لعب دوراً في جلب النسخة العربية من ’المعاهدة‘ إلىٰ فرنسا. عندما تم استدعاء سافاري دي بريفس من روما، حيث كان يقيم، اصطحب "مارونيين اثنين معه إلىٰ باريس للمساعدة في نشر[نسخة الإنجيل] متعدد اللغات تحت رعاية دي ضاو de Thou، أمين المكتبة الملكية، والكاردينال ديبيرون Duperron. هٰذان المارونيان هما غابرييل صيونيتا وجون هيسرونيتا" (انظر الموسوعة الكاثوليكية). من الواضح أن أطرافا أخرىٰ قد تكون منخرطة. كما بينت فاطمة موج كوتشيك، "كان يتم جمع مخطوطات حول المسيحية والحضارة الإغريقية، علاوة علىٰ الحضارات التركية والفارسية والعربية، بنهم" (٩٨) في فرنسا خلال فترة التحالف الفرنسي العثماني.

وتوضح موج بأن هٰذا المزيج من المصالح الدينية والثقافية المدعم من قبل الملك أدىٰ إلىٰ نمو مجاميع وخزانات ملكية واسعة" (كوتشيك ٩٨). وبتعبير بطل رواية جيوفاني باولو مرانا، الجاسوس في حدائق الأمراء المسيحيين، فإنه "كان لدىٰ الكاردينال ريشليو... كمّاً هائلاً من الكتب الفارسية، والسورية، والعربية" (١٥٥). بما أن الملك الفرنسي كان يكلف المسافرين "بالبحث عن التحف النادرة" (كوتشيك ٩٨)، فمن الممكن جداً أن يكون أحد المستكشفين الأدبيين الموهوبين والمحظوظين جداً قد حصل علىٰ نسخة من ’عهد النَّبيّ لمسيحيي العالم.‘

اقتناعـاً مني بأن ’العهد‘ الأصلي هو وحده القادر علىٰ الإجابة علىٰ العديد من الأسئلة التي تتعلق بمصدره، فقد باشرت العمل بتتبع سلسلة انتقال المِلكية: من سكاليغر للملك، ومن الملك لهوتمان، ومن هوتمان لصيونيتا؛ لكن ماذا بعد هٰذا؟ هل تم إرجاع ’العهد‘ الىٰ خزانة الملك؟ هل تم وضعه في خزانة دير كاثوليكي؟ هل ضاع أو دُمّر خلال الثورة الفرنسية؟ لقد كنت مدركـاً بأن "تراكم المخطوطات العربية والشرقية الأخرىٰ في خزانات وزراء الملك وشخصيات أخرىٰ ثرية وذات نفوذ" كان "ظاهرة بارزة في فرنسا القرن السابع عشر" (تومر ٣٤). وكان السؤال، بطبيعة الحال،

هو: أين انتهىٰ ’العهد‘؟ كانت ”جميع مثل هذه المخطوطات تنتهي، كما يوضح تومر، ”في الخزانات الكبرىٰ بفرنسا، ومعظمها في الخزانة الملكية، مما ساعد علىٰ تشكيل قاعدة المجموعة الرائعة من المخطوطات العربية في ’المكتبة الوطنية‘“ (٣٥). إن لم يكن صيونيتا قد أعاد بالتّوّ مخطوطة ’عهد محمد‘ الىٰ خزانة الملك عبر فرنسوا هوتمان أو دي روير، فقد يكون هو آخر شخص كان المخطوط في حوزته. هٰذا يعني أن المخطوط كان موجوداً عنده سنة ١٦٣٠. ”عندما اعتُقل صيونيتا سنة ١٦٤٠، يقول هاملتون وريتشارد، ”تم تفتيش مسكنه ومصادرة مخطوطاته“ (٤٦). مرة أخرىٰ، يقودنا خيط الأحداث الناظم إلىٰ مجموعة الملك التي تنتهي أخيراً في ’المكتبة الوطنية‘. لكن من غير المحتمل، مع ذلك، أن يكون الملك قد سمح ببقاء المخطوط بعيداً عن متناوله لمدة طويلة. فقد سبق له فعلاً أن أجبر السيد دو بريفس علىٰ بيعه المخطوطات التركية والعربية والفارسية التي كان قد جاء بها من سفارته بالقسطنطينية (برنارد ٤٥، م١). لقد كان الملك مولعاً بجمع التحف، شغوفاً باقتناء المخطوطات القديمة والطريفة. ولاشك أن عهد محمد كان بمثابة جوهرة التاج وإحدىٰ أروع القطع في مجموعته.

رغم قرون من التخمين حول أصل ’عهد محمد‘، فإن م.ج. غيوم M. J. Guillaume هو الوحيد الذي تجشم عناء التدقيق في بيانات فهرس مكتبة فرنسا الوطنية من أجل الحصول علىٰ المزيد من المعلومات. يقول في حاشية كتابه محاضر لجنة التعليم العمومي للمؤتمر الوطني ’Procès-verbaux du Comité d'instruction publique de la Convention nationale إن ’ميثاق محمد لصالح المسيحيين‘ وثيقة ملفقة يتوفر قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية علىٰ نسخة منها، وتشكل جزءاً من مخطوط ضخم بالعربية يضم ٢٦٢ ورقة. ويقدم ”فهرس المخطوطات العربية Catalogue des manuscrits arabes للبارون دي سلان (باريس ١٨٨٣-١٨٩٥)، التفاصيل التالية حول هٰذا المخطوط (صفحات ٥٤-٥٥): وهو أيضا موثق تحت رقم ٢١٤ ويحتوي علىٰ نسخ من عدة أعمال؛ وهو المخطوط الثاني عشر والأخير من هذه الأعمال ويحتل صفحتي ٢٤٥-٢٤٦. ويعود تاريخ هٰذا المخطوط إلىٰ عام

١٢٥٤ من تقويم الشهداء (القبطي) [الموافق لـ](١٥٣٨م). وثمة حاشيتان واحدة لصفحة ١١٤ وأخرىٰ لصفحة ١٢٥، توضحان بأن ناسخ المخطوطة كان يسمىٰ جورج، وبأنه ينتمي إلىٰ العقيدة اليعقوبية وهو من أصل أوربي. وفي ما يتعلق بالنص الذي ترجمه لوفيبفر دوفيلبورن، فإن الفهرس يقرر ما يلي: "رقم ٢١٤... ١٢٠(fol. ٢٤٥). نسخة من الميثاق الذي منحه محمد بن عبد الله، وحفيد عبد المطلب، لكل المسيحيين، وتحمل توقيعات حوالي ثلاثين من صحابته. إنها واحدة من عدة نسخ من هذه الوثيقة الملفقة." (٨٣١، B)

وبينما ينبغي الإشادة بمجهود غيوم، حيث ذهب فعلاً إلىٰ المكتبة الوطنية وبحث عن المخطوط في الفهرس، فليس هناك أي باحث اهتم حقيقة بدراسة الوثيقة الفعلية حتىٰ دخلتُ هذه الساحة. في الوقت الحالي، يرد ما يلي علىٰ القائمة الكاملة للفهرس:

--مجموعة مختارة:

[اللغة] العربية ٢١٤ (الرقم التسلسلي)

٣٨٥ (الكرسي الملكي) (الرقم التسلسلي القديم)

المجموعة العربية القديمة ٨٨ (الرقم التسلسلي القديم)

١٥٣٨

١٧ سطراً لكل صفحة، السطح المكتوب: ٢١٠×١٣٥ مم، [علىٰ]'الورق الغربي' ٢٦٢ f) ٢٥٦.fol V بقي فارغـًا) مرقمـًا بالأرقام القبطية، الكتابة شرقية (مصرية) العناوين الفرعية، ٢٨٥×٢١٠ ملم، جلد الكتاب مصنوع من جلد العجل البني المائل للحمرة، ظهره بالجلد المغربي الأحمر [مرقم] بأرقام نابوليون الأول.

المخطوط باللغة العربية.

مكتبة فرنسا الوطنية/ قسم المخطوطات.

--عرض المحتويات:

أُنجزت نسخة لصالح مكتبة يوحنا ابن إسحاق البتانوني (f. ٢٥٦ v) من قبل جرجيس الإفرنجي (f.١١٤,١٢٥) وأكملت تباعـًا في ٢٦ (f. ٢٢٠) و٢٨ من باسناس f) Basnas. ٢٣١ v) و٣ باوونا Ba'una ١٢٥٤ من تقويم 'الشهداء' (f. ٢٥٦ v).

--تاريخ الحفظ:

ملحوظة من رينودوت Renaudot

اقتُنيت من قبل فانسليب Vansleb في الشرق، أختام بأرقام فانسليب... ملاحظات أضيفت بالقلم (f. ١)، ملاحظات القراء، بما في ذلك واحدة كتبها جرجيس بن يوحنا الطماوي (f. ١ v)؛ ملاحظة قراءة لبطرس ابن دياب الحلبي، مؤرخة في ١٤ بابا Baba ١٣٣٦ من تقويم الشهداء (الموافق لـ ١٦٢٠م) (f. ٢)؛ إشارة إلىٰ وصول مبشر إلىٰ القاهرة القديمة في التاسع من حاتور ١٣٨٠ من تقويم الشهداء (١٥٩٢م)، وملاحظة من كتابة جبريل صهيون الزفتاوي (f. ١ v)؛ علامة ملكية لسمعان بن فضل الله البرالوسي (f. ٢٦٢).

أما بخصوص العهد الحقيقي نفسه فهو مُفهرس في المكتبة الوطنية تحت عنوان: Charte accordée à tous les chrétiens, par Muhammad ibn Abdullah ibn Abd al-Muttalib ١٢. F. ٢٥٧,٢٦١ (أو ميثاق ممنوح لفائدة كل المسيحيين من قبل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب).

بالنسبة للملاحظ الفطن فإن مجموعة من الأخطاء والشوائب الشاذة تبدو بارزة علىٰ الفور. بداية، يبدو إنجاز غيوم غير مكتمل. بعد الإشارة إلىٰ أن الناسخ المسمىٰ جورج كان من أصل أوربي، فإن البارون دوسلانBaron de Slane يلاحظ بأن "لا شيء في كتابته يبين بأنه كان كاتبـًا فرنسيـًا"(٥٥). لم يكن خط يده يشبه خط أوربي. لكن يبدو أن سلان Slaneأخذ الاسم العائلي، الإفرنجي أو الفرنسي، حرفيا أكثر مما يلزم لأن كلمة إفرنجي في اللغة العربية، مثل كلمة رومي، تطلق علىٰ كل الأوربيين بدون تمييز. ملاحظة أوزيب ريفودوت (١٦٤٦- ١٧٢٠م) تتضمن أيضـًا

معلومات غير دقيقة. إذ يدّعي بأنه تم شراء المخطوط من قبل جوهان مايكل فانسليب (١٦٣٥- ١٦٧٦م) في الشرق. لقد استنتج هٰذا من خلال احتواء المخطوطة علىٰ خاتم فانسليب، وهٰذا غير صحيح زمنيا، وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً، لقد قام هٰذا اللاهوتي واللغوي والمستكشف الألماني—الذي سافر إلىٰ مصر في مناسبتين بحثاً عن المخطوطات— برحلتيه سنتي ١٦٧١ و١٦٧٢. وبما أن 'عهد النبي' قد تم نشره سنة ١٦٣٠ من قبل غبرييل صيونيتا، فلا يمكن لفانسليب أن يكون قد اشتراه أربعين عاماً بعد ذلك. إضافة إلىٰ ذلك، فإن المخطوط يحمل علامة غبرييل صهيون الزفتاوي، أي علامة غبرييل صيونيتا نفسه! إذن، من الواضح أن الوثيقة المعنية هي التي استعملها صيونيتا لتهييء طبعته العربية/ اللاتينية. ورغم أن الأب باسيفيك سكاليغر (١٥٨٨–١٦٤٨م) لم يترك أية علامة علىٰ المخطوط، فلاشك في أن هذه هي الوثيقة الحقيقية التي أتىٰ بها من الشرق الأوسط. وبهٰذا الاعتبار، فإنها بمثابة الجواب عن العديد من الإدعاءات. إذ لم يقم الأب سكاليغر إطلاقاً بتزوير 'عهد محمد'. أما الوثيقة التي أتىٰ بها إلىٰ فرنسا، والتي كانت قد سقطت بالصدفة في يديه بين سنتي ١٦٢٧ و١٦٢٨م، فيرجع تاريخها إلىٰ سنة ١٥٣٨. كان عمرها آنذاك حوالي مائة عام. قبل وصول الوثيقة إلىٰ كل من سكاليغر وصيونيتا، كان منصور بن سليمان صهيون الرمادي قد قرأها سنة ١٦٢٠م، وتشير الوثيقة إلىٰ وصول مبشّر إلىٰ القاهرة القديمة سنة ١٥٩٢م، كما تشير إلىٰ أنها كانت في إحدىٰ المرات في ملكية سمعان بن فضل الله البرالوسي. وفي الوقت الذي لا يبرهن هٰذا بأن 'عهد محمد' لم يتم تزويره في مرحلة ما من الماضي البعيد، فإنه يثبت بالتأكيد أن الأب سكاليغر لم يقم هو شخصياً بتزويره. لم يكن الأب سكاليغر يعتقد بأن المخطوط غير زائف فحسب، بل إن الوثيقة نفسها تحمل ما يوحي بأن الذين كانت بحوزتهم قبل ذلك كان لديهم نفس الاعتقاد.

إن سنة ١٥٣٨م لا تخلو من أهمية. فابتداء من سنة ١٥٣٦م، عندما قام سيورفوريت Sieur Foret، ممثل الملك فرانسيس الأول (ملك فرنسا)، بتوقيع مجموعة من الاتفاقيات مع السلطان سليمان الأول، "كان الفرنسيون قد حصلوا في

بلاد الشام علىٰ وضعية الهيمنة المطلقة" (حاجي أنطونيوس ٥٢ Hadjiantonius). نتيجة لشرط خاص، "كان الفرنسيون قد مُنحوا حق الحرية الدينية، كما أُعطيت فرنسا حق حماية الأماكن المقدسة بفلسطين، وقد تم تأويل هٰذا مع مرور الوقت بأنه يعني حق حماية جميع المسيحيين الموجودين بالإمبراطورية العثمانية وبلاد الشام عموماً" (٥٣). إذا كان الروم الاورثودوكس والأرمن والآشوريون هم من طالب سابقاً بامتيازات خاصة مُنحت من قبل الرسول ﷺ، وهي امتيازات كان يُستثنىٰ منها البيزنطيون، فإن الفرنسيين هم الآن من صار يصر علىٰ تلك الحقوق باسم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. هٰذا لا يعني أن الفرنسيين اختلقوا عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم بما أن هذه الوثيقة كانت متداولة، مع اختلافات طفيفة، طوال عدة قرون. لكن كانت تلك هي الفرصة المناسبة بالنسبة للفرنسيين الكاثوليك كي يعززوا مطالبهم بالأرض المقدسة وفي يدهم ميثاق من النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. لكن بحلول سنة ١٥٨٠م، كان العثمانيون قد منحوا نفس الحقوق للإنجليز (هادجيانطونيوس ٥٣).ومع ذلك سينتظر الإنجليز حتىٰ عام ١٦٨٨م قبل الشروع في تداول الترجمة الإنجليزية للمعاهدة لدعم مطالبهم المسيحية.

يحتل عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم حيز الصفحات من الصفحة ٢٥٧ إلىٰ الصفحة ٢٦٢، أي الصفحات الإحدىٰ عشر الأخيرة من مختارات عربية مسيحية. ويبدو أن هٰذا العمل كان عبارة عن مجلد أو مضمومة من الأوراق. وقد تم تجليد النسخة المعنية في ١٣ أبريل ١٨٧٢ م. وتفيد قائمة المحتويات المكتوبة باللاتينية في الصفحات الأولىٰ من الكتاب، بأنه يحتوي علىٰ مجموعة متنوعة من الأطروحات والتعاليق اللاهوتية من الكنيسة الشرقية، إلىٰ جانب عرض عقدي مجهول المؤلف، ونقاش مع شخص يسمىٰ 'عبد الرحمن' حول حقيقة الديانة المسيحية، ورسالة إنجيلية، ونقاش مع يهودي حول حقيقة الديانة المسيحية، ونص حول حكمة سليمان، ومناظرة بين مسيحيين ويهود، وشرح للعقيدة النيقية، وتفسير لصلوات يوم الأحد، ومقتطفات من عدة أعمال مختلفة، إضافة إلىٰ أسئلة وردود متنوعة. ورغم أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم جزء لا يتجزأ من الكتاب فإنه لم ترد أية إشارة إليه

في جدول المحتويات، مما يعني أنه من السهل أن يكون قد تم تجاهله أو فقدانه أو إخفاؤه، مخبّأ ضمن الصفحات الأخيرة من مخطوط غامض لم تبق منه إلا نسخة واحدة. ورغم أن الكتاب لا يحمل أي عنوان فإن هدفه واضح: إنه عمل علم اللاهوت التأويلي، الهادف إلىٰ تهيئ الرهبان والقساوسة والمبشرين للدفاع عن المسيحية عند مواجهة اليهود والمسلمين. هل هٰذا يجعل من 'العهد' شيئًا مزيفا؟ كلا، وإلا فسيمكن اعتبار الأعمال الأخرىٰ التي يحتويها الكتاب مزيفة كذلك. فحتىٰ وإن تم ضمه إلىٰ تلك المختارات فإن السبب يكمن في أن ذلك يخدم مصالح المجتمع المسيحي. لقد كانت هذه العهود متداولة طوال ألف سنة، منذ عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ إلىٰ القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكانت توفر السلام والأمن للمسيحيين. وبالتالي فإن إدراج تلك الوثيقة ضمن محتويات الكتاب يعتبر شيئًا معقولاً جداً.

رغم أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم الذي يعود تاريخه إلىٰ سنة ١٥٣٨م هو علىٰ ما يبدو أصل عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم، الذي قام بنشره غبرييل صيونيتا في باريس سنة ١٦٣٠م، فإن المسألة غير محسومة. يبدو بالطبع أن التسلسل الزمني سليم. لقد كان العهد الذي كشفه سكاليغر للعالم قديمًا بالفعل عندما عثر عليه بالصدفة. إن القول إن عهد ١٦٣٠م كان يرتكز علىٰ عهد ١٥٣٨ أمر معقول. فضلا عن ذلك، يحمل عهد ١٥٣٨م علامات غبرييل صيونيتا القرائية. بيد أن المشكل يكمن في كون معاهدتي ١٥٣٨ و١٦٣٠ تحملان بدايتين ونهايتين مختلفتين. فاللغة العربية في المعاهدة الأولىٰ أرقىٰ مستوىٰ مما هو عليه الأمر في الثانية، بينما كان من المتوقع أن يكون الأمر عكس ذلك. إذ أن الوثائق تميل نحو التحسن مع مرور الوقت، لكن يبدو أن عهود النَّبيّ قد أُخضعت لعملية معاكسة. ويجدر التأكيد هنا بأن صيونيتا قام بنشر المعاهدة بدون شكل (vocalization) ولا حركات إعراب (case endings). وقد انتقد جوهان جورج نيسيل (١٦٢١-١٦٦٢م) هٰذا الأمر وأعاد نشر الوثيقة بالشكل والإعراب الكاملين لكي يعيدها إلىٰ سالف عهدها. ويُفترض هنا أن نيسيل قد اعتمد علىٰ نسخة ١٥٣٨م التي تتضمن كل الرموز المطلوبة للنطق السليم والفهم الشامل. إن كان الأمر هكذا فعلا، فلماذا لم يتحدَّ نيسيل صيونيتا بسبب تغييره

لمخطوطة ١٥٣٨م؟ علىٰ أمل الكشف عن مفاتيح لحل اللغز، سأقوم الآن بفحص العهود، وسوف أبدأ بالعهد الذي تم نشره سنة ١٦٣٠م ثم بعد ذلك الوثيقة التي اكتشفتُها في الأرشيف العربي بمكتبة فرنسا الوطنية، والتي يعود تاريخها إلىٰ حوالي قرن قبل ذلك، ولم يتم نشرها أبداً من قبل.

إن مضمون الوثيقة التي نشرها أنطوان فتراي Vitray في باريس سنة ١٦٣٠م، تحت عنوان 'العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية' يطابق إلىٰ حد كبير 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران'، الموجود في 'حولية سيئيرت' Chronicle of Séert، وهي عبارة عن تاريخ قديم جمعه المسيحيون النساطرة. وبينما لا يتطابق 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم'، الذي تم نشره سنة ١٦٣٠ م، كليا مع 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران'، الذي تم اكتشافه في دير بالعراق سنة ٨٧٨ م، فإنه شديد الشبه به. وقد يزعم متشكك مهووس أن نسخة ١٦٣٠م تم تلفيقها ببساطة بناء علىٰ تلفيق آخر يرجع تاريخه إلىٰ سنة ٨٧٨م، لكن بإمكان أي ذهن علىٰ جانب من التفتح أن يجد أدلة تؤكد عدم تغير النَّصّ طوال حوالي قرن من الزمن. هل نحن بصدد معالجة نفس الوثيقة الأصلية، وقد خضعت لتغييرات لاحقة؟ أم أننا نعالج نفس العهد أعيد إصداره لأكثر من مناسبة واحدة، مما يفسر وجود تلك التباينات؟ إذا كان الأمر كذلك فسيكون هٰذا منسجما مع تصرف النَّبيّ ﷺ. بدلاً من ذلك، يمكن للمرء أن يبرهن، كما فعلت أنا، بأن الوثيقتين هما في الحقيقة صكا حماية مختلفتان.

وخلافـًا لـ'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'، فقد كُتب كل من 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' و'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' بيد معاوية ابن أبي سفيان (المتوفىٰ سنة ٦٨٠م). وبينما لا يحمل 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' أي تاريخ فإن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم'، يرجع تاريخه إلىٰ "يوم الإثنين تمام أربعة أشهر من السنة الرابعة من الهجر[ة]". هٰذا هو أيضـًا نفس العام الذي تم فيه إمضاء 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين'. في الحقيقة، يعود تاريخ كلا العهدين إلىٰ زمن كان فيه رسول الله ﷺ جد منهمك في الجهود الدبلوماسية. وبينما يتشابه 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' و'عهد النَّبيّ لمسيحيي العالم' في

معالجة نفس القضايا وفي منح نفس الحقوق وفي المطالبة بنفس الالتزامات، فإنهما غير متطابقين في البنية والمفردات والمحتوىٰ. إضافة إلىٰ ذلك، فهما يحتويان علىٰ قائمتين مختلفتين من الشهود، حيث تضم القائمة الأولىٰ ثلاثين شاهداً أما الثانية فتضم ستة وثلاثين.

وكما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك، فإن التاريخ يطرح جملة من الإشكالات، لأن معاوية -حسب مصادر سرية إسلامية- لم يعتنق الإسلام إلا قبيل فتح مكة في العام الهجري الثامن أو ٦٣٠م. لكن يمكن أن يكون هٰذا التاريخ قد أضيف خطأً في وقت لاحق أو أن يكون اسم الناسخ قد تم تغييره. بما أن سليم الأول كان 'نسيبيا'، أي شخصاً مناوئاً لآل بيت النَّبيّ ﷺ، فمن الممكن أن السلطان نفسه قام بتغيير اسم الناسخ الأصلي لأسباب دينية وسياسية، مستبدلاً اسم الإمام علي (توفي ٦٦١م) باسم معاوية بن أبي سفيان. ومما يؤكد هٰذا الرأي أفعال السلطان نفسها. فقد أمر سليم الأول بإبادة أربعين ألفاً من شيعة الأناضول، ناهيك عن سجن وترحيل العديد منهم (صوميل ٢٦٢، ايفرسلي ١٠٥). وكما يفسر غابور أغوستون ذلك، حيث يقول: "بررت الدعاية العثمانية حملات السلطان سليم ضد الصفويين من خلال تصوير العدو الشيعي و... حلفائه...'كزنادقة' بل حتىٰ 'ككفار'؛ أعاقت ثورتهم كفاح العثمانيين ضد أعداء الإمبراطورية المسيحيين... بما أن المماليك السنة تعاونوا مع الصفويين 'الزنادقة' فقد كانت الحرب ضدهم مبررة كذلك. قبل أن يتمكن السلطان من الالتفات لمواجهة أعداء الإمبراطورية المسيحيين، كان عليه مواجهة الثوار المسلمين أولًا".

في نظر سليم الأول، كانت إمبراطورية الصفويين الشيعية "أقبح من الكفار" (ويتكروفت ٥). ولذلك فإن "رعاياها يستأهلون الموت أكثر من أي عدد من المسيحيين" (٥٠). بما أن المماليك كانوا حلفاء الصفويين، فقد تمت مباركة الحملة المصرية التي قام بها سليم الأول من قبل المؤسسة الدينية العثمانية بحجة أن "من يساعد زنديقاً فهو نفسه زنديق" (فينكل ١٠٩).

وكما سبقت الإشارة، فإن الكثير من العهود الأخرىٰ التي لازالت موجودة تتضمن اسم الإمام علي (توفي ٦٦١م) باعتباره ناسخاً وشاهداً أساسياً. إذا أخذنا

هٰذا الأمر بالحسبان فإنه من الممكن جداً أن عهود النَّبيّ ﷺ الأخرىٰ التي تحمل توقيع معاوية كُتبت فعلاً من قبل الإمام علي. وقد يكون هٰذا "التغيير النصي" من اقتراف العثمانيين، إلا أن الأرجح هو أن الأمويين هم من يكونون فعلوا ذلك. وهناك إمكانية أكثر خبثاً، تتمثل في أن معاوية نفسه، لا سمح الله، هو من يكون قد قام بتزوير تلك العهود. وقد نقل المدائني (توفي ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م)، وهو مؤرخ قديم، بأن الأمويين شجعوا التزوير والترويج الممنهج للأحاديث النبوية (براون ٧٠). كما حاول غولد زهير، من بين آخرين، أن يبرهن "بأن الكثير من الأحاديث –وكذلك طبيعة التقليد القديم في رواية الأحاديث ككل، لا تترك مجالاً للشك في أن الدولة الأموية كانت تنفذ بنشاط وعزم برنامجاً للدعاية السياسية لعب فيها تزوير الأحاديث دوراً هاماً" (براون ٢٠٦). ومع ذلك فإن عمليات التزوير التي قام بها الأمويون كانت تدور حول صراعهم مع أنصار الإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) ولم تمتد بالضرورة إلىٰ قضايا السياسة الخارجية ومعاملة الأقليات.

إذا كانت هوية الناسخ وكذلك تاريخ 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' مسألتين خلافيتين، فإن القضية الأخرىٰ التي تطرح نفسها هي: لماذا يهتم الفرنسيون بنشر مضمون المعاهدة في المقام الأول؟—هٰذا موضوع في غاية الأهمية بكل معنىٰ الكلمة. فرغم تاريخها الطويل من الكراهية والعدوان تجاه العالم الإسلامي، سواء في الماضي أو الحاضر، ابتداء من الحروب الصليبية في القرون الوسطىٰ إلىٰ إمبريالية عصرنا الحديث، فقد كانت هناك فترة من التاريخ عاشت فيها فرنسا فعلاً في سلام مع المسلمين. فقد تم عقد اتفاق سنة ١٥٣٦م عُرف باسم الحلف الفرنسي–العثماني أو الحلف الفرنسي–التركي، وكان بمثابة فضيحة كبرىٰ في باقي الدول الغربية. ورغم الاستنكار الذي لاقاه هٰذا الحلف بحيث وُصف بـ"الحلف الآثم" أو "الاتحاد المدنس بين زهرة الزنبق والهلال"، فقد استمر هٰذا الحلف من القرن السادس عشر إلىٰ القرن التاسع عشر، وكان يخدم المصالح المتقدمة باستمرار لدىٰ الطرفيْن آنذاك. وقد كان السلطان الذي مهد الطريق لهٰذا الحلف هو سليم الأول (حكم ١٥١٢–١٥٢٠م) حيث نجح في توحيد منطقة الشرق الأوسط من خلال

غزوه، من ١٥١٦ إلىٰ ١٥١٧م، لسلطنة المماليك المصرية، التي كانت تضم سوريا الكبرىٰ والحجاز ومصر. وقد أنشأ خليفته سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠-١٥٦٦م) الحلف الفرنسي-العثماني مع ملك فرنسا فرانسيس الأول (حكم ١٥١٥-١٥٤٧م) سنة ١٥٣٦م. فإلىٰ جانب الاعتبارات التجارية، كان فرانسيس الأول حريصاً علىٰ ضمان الحماية للمسيحيين المقيمين بالإمبراطورية العثمانية من خلال جملة من الامتيازات. وهكذا تم تبادل السفراء، كما تم عقد اتفاقيات تجارية ودينية وعسكرية ومالية وإجراء حملات مشتركة. ومن المسائل ذات الدلالة فيما يتعلق بالإسلام، هو أن "التحالفات التي عززها السلطان سليمان مع الفرنسيين الكاثوليك لم تقد أي أحد إلىٰ التشكيك في حقيقة إسلامه" (١٧٩). إذ لم يكن التسامح أو التعايش مع أتباع الديانات الأخرىٰ أمراً شاذاً أو غير طبيعي في الإسلام: لقد كان شيئاً معهوداً. وكما يرىٰ عيسىٰ بُلاّطة Issa Boullata، فالسبب الجذري وراء هٰذا الموقف واضح: إذ أن "القرآن يقضي خصيصاً بمعاملة المسلمين لأصحاب الديانات الأخرىٰ بلطف ولباقة وأخلاق كريمة"(٥١).

ولم تكن الامتيازات، بطبيعة الحال، أحادية الجانب؛ فقد قام الفرنسيون برد الجميل للعثمانيين. فإذا كان الأتراك قد سمحوا بإنشاء الكنائس للمسيحيين، فقد سمح المسيحيون بإنشاء المساجد للمسلمين. وبالفعل، لما قضىٰ بارباروسا فصل الشتاء في طولون بفرنسا من ١٥٤٣ إلىٰ ١٥٤٤م، أمر الملك فرانسيس الأول بتحويل كاتدرائية المدينة إلىٰ مسجد. وإذا كان النفوذ الفرنسي عظيماً في إسطنبول فقد كان التأثير التركي في باريس بنفس القدر من الأهمية، حيث كان يحظىٰ شرب القهوة وارتداء الملابس العثمانية، بما في ذلك العمامة والقفطان، وكذلك السجاد الفارسي، بإقبال عارم.

بما أن آلة الطباعة كانت محظورة في الإمبراطورية العثمانية من ١٤٨٣ إلىٰ ١٧٢٩م بسبب الضغط الذي مارسه "العلماء" الظلاميون، فقد كانت جل الكتابات الإسلامية تُطبع في أوربا، وبشكل خاص في إيطاليا وفرنسا. وقد كان بايزيد الثاني وسليم الأول وخلفاؤهما يقفون وراء تطبيق مرسوم يقرر بأن "الاشتغال بعلم الطباعة

يُعاقب بالإعدام" (جوتشيك١١٢). وكما يوضح تشيجن Chejne فإن "أول صحافة عربية معروفة تم تنصيبها بالفاتكان في الجزء الأول من القرن السادس عشر" (اللغة العربية ١٩١، م٣). لكن "لم يتم إدخالها إلىٰ العالم العربي حتىٰ القرن الثامن عشر: في حلب (سنة ١٧٠٢م)، ومصر (سنة ١٧٩٨)، ولبنان (سنة ١٨٣٤)" (١٩١، م ٣)، ودائماً علىٰ أيدي الفرنسيين (١٠١). وبينما كان المسلمون قد قادوا العالم الغربي إلىٰ عصر النهضة فقد أصبحوا الآن علىٰ بعد قرون وراء المسيحيين الأوربيين.

بالنسبة لرجال الدين المحافظين المتشددين، كانت المطبعة ابتداعاً ممنوعاً يجب معارضته بشدة (٨٣-٨٤). ويوضح إبراهيم موتفريكا، الذي أسس المطبعة العثمانية سنة ١٧٢٦م، بأن الأعيان الدينيين النافذين أصروا علىٰ حظر هٰذا الاختراع الجديد (جوتشيك ١١٣). إذ كانوا يتخوفون من أن السماح برواج أكثر من الحد الأدنىٰ اللازم من الكتب من شأنه أن يشكل خطراً علىٰ النظام العام والسلوك الديني (جوتشيك ١١٣). في محاولة لإبقاء المسلمين في حالة من الجهل لم يُسمح إلا لأقليات من الشعب بطباعة الكتب، إما بالعبرية وإما بالأحرف اللاتينية فقط (١١١). وبما أن المسلمين كانوا متعودين فقط علىٰ الأبجدية العربية، فلم تكن هناك حاجة لإفسادهم بأعمال كتبت بأبجديات أخرىٰ. وخلال حكم مراد الثالث (في ١٥٨٧/ ١٥٨٨م) تم إصدار مراسيم تسمح بطباعة الكتب بجميع اللغات والأبجديات لأغراض تجارية (جوتشيك ١١٠). وبعدما تمت مصادرة بعض الكتب باللغات العربية والفارسية والتركية من قبل بعض المتشددين الدينيين، أمر السلطان بإرجاعها إلىٰ أصحابها الشرعيين (١١٠). ورغم أنه لم يكن بإمكان المسلمين طباعة الكتب "فلم يجد العثمانيون مانعاً في تجارة وطباعة الكتب من قبل الأجانب في الإمبراطورية العثمانية"(١١١).

إذا كان المسلمون قد ضيعوا فرصة اكتساب طريقة هامة لنشر المعلومات، فإن المسيحيين قد استفادوا منها إلىٰ أقصىٰ حد، حيث نشروا الكتب بعدد كبير من اللغات، بما في ذلك اللغة الروحية والعلمية للحضارة والثقافة العربية. وتوضح فاطمة موج جوتشيك قائلة:

> "في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان هناك ثلاثة من المشتغلين المشهورين بطباعة الكتب العربية في إيطاليا. فقد نشرت دار النشر الميديسي بريس The Medici Press الأناجيل والنحو العربي وكتب المؤلفين اليونانيين في ترجمة عربية، وعدداً من الأعمال العلمية الإسلامية. ونشرت المطبعة العربية التي أسسها التجمع من أجل نشر الإيمان ترجمات عربية للكتاب المقدس وأعمالاً مسيحية أخرىٰ. وكان الإنتاج البارز لـ'طبوغرافيا ديل سيميناريو' Topografia del Seminario في بادوا Padua يتمثل في نشر القرآن بنص عربي وترجمة لاتينية. وقد تم تسويق هذه الكتب في الإمبراطورية العثمانية (١١٠).

إذا كانت طباعة القرآن سبباً للعقوبة بالإعدام في الإمبراطورية العثمانية، فكذلك كان الشأن بالنسبة لطباعة أي أعمال أخرىٰ، بما أن لاشيء آخر عدا كلام الله كان يستحق القراءة. في ضوء هٰذا، قد لا نفاجأ إذا علمنا أن أول نسخة من القرآن مطبوعة بالآلة قد تم إنتاجها بأوروبا. ويُعتقد عموماً بأنها طبعت لأول مرة بالبندقية من قبل باجانينو وأليسندرو باجانيني ١٥٣٧م/ ١٥٣٨م بهدف التصدير إلىٰ الإمبراطورية العثمانية. لكن نظراً لأنها كانت تحتوي علىٰ أخطاء عديدة ولأنها نشرت بأيدي "كفار نجسين"، فقد قوبلت محاولتهما بالعداء، ويبدو أن كل ما تم طبعه حكم عليه بالإحراق.

يبدو أن الفرنسيين قد يكونون سبقوا الإيطاليين في طباعة القرآن علىٰ نطاق واسع. وبالفعل فقد كانت هناك نسخة من القرآن طُبعت حوالي سنة ١٥٣٦م، تم تجليدها سنة ١٥٤٩م وفقا لضوابط وُضعت في عهد فرانسيس الأول (حكم ١٥١٥- ١٥٤٧م). ويمكن العثور علىٰ هٰذا المجلد، الذي يحمل خاتم هنري الثاني (حكم ١٥٤٧- ١٥٥٩م)، في مكتبة فرنسا الوطنية. وإن دلّ كون الفرنسيين أول من طبع القرآن آليا علىٰ شيء، فإنما يدل علىٰ اهتمامهم بالإسلام. وعلاوة علىٰ طبع كتاب الإسلام المقدس، فقد كان المجتمع الفرنسي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر شديد الاهتمام بكل ما هو إسلامي. وقد دعا مستشرقون من أمثال غيوم بوستيل

(١٥١٠- ١٥٨١م) إلىٰ دين عالمي من شأنه أن يدمج اليهود والمسلمين والمسيحيين من جميع الطوائف في عقيدة مسيحية أوسع وأشمل. وكان جان بودين (١٥٣٠- ١٥٩٦م)، -وهو حقوقي فرنسي وأستاذ قانون وسياسي، عارض كل أوجه الإكراه المتعلقة بالدين- يعترف أنه بإمكان مختلف الديانات التعايش في دولة واحدة؛ وكان يدافع عن التعددية الدينية والعالمية. وقد شملت أعمال منشورة أخرىٰ نسخة باللغتين الفرنسية-التركية لـ'الامتيازات' الفرنسية-العثمانية لعام ١٦٠٤م بين السلطان أحمد الأول (حكم ١٦٠٣-١٦١٧م) وهنري الرابع، ملك فرنسا (حكم ١٥٨٩- ١٦١٠م)، تم نشرها من قبل فرنسوا سافاري دوبريفس (١٥٦٠- ١٦٢٧م) سنة ١٦١٥م. وقد كان الدافع وراء نشر 'العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية' في نسخة بالعربية واللاتينية سنة ١٦٣٠م يتمثل في اعتبارات سياسية وعسكرية ودينية وثقافية. وكما تعترف خوسيه بلانيا، فقد

> "كان من الأهمية بمكان نسخ 'العهد النبوي' في باريس سنة ١٦٣٠م من قبل أنطوان فتراي بأمر من لويس الثالث عشر بمساعدة غبرييل صيونيتا، الذي كان صديقاً لسفاري دو بريفس. وقد أبقىٰ لويس الثالث عشر دائماً علىٰ سياسة هنري الرابع وسافاري: الصداقة مع العثمانيين ودعم المسيحيين الشرقيين، وقد كان هٰذا 'العهد' كذلك دليلاً علىٰ تسامح المسلمين تجاه المسيحيين. وتفيد مقدمة فيتراي أنه، وبفضل كرم ميشال لوجاي، ناسخ جلالة الملك للغات الشرقية، فإنه قد حصل علىٰ بعض الحروف المطبعية الأنيقة جداً الخاصة باللغات العربية والسريانية والسامرية. وكانت الحروف العربية من وضع سافاري." (٦٧)

لكن من كان إذن الجمهور المستهدَف بـ'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم'؟ فكما توضح فاطمة موج كوتشيك، "لقد شرعت المطابع الغربية في طبع الكتب الدينية بالحروف العربية بحلول القرن السادس عشر لأغراض دينية وتجارية" (١١٠). ومن المدهش أن "أول كتاب إسلامي معروف طُبع في الغرب هو كتاب بالعربية حول الأوقات الشرعية للصلاة؛ وقد تم طبع هٰذا الكتاب سنة ١٥١٤م بمدينة

فانو (الإيطالية) تحت رعاية البابا يوليوس الثاني" (١١٠). بالنسبة للكثير من المسلمين الذين هم علىٰ دراية بتاريخ الصراع الإسلامي -المسيحي، فإن هٰذا الأمر شيء مذهل حقاً. بينما لعب الدين دوراً في طباعة الكتب العربية في أوربا، فقد كان المال هو المحرك الرئيس. كان المسيحيون، باعتبارهم محترفين في فن الطباعة، علىٰ استعداد لطبع أي شيء مربح. وإذا ما أخذنا حجم السوق الإسلامية في الحسبان، فإن ذلك سيفسر سبب رغبتهم الشديدة في إنتاجهم الغزير لنسخ القرآن. ومن الواضح أنهم كانوا ينتجون أيضاً نصوصاً كانت لها أهمية لدىٰ المسيحيين. ففي سنة ١٥١٦م، علىٰ سبيل المثال، "تم طبع نسخة من مزامير داوود بالعبرية، واليونانية، والعربية، والآرامية، واللاتينية" بمدينة جنوىٰ (١١٠). "هذه الكتب، -توضح كوتشيك، "ساهمت في الحفاظ علىٰ الإيمان عند الجماعات المسيحية الناطقة بالعربية في الشرق الأوسط، كما ساعدت علىٰ نشر المسيحية في صفوف الجماعات الأخرىٰ" (١١٠). إذا كان هٰذا هو ما حصل فعلاً، وإذن فقد يكون نشر 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' موجهاً بالدرجة الأولىٰ للمسيحيين المقيمين في الإمبراطورية العثمانية. وللإشارة، فقد قام صيونيتا بطبع كتاب صلاة باللغتين السريانية واللاتينية علىٰ نفقته الخاصة سنة ١٦٢٥م، وكان القصد منه أن يستعمله المسيحيون ببلاد الشام (برنارد ٤٤). إذن من الواضح أن صيونيتا كان يفكر في المسيحيين في العالم العربي عندما قام بنشر 'العهد والشروط' Testamentum et Pactiones، لكن بما أنه تُرجم أيضاً إلىٰ اللاتينية والفرنسية والألمانية، فمن الراجح أن سوقاً لمثل هٰذا العمل كان أيضاً موجوداً لدىٰ المسيحيين الأوروبيين. ويجب أن نتذكر كذلك بأن باريس كانت مدينة كوسموبوليتانية جداً في العقد الأول من القرن السابع عشر؛ وكما كتب أندريه دي راير (١٥٨٠- ١٦٦٠م)، فقد كان هناك الكثير من سكان باريس ممن يفهمون ويتكلمون لغات آسيا وإفريقيا، بل حتىٰ الأمريكتين (برنارد ٥٤). وهكذا، فقد توفرت هناك سوق سواء في الداخل أو الخارج بالنسبة لـ'عهد محمد'.

وكما يوضح نورمان دانييل في كتابه 'الإسلام في الغرب'، فإن الآراء السياسية المتعلقة بالصداقة مع المسلمين كانت رائجة في أوربا أوائل القرن السابع

عشر الميلادي، كما يدل علىٰ ذلك وجود نسخ عديدة من 'عهد محمد'(٤٠٦). إذا كان المارونيون مثل صيونيتا، ورعاته الكاثوليك، مهتمين بمثل هذه الأفكار، فكذلك كان البروتستانت في ذلك الوقت. في إشارته إلىٰ ثيودور بوتشمان بيبلياندر، الناشر، وج. فابريسيوس، الجمّاع، يلاحظ سانتياغوأوتيرو بأن "كلا من الناشر والجمّاع كانا علىٰ مذهب الكالفينيين؛ وهٰذا ما يفسر الأهمية المتزايدة لدراسة الإسلام بين الإصلاحيين" (سانتياغو اوتيرو ٤٠٩). وقد كان كلوديوس سالماسيوس (توفي سنة ١٦٥٣م) كذلك بروتستانتيا مثل ما كان ابراهام هنكلمان (١٦٥٢-١٦٩٥م). وإذا كان الموريسكيون في ذلك الوقت يستعملون الحجج البروتستانتية لاستعداء مضطهِديهم الكاثوليك، فقد كان البروتستانت يوظفون الحجج الإسلامية ضدهم كذلك.

إن كان المسيحيون الأوروبيون يريدون تذكير المسيحيين العثمانيين بحقوقهم في ظل الإسلام، فالظاهر أن هذه المعلومات المتزايدة حول النظام القانوني الإسلامي قد أثرت علىٰ حكامهم داخل البلاد. إذ يبدو أن الأفكار الإسلامية حول التسامح الديني كان لها تأثير علىٰ مجموعة من الملوك الفرنسيين، مثل هنري الرابع، الملقب بالكبير (حكم ١٥٨٩-١٦١٠م)، والذي كفل الحريات الدينية للبروتستانت من خلال 'مرسوم نانت' (١٥٩٨م). ولذلك لم يكن من المستغرب، في أعقاب هٰذا التحرك المسكوني، أن يتم اغتيال هنري الرابع علىٰ يد فرنسوا رفايك (١٥٧٨-١٦١٠م)، وهو أحد المتشددين الكاثوليك. في آخر المطاف، وعلىٰ مدىٰ القرون التي استغرقها التحالف الفرنسي-العثماني، اعتنق العديد من الشخصيات القيادية في المجتمع الفرنسي الإسلام. عندما ينظر إليها بنظرة ضيقة، كانت حالات المسيحيين الفرنسيين المعتنقين للإسلام يُصرف عنها النظر باعتبارها مجرد "تغيير للدين من أجل المصلحة الشخصية"(conversions of convenience)، وهي أفعال شكلت جزءاً من أجندات إمبريالية مختلفة. لكن في ضوء الموقف المنفتح تجاه العثمانيين، والصورة الايجابية التي كان يتم تقديمها عن المسلمين، وتوافر الكتب الإسلامية، بما في ذلك ترجمة للقرآن من إنجاز أندريه راير (١٥٨٠-١٦٦٠م) سنة ١٦٤٧، يبدو من المعقول أن بعض المسيحيين الفرنسيين كانوا قد اقتنعوا بالقضية الإسلامية. هل يمكن

أن يكون هٰذا هو حال أحد المالكين السابقين لنسخة صيونيتا من 'العهد النبوي'؟ إن النسخة التي اطلعت عليها تتضمن التوسلات التالية: "يا الله، يا محمد، يا أبا بكر، يا عمر، يا عثمان، يا علي، يا حسن ويا حسين". كانت هذه التوسلات مكتوبة بخط اليد من قبل فاليريانوس أوزرول سنة ١٦٥٩م. فهل كان قد اعتنق الإسلام؟ وإلا، فلماذا يقوم شخص مسيحي بكتابة هذه الابتهالات الإسلامية التقليدية؟ مهما يكن من أمر، بما أننا نتفهم الآن بصورة أفضل الأهمية الجيوسياسية لعهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم، دعنا نلتفت الآن للأصداء التي خلفها.

كما رأينا، تم نشر 'العهد والشروط'، أو Testamentum et Pactiones لأول مرة سنة ١٦٣٠ م. وقد حقق هٰذا العمل نجاحاً أكاديمياً فورياً، حيث أثار قدراً كبيراً من الجدل وأحدث درجة في غاية الأهمية من التناظر والمناقشة. وبما أن العمل نفد من الأسواق علىٰ الفور تقريباً، ولم تستطع المكتبات تلبية الطلب، فقد تمت إعادة طبعه أربع مرات خلال السنة الأولىٰ من نشره. لقد أعيد نشره في عدة طبعات وفي لغات مختلفة من قبل مترجمين وناشرين آخرين سنوات ١٦٥٥ و١٦٦٨ و١٦٩٠، وإلىٰ غاية سنة ١٨٨٨ م. كما ظهر في ترجمات فرنسية في أعمال تاريخية مثل كتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية، للسير بول ريكو (١٦٢٣/ -١٧٠٠م)، بل وحتىٰ في تقارير ديبلوماسية. وفي الوقت الذي أثار فيه 'العهد النبوي' الكثير من الاهتمام لأزيد من قرنين فإنه قد أحيط بالصمت طوال القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

بينما تم رفض 'العهد والشروط' من قبل العديد من الخبراء، فقد دافعتْ عنه أعداد أكبر من أمثال هٰؤلاء، وفي طليعتهم المسلمون. وكما يوضح موسهايم Mosheim، فإنه "يوجد أمر أو 'عهد'، كما يسمىٰ عموماً، أي شهادة رسمية من محمد نفسه، يتعهد فيها منح الأمن الكامل لجميع المسيحيين الذين يعيشون تحت سلطانه؛ ورغم أن بعض العلماء يشكون في صحة هذه الوثيقة، فإن المحمديين ليس لديهم ريب فيها" (٢٥٤). وبينما يشير لايارد إلىٰ أن العهد "قد تم رفضه من قبل العديد من النقاد الأوروبيين الذين اعتبروه مجرد وثيقة مزورة" فإنه يلاحظ أيضاً بأن "صحته قد

أُقرت من قبل المحمديين وكتّاب مسيحيين شرقيين" (٢٠٧). ورغم ان لوك Luke يصرح بأن العهد "قد اعتُبر في الغرب عموماً بأنه مشكوك في صحته"، فإنه يعترف بأنه قد تم "قبوله من قبل الكتّاب المسلمين الأوائل كوثيقة صحيحة" (لوك ٦٨). ويقول لويس-جوزيف-ديلفين فيرود-جيرو بأنه "تم الطعن في صحة هذه الوثيقة" (٣٦). لكن مع ذلك يشير إلىٰ أن "العهدة العمرية" تلمّح إلىٰ معاهدة سابقة كتبها النَّبيّ ﷺ للمسيحيين (٣٦، م١).

لم يتم الاعتراف بـ'العهد النبوي' من قبل العلماء المسلمين القدامىٰ فحسب، بل دافع عنه كتاب مسيحيون أيضاً. إذ كما يشير لايارد (١٨١٧-١٨٩٤م)، فقد "أقر جوهر العهد ثلاثة كتاب سريانيين—هم بارهبرايوس، وماريس، وأمروس (انظر أسيماني، المجلد IV، ص ٥٩). لقد تم نشره أول الأمر بالعربية واللاتينية من قبل غبرييل صيونيتا في باريس سنة ١٦٣٠م، ويطلق عليه عادة اسم 'عهد محمد' Testamentum Mahometi. ويجدر التأكيد هنا بأن غريغوري بارهبرايوس (١٢٢٦-١٢٨٦م) كان أسقفاً في الكنيسة السريانية الأورثودوكسية في القرن الثالث عشر الميلادي. وكان يوصف بأنه الرجل الأكثر علماً وموسوعية في الكنيسة السريانية الاورثودوكسية. ويلخص إدوارد ريهاتسيك (١٨١٩-١٨٩١م) كلام بارهبرايوس في العبارات التالية:

> "وفي هذه الأثناء، شرع محمد في نشر الإسلام بكل ما أوتي من قوة، ويقول عنه بارهبرايوس بأنه تلقىٰ زيارة من البطريرك جيسوجاب برفقة المسمىٰ سيد، كبير مسيحيي نجران، الذي حمل له هدايا ضخمة بنية عقد معاهدة بين المسيحيين والعرب. وقد وافق محمد وأعطاهم شهادة يوصي من خلالها العرب بحماية المسيحيين، وأن لا يهاجموهم ولا يجبروهم علىٰ تغيير دينهم. كما منعهم منعا كلياً من أخذ الجزية من الكهنة والرهبان، ولم يسمح إلا بأخذ أربعة فقط من قطع النقود من عند الفقراء، لكن اثنتي عشرة قطعة من عند الأغنياء. كما أعطىٰ ترخيصاً للمسيحيين لإصلاح كنائسهم، وحث العرب علىٰ مساعدتهم علىٰ ذلك. أخيراً، يمكن للمسيحيين رجالاً ونساءً أن يخدموا في بيوت العرب دون أي إضرار بمعتقداتهم الدينية" (٩٧).

وبينما لا يشير ماثايي أمروس، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، إلىٰ زيارة فعلية، فإنه يتفق عموماً مع رواية بارهبرايوس، حيث يقول بشأن ذلك مايلي:

”ظهر الإسلام فكتب هٰذا البطريرك [جيسوجاب] رسائل إلىٰ زعيم شريعة الإسلام [محمد]، وبعث له هدايا، وطلب منه حماية رعيته هناك، فوافق علىٰ ذلك. ثم بعث جيسوجاب عدة رسائل رائعة إلىٰ صحابته فقدم النَّبيّ هدايا، كان من بينها عدد من الإبل وملابس عدن. وعندما تم إشعار ملك بلاد فارس، أبدىٰ استياءه من أفعال البطريرك والمراسلات، خاصة عند وصول الهدايا. وتبعا لذلك، اعتذر جيسوجاب إلىٰ أن تخلص من غضبه، وعاش إلىٰ وقت [خلافة] عمر بن الخطاب، الذي كتب له رسالة حماية قوية يتعهد فيها أن لا تؤخذ أية ضريبة من خدم أخيه وأنصاره؛ والرسالة محفوظة إلىٰ يومنا هٰذا“. (مقتبس عن ريهاتسيك ٩٨).

إن كتابات بارهبرايوس وأمروس وماريس تقدم دليلا آخر علىٰ براءة الأب سكاليغر (١٥٨٨– ١٦٤٨م)، من تهمة تلفيق معاهدة. إذ لم يكن بإمكانه أن يختلق شيئاً كان موجوداً أصلاً، والذي تم الاعتراف بمضمونه منذ وقت مبكر من قبل علماء مسيحيين سريانيين. وبالفعل فقد كان العرب المسيحيون والمسلمون يؤيدون ‘عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم’ لعدة قرون قبل اكتشافه من قبل الأب روني دي ليسكال باسيفيك دوبروينس (١٥٨٨– ١٦٤٨م)، المعروف بإسم سكاليغر.

وبغض النظر عن العرب، فإن أول باحث أوروبي مؤيد للعهد النبوي هو الأب باسيفيك سكاليغر. ليس لدي أدنىٰ شك بأنه اكتشف ما كان يَعتقد، أو ما قيل له، أنه العهد الحقيقي للنبي مُحَمَّد ﷺ (٥٧٠–٦٣٢م) لمسيحيي العالم. لقد أرسل هٰذا العهد إلىٰ ملك فرنسا بحسن نية كي يتم حفظه للأجيال اللاحقة. لقد تم إعطاء المخطوط الذي كان قد اكتشفه سكاليغر لفرنسوا هوتمان دومارفونتان، وهو قاضي مقرب– ليس فقط من دي راير (١٥٨٠– ١٦٦٠م)، مترجم القرآن، ودائرته، من دارسي الإسلام (Islamologists)– بل أيضاً من ملك فرنسا نفسه. لقد كان هوتمان يعرف صيونيتا جيداً، وكان صيونيتا قد عاش، في الواقع، كضيف محترم في بيته. وهكذا دعا

صيونيتا، باعتباره أستاذاً للغة العربية، لترجمة ذلك العمل إلىٰ اللغة اللاتينية. ورغم أنه كان قد انتُقِد بشأن "تصحيحه" لِما بدا له لغة عربية رديئة 'للعهد الجديد' (M٢٥٤) The New Testament وكانت له بعض الخصومات مع زملائه، فقد حظي صيونيتا أيضـاً بقدر كبير من الثناء (كوجيت ١٠٠). إذن، بعد سكاليغر، كان صيونيتا، وهوتمان، مضيفه وولي نعمته، هما من عملا لصالح إثبات صحة 'العهد النبوي'.

لقد ارتبطت أسماء سكاليغر وصيونيتا وهوتمان باكتشاف 'العهد' وترويجه؛ وسرعان ما تم تعزيز صفهم بعلماء آخرين. مثلاً، يقول كلوديوس سالماسيوس (١٥٨٨ أو ١٥٦٦- ١٦٥٣م) ما يلي:

> "رأيت مؤخراً 'وصية' محمد: ليس لدي أي شك في كونها وصية صحيحة، لكنني تمنيت لو أن المترجم لم يعطها ذلك الاسم؛ إذ أنها لا تشبه وصية. إنها 'عقد' معاهدة وميثاق، أعطىٰ بواسطته المسيحيين الأمان. ويبدو أن إلماسين Elmacin قد أشار إليها في كتابه حياة محمد؛ حيث روىٰ، إنطلاقـاً من تواريخ مسيحية، بأن ذلك المدعي أعطىٰ المسيحيين امتيازات، وعندما جاء عنده بعض المسيحيين الراغبين في الحماية، فرض عليهم ضريبة، ودخل معهم في معاهدة/ ميثاق". (مقتبس عن بايل، ١٧٣٧، ٣٨).

كـان الباحث الكلاسيكي سالماسيوس، واسمه الفرنسي، Claude de Saumaise، يوصف بأنه "شخص ذو معرفة معتبرة وذو 'إلمام واسع' باللغات العبرية والعربية والفارسية ('جمعية نشر المعرفة المفيدة ٣٦٢). وفي ضوء هذه المعرفة الواسعة فإن الرأي الاحترافي لهٰذا العالم اللغوي المشهور لابد أن يكون له وزنه. وتجدر الإشارة إلىٰ أن البروفسور جاكوب ناجي دوهارساني (ولد ١٦١٥م)، الذي ضمّن ترجمة فرنسية لـ 'عهد محمد' في كتابه Colloquia familiar turco-latina، تعامل مع العهد باعتباره جديراً بالتصديق. وعلىٰ غرار سومير، كان ناجي دوهارساني متضلعـاً كذلك في اللغات الشرقية. وبالفعل، فقد أتقن هٰذا الباحث المجري معرفته للغتين التركية والعربية عندما كان يعمل كمندوب لأمير ترانسيلفانيا في الإمبراطورية العثمانية.

ويوضح بيير بايل (١٦٤٧- ١٧٠٦م) بأن "السيد هنكلمان يشاطر رأي سالماسيوس، تماماً كما كان يشاطره السير بول ريكو أيضا " (٣٨). بعد كلامه عن أصل 'العهد'، يوضح ريكو (١٦٢٩-١٧٠٠م) بأن "هناك كتّاباً جيدين جداً يعتقدون بأنه صحيح، وبأنه عُقد في التاريخ المذكور في نهايته... عندما كانت إمبراطورية محمد لا تزال ضعيفة جداً، وفي طفولتها؛ إذ كان آنذاك في حرب مع أهالي الجزيرة العربية، وكان يتخوف من إمكانية إعلان المسيحيين للحرب عليه؛ لذلك، ومن أجل تفادي مهاجمته من قبل عدوين في نفس الوقت، أبرم هذه المعاهدة معهم في دير رهبان جبل الكرمل، وهو الذي اشتق منه هٰؤلاء الرهبان البسطاء اسمهم" (مقتبس عن بايل، ١٧٣٧-٣٨). كما تم قبول 'العهد' بأنه صحيح من قبل يوزيب رينودو (١٦٤٦- ١٧٢٠م)، وهو لاهوتي ومستشرق فرنسي (رهاتسيك ٩٨). وعلىٰ خلاف كل الباحثين الآخرين تقريباً، ممن أصدروا أحكامهم علىٰ أساس النسخ المنشورة للمعاهدة، فإن رينودو، الذي كان متضلعاً تماماً في العربية—وهي اللغة التي تعلمها في صغره — ذهب إلىٰ المكتبة الوطنية فعلاً وقام بفحص المخطوط الأصلي. ونحن متأكدون من ذلك لأنه ترك بالفعل معلومات مسجلة بهٰذا المعنىٰ علىٰ المخطوط ذاته.

كما تم اعتبار 'عهد النَّبِيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' بأنه صحيح من قبل هنري لايارد (١٨١٧-١٨٩٤م)، وبيدرو دي مادرازو (١٨١٦-١٨٩٨م)، و'جمعية أصدقاء الدين والوطن'، وكذلك جايمس تاير أديسون (١٨٨٧-١٩٥٣م). إن بيدر دي مادرازو يعتبر العهد جديراً بالتصديق. ولتدعيم رأييهما يشير لايارد ومادرازو إلىٰ أن كتابات المؤلفين السريانيين الثلاثة القدامىٰ، بار هبرايوس، وماريوس، وأمروس، تؤكد حقيقة وجود هٰذا العهد. وبالنسبة لمادرازو فإن الأخير يعد مثالاً للتسامح الإسلامي تجاه المسيحيين (لايارد ٢٠٧، مادرازو ١٢٣). وفي 'حوليات الدين'Annales de la Religion، تلاحظ 'جمعية أصدقاء الدين والوطن' بأن "التاريخ قد احتفظ بعهد محمد للمسيحيين يحمي ملكيتهم الدينية، لأنه كان أقل صرامة في تثبيت ديانته الزائفة مما كان مضطهدونا في سعيهم لتخريب ديانتنا الصحيحة" (١١٢-١١٣). وهناك أيضاً دفاع مطول عن 'العهد' أنجزه الدكتور أديسون؛ وقد قام بايل بتلخيص أفكاره علىٰ النحو التالي:

"يشير الدكتور أديسون إلىٰ معاهدة 'التحالف'، التي قيل إنها عُقدت بين محمد والمسيحيين؛ ويسجل بعد ذلك آراء العلماء المختلفة حول الوثيقة .... ويقول أديسون إنه يمكن أن نعتبرها كإحدىٰ الوسائل البارعة التي وظفها محمد لتدعيم سلطته، التي كانت آنذاك في بدايتها؛ لكن لما رأىٰ بعد ذلك بأن هذه السلطة قد استتبت بما فيه الكفاية، غيَّر لغته، وأضاف فصولاً كثيرة لقرآنه، حيث أدان الموت والسجن والعبودية ضد الكفار، وهو يقصد بهذه العبارة المسيحيين بشكل خاص". (٢٤١)

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبداية القرن العشرين، اكتسب 'ميثاق محمد'، أو 'عهد محمد لمسيحيي العالم'، قدراً كبيراً من الأهمية في الديبلوماسية الغربية. في سنة ١٨٢٦م، ضمّن غراسي (آلفيو) تعليقاً مفصلاً حول 'عهد محمد للمسيحيين'، في كتابه الميثاق التركي أو التنظيم الديني والمدني والعسكري للإمبراطورية العثمانية (٧٥– ٨٩).

ويقدم هٰذا العمل، المفعم بالطراوة والموضوعية، عرضاً مليئاً بالثناء علىٰ النَّبيّ الذي وصفه بأعظم العباقرة (٦٦) كما وصف 'ميثاق واتفاقيات' النَّبيّ بكونه تحفة سياسية وأخلاقية (٧٥). كما يقدم غراسي أيضاً نقداً نزيهاً للميول العلمية الغربية الذاتية، إذ يعترف بأن "جل المؤرخين، وكلهم مسيحيون، تعاملوا مع محمد بنوع من الازدراء لا يمكن أن يثيره إلا دجال أو معاند طائفي ذو عقيدة مسيحية، وحاولوا أن يحطوا من القيمة الرفيعة لمنجزاته أكثر من محاولتهم تقدير الحقيقة حق قدرها" (٦٦). وعلىٰ خطىٰ أسلافه، ضمّن ألكسندر دوميلتيتز، وهو وزير سابق للملك البروسي لدىٰ الباب العالي العثماني، نسخة من 'الامتياز الذي منحه محمد للمسيحيين' في كتابه المشهور مرشد القناصل، الذي نُشر سنة ١٨٣٨م، (٤٩٦– ٤٩٩). ولم تكن هذه ترجمة جديدة، بل إنها الترجمة الفرنسية للترجمة الإنجليزية للنص العربي الأصلي الذي كان قد تم إدراجها في كتاب ريكو 'تاريخ الواقع الحالي للإمبراطورية العثمانية' (٣١٦–٣٥٨).

في سنة ١٨٨١م، قام إدوارد أ فان دايك، وهو موظف بقنصلية الولايات

المتحدة بالقاهرة، بتضمين ترجمة إنجليزية من 'ميثاق محمد' مع تعليق قصير في كتابه 'معاهدات الإمبراطورية العثمانية'. لكن هذه الترجمة استندت علىٰ الترجمة الفرنسية التي وجدت عند ريكو. ورغم أن فان دايك لاحظ بأن "هناك الكثير ممن يعتبرون هٰذا الميثاق منتحلاً (٨٧)، فإنه هو نفسه يعتبره صحيحاً. لكن فان دايك يعتقد بأن العهد يمثل استراتيجية مبكرة للنبي، تطورت فيما بعد. كما يلاحظ هٰذا الديبلوماسي:

في بداية حكمه، قام محمد، سواء بدافع شعور حقيقي بأهمية التسامح والاعتدال أو من خلال نفاق بارع وجد مدروس، بإعلان مبادئ التسامح تجاه كل الديانات، وخاصة تجاه الدين المسيحي.... إن الفصول الأولىٰ منه مليئة بالثناء علىٰ يسوع المسيح وأمه مريم العذراء، وكان يهدف من وراء هذه السياسة البارعة إلىٰ استمالة المسيحيين لصالحه، ولطمئنتهم بأنه لا يهدد ديانتهم .... صحيح أن محمد غيّر نبرته بعد ذلك تجاه المسيحيين وأصدر قوانين مخيفة ضدهم (فان دايك ٨٥).

من الواضح أن آراء الدكتور أديسون وفان دايك خاطئة. إذ بينما يروي ابن إسحاق ومحدثون آخرون بأن وصية النَّبيّ ﷺ الأخيرة كانت قوله "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب" (٦٨٩)، فإنني لا أشك بأن هٰذا القول قد نُسب إليه فيما بعد كرد فعل لردة العرب وغدر القبائل المسيحية واليهودية التي خانت ثقة المسلمين. لكن محمد حميد الله يرىٰ بأن هٰذا الحديث صحيح ويؤكد بأنه يقتصر علىٰ بعض الجماعات المتمردة ولم يكن حظْراً عاماً (المقدمة ١٥٠). ويؤكد التاريخ بأن اليهود والنصارىٰ واصلوا العيش بعد ذلك في الحجاز لعدة قرون، حتىٰ في الأماكن المقدسة مثل المدينة ومكة (١٥٠). أما عن تأويلهما للقرآن فإن آراء أديسون وفان دايك آراء نفعية ذاتية وغير صحيحة زمنياً، كما أنها غير سليمة من وجهة نظر علم التفسير. إذ أن المفهوم القرآني لمصطلح 'الكفار' أو 'الذين لا يؤمنون' ينطبق علىٰ المشركين لا علىٰ المسيحيين.

ويبدو أن فان دايك لم يكن بصدد فعل بل رد الفعل، أو بعبارة أخرىٰ، كان تفسيره للتاريخ الإسلامي القديم مستجيباً للتطورات الحاصلة في تركيا. فعلىٰ

غرار ما يفعله الكثير من غير المسلمين عندما يفسرون الإسلام علىٰ أساس تصرفات الإرهابيين في العصر الحديث، فإن فان دايك كان يقوم بإسقاط الاضطهاد التركي المزعوم لليونانيين علىٰ النَّبيّ ﷺ. وهكذا اقتبس آيات قرآنية خارج السياق ليوضح سبب "تصرف الأتراك بتلك القساوة خلال الحرب اليونانية لنيل الاستقلال" (٨٥). كما أنه يحيل القراء إلىٰ كتاب موير Muir 'حياة محمد' للاطلاع علىٰ "عهود أخرىٰ مع المسيحيين ومنهج محمد في إخضاعهم لولاء مذل" (٨٧). وبينما يعتقد فان دايك بأن ذلك كان محدوداً في الزمان والنطاق، فقد بقي لديه إعجاب هائل بـ 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم'. وفي انتحال لما قاله غراسي، يكتب فان دايك بأنه "ينبغي اعتبار هٰذا العهد تحفة من التبصر السياسي، وصرحاً من الحكمة والأخلاق والتسامح"(٨٥).

إذا كان النظام الملكي الفرنسي والكثير من دبلوماسييه قد أكدوا صحة 'عهد محمد لمسيحيي العالم' خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإنهم تمسكوا بنفس الموقف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن بين ما جاء في (تقرير) الجلسة ٤٤١ لـ 'لجنة التوجيه العام للمؤتمر الوطني' المنعقدة في ٢٢ يونيو ١٧٩٥م، الاقتراح التالي:

> "بعد قراءة اللجنة للرسالة التي بعثها المواطن لوفيبفر-فيلبرون، فإنها ترىٰ بأنه من المفيد بالنسبة للحوار بين الفرنسيين والأتراك أن يُنشر للعموم ذلك الميثاق المبرم بين محمد والمسيحيين، والذي يرجع إلىٰ القرن الرابع للهجرة. ويُقترح أن يتم طبع الميثاق المذكور من قبل مطبعة الجمهورية باللغة العربية، فضلاً عن الترجمة الفرنسية التي يبقىٰ المواطن لوفيبر-فيلبرون مشرفًا عليها، وسوف يتم نشرها بأعداد كبيرة كافية لتوزيعها علىٰ قناصل الجمهورية في موانئ الشام، وسوف يتم دعوتهم إلىٰ تعميمه في الإمبراطورية العثمانية" (غيون ٣٢٠).

لقد كان الفرنسيون يعتقدون، كما يعترفون هم أنفسهم، بأن من شأن نشر 'ميثاق محمد' أن يشجع الحوار مع الأتراك. كانوا يريدون أن يكون جميع القناصل

الفرنسيين مطلعين علىٰ الوثيقة جيداً وأن يحاولوا نشرها في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية. في الجلسة ٥١١ لـ 'لجنة التوجيه العام للمؤتمر الوطني' المنعقدة في ٢٣ أكتوبر ١٧٩٥م تَمَّ تقديم الاقتراح التالي:

"توصي اللجنة أن تُنشر الترجمة التي أنجزها المواطن لوفيبر-فليبرون لـ 'ميثاق محمد' لصالح المسيحيين، من قبل مطبعة المكتب القانوني بمقدار ألف نسخة، توزع علىٰ أعضاء اللجنة، وترسل إلىٰ جميع المكتبات بالجمهورية وفي موانئ الشام، وتوجه إلىٰ مختلف الباحثين من أوربا. وقد تم تكليف المواطن غريغوري لإتمام البند النهائي لهٰذا الاقتراح (غيوم ٨٢٧).

في غضون عدة أشهر، توسع المشروع، الذي كان موجهاً بالأساس إلىٰ الدبلوماسيين، ليشمل جميع المكتبات في فرنسا وبلاد الشام. وكان سيتم أيضاً إرسال نسخ من العهد إلىٰ كل العلماء البارزين في أوربا. لكن هٰذا المشروع الطموح لترويج 'عهد النَّبيّ لمسيحيي العالم' وصل إلىٰ نهاية غير متوقعة خلال الجلسة ٥١٤ عندما أزيح السيد لوفيبفر فجأة من المشروع وتم استبداله بشخص يسمىٰ السيد لوغراند Mr Legrand (غيوم ٨٥٨). علىٰ ما يبدو، لقد وبّخته اللجنة بسبب سرقته لمخطوط من المكتبة الوطنية (غيوم ٨٥٨، م ٤). حسب معلوماتي، لم ير النور أبداً مشروع ترجمة وطبع ونشر 'ميثاق محمد' الذي تصورته اللجنة. ولعل ما يثير الاهتمام ملاحظة ذلك الفرق بين خطاب 'لجنة التوجيه العام للمؤتمر الوطني' المجتمعة سنة ١٧٩٥م وخطاب م. ج. غيوم، رئيس تحرير 'التقارير الرسمية' Procès Verbaux. إذا كان الساسة الفرنسيون منذ أواخر القرن الثامن عشر يعاملون 'عهد النَّبيّ لمسيحيي العالم' باعتباره صحيحاً وتاريخياً، فإن المحرر غيوم تعامل معه باستهجان. "إن 'عهد محمد لصالح المسيحيين'، يكتب غيوم، "وثيقة عربية ملفقة" (غيوم ٨٣١ ب). وفي مكان آخر، يتحدث غيوم عن "ما يسمىٰ بـ 'الميثاق'، أو 'عهد محمد' المزعوم للمسيحيين" (٨٥٨، م٤). ولم يكن غيوم يعبر فقط عن اختلاف شخصي في الرأي، بل يبدو أنه يجسد تحولاً وجدانياً حصل خلال الانتقال من النظام الملكي الكاثوليكي إلىٰ النظام الجمهوري الفرنسي العلماني. إن العالم الغربي، الذي اعتبر يوما 'ميثاق

محمد' تحفة رائعة من الدبلوماسية والتسامح يُحتذىٰ به، بدأ ينظر إلىٰ المؤسسات الإسلامية بازدراء. إذا كانت الشريعة تُهان يوميًا من قبل أعداء الإسلام في العالم الغربي وحلفائهم في الشرق، فإنه كان ذات مرة مصدر إلهام في أوربا والأمريكيتين. يقول غراسي (ألفيو) وهو يكتب سنة ١٨٢٦م، عن عظمة الشريعة ما يلي:

"إن 'ميثاق محمد' مصُون جداً: إنه موجود، دون تبديل، لعدة قرون، منذ زمن مؤسسه. إن قوانينه تحكم عدداً هائلاً من سكان عالمنا. إن الحكومة التركية والحكومات الأخرىٰ التي تبنّته مدينة في استقرارها وقوتها لمناعته. ليس من حق أي كان أن يقوضه أو يبدله أو يضيف إليه أو يحذف منه صفحة واحدة أو سطراً واحداً أو كلمةً واحدة، وإلا استحق عقوبة الإعدام. إن قوانين هٰذا الميثاق إلزامية علىٰ الغني وعلىٰ الفقير، بل وحتىٰ علىٰ الأمير نفسه". (الصفحة الأولىٰ)

عند تفكيرهما في النظام القانوني المثالي الذي يمكن تطبيقه في الأمريكتين بعد الاستقلال، تحدث كل من سيمون بوليفار (١٧٨٣–١٨٣٠م) وخوصي مارتي (١٨٥٣–١٨٩٥م) عن سمو الإسلام وأفضليته علىٰ الدستور الأمريكي. ويبدو أنه طالما كان المسلمون أقوياء فإنهم كانوا يُعامَلون باحترام وكان يُنظر إلىٰ نظمهم القانونية بإجلال ووقار. لكن، ما إن بدأت القوة الإسلامية العظمىٰ، الإمبراطورية العثمانية، في الاضمحلال، حتىٰ انقلب الإعجاب إلىٰ ازدراء في الوقت الذي حاول فيه العالم الغربي أن يُحكم سيطرته علىٰ آخر ما تبقىٰ من الأقطار التي لم يتم غزوها في العالم الإسلامي. إن الضعف ليس مصدراً للإعجاب، سواء في السياسة أو الاقتصاد، بل القوة والثروة هما اللذان يجلبان التقدير والاحترام. فبينما دافع كثير من العلماء عن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم'، فإن هناك بعض من بقي محايداً. بناء علىٰ القدر المحدود من المعلومات المتوافرة آنذاك، تبنّىٰ جوهان هاينريتش هوتينغر (١٦٢٠–١٦٦٧م) موقفًا حذراً واختار أن يبقىٰ محايداً بخصوص هٰذا الموضوع. لم يستطع أن يدّعي بثقة بأن العهد صحيح وأصيل. كما لم يشعر بأن هناك أدلة كافية لاعتباره مجرد تلفيق. وبينما يعترف لايارد (١٨١٧–١٨٩٤م) بأن هناك ميثاقًا تم إبرامه بين

النَّبيّ ﷺ والنساطرة، فإنه يشير إلىٰ أن العهد الحقيقي الذي وصل إلينا "رُفض من قبل العديد من النقاد الأوربيين بدعوىٰ أنه ملفق، في حين تم قبوله كوثيقة صحيحة من قبل المسلمين والمسيحيين الشرقيين القدامىٰ" (لايارد ٢٠٧). لكن هٰذا التصريح متحيز. إذ بقدر ما قد يكون هناك الكثير من النقاد الأوربيين الرافضين لأصالة وثيقة العهد، فإنه من الصحيح أيضاً أن هناك عدداً كبيراً من العلماء الأوربيين الذين اعترفوا بصحتها. ولذلك فإن لايارد لا يقدم صورة شاملة عن الجدل العلمي حول الموضوع. وينقل لوك Luke أيضاً بأنه "قيل إن إشو-ياهب الثاني (Ishu-yahbII)، الذي كان بطريرك النساطرة زمن الغزو العربي، قام بزيارة النبي، وقد منحه هٰذا الأخيرعقد الامتيازات المعروف باسم 'ميثاق محمد' Testamentum Mahometi(٦٨). وبينما يلاحظ بأن هذه الوثيقة "تم قبولها باعتبارها صحيحة من قبل الكتاب المسلمين" (٦٨)، فإنه يدّعىٰ بأنه "يُنظر إليها حالياً في الغرب بشكل عام بأنها مشكوك في صحتها" (٦٨). لكن هٰذا الادعاء مرة أخرىٰ، غير صحيح في الواقع. إذ لا تزال المعاهدة المذكورة تثير الجدل بين معارضيها والمعترفين بها.

إذا كان الكتّاب الذين حاولوا الالتزام بالموضوعية مقصِّرين، فإن الحالة عند معارضي المعاهدة أكبر جسامة. ويضم هٰذا الفريق المعارض كلاً من هيغو غروتيوس (١٥٨٣-١٦٥٤م)، وجسبرتوس فويتيوس (١٥٨٩-١٦٧٦م)، وجوهانس هورنبيك (١٦١٧-١٦٦٦م)، وبسبيير، هامفري بريدو (١٦٤٨-١٧٢٤م)، وبيير بايل (١٦٤٧-١٧٠٦م)، وايجناز فون دولينغر (١٧٩٩- ١٨٩٠م)، وجوهان لوزنفون موسهيم (١٦٩٣- ١٧٥٥م). وكما يوضح هٰذا الأخير فإن:

> "أولئك الذين يشاركون موقف غروتيوس في رفض 'الميثاق' كانوا يعتقدون بأنه ملفق من قبل الرهبان القاطنين في سوريا وجزيرة العرب تجنباً لعسف أسيادهم المسلمين القساة. ومن غير المستبعد أن يكون هٰذا الافتراض معقولاً. ذلك أنه سبق لرهبان جبل سيناء أن أظهروا مرسوماً مماثلاً أصدره محمد، قالوا إنه صاغه قبل أن تنزل عليه الرسالة؛ وهو مرسوم في غاية الإيجابية والملاءمة بالنسبة لهم، وبعيداً عن أي جدل، قاموا بتلفيقه

احتيالاً. لقد كان الاحتيال واضحاً بما فيه الكفاية؛ إلا أن المسلمين، وهم شعب خال من أي معرفة واسعة، اعتقدوا بكونه وصية حقيقية أصدرها نبيهم، ومازالوا يعتقدون ذلك. لقد تحدث كانتمير عن هذه الخدعة في كتابه تاريخ الإمبراطورية العثمانية، (المجلد ٢، ص ٢٦٩ وما بعدها)؛ وبالتالي فإن الحجة التي يقدمها رينودو وآخرون لصالح العهد الذي نحن بصدده، انطلاقاً من اعتراف المسلمين بصحته، تبقىٰ غير ذات قيمة؛ لأنه في أمور من هٰذا القبيل، ليس هناك شعب يمكن التحايل عليه أسهل من الشعب المسلم الأمي والبدائي. كما أن حجة المعارضين 'للميثاق'، حيث يستندون إلىٰ اختلاف أسلوبه عن أسلوب القرآن، ليست أقوىٰ. إذ ليس من الضروري الاعتقاد بأن محمداً هو نفسه من حرر هٰذا 'الميثاق'، إذ من الممكن أن يكون قد كلف أحد كتبته بذلك. لكن مهما يكن 'الميثاق' نفسه مشكوكاً فيه، فإن موضوعه لا يعتريه أي شك. إذ أن العلماء قد أثبتوا بالحجج الدامغة أن محمداً لم يكن أصلاً ليسمح بإلحاق أي أذىً بالمسيحيين، وخاصة النساطرة منهم (٢٥٥).

إن حجج موسهايم وأسلافه مبنية كلها علىٰ تحاملات وأفكار مسبقة. فبالنسبة لهم، لم يكن من المتصوّر أبداً أنه بإمكان النَّبيّ ﷺ أن يقدم مرسوماً "في غاية الايجابية" مثل هٰذا. إذ لم يكن مُحَمَّد ﷺ، في أذهانهم، رجلاً علىٰ هٰذا القدر من الرحمة. لقد عبر موسهايم ورفاقه عن آراء عنصرية ومتحيزة، بشكل صريح ضد العرب والأتراك. فالمسلمون بالإجمال[في نظرهم] بلداء وجهلاء إلىٰ درجة أنهم غير قادرين حتىٰ علىٰ التمييز بين مرسوم أصيل وآخر مزيف أصدره النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. إن المسلمين، في رأي موسهايم، شعب أمي وبدائي. وبطبيعة الحال فإن معظم المسلمين لا يكنّون أي إحساس ود لموسهايم وأمثاله. ثم بعد ذلك، وفي تغيير مفاجئ لموقفه، يقوم موسهايم بتقويض حججه ويقر بأن 'الميثاق' المذكور، وحتىٰ وهو مزوّر، فإن محتواه صادق، ومؤدىٰ ذلك بالتحديد أن محمداً لم يكن أبداً ليترك المسيحيين، وخاصة النساطرة، يعانون من أي عسف علىٰ أيدي المسلمين. وفي صفعة إضافية زادت من إضعاف حجج موسهايم، تم إدراج حاشية من قبل ناشر علىٰ النحو التالي:

"هٰذا الميثاق هو اتفاق رسمي بين محمد من جهة والنساطرة و"التوحيديين (Monophysites) من جهة أخرىٰ. إنه يعِدهم فيه بالحماية ويعِدونه بالولاء والطاعة. لقد وعدهم بالحرية الدينية الكاملة، ووعدهم بالدعم ضد أعدائه. من الأرجح أن يكون محمد قد اعتقد أنها سياسة معقولة أن يعقد هذه المعاهدة مع هاتين الطائفتين؛ وأن دعمهم له قد يساعد علىٰ إخضاع دول آسيا التي كانت تحت سيطرة الأباطرة اليونانيين (٢٥٤- ٢٥٥).

وقد قام دولينغر بنفس هٰذا الهجوم ذي الحدين، إذ يقول بأن "'ميثاق محمد' المزعوم، الذي أتىٰ به المبشر الكابوتشي باسيفك سكاليغر، ونُشر في باريس سنة ١٦٣٠م، جنباً إلىٰ جنب مع وثيقة أخرىٰ يُعتقد أن النَّبيّ منحها لرهبان جبل سيناء، كلاهما يحملان مؤشرات تدل بأنهما زائفان" (٢٩١). ورغم أنهما يتضمنان حقوقاً مماثلة لتلك التي تم منحها لمسيحيي نجران، فإن دولينغر يدّعي بأن من شأن هاتين الوثيقتين "أن تكونا قد وضعتا المسيحيين في منزلة أفضل من منزلة المسلمين أنفسهم، كما لاحظ تايشسن Tychsen في أطروحته De Muhammoede aliarum religionum sectatores tolerantes (مذكرات مؤسسة غوتينغ(T.XV des Memoires de la société de goettingue) (٢٩١). وفي ما لا يمكن إلا أن يوصف بالحجة التي تأتي بعكس مرادها يقر دولينغر بأن النَّبيّ أبرم معاهدة مع مسيحيي نجران وطوائف مسيحية أخرىٰ (٢٩١). ويبدو بجلاء أن دولينغر كان جاهلاً بنص 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران'. بينما يمكن أن يكون قد قرأ ملخصات عنها عند أبي داوود (توفي ٨٨٩م)، علىٰ سبيل المثال، أو الطبري (توفي ٩٢٣م)، فإنه من الواضح أنه لم يقرأ العهد ذاته. فلو فعل ذلك لكان بإمكانه أن يدرك بأنه مطابق تقريباً في محتواه 'لميثاق محمد'. وبالتالي، فإن كان يعترف بأن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' صحيح، فإنه يعترف ضمنياً بان 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' صحيح علىٰ حد سواء.

عندما سأل أديسون شخصاً يتقن العربية جيداً عن رأيه بخصوص عهد محمد لمسيحيي العالم، أجاب بأنه لما قرأه لازمه انطباع بأنه ملفق (بايل ٢٤١). وقد استدل

الشخص المذكور بفكرة أن تلك المعاهدة لا تشبه القرآن علىٰ الإطلاق (٢٤١). كما أشار كذلك إلىٰ أن المقدمة تفيد بأن باسفيك سكاليغر هو من جاء بالوثيقة من الشرق (٢٤١). ويستنتج من خلال هٰذا بأنه من الأرجح جداً أن تكون الوثيقة قد تم تزويرها من قبل المبشر المذكور (بايل ٢٤١).

لكن مثل هٰذا الجدل بعيد عن الدقة والاحترافية. إن كان هناك أمر واضح بالنسبة لأي باحث في اللغة العربية فإنه يتجلىٰ بالتأكيد في أن القرآن لم يكن من إنتاج عقل أو قلم النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. وفي الواقع، ليس هناك أي شيء مثله في كل الكتابات العربية. إنه كتاب فذ وفريد لا يمكن تقليده. لو تركنا جانباً الأحاديث الضعيفة وقمنا بالتركيز علىٰ نخبة من الأحاديث المعترف بأنها صحيحة سواء من قبل المسلمين أو غير المسلمين، فسوف نجد بأن أسلوب القرآن وأسلوب الحديث مختلفان اختلاف الليل والنهار. لقد كان النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ذا فصاحة بارعة. ومع ذلك، لا يمكن لكلامه أن يضاهي كلام الخالق. إن للقرآن أسلوبه المميز كما كان لمحمد صوته الخاص. لقد كان بالفعل صاحب عدة أجناس خطابية. إن معاهداته ومواثيقه مكتوبة بأسلوب خاص؛ ومواعظه وخطبه الدينية مكتوبة بأسلوب مختلف؛ أما حكمه فجاءت بأسلوب آخر مغاير. وعلىٰ غرار أي نابغة، كان النَّبيّ ﷺ يغير أنماط خطاباته وفق النوع والجمهور المستهدف. ولذلك فالادعاء بان 'عهد النَّبيّ لمسيحيي العالم' وثيقة ملفقة لكونها تختلف عن أسلوب القرآن، هو ادعاء مبني أساساً علىٰ فرضية خاطئة – كما لو أن شكسبير لم يكن بإمكانه بتاتاً أن يكتب مسرحيات تراجيدية وكوميدية علىٰ حد سواء، أو أن يكتب قصائد قصيرة وأخرىٰ مطولة كالملاحم؛ وكما لو أن وليام بلايك كتب فقط قصائد غنائية وملحمية، ولم يكتب أيضاً نصوصاً هجائية ورسائل وتعاليق تفسيرية الخ. إضافة إلىٰ ذلك، لا يمكن أن يكون إتيان الأب سكاليغر بالمخطوطة إلىٰ أوربا من الشرق دليلاً علىٰ أنها مزورة. كل هذه الاستنتاجات ما هي إلا حصيلة لقراءة للعهد النبوي متجذرة في الجهل والتحامل.

بما أن العديد من الباحثين يصدرون أحكامهم انطلاقاً من نظرتهم السلبية للنبي محمد وعدائهم المتأصل للإسلام، فإن أي دليل يقدَّم لوضع أفكارهم المسبقة

موضع التساؤل هو مرفوض علىٰ الفور. فعلىٰ سبيل المثال، يدّعي إدوين إ. جاك بثقة، وهو يحاول ضرب عصفورين بحجر واحد، أن "كلتا الوثيقتين الموجودتين، 'الميثاق' Testamentum و'عهد محمد'، Pactum Muhammedi واللتين تتضمنان الامتيازات السخية لجميع المسيحيين ملفقتان" (٢٠٣). في اعتقاده، لا يمكن أن نتصور أن من شأن محمد أن يمنح مثل هذه الحقوق للمسيحيين. نفس الشيء يمكن أن يقال عن جوهان كارل لوديغ جيزلر (١٧٩٢- ١٨٥٤م) الذي يصرح بأن "كلتا الوثيقتين اللتين ضُمنت فيهما امتيازات معتبرة لكل المسيحيين، مزورتان" (٥٦٣، م ٧)

إذا كان العديد من الدارسين القدامىٰ لعهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم قد انقسموا في ما يتعلق بقضايا صحة الوثيقة، فيبدو أن الوضع سرعان ما تغير. وبهٰذا الخصوص، فإن مراجعة طبعة هامبورغ ١٦٩٠ من 'الميثاق' مفيدة جداً. يقول هنري باسناج دو بوفال (١٦٥٧-١٧٢٠م) ما يلي حول هٰذا العمل المثير للاهتمام:

"إنه عمل فريد من نوعه، إنه نوع من العقد بين محمد والمسيحيين. صحيح أن غروتيوس شكك في صحته، إذ يبدو وكأنه خدعة محمودة (pious fraud). لكن السيد هينكلمان يطمئننا بأن الباحثين تركوا شكوكهم جانباً نظراً لكون النَّصّ العربي قد أتىٰ به الأب باسفيك سكاليغر من الشرق. إن السيد هينكلمان هو ذاته حكم عادل. إن لديه إطلاعاً واسعاً باللغات الشرقية بالقدر الذي يجعل من المستحيل أن ينخدع. إن التاريخ الذي يعود إلىٰ العام الرابع من الهجرة، والموافق للسنة ٦٢٦ من التقويم الميلادي، يعتبر في نظره، دليلاً قوياً علىٰ صحة الوثيقة. ذلك لأن اليهود، كما ينقل أبو الفرج، كانت لهم بعض الصراعات الكبرىٰ مع محمد آنذاك. وهكذا قام هٰذا المحتال الذكي، الذي أراد أن لا ينقلب المسيحيون ضده وأن يؤلم اليهود بهٰذا الاختيار، قام بإعلان نفسه حامياً للمسيحيين. كما أنه أراد أن يبدو لطيفاً ومسالماً لكي يتفادىٰ إثارة الأشخاص، متيحاً بذلك لنفسه بسط نفوذه بصورة أكثر أماناً عن طريق الليونة بدل البطش. هٰذا هو سبب إدراجه مشاعر إيجابية تجاه كل الديانات في القرآن، حيث أعلن أن كل الشعوب دون استثناء، سواء كانوا يهوداً أو نصارىٰ أو غير ذلك، إن كانوا

يؤمنون بالله واليوم الآخر ويفعلون الخير، فلا خوف عليهم من العدالة الإلٰهية. دعنا نَرَ ما تضمنه 'عهد محمد' هٰذا.

في البداية يصف محمد نفسه بأنه "رسول الله" الذي بُعث لدعوة الناس وإعلان الحقيقة التي كُلّف بتبليغها. بعد ذلك يَعِد المسيحيين باسمه واسم أتباعه، قائلاً إنه سيحميهم من كل الأخطار؛ سيحمي كنائسهم وأديرتهم، وسيساعدهم علىٰ إعادة بنائها، وسيعفيهم من دفع الضرائب، شريطة أن لا يزوّد المسيحيون أعداء محمد بالأسلحة أو يمكنوهم من الفرار. ولضمان صلاحية 'الميثاق'، تم التوقيع عليه من قبل ثلاثة وثلاثين مسلماً، ربما لن يدرك المسلمون القوة الشاملة للأسلوب الأسيوي ولا المبالغة الأسلوبية لرسولهم المزعوم[المستعملة في هذه الوثيقة] (باسناج دوبوفال ٨١-٨٢).

هٰذا مقتطف من مراجعة كتاب، تم نشره في 'تاريخ أعمال العلماء' Histoires des ouvrages des savants، وهو عمل متميز نظراً لعدة إعتبارات. فهو أولاً، يؤكد بأن هينكلمان كان يتقن اللغة العربية إتقاناً تاماً. بعبارة أخرىٰ، علىٰ عكس الباحثين الذين رفضوا العهد باعتباره ذا صحة مشبوهة، كان هيكلمان قادراً فعلاً علىٰ قراءته في نصه الأصلي. لقد كان إذن باحثاً يعمل داخل إطار خبرته وتخصصه، ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للآخرين. ومن الجلي أن رأي المتخصص له أهمية تفوق بكثير رأي الشخص الذي لا خبرة له. ولطالما كان يُستشهد بالآراء المكتوبة للكثير من هٰؤلاء النقاد القدامىٰ لعدة قرون، لكن هينكلمان، الذي كان معاصراً لهم، أكد بأنهم غيروا مواقفهم. إذ في الوقت الذي كانوا يعتقدون في البداية أن 'الميثاق' مجرد خدعة، يصرح هيكلمان بأنهم في الأخير تجاوزوا شكوكهم. وبينما كان هناك كثير من الجدل والنقاشات، وكان العلماء منقسمين، فإن هيكلمان يؤكد بأنهم في النهاية توصلوا إلىٰ إجماع حول صحة 'العهد'. كما أن هينكلمان يقدم أيضاً رأياً ذا أهمية بالغة حول توقيت المعاهدة المذكورة. لقد كان النَّبيّ يتمنىٰ أن يعترف به اليهود ويتّبعوه، ولكن رد فعلهم العنيف وخيانتهم للعهد الذي عقدوه معه أجبره علىٰ البحث عن استراتيجية بديلة. وهكذا حول وجهته من اليهود، كما حولها من القدس إلىٰ مكة من

أجل الصلاة، وسعىٰ إلىٰ كسب دعم وتضامن الجماعة المسيحية. بما أنه كان في صراع مع أعداء من الداخل، وبالتحديد اليهود القاطنين في مكة وما حولها، فقد كان هناك خطر كامن علىٰ وضعية النبي: كان بإمكان هجوم من قبل أعداء خارجيين، أي المسيحيين في هذه الحالة، أن يقود إلىٰ انهيار الدولة الإسلامية الفتية. ولذلك، قام رسول الله ﷺ بإبرام، -وفي بعض الحالات- بإعادة إبرام، معاهدات مع الجماعات المسيحية المجاورة. وبدورها، عملت هذه الجماعات كفواصل حاجزة بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية. لقد سبق للنبي ﷺ أن رأىٰ كيف حاول المشركون أن يألبوا عليه المسيحيين الأحباش، وقد تحرك رسول الله وصحابته بسرعة وفعالية لإقامة علاقة الصداقة مع هذه القوة العظمىٰ الجهوية. وقد كان النَّبيّ أيضـًا فطنـًا للتآمر الجاري بين أبي سفيان وهرقل. ونتيجة لذلك، كان رسول الله حكيمـًا عندما كسب ود المسيحيين (الموحدين) المضطهَدين الذين كانوا يعيشون في هوامش الإمبراطورية البيزنطية. بفضل إدراكه الجيد للانقسامات الموجودة في المسيحية والجدالات التي كانت تثير هذه الانقسامات، استغل النَّبيّ ﷺ نقاط الضعف هذه لصالحه، محوّلاً عداوة محتملة إلىٰ صداقة. حاليـًا، نتصور أن الذكاء الاستراتيجي لا ينفصل عن الدجل والنفاق البعيدين عن المبادئ الخلقية، كما لو أن قول المسيح «اعط لقيصر ما لقيصر وما لله لله...» كان مثالاً للمراوغة والمكر الوضيع، وليس تفاديـًا رائعـًا لفخ نَصَبه له «النساخ» والفريسيون، الذين أعطوه كذلك الفرصة لتوضيح مبادئ هامة. علىٰ نحو مماثل، وهب الله محمداً قدرة غير مسبوقة وفرصة للتعبير عن حقائق روحية في صيغة فعل اجتماعي وسياسي.

خلافـًا للنقاد الآخرين الذين ركزوا فقط علىٰ الامتيازات السخية الممنوحة من قبل النَّبيّ في معاهدته، كان لدىٰ باسناج دوبوفال (١٦٥٧- ١٧١٠م) حسـًا سليمـًا عندما اعترف بما حصل عليه بالمقابل. إذ بوجود بعض دويلات فقط شبه مستقلة تفصل المسلمين عن البيزنطيين، أراد النَّبيّ ﷺ أن يبطئ أي تحرك كبير للجنود المسيحيين إنطلاقـًا من الإمبراطورية الشمالية. فبدون حماية ودعم ومؤونة من الجماعات المسيحية في الطريق لم يكن بإمكان الجيش البيزنطي أبداً أن يدخل

الحجاز ويقاتل جيش محمد. كانت الإعفاءات الضريبية، كما كان الشأن مع رهبان جبل سيناء، والضرائب المحدودة كما كان الشأن مع الجماعات المسيحية الأخرىٰ، ثمناً زهيداً تم تأديته لإبطاء التقدم المحتمل لقوات العدو. كان ذلك، بالإضافة، خطوة ديبلوماسية ضرورية خلال الاستعداد للزحف الإسلامي داخل بلاد الشام ومصر وما وراءهما. ويشير باسناج دوبوفال إلىٰ أن 'الميثاق' Testamentum et pactiones يختلف أسلوبه مع أسلوب القرآن. لكن يبدو أنه مدرك بأن هذه معاهدة متواضعة كُتبت بالأسلوب القانوني المستعمل آنذاك، وليست وثيقة، مثل القرآن، برزت في الساحة فجأة باعتبارها معجزة بلاغية ربانية.

في أواخر القرن التاسع عشر، أتىٰ السير ترافيرس تويس (١٨٠٩– ١٨٩٧م) ببعض التعليقات المثيرة للاهتمام بخصوص 'عهد محمد لمسيحيي العالم'. لقد أشار، مثلاً إلىٰ أن [السلطان] مراد الثالث (١٥٤٦– ١٥٩٥م) استعمل مصطلح "الشروط" لوصف الامتيازات الاثنتي وعشرين التي منحها لملكة أنجلترا إليزابيت (١٥٣٣– ١٦٠٣م) (٤٣١). وكما يلاحظ تويس، فإن هٰذا هوالمصطلح نفسه الذي استعمله النَّبيّ مُحَمَّد في معاهدته مع المسيحيين عامة، والذي يعود إلىٰ السنة الرابعة للهجرة (٦٢٥م) (٤٣١). بينما يقر بأن هناك شكوكاً حول صحة هذه الوثيقة القديمة، فإنه يلاحظ بأنها تستعمل مصطلح "الشروط" بطريقة مطابقة تماماً للقرآن (٤٣١).ويؤكد تويس كذلك بان مصطلح "الشروط" قد ورد أيضاً في ثاني أقدم معاهدة إسلامية، ألا وهي 'شروط الخليفة عمر' المعروفة بـ'العهدة العمرية (٤٣٢). إن الدلالات هنا واضحة. تتحدث 'العهدة العمرية' عن "الشروط" المفروضة علىٰ المسيحيين، ويتحدث 'ميثاق محمد' عن "الشروط" المفروضة علىٰ المسيحيين. ويتحدث القرآن نفسه عن "شروط" منح الأمان والحماية للمسيحيين المعاهَدين. بعبارة أخرىٰ، لقد تأثرت 'العهدة العمرية' بـ'ميثاق محمد'، كما تأثر هٰذا الأخير بدوره بالقرآن. يقول تويس عن 'شروط الخليفة عمر':

> لقد تم الطعن في صحة هذه الوثيقة أيضاً. ولكن لا جدال في ما يتعلق بقِدمها. إضافة إلىٰ ذلك، من المعقول افتراض أنه إذا كان كل مما يسمىٰ

> بـ'ميثاق النَّبيّ مُحَمَّد' (الذي يرجع تاريخه إلىٰ سنة ٦٢٥م)، وما يسمىٰ بعهدة الخليفة عمر (التي يرجع تاريخها إلىٰ سنة م٦٣٦) ملفقيْن فإنه، كان مفترضًا في الرهبان الذين ابتدعوهما أن يكونوا حذرين أكثر -خلال تحريرهما لهما- في استعمال لغة ليست من النوع الذي من شأنه أن يفاجئ معاصريهم بعدم ملاءمته للقوانين الإسلامية، وبالتالي، لا يمكن قبوله في المحاكم الإسلامية (٤٣٢).

هذه الحجج التي أتىٰ بها تويس مثيرة للإعجاب. إذا كانت العهدة العمرية قد تم تزويرها في عهد الأمويين أو العباسيين، ما الغاية في قيام المسيحيين بإضافة مواد متعارضة مع المدونة القانونية المعمول بها آنذاك؟ وإذا كان قد تم تزوير 'ميثاق محمد' خلال حكم الفاطميين، فلماذا يقوم الرهبان بتضمين أسماء شهود لم تكن السلطة تنظر إليهم بعين الرضا؟ لماذا لا يلفقون معاهدة موقعة ومصادق عليها من قبل صحابة من أقوىٰ المؤيدين لحق الإمام علي (المتوفىٰ سنة ٦٦١م)، في الخلافة؟ ولماذا طلب التخفيض الضريبي في حين كانت معظم المعاهدات التي أبرمها النَّبيّ ﷺ تطالب الحلفاء بدفع الجزية؟ فكما يرىٰ تويس، لم يكن من الضروري أن تأخذ الامتيازات الممنوحة لأهل الكتاب شكل التزام أحادي الجانب من قبل الخليفة (٤٣٢) (أو حتىٰ من قبل النَّبيّ أيضًا). كان بإمكان ذلك أن يكون اتفاقًا بين طرفين (٤٣٢). إذن، حسب تحليل تويس، يفصح كل من شكل ومضمون 'ميثاق محمد' و'العهدة العمرية'، عن علامات الصحة والأصالة.

في "الرسالة الحادية والأربعين"، من رواية جيوفاني باولو مارانا (١٦٤٢-١٦٩٣م)، 'جاسوس في محاكم الأمراء المسيحيين' (L'Espion dans les cours des princes chrétiens) يشير بطله، وهو جاسوس تركي يعمل لحساب الإمبراطورية العثمانية بمحاكم أوربا، وبالخصوص فرنسا، إلىٰ أنه كان متعوداً علىٰ زيارة المكتبة الملكية. ويروي بأنه خلال عهد الكاردينال مازاري، عثر بالصدفة علىٰ مخطوط كتب عليه: "النسخة الأصلية لميثاق محمد، نبي العرب، مع معتنقي عقيدة المسيح"(١٥٦). وتجدر الإشارة إلىٰ أن هدف الرواية كان يكمن في تقديم صورة عن الرؤية الإسلامية

التركية حول أوربا والشرق للقراء المسيحيين الأوربيين. وكان الكاتب، مارانا، من أولئك اليهود الأندلسيين الذين أُجبروا علىٰ اعتناق المسيحية. وبينما لم يكن ربما قادراً علىٰ التعبير بصراحة عن تقديره للمسلمين والأتراك، فإن أداته الأدبية البارعة أتاحت له حرية غير معهودة للتعبير عن تعاطفه. و يبيّن هٰذا الجزء الرابع، الذي نُشر سنة ١٦٩٧م، معرفة حميمية بـ'ميثاق محمد' ومحتواه إلىٰ درجة الجزم بأن الكاتب قد يكون رأىٰ فعلاً النسخة الأصلية في المكتبة الملكية. يقول متحدثًا عن مخطوط هٰذا الميثاق بأنه "كانت هناك ملحوظة باللاتينية في الأسفل تصرح بأن 'هذه الوثيقة عثر عليها في دير الإخوان المسيحيين بجبل الكرمل'" (١٥٦). ويوضح الجاسوس، الذي يفترض أنه كان يكتب لإبراهيم علي زيد "واعظ السراي" أو إمام الباب العالي العثماني، أن:

> لدي نسخ من هذه المخطوطة الرِّقية وأبعثها لك هنا طَيَّ ظرف مغلق، كي تتمكن من الحكم عما إذا كانت أصلية أو مزورة. إن المسيحيين يؤكدون بأن هٰذا العهد من صنع رسول الله، ولذلك فإنهم يعاتبوننا متّهميننا بأننا لا نطيع مشرِّعنا، ونخرق الميثاق الذي أمضاه وختمه من نسمّيه خاتم الأنبياء؛ وهو ميثاق كان شاهداً عليه أربعة من مسؤولينا القانونيين الأساسيين، أبو بكر وَعُمَر وعثمان وعليّ (١٥٦).

إذا كان مارانا يعكس فعلاً موقف ذلك العصر، وهو ما يبدو أنه يفعله بشكل مقصود، فإن بعض المسيحيين ربما ساندوا 'ميثاق النبي' وحاولوا أن يرفعوه إلىٰ مرتبة أرفع مما فعله الأتراك. يدل ذلك أيضًا بأن الأتراك لم يكونوا متأكدين فيما إذا كان 'العهد' صحيحًا أم لا؛ ولهٰذا السبب كان الجاسوس في حاجة إلىٰ إرساله إلىٰ إسطنبول من أجل إثبات صحته. وإذ توجد بعض الإشارات المتفرقة علىٰ إمكانية رفض الأتراك للعهد، بدعوىٰ كونه مزوراً، كما هو الشأن عند ريكو (١٦٢٩–١٧٠٠م)، الذي صرح بأن "الأتراك ينكرون بأن 'الميثاق' تم عقده بين محمد والمسيحيين" (٣٣٢)، فإن الأغلبية العظمىٰ من المصادر تؤكد بأنهم يعترفون به باعتباره وثيقة صحيحة. لكن جاسوس مارانا التركي الخيالي يباشر معالجة السؤال الوثيق الصلة بالموضوع

والمتعلق بـ: من قام بخرق المعاهدة؟ كما يوضح المرجع الديني الذي يفترض أنه يخاطبه:

> إذا خصصتَ بعض الوقت للتدقيق في هذه المخطوطة، فإنك ستعرف بالتأكيد من خرق هٰذا القانون: نحن أم هم. لو افترضنا أنها، كما يدّعون، ميثاق النبي، فمن الأكيد أنها تمنح عدة امتيازات لأنصار المسيح، مثل تركهم في سلام وحمايتهم ومعاملتهم بمحبة وإعفائهم من الضرائب والجزية وإعطائهم الحرية الدينية والترخيص لهم بالزواج حسب رغبتهم وهلم جراً. لكن من الأكيد أيضـاً أنه لم يمنحهم هذه المسائل إلا بناء علىٰ بعض الشروط، التي كان عليهم أن يلتزموا بها بدورهم، مثل عدم قيام أي واحد منهم بتوفير المأوىٰ لأعداء المؤمنين الحقيقيين، وألاَّ يراسلوهم ولا يزودوهم مباشرة بالأسلحة والخيول والمال أو المسائل الأخرىٰ التي تتطلبها الحرب؛ لكن علىٰ العكس من ذلك، كان عليهم استقبال المسلمين في بيوتهم وإعطائهم فرصة الالتجاء عندهم لمدة ثلاثة أيام وحمايتهم من بطش أعدائهم. وإذا انتهك المسيحيون أيـاً من هذه البنود فإن النَّبيّ يعلن بأن المعاهدة باطلة المفعول ويجردهم من الامتيازات الممنوحة فيها. سوف ترون بأن الطرفين يلتزمان بشكل جدي ومتبادل بالتقيد دينيـاً بمضمون المعاهدة إلىٰ النهاية.

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: من قام بخرق تلك البنود: نحن أم المسيحيون؟ ذلك لأنه إذا أمكن التأكيد بأن المسيحيين هم المعتدون فلا أساس لشكواهم مما حل بهم من بلاء أو اتهامهم للمؤمنين الحقيقيين، كما يفعلون عادة بالاضطهاد والاستبداد؛ إذ من الواضح أن الضرر الوحيد الذي لحقهم جاء نتيجة انتهاكهم للقانون الذي سبق الاتفاق حوله. إن نكوصهم قد فسخ ذلك العهد مع الله ونبيه وأبعدهم عن الامتيازات التي كان بإمكانهم المطالبة بها لأنفسهم لو أنهم راعوه بإخلاص من جانبهم. مهما يكن من أمر، فإن اللوم لا يمكن توجيهه إطلاقـاً للنبي: فليحمل وزر هذه الجريمة أولئك الذين اقترفوها.(١٥٦-١٥٧)

إن حجج بطل جيوفاني باولو مارانا ليست بدون أصداء. فإذا كان هناك، ولا

يزال، كفار يرغبون في استغلال عهود النَّبيّ لإكراه المسلمين، عن طريق إشعارهم بالذنب، علىٰ الخضوع، أو لإقناعهم لدعم مخططاتهم الجيوسياسية في العالم الإسلامي، فإن عهود محمد توضع موضع التنفيذ العملي فقط وبصورة استثنائية عندما يتعلق الأمر بأهل الكتاب المسالمين. "لكننا نحن الخيّرون" سيقول بعض الغربيين؛ "نحن نريد فقط أن نأتيكم بفضائل الحرية والديمقراطية،" في الوقت الذي يغزون ويسيطرون ويستغلون الأمم الإسلامية المقهورة. من هنا تأتي ثنائية "المسلم الطيب" و"المسلم القبيح" التي فضحها محمود ممداني بشكل بليغ. إن "المسلم الطيب" هو الذي يساند الإمبريالية الغربية، أما "المسلم القبيح" فهو من يعارض هٰذا المخطط الاستعماري. في إعادة للأخطاء التي إرتكبوها في الماضي، والمتمثلة في التحالف مع القوىٰ المسيحية ضد الكيانات السياسية الإسلامية، فقط ليكتشفوا بعد ذلك بأنهم خُدعوا من قبل حلفائهم، يناصر حكام بعض الدول ذات الأغلبية المسلمة المسيحيين العلمانيين من الولايات المتحدة وأوربا الغربية لتدمير وقلب نظام أي دولة مسلمة تحاول أن تحقق لنفسها قدراً ولو بسيطاً من الاستقلال والسيادة. هٰذا لا يعني أن 'عهود النبي' لاغية وعديمة القيمة. بل علىٰ العكس من ذلك، أنا مقتنع بأنها تبقىٰ مرجعية قائمة بذاتها، وهي قابلة للتطبيق إلىٰ يوم القيامة. لكنها تنطبق حصرياً علىٰ الجماعات المسيحية المسالمة، سواء كانت تعيش كأقليات وسط أغلبيات مسلمة أو تشترك في نفس البلد مع عدد أقل أو أكثر من غير المسلمين، أو تعيش في دولها المستقلة، حيث تشكل الأغلبية الساحقة. في الحالة الأخيرة، يحق للمسلمين أن ينتظروا، بل في الحقيقة، يحق لهم أن يطالبوا بأن تحصل الأقليات المسلمة التي تعيش في الدول المسيحية أو العلمانية الليبرالية علىٰ نفس الحقوق التي يحصل عليها أهل الكتاب داخل الدولة الإسلامية التي تعترف بـ"عهود النبي" وتعمل وفقها.

تَعْلِيق على مُحْتَوىٰ العَهْد (١٦٣٠)

خلافـًا للعرف، لا يبتدئ 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' بالبسملة، وهي عبارة عن إبتهال إسلامي تقليدي تُـفتتح به الوثائق. ومن الواضح أن طمسها جاء نتيجة قرار تحريري اتخذه غبرييل صيونيتا، إذ لا يسع المرء إلا أن يفترض بأن 'العهد افتُتح بكلمات "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو إحدىٰ تنويعاتها الكثيرة التي تتضمن صفات أخرىٰ للألوهية. وعلىٰ الفور يقدم كاتب 'العهد' نفسه ويثبت سلطانه ويوضح الدافع الذي جعله يكتب:

> كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، عَلَى وَدِيعَةِ اللَّهِ فِي حَقِّهِ [خلقه]، لِتَكُونَ حُجَّةَ اللَّهِ سِجِلَّ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي مَشْرِقِ الأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا، وفَصِيحِها وأَعْجَمِها، قَرِيبِهَا وَبَعِيدِهَا، ومَعْرُوفِها ومَجْهُولِها.

محمد هو رسول الله الذي بُعث بشيراً ونذيراً، ليس للعرب فحسب، بل للبشرية جمعاء. بما أن الاسم الذي يشير إليه المفعول به الثاني لا يكون دومـًا واضحـًا فـي اللغة العربية، فإنه يمكن تفسير هذه الجملة بصيغ مختلفة. من هو أهل لرعاية الله: الناس أم النبي؟ ماالمقصود/ أو من المقصود بحجة الله: 'العهد' أم نبي الله؟ إن القراءة التي قدمتُها تمثل إمكانية واحدة فقط، ويمكن أن يقدم مترجمون آخرون قراءات أخرىٰ. إن عبارة "وديعة الله" مثلاً، تتحدىٰ الترجمة. لقد ترجمها فان دايك بعبارة "منبثقة من الله" وبهٰذا جعلها تحيل علىٰ الدين المسيحي. أما بوكوك Pococke فيترجمها بـ"الحارس اليقظ للعالم أجمع"، في حين يكتب أرندايل "أمين الله المؤتمن علىٰ رعاية جميع المخلوقات." وتقترح الترجمة الإنجليزية لـ: م. موشين، التي تظهر عند بارون ماري جوزيف دوجيرامب، عبارة "حبيب الله، الساهر علىٰ كل مخلوقاته." وتقترح ترجمة سكروبوتشا عبارة "وعود الله"، في حين يكتب أنطوان ف. حداد "كأمانة من الله." وبينما يمكن أن تحمل عبارة "وديعة الله" معاني عديدة، فإنني مقتنع نسبيـًا بأنها تعني، في هذه الحالة، بأن المسيحيين هم وديعة (أو أمانة) من الله ضمن مخلوقاته. ثم يواصل النَّبيّ ﷺ كلامه ليصف طبيعة 'العهد' وما يتضمنه:

كِتَابًا جَعَلَهُ لَهُمْ عَهْدًا مَرعِيًّا، وسِجلاً مَنْشُورًا، وَصِيَّةً مِنْهُ تُقِيمُ فِيهِ عَدْلَهُ، وَذِمَّةً مَحْفُوظَةً.

إن 'العهد' وثيقة قانونية: ميثاق، مرسوم، عقد وقرار ملزم؛ إنه شهادة وعهد ووصية أخيرة، ومجموعة من النصائح الأخيرة، إن استعمال كلمة "وصية" التي تعني عهداً وميثاقاً نهائياً، تدل علىٰ أن هٰذا العهد ليس وثيقة عابرة أوعزتها دوافع سياسية، أو اتفاقاً ظرفياً يمكن إلغاؤه بسهولة. فإذا كنا نتعامل مع وصية نهائية للنبي، فيجب أن تُحترم من قبل المسلمين ولا يمكن تبرير خرقها إلا في حالة حصول انتهاكات جسيمة لها من قبل المسيحيين. هذه ليست كلماتي وإنما هي كلمات رسول الله ذاته:

مَنْ كَانَ بِالإسْلامِ مُتَمَسِّكًا، وَلِما فِيهِ مُتَسَاهِلاً مِنْ صَنِيعِهَا، وَنَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي فِيهَا وَخَالَفَهُ إلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَعَدَّى فِيهِ مَا أَمَرْتُ بِهِ، كَانَ لِعَهْدِ اللَّهِ نَاكِثًا، ولِميثاقِه نَافِيًا، وبذِمَّتِهِ مُسْتَهِينًا، سُلْطَانًا كَانَ أَوْغَيْرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ.

إن الالتزام بـ'عهد النبي' قد سُوّيّ بالإيمان والتمسك بالإسلام، بينما خرقه يعني عكس ذلك. وقد تم تنبيه المسيحيين أيضاً إلىٰ أن أي خلاف أو تمرد بخصوص 'العهد' سيبعدهم عنه فعلياً. إذا كان الرسول ﷺ قد أخذ بزمام المبادرة عدة مرات للاتصال بالجماعات الأخرىٰ، فقد كان 'العهد' المعني استجابة لطلب، كما يتضح من خلال ما يلي:

"فبدأتُ بِإعْطاءِ الْعُهُودِ عَلَى نَفْسِي، وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي يَسْألونَهَا عَنِّي وعَنْ جَمِيعِ أَهَالِيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِأَنْ أُعْطِيَهُمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ، وَ ذِمَّةَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَذِمَّتِي وَمِيثَاقِي أَشَدُّ ما أَخَذَ اللَّهُ عَلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ وَإِيتَاءِ الْفَرِيضَةِ وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ".

هناك خاصية لافتة للنظر بخصوص هٰذا العهد تتمثل في استعمال كلمة 'أهالي' [كذا] التي توحي بقراءة شيعية. فأنصار علي يقرِنون النَّبيّ دائمـاً بـ'آل البيت'؛ وهكذا، عندما يُصلّون علىٰ رسول الله فإنهم عادة يصلون علىٰ آل بيته أيضـاً. وبينما يقوم أهل السنة بتضمين جميع المسلمين في عائلة الرسول، فإن الشيعة يدققون كثيراً فيما يتعلق بمن هم المشمولون ضمن أهل البيت (٣٣:٣٣)؛ وهم الخمسة المطهرون: الرسول ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين. ويواصل رسول الله ﷺ كلامه بالقول إن المسيحيين محميون تحت رعاية الرسل والأنبياء —وهو آخرهم —وتحت رعاية أولياء الله وأصفيائه. بالنسبة للتكفيريين، تعتبر هذه الأفكار بمثابة بدعة وهرطقة. إذ حسب أولئك السنيين الذين لم يتحولوا إلىٰ سلفيين نتيجة أموال الدعاية الهائلة، فإنه يوجد ضمن "الأولياء الصالحين" مجموعة هامة من الأشخاص الورعين سواء في الماضي أو الحاضر. أما بالنسبة للشيعة فإن الأولياء والأصفياء هم بالتحديد فاطمة الزهراء وعلي والأئمة الإحدىٰ عشر المتعاقبون من نسلهم. إن كانت هذه هي القراءة الصحيحة، وإن كان الرسول ﷺ قد أعطىٰ بالفعل هٰذا العهد باسمه هو واسم ذريته، فيمكن اعتبار هٰذا دليلاً إضافيـاً لشرعية الإمامة. وبعد ذلك، يأخذ النَّبيّ علىٰ نفسه عهداً بـ..

> "أَنْ أَحْفَظَ قَاصِيَهُمْ فِي ثغوري بِخَيْلِي وَرِجَالِي وَأَعْوَانِي وَأَتْبَاعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَدُوِّ، بَعِيداً كَانُوا أَمْ قَرِيباً، سِلْماً كَانُوا أَمْ حَرْباً، وَأُؤَمِّنَهُمْ وَأَذُبَّ عَنْهُمْ وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَمُصَلاَّهُمْ وَمَوَاضِعِ الرُّهْبَانِ مِنْهُمْ وَمَوَاطِنِ السِّيَاحَةِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَمَا وُجِدُوا، فِي جَبَلٍ أَوْ وَادٍ، أَوْ مَغَارةٍ أَوْ عُمْرَانٍ، أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ بِنَاءٍ، وَأَنْ أَحُوطَ دِينَهُمْ وَمُلْكَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا، فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فِي شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ، بِمَا أَحُوطُ بِهِ نَفْسِي وَخِلَّتِي وَأَهْلَ مِلَّتِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ".

عندما يتعهد النَّبيّ ﷺ بأن يحمي طوائف مسيحية محددة مثل الروم الأورثودوكس والآشوريين والأرمن وغيرهم فإن التزامه لم يكن مقتصراً علىٰ بلاد

الإسلام، بل كان يتسع ليشمل أي مكان يوجد فيه حلفاؤه. علىٰ سبيل المثال، لو تمت مهاجمة الأرمن من قبل البيزنطيين فقد كان النَّبيّ ﷺ سيرسل جيوشه لحمايتهم والدفاع عنهم. إذن، فقد كانت الدولة الإسلامية تدافع عن رعاياها بغض النظر عن ديانتهم سواء كانوا داخل الدولة أو خارجها. ويضم هٰذا المقطع أيضـًا نخبة نادرة من المصطلحات، وبوجه خاص كلمة خاتمي ورغم أنني ترجمتها بـ'الخَلَف' اعتباراً للسياق، فإن الكلمة تعني حرفيـًا 'أختام'، وقد وردت في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣٣: ٤٠). هناك أيضـًا عدد كبير من الأحاديث بهٰذا المعنىٰ. إذا كان النَّبيّ ﷺ قد تكلم فعلاً عن أختامه، فإنه من الممكن أن تعني هذه 'أختام الإمامة' وليس 'أختام النبوة'. فحسب المعتقدات الشيعية، لم يسبق لباب الهداية الربانية أن أُقفل أبداً. فعندما انتهت النبوة، فُتح باب الإمامة، ويعتبر الإمام علي أول إمام، أما آخر إمام فهو محمد المهدي، آخر الأئمة الإثني عشر. هذه، بطبيعة الحال، إحدىٰ القراءات فقط. إذ من الممكن أن تكون الكلمات الواردة مثل 'أهالي' و'خاتمي' قد أسيئ فهمها. إن كان الحال كذلك، فقد يساعدنا هٰذا في تحديد الموقع الجغرافي الأصلي الذي صدر فيه 'العهد'. فبالإمكان أن يكون قد مر عبر أيدي شيعة بلاد الشام، وهي ما يُعرف حاليـًا بلبنان وسوريا. ورغم إمكانية القراءات الشيعية والسنية والصوفية والمسيحية، التي يمكن إدراكها من خلال اختيار الكلمات المستعملة لنقل مجموعات ملتبسة من الحروف الصوامت، فإن أمر النَّبيّ واضح:

> "وأَنْ أُدْخِلَهُـمْ فِي أَمَـانِي مِنْ كُلِّ أَذىً وَمَكْرُوهٍ وَسَوْءَةٍ وَتَبِعَـةٍ، وَأَنْ أَكُونَ مِنْ وَرَائِهِـمْ دَارِئـًا عَنْهُـمْ كُلَّ عَـدُوٍّ يُرِيـدُنِي وَإِيَّاهُـمْ بِنَفْسِي وَأَتْبَـاعِي وَأَعْوَانِي وَأَهْـلِ مِلَّتِي".

بما أن الرسول محمد هو نفسه من يحمي حلفاءه المسيحيين فإن معارضة ميثاقه يعتبر بمثابة ارتداد عن الدين. لكن الالتزام بهٰذا 'الميثاق' وحماية المسيحيين المسالمين الذين يعيشون تحت ذمة الإسلام سوف يُظهران المسلمين بمظهر من يمثل

الرسول لدىٰ شعوب العالم. إذا كان النَّبيّ مُحَمَّد رحمة للعالمين فلأنه كان إنعكاساً لـ"أرحم الراحمين". إذ بوصفه قرآناً يمشي علىٰ الأرض، كان النَّبيّ ﷺ يتمثل كل صفات الله تعالىٰ. لكن يبدو أن المسلمين ينسون، أو أنهم ببساطة لا يعيرون أي اهتمام لمسألة أن جميع أعمالهم تنعكس علىٰ سمعة النَّبيّ ﷺ. وهكذا، فبإمكانهم أن يكونوا إما مفخرة للرسول ﷺ أو عاره الشنيع.

ويوضح النَّبيّ التزاماته علىٰ هٰذا النحو:

"وَأَنَا ذُو سُلطَةٍ عَلَيْهِمْ، وَبِذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيَّ رَعْيَهُم وَحِفْظَهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَأَنْ لاَ يَصِلَ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَصِلَ إِلَيَّ وأَصْحَابِي الذّابِّينَ عَنْ نصيبة الأمْر".

هذه هي القاعدة الذهبية التي تشترك فيها كل الأعراف الدينية العظمىٰ. وقد أثار معنىٰ عبارة 'نصيبة الأمر' كثيراً من الجدل والنقاش في صفوف اللغويين العرب الذين استشرْتُهم. فبعد كثير من البحث، استنتجوا بأنها مشتقة من 'نسب'/ 'ينسب'، بمعنىٰ 'عزا'/ 'يعزو'؛ ومن هنا فالمعنىٰ هو 'السلطة المنسوبة'. وكما لاحظ زملائي، فإن هذه العبارة كانت مستعملة غالباً في النصوص الشيعية، وهو الأمر الذي قد يساعد علىٰ تسليط بعض الضوء علىٰ تلك العبارة 'المشفرة'. إن الشرط الأول الذي قدمه النَّبيّ ﷺ يخص الميدان الاقتصادي بما أن الاقتصاد هو أساس المجتمع السليم:

"وَأَنْ أَعْزِلَ عَنْهُمْ الأَذَى فِي الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْمِلُ أَهْلَ الْعَهْدِ مِنْ الْعَارِيَةِ وَالْخَرَاجِ، إلاَّ مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، وَلا يَكُونُ عَلَيْهِمْ جَبْرٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ فِي ذَلِكَ".

ما يقصده رسول الله هنا بـ'العارية' غير واضح. لكن في الماضي كان الناس، في حالات كثيرة، يُعِيرون القوة البشرية والخيل والأسلحة ومسائل أخرىٰ للدولة خلال ظروف معينة. كما كان عليهم أيضاً أن يدفعوا ضريبة علىٰ الأرض. وكبادرة حسن نية، عارض النَّبيّ كلا الأمرين. وبعد هٰذا الشأن الاقتصادي، يلتفت النَّبيّ إلىٰ مسألة أخرىٰ، فيتعهد بمنح حرية الحركة والحرية الدينية:

"ولاَ يُنْفَى أُسْقُفٌّ عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ، وَلا نَصْرَانِيٌّ عَنْ نَصْرَانِيَّتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ سَائِحٌ عَنْ سِيَاحَتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ صَوْمَعَتِهِ، وَلا يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ كَنَائِسِهِمْ، وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَلاَ فِي مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ وَعْدَ اللَّهِ، وَخَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ، وَخَانَ ذِمَّةَ اللَّهِ".

وبما أنه تم عقد المعاهدة التي نحن بصددها مع جماعة دينية، وهي علىٰ ما يُعتقد طائفة دير جبل الكرمل في الأرض المقدسة (فلسطين)، فقد نصت علىٰ أن "لَا يُحَمَّلَ الرُّهْبَانُ وَلاَ الأسَاقِفَةُ وَلاَ جميعُ من يُلزم بثمنه، شَيْءٌ مِنَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ إلا أن تطيب بذلك أنفسُهم." ولكن هٰذا الإعفاء الضريبي محدود في المؤسسات الدينية. وبينما تمت حماية الناس العاديين من الزيادة والإفراط في دفع الضرائب، فقد نصت المعاهدة علىٰ ما يلي:

"أَنْ لاَ يُحَمَّلَ الرُّهْبَانُ وَلاَ الأَسَاقِفَةُ وَلاَ جَمِيعُ مَنْ لَمْ يَلْزَمْ بِثَمَنِهِ، إِلاَّ أَنْ تَطِيبَ بِذَلِكَ أَنْفُسُهُمْ، وَلاَ يُجَاوِزُوا الْجِزْيَةَ عَلَى أَصْحَابِ التِّجَارَاتِ الْعِظَامِ، وَالغَوَّاصِينَ وَالَّذِينَ يُخْرِجُونَ مَعَادِنَ الْجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَذَوِي الأَمْوَالِ الْجَمَّةِ وَالْقُوَّةِ، مِمَّنْ انْتَحَلَ النَّصْرَانِيَّةَ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا فِي كُلِّ عَامٍ، إِذَا كَانُوا فِي الْمَوْضِعِ قَاطِنِينَ وَبِهِ مُقِيمِينَ".

إن دفع الضرائب، في برنامج النَّبيّ ﷺ، يقتصر علىٰ السكان المقيمين ولا يتعداهم ليشمل المسافرين والرحل إلا في حالة وراثتهم لأراضي يكون للحاكم حق فيها:

"وَأَنَّهُ لَيْسَ لِعَابِرِ سَبِيلٍ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَاطِنِي الْبَلَدِ مِمَّنْ لاَ يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ الْخَرَاجَ وَلاَ الْجِزْيَةَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي يَدِهِ مِيرَاثُ الأَرْضِ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ مَالُ السُّلْطَانِ مِنْ حَقٍّ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ عَلَى مَا يُؤَدِّي غَيْرُهُ، وَلا يُتَجَاوَزُ عَلَيْهِ وَلاَ يُحَمَّلُ مِنْهُ إلاَّ مِقْدَارُ طَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ".

وقد شمل النَّبيّ العمال بعناية خاصة. فبينما لم يكن يرغب في خنق ملاك العقارات، فإنه لم يرد كذلك إرهاق العمال بدفع ضرائب ثقيلة.

"وعَلَى مَنْ يَجُوزُ مِنَ الأَرْضِ وَمَارَتِهَا وَإِقْبَالِ ثَمَرِهَا لاَ يُكَلَّفُ شَطَطًا وَلاَ يُجَازُ بِهِ عَنْ حَدِّ أَصْحَابِ الخَرَاجِ مِنْ نُظَرَائِهِ".

وفي التفاتة منه إلىٰ الأمور العسكرية، يوضح رسول الله بأن غير المسلمين من أهل الذمة لا يخضعون للخدمة العسكرية:

"لا يُكَلَّفُ أَهْلُ ذِمَّةٍ الْخُرُوجَ مَعَ الْمَلاِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدُوِّهِمْ لِمُلاقَاةِ الْحَرْبِ وَمُكَاشَفَةِ الأَقْرَانِ، لأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ، وَإِنَّمَا أُعْطُوا الذِّمَّةَ عَلَى أَنْ لاَ يُكَلَّفُوا، وَأَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ ذَبَّابِينَ عَنْهُمْ مُحْرِزِينَ مِنْ دُونِهِمْ، وَلا يُكْرَهُونَ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ الَّتِي يَلْقَوْنَ فِيهَا عَدُوَّهُمْ، وَلاَ بِقُوَّةٍ مِنْ خَيْلٍ وَسِلاحٍ إِلاّ أَنْ يَتَبَرَّعُوا، فَيُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَبَرَّعَ بِهِ وَعُرِفَ لَهُ ذَلِكَ وَكُفِيَ عَلَيْهِ"

إن أسلوب 'الدعوة' أو نشر العقيدة الإسلامية لا يعتمد علىٰ القوة، بل إنه أسلوب المثال والتبليغ الصحيح والذكي. إن موقف النَّبيّ ﷺ بخصوص الحقوق الدينية يشكل سابقة تاريخية:

"وَلاَ يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنَ الإِسْلامِ كُرْهًا، وَلاَ يُجَادَلُ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُخْفَضُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ، وَيَكُفُّ عَنْهُمُ الأَذَى وَالْمَكْرُوهُ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا".

في مجتمع إسلامي، يتمتع الناس بحرية العقيدة، إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (٢:٢٥٦). والمسيحيون، مثل كل الأفراد الآخرين، يُعامَلون بلطف وعطف وكرم. ومن الواجب حمايتهم ضد أعدائهم سواء كانوا من الداخل أو الخارج. وليس هٰذا

كل ما في الأمر:

"وإِنْ جَرأ أَحَدٌ مِنْ النَّصَارَى جَرِيرَةً أوْ جَنَى جِنَايَةً، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَصْرُهُ وَمَنْعُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ وَالغَرْمُ عَنْ جَرِيرَتِهُ وَالدُّخُولُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَصَابَ مِنَّا عَلَيْهِ، وَإِمَّا فِدَاءً يُفَادى بِهِ".

إذا إرتكب عضو من إحدىٰ الأقليات خطأ، فليس هٰذا مدعاة لحمل السلاح أو حجة لاقتراف مذبحة. إنها دعوة للهدوء والتعقل والمصالحة، وليس ذريعة لارتكاب مذبحة جماعية ضد من هم مختلفون عنا. وعلىٰ المسلمين واليهود والمسيحيين، وفي الحقيقة جميع المؤمنين، أن يدركوا بأن من واجبهم أن يقفوا وقفة رجل واحد ضد الإلحاد. إذ كما يوضح النبي، كل الذين آمنوا هم بمثابة جسد واحد:

"وَلاَ يُخْذَلوا وَلا يُرْفَضُوا، بَلْ أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا لَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا عَلَيْهِمْ، بِالْعَهْدِ الَّذِي اسْتَوْجَبهُ حَقُّ الرِّعَاءِ وَالذَّبُّ عَنْ الحُرْمَةِ، بِهِ اسْتَوْجَبُوا بِذَبٍّ عَنْهُمْ كُلَّ مَكْرُوهٍ، وَيَدْخُلُ لَهُمْ فِي كُلِّ مِرْفَقٍ، حَتَّى يَكونَ المُسْلِمونَ شِرْكًا فِيمَا لَهُمْ وَفِيمَا عَلَيْهِمْ".

رغم أن هناك وحدة في التعدد الديني، فليس هناك مجالاً للتوفيقية. فالمساواة لا تعني أن الكل متطابق. فكل منظومة دينية لها تماسكها الذاتي المستقل. وكل دين هو بمثابة نظام بيئي ecosystem. والجمع بين نظامين من هٰذا القبيل من شأنه أن يحدث اختلالاً في التوازن الايكولوجي (البيئي). فبقدر ما أن هناك حدوداً أو حواجز في الطبيعة والكون، فإن هناك أيضاً بعض الحواجز بين الديانات يجب مراعاتها. هٰذا يشمل، علىٰ سبيل المثال، بعض أنواع الزواج المختلط الذي يمكن أن يسبب صراعات داخل الأسر والمجتمع. ولهٰذا يقرر النَّبيّ ما يلي:

"وَلَهُمْ أَنْ تَحْمِلَ مِنْ أَمْرِ النِّكَاحِ شَطَطًا، وَلاَ يُكْرِهُوا أَهْلَ الْبِنْتِ

مِنهُمْ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُضَارُّوا فِي ذَلِكَ إِنْ مَنَعوا خاطِبًا وأَبَوْا تَزْوِيجًا، فإنَّ ذلكَ لاَ يَكُونُ إلاَّ بِطِيبِ أَنْفُسِهِمْ وَمُسَامحَةِ أَهْوَائِهِمْ إنْ أَحَبُّوهُ وَرَضَوْهُ، وَإِذَا صَارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ فِي بَيْتِ الْمُسْلِمِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَ هَوَاهَا فِي دِينِهَا مِنَ الاِقْتِدَاءِ بِرُؤَسَائِهَا وَالأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا، وَلاَ يَمْنَعُهَا فِي ذَلِكَ وَلاَ يُكْرِهُهَا عَلَى تَرْكِهَا وَلاَ يُضَارَّهَا فِي تَرْكِ دِينِهَا، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَأَكْرَهَهَا عَلَيْهِ، فَقَدْ أَخْلَفَ عَهْدَ اللهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِ اللهِ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ".

في الوقت الذي قد لا يتفق المسلمون مع المسيحيين في كل المسائل العقدية أو المذهبية، فإن عليهم احترام المسيحية باعتبارها تجليًا لرسالة إلٰهية. رغم أن بعض المعتقدات والممارسات المسيحية هي، من وجهة نظر المسلمين خاطئة، فإن الكثير من المعتقدات المسيحية صحيحة من المنظور الإسلامي. وهٰذا صحيح أيضًا بالنسبة لليهودية. إذ أن نقاط التشابه بين الإسلام والمسيحية واليهودية تفوق بكثير نقاط الاختلاف. فالإساءة للمسيحية هي إساءة للمسيح بقدر ما أن الإساءة لليهودية هي إساءة لموسىٰ. ليس لدىٰ المسلمين 'تفويض مطلق' لتشويه سمعة الديانات السماوية ثم يلتجئون إلىٰ الصراخ والعويل عندما يُهاجَم الإسلام. يجب علىٰ اليهود والمسيحيين والمسلمين أن يدافعوا عن بعضهم البعض لدرء هجوم النظام العالمي الجديد العلماني، هٰذا النظام الذي يعمل جاهداً علىٰ تدميرهم جميعًا. إن المسيحيين، كما يعلم النَّبيّ ﷺ جيران للمسلمين. ولذلك فليس علىٰ المسلمين أن يمنحوا حرية العقيدة للمسيحيين ويوفروا لهم الحماية فحسب، بل من واجبهم كذلك أن يعاملوهم بمودة وحسن جوار، ولهٰذا ينص النَّبيّ ﷺ علىٰ ما يلي:

"وَلَهُمْ إنْ احْتَاجُوا إلى مَرَمَّةِ كَنَائِسِهِمْ أَوْ صَوامِعِهِم أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ إِلَى مَرْفَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَعُونَةٍ عَلَى مَرَمَّةٍ، أَنْ يَرْفُدُوا عَلَيْهِ وَيُعَاوِنُوا وَلاَ يَكونُ ذَلِكَ دَيْنًا، بَلْ مَعُونَةً لَهُمْ عَلَى مَصَالِحِ

دِينِهِمْ، وَوَفَائِهِمْ بِعَهْدِ رَسُولِ اللّهِ هِبَةً مُوْهَبَةً لَهُمْ، ذِمَّةَ اللّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِ اللّه عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ".

رغم أن هذه الوصية كان يُعمل بها خلال عهد الخلفاء الراشدين، فإنه سرعان ما تم التخلي عنها بعدئذ وحتىٰ نهاية العهد العثماني. لم يكن المسلمون مجبرين علىٰ حماية الكنائس والأديرة المسيحية فحسب، بل كان يُفترض أن يقوموا بالمساعدة علىٰ بنائها. ورغم أن الحكام ابتداء من الأمويين إلىٰ العثمانيين منعوا هدم الكنائس، فإنهم منعوا كذلك إصلاحها أو بناءها، علىٰ أمل أن يتم الامتصاص أو الاستيعاب التدريجي للمسيحيين داخل المجتمع الإسلامي. قد تكون تلك عملية بطيئة وسلسلة وتدريجية، إلا أن هدفها كان هو الإدماج النهائي للمسيحيين. هذه السياسة كانت غير إسلامية وفي تناقض صارخ مع معاهدات النَّبيّ ﷺ. إنها نتيجة ضعف إنساني وليس إلهاماً معصوماً من الخطأ.

وبخصوص الفقرة الموالية من المعاهدة، فرغم أنها كانت تُحترم عموماً، فقد تم تبديلها من قبل معاوية خلال فترة مبكرة من الإسلام:

"وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ مِنهُمْ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَهُمْ عَدُوٌّ وَقَالُوا: كُنْ رَسُولاً اَوْدَلِيلاً اَوْمُسَخَّرًا أَوْفِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُومُ الْحَرْبُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَحَدٍ، كَانَ ظَالِمًا وَلِرَسُولِ اللّهِ عَاصِيًا وَمِنْ وَصِيَّتِهِ مُخْتَلِفًا".

ويخبرنا التاريخ بأن معاوية قام بتنظيم أول أسطول بحري إسلامي خلال حكم الخليفة عثمان. ولكي ينجز ذلك، طلب خدمة البحارة والملاحين المسيحيين. لكن مثل هٰؤلاء المسيحيين لم يكونوا مُجبَرين علىٰ الخدمة في الجيوش الإسلامية. لقد كانوا حلفاء للمسلمين. كانوا أوفياء للإسلام، وقد تم استئجارهم بفضل مهاراتهم. كما أن معاوية سمح أيضاً للأرمن بأن يحتفظوا بسلاح الفرسان، الذي أبقىٰ به الخليفة عثمان، لكي يتمكن المتحالفون من المسيحيين مع المسلمين من الدفاع عن أنفسهم ضد البيزنطيين. ولم يرسل معاوية الجيوش العربية إلىٰ المنطقة إلا بعد التأكد بان

الأرمن عاجزون عن حماية أنفسهم. إن تلك الفقرة من المعاهدة، كما يبدو، تمنع الإكراه وتسمح بالاستثناءات في حالة الخدمة الطوعية.

لم يكن 'العهد' -يؤكد النبي- موقَّعًا من طرف واحد فقط. لم يكن شيئًا فرضه المسلمون علىٰ غير المسلمين، بل كان عبارة عن تسوية طلبها المسيحيون وقاموا بالتفاوض حولها وقبلوا بمقتضياتها. ولذلك، كان "عليهم التمسك بها والوفاء بما عاهدوا عليه". وإذ منح النَّبيّ العديد من الحريات للمسيحيين، فقد حدد لهم الكثير من الواجبات بالمقابل:

"وَمِنْهَا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَيْنًا لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِرٍّ وَلا عَلانِيَةٍ، وَلا بِوَفَاءٍ فِي مَنَازِلِهِمْ وَلا يَأْوُوا عَدُوًّا لِمُسْلِمٍ، وَلا يَنْزِلُ أَوْطَانَهُمْ وَلاَ فِي مَسَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ، وَلاَ يَرْفُدُوا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقُوَّةٍ مِنْ عَارِيَّةِ السِّلاحِ وَلاَ الْخَيْلِ وَلاَ الرِّجَالِ، وَلاَ يَسْتَودِعُوا لَهُمْ مَالاً، وَلاَ يُكَاتِبُوهُمْ، وَلا يُصَالِحُوهُمْ، إلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي دَارٍ يَذِبُّونَ فِيهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ يَدْرَؤونَ عَنْ دِمَائِهِمْ وَرِعَايَةِ دِينِهِمْ، وَلاَ يَمْنَعُونَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قِرَايَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَا لأَنْفُسِهِمْ وَلِدَوَابِّهِمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا، وَيَبْذُلُونَ لَهُمْ الْقِرَى الَّذِي مِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَلاَ يُكَفُّوا عَلَى ذَلِكَ فَيَحمِلوا الأَذيَّةَ عَنْهُمْ وَالْمَكْرُوه، فَإِنْ أُحْتِيجَ إِلَى اخْتِفَاءِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَوَاطِنَ إِعْمَارِهِمْ، أَنْ يَوَدُّوهُمْ وَيَرْفِدوهُمْ وَيُواسوهُم عَمَّا شَقَّ بِهِ مَا كَانُوا مُخْتَفِينَ، إِذَا كَتَمُوا عَنْهُمْ وَلَمْ يُظهِروا العَدوَّ على عَوْرَتِهِم وَلَمْ يُخِلُّوا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ. فَمَنْ نَكَثَ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِه،" يقول النَّبيّ ﷺ، "فَبَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِ الله عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي أُخِذَتْ عَنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَالنَّصَارَى مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ". ويواصل النَبيّ قائلاً: "وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللهُ والنَّبِيُّ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَيْمَانِ، وَالْوَفَاءِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، رِعَايَةُ ذَلِكَ لَهُمْ وَعِزَّتُهُم بِهِ."

وكدليل آخر علىٰ الطابع الإلزامي لـ'العهد'، يقرر النَّبيّ ضرورة "الانتِهَاءِ إِلَيْهِ أَبَداً حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ وَ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا." وهٰذا مختلف عن العهود الأخرىٰ التي تتضمن عبارة "إن شاء الله"، والتي يمكن لبعض سيئي النية أن يستغلوها لانتهاك شروطها.

ويختتم 'العهد' بلائحة الشهود، والتي تبدو، مع قليل من الاستثناءات، صحيحة بشكل معقول، والتي ربما تم إلحاقها استرضاء لعلماء الحديث. وقد يكون من الجدير التعمق في دراسة هٰؤلاء الشهود أو المراجع، لكن ذلك سيحتاج إلىٰ جهد كبير من الأفضل بذله في دراسة لاحقة. ومن شبه المؤكد أن هوية الكاتب، معاوية، وكذلك التاريخ، أي العام الرابع من الهجرة، إضافات أموية. وربما أحس الكاتب بأن قائمة الشهود قد تطرح مشكلات محتملة، ولهٰذا كتب عبارة "وكفىٰ بالله شهيداً علىٰ ما في هٰذا الكتاب." والدلالة، في نظري، تتمثل في أن الوثيقة صحيحة بصرف النظر عن سلسلة الشهود. وتنتهي المعاهدة بالتعبير عن "الحمد لله رب العالمين"، وهي عبارة وردت في سورة الفاتحة، التي هي أول سورة في المصحف الشريف.

تَعليق على مَضمُون العَهد (١٥٣٨)

لقد قيل إن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم'، الذي نُشر بباريس سنة ١٦٣٠م من قبل غبرييل صيونيتا، كان مبنياً علىٰ نسخة اكتشفت بدير جبل الكرمل في الأرض المقدسة. هذه الوثيقة، التي جاء بها الأب باسيفيك سكاليغر إلىٰ فرنسا، كانت تعتبر قديمة. ومن خلال تتبع سلسلة القيمين، تمكنتُ من العثور علىٰ نسخة من هٰذا العهد في مكتبة فرنسا الوطنية. وتعود هذه الوثيقة إلىٰ سنة ١٥٣٨م، وتُظهر آثاراً لغبرييل صيونيتا. ومن الأرجح طبعاً أن يكون هٰذا هو 'العهد' المصدر الذي نشره هٰذا الراهب الماروني سنة ١٦٣٠م. إلا أن هناك مشكلة تتمثل في احتواء الوثيقة

علىٰ اختلافات ملحوظة. فلأسباب يصعب تفسيرها، نجد بأن النسخة التي قام بطبعها صيونيتا هي في الواقع دون مستوىٰ العهد الأصلي. إذ في الوقت الذي يتطابق فيه المتن إلىٰ حد كبير فإن البداية والنهاية متفاوتتان بشكل جوهري. إذ أن العديد من الكلمات التي كانت واضحة تماماً في العهد الأصلي تم تعديلها. وهٰذا ما أدىٰ إلىٰ التغيير الكلي لمعاني بعض الجمل. فإما كانت اللغة العربية التي استعملها صيونيتا أقل من المستوىٰ المطلوب ومهاراته التحريرية هزيلة، أو أنه حاول تحسين وتصحيح النَّصّ لكن النتيجة كانت عكسية. إن كان هٰذا هو العهد الأصلي الحقيقي، الذي يُدَّعىٰ بأنه وُجد بالقرب من جبل الكرمل وجبل لبنان، فلماذا يُرجع أصله إلىٰ القاهرة؟ هل العهد الذي حصل عليه سكاليغر في فلسطين تم فقط نسخه في مصر؟ أم أننا بصدد التعامل مع معاهدة مختلفة تماماً؟ بدل 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' الأصلي من فلسطين، والذي طُبع سنة ١٦٣٠م، فإن وثيقة ١٥٣٨ تمثل 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي مصر'. بما أن هناك إرتباطاً منطقياً بين كلا العهدين فقد فضلت إدراجه في هٰذا القسم بدل التعامل معه وكأنه مخطوط مختلف تماماً.

علىٰ غرار 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران'، الذي عثر عليه في حولية نسطورية من القرن التاسع، فإن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' هو آخر نص في مجموعة عربية مسيحية من الأدب التبريري الذي نُسخ سنة ١٥٣٨م. الغريب أنه أيا كان الشخص الذي قام بفهرسة الوثيقة باللاتينية، فإنه لم يذكر ذلك. ولذلك كان من السهل إغفالها. إن الوثيقة، المكتوبة بخط عربي جميل، مشكولة، وهذه خاصية تنفرد بها عادة النصوص الدينية كالقرآن. ولم يكن هٰذا هو حال 'العهد' لوحده بل كان الشأن كذلك بالنسبة لكل الوثائق الموجودة في الكتاب أيضاً. يبتدئ 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' هكذا: "بسم الله الخالق الحي الناطق الباقي بعد فناء الخلائق"، بدلاً من العبارة التقليدية "بسم الله الرحمن الرحيم، " يبتدئ هٰذا 'العهد' بأسلوب المولعين، حيث يتوسل ببعض الصفات الإلٰهية الأثيرة عند المتصوفين. فاسم "الحي" هو أحد الأذكار أو الأدعية التضرعية المتداولة عند المُتَصَوّفة المسلمين. هذه الصيغة المتداولة كانت بطبيعة الحال ربما غير واردة في معاهدة النَّبيّ الأصلية،

وقد أضيفت كعبارة افتاحية من قبل أحد الكتاب. وبعد ذلك يوضح الكاتب بأن "هذه نسخة العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لكافة النصارىٰ، " وبعد العنوان الفرعي "نسخة كتاب العهد" تبتدئ المعاهدة الفعلية كما يلي:

"هَـذَا عَـهْـدُ اللهِ أَمَـرَ بِكِتَابَتِـهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَـبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَـلَيْـهِ وَعَلَى آلِهِ لِكَافَّـةِ النَّصَـارَى وَسَـائِـرِ الرُّهْبَانِ حِفْـظًا مِنْهُ لَهُـمْ وَرِعَـايَـةً، لأَنَّهُـمْ وَدِيعَـةُ اللهِ فِي خَلْقِـهِ لِيَكُونَ الْحُجَّـةَ عَلَيْـهِـمْ وَلاَ يَكُونُ لِلنَّـاسِ عَلَى اللهِ حُجَّـةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ. وَجَعَـلَ ذَلِكَ ذِمَّـةً مِـنْهُ وَحِفْـظًـا لَهُـمْ بِأَمْـرِ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيـزًا حَكِيمًا كَتَـبَهُ الأَسَـدُ وَأَهْـلُ مِـلَّتِـهِ لِكُلِّ مَنْ يَنْـتَحِـلُ دَعْوَةَ النَّصْـرَانِيَّةِ مِنْ مَـشْرِقِ الأَرْضِ وَمَغْـرِبِهَـا، وَقَرِيبِهَـا وَبَعِيـدِهَـا، عَرَبِيّهَـا وَعَجَـمِيّهَا، مَعْـرُوفًا وَمَجْـهُولاً، عَـهْـدًا مِـنْهُ وَعَـدْلاً لَهُـمْ سُـنَّةً مِـنْهُ تُحْفَـظُ".

خلافـًا لبعض العهود الأخرىٰ، التي تقتصر علىٰ ذكر النَّبيّ مُحَمَّد بن عبد الله، فإن هٰذا 'العهد' يقدم اسم كل من الأب والجد. وبدل الاقتصار علىٰ الصلاة علىٰ النَّبيّ فقط، كما هي العادة عند أهل السنة، فإن 'العهد' يصلي علىٰ كل من رسول الله وآله، كما هي العادة عند المُتَصَوّفة، سواء كانوا سنيين أو شيعة. وإذا كان 'عهد' ١٦٣٠ يخاطب كل المسيحيين، فإن 'عهد' ١٥٣٨ يخاطب كل المسيحيين وكل الرهبان. وفي هذه الحالة يبدو أن عبارة "وديعة الله" تحيل لا علىٰ النَّبيّ ﷺ، بل علىٰ المسيحيين، المؤتمنين بخلائق الله، وهذه قراءة غير مألوفة بالمرة. هٰذا يعني أن المسيحيين، وليس النبي، هم حجة الله في خلقه. إن استعمال عبارات مثل "حجة الله" ينسجم مع الاستعمال الشيعي وينطبق علىٰ الأئمة الاثني عشر، كما يرِد أيضـًا في أعمال المُتَصَوّفة. وكما هو الشأن في بعض الكتابات الصوفية، فإن 'العهد' يتميز باستعمال أكثر للصفات الإلٰهية، مثل "العزيز" و"الحكيم". كما يصرح بأنه كُتِب من قبل المدعو "الأسد". وهٰذا الأمر غريب قطعـًا لأن عليّـًا وليس مُحَمَّداً هو من كان

يحمل لقب "أسد الله". إذ هكذا تمت الإشارة إليه في 'معاهدة عليّ': 'رابع الخلفاء البغدادي'، المانحة لبعض الحصانات والامتيازات لأمة الأرمن، والتي تعود نسخها الأولىٰ إلىٰ القرن الثامن عشر.

مهما يكن الشخص الذي قام بنسخ 'العهد' بالخط العثماني إنطلاقاً من النسخة الأصلية، فقد كانت لديه ميول معجمية مثيرة للانتباه. فعوض "دين النصرانية" أو الدين المسيحي، اختار عبارة "الدعوة النصرانية"، التي هي أوسع في معناها. كما أن لغة عهد ١٥٣٨ هي أكثر تفصيلا وتميل إلىٰ مراكمة النعوت. وخلافاً لـ'عهد ١٦٣٠' فإن 'عهد ١٥٣٨' يقول بأنه "عدل" و"سنة". هٰذان المصطلحان لهما معناهما السطحي لكنهما يعكسان أيضا دلالات عقدية. فالشيعيون مثلاً يعتبرون العدل أو العدل الإلٰهي ركناً ثانياً في الإسلام بعد التوحيد. نعم، الله واحد، ولكن الشيعيين يؤكدون بأن الله أيضاً عادل لتمييز أنفسهم عن أولئك الفلاسفة السنيين الذين يعتقدون بأن القدرة الإلٰهية المطلقة تسمح لله بوضع شخص صالح في النار وشخص مذنب في الجنة. بالنسبة للشيعة لا يمكن الدفاع بتاتاً عن مثل هٰذا الاعتقاد.

ويبدو أن هٰذا التأكيد علىٰ العدل في 'العهد'، يعكس مسألة الإيمان هذه عند الشيعة. لكن ذكر 'السنة' جاء كمفاجأة. أكيد أن الشيعة يتبعون السنة المحمدية، وهم في الحقيقة يقولون إنهم هم أهل السنة الحقيقيون. ولكن مصطلح "السني" لم يُبتكر إلا خلال الصراع بين معاوية والإمام الحسن. ولتمييز أنفسهم عن أتباع حفيد الرسول ﷺ، المعروفين باسم 'أهل البيت' (أو أهل بيت النبوة)، قام معاوية بتعريف أنصاره باسم 'أهل السنة والجماعة'. إذا كانت لدىٰ السنة نزعة لأن يكونوا سنيين، ولدىٰ الشيعة نزعة ليكونوا شيعة، فإن المُتَصَوّفة هم من ينزع إلىٰ الجمع بين خصائص من كلا الفرعيْن الأساسييْن في الإسلام.

وتؤكد الفقرة الموالية بأن من يلتزم بالمعاهدة فهو أهل بالإسلام، أما من ينتهكها فهو ملعون:

"مَنْ رَعَاهَا كَانَ بِالإِسْلاَمِ مُتَمَسِّكًا، وَلِدِينِهِ مُسْتَأْهِلاً. وَمَنْ

نَكَثَهَا وَضَيَّعَ الْعَهْدَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ وَغَيَّرَهُ وَتَعَدَّى فِيهِ مَا أَمَرَ بِهِ، كَانَ لِعَهْدِ اللهِ نَاكِثًا وَلِمِيثَاقِهِ نَاقِضًا وَبِدِينِهِ مُسْتَهِينًا وَلِلَعْنِهِ مُسْتَوْجِبًا، سُلْطَانًا كَانَ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ".

هذه الكلمات ليست مبالِغة في دلالتها، لأن خرق العهود والمواثيق، في نظر الإسلام، خطيئة كبرىٰ تستحق اللعنة الأبدية، والقرآن يتحدث عن ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٨:٨). كما يأمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بعقودهم (٥:١). ويعبر الله تعالىٰ عن حبه لأولئك الذين يوفون بعهودهم (٣:٧٦). ويذكر المسلمين بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١٦: ٩١). كما يتوجه الله تعالىٰ بهٰذا السؤال للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٦١: ٢-٣). ويحذر الناس بقوله: ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٧:-٣٤). أما عن الذين ينقضون عهد الله فإن اللعنة ستنزل عليهم ومصيرهم جهنم (١٣:٢٥).

ويوضح النَّبيّ ﷺ بأن 'العهد طُلِب منه ومن الأمة الإسلامية عمومًا، وبأنه وضع المسيحيين تحت حماية الأنبياء، أصفياء الله وأوليائه، وهذه المصطلحات الأخيرة تنسجم مع الأعراف الصوفية.

"فَبَدَأْتُ فِيهِ بِإِعْطَاءِ الْعَهْدِ عَلَى نَفْسِي وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي سَأَلُوا عَنِّي وَعَنْ جَمِيعِ مِلَّتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ أُعْطِيَهُمْ [عَهْدَ] اللهِ وَمِيثَاقَهِ وَذِمَّةَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَشَدَّ مَا أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ وَإِتْيَانِ الْفَرِيضَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ".

وتتضمن الحماية التي وعد بها النَّبيّ ﷺ ما يلي:

"عَهْدَ اللهِ أَنْ أَحْفَظَ أَرْضَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ بِقُدْرَتِي وَخَيْلِي وَرِجَالِي وَسِلاَحِي وَقُوَّتِي وَأَتْبَاعِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَأَنْ أَحْمِيَ بِيَعَهُمْ وَأَذِبَّ عَنْهُمْ وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَبُيُوتِ صَلَوَاتِهِمْ مَوَاضِعَ لِلرُّهْبَانِ مِنْهُمْ وَمَوَاضِعَ لِلسُّوَاحِ حَيْثُ كَانُوا مِنْ جَبَلٍ أَوْ وَادٍ أَوْ مَغَارَةٍ أَوْ عُمْرَانٍ أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ، وَأَنْ أَحْفَظَ ذِمَّتَهُمْ وَمِلَّتَهُمْ وَدِينَهُمْ أَيْنَ كَانُوا شَرْقِيًا أَوْ غَرْبِيًّا أَوْ بَحْرِيًّا أَوْ قَبْلِيًا بِمَا أَحْفَظُ بِهِ نَفْسِي وَخَاصَّتِي وَأَهْلِ مِلَّتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

هٰذا المقطع أغنىٰ من الناحية المعجمية وأكثر وصفية من 'عهد ١٦٣٠'. اختيرت فيه الألفاظ بدقة وشفافية أكثر. مثلاً بينما تتحدث معاهدة ١٦٣٠ عن "خاتمي"، [كذا؛ --ربما تم تصحيف اللفظة هنا والمقصود "خلتي" أو "خاصتي" بدل "خاتمي"—المترجمان] وهي لفظة تبدو غريبة وخارج السياق، بل إنها مناقضة للتقاليد الإسلامية، فإن معاهدة ١٥٣٨ تستعمل كلمة "خاصتي" التي تعني "المحيطين بي" والتي فيها غنىٰ أكثر من حيث الدلالة. كما أن للكلمة أيضاً معنىٰ سرياً، يجهله أهل السنة عموماً يدل علىٰ الشيعة. فالشيعة يعتبرون أهل السنة بمثابة العامة أو عامة الناس، أما الشيعة أنفسهم فإنهم الخاصة، أي المميزون الذين اختارهم الله. وعندما يتكلم النَّبيّ ﷺ عن حفظ "خاصتي" بما يحفظ به نفسه، فقد يكون قصده أفراد بيته. ثم يتابع رسول الله ليصف طبيعة تلك الحماية علىٰ هٰذا المنوال:

وَأَنْ أُدْخِلَهُمْ فِي ذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَمَانِي فِي كُلِّ حِينٍ وَمَوَدَّةٍ وَأَصُدَّ عَنْهُمْ كُلَّ أَذىً أَوْ مَكْرُوهٍ أَوْ تَبِعَةٍ، وَأَنْ أَكُونَ مِنْ قُوَّاتِهِمْ ذَابًّا عَنْهُمْ كُلَّ عَدُوٍّ أَوْ مُؤْذِي، وَأَفْدِيَهُمْ بِنَفْسِي وَأَعْوَانِي وَأَتْبَاعِي وَأَهْلِ مِلَّتِي لأَنَّهُمْ رَعِيَّتِي وَأَهْلَ ذِمَّتِي وأَمُدُّ سُلْطَتِي عَلَيْهِمْ وَكَذَلِكَ عَلَيَّ رِعَايَتُهُمْ وَحِفْظُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَلاَ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَصِلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ حَيْثُ يَصِلُ إِلَى أَصْحَابِي الذَّابِّينَ عَنْهُمْ وَعَنْ نُصْرَةِ الإِسْلاَمِ.

اختيار الألفاظ هنا، مرة أخرىٰ، مثير للاهتمام. يشير النَّبِيّ إلىٰ أصحابه باعتبارهم 'أتباعي'. عادة يُعرف الأشخاص الذين كان لهم إتصال مباشر برسول الله ﷺ باسم 'الأصحاب' أو 'الصحابة'. أما "الأتباع" أو 'التابعون' فهم الذين جاءوا بعد الصحابة وساروا علىٰ نهجهم. ويواجه النُّساخ (scribes) باستمرار مشكلة تطبيق معاني لاحقة علىٰ مصطلحات قديمة؛ إذ أن جميع العناصر الدخيلة بإمكانها أن تؤثر علىٰ معنىٰ 'العهد'. خذ علىٰ سبيل المثال، تقديم الرسول باعتباره راعياً تتمثل رعيته في كل من المسلمين والمسيحيين. هنا يمكن التصور بأن رسول الله ﷺ وصف نفسه بمثل هذه الصيغة. ولكن بالإمكان أيضاً أن يكون ذلك حاشية أو تعليقاً من قبل ناسخ مسيحي. أما بقية المعاهدة فإنها، وباستثناء الخاتمة، مطابقة فعلاً لـ'عهد' ١٦٣٠، مع استثناءات قليلة ملحوظة. كما تنص المعاهدة علىٰ ما يلي:

"وَأَنْ أَعْزِلَ عَنْهُمُ الأَذَى فِي الْمُؤَنِ الَّتِي تُحَمَّلُ لأَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ العَارِيَةِ بِالْخَرَاجِ إِلاَّ مَا طَابَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُورٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ".

وَلاَ تَغْيِيرُ أُسْقُفٍ عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ وَلاَ رَاهِبٍ مِنْ رَهْبَانِيَتِهِ وَلاَ نَصْرَانِيٍّ مِنْ نَصْرَانِيَّتِهِ وَلاَ زَاهِدٍ مِنْ صَوْمَعَتِهِ وَلاَ سَائِحٍ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَلاَ يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْ مَنْزِلِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَلاَ مَنَازِلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ عَهْدَ اللهِ وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَحَادَ عَنْ ذِمَّتِهِ.

وَلاَ تُحَمَّلُ الرُّهْبَانَ وَلاَ الأَسَاقِفَةَ وَلاَ مَنْ تَعَبَّدَ مِنْهُمْ وَكَافَّةَ لاَبِسِي الصُّوفِ أَوْ يُوجَدُ فِي الْجِبَالِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُعْتَزِلَةِ عَنِ الأَبْصَارِ شَيْءٌ مِنَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ".

من الكلمات البارزة التي يشملها هٰذا المقطع استعمال كلمة 'زاهد' بدل

راهب. إن كان هناك يوماً زهاد في الإسلام فإنهم المُتَصَوّفة، وغالباً ما استعمل المُتَصَوّفة مثل هذه المصطلحات عندما يتكلمون عن أنفسهم. وبدل أن يتحدث 'العهد' عن المسلمين فحسب، فإنه يؤكد علىٰ المسلمين المؤمنين بما أنه يسعىٰ إلىٰ التمييز بين من يدّعون بأنهم مسلمون، لكنهم في الحقيقة منافقون جاحدون، والمسلمون الحقيقيون الصادقون، الذين يؤمنون فعلاً بالله والإسلام. إذا كان هٰذا 'العهد' قد تم استنساخه خلال عهد الأمويين، فمن الممكن أن يكون قد قُرِئ في ضوء الظروف القائمة آنذاك. وإذا كان الشيعة قد تمردوا وانشقوا عن الجسد الأساس الجامع للمسلمين، وقام المُتَصَوّفة بتبني شكل من المقاومة السلبية والروحية، فقد يكون لهذه العوامل تأثير علىٰ الطريقة التي تم بها تأويل 'العهد'. وتبدو الإشارة إلىٰ "المتعبدين الذين يدفعهم إخلاصهم الىٰ لبس الصوف" تقريباً كإشارة ضمنية الىٰ المُتَصَوّفة، 'لابسي الصوف'. يبدو وكأن 'العهد' كان ينذر مسبقاً بسلسلة الأحداث المؤسفة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ، زمن انحطاط أصبح خلاله نور الإسلام يخفت تدريجياً، كما أخذت تحل محل روحانية الإسلام مادية وإمبريالية بني أمية، الذين ورثهم العرب الخليجيون الحاليون.

وبعد ذلك تعالج المعاهدة قضايا الجزية والضرائب:

"وَأَنْ يَقْتَصِرَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّصَارَى مِمَّنْ لاَ يَتَعَبَّدُ وَلاَ رَاهِبٍ وَلاَ سَائِحٍ مِنَ الْجِزْيَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فِي كُلِّ عَامٍ أَوْ ثَوْبٍ لَطِيفِ الثَّمَنِ، وَمَنْ عَدِمَ الثَّمَنَ وَالقُوتَ أَعَانَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُوتِ بَيْتِ المَالِ، فَإِنْ لَمْ يَسْهُلْ عَلَيْهِمُ القُوتُ حُمِلَ عَنْهُمْ وَلاَ يَقُومُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلاَّ بِمَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ.

وَلاَ يُتَجَاوَزُ بِجِزْيَةِ الْخَرَاجِ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالتِّجَارَاتِ الْعِظَامِ فِي الْبَحْرِ وَالْغَوْصِ وَفِي اسْتِخْرَاجِ الْمَعَادِنِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَذَوِي الأَمْوَالِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُنْتَحِلِي النَّصْرَانِيَّةِ اثْنَيْ عَشَرَ فِضَّةً جِزْيَةً فِي كُلِّ عَامٍ إِذَا كَانُوا بِالْمَوَاضِعِ قَاطِنِينَ مُقِيمِينَ.

وَلاَ يُعْتَرَضُ عَابِرُ طَرِيقٍ وَلَيْسَ مِنْ أَقْطَارِ الْبِلاَدِ وَلاَ مِنْ أَهْلِ الاِخْتِيَارِ مِمَّنْ لاَ يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ بِخَرَاجٍ وَلاَ جِزْيَةٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي يَدِهِ مِيزَانٌ مِنْ مَوَازِينِ الأَرْضِ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ مَالُ السُّلْطَانِ مِنْ حَقٍّ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ مَا يُؤَدِّي مِثْلَهُ، وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ وَلاَ يُحَمَلُ فِيهِ إِلاَّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ عَلَى تَحْوِيطِ الأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا وَأَقْبَلَ ثَمَرَتُهَا. وَلاَ يُكَلَّفُ شَطَطًا وَلاَ يُجَاوِزُ حَدَّ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ مِنْ نُظَرَائِهِ".

ويظهر دليل آخر حول مسألة تحيين المعلومات في قيمة الجزية. فإذا كانت العهود الأخرىٰ تكتفي بذكر مبلغ اثني عشر درهمًا، فإن 'عهد ١٥٣٨' يحددها في اثني عشر درهمًا فضية. أما بخصوص الخدمة العسكرية فإن 'العهد" ينص علىٰ ما يلي:

"وَلاَ يُكَلَّفُ أَهْلُ الذِّمَّةِ مِنْهُمْ الْخُرُوجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدُوِّهِمْ لِمُلاَقَاةِ الْحَرْبِ وَمُكَاشَفَةِ الأَبْرَارِ لأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الذِّمَّةِ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ، وَأُعْطُوا الدِّيَةَ عَلَى أَنْ لاَ يُكَلَّفُوا ذَلِكَ. وَأَنْ تَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ دَفْعًا عَنْهُمْ وَجَزْرًا مِنْ دُونِهِمْ وَلاَ يُكْرَهُوا عَلَى تَجْهِيزِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَرْبِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ عَدُوُّهُمْ بِقُوَّةٍ مِنَ السِّلاَحِ وَلاَ خَيْلٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ يَسْتَبْرِعُ مُتَبَرِّعٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ فَيَكُونُ مَا تَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ عَارِيَةٌ مَضْمُونُهُ يَضْمَنُهُ بَيْتُ الْمَالِ إِلَى أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ تُوُفِّيَ أَوْ غِيرَ عَلَيْهِ غُرِمَ لَهُ قِيمَةُ ذَلِكَ مِنْ صُلْبِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأُدِّيَ إِلَيْهِ وَحُمِلَ إِلَى مَنْ يَتَبَرَّعُ وَغُرِمَ لَهُ وَأُوفِيَ عَلَيْهِ".

إذا كان 'عهد ١٦٣٠' ينص فقط بأن المسيحيين غير مجبرين علىٰ تزويد المسلمين بالسلاح والخيل لدعم مجهودهم الحربي، في الوقت الذي يعِدُ بالاعتراف بجميل من قدّم المساعدة، فإن 'عهد' ١٥٣٨ يقدم حمايات وتأمينات وضمانات

محددة لمن أعار شيئاً من ممتلكاته للمسلمين. ولم تكن الودائع مضمونة من قبل خزينة الدولة ـ(أو 'البنك الوطني، ' إن صح التعبير فحسب)، بل كان هناك التزام يقضي بأنه في حالة ما إذا لم يتوصل المُعِيرون بممتلكاتهم، أو لحق ضرر ما بهذه الممتلكات، فإن بيت المال سوف يعوضها بقيمتها المالية. أما بالنسبة لقضايا الحرية الدينية والصلح والزواج المختلط وإصلاح ممتلكات الكنيسة وتوظيف المسيحيين في حروب المسلمين، فإن 'عهد' ١٥٣٨ يتطابق مع 'عهد' ١٦٣٠ باستثناء بعض التغييرات المعجمية الطفيفة:

"وَلاَ يُجْبَرُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ كُرْهاً عَلَى الإِسْلاَمِ وَلاَ يُجَادَلُوا إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَيُحْفَظُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ وَيُكَفُّ عَنْهُمُ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهُ حَيْثُ مَاكَانُوا وَأَيْنَ مَا حَلُّوا.

وَإِنْ أَجْرَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى أَوْ جَنَا جِنَايَةً فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نُصْرَتُهُ وَمعُونَتُهُ وَمُسَاعَدَتُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ وَالْمَغْرَمَةُ عَنْهُ وَعَنْ جَزِيرَتِهِ وَالدُّخُولُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ جَنَا عَلَيْهِ أَوْ بِمُسَاعَدَتِهِ أَوْ بِإِنْقَاذِهِ.

وَلاَ يُجَادَلُوا وَلاَ يُرْفَضُوا وَلاَ يُتْرَكُوا هَمَلاً لأَنِّي أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ، عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَا عَلَيْهِمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا حَقَّ الذِمَامِ وَالذَّبِّ عَنِ الْجِزْيَةِ. وَاسْتَوْجَبُوا أَنْ يُذَبَّ عَنْهُمْ كُلَّ مَكْرُوهٍ وَيُدْخَلُ بِهِمْ تَحْتَ كُلِّ تَرَفُّقٍ وَيَكُونُوا لِلْمُسْلِمِينَ شُرَكَاءَ بِمَا عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ.

وَلاَ يُحَمَّلُوا مِنَ النِكَاحِ شَطَطاً إِلاَّ مَا يُرِيدُونَهُ، وَلاَ تُكْرَهُ الْبَنَاتُ مِنْهُمْ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُضَادُّوا بِذَلِكَ أَنْ مَنَعُوا خَاطِباً أَوْ بِزِيجَةٍ تَزْوِيجاً لأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِطِيبَةِ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ إِنْ أَحَبُّوهُ وَرَضُوا بِهِ.

وَإِنْ صَارَتِ النَّصْرَانِيَةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِنَصْرَانِيَتِهَا وَيُعِينُهَا عَلَى هَوَاهَا مِنَ الاِقْتِدَاءِ بِرُؤَسَائِهَا وَالأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا، فَمَنْ أَكْرَهَهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهَا فَقَدْ خَالَفَ عَهْدَ اللهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِهِ وَهُوَ عِنْدَنَا مِنَ الْكَاذِبِينَ.

وَلَهُمْ إِنْ احْتَاجُوا إِلَى مَرَمَّةِ بِيَعِهِمْ وَمَوَاضِعِ صَلَوَاتِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ إِلَى تَعَهُّدِ الْمُسْلِمِينَ بِتَقْوِيَةِ مَوَاضِعِهِمْ لَهُمْ عَلَى مَرَمَّتِهَا، أَنْ يَرْزِيدُوا عَلَى مَرَمَّتِهَا وَيُعَاوِنُوا وَلاَ يَكُونُ الآنَ عَلَيْهِمْ دَيْنًا بَلْ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَذِمَّتِهِمْ وَفَاءً لَهُمْ بِالْعَهْدِ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ وَهِبَةً لَهُمْ مِنْهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَلاَ يُكْرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْبِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لِعَدُوِّهِمْ رَسُولاً وَلاَ عَوْنًا وَلاَ مُتَجَبِّرًا وَلاَ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَلِيقُ بِالْحَرْبِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ كَانَ لِلَّهِ ظَالِمًا وَلِرَسُولِهِ عَاصِيًا وَمِنْ دِينِهِ مُنْخَلِعًا إِلاَّ تَمَامَ الْوَفَاءِ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ الَّتِي أَشْرَطَهَا مُحَمَّدٌ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ".

ومن الملاحظ أن النعوت هنا أقوىٰ مما هي عليه في "عهد ١٦٣٠"، إذ أنها تصف من ينتهكونها بالكاذبين والظالمين والعصاة المارقين. كما أن الشروط التي كان علىٰ المسيحيين الالتزام بها هي أيضـاً ذات نبرة أشد مما هو عليه الأمر في "عهد ١٦٣٠":

"وَأَشْتَرِطُ عَلَيْهِمْ أُمُورًا فِي دِينِهِمْ وَذِمَّتِهِمْ عَلَيْهِمْ التَّمَسُّكُ بِهَا وَالْوَفَاءُ بِمَا عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ، مِنْهَا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَيْنًا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِرٍّ وَلاَ فِي عَلاَنِيَةٍ، وَلاَ يَأْوُوا

فِي مَنَازِلِهِمْ عَدُوّ الْمُسْلِمِينَ يَرُدُّ، وَأَوْفَى بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ، وَلاَ بَيْتِهِ وَلاَ أَوْطَانِهِمْ وَلاَ أَضْيَاعِهِمْ وَلاَ شَيْءَ مِنْ مَسَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ وَلاَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلاَ يَزِيدُوا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ بِسِلاَحٍ وَلاَ خَيْلٍ وَلاَ رِجَالٍ، وَلاَ يَسْتَدْعُوا مَا لاَ بِهِ حَاجَةٌ وَلاَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَلاَ يُضَايِقُوهُمْ وَلْيُكَرِّمُوا فِي الأَرْضِ بَقِيَّةَ مَا يَدُومُونَ فِيهَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَيَدُومُونَ عَلَى أَدْيَانِهِمْ بِرِعَايَةِ ذِمَّتِهِمْ، وَأَنْ يُقِرُّوا مَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَدِيَانَتِهِمْ حَيْثُ مَا كَانُوا وَأَيْنَ مَا حَلُّوا، وَأَنْ يَبْذُلُوا لَهُمُ الْقِرىَ الَّذِي مِنْهُ يَأْكُلُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ وَيَحْمِلُونَ الأَذَى عَنْهُمْ وَالْمَكْرُوهَ.

وَإِنْ اِخْتَفَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَوَاطِنِ رَهْبَانِيَتِهِمْ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَأْوُوهُمْ وَيُوَاسُوهُمْ حَيْثُ مَا كَانُوا مَخْفِيِّينَ إِذَا كَتَمُوا عَنْهُمْ وَعِنْدَهُمْ، وَلاَ يُظْهِرُوا العَدُوَّ عَلَى أَحَدِهِمْ وَلاَ يَحْمِلُوا شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ» .

أما التحذيرات الأخيرة التي نص عليها (عهد) ١٥٣٨ فإنها مماثلة تقريبًا لتلك التي وردت في 'عهد' ١٦٣٠:

"فَمَنْ نَكَثَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهَا فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ. وَعَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ الَّتِي [كذا] أَخَذْتُ عَلَى الرُّهْبَانِ وَالإِيمَانِ مِنِّي عَلَى نَفْسِي لَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا وَحَلُّوا. عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَفَاءُ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رِعَايَةِ ذَلِكَ لَهُمْ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ إِلَى الاِنْتِهَاءِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَتَنْقَضِي الدُّنْيَا"

لكن 'العهد' يتضمن إضافة هامة تتمثل في إدراج حديث نبوي فيه دفاع عن المسيحيين: "ومن ظلم بعد ذلك ذمياً ونقض العهد ورفضه كنت خصمه يوم القيامة من جميع المسلمين كافة". هٰذا شيء مماثل فعلاً للحديث النبوي المذكور في سنن أبي داوود، والذي يقول فيه: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة." إذا كان 'العهد' منسجماً مع ما جاء في القرآن، حيث ضمّن ببراعة آيات من هٰذا الكتاب المقدس، فإنه أيضا ًيناسج ويعيد صياغة أحاديث نبوية بمرونة فائقة.

إن كان هناك أي اختلاف جوهري بين عهدي النَّبيّ لسنتي ١٥٣٨ و١٦٣٠، فإنه يشمل قائمة الشهود الثلاثين. إذ كما يمكن للقراء العرب أن يتحققوا من خلال فحص نسخ ١٥٣٨ الممسوحة آليا، فإن هناك أخطاء في كتابة عدد كبير من الأسماء، وهٰذا شيء شاذ جداً بالنظر لدقة وبراعة الناسخ. هل ارتُكبت هذه الأخطاء من قبل كاتب فرنسي أو أوروبي ضعيف في الإملاء، رغم كفاءته في اللغة العربية؟ أم أنه كان ينسخ المخطوطة التي كان ينقلها بأمانة، إلىٰ درجة أنه كان يعيد إنتاج الأخطاء الموجودة في النسخة الأصلية؟ أما الأسماء التي تضمها القائمة فهي: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، عليّ بن أبي طالب، أبو ذر، أبو الدرداء، أبو هريرة، عبد الله بن مسعود، العباس بن عبد الملك، فضل بن العباس الزهري، طلحة بن عبد الله، سعد بن معاذ، سعد بن عبادة، ثابت بن قيس، يزيد بن تليت، عبد الله بن يزيد، فرصوص بن قسيم بن بدر إبراهيم، أمير بن زريب، سهل بن تميم وعبد العظيم النجشي..

ثم يتغير خط اليد وتواصل القائمة بإدراج أسماء، عبد العظيم بن حسين، عبد الله بن عمرو بن العاص، عمار بن ياسر، معظم بن موسىٰ، حسان بن ثابت، أبو حنيفة، عبيد بن منصور، هاشم بن عبد الله، أبو العازر، هشام بن عبد المطلب.

إذا كانت قائمة الشهود في كل من 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' ونسخة ١٦٣٠ من 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' تطرح بعض المشكلات، فإن قائمة الشهود أعلاه أصعب علىٰ الهضم. لكن من المدهش، مع ذلك، أن هناك علىٰ ما يبدو تقاطعاً بين عهدي سيناء ونجران. في كل الحالات، يبدو أن النساخ بذلوا جهوداً

كبيرة لتفسير ورود بعض الأسماء. إذا كان وجود العديد من هٰؤلاء الصحابة ممكناً، فإنه يصعب التصديق بوجود بعضهم، كما أن بعض الأشخاص الواردة أسماؤهم غير معروفين. يمكن أن يكون بعض الشهود من اليهود أوالمسيحيين الذين رافقوا وفوداً إلىٰ المدينة لإعلان خضوعهم للنبي ﷺ. هٰذا ما يفسر سبب عدم ورود أسمائهم في أي كتاب حول رواة الحديث.

ورغم أن مسألة الشهود تستحق دراسة أشمل، إلا أنه يبدو من الأكيد نسبياً أن أسماء هٰؤلاء الموقعين قد تمت إضافتها بعد وفاتهم. هٰذا ليس غريباً بالمرة، إذ أن هناك حالات كثيرة لورود أحاديث دون أي ذكر لسلسلة الرواة، فقط لتظهر فجأة في أعمال لاحقة إسنادات كاملة. بما أن تذكُّر الأحداث كان سهلا آنذاك، فقد رأىٰ العلماء القدامىٰ بأنه لا حاجة إلىٰ إيراد سلسلات رواة الحديث. إذ كانوا قد شهدوا الأحداث شخصياً، أو كان آباؤهم أو أجدادهم حاضرين فيها. ولم تتغير هذه العادة إلا بعد أن اتسعت المسافة الزمنية بين الراوي وشاهد العيان كثيراً، وبعد أن انكب الأمويون علىٰ تحريف وإفساد وتخريب رسالة النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، إذ طور العلماء أسلوباً أو نظاماً للتوثيق يستوجب إسناداً غير منقطع إلىٰ شخص النَّبيّ ﷺ.

لحسن الحظ، تقدم هذه النسخة من 'العهد' بعض التفاصيل حول أصلها؛ إذ تصرح بأن "عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه هو من كتب هٰذا العهد." وتنطبق هنا هوية الناسخ، أي الإمام علي، مع السجل التاريخي، علىٰ عكس نسخة ١٦٣٠ 'للعهد' التي تنسبه إلىٰ معاوية، وهو ادعاء مستبعد بقدر ما هو غير مستساغ. هل يمكن أن يكون غبرييل صيونيتا قد قام بتغيير اسم الناسخ من أجل إرضاء العثمانيين الذين كانوا في حرب مع الشيعة الصفويين؟ يبدو أن كل شيء ممكن في ما يخص هٰذا الأمر. ويقول الناسخ أيضاً "إن السجل [المخطوط] مكتوب في جلد غير صغير، وبقي في حوزة السلطان، وهو مختوم بخاتم النَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." هذه التفاصيل شبيهة جداً بمثيلتها الموجودة في 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'. ويفصح 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' أيضاً بأنه كتب علىٰ الجلد. يؤشر هٰذا إلىٰ أنه أُلِّف خلال العصر الإسلامي الأول، قبل وجود الرق (وهو ورق نفيس). هٰذا يشير إلىٰ نهاية 'العهد'،

وليس نهاية الكتاب، إذ يقدم الناسخ الملاحظات الختامية التالية:

"كَمُلَ هَذَا الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْهُ فِي يَوْمِ الاِثْنَيْنِ الْمُبَارَكِ آخِرَ شَهْرِ بؤُونَه الْمُبَارَكِ سَنَةَ سَادَتِنَا الشُّهَدَاءَ الأَطْهَارِ السُّعَدَاءِ الأَبْرَارِ رَزَقَنَا اللهُ شَفَاعَتَهُمْ، تَكُونُ مَعَنَا آمِينْ. الْمُوَافِقِ ذَلِكَ لِلسَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ الْحَرَامِ سَنَةَ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ الْعَرَبِيَةِ، أَحْسَنَ اللهُ عَاقِبَتَهَا إِلَى خَيْرٍ، آمِينْ.

هَذَا الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ مِلْكُ الْمُبَجَّلِ النَّفْسِ الْمَوْلَى الرَّئِيسُ الشَّيْخُ الْعَالِمُ سُمْعَانَ نَجْلُ الْمُعَلِّمِ فَضْلُ اللهِ الْمُتَنَيِّحِ نَيَّحَ اللهُ نَفْسَهُ الْمَعْرُوفِ بِالْبَرْلُسِي.

وَنَاقِلُ هَذِهِ الأَحْرُفِ الْمِسْكِينُ الْمَمْلُوءِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ يَسْأَلُ الإِخْوَةَ الَّذِينَ يَقِفُونَ عَلَى هَذِهِ الْحُرُوفِ أَنْ يَذْكُرُوهُ فِي صَلَوَاتِهِمْ وَالْمَسِيحُ يُعَوِّضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ عِوَضَ الْوَاحِدِ ثَلاَثِينَ وَسِتِّينَ وَمِائَة".

قد يرىٰ بعض المسلمين قصيري النظر تاريخ ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) فيتساءلون باندهاش: كيف يمكن لوثيقة يرجع تاريخ كتابتها إلىٰ أكثر من ألف سنة تقريباً من وفاة النَّبيّ ﷺ أن تكون جديرة بالتصديق؟ لكن القراء الأكثر تعقلاً سيدركون بأنها ببساطة نسخة من ١٥٣٨ م. ليس هناك أي سبب للاعتقاد بأنها لا تعود إلىٰ زمن النَّبيّ ﷺ. لو ركزنا فقط علىٰ التواريخ، فسينبغي اعتبار طبعة من كتاب صحيح البخاري لسنة ٢٠١٣م نسخة مزورة ما لم نحصل علىٰ نسخته الأصلية. وحتىٰ في تلك الحالة، سنكون بصدد التعامل مع عمل تم جمعه خلال أزيد من قرنين بعد وفاة النَّبيّ ﷺ. ولهٰذا فبدون نص للأحاديث تم جمعه خلال حياة الرسول الفعلية، فأي شيء آخر يجب اعتباره مجرد تزوير. وإذا طبقنا نفس المعيار علىٰ القرآن فسوف ندمر العقيدة الإسلامية باعتبار أنه لا يوجد حالياً أية نسخة كاملة من القرآن يرجع تاريخها إلىٰ عهد النَّبيّ ﷺ.

ثم يعرفنا الناسخ بصاحب الكتاب وهو: سمعان ابن فضل الله البرلسي. علىٰ الرغم من أن قائمة عبارات التشريف تجعله يبدو وكأنه عالم مسلم، ربما ذو قناعة شيعية، فإن المسيحيين العرب أيضـاً مولعون بمثل هٰذا الاستعراض للأبهة الدينية. من خلال النظر إلىٰ طبيعة الكتاب ككل، وليس 'العهد' وحده، يتبين بأن صاحبه مسيحي بالتأكيد تقريباً. كما يمكننا الحصول علىٰ مفاتيح لحل لغز تاريخ 'العهد' من خلال الأشخاص الآخرين المذكورين في الكتاب. هٰذا الأخير يرِد اسم المدعو: يوحنا ابن إسحاق الباتنوني، وهو مالك المكتبة التي نُقل الكتاب لصالحها. هل حصل سمعان ابن فضل الله علىٰ نسخة من المكتبة؟ أما الأشخاص الآخرون الذين كانت لهم علاقة بالنسخة فنجد من بينهم جبران بن يوحنا التموي، وبطرس بن دياب الحلبي، ومنصور بن سليمان صهيون الرمادي. وتشير ملحوظة في حاشية الكتاب أيضـاً إلىٰ وصول مبشر إلىٰ القاهرة القديمة سنة ١٥٩٢م. ربما أتىٰ هٰذا الشخص بالكتاب من مصر إلىٰ جبل الكرمل. وأخيراً يكشف الكتاب بأنه نُقل من قبل جرجيس الأفرنجي، أي جورج الفرنسي أو جورج الأوروبي. وقد لاحظ قيّمو مكتبة فرنسا الوطنية ان أسلوب المخطوطة العربية لا يحمل أية علامة تشير إلىٰ الهوية الأوربية للشخص الذي كتبها. ورغم أن لهم الحق في هٰذا التشكيك، فإنه من الممكن بالنسبة لإنسان أوربي، درس وعمل في الشرق الأوسط لفترة طويلة، أن يكون قادراً علىٰ اكتساب مهارات كافية لنسخ مخطوطات عربية.

ويبدو أن الملحوظة الأخيرة في نهاية 'العهد'، وفي نهاية الكتاب التي تم العثور فيه عليها، موجهة لراهب يحمل اسم ميشال: "ميشال: يجب علىٰ الإخوة الذين يقرأون هذه الكلمات [الحروف] أن يذكروها في صلواتهم وسوف يعوضهم المسيح عن ذلك مائة وثلاثة وستين مرة". بعض زملائي العرب يقرأون "ميشال"؛ وآخرون يقرأون "يسأل"، وهي قراءة ممكنة علىٰ حد سواء. إذا كان الأمر يتعلق بفعل في اللغة العربية، وليس باسم فرنسي، فإن الارتباط الفرنسي يمكن التقليل من شأن درجته. وقد يقال إن الناسخ يشير إلىٰ الكلمات الموجودة في الكتاب ككل، لكن ليس من المعقول أن يقوم المرء بتلاوة مخطوطة كاملة في صلاته. هذه النصيحة تنطبق خصيصـاً علىٰ

‘عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم’ (١٥٣٨)، وآثارها مذهلة. هنا، لدينا رجل دين مسيحي، شخص مجهول الهوية يدعىٰ ميشال، ينصح الرهبان والقساوسة أن يذكروا ‘عهد النبي’ في صلواتهم. بينما يمكن افتراض أن النصيحة تشمل الصلوات الفردية، لكنها علىٰ ما يبدو معنية أساساً بالصلوات الجماعية: القداس والطقوس الدينية. يمكن أن نتخيل أنه، في وقت معين خلال أوائل القرن السادس عشر، كان رجال الدين المسيحيين في مصر وبلاد الشام يقومون بتلاوة ‘عهد النبي’ خلال طقوسهم الكنسية. بما أن المسيحيين كانوا يتمتعون بحرية القيام بالوعظ والإرشاد، ولم يكن الحكام المسلمون عموماً يتدخلون في شؤون الكنيسة، فمن الواضح أن ذلك لم يكن أمراً أصدرته السلطات العثمانية. إن "العهد الذي تم نقله سنة ١٥٣٨م من نسخة أقدم منها، تزامن مع حكم سليمان القانوني من سنة ١٥٢٠ إلىٰ غاية ١٥٦٦ م. كان ذلك عصر السلام والازدهار عند المسيحيين، ومن الواضح أن ‘العهد’ لم يُلفَّق خلال فترة الاضطهاد من أجل تهدئة السلطات الجائرة. إن الكشف عن هوية ميشال سوف يساعدنا علىٰ فهم السياق الاجتماعي والتاريخي الذي تم فيه نقل وترويج ‘العهد’. وكما يمكننا إدراك ذلك، فإن فهمنا لعهود النَّبيّ ﷺ لا يزال في بداياته الأولىٰ.

خُلَاصَات

رغم نقاط التشابه التي تجمع بين ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران‘ و’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم‘، فإن هٰذا الأخير يعتبر اتفاقية مختلفة عُقدت، كما يبدو، خلال نفس الفترة الزمنية. نظراً لاختلافات في المحتوىٰ والشكل واللغة والشهود، يمكننا أن نبقىٰ واثقين بأن الوثيقة المذكورة لم تكن فقط نسخة من معاهدة نموذجية تم إرسالها إلىٰ الجماعات المسيحية. كما كان الشأن بالنسبة للامتيازات التي منحها النَّبيّ ﷺ للجماعات اليهودية المختلفة، فليس هناك تطابق بين الـ’عهدين‘، رغم العدد الكبير من العناصر والشروط التي يشتركان فيها. وأود التأكيد بأن هذه الاختلافات الطفيفة هي دليل صحة ومصداقية تلك الوثائق، لا دليل تزوير، لأنها تشير إلىٰ مصدر مشترك، ألا وهو رسول الله ﷺ، الذي كان يعبر عن نفس الأفكار في صيغ متباينة قليلاً. كما هو الشأن بالنسبة لـ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء‘، فإن ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم‘، ليس موجهاً إلىٰ جماعة محددة بشكل مباشر. إن كانت تلك تزويرات، فلماذا لم يكن المزوّرون أكثر تحديدا؟ ولماذا اكتفوا بالمطالبة بالقليل بينما كان بالإمكان أن تكون السماء هي سقف هذه المطالب؟ إن لم يكن المسيحيون طموحين أكثر من اللازم، فالسبب يبدو بسيطًا جداً: كانت عهود النَّبيّ الأصلية معروفة جداً، وأي تحريف من ذلك القبيل كان سيُكتشف ويُدان ويعاقب مرتكبه كما ينبغي في الوقت المناسب. ونتيجة لذلك اكتفوا بالحفاظ علىٰ العهود الموجودة التي تلقوها من النَّبيّ مُحَمَّد نفسه كما عملوا علىٰ حمايتها وترويجها. قد يكون النساخ هم من ارتكب الأخطاء الموجودة فيها. لكن هٰذا حصل في الغالب عن غير قصد. ويبقىٰ سؤال في انتظار الحسم يتمثل فيما إذا كان ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم‘ الذي يرجع تاريخه إلىٰ سنة ١٥٣٨م هو بمثابة السلف لـ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم‘ الممنوح سنة ١٦٣٠م. ربما كان الأول موجهاً إلىٰ المسيحيين الأقباط بمصر، بينما كان الأخير موجهاً الىٰ المارونين بفلسطين. قد يكون من السابق لأوانه التوصل إلىٰ أية أحكام أو استنتاجات قطعية في هٰذا الوقت المبكر (من البحث).

الفَصْل ٦

عَهدُ النَّبيّ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم لِلمَسِيحيّين الآشُوريّين

مُـقَدِّمَة

إذا كان 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' غير معروف عند المسلمين إلىٰ حين إعادة اكتشافه، منذ حوالي مائة عام تقريبـًا، فإن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' كان معروفـًا منذ زمن طويل عند مسلمي بلاد الرافدين العليا، أو منطقة الجنوب الشرقي من تركيا وجزء من شمال العراق. خلافـًا لمعظم عهود النَّبيّ الأخرىٰ، فإن النسخة الأصلية من هذه الاتفاقية كُتبت، كما يُزعم، باللغة الفارسية (بريفيك ١١٤)، وسوف يكون هٰذا شيئـًا مفاجئـًا بالنسبة لأغلبية المسلمين. بينما تعتبر هذه المسألة إحدىٰ القضايا الكبرىٰ التي تحتاج إلىٰ معالجة، فإنها ليست قضية تستدعي أي ادعاءات بديهية عن كونها مزورة. إنها علىٰ العكس من ذلك، بمثابة حافز للباحث والناقد للقيام بتحليل أكثر عمقـًا للادعاءات الصادرة بخصوص هٰذا العهد العجيب.

قَضَايَا تَهُـمّ أَصَـالَة وَصِحَّـة النُّـصُوص

بالنسبة لجورج دايفيد ماليش، يرجع أصل 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين'، والـذي يسميه بـ'الاتفاق بين النَّبيّ مُحَمَّد والمسيحيين النصارىٰ الشرقيين'، إلىٰ الحدث التالي:

كتب محمد رسالة إلىٰ سيد Said، رئيس قبيلة نصرانية (مسيحية)، وطلب منه هو وأفراد قبيلته أن يَقبلوا تعاليم الإسلام. وهكذا التقىٰ كل من جهب اللحاح Jahb Alahah، الأسقف، وسيد بالنَّبيّ مُحَمَّد ووافقا علىٰ دفع الجزية له مقابل التمتع بحرية العبادة علىٰ طريقتهم دون أن يمسهم سوء من المسلمين. وقد تم توقيع الوثيقة من قبل محمد نفسه وجماعة من قادة المسلمين. وقد كتبت باللغة الفارسية وبقيت محفوظة عند المسيحيين لعدة قرون (٢٢١).

قيل إن المسيحيين الآشوريين احتفظوا بالنسخة الأصلية علىٰ مر القرون حتىٰ عهد السلطان سليم الأول (حكم ١٥١٢ -١٥٢٠م)، فقط ليستولي عليها السلطان. كما يسجل ماليش في كتابه تاريخ الأمة السورية والكنيسة الإنجيلية الرسولية الشرقية القديمة ما يلي:

> "في سنة ١٥١٧م، جاء السلطان سليم إلىٰ القسطنطينية قادماً إليها من بغداد، ويقال إن البطريرك شمعون الرابع زار السلطان وكشف له عن الوثيقة النفيسة. وقال السلطان إنها ذات قيمة عالية إلىٰ درجة أنها تستحق حفظها في الخزينة الملكية بالقسطنطينية. وما كان علىٰ البطريرك إلا أن يتخلىٰ عنها، ولكن سليم أعطاه نسخة من الوثيقة، تحمل توقيعه الشخصي. وقد تم الاحتفاظ بالنسخة عند البطريرك، ولا تزال موجودة. أما النسخة الأصلية فموجودة بالقسطنطينية" (ماليش ٢٢١).

إن رواية هذه الأحداث شبيهة بشكل لافت جداً بالروايات التي تناقلها مسيحيو نجران. وقد يكون اسم 'جهب اللحاح' هو تحريف لأبي الحارث، أما 'سيد' فقد يكون هو السيد أبسيسو، وهما زعيما الوفد القادم من نجران الذي التقىٰ النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. أما عن مصير النسخة الأصلية من 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' فيبدو أنها عرفت نفس المصير الذي عرفه 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'. في كلتا الحالتين، هناك بطل واحد ذو تأثير علىٰ ما حدث ألا وهو السلطان سليم الأول، كما أن السنة متطابقة تماماً، وهي سنة ١٥١٧م. بالنسبة لبعض الباحثين، يمكن أن تؤشر هذه الخصائص المشتركة إلىٰ التملك والحيازة. بعبارة أخرىٰ، بالإمكان أن يكون المسيحيون الآشوريون قد طالبوا بحقهم في امتلاك 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' بدعوىٰ أنه يخاطب جميع المسيحيين. إذا كان العهد ينطبق علىٰ مسيحيي جبل سيناء، فإنه ينطبق أيضاً علىٰ كل المسيحيين الآخرين علىٰ حد سواء. من الممكن أن يكونوا قد حصلوا فقط علىٰ نسخة من العهد الأصلي أو استنسخوا هٰذا الأخير، ومع مرور السنين صاروا يعتقدون بأنهم كانوا قد مُنحوا عقدهم الخاص المتعلق بالحماية والامتيازات، بينما هم، في الواقع، تبنّوا فقط الوثيقة التي كانت موجهة أصلاً لدير

القديسة كاترين. يبقىٰ هٰذا في نطاق الممكن. ومع ذلك، فإن لهذه التشابهات المريبة تفسيرات أخرىٰ لا تقل مشروعية.

إن تشابه الأسماء ليس ذا أهمية تذكر بما أن مخزون الأسماء الشخصية عند المسيحيين آنذاك كان نطاقه محدوداً جداً. لقد التقىٰ عدد كبير من الوفود النبيَّ محمداً ﷺ خلال العامين الأخيرين من حياته؛ وبالتالي، فمن المحتمل جداً أن يكون قد استضاف مسيحيين، ليس من نجران فقط، بل أيضـًا من مصر، و بلاد الشام، وبلاد فارس وغيرها. أما بالنسبة للرأي القائل إن السلطان سليم الأول هو من أصر، سنة ١٥١٧م، علىٰ ضرورة الاحتفاظ بـ'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين'، في خزانة اسطنبول، فإنه معقول تمامـًا من ناحية التسلسل الزمني. من بين جميع الخلفاء [العثمانيين]، كان سليم الأول هو الأكثر إصراراً في بحثه عن الآثار الدينية المقدسة. كان هو ووكلاؤه يجوبون البلدان الإسلامية بحثـًا عن نسخ عتيقة للمصحف الكريم، وعن رسائل رسول الله ﷺ، ورسائل أتباعه والأنبياء السابقين. وقد تزامن عام ١٥١٧م مع بلوغ حروب سليم التوسعية أوجها، أولا في بلاد فارس، ثم بعد ذلك في فلسطين ومصر، مما جعل الإمبراطورية العثمانية، بمساحتها البالغة حوالي مليار فدان، إحدىٰ أقوىٰ اللاعبين السياسيين في العالم. كما هي العادة، تتقرب الشعوب المغزوة في غالب الأحيان من الحكام الجدد للتعبير عن استسلامها، أو لتقديم الولاء، وللمطالبة بالحماية والامتيازات. قد يكون ذلك هو الوقت الأمثل بالنسبة للمسيحيين الآشوريين أو الأرمن للكشف عن نسخ معاهداتهم الخاصة مع النَّبيّ ﷺ.

سيقول المشككون بالتأكيد إن ذلك الظرف كان هو الوقت المثالي لتلفيق عقود حماية كاذبة، عقود رديئة علاوة علىٰ ذلك، لأنها لم تكن حتىٰ مكتوبة بالعربية، بل بالفارسية. ليس هناك أي إشكال بالنسبة لكل من يعتقد بأن النَّبيّ ﷺ كان قادراً علىٰ التحدث بالفارسية، كما تدل أحاديث في مسلم والبخاري. أما أولئك الذين يشكّون بأنه كان يتكلمها، فيجب تذكيرهم بأن أحد أقرب صحابته كان هو سلمان الفارسي (توفي ٦٥٤م)، الذي كان يتقن تمامـًا، ليس الفارسية فحسب، بل أيضـًا الآرامية، وربما اليونانية أيضـًا. وسلمان الفارسي، كما هو معروف في العربية، لم يكن متعلما

فقط، بل كان أول من قام بترجمة جزء من القرآن الكريم إلىٰ اللغة الفارسية -سورة الفاتحة، تحديداً-، بعد ترخيص النَّبيّ له بذلك (حميد الله، ٢١٠). وبالتالي، فقد كان من السهل بالنسبة له أن يعمل كناسخ عند النَّبيّ عندما يتعلق الأمر بكتابة رسائل أو عقود باللغة الفارسية. فضلاً عن ذلك، يبدو أن كون 'العهد' مكتوباً بالفارسية لم يفاجئ سليم الأول أو أياً من علمائه. لو استنتج هٰؤلاء بأن 'العهد' مزور لأتلفوه وعاقبوا مرتكبي هٰذا التزوير بالقتل بحد السيف. لو كان الأمر كذلك لما تم وضع 'العهد' في الخزانة، ولما أعطيت نسخة للمسيحيين عوضاً عنه.

أما فيما يخص قضية اللغة، فإنه من المستغرب أن يطرح الأكاديميون أصلاً مشكلة كتابة 'عهد محمد للمسيحيين الآشوريين' بالفارسية، في الوقت الذي تستهل فيه الوثيقة نفسها بالكلمات التالية:"ترجمة عهد النَّبيّ الأكرم، صلىٰ الله عليه وآله". هٰذا المقطع، الوارد في 'العهد' الذي قدمه ماليش، لم يُترجم إلىٰ الإنجليزية. بينما يبدو من المعقول أن يكون سلمان الفارسي قد كتب 'العهد' بالنيابة عن النَّبيّ ﷺ، فإنه يقال بأن الكاتب هو معاوية بن أبي سفيان. إن هٰذا الأمر مثير للاستغراب. إذا كان الصفويون قد قاموا بإصدار مرجع لعهد النبي، فلماذا لم يقوموا بحذف اسم معاوية؟ بما أنه بإمكان اللغة نفسها أن تحتوي علىٰ مؤشرات دالة، فقد كلفتُ عدة باحثين أكاديميين من ذوي التخصص في العلوم الدينية، وكلهم أشخاص فارسيون أصليون يتكلمون الفارسية كلغة أم، أن يفحصوا الوثيقة بإمعان. وقد أجمعوا بأن اللغة كانت مطابقة للغة التي كانت مستعملة في بلاد فارس خلال القرن السابع عشر. لكن أحد الزملاء انتابه إحساس بأن اللغة كانت قديمة ومهجورة إلىٰ حد يمكن الاعتقاد معه بأنها كُتبت خلال عهد النَّبيّ ﷺ. ومع ذلك تبقىٰ الحقيقة أن كُتّاب النثر الفارسيين كانوا قادرين علىٰ الكتابة بذلك الأسلوب حتىٰ حدود أوائل القرن العشرين. ومع ذلك أيضاً، لا أحد من هٰؤلاء الكتاب أو الباحثين تمكن من ملاحظة أي شيء يدل علىٰ أن الوثيقة مزورة. أما عن الكتابة نفسها، فبإمكانها أن تقدم الدلائل؛ لكن لم يثبت لحد الآن فيما إذا كانت النسخة في نص ماليش قد دُوِّنت في العصور القديمة أم الحديثة. رغم أنه قيل لي بأن الترجمة الإنجليزية جيدة، فإنها ليست صحيحة تماماً، خاصة فيما

يتعلق بقائمة الشهود في آخرها. ولذا، فمن اللائق بكل تأكيد القيام بترجمة جديدة وتامة. وإذا كانت هذه المعاهدة الفارسية ترجمة لمعاهدة سيناء، فلماذا نجد فيها سبعة وعشرين شاهداً؟ بينما لا نجد في إثنتين من معاهدات سيناء إلا ستة عشر شاهداً، وفي أربعة أخرىٰ إثنين وعشرين شاهداً؟ هل كانت تلك محاولة لإعطاء المعاهدات أعلىٰ درجة من درجات تصنيف الحديث النبوي، أي درجة 'المتواتر'، الدالة بأن حديثا ما مرّ بشكل تسلسلي عبر عدة أجيال متواصلة من الرواة؟

إن حقيقة وجود 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' تم إثباتها منذ زمن طويل. فكما يؤكد وليام أينسر وغرام William Ainser Wigram: "تقر الروايات الآشورية بأن امتيازات خاصة قد تم منحها لكنيستهم وبطريركهم من خلال مرسوم أصدره النَّبيّ نفسه" (وغرام، مقدمة، ٣١٠). وكما اعترف قائد اللواء ج. ج. براون Brigadier General J.G. Browne: "لقد أعطىٰ النَّبيّ مُحَمَّد للآشوريين مرسوماً مكتوباً ...يمنحهم ترخيصاً بممارسة شعائرهم الدينية دون تدخل" (n.p). وكما كتبت صاحبة العصمة سورما دبايت مار شيموم (١٨٨٣– ١٩٧٥م): "لقد كان من المعلوم جداً لدىٰ مسلمي هاكياري Mussalmans of Hakkary أن هناك مرسوماً خاصاً أعطاه النَّبيّ مُحَمَّد لبيتنا، هٰذا بالإضافة إلىٰ سكين خاص من هداياه، كما يعتقد عموماً" (n.p). وحسب هذه العضوة من البيت البطريركي، فقد:

> "كان 'المرسوم' مزخرفاً بحروف مذهّبة علىٰ رق، وكان مكتوباً بشكل دائري، مع بصمة يد في الوسط (هٰذا نوع قديم من الخط العربي. كانت بصمة يد مانح الشيء مطبوعة وسط الرق، ومحتوىٰ المرسوم مكتوباً حولها، بشكل لولبي متصل). كان مقبض السكين من ذهب، مع قطعة من المرجان الأحمر موضوعة علىٰ الحجرة المدورة، وإهداء مرصع بالذهب علىٰ حده" (n.p).

وتضيف سورما دبايت مار شيموم موضحة أن مرسوم النَّبيّ مُحَمَّد الذي أُعطي للبيت البطريركي كان محل تخليد واحتفاء ديني "مرة كل عام". تقول سورما: "يتم اختيار مولاً من جولميرك (Mollah of Julamerk) يأتي لقراءة الوثيقة في الجمع العام» (n.p). بهذه الطريقة، بقيت ذكرىٰ 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين للآشوريين'

محفوظة وحيّة عند المسلمين والمسيحيين. وبما أن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ كان قد بوأ أسرتها مكانة خاصة، فإن مسلمي المنطقة يعترفون بهٰذا الأمر ويقدرونه. وقد كتبت شيموم تقول:»حتىٰ المسلمون الأكثر ورعـاً —أولئك الذين لا يريدون، كقاعدة، أن يأكلوا أبداً مما ذبحه المسيحي كانوا مستعدين أن يأكلوا، بلا تردد، من أي حيوان ذبحه أحد أعضاء الأسرة البطريركية» (n.p). وكما يؤكد وغرام Wigram فإنه "كان حقيقة لا يعتريها شك أن المسلمين كانوا ينظرون باحترام للبيت البطريركي، وهو احترام لم يظهروه تجاه الأساقفة المسيحيين الآخرين" (وغرام، 'مقدمة' ٣١٠).

"في جيلو، يكتب معالي إيرل بيرسي، "كان إحد أقدس الآثار لكنيسة مار زايا Mar Zaia هو منديل مليء بالكتابة بالعربية" يعتقد السكان الأصليون أنه مرسوم تركه النَّبيّ نفسه يقدم لهم من خلاله ترخيصـاً رسميـاً وحماية لديانتهم" (٦٤٥). ويوضح بيرسي قائلا:

> "يؤكد أثر مماثل أن مضمون 'الفرمان' الذي يقدمه الباب العالي لكل من تعاقب علىٰ تسيير الأسقفية، معززاً لسلطته الروحية علىٰ نساطرة الإمبراطورية، كان قد سبق أن منحه النَّبيّ مُحَمَّد أصلاً لإيشي ياو Ishy Yaw، بطريرك الشرق آنذاك، وكان مقيما في بغداد؛ وقد قدّم أسيماني، في المكتبة الشرقية Bibliotheca Orientalis التي تم جمع محتوياتها لصالح كليمنت الحادي عشر، النَّصّ اللاتيني لرواية بارهبرايوس (Bar Hebraeus) حول هذه الصفقة الاستثنائية. ويقول إن هدايا كبيرة ساعدت علىٰ التفاوض حول هذه الاتفاقية قُدِّمت من قبل المدعو سيد، أمير نجران المسيحي (ناغرانونسيوم Nagranensium). وبمقتضاها منح محمد 'شهادة' للمسيحيين توصي بحمايتهم لدىٰ العرب، وتحفظ لهم عقيدتهم وقوانينهم، وتعفيهم من الخدمة العسكرية. إذا دخلوا إحدىٰ بيوت المسلمين فإنهم محميون من التعرض للسب بسبب عقيدتهم، كما يُسمح لهم بتشييد كنائسهم بالطريقة التي يشاءون، بل وكان العرب مدعوّين لمساعدتهم علىٰ ذلك؛ وأخيراً كان مقدار الضرائب التي يمكن جمعها من الأغنياء والفقراء، محددة تحديداً مضبوطـاً ودقيقـاً (٦٤٥-٦٤٦).

بينما يُحتمل أن تكون طوائف مسيحية مختلفة قد تنافست لنيل شرف الحصول علىٰ اتفاقية مع رسول الله، فمن الواضح أن عدداً من رجال الدين قد جاءوا إلىٰ مُحَمَّد ﷺ بحثاً عن مواثيق. ولم تكن تخامر الخليفة عمر شكوك كثيرة بخصوص مطالب المسيحيين الآشوريين. ومن الواضح أن الحقوق التي أكدها عمر هي نفس الحقوق الممنوحة في عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين. يحكي وليام وينغرام في كتابه 'الآشوريون' ما يلي:

"لم يطرح الزعماء العرب، الممثلين للخليفة عمر، أي إشكال ... كان للمسيحيين من أهل الكنيسة الآشورية أن يحصلوا علىٰ أمن كامل باعتبارهم 'ميليت' 'millet' [أي طائفة] في البلد، عملياً بنفس الشروط التي كانوا قد حصلوا عليها من عند الفرس. أي أن الذين ينتمون إلىٰ جنسية ما كان لهم الحق أن يحتفظوا بها وأن يمارسوا شعائرهم الدينية، مع الإعفاء من الخدمة العسكرية. كان بإمكانهم أن يقوموا بإصلاح كنائسهم، لكن لم يكن مسموحاً لهم أن يشيدوا كنائس جديدة بدون ترخيص؛ كان عليهم بطبيعة الحال أن يؤدوا الضرائب العادية، فضلاً عن 'الخراج' كبديل عن الخدمة العسكرية التي لم يكونوا قادرين علىٰ القيام بها والتي لم يكن المسلمون ليقبلوها، رغم أنه كان قد تم الإعلان عن إعفاء الرهبان منها. أخيرا، كان قد تم التنصيص بشكل خاص علىٰ أنه بإمكان البنات المسيحيات اللواتي تزوجهن المسلمون التمسك بشريعة دينهن، والقصد هنا ممتاز، لكنه صعب التنفيذ في الواقع". (٣٣)

لقد كان الحدث المتمثل في إعطاء رسول الله عهد حماية للمسيحيين الآشوريين معروفاً جدا لدىٰ المسلمين. وقد جاء في الروايات الآشورية أن مسلماً سنياً، من أنصار المذهب الحنبلي احتال ليغتصب قطعة أرض تنتمي للكنيسة اليعقوبية في بغداد. وعندما أُحبط مخططه، حصل علىٰ جثة مسلم، فأخذ يطوف بها مستعرضاً إياها عبر شوارع المدينة، وهو يصيح: "لقد قتل المسيحيون هٰذا الرجل". وكان ذلك كافياً لتحريض الحشود الطائشة من المسلمين لينتفضوا ضد الطائفة المسيحية، حيث

أطلقوا العنان لأعمال النهب والقتل. وقد حاصروا كنيسة لجأ إليها خمسمائة مسيحي، وهكذا أحرقوا كل من كان فيها. وبعدما أُحرقت الكنيسة بأكملها، فوجئ بعض المسلمين لما عثروا علىٰ نسخة من الإنجيل بقيت سليمة من ألسنة النيران. "هٰذا دين حقيقي، بكل تأكيد"؛ قال أحد المسلمين بفزع، "نحن نخطئ بعدم طاعتنا لأمر رسولنا الذي أعطىٰ لهٰؤلاء الناس ميثاقا لا يجب المساس به" (يوحنان Yohannan ٩٨- ٩٩).

بالفعل، كانت نسخة من 'فرمان' النَّبيّ مُحَمَّد قد تم الاحتفاظ بها من قبل بطريرك الكنيسة الآشورية (ستافورد ٩٥). وقد أعطىٰ هٰذا الميثاق المذكور للكنيسة حقوق حرية العبادة والإدارة، وكذلك الحق في أن تصير 'ميليت'، أي طائفة محمية يرأسها أسقفها الرئيس، الذي أُعطي الإذن لتمثيلهم عند التعامل مع الحكام المسلمين (ستافورد ٩٥). وكان هٰذا الأثر المقدس محفوظًا في الكنيسة الكبرىٰ لمار زايا بجيلو، وهي حارة تقع في منطقة الهكاري ببلاد ما بين الرافدين العليا، والتي كانت تتكون من حوالي عشرين قرية مسيحية آشورية. ويقال إن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' كان بمثابة درع وحماية لأتباع المسيح. وقد كان هٰذا الميثاق قويـًا إلىٰ حد أنه كلما أُشهر إلا وألقىٰ المسلمون سلاحهم، وأطاعوا النبي، وتركوا المسيحيين الآشوريين سالمين من أي أذىٰ. وكان المسلمون، كما هو واضح، علىٰ علم بالتحذير الوارد في 'العهد'، والذي ينص علىٰ أن كل من لم يطع ما جاء فيه سوف يُبعد عن بركات السماء إلىٰ الأبد.

إذا كانت النسخة الأصلية من 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' قد أُخذت إلىٰ إسطنبول، حيث لازال يتعين، للأسف، أن يُعثر علىٰ مكان وجودها، فماذا وقع إذن للنسخة المُصدّق عليها التي تركها السلطان سليم الأول؟ حسنـًا، حسب رأي جورج دافيد ماليش، فإن النسخة الأصلية أُخذت إلىٰ إسطنبول سنة ١٥١٧م. وهٰذا أيضـًا هو رأي وليام شونسي إمهارت، وجورج م. لامسا اللذيْن كتبا ما يلي:

> "هناك مرسوم وثائقي أصدره محمد وكتبه علي، زوج ابنته، يتعهد فيه النساطرةَ بالحماية والامتيازات علىٰ أيدي أتباعه. لقد قُدِّمت هذه الوثيقة

للبطريك النسطوري إسفو يابه Essvo Yabh أواخر القرن السابع، وقد احتفظت به الأسرة البطريركية حتىٰ نهاية القرن الأخير [القرن التاسع عشر الميلادي]. ويقال بأنه الآن موجود في المتحف العثماني بالقسطنطينية" (٧٥-٧٦).

لكن من المحتمل أن يكون الكاتبان يخلطان هنا بين 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' و'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'، حيث إن لا هٰذا ولا ذاك، بالمناسبة، موجود حاليًا في فهرس المجموعة التي يضمها المتحف التركي المشهور.

إن المالكين الحقيقيين للوثيقة لا يشيرون إلىٰ أي عملية تحويل كهذه، وحسب الظاهر، يلمحون إلىٰ أن 'الفرمان' المحتفظ به عند الأسرة البطريركية هو الأصلي ومعه أيضًا خنجر أعطاه النَّبيّ كهدية. وبما أن سورما دبايت مار شيموم هي أخت مار شمعون XXI بنيامين، بطريرك الكنيسة الآشورية الشرقية (١٨٨٧ – ١٩١٨م)، فيجب أن تُعطىٰ الأولوية لشهادتها مقارنة بالتخمينات الأكاديمية لشخص مثل بيرسي. إذ أن آثار النَّبيّ المقدسة كانت فعلاً في مِلكية أسرتها، وهي تحكي وقائع عن أشخاص شاهدوا تلك الآثار حقيقة. سواء كانت تلك هي النسخة الأصلية، أو نسخة مصدقة عنها، فماذا كان إذن مصير الأثر المحفوظ؟ حسب وغرام: "كانت هناك وثيقة، تزعم أنها الهدية المذكورة، كانت بالفعل محفوظة حتىٰ أواسط القرن التاسع عشر، عندما صار الحقد الكردي علىٰ المسيحيين يغلب علىٰ توقيرهم للنبي ﷺ، وتعرض العهد/ الهدية للهلاك في "مجازر بدرخان بيغ" (مقدمة ٣١٠). وحسب ستافورد، فإن الحادث الكارثي وقع سنة ١٨٤٧م وكان من نتائجه إتلاف 'الفرمان' (٩٥). ويؤكد القائد اللواء ج. ج. براون أيضًا بأن ١٨٤٧م هي السنة التي تم فيها إتلاف 'عهد النبي'، كما نقرأ في مقال 'الآشوريون: دَيْن شرف':

"منذ ما يقرب من ١٧٠ سنة، انشق جزء من الشعب الذي كان يعيش في سهول (الموصل) عن البطريرك (مارشمعون) وشكلوا الكنيسة الكلدانية. عدا ذلك، ليس هناك الكثير مما يذكر حتىٰ عام ١٨٤٧م عندما قام والي

الموصل—الذي أفزعته الروايات التي سمعها عن تزايد قوة الآشوريين—بارتكاب ما يمكن تسميته بالإبادة السياسية. إذ بتحريض منه، وبمساعدة الجيوش التركية، هاجم قائد تركي قوي يسمىٰ بدير خان بيغ الآشوريين. وقد أعقب ذلك مجزرة رهيبة، نجمت عنها أضرار هائلة وأتلف خلالها 'فرمان' محمد (الذي يسمح للآشوريين بممارسة شعائرهم الدينية دون تدخل" (صفحة غير مرقمة).

أما بالنسبة لسورما دبايت مار شمعون، والتي كانت علىٰ صلة وثيقة بالأحداث، خلافاً لمراقب بعيد ما من الخارج: "فإن 'الفرمان'...تم حفظه حتىٰ عهد بدرخان بيغ (١٨٤٥)" (صفحة غير مرقمة). وتؤكد صاحبة النبل أن 'الفرمان' سُرق، ولم يتم إتلافه آنذاك علىٰ غرار خنجر النبي:

"بقيت هذه الأشياء محفوظة ضمن كنوز البطريركية إلىٰ يوم المجزرة، وعندما عثر علىٰ 'الفرمان'، ثم أُحضر وقُدم لبدر خان، صاح قائلاً: "لعنة الله علىٰ نور الله بيغ من جولاميرك، فهو الذي هيّجني ضد 'فرمان' النبي. لو علمت أن 'المرسوم' موجود بداخل هٰذا البيت لما تجرأت أبداً علىٰ مهاجمة أهاليه، ثأر الله منك هذه الحرب".

ويؤكد هٰذا الأمر ثيودور دمار شمعون (١٩٠٦-٢٠٠١م)، وهو عضو آخر من البيت البطريركي:

"عندما ذهبنا إلىٰ ديزان، كان المرسوم، الموضوع دائماً في حقيبة، معلقاً علىٰ عمود بالكوخ، طيلة وجبة منتصف النهار. عندما هاجم الأكراد ذهب رجالنا للقتال في كنيسة مار شاليطا. وسط الفوضىٰ التي سببها الهجوم، تركت الحقيبة وبداخلها الخنجر والمرسوم، وقد سرقها الأكراد وحملوها إلىٰ بدرخان بيغ. عرفنا ذلك لأنه قيل بعد ذلك بأن بدر خان كان قد صرح بأنه لو كان يعلم أن شيئاً مثل ذلك موجود في البيت، لما قام بمهاجمته. وقد كتب خالي هورميزد Hormizd، عندما كان في المدرسة باسطنبول، إلىٰ أخته،

السيدة سورما، يقول إنه سمع بالصدفة إبن بدر خان بيغ في المقهىٰ يقول "إن عائلتنا تملك شيئاً ثميناً عند المسلمين". وقد تكرر مثل هٰذا التصريح علىٰ فم حفيد ابن بدرخان بيغ خلال حديثه مع شخص أرميني من بوهتان، كان يعيش في قبرص، وكان حفيد الإبن يعيش في دمشق بسوريا، وكان يقضي عطلته الصيفية بقبرص. لاشك أنهما كانا يتحدثان عن 'المرسوم' المسروق من قدشانيس". (التاريخ ٣٨)

لكن بيرسي يزعم أنه "عندما احتلت الجيوش التركية القرية أثناء زيارته سنة ١٨٩٩م، كان هٰذا (أي 'عهد النبي') هو الشيء الوحيد الذي اعتقدوا علىٰ ما يبدو أنه جدير بالأخذ معهم" (٦٤٥). يبدو طبعاً أن هٰذا التاريخ أبعد بحوالي نصف قرن، ومع ذلك، فهو بالتأكيد يدل علىٰ أن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' لم يُتلف سنة ١٨٤٥م أو ١٨٤٧م خلال مذبحة بدر خان، بل وقع ذلك في وقت لاحق قبل المجازر الآشورية الفظيعة سنة ١٩١٥م.

كان بدير (بدر) خان بيغ (١٨٠٠ - ١٨٦٨م) —لمن لا يعرف من هو هٰذا الرجل—قائداً كردياً أصبح الزعيم الأول لإمارة بوتان بالجنوب الشرقي لتركيا حالياً حوالي سنة ١٨٢٠م. تحت حكمه، شملت دولته الكردية المنفصلة حتىٰ مقاطعة بهدنان بشمال العراق. وقد حاول تشكيل دولة كردستان المستقلة، مستغلاً ضعف الإمبراطورية العثمانية. وبما أن القوىٰ الأوربية كانت تنشر التذمر وتشجع الانشقاق في صفوف المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية، فقد كان يُنظر إلىٰ الآشوريين، مثل الأرمينيين، بأنهم مصدر تحريض علىٰ الفتنة، أي ما يشبه طابوراً خامساً. وقد كتب وليام تشونسي أمهاردت وجورج م. لامسا بأنه "قيل للمسيحيين الشرقيين بأن العالم كله كانت تسيطر عليه الأمم المسيحية، وبأن سكانه الذين يعيشون تحت الحكم المسيحي كانوا يتمتعون بمستوىٰ عيش أرقىٰ بكثير" (٨٣)؛ وبالتالي، فقد "سبب ذلك في إثارة السخط تجاه الحكام المسلمين"(٨٣). وبينما علق بعضهم آمالهم علىٰ أمريكا وأوروبا الغربية، تضرع آخرون إلىٰ الله بأن ينقذهم الروس، لكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة (٨٨).

وفي محاولة لخلق وطن متجانس مكون من المسلمين الأكراد، شرع بدير خان في إبادة مسيحيي المنطقة. وقد تم أخيراً وضع حد لهذه المجازر التي وقعت في أواسط القرن التاسع عشر علىٰ يد الأتراك بعد أن هددهم الإنجليز والفرنسيون بالتدخل في المنطقة. وإثر هزيمته علىٰ يد العثمانيين سنة ١٨٤٧م، تم نفي بدير خان إلىٰ جزيرة كريت، حيث استغل العثمانيون مهاراته لقهر وإخماد ثورة اليونان الكريتيين سنة ١٨٥٦م. وكجزاء علىٰ خدمته، سُمح له بالانتقال إلىٰ دمشق، حيث مات سنة ١٨٦٨م. وبينما يُزعم بأنه كان لديه من الأبناء ما يتراوح بين أربعين إلىٰ تسعين، فإن العدد الذي تأكد فعلا هو إثنان وعشرون فقط، وكان معظم هٰؤلاء لازالوا يلعبون دوراً هاماً في الشؤون العثمانية والكردية. وإذا كان 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' قد سُرق فعلاً من قبل أسرة بدير خان بيغ، فتبقىٰ هناك الإمكانية الواضحة بأنه قد يكون موجوداً حتىٰ الآن في حوزة أيدي خاصة، وقد يكون تحديد مكان وجود 'العهد' واسترجاعه من مهام جيمس بوند/ إنديانا جونز معاصر.

ومع ذلك، فإن ادعاء بيرسي بأن الجيوش التركية هي التي استولت علىٰ 'العهد' سنة ١٨٩٩م لا يمكن استبعاده ببساطة. بما أن الأسرة البطريركية اضطرت للفرار من المنطقة أواسط القرن التاسع عشر بعد مجازر بدير خان، فمن المحتمل جدا أن تكون الوثيقة قد بقيت في أيدي اللصوص المحليين إلىٰ أن صودرت علىٰ يد شباب 'تركيا الفتاة'. ويوضح ألبيرت ييلدا، النائب المسيحي السابق في المؤتمر الوطني العراقي، بأن 'المرسوم' اختفىٰ دون أن يترك أثراً سنة ١٨٤٧م، ثم بعد ذلك أتلفه الحكام الأتراك قبل أن يشرعوا في قتل ٣٠,٠٠٠ مسيحي (سيمون-نيتو). هٰذا التسلسل الزمني غير واضح، لكن يبدو أن ييلدا كان يشير إلىٰ المذبحة الآشورية سنة ١٩١٥م، حيث قامت الجيوش التركية، مدعومة بالقبائل الكردية المجاورة بقتل أعداد كبيرة من المسيحيين بمنطقة جيلو، ناحية الهكاري ببلاد الرافدين العليا، وقد أجبروا الآشوريين الناجين من المجزرة علىٰ الفرار إلىٰ سالماس بإيران، ومن هناك تفرقوا كلاجئين عبر العالم. إن الادعاء بأن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' قد أُتلف قبل أي مذبحة كبرىٰ معقول جداً، سواء تم ذلك سنة ١٨٤٥، أو ١٨٤٧م، أو حتىٰ سنة ١٩١٥م. إن مرتكبي

هذه الجريمة ضد الإنسانية لا يمكن أن يكونوا مسلمين، وفقـًا لأي تصور ممكن، بل كان الجناة هم شباب ’تركيا الفتاة‘ وهم حركة من الثوار العلمانيين كانوا يرغبون في تقليد الغرب في كل شيء حتىٰ في المجازر.

ومن اللازم الإشارة هنا إلىٰ أن المسيحيين كانوا دومـًا يعيشون في أمان تحت الحكم الإسلامي. كما لاحظ امهاردت ولامسا: "لم يدرك الآشوريون، وكذلك المسيحيون الآخرون في الشرق الأدنىٰ، أبداً قيمة تلك الامتيازات الكريمة التي منحها إياهم جيرانهم المسلمون. كانت المشكلة مع هٰؤلاء المسيحيين تكمن في أنهم تركوا أحراراً أكثر مما ينبغي" (٨٢). "في البداية، كان يبدو أن المسلمين عاملوا المسيحيين معاملة الاصدقاء"، يلاحظ بيرسي في معرض حديثه عن علاقات الأتراك والأكراد والمسيحيين الآشوريين (٦٤٥). وعندما تغير موقفهم، يقول مؤكداً: "كان السبب راجعـًا، كما في الوقت الحالي، ليس إلىٰ الخصومة الدينية بل إلىٰ الغيرة من تفوقهم المادي" (٦٤٥). إذا قام الأكراد والأتراك باستهداف الآشوريين، وبعد ذلك الأرمن، كما فعلوا بالتأكيد، وكما لا يمكن لأي شخص نزيه أن ينكر، فإن ذلك لم يكن نتيجة لأي حافز إسلامي: كان السبب يكمن في اعتبارات قومية وعلمانية وسياسية واقتصادية. في الحقيقة، لكي يفعلوا ذلك، كان علىٰ الأكراد والأتراك أن يرتدّوا عن الدين بصفة تامة، كما يؤشر إلىٰ ذلك رمزيـًا تخريبهم المادي ’لفرمان‘ النَّبيّ مُحَمَّد.

إن الأغلبية العظمىٰ من الباحثين الذين كتبوا عن المسيحيين الآشوريين يتعاملون مع ’عهد النبي‘ الممنوح للبيت البطريركي باعتباره حقيقة تاريخية. لكن وغرام يرىٰ بأن "المطالبة بمكانة خاصة ليس من اليسير إثباتها في الظروف الحالية" (’مقدمة‘ ٣١٠). إن مجرد عدم وجود ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين‘ في الوقت الحالي لا يعني بأنه لم يكن موجوداً علىٰ الإطلاق. لا تنس أن هناك ترجمات لهذه الوثيقة تم إنجازها، ونحن محظوظون في حصولنا عليها. لو تم تدمير الوثيقة الأصلية لـ’إعلان الاستقلال‘ [الأمريكية] Declaration of Independence في حريق، وكل ما تبقىٰ لدينا هي نسخ في كتب أخرىٰ، فهل يعتبر ذلك حجة لأي باحث للتشكيك في صحة وجودها؟.

إن الإشكال الكبير الذي يطرحه 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' يكمن في هوية الناسخ الذي كتبه: معاوية ابن أبي سفيان (٦٠٢ – ٦٨٠م). فحسب أغلب المصادر الإسلامية، لم يعتنق معاوية الإسلام إلا قبيل فتح مكة في العام الثامن من الهجرة أو ٦٣٠ م. ومن الطبيعي أن يتساءل النقاد هنا: لماذا يقوم معاوية بدور كاتب النبي؟ رغم أن ذلك قد يأتي كمفاجأة بالنسبة لبعض الشيعة، فإن معاوية قد عمل فعلاً ككاتب للنبي محمد خلال السنتين الأخيرتين من حياته، من سنة ٦٣٠ إلىٰ سنة ٦٣٢ م. لكن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' كُتب سنتين قبل ذلك. إن لم تكن الوثيقة مزورة، فهناك ثلاث تفسيرات ممكنة:

(١) إن التاريخ المسجل في الوثيقة غير مصحح، كما في العديد من الوثائق في ذلك العصر، وبالتالي فإن تاريخها يرجع في الحقيقة إلىٰ السنتين الأخيرتين من حياة النَّبيّ ﷺ؛ أو (٢) أن معاوية كان فعلاً قد اعتنق الإسلام في تاريخ أسبق كما يرىٰ بعض الباحثين السنيين؛ أو (٣) أن معاوية كان، ببساطة، موجوداً في المدينة آنذاك وطلب منه أن يقوم بدور الوسيط بين المسلمين والمسيحيين. بما أنه كان مشركـاً، فمن المحتمل أن يكون قد اُعتبر بمثابة طرف خارجي أكثر حياداً. لكن أهم من ذلك، كان معاوية ينتمي إلىٰ الفئة القلية من العرب المتعلمين فعلا. إذ كما يوضح البلاذري (توفي ٨٩٢م)، كان هناك فقط سبعة عشر شخصـاً من أعضاء قبيلة قريش ممن يستطيعون القراءة والكتابة (انظر شيجن Chejne 'اللغة العربية'، ٥٩، ١٨٩، م ١٤). كانت حفصة وعائشة وأم كلثوم من بين النساء المتعلمات، بينما كان من بين الرجال المتعلمين كل من: عليّ وَعُمَر، وعثمان، وأبو عبيدة، وطلحة، وأبو سفيان، ومعاوية (١٨٩، م ١٤). كان هناك آخرون، بكل تأكيد. فعلىٰ سبيل المثال، قام الرسول ﷺ بإرسال ابنه بالتبني، زيد، ليتعلم اللغتين العبرية والسريانية، للتقليل من اعتماده علىٰ الكتاب اليهود الذين وظفهم قبل النزاع مع يهود المدينة (زيتلين ١٣١ Zeitlin). في المجموع، يشاع أنه كان لدىٰ الرسول علىٰ الأقل خمسة وأربعون كاتبـاً، كلهم كتبوا نيابة عنه في وقت أو آخر.

تَعلِيق على مَضمُون المُعَاهَدَة

هناك قواسم مشتركة عديدة بين 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين' و'العهد' الذي أُبرم مع رهبان دير القديسة كاترين بسيناء. ومع ذلك فإنه يحتوي على العديد من العناصر التي لم ترد في سابقه. كما أنه يقدم تفاصيل أوفى في مختلف أوجه الموضوع. كما هو الشأن بالنسبة لوثائقه الأخرى (خطاباته، ومواعظه وبياناته)، افتتح النَّبيّ عهده بذكر اسم الله ودوره الشخصي كآخر الرسل: "لَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيَّ فِي رُؤْيَا مَا سَوْفَ أَفْعَلُ،" يقول النبي، "وَامْتِثَالاً لأَمْرِهِ تَعَالَىٰ أَتَعَهَّدُ بِأَنْ أَحْفَظَ هَذَا المِيثَاق". بعبارة أخرىٰ، لم يكن النَّبيّ يتصرف إنطلاقاً من إرادته الشخصية، بل كان مجرد وعاء وقناة، وتجسيد للوحي. لم يكن محمد في القرآن فحسب، بل كان القرآن أيضاً في محمد:

"لأَتبَاعِي مِنَ المُسْلِمِين، - يبدأ البند الاول، "أَطِيعُوا أَمْرِي، أُحْمُوا وَسَاعِدُوا الأُمَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ فِي بَلَدِنَا هَذَا، فَوْقَ أَرَاضِيهِمْ". هذه الكلمات مهمة نظراً للمغزى الذي تتضمنه. إن المسيحيين، المعروفين باسم النصارى بالعربية، بمعنى أتباع يسوع الناصري (٧-٢ قبل الميلاد إلى ٣٠- ٣٦م) معترف بهم هنا باعتبارهم شعباً وأمة قائمة الذات، شعباً وأمة موجودين داخل حدود الأمة الإسلامية العظمى. "إلى حدود أواخر القرن الثالث عشر، - يكتب فيليب جينكينز (ولد سنة ١٩٥٢م)، كان مسيحيو الشرق "لازالوا يسمون أنفسهم 'نصارى'، وهي صيغة تحتفظ بالمصطلح الأرامي الذي استعمله الحواريون؛ وكانوا ينادون يسوع بـ'يوشع'. كان الرهبان والكهنة يحملون لقب 'ربان' أي معلم أو مدرس، وهي كلمة مرتبطة طبعاً باللقب المتداول 'الحبر' أو'الربّي' (٧)

بدل أن يحاول فرض تجانس قسري علىٰ العالم الإسلامي، جاعلاً منه أمة إسلامية موحدة وناطقة بالعربية، اعترف النَّبيّ بأن هناك أممـاً وشعوبـاً داخل 'الأمة' الاسلامية. لم تتحقق مثل هذه الفكرة أبداً في الغرب حتىٰ نهاية القرن العشرين، عندما اعترفت أخيراً دول مثل كندا بأن إقيلم كيبيك أمة داخل دولة كندا، وعندما اعترفت إسبانيا بكتالونيا، وغاليسيا، والباسك كأقاليم مستقلة داخل دولة إسبانيا. سواء أكانوا يهوداً أو مسيحيين، هندوسـاً أو بوذيين، فإن هذه الطوائف شكلت نوعـاً من أمم متحدة تحت الحكم الاسلامي.

في البند الثاني، يؤكد النَّبيّ ﷺ علىٰ حماية أماكن العبادة: "اتركوا أماكن عبادتهم في سلام". لم يكن أبداً من عادة المسلمين الحقيقيين أن يخربوا أماكن عبادة المؤمنين التوحيديين او حتىٰ أولئك الذين لم يكونوا توحيديين. في المناطق التي كانت محكومة أو لا زالت محكومة بتعاليم رسول الإسلام، لم تقع أبداً هجومات ضد الأماكن المقدسة عند العقائد البوذية أو الشنتوية، او حتىٰ الهندوسية. فقط في العقود الأخيرة بدأ ارتكاب مثل هذه الأعمال المخجلة، وكان أشنعها تدمير التماثيل البوذية في باميان علىٰ يد طالبان أفغانستان في مارس ٢٠٠١م. ويجدر التأكيد أيضا بأن الأشخاص المتورطين في مثل هذه الأعمال قد ألهمتهم السلفية المتطرفة وليس إسلام النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. فلم يكن النَّبيّ ﷺ يحمي الكنائس فحسب، بل كان يأمر أتباعه أن "يساعدوا ويعاونوا رؤساءها وقسيسيها عندما يحتاجون المساعدة، سواء كان ذلك في الجبال، او الصحراء، أو البحر، او في بيوتهم." بعيداً عن معاملة رجال الدين المسيحيين وكأنهم أفراد واقعون تحت السيطرة، كان النَّبيّ ﷺ يحث أتباعه علىٰ خدمتهم ومساعدتهم في كل الأمور. لم تكن الدولة الإسلامية التي حكمها محمد دولة تعطىٰ فيها امتيازات للمسلمين بينما يهمش اليهود والمسيحيون. باعتبارهم أصدقاء وحلفاء للمسلمين، كان المسيحيون يعامَلون معاملة متميزة. قد يطلب منهم أداء بعض الواجبات للدولة، مثل دفع الضرائب، ومع ذلك كانت الحكومة الإسلامية تعترف أيضـاً بأن لديها مسؤوليات تجاه مواطنيها بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية. إذا كان بناء المساجد وإصلاحها متاحـاً، فكذلك كان الأمر بالنسبة للكنائس والدَّيْر والبيع.

في البند الرابع ينصح النَّبيّ أتباعه قائلا

> "لاَ يَمُسُّ مُسْلِمٌ شَيْئًا مِنْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، سَوَاءً أَكَانَتْ بُيُوتًا أَوْ مِلْكِيَّاتٍ أُخْرَى، وَلا يُفْسِدُ شَيْئًا مِنْ أَغْرَاضِهِمْ". كما يؤكد بأن "عَلَى أَتْبَاعِي مِنَ المُسْلِمِينَ أَلَّا يَضُرُّوا أَوْ يَنْتَهِكُوا حُرْمَةَ أَيِّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، لأَنَّ النَّصَارَى رَعِيَّتِي، يَدْفَعُونَ الجِزْيَةَ، وَهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُسَاعَدَةِ المُسْلِمِينَ." بما أن النَّبيّ كان يتعامل مع ما كان سابقًا مملكة خاضعة للبيزنطيين، فإن الآشوريين لم يُمنحوا وضعية المعفين من أداء الضرائب، كما كان الشأن بالنسبة لدير القديسة كاترين. والسبب في ذلك راجع إلى أن الآشوريين كانوا يمثلون محورًا اقتصاديًا نشيطًا جدًا، على خلاف جماعة رهبانية. وعلى عكس الرهبان الذين لا يمكن إجبارهم على القتل وخوض الحرب، فقد التزم المسيحيون الآشوريون بدفع الضرائب للدولة الإسلامية ومساعدة المسلمين عندما يُطلب منهم ذلك.

أما عن مقدار الضرائب فقد كان قابلاً للتفاوض. "لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا تَمَّ الاِتِّفَاقُ عَلَيْهِ مِنْ الجِزْيَةِ؛" هذا ما يقرره النَّبيّ ﷺ في البند الخامس، مدركًا بأن الاقتصاديات تشهد زيادة ونقصانًا وبأن الضرائب لا يجب أن تُحدَّد، بل يجب أن تُكيَّف حسب الظروف. خلال أوقات الرخاء والازدهار يمكن أن يزيد مقدارها، أما في فترات الركود والأزمات فينبغي أن يُمنح الناس تخفيفًا من أداء الضرائب للمساعدة على تحفيز الاقتصاد من خلال زيادة الإنفاق. وينص البند الرابع أيضًا بأن "تُتْرَكَ كَنَائِسُهُمْ كَمَا هِيَ، دُونَ تَغْيِير". بعبارة أخرى، لا يمكن أن تهدم أو تبدل أو تغير بنايات أخرى. إن هدم المراكز الصوفية وتحويلها إلى مآرب للسيارات كما حدث في إحدى المدن الإسلامية جوار منطقة الخليج، من شأنه فقط أن يُغضب رسول الله. كما وعد الرسول أن لا يتدخل كذلك في الشؤون الدينية:

"وَأَنْ يُسْمَحَ لِقَسَاوِسَتِهِمْ أَنْ يَتَعَبَّدُوا وَيُعَلِّمُوا كَمَا يَشَاؤُونَ، فَلِلنَّصَارَى حُرِّيَّةَ التَّعَبُّدِ الكَامِلَةِ دَاخِلَ كَنَائِسِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ."

إن حق حرية العبادة هٰذا قد حُرِم منه الكثير من المسلمين منذ أيام الاستعمار الأوربي، فقد أخفقت الديكتاتوريات المستبدة والديمقراطيات الزائفة التي تحكم العالم الإسلامي إخفاقاً ذريعاً في حماية حرية المعتقد. في إحدىٰ الدول الإسلامية الأسيوية، تم حظر مدرسة الإسلام الشيعية، ومن يمارس الشعائر الشيعية يعاقب بالسجن. في بلد عربي خليجي، أُغلقت المراكز الشيعية، سواء تعلق الأمر بالاثني عشرية، او الإسماعيلية، او الزيدية، وغالباً ما يتم هدمها. في العديد من الدول الإسلامية، لا تفتح المساجد إلا لوقت وجيز قصد الصلاة، وتمنع الحلقات الدراسية. كما أن التجمعات الدينية داخل البيوت محظورة أيضاً. وفي كثير من الدول الإسلامية توضع خُطب الأئمة تحت الرقابة، او يتم فرض هذه الخطب من قبل وزارة الإرشاد الديني، والتي ينبغي أن تسمىٰ 'وزارة التضليل الديني'. ومن البديهي أنه إذا كان هٰذا يحدث للمسلمين الذين لا ينضبطون للسياسة الرسمية، فإن نفس الشيء يحدث للديانات الأخرىٰ، مثل المسيحية. باختصار، لقد منح النَّبيّ للمسيحيين حقوقاً أكثر مما حصل عليه الآن المسلمون أنفسهم في الجزء الأعظم من العالم الإسلامي. وإذا كان المسلمون محرومين من حقوقهم في بلدانهم، فيمكن للمرء أن يتصور حالة مناصري الديانات الأخرىٰ. ولنأخذ مثلاً واحداً، إذ يلاحظ في بلد عربي بالجزيرة العربية يعتبر بناء الكنائس غير قانوني. ففي تناقض واضح مع كلام النَّبيّ مُحَمَّد وتصرفاته، أفتىٰ أكبر مسؤول علىٰ دار الفتوىٰ في إحدىٰ البلاد العربية، ويشغل أعلىٰ منصب ديني في البلاد، في مارس ٢٠١٢، بأن "جميع كنائس الجزيرة العربية يجب أن تهدم" (أخبار آسيا). وفي بلد عربي آخر أصدر أحد الأئمة الشيعة فتوىٰ سنة ٢٠١٢، حيث وصمهم بـ"المشركين" و"أصدقاء الصهاينة"، الذين عليهم أن يختاروا بين "الإسلام أو الموت" بينما يمكن أن تُسبىٰ نساؤهم ليصرن "زوجات" للمسلمين (محمود).

ويتواصل الحديث عن ملكية الكنيسة في البند الخامس، حيث يقرر النَّبيّ بأن:

"لاَ يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ صَلَوَاتِهِمْ وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْ بِنَائِهِمْ إِلَى بِنَاءِ مَسْجِدٍ، إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْ النَّصَارَى." كما أنه يحذر بأن "مَنْ خَالَفَ هَذَا الأَمْرَ فَقَدْ خَانَ ذِمَّةَ اللهِ وَعَصَى رَسُولَه."

إن وجود الكنائس، والمساجد، والأديرة، ومعابد اليهود مفخرة للرسول ﷺ ودليل بأنه أُرسل رحمة للبشرية جمعاء. إن تدمير الصروح الدينية واضطهاد الجماعات الدينية من أهل الكتاب أو المذاهب الإسلامية المختلفة يجلب العار لاسم النَّبيّ الطيب.

إذا كان من الحرام الاستخفاف بأهل الكتاب وتخريب ممتلكاتهم، فماذا يمكن إذن أن نقول عن الإسلاميين المزعومين الذين يسبونهم ويسيئون معاملتهم، ويدمرون ليس فقط ممتلكاتهم المادية، بل حيواتهم أيضا؟ إن مثل هٰؤلاء البشر لا يتكلمون ويعملون لمصلحة الإسلام ولا يمثلونه بأي شكل من الأشكال. إنهم في أغلب الحالات، عملاء وأعداء الدين ككل.- عن وعي أو غير وعي.

إذا كان الامبرياليون قد استغلوا المتطرفين الإسلاميين لخدمة مصالحهم خلال العهد الاستعماري، حيث قاموا بنشر السلفية واختلاق القومية العربية من أجل تقويض الإمبراطورية العثمانية، فمن السذاجة الاعتقاد بأن الإمبرياليين الجدد خلال القرنين العشرين والواحد والعشرين لا يفعلون نفس الشيء. بينما يبقىٰ معظم أفراد الحركات الإسلامية المقاتلة في العالم غير مبالين بهذه الحقيقة، فإن العديد، إن لم يكن الغالبية من هذه الحركات تم خلقها وتبقىٰ تحت سيطرة المخابرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والإسرائيلية. إنها تُوظَّف كعوامل عدم استقرار لتبرير الاحتلال المتواصل وتبرير التدخل والغزو. إنها تُستعمل لتلطيخ صورة الإسلام، وتشويه الخيار السياسي الإسلامي، والتأكيد بأن ما من مسلم ذي عقل سليم يمكن إطلاقـًا أن يرغب في العيش تحت ما يتم تقديمه خطأً بأنه قانون الشريعة. بالنسبة للسلطات الحاكمة، يعتبر 'الإسلاميون' عدواً مناسبـًا، إذ ما دام الوعي الجماعي منشغلاً بـــ"الإرهابيين"، فإن انتباه الشعب سيصرف عن الجرائم المرتكبة من قبل أولئك الذين يسيطرون فعلاً

علىٰ العالم. في البند السادس، ينص النَّبيّ ﷺ علىٰ ضرورة أن تُكرَّس الجزية التي يدفعها المسيحيون في نشر الإسلام وأن تودع في بيت المال'. ومن شأن هٰذا أن يضمن أن لا يذهب المال إلىٰ جيوب المسؤولين الفاسدين. كما يبين أن النَّبيّ لم يكن مَلِكـًا، ولم يكن يعتبر الدخل الذي تنتجه الدولة الإسلامية ملكـًا خاصا له. لقد كان 'بيت المال' بمثابة 'الخزينة العامة'، وكان هدفه الوحيد توفير الخدمات الحكومية. وبهٰذا الاعتبار، كان المال ينفق في التعليم والبنية التحتية والخدمات الحكومية والخدمات الاجتماعية والنفقات العسكرية فضلاً عن مسائل أخرىٰ. وكان هناك تدرج في ما يتعلق بمعدل أداء الضرائب. إذ كما يوضح رسول الله: "إِنَّ عَلَىٰ الرَّجُلِ العَادِيِّ دِينَاراً وَاحِداً، أَمَّا التُّجَّارُ وَالأَثْرِيَّاءُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مَنَاجِمَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، فَعَلَيْهِمْ دَفْعَ اثْنَيْ عَشَرَ دِينَارا". وهكذا، وكما هو منطقي لأي شخص ذكي، كان يتم إخضاع الأغنياء لأداء معدل أعلىٰ من الضرائب مقارنة بالطبقات الوسطىٰ والدنيا. وكما رأينا في 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء'، لم يكن النظام الاقتصادي الإسلامي يفرض الضرائب علىٰ الفقراء.

وكما حدد النبي: "فَلاَ جِزْيَةَ عَلَىٰ الأَجَانِبِ وَلاَ عَلَىٰ مَنْ لاَ يَمْلِكُ بَيْتـًا أَوْ مُمْتَلَكَاتٍ قَارَّةً أُخْرَىٰ." ومع ذلك فإن الإسلام يفرض الضرائب علىٰ ورثة الممتلكات. إذ، كما قرر النبي: "عَلَىٰ مَنْ وَرِثَ أَرْضـًا أَنْ يُؤَدِّيَ مَبْلَغـًا مُقَدَّراً لِبَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ." ففي الإسلام يمكن أن تخضع المعاملات التجارية للضريبة، كما هو الشأن في الأنظمة الأخرىٰ.

في البند السابع، نلاحظ مرة أخرىٰ كيف تم تطبيق صيغ مختلفة علىٰ طوائف مختلفة. إذا كان من غير المنتظر أن يلتحق الرهبان بالجيش، بما أن ذلك قد يتعارض مع وظيفتهم والعهد الذي أخذوه علىٰ أنفسهم، فقد كان مسموحـًا للمسيحيين الآشوريين أن يساعدوا المسلمين، رغم أنهم لم يكونوا مجبَرين علىٰ فعل ذلك. إذ، كما أوضح النَّبيّ ﷺ:

وَلاَ يُجْبَرُ أَحَـدٌ مِنَ النَّـصَـارَى عَلَى الْخُرُوجِ لِمُحَـارَبَـةِ أَعْـدَاءِ

الإِسْلامِ، لَكِنْ إِذَا هَاجَمَهُمْ عَـدُوٌّ، فَعَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَهُبُّوا لِنُصْرَتِهِمْ وَالذَّبِّ عَنْهُمْ بِالخَيْلِ وَالسِّلاحِ، إِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصُدُّوا عَنْهُمْ كُلَّ أَذىً أَوْ مَكْرُوهٍ يَأْتِيهِمْ مِنَ الخَارِجِ وَأَنْ يَسْهَرُوا عَلَى مُسَالَمَتِهِمْ".

وإذ يؤكد النَّبيّ ﷺ علىٰ معارضته للاعتناق القسري لديانة أخرىٰ، فإنه يصرح بضرورة أن "لا يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَىٰ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ كُرْهـًا عَلَىٰ الإِسْلامِ، إِلَىٰ أَنْ يَشَاءَ اللهُ أَنْ يُسْلِمُوا." بعبارة أخرىٰ، الأمر متروك لله لهداية غير المسلمين للإسلام. وقد يساعد المسلمون في تسهيل هٰذا التحول، عن طريق القدوة والتربية، وليس أبداً عن طريق التلقين المفروض. إن إدعاء كارين أرمسترونغ (ولدت سنة ١٩٤٤) بأن "محمداً لم يطلب اليهود ولا النصارىٰ قط لقبول الإسلام" (٢٠٠٠) خاطئ بالفعل. إن رسول الله لم يجبر أهل الكتاب علىٰ اعتناق الإسلام؛ ومع ذلك كان دائمـًا يدعوهم إلىٰ فعل ذلك. "بينما لم يكن المسلمون يطالبون الشعوب التي غزوها باعتناق الإسلام"، يقول رولين أرمور، "فإنهم كانوا يظنون بأن رعاياهم سوف يعتنقونه في آخر المطاف، وكانوا يعتقدون، علاوة علىٰ ذلك، بأن الإسلام سوف يكتسح جميع أنحاء المعمور" (٣٢). وبينما لم تكن النتيجة فورية، فقد كانت الاستراتيجية سليمة و"اعتنق المسيحيون دين محمد طواعية بعدد أكبر من عدد كل الذين سبق لهم أن أُجبروا علىٰ اعتناقه تحت التهديد بالموت" (بيتس Betts ١٠). وبينما بقي المسلمون أقلية طوال القرون القليلة الأولىٰ من الحكم الإسلامي، "فمن الواضح أن الأغلبية الساحقة من المسيحيين اعتنقوا الإسلام في النهاية" (هامفريز ٢٦١).

رغم أن النساء كن يُعتبرن ملكـًا لأزواجهن أو آبائهن خلال معظم فترة التاريخ المدون، إلىٰ درجة أنه كان بإمكان هولاء الرجال أن يبيعوهن أو حتىٰ أن يعدموهن متىٰ شاءوا، فإن موقف النَّبيّ تجاه النساء كان "حداثيـًا" بشكل ملحوظ. لكنه علىٰ الأصح كان موقفـًا تقليديـًا، أي أنه كان يتبع التعاليم الصحيحة للأنبياء والرسل السابقين. حتىٰ في أحسن الحالات، لم تكن للمرأة عمومـًا كينونة أو إرادة مستقلة خارج نطاق

زوجها في عصر النبي. بالنسبة لعرب تلك الفترة، ويبدو هٰذا بارزاً حتىٰ في قواعد النحو العربي، يهيمن المذكر علىٰ المؤنث. وهكذا فإن مخاطبة الذكر تعني أيضاً مخاطبة الأنثىٰ. لكن القرآن لا يتحدث دائماً عن "المؤمنين، " فقط، وهو مصطلح يشمل كلاً من الذكور والإناث، بل يؤكد علىٰ استعمال "المؤمنين" و"المؤمنات" (٣: ١٩٥؛ ٤: ١٢٤؛ ١٦: ٩٧؛ ٣٣: ٣٥؛ ٤٠: ٤٠). إن وجود لغة شاملة للجنسين في كتاب مقدس من القرن السابع شيء فريد من نوعه، كما أن الدفاع الخاص عن حقوق النساء الموجود في البندين الثامن والتاسع شيء مذهل حقاً. "وَلا يُجْبِرُ المُسْلِمُونَ النَّصْرَانِيَّاتِ عَلَىٰ اعْتِنَاقِ الإِسْلام، لَكِنْ إِذَا رَغِبْنَ فِي اعْتِنَاقِهِ، فَعَلَىٰ المُسْلِمِينَ أَنْ يُعَامِلُوهُنَّ بِالحُسْنَىٰ". إن المسؤولية تقع هنا علىٰ النساء. فالنص لا يقول بأن النساء يمكنهن أن يصرن مسلمات فقط إذا سمح لهن آباؤهن أو أعمامهن بذلك، إنه لا يقول إنهن في حاجة إلىٰ إذن أزواجهن. وهكذا يتم الاعتراف بالنساء باعتبارهن أفراداً ذوات استقلالية كاملة وكفاءات عقلية توازي (وتتفوق أحياناً علىٰ كفاءات الرجال. إذا كانت الديانات الأخرىٰ تنتظر من النساء أن يتبعن ديانات أزواجهن، فإن هٰذا المطلب غير وارد في الإسلام، "إِنْ تَزَوَّجَتِ امْرَأَةٌ نَصْرَانِيَّةٌ رَجُلاً مُسْلِماً وَلَمْ تَكُنْ رَاغِبَةً فِي اعْتِنَاقِ الإِسْلاَم، " -ينص البند التاسع، "فَعَلَيْهِ أَنْ يَمْنَحَهَا الحُرِّيَةَ لِتُمَارِسَ دِينَهَا فِي كَنِيَسَتِهَا وَوِفْقَ عَقِيدَتِهَا الدِّينِيَّةِ الخَاصَّةِ، وَلا يَجِبُ أَنْ يُسيءَ زَوْجُهَا مُعَامَلَتَهَا بِسَبَبِ دِينِهَا. إن مثل هٰذا التسامح لم تسبق رؤيته إلا نادراً وقلما تم التفكير فيه، في العديد من المجتمعات.

وكتعبير عن جدية هٰذا الميثاق، يحذر البند العاشر بأنه "إِذَا خَالَفَ أَحَدٌ هَذَا الأَمْرَ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ وارْتَكَبَ ذَنْباً عَظِيماً". في الإسلام، ليست الجرائم ضد الأشخاص أو الممتلكات هي ما يعتبر خطايا عظمىٰ، بل تكمن المشكلة الكبرىٰ في معصية الله أولاً، ثم معصية رسوله ثانياً. إن حقوق الله وأنبيائه ورسوله والصحابة تأتي في الدرجة الأولىٰ، والعهود التي أبرمها النَّبيّ مع المسيحيين ليست مجرد عقود أعمال، وليست اتفاقات بين طرفين متساويين وذوي إرادة حرة. بل هي عهود تم عقدها بين رسول الله والمسيحيين وكان الله شاهداً عليها، ولا يمكن للعواقب المترتبة عن عصيان مثل تلك الأوامر إلا أن تكون وخيمة.

إذا كان النَّبيّ يحث المسلمين علىٰ السماح للمسيحيين أن يجددوا كنائسهم في 'عهد رهبان جبل سيناء'، فإنه كان أكثر وضوحاً في اشتراطه لمثل هذه الواجبات في 'عهد المسيحيين الآشوريين'. فلا يجب فقط علىٰ المسلمين أن يسمحوا للمسيحيين أن يحتفظوا بكنائسهم، بل هم مطالبون بمساعدتهم في بنائها. إذ كما ينص البند الحادي عشر، "إِذَا أَرَادَ النَّصَارَىٰ بِنَاءَ كَنِيسَةٍ، فَعَلَىٰ جِيرَانِهِمْ المُسْلِمِينَ أَنْ يُسَاعِدُوهُمْ. إنَّ عَلَيْهِمْ القِيَامَ بِذَلِكَ لأَنَّ النَّصَارَىٰ أَطَاعُونَا وَأَقْبَلُوا إِلَيْنَا وَالْتَمَسُوا مِنَّا السَّلاَمَ وَالرَّحْمَةَ." إذا قام اليهود والمسيحيون بتدمير الأماكن المقدسة للمسلمين، فلا يجب أن يثأر المسلمون بتدمير أماكنهم المقدسة. إذ لا يُفترض أن يخضع المسلمون لأساليب أعدائهم القذرة.

لا ينبغي أن يحطوا من قيمتهم إلىٰ مستوىٰ المسيئين إليهم. يجب عليهم دوماً أن يقتدوا بنموذج محمد رسول الله ﷺ. وهكذا، وعلىٰ عكس الفرنجة الذين سلبوا ونهبوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، فقد ألح السلطان محمد الثاني، الملقب بمحمد الفاتح، (حكم ١٤٤٤ - ١٤٤٦ و ١٤٥١ - ١٤٨١م)، علىٰ حماية الكنوز الفنية والأركيولوجية للمدينة والمحافظة عليها (لاند ٨٥). وبينما أخطأ في تحويله أيا صوفيا إلىٰ مسجد سنة ١٤٥٣م، فإنه حماها، علىٰ الأقل، وعامل جميع الرموز المسيحية فيها باحترام. وبالفعل، سمح السلطان بالإبقاء علىٰ أيقونات المسيح، ومريم العذراء ومجموعة من القديسين داخل المسجد جنباً إلىٰ جنب مع إضافات جديدة من (لوحات) الخط الإسلامي. ورغم الوقت المستغرق فقد حاولت الدولة التركية أن تتدارك وتصلح خطأها التاريخي عن طريق تحويل المسجد إلىٰ متحف سنة ١٩٣٥م. وباحترامه للأيقونات المسيحية، كان السلطان يقتدي بسنة النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. ومع ذلك، فإن علمنة مكان مقدس هو في نفس الدرجة من السوء، إن لم يكن أسوأ، من الاستيلاء عليه من قبل ديانة أخرىٰ.

بعد فتح مكة وانتصار التوحيد علىٰ الشرك، أمر رسول الله بتدمير جميع الأوثان والصور في الكعبة وما حولها. من بين صور الآلهة الوثنية كانت هناك رسومات لإبراهيم ومريم العذراء والمسيح الطفل، إضافة إلىٰ صورة للملائكة. وكما

يروي ابن إسحاق (٧٠٤-٧٠/ ٧٦١م)، فإن "قريشاً قد وضعت صوراً في الكعبة تتضمن صورتين للمسيح ابن مريم ومريم (عليهما السلام) .... وقد أمر النَّبيّ ﷺ بنزع تلك الصور باستثناء صورتي المسيح ومريم" (٥٥٢). وكان الواقدي (٧٤٧-٨١٢م) والأزرقي أكثر دقة في الوصف، إذ كلاهما يحكيان أن رسول الله وضع يده وقائياً علىٰ أيقونة المسيح ومريم، ثم أمر بنزع كل الصور الأخرىٰ، باستثناء صورة إبراهيم (الواقدي ٤١١؛ أزرقي ١١١). لكن مروية أخرىٰ تقول بأن صورة إبراهيم نزعت أيضاً لأنها تقدمه كرجل عجوز يتقارع (الواقدي ٤١١). وكما يوضح أوميد صافي:

"فكما كان الشأن في اليهودية، فإن التعاليم الإسلامية لا تبيح صوراً منقولة منقوشة في أماكن العبادة. لكن ما فعل النَّبيّ مُحَمَّد يبين بأنه هو وأتباعه كانوا قادرين علىٰ التمييز، وقد ميزوا فعلاً، بين الأوثان المكرَّسة للآلهة المشركين وأيقونات الديانات السماوية السابقة، مثل المسيحية "(١٥١).

إذا كانت أقدم سير النَّبيّ الباقية علىٰ قيد الوجود تشير إلىٰ أنه كان يحمي صور المسيح الطفل ومريم العذراء وربما صورة إبراهيم، فإن نسخة السيرة لابن هشام (توفي ٨٣٤) المأخوذة عن 'سيرة' إبن إسحاق مع كثير من الحذف منها، لا تشير إلىٰ مثل هٰذا الأمر. كما يلاحظ ألفريد غيوم (١٨٨٨- ١٩٦٦م)، "لقد قام ابن هشام، علىٰ ما يبدو، بحذف ما كتبه ابن إسحاق وتبنىٰ العرف اللاحق القاضي بإلغاء جميع الصور" (٥٥٢). وحسب ما ذكره ج. ر.د. كينغ، فإن هذه الصور بقيت علىٰ قيد الوجود حتىٰ تدمير الكعبة من قبل الأمويين سنة ٦٨٣م (٢١٩ - ٢٢٠). لاشك في أن كتّاب السيرة النبوية وجامعي الحديث كانوا منحازين، دينياً وسياسياً.ومن الواضح أيضاً أن طمس المواد التي كانت إيجابية بالنسبة للمسيحيين حصل في وقت كانت فيه العلاقات بين أتباع المسيح وأتباع محمد قد تدهورت. ويبدو أن تصلباً في المواقف كان قد تطور بين الطائفتين حيث صار العلماء المسلمون متصلبين في تأويلهم للإسلام بشكل متزايد، مما جعل الدين الإسلامي يصير تدريجياً طهرانياً متزمتاً وغير متسامح وإقصائياً.

بغض النظر عن الأسباب التي حركت مثل هذه التلاعبات التي طالت التاريخ المقدس فإن من واجب المسلمين أن يلتزموا بمثال النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بدل المغالطات الإيديولوجية الصادرة عن الفقهاء (والملالي) الضالين. إن تعاليم وأفعال رسول الله تتحدث عن نفسها. ليس من واجب المسلمين فقط احترام الأماكن المقدسة، بل عليهم كذلك احترام الأشخاص المقدسين، بصرف النظر عن مسألة ما إذا كانوا ينتمون إلىٰ الدين الإسلامي أم لا. إن التقوىٰ هي التقوىٰ. والصواب هو الصواب. كما أن محبة الله والإخلاص قيمتان كونيتان. وليس الخير حكراً علىٰ أي كان. إلىٰ حين صعود السلفية المتمردة، والتي تهدف إلىٰ تحطيم كل الآثار التاريخية والأركيولوجية للتاريخ الإسلامي، كان المسلمون يلتزمون بقدر كبير من الوقار تجاه الأماكن المقدسة ومقابر أهل الورع والتقوىٰ. فسلالة المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م)، علىٰ سبيل المثال، "بذلت جهوداً جبارة لخلق فضاء جديد شامل للعبادة الإسلامية والحج" (جينكينس ٢١٧). في دمشق وحدها وحولها، يقول بيثاني ج. والكر:

> "كان بإمكان المرء أن يزور مجموعة متنوعة من الأضرحة المقدسة لدىٰ المسلمين والمسيحيين علىٰ حد سواء: مسجد آثار قدمي موسىٰ، ومسقط رأس إبراهيم، ومغارة دم (هابيل)، وكهف آدم، ومغارة الجوع، وملجأ مريم والمسيح، ومصلىٰ إلياس، ومقبرة الأنبياء. علىٰ مسافة أربعة أميال من المدينة كانت توجد مقابر القديسين والعديد من أضرحة أشخاص أجلاء ومبجلين، مثل مقابر مختلف صحابة النَّبيّ وآل بيت النَّبيّ (أم كلثوم بنت علي ابن طالب، وأبناء الحسن والحسين، إبني علي، حفيد الرسول)، و'الشهداء' ... شيث، ونوح، وموسىٰ والعديد من الشخصيات البارزة الأخرىٰ" (ورد عن جينكينس ٢١٧-٢١٨).

في سنة ١٩١٢، لاحظ عالم الآثار الأمريكي فريدريك جونس بليس كيف كان المسلمون وأهل الكتاب يشاركون نفس الفضاءات المقدسة في سوريا الكبرىٰ:

> "يقوم المسيحيون والمسلمون واليهود والنصيريون (العلويون) بزيارة أضرحة بعضهم البعض. يأخذ المسلمون مرضاهم المجانين، (أو

'المسكونين') للتخلص من أرواحهم الشريرة في كهف القديس أنطوني، التابع للدير الماروني بالقزحية بلبنان. ويذهب المسيحيون في رحلة لأداء مهمة مماثلة إلىٰ البئر بضريح الشيخ حسن الراعي قرب دمشق .... وخلال موكب الجمعة العظيمة تمر النساء المسلمات العاقرات تحت القماش الذي ختمت عليه صورة المسيح، علىٰ أمل أن يصرن حوامل. وتذهب النساء المسيحيات بحمص لاستشارة العرافين الدراويش. كما يحتفل النصيريون بعيد الميلاد المسيحي، رغم أنهم يضعون المسيح في مرتبة أدنىٰ من علي .... كما راجت تقارير صادرة من جميع أنحاء سوريا وفلسطين تتحدث عن سعي بعض المسلمين لتعميد أطفالهم كنوع من السحر" (ذكره جينكينس ٢٠٥).

"حتىٰ في مطلع القرن العشرين، "-يقول جينكينس: "كان المسلمون يطالبون المسيحيين باستعراض كنوز قديسهم كوسيلة لتفادي وإبعاد وباء ما" (٢٠٥). وفي تسعينيات القرن الماضي، واصل المسلمون زيارة كنيسة عذراء صيدنايا المشهورة بسوريا من أجل أن يطلبوا شفاعة مريم، أم المسيح (٢٠٥). ومنذ ذلك الوقت تم تدمير سوريا، التي كانت رمزاً للتعايش الروحي، من قبل قوىٰ خارجية تسعىٰ لإحداث فوضىٰ ودمار من خلال الانقسام.

بما أن المسلمين مأمورون في القرآن أن يراعوا آيات الله (القرآن: ٢٢: ٣٢؛ ٤٠: ٨١؛ ٥: ٢٩؛ ٣١: ٣٢)، فمن واجبهم احترام الصالحين من أهل الكتاب العاملين في سبيل الله. علىٰ هٰذا النحو، يصرح البند الحادي عشر بأنه "إِذَا بَرَزَ مِنْ بَيْنِ النَّصَارَىٰ عَالِمٌ عَظِيمٌ فَعَلَىٰ المُسْلِمِينَ إِكْرَامُهُ، وَلا يَحْسُدُوهُ عَلَىٰ مَقَامِهِ." إن ظلم المسلم لأي مسيحي ملتزم بالعهد هو بمثابة عصيان أو تمرد تجاه خاتم الأنبياء. فكما ينص البند الثالث عشر، "كُلُ مُسْلِمٍ ظَلَمَ نَصْرَانِيّاً سَيَكُونُ عَلَيْهِ إِثْمُ مَعْصِيَةِ رَسُولِ اللهِ".

علىٰ غرار مسيحيي جبل سيناء، كان علىٰ المسيحيين الآشوريين أيضاً بعض الواجبات تجاه المجتمع الإسلامي الأوسع. "لاَ يُؤْوِي النَّصَارَىٰ عَدُوّاً لِلإِسْلامِ أَوْ يُزَوِّدُوهُ بِخَيْلٍ أَوْ سِلاحٍ أَوْ أَيِّ عَوْنٍ"، هٰذا ما يشترطه البند الرابع عشر. وبنفس الروح، يؤكد البند الخامس عشر بأنه "إذا كان مسلمٌ في حاجةٍ، فيجِبُ عَلَىٰ المسيحيينَ أن

يُضَيِّفوهُ وَيَحْموهُ مِنْ أَعْدائِهِ لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أَيَّام ولَيَالٍ". إذا أراد المسيحيون أن يكونوا أصدقاء وحلفاء للمسلمين، فيجب عليهمً أن لا يآزروا ويحرضوا أعداء الإسلام. علىٰ اعتبار أنه كانوا يستفيدون بحماية أحسن وحقوق وحريات أكثر في ظل الحكم الإسلامي، فإن الكثير من المسيحيين لم يتصوروا بالكاد مناصرة الصليبيين المسيحيين الأجلاف لهم، القادمين من أوربا [ذلك العهد] أقل تهذيباً وتحضراً وثقافةً. علىٰ سبيل المثال، قام يهود الأندلس بدعوة مسلمي شمال إفريقيا لتحريرهم من نير اضطهاد القوط الغربيين المسيحيين قبل سنة ٧١١م (ليفي ١٦٩). لم تكن تلك هي المرة الأولىٰ التي ناصر فيها اليهود المسلمين في المواجهات مع المسيحيين؛ إذ يقال إن اليهود قد ساعدوا العرب في الاستيلاء علىٰ مدن بيزنطية خلال الفتوحات الإسلامية الأولىٰ (أرمور ٢٧).

علىٰ كل حال، لقي الجيش الإسلامي الهزيل مقاومة ضئيلة جداً من الجماهير الكاثوليكية الإسبانية التي كرهت حكامها ومضطهديها الجرمان. كما كتب أحمد طومسون، "إن الأغلبية المقهورة لهٰذا المجتمع المتفسخ والفاسد كانت تنظر إلىٰ المسلمين لا باعتبارهم غزاة بل باعتبارهم منقذين أتوا لوضع حد لعبوديتهم وإعطائهم الحرية لممارسة دينهم" (٨٨).

باعتبارهم حلفاء للمسلمين كان ينتظر من المسيحيين الآشوريين أن يوفروا الحماية للمسلمين في أوقات الحرب والسلم. ففي المجتمعات البدوية لا يمكن رفض واجب الضيافة. حتىٰ القبائل العربية المتقاتلة لم يكن أبداً من شيمها أن ترفض استضافة عدو محتاج إلىٰ مأوىٰ، نظراً لحرارة النهار الشديدة التي يمكنها أن تقتل في حالة عدم توفر الظل والماء الوافر. ونظراً كذلك لبرودة الليل القارسة، والتي يمكن أن تقتل علىٰ الفور بسبب انخفاض الحرارة إلىٰ ما دون الصفر، فإن رفض الضيافة يعني الموت. وهكذا، فإن كان حتىٰ الأعداء يوفرون لبعضهم البعض الحماية المؤقتة من العوامل الجوية والتغذية الأساسية، فإنه كان يُنتظر من الأصدقاء والحلفاء أن يعاملوا بعضهم البعض بعطف أكثر.

في إصراره علىٰ ضمان حقوق النساء والأطفال، وهي الحقوق التي لم تكن

معترفًا بها من قبل الثقافات المهيمنة آنذاك حيث كانت تعاملهم كمتاع يباع ويشترىٰ، طالب محمد، رسول الله ﷺ —الذي وضع حداً لظاهرة وأد البنات عند العرب— بضمانات لحمايتهم: "يَجِبُ عَلَىٰ النَّصَارَىٰ أَنْ يَحْمُوا نِسَاءَ وَأَطْفَالَ المُسْلِمِينَ وَلا يُسَلِّمُوهُمْ إِلَىٰ عَدُوٍّ أَوْ يُظْهِرُوا العَدَوَّ عَلَىٰ عَوْرَاتِهِمْ".

إذا كان المسلمون يُحَذَّرون مراراً من غضب الله ما لم يوفُوا بالتزاماتهم تجاه المسيحيين، فقد كان النَّبيّ دقيقـًا، لكنه كان صارمـًا أيضـًا بخصوص عدم التزام المسيحيين بعهدهم: «إِذَا نَكَثَ النَّصَارَىٰ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ، " يقول البند السابع عشر، "فَقَدْ ضَيَّعُوا حَقَّهُمْ فِي الحِمَايَةِ وَصَارَ المِيثَاقُ لاغِيـًا وَبَاطِلاً.» إذا خانوا المسلمين، فلن يتمتع المسيحيون بعد ذلك بحق الحماية من أعدائهم، ولن يقوم المسلمون بنجدتهم إذا ما هوجموا من قبل آخرين. إضافة إلىٰ ذلك، إذا نكثوا العهد وقاموا فعلاً بمهاجمة المسلمين، فسوف يكونون عرضة لتحمل العواقب العسكرية. إن لم يكن المسيحيون راضين بمسار السلم، فإنهم سيواجهون، إذن، وحسب رغبتهم، مسار الحرب. سوف يقضىٰ علىٰ مقاتليهم وسوف يعاني باقي أفراد الطائفة من عواقب الصراع المسلح. كما سوف تتم مصادرة ممتلكاتهم، وسوف يخضع أي ناج للاحتلال العسكري ويُحرم من الامتيازات الضريبية. إذ كما أظهر رسول الله طوال حياته، فإن المسلم الصحيح هو بمثابة حمل وديع تجاه المؤمنين وأصدقاء المؤمنين، لكنه أسد تجاه أعداء الله.

من أجل الأجيال اللاحقة، ولضمان الحماية المستمرة خلال تعاقب الحكام، بذل النَّبيّ ﷺ كل الجهود الممكنة للحفاظ علىٰ 'العهد'. كما يعبر البند الثامن عشر: "يَجِبُ أَنْ يُعْهَدَ بِهَذِهِ الوَثِيقَةِ إِلَىٰ أَمِيرِ النَّصَارَىٰ وَرَئِيسِ كَنِيسَتِهِمْ مِنْ أَجْلِ حِفْظِهَا». ويرجع الفضل إلىٰ مثل هذه الإجراءات في الحفاظ علىٰ عهود النَّبيّ المختلفة في كنائس عديدة في جميع أنحاء الشرق الأوسط الكبير. بينما يرفض الكثير من المسلمين رد تحية السلام لأهل الكتاب، فقد أرسل لهم النَّبيّ ﷺ أخلص تحياته كرمز للروابط التي تجمع بين الطائفتين. فقد ختم 'العهد' بقوله: «سَلامُ اللهِ عَلَيْكُمْ جَمِيعـًا»، راجيـًا أن يسود السلام والازدهار ودوام حسن العلاقات بينهم.

علىٰ عكس بعض الجماعات المسيحية التي عملت علىٰ إخفاء عهود النَّبيّ ومنعها من الوصول إلىٰ عامة الناس، حيث لم يُـفْد ذلك في شيء، فإن المسيحيين الآشوريين في تركيا والعراق تأكدوا بأن أقوالَ النَّبيّ ﷺ كانت معروفة جداً عند المسيحيين والمسلمين علىٰ السواء. ونتيجة لذلك، بقي وجود هٰذا الميثاق، فضلا عن محتواه، شيئاً معروفاً عند القاصي والداني أثناء القرن التاسع عشر. بعد ذلك بدأت ذكراه تتلاشىٰ عند الناس العاديين، لكنها ظلت معروفة جداً لدىٰ رجال الدين والزعماء القوميين الآشوريين. "إن الهجومات القاتلة علىٰ ... الكنائس في العراق في مطلع القرن الواحد والعشرين"، يكتب أوي سيمون-نيتو، "انتهكت وصية النَّبيّ المعلنة، حيث أنه كان قد أصدر في القرن السابع "فرماناً" -أو رسالة حماية-لصالح المسيحيين الآشوريين." حسب ألبيرت ييلدا، كان النَّبيّ قد منح الحماية للآشوريين احتراماً لتضلعهم في ميدان الطب والعلم، وقد أصدر مرسوماً ينص بضرورة تركهم في سلام (سيمون- نيتو). وقد تخوف جوزيف يعقوب، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة الكاثوليكية بمدينة ليون، من أن تؤدي التفجيرات الإرهابية للكنائس المسيحية إلىٰ تحقيق ما حاول رسول الله ﷺ تفاديه: التطهير أو المحو الشامل للمسيحيين في العراق.

اسـتِنْتَاجَات

لقد تم التشكيك في عهود النَّبيّ لمسيحيي سيناء ونجران من قبل بعض الباحثين، وكذلك كان الشأن بخصوص ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين‘. وكما يمكن أن يدرك القراء بسهولة، فإن مضمون العهدين لمسيحيي جبل سيناء ونجران متطابق تماماً مع العهد المبرم مع المسيحيين الآشوريين. فسواء من ناحية الأسلوب أو المحتوىٰ، يبدو أن كلا النصين من إنتاج عبقري فذ. إنهما يُظهران جانباً من شخصية مُحَمَّد ﷺ التي عز وجود مثيل لها في العالم: دور النَّبيّ باعتباره رجل دولة، وسياسياً بارعاً، ودبلوماسياً، وخبيراً استراتيجياً. لقد تجلت شخصية محمد الروحانية للبعض، وتجلىٰ محمد ذو العبقرية العسكرية للآخرين؛ وتجلىٰ محمد التاريخي لمعظم الناس، لكن قلَّ من لمح الاشتغال الفكري الباطن لذهن محمد، وقد نتج عن عدم إدراك ذلك نتائج كارثية. فإلىٰ يومنا هٰذا، ما زال بعض الباحثين يصرون علىٰ التشبث بوجهة نظرهم الخاطئة التي ترىٰ بأن انتشار الإسلام نوع من الإمبريالية المتجذرة في الحماس الديني والقومية العربية، بينما كان هٰذا الدين في الواقع–رغم صرامته في بعض الجوانب– فتحاً للقلوب والعقول وقبولاً لثقافة وحضارة جديدة هي أرقىٰ بكثير من الإيديولوجيات القمعية لذلك العصر.

الفَصْل ٧

النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ

وَالنَّصارَى الأَرْمَن المقَدِسيُّون

مُقَدِّمَة

في إطار ما يمكن وصفه بحملة منسقة لإقامة تحالفات مع الطوائف المسيحية، وسع النَّبيّ اتفاقياته لتشمل ليس فقط النصارىٰ اليونانيين الأرثوذكس بجبل سيناء والنصارىٰ الأقباط بمصر، والنصارىٰ الآشوريين ببلاد الرافدين العليا، ونصارىٰ بلاد فارس، بل كذلك النصارىٰ الأرمن المقدسيين. وكان طبعـاً قد أرسل دعوات إلىٰ المسيحيين البيزنطيين، إلا أنهم أحجموا عن قبول عروضه. وبما أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت قد أضمرت العداء تجاه النَّبيّ ﷺ، فيبدو أن استراتيجيته كانت موجهة لتشكيل منطقة عازلة مكونة من المتعاطفين اليونانيين، والآشوريين، والأرمن والمسيحيين الفرس لتعزيز حماية البلاد الإسلامية من هجمات المسيحيين البيزنطيين والكاثوليك الروم الغربيين.

قَضَايَا أَصَالَة وَصِحَّة الوَثِيقة

إن عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الأرمن، والمعروف بـ'الفرمان المنسوب للنبي محمد، المؤكِّد لحقوق الأرمن في الأماكن المقدسة بالقدس' (ناركيس ١١، رسم٢)، لم يلق رواجـاً يذكر وبقي غير معروف عمومـاً بين الأرمن والمسلمين علىٰ حد سواء. واللفافة [المتضمنة لنص العهد] مصنوعة من الورق علىٰ حامل حريري، بمقياس ٣٢٧ ×٢١,٥ سم توجد محفوظة في مكتبة القديس جايمس في البطريكية الأرمينية بالقدس. وحسب المؤرخين الأرمن، "سافر البطريرك إبراهام [I] المقيم بالقدس إلىٰ مكة في القرن السابع للحصول علىٰ امتيازات خاصة للبطريركية من النَّبيّ مُحَمَّد نفسه" (أزاديان). كما يفصل هايغ كريكوريان، مؤلف كتاب حياة وأزمنة البطاريك الأرمن في القدس: "لقد قام إبراهام (I) (٦٣٨-٦٦٩م)، الذي يعتبره الكثيرون البرطريرك الأرمني الأول بالقدس، برحلة شاقة إلىٰ مكة، ليلتمس من النَّبيّ

مُحَمَّد الحماية لرعيته" (هاغوبيان). ويقول مصدر أرمني آخر إن "أول بطريرك أرمني بالقدس هو ابراهام الذي رأىٰ، حسب ما قاله المؤرخ العربي زكي الدين، بأن نفوذ النَّبيّ مُحَمَّد يتزايد قوة، فذهب إليه شخصيا سنة ٦٢٦م وحصل منه علىٰ وثيقة رسمية تتعلق بسلامة الكنيسة الأرمينية وممتلكاتها بالقدس: (بيلفيل الكنيسية الأرمنية). علىٰ عكس بعض الشخصيات المسيحية الأخرىٰ التي تظهر في كتب الحديث والسيرة النبوية، والتي لا يمكن دوماً التأكد من تاريخيتها، فإن إبراهام الأول يظهر هنا تحت ضوء التاريخ الكاشف. بما أنه كان بطريركا من سنة ٦٣٨ إلىٰ سنة ٦٦٩م، فقد كان لديه أزيد من عامين كاملين لكي يحصل علىٰ 'فرمان' أوعهد من النَّبيّ مُحَمَّد. من الممكن جداً أن يكون هٰذا قد وقع في مكة، بُعيْد فتحها، لكن من الأرجح أن يكون ذلك في المدينة، بعد رجوعه، عندما كانت أعداد كبيرة من الزعماء من بلدان قريبة ونائية تأتي إلىٰ رسول الله ﷺ لتعلن خضوعها وتطلب حقوقاً وامتيازات خاصة بها.

لقد تم التشكيك في صحة 'عهد' ('ميثاق' أو 'فرمان' أو'معاهدة') النَّبيّ من قبل الأب جيروم غولوبوفيتش في كتابه:I Frati Minorinel possesso e i falsi firmani posseduti (١٣٣٣) d'eluoghi Santi di Gerusalemme dai Greo–.Elleni : Note e documenti per la soluzione della questione de'luoghi santi الذي تم نشره سنة ١٩٢١. في غياب تام لأية موضوعية، ينطلق هٰذا الفرنسسكاني لتحقيق هدف واحد، ألا وهو إثبات أن الوثائق التي قدمتها الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية لدعم فكرة حيازتها الحصرية للأماكن المقدسة بفلسطين مزيفة. بحسب الأكاديمي المجهول الاسم الذي راجع كتاب جيروم غولوبوفيتش I Frati–Monori في المجلة التوراتية (Revue Biblique)، "نحن بإزاء خدعة بُنيت مثل آلة حرب في ذروة الجدل حول المقدسات في فلسطين (المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية، ٦٣٧).وكذلك يستنتج غولوبوفيتش بأن 'عهد' أو'ميثاق' محمد لرهبان جبل سيناء، والعهدة العمرية، و'فرمان' سليم الأول، من ضمن وثائق أخرىٰ كثيرة، كلها زائفة (المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية ٦٣٧). ويدعي بأن معظم تلك التحريفات يرجع تاريخها إلىٰ ١٦٣٠–١٦٣٤م، أي فترة الحكم الاستبدادي لمراد

الرابع (٦٣٧). إن المدىٰ الذي أراد هٰذا القس أن يبلغه في محاولته لتجريد الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية من الأماكن المقدسة مذهل فعلاً. بدل إقناع نفسه بحقيقة أنها في أيادي مسيحية، فإنه أنتج بحثًا من شأنه، لو كان حقيقيًا، أن يترك ملكيتها في الهواء. بدل إعادتها للكاثوليكيين، ينبغي إرجاعها إلىٰ حماتها الأوائل: ألا وهم المسلمون.

رغم أن الأب غولوبوفيتش لا يمكنه التدليل بأن زعماء بارزين من الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية متورطون في عملية التزوير، فإنه لا يتردد في اتهامهم. بدقة أكثر، يدعي الراهب الفرنسيسكاني بأن عمليات الاحتيال المذكورة كانت من فعل سيريل لوكاريس (١٥٧٢ - ١٦٣٨م)— المولود كيريلوس لوكاريس، البطريرك اليوناني بالإسكندرية، وبعد ذلك، البطريرك المسكوني بالقسطنطينية—كما كانت من فعل الأب "مبرينوس، ومن قبل 'مدّعيه' ثيوفان، بطريرك القدس؛ فضلاً عن غريمه كبير الشمامسة، غريغوار (المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية ٦٣٧). من الواضح أنه في نظر هٰذا المتطرف، تآمر المسيحيون اليونانيون الأرثوذكس مع اليهود والمسلمين والأتراك ليمنعوا الكنيسة الكاثوليكية، -الضعيفة نسبيًا- من الحصول علىٰ حقوق ملكية الأماكن المقدسة بفلسطين؛ وهذه فكرة يصعب تصديقها علىٰ أقل تقدير، بما أن اليهود والمسلمين واليونانيين الأرثوذكس لا يجمعهم رابط في القدس. لم يكن اللاتين، طبعًا، هم وحدهم المسيحيين الذين حاولوا الاستيلاء علىٰ ممتلكات الأرمن وإخضاع الكنيسة الأرمينية؛ لقد بذل اليونانيون جهوداً مماثلة أيضًا [في نفس الاتجاه] (هاجوبيان).

رغم "تمكنه المحكم" في مجال التاريخ، فإن حجج غولوبوفيتش غير مقنعة بقدر ما هي غير دقيقة تاريخيًا. فهو يزعم، مثلاً، بأن 'عهد محمد' ظهر إلىٰ الوجود حوالي سنة ١٥٦٩م (المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية ٦٣٦). لكن، بينما يقال إن النسخة الأصلية كان قد أخذها سليم الأول إلىٰ اسطنبول سنة ١٥١٧م، فإن هٰذا 'العهد' ذاته كان قد تمت المصادقة عليه من قبل مراجع دينية في فترات منتظمة خلال القرون الخمسة الأخيرة. أن يزعم المرء بأن 'العهد' لُفِّق من قبل الرهبان شيء، وأن يزعم بأنهم زيفوا خمسة قرون من الفتاوىٰ عبر سلالات إسلامية حاكمة

عديدة شيء آخر. وبينما يليق للبعض أن يؤكد بأن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' لا يعود تاريخه إلا إلىٰ سنة ١٥٦٩م، أو حتىٰ ١٥١٧م علاوة علىٰ ذلك، فكيف تمت رؤيته من قبل جان ثينود Jean Thenaud، الوصي علىٰ دير كوردلييز أنغوليم خلال حجه إلىٰ دير القديسة كاثرين سنة ١٥١٢م؟ وقد صرح فعلاً، في كتابه السفر إلىٰ الخارج (مصر، جبل سيناء، فلسطين)، بأن مسجداً كان موجوداً إلىٰ جانب كنيسة القديسة كاثرين حيث كان يُحتفظ فيه بالامتيازات التي منحها النَّبيّ مُحَمَّد للرهبان، أي الإعفاء الضريبي والالتزامات، وهي موقّعة ببصمة يده (ثينود ٧٢). بعبارة أخرىٰ، لم يكن بالإمكان أن يتم تلفيق 'ميثاق' أو 'عهد محمد' من خلال الجهود المشتركة للمسيحيين اليونانيين الأرثوذكس واليهود السريين (Cryptic Jews)والأتراك المسلمين أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر، بما أن وجوده سابق للغزو العثماني لمنطقة سيناء.

وقد خلص الأب جيروم غولوبوفيتش إلىٰ أن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الأرمن' مزيف، شأنه شأن كل الوثائق الأخرىٰ التي تؤيد مطالبهم بحيازة الأماكن المقدسة تحت سلطتهم القانونية. لكن يبدو أن 'الفرمان المنسوب لعمر بن الخطاب، فاتح القدس سنة ٦٣٨م'، والذي هو موجود في مكتبة القديس جايمس في البطريركية الأرمينية بالقدس— كما يُحتفظ بنسخة منه بالعربية بخط اليد في 'المكتبة الوطنية' بباريس— يشير إلىٰ عكس ذلك. هذه الوثيقة معروفة أيضاً باسم 'عهد أوعهدة الخليفة عمر بن الخطاب'، وقد تم تسليمه لسوفرونيوس، بطريرك اليونانيين الأرثوذكس في القدس، وذلك في العشرين من ربيع الأول من العام الخامس عشر للهجرة. وفي ما يلي نص هذه الوثيقة

عهد عمر بن الخطاب
للمسيحيين الأرمن بالقدس
[مترجم عن الأصل الإنجليزي]

"بسم الله الرحمان الرحيم، وبه نستعين. العزة لله، الذي هدانا

للإسلام وشرفنا بنعمة الإيمان؛ ومن رحمته علينا أن بعث إلينا رسوله محمدًا صلوات الله عليه، حيث قادنا من الضلال إلى الحق وجمعنا بعد أن كنا متفرقين. الحمد لله الذي جمع أيادينا، ونصرنا ضد أعدائنا، ووضع أوطانًا تحت سلطتنا، وجمعنا بآصرة الأخوة الحقة.

لنحمد الله (حمدًا كثيرًا) على ما أنعم به على عباده المخلصين. هٰذا كتاب من عمر بن الخطاب، ميثاق وعهد أمان، إلى القديس المبجل صفرونيوس، بطريرك الإمبراطورية الرومانية على جبل الزيتون بالقدس. ويشمل أيضًا سائر الأهالي ورجال الدين والرهبان والراهبات، أعطيهم الأمان التام حيثما وجدوا.

ذلك أننا نحن معشر المؤمنين، فضلاً عمن سيخلفنا، مدينون للمواطن الذي يقوم بواجباته تجاه السلطات بالالتزام بمنحه الأمان اللازم. ولهٰذا فإن عليهم الكف عن انتقادهم، ذلك لأنهم قد أعلنوا بالفعل عن ولائهم وطاعتهم.

فلهم إذن الأمان الكامل والمطلق على أنفسهم وكنائسهم ومعتقداتهم وكل أماكن حجهم التي هي الآن في حوزتهم داخل أو خارج المدينة، وتحديدًا 'الكمام' Kamame (كنيسة القيامة)، وكنيسة بيت لحم، حيث وُلد المسيح عليه السلام، والكنيسة العظمى والكهف ذي الأبواب الثلاثة: الجنوبي والشمالي والغربي. هم وباقي المسيحيين المقيمين هنا: الجورجيين والحبشيين، فضلاً عن الإفرنج والأقباط والسوريين والأرمن والنساطرة واليعاقبة والمارونيين الذين سيأتون كمجرد حجاج وسينتمون إلى البطريرك المذكور.

وقد تكون لهم الأسبقية على كل الآخرين وفق ما مُنح لهم من قبل نبينا، رسول الله الكريم، الذي شرفهم بختم يده الكريمة وأمر بمنحهم الأمن والحماية. وعلينا نحن، معشر المؤمنين المخلصين، أن نفعل نفس الشيء، تكريمًا لنهج نبينا الذي تصرف بأريحية تجاههم.

ينبغي أن يقدم كل حاج مسيحي إلى الضريح المقدس درهمًا واحدًا وثلث الدرهم من الفضة. يجب على كل مؤمن حقيقي، رجلاً كان أو إمرأة، قاضياً أو واليًا، يمارس واجباته كقاضي في الأرض، أن يحترم كل ما منحناه كضمانة؛ سواء كان غنيًا أو فقيرًا، مسلمًا أو تابعًا للنبي. ولهٰذا السبب فقد أصدرنا هٰذا المرسوم لصالحهم. فليتصرف كل واحد حسب ما هو مسطر هنا. . . . العزة لله رب العالمين ونعم الوكيل، الحفيظ والمنعم.

كُتب في ربيع الأول من السنة الخامسة لهجرة الرسول ﷺ.

كل من لم يعمل بما جاء في هٰذا المرسوم سيكون ناكثًا لعهد الله ومذمومًا عند الرسول. " (بطريركية القدس)

يدعي المشككون المغرضون سياسيًا، ودينيًا، واقتصاديًا بأن صوفرونيوس ليس شخصية تاريخية، وهٰذا خطأ. لقد كان هناك، حقيقة، مئات البطاركة في القدس آنذاك، وكان صوفرونيوس بالتأكيد واحداً منهم. وقد كان من الغباء أن يقوم أي مزور باختلاق شخصية لم تكن أبداً موجودة. عندما تتحدث 'العهدة العمرية' عن "ما أعطي لهم من قبل الرسول،" فإن الوثيقة تشير بوضوح إلىٰ اتفاق سابق. وتجدر الإشارة إلىٰ أن النسخة الأصلية كانت أيضًا موقعة ببصمة يد النَّبيّ ﷺ، وهذه خاصية موجودة في العهود الأخرىٰ التي أبرمها رسول الله ﷺ. وإلىٰ جانب الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، تم تأكيد 'عهد النَّبيّ للمسيحيين الأرمن' كذلك من قبل الخليفة الرابع، عليّ

بن أبي طالب، وذلك في مرسوم يعود تاريخه إلىٰ سنة ٦٦٠ م— سنة واحدة فقط قبل استشهاده.

ويُعرف هٰذا المرسوم بـ'معاهدة علي، رابع الخلفاء، المانحة لبعض الحصانات والامتيازات للأمة الأرمينية'، وقد تُرجم إلىٰ اللغة الأرمينية من قبل غريغور كامبان سنة ١٧٦٧م، وبعد ذلك من قبل م.سراجيا. وقد صادق علىٰ صحة هذه المعاهدة جواكيم غريغور باجراتوني من القسطنطينية سنة ١٨٠٤م. وقد ذكر جوهانس أفدال سنة ١٥٦٩م بأنه كان "يملك نسخة من الوثيقة الأصلية مكتوبة بالخط الكوفي" وكان قد أعارها لهنري تورنس، نائب رئيس الجمعية الأسيوية، قصد ترجمتها وإدراجها في مواد المجلة الدورية. ويضيف أفدال بأنه "يبدو أن هذه القطعة النادرة من العصور القديمة قد ضاعت أو أُتلفت ضمن أوراقه غير المنشورة." لو كان هنري تورنس مهملاً إلىٰ هٰذا الحد لقاموا بصلبه ألف مرة، وقد لا يكون ذلك كافياً بسبب جريمته ضد التاريخ. ورغم ضياع النسخة العربية العتيقة من 'معاهدة علي' فقد تمكن جوهانس أفدال أن ينجز ترجمة صحيحة ومطابقة للأصل باللغة الإنجليزية إنطلاقاً من النسخة الأرمينية، وقد جاء نص هذه المعاهدة، والذي نشره في "مجلة الجمعية الأسيوية ببنغال" سنة ١٨٧٠م، كما يلي:

معاهدة عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه) للمسيحيين الأرمن المقدسيين

"بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

الحمد والشكر لخالق الكون، والصلاة والسلام على محمد العظيم الكريم وعلى آل بيته الميامين.

[بعد كل هٰذا، ها هو فحوىٰ ترجمة المعاهدة التي كتبها هاشم بن عتبة، بن أبي وقاص، بأمر من زعيم العرب المبارك، والأسد وقدس الأقداس، علي، الحفيد [كذا] الأكبر لأبي طالب، الممجد، بالحرف الكوفي، في محل الإقامة الشهير بخرانثالا Kharanthala، في القصر البديع، في شهر صفر، في العام الأربعين من الهجرة].

لقد اتصل بي بعض الأشخاص من الأمة الأرمينية، رجال متميزين، مشهورين بسعة إطلاعهم ونبلهم من أمثال يعقوب سيد عبد الشيوخ وابن ساها، والقس أبراهام، والأسقف أشعياء، وعدة أشخاص آخرين، وعددهم أربعون، وعند حضورهم عقد المعاهدة التمسوا مني هٰذا، وقدموا كل ما في وسعهم من عون لرسولنا الذي أرسلناه [إلى] الحصون والحدود، (وهوما وفر المناسبة للتداول بيننا وسن المعاهدة). ولهٰذا عَقدت هذه المعاهدة باسمي واسم كل قبائل الإسلام [لكي] يسود [الإسلام]، وتستمر العقيدة المسيحية. وسيكون من واجب كل الملوك وكل الأمراء وكل الرجال أن ينفذوا معاهدتنا هذه بعون الله، ما نبتت نبتة وبلّ بحر صوفة وجادت النجوم بالأنوار وطلع القمر على الأجانب والغرباء. ولا ينتهك أو يغير أحد هذه المعاهدة، ولا يزيد أو ينقص أو يبدل فيها، لأن من زاد فيها، سيزيد في عقابه، وينقص من صبرنا.

وكل منتهك لهذه المعاهدة فهو مخالف معتد على ما مَنحت لهم (الأرمن)، ومتحالف مع من لا يدين لي بالولاء. وسيكون منتهكًا لإرادة الله، وسيجلب على نفسه السخط المستحق من الله الواحد الأحد.

فضلاً عن ذلك، فإن شهادة 'سيد' كبير الأساقفة والآخرين، المشار إلىٰ أسمائهم سابقًا، حجة كافية وملزمة. بما أن أتباع المسيح الأساسيين طلبوا مني عقد معاهدة واتفاق مع جميع المسيحيين، الذين يعيشون في ظل حكم المسلمين، فيتعين الآن، وبموجب هذه المعاهدة، أن يعم السلام والهدوء الدائمان بين المسيحيين والمسلمين. إن محتويات هذه المعاهدة ثابتة وصحيحة، وقد أعطيتهم (الأرمن)

موافقتي برضا مني وطيب خاطر. سوف ألتزم بهذه المعاهدة وأتصرف وفق مقتضياتها، ما دام الأرمن مخلصين لي ومستمرين في ولائهم لحكمي ولا يشتركون في معارضة دين قومي. وما دامو مخلصين في تقيدهم بهذه المعاهدة، فسوف يكونون كالمسلمين والمؤمنين [لهم ما لهم وعليهم ما عليهم].

علاوة علىٰ ذلك، لقد قمت بجمع أعيان المسلمين وزعمائهم من بين شيوخنا ووجهائنا، وفي حضورهم أبرمنا هذه المعاهدة، التي طلبَتها مني الأمة النصرانية ورغبت في الحصول عليها. لقد كتبت وسجلت لهم المطالب والشروط التي ستبقىٰ من الآن فصاعداً سارية المفعول. وإذا ما قام، مستقبلا أي حاكم أو أمير، أو أي شخص ذي رتبة أو سلطة، بقمعهم ومعاملتهم بقسوة، فينبغي أن يقدموا بين أيديهم هٰذا السجل من معاهدتي لأنه علىٰ الحكام وكل المسلمين أن يتصرفوا وفق أوامرنا؛ لكن يجب علىٰ الأرمن كذلك أن يتصرفوا بإخلاص ووفاء ويمتثلوا لأوامرنا وإرادتنا إنسجاماً مع ما جاء في الاتفاق الذي أعددته وأبرمته معهم. لا يجب أن يكون هناك عصيان أو معارضة لأوامري ورغباتي. إضافة إلىٰ ذلك، من الحكمة والمنفعة أن لا يقوم أحد بمضايقة أو قمع المسيحيين لأن من شأن اتباع نهج تسامحي أن يحفزهم علىٰ الامتثال للشروط الواردة في معاهدتي هذه.

وهكذا، فإن معاهدتي أمانة والتزام علىٰ عاتق متلقيها، ووزر مرهق وشاق علىٰ كاهل الأشخاص الحاقدين والأشرار، وأرجو ألا يكون هناك أي خلاف بين المسيحيين وأمتي المجيدة. لكن إذا تصرف أي واحد ضد كل ما كتبته بشأن المسيحيين، الذين أثبتوا بأنهم جديرون برعايتي وإحساني، فإن هٰذا الشخص يتصرف ضد مشيئة الله، الذي ألهمني بنعمته للقيام بعمل الخير هٰذا لهذه الأمة، وحمايتها من المتاعب والمضايقات؛ ذلك لأنني دخلت في عهد مع البطاركة، والأنبياء، وهو عهد جاء به مَلَك من السماء (كذا) يفرض طاعة القوانين والقيام بالواجبات، والإخلاص لمعاهدتي الربانية. ذلك أن المسيحيين الموجودين تحت سلطتي هم رعاياي، وأنا حاكمهم، ومن واجبي أن أشملهم بالرعاية الأبوية وأن أحميهم من كل الشرور والعنت؛ وهكذا سيجزينا الله تعالىٰ الجزاء الحسن، أنا وأمتي المنتشرة في مختلف أصقاع العالم.

كما يجب التقيد الصارم بحجم الضرائب الذي حددته لأولئك النبلاء، فلا زيادة علىٰ ما تم تسجيله وإقراره عليهم. ولا يتعرضون للتنكيل والاضطهاد. لا تُؤخذ أراضيهم ولا يُبعدون من بلدهم. ولا يُكْرَهُ الكهنة علىٰ تغيير دينهم. ولا يؤذىٰ الرهبان والنساك في خلواتهم، ولا يرحَّلون من أديرتهم. ولا يمنع وعاظهم من القيام بعملهم الدعوي. ولا تخرب مساكنهم ولا أراضيهم التي ورثوها عن آبائهم. ولا تزال الأجراس من أبراج كنائسهم ولا تدمر. هذه هي الشروط التي وضعتها لهم، وكل من خرق عهدي، وعصىٰ وصاياي، سيكون منتهكاً لأمر الله، وسوف يناله عقاب شديد وغضب الله الأبدي.

دعونا لا نترك أي رأس حامل للتاج أو رجل سلطة من المسلمين أو المؤمنين يُكرِه المسيحيين علىٰ اعتناق دين المسلمين. كما لا ينبغي تركهم يخوضون في جدالات حول مسائل الدين، بل لندعهم يعاملوهم بلطف وعطف؛ وتحت ظل رحمتهم ورأفتهم، يحمونهم من مختلف أنواع القمع والعسف، أينما وجدوا وأينما أقاموا. وإذا كان المسيحيون في حاجة إلىٰ مال أو إلىٰ مساعدة نقدية لبناء الكنائس والأديرة، لتجمعاتهم القومية أو الجماعية، ولأغراضهم المدنية والمحلية، فعلىٰ المسلمين أن يساعدوهم ويوفروا لهم الوسائل الضرورية، بمنحهم جزءاً مما فضل عن حاجتهم من ممتلكاتهم. وأن يساعدوهم كذلك بالنصيحة والمشورة في معاملاتهم التجارية لأن مثل هٰذا الفعل مبهج ويرضي الله ورسوله. لكن، إذا خرق أي واحد بنود هذه المعاهدة، فقد كفر بالله وارتد عن رسالة النبي، وسوف لن ينال جزاء حسناته، وسينظر إليه النَّبيّ بغضب واستياء. إذا ثبت عن المعاندين والعصاة بأنهم غير مخلصين وعاصين للمعاهدة التي عقدتها، فلا يمكن أن يبقوا مخلصين ومطيعين لابن أبي طالب، كرم الله وجهه. فمن واجب المسلمين أن ينفذوا كل أوامره وأن يسعفوا (الأرمن) ويواسوهم علىٰ الدوام، ما دام هٰذا الكون موجوداً.والحمد لله رب العالمين".

تبين 'معاهدة علي' هذه، والتي تستحق في حد ذاتها دراسة شاملة، عدة أوجه شبه مع عهود النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ للجماعات والطوائف المسيحية المختلفة. وبينما يتضمن تصدير 'معاهدة علي'، وهو مكتوب من قبل كاتب في وقت لاحق، بعض

المسائل المغلوطة، فإن مضمون العقد ذاته منسجم تماماً مع عهود النَّبيّ السابقة. والفكرة القائلة إن المعاهدة كتبت أصلاً بالخط الكوفي صحيحة ومنسجمة مع عادة الإمام علي. كما أن الادعاء بأن المسيحيين كانوا قد جاءوا لمساعدة الإمام علي صحيحة أيضاً. وقد كان الإمام، كما يُحكىٰ، محبوباً جداً لدىٰ المسيحيين. وفي فقرات عديدة، تخاطب 'المعاهدة' المسلمين غير المخلصين للإمام. ولا يمكن أن يشير هٰذا إلا إلىٰ معاوية، المحرِّض علىٰ الفتنة، وأتباعه الخونة. لقد كان أحد الأسباب في حماية المسيحيين هو ضمان استمرارية المسيحية، علىٰ الرغم من سيادة الإسلام. ويدل هٰذا بوضوح بأن انتصار الإسلام لا ينبني علىٰ إستئصال وإلغاء الديانات الأخرىٰ. لقد تصور الإمام مجتمعاً إسلامياً تعددياً يضم أتباع العقائد الأخرىٰ. وطبقاً لهٰذا تنص 'المعاهدة' علىٰ أنه "يجب أن يكون هناك سلام وأمن دائمان بين المسيحيين والمسلمين." ومن الواضح أن مثل هٰذا النَّصّ القانوني لا يمكن أبداً أن ينطبق علىٰ المسيحيين الذين هم في حالة حرب علىٰ الإسلام والمسلمين. ومع ذلك، فإنه يبقىٰ قابلاً للتطبيق علىٰ المسيحيين الذين يعيشون في العالم الإسلامي باعتبارهم "أهل ذمة" أو أناس محميين. طالما أنهم يفُون بالتزاماتهم، فإن المسيحيين، كما يؤكد الإمام علي، "سوف يكونون مثلهم مثل المسلمين والمؤمنين". كما لا يجب، تحت أي ظرف من الظروف، أن يُعتبروا مواطنين من درجة ثانية. طالما أنهم ملتزمون بشروط 'المعاهدة'، وطالما أنهم مواطنون يحترمون القانون، فإن المسيحيين سواسية مع المسلمين في إطار الدولة الإسلامية. وباعتباره سياسياً حكيماً، فقد حذر الإمام علي من مغبة مضايقة واضطهاد المسيحيين. فالمعاملة السيئة، كما تصور الإمام، لا يمكنها إلا أن تؤلب المسيحيين ضد المسلمين. بل التسامح أو التراضي، في رأيه، هما المفتاح دوماً للعلاقات السلمية. إذا كان بالإمكان ضم المسيحيين إلىٰ حضن الإسلام، فسوف يكون ذلك عن طريق المحبة وحسن المعاملة والإحسان والقدوة الحسنة. إن واجب الإمام أو الخليفة أو السلطان الحقيقي، كما يوضح الإمام علي، يكمن في حماية رعاياه جميعهم بصرف النظر عن عقيدتهم، وذلك لسبب بسيط ألا وهو أنهم جميعاً خلائق الله تعالىٰ.

ومما يثير الاهتمام أكثر، أن 'معاهدة علي' تحمل بصمات دقيقة من الفكر الشيعي. فالإمام يتحدث، مثلاً عن الوحي الإلٰهي، وهو شيء لا يمكن لأهل السنة أن ينسبوه أبداً لأي أحد باستثناء النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. لكن الإمام علياً يصرح بوضوح أنه أصدر المعاهدة للمسيحيين الأرمن، استجابة لإلهام رباني، وأن المعاهدة التي دخل فيها كانت معاهدة البطاركة والأنبياء، وأن المعاهدة جاء بها ملَك من السماء. وقد يقول معظم السنيين بأن هذه علامات تشير إلىٰ أن المعاهدة مجرد تزوير شيعي. وإذا كان المُتَصَوّفة يلتزمون عموماً بعقل أكثر تفتحاً من السنيين، فإن الشيعة لا يجدون أي حرج في احتضان الفكرة، معتبرين تلك العلامات دليلاً علىٰ صحة المعاهدة. وقد يحتاج الأمر إلىٰ ملاحظ موضوعي ليشير إلىٰ أن التقاليد السنية الصحيحة تؤكد حقيقة وجود الإلهام الرباني (كشيء مختلف عن الوحي، الذي هو حِكر علىٰ الرسل والأنبياء) الممنوح للمسلمين الطاهرين، من أهل الورع والتقوىٰ من خلال الأحلام والرؤىٰ. وهكذا ومن منظور عقائدي، لا يمكن لباحث سني أن ينكر إمكانية أن يكون الإمام علي قد ألهمه الله بواسطة الملائكة. وهناك علامة شيعية أخرىٰ قوية يمكن لمسها من خلال تحذير الإمام علي الصارم بأن كل من يعصي أوامره ولم يكن مخلصاً له فهو كافر ومرتد. إن 'معاهدة علي'، كما يزعم الإمام، ربانية في طبيعتها وإلزامية إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

بما أن الشيعة كانوا دوماً ولا يزالون أقلية، مجرد عُشر ساكنة العالم الإسلامي، كما أنهم لم يحكموا إلا خلال فترات نادرة – خلال الأدارسة، والفاطميين، والصفويين، وإيرانيي ما بعد ثورة ١٩٧٩ – فلماذا يقوم أي مسيحي بتلفيق 'معاهدة علي'، التي تتضمن عدة عناصر [من الفكر] العلوي؟ لم لا يتم الالتزام بموقف الأغلبية السنية وتقديم صورة الخليفة علي كواحد من الخلفاء الراشدين وأحد الأنصار المخلصين للسنة؟ لو كان أحد المسيحيين قد قام بتقديم 'معاهدة علي' للسنيين المتطرفين، لتم ضرب عنقه. ولهٰذا، لا يمكن لهذه المعاهدة أن تكون قد زُوّرت من قبل مبتدع مسيحي كان يريد حماية طائفته. كيف كان بإمكانه أن يعرف حتىٰ كيف يعتقد الشيعة في أن أئمتهم ملهمون ربانياً عبر الملائكة؟ كيف كان له أن يعرف بأن أولئك الذين حاربوا

الخليفة الرابع، (أي الخوارج والأمويين)، كانوا يُعتبرون مرتدين ومارقين؟ ولماذا الإتيان بـ'معاهدة من علي' في الوقت الذي كانت فيه 'العهدة العمرية' تحمي حقوق المسيحيين، وكان من شأنها أن تلقىٰ بالتأكيد ترحيباً أفضل لدىٰ الحكام السنة؟ إننا هنا إزاء أنموذج من تقليد عريق ومجيد عند الحكام المسلمين يتجلىٰ في الالتزام بالحقوق التي تم منحها من قبل أسلافهم. فعلىٰ خطىٰ عليّ، وَعُمَر، والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، أصدر الخليفة المكتفي الثاني من بغداد 'ميثاق حماية' للكنيسة النسطورية سنة ١١٣٨م. هٰذا الميثاق طويل جداً ولا يمكن إدراجه في هٰذا المقام، ولكن لابد من الإشارة إلىٰ أن الخليفة يؤكد بأنه يتبع سابقة الأئمة والأسلاف، وبأنه يتصرف وفق النهج الذي سار عليه الخلفاء الراشدون في ما يتعلق بحماية المسيحيين (٦). فالحقوق التي أعطاها إياهم مماثلة للتي ورد ذكرها عند علي والخليفة عمر وفي مختلف عهود النَّبيّ ﷺ. كما يؤكد أ. مينجانا، محرر 'ميثاق الحماية':

لطالما كانت هناك حاجة دوماً إلىٰ بيان رسمي يسلط الضوء علىٰ العلاقات بين الإسلام الرسمي والمسيحية الرسمية في وقت كان فيه للإسلام سلطة الحياة والموت علىٰ ملايين الرعايا المسيحيين. يمكن أن يكون أفراد مسيحيون قد عانوا من الاضطهاد علىٰ يد أفراد مسلمين؛ وقد سجل التاريخ أيضاً حالات معزولة من معاناة الجماعات المسيحية من المحن من جراء تعصب حاكم إقليمي، أو فقيه، أو هلوسة عالم أو ملاّ نصف مجنون؛ ولقد قام خليفة أو إثنان فعلاً – مثل المتوكل– بإخضاع المسيحيين لبعض التدابير التنكيدية؛ لكن أمثال هذه الحوادث، رغم كثرتها، ينبغي اعتبارها مخالفات قانونية، والرجال الذين ارتكبوها منتهكين للقانون، كما يُعتبر جميع المجرمين منتهكين للقانون. إن موقف الإسلام القانوني المنصوص عليه في الوثيقة الحالية تدل، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الإسلام الرسمي، مهما كان مقصراً في بعض الجوانب الاجتماعية، فإنه لم يكن التعصب جزءاً من مساوئه. لقد صدر الميثاق من المحكمة العليا لخليفة عباسي، لكن هل بإمكان ملك إنجليزي، أو ملكة هولندية أو رئيس فرنسي أن يكتب في القرن العشرين ميثاقاً أكثر تسامحاً لصالح رعاياهم المسلمين الكثر؟ لم يكن القرآن هو السبب في اضطهاد المسيحيين في العصور

القديمة، ولا في الإبادة الجماعية في التاريخ المعاصر، تماماً كما لم يكن الإنجيل هو العامل المحرك لارتكاب مجازر محاكم التفتيش الوحشية. إذ لا ينبغي خلط السياسة، والطموحات الشخصية، أو الذريعة الاقتصادية، بالدين (١-٢).

كان صلاح الدين الأيوبي (حوالي ١١٣٨-١١٩٣م)، وهو 'نسيبي' معروف [كاره لآل بيت النَّبيّ وأنصارهم]، مشهوراً بالتسامح ونبل الشخصية عند مواجهة الصليبيين المسيحيين. عندما غزا القدس، اقتدىٰ بنموذج الحكام المسلمين السابقين، ومنح حمايات خاصة للمسيحيين الأرمن بالأرض المقدسة.

بينما يعتبر معظم الثقاة 'مرسوم صلاح الدين' صحيحاً من الناحية التاريخية فإن رجال الدين الروم الكاثوليك، والمستشرقين الغربيين، وحتىٰ المراجع الأورثوذكسية الأرمينية يشكّون في صحة 'عهد النَّبيّ للمسيحيين الأرمن في القدس'. فعلىٰ سبيل المثال يتحدث أفيديس ك. سانجيان عن " 'الفرمان' المنسوب للنبي مُحَمَّد ﷺ، المؤكِّد لحقوق الأرمن في الأماكن المقدسة بالقدس" (ناركيس١١)، و" 'الفرمان' المنسوب لعمر بن الخطاب [كذا]" (١١)، و"الفرمان المنسوب للخليفة علي"(١٣). كما يشير سيتا ب. دادويان أيضاً إلىٰ "القسَم النبوي المزعوم للأرمن" (٦٠). ويلخص دادويان التاريخ القديم لعلاقات المسلمين والأرمن كالتالي:

"في التواريخ الأرمينية كان أقدم سياق ومناسبة للقاءات الإسلامية ـ الأرمينية هو الوضع القانوني للمسيحيين الأرمن والشرقيين في القدس. وقد كان ما يعرف في التواريخ الأرمينية بـ"القَسَم النبوي" يعتبر قَسَماً حقيقياً زُعم أنه مُنح لوفد مسيحي من القدس في المدينة المنورة، برئاسة البطريريك الأرميني، في أوائل ثلاثينيات القرن السابع، إن لم يكن في وقت أقدم من ذلك.

طبقاً للتقليد الأرميني المتعلق بالقسَم، يسجل هٰذا الحدث المرحلة الأولىٰ من التفاعل مع الإسلام. تماشياً مع تقليد النَّبيّ وبنفس الروح، يقال إن ترتيباً مماثلاً كان قد تم عقده من قبل عليّ بن أبي طالب سنة ٦٢٦م/ ٤هـ (الذي سيتولىٰ الخلافة لاحقاً ما بين ٦٥٦ و ٦٦١)، وبعد ذلك بقليل من قبل الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-

٦٤٤). وكان جوهر هذه "الأيمان" الأصلية هو التسامح تجاه الطوائف المسيحية وحمايتها من قبل الحكام المسلمين مقابل خضوعها المطلق وأداء الضرائب. وطبقًا لهٰذا التقليد فإن أطروحتي معاوية وابن مسلمة هما 'تأكيدان' جديدان، لما يسمىٰ بـ'القسم النبوي'. هكذا كان ينظر الأرمن إلىٰ علاقاتهم مع الخلافة الإسلامية آنذاك. في نظرهم، قام الأمويون فقط بـ "تجديد" - كما كان يقال غالبا- 'القسم النبوي' سنتي ٧٠٣ و٧١٩م. بعد ذلك بكثير، في سنة ١١٨٧م عندما دخل صلاح الدين الأيوبي القدس، شهد الأرمن 'تجديداً' آخر للقسَم الأصلي المتعلق بحماية الأرمن مقابل خضوعهم ودفعهم للجزية. والواقع أن صلاح الدين ذاته رسخ هٰذا في قسمه، الذي يعتبر صحيحًا. وقد قيل إن الأرمن أروا صلاح الدين قسمي عليّ وعمر.... وهٰذا بالفعل يعزز التقليد الأرميني المتمثل في تتبع كل 'الأيْمان'، باعتبارها استمرارا لما كانوا يسمونه بـ'القسم النبوي' (٦٠)."

يرىٰ روبرت و. طومسون بأنه "يُعزىٰ إلىٰ مُحَمَّد ذاته تدبير تم إنجازه فقط علىٰ أيدي خلفائه" (٨٤٢). ورغم تشكيك دادويان في 'القسم النبوي' للأرمن، أو ما نسميه بـ 'عهد النَّبِيّ مُحَمَّد للمسيحيين الأرمن في القدس'، فإنها تعترف بأن سلسلة طويلة متعاقبة من الحكام المسلمين: الأيوبيين والأمويين، والخلفاء الراشدين، كلهم جددوا مرسوم النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ. أما عن قضية ما إذا كانت النسخة الموجودة حاليًا في 'مكتبة القديس جايمس' في البطريركية الأرمينية بالقدس هي النسخة الأصلية من 'القسم النبوي' أو نسخة طبق الأصل منها، أو تسجيل لعهد شفوي، فإنها مسألة غير هامة. فبقدر ما أطلنا التوغل في استكشاف الماضي، بقدر ما صار وضوح الرؤية أصعب. ما يهم هو أن لدينا سلسلة غير منقطعة نتلمس بها الطريق عبر الضباب. لقد قبِل صلاح الدين مرسومي علي وعمر وأقر بصحتهما. وقد كان لهذين الخليفتين معرفة شخصية بكلام وأفعال النَّبِيّ ﷺ. هذه السلسلة متينة وسليمة وهي متجذرة في الحقيقة المتمثلة في شيء أساس هو أن النَّبِيّ مُحَمَّد منح الحماية والامتيازات للمسيحيين الأرمن بالقدس.

ولم يكن المسلمون وحدهم من وقف وراء 'عهد النَّبِيّ للمسيحيين الأرمن'،

بل فعل المسيحيون نفس الشيء. فقد أكد كل من صمويل ومكسيطار (من مدينة آني) وكيراكوس وجوانسر بأن "محمداً نفسه عقد عهداً مع الأرمن، يضمن لهم فيه حرية ممارسة الدين المسيحي" (طومسون، 'محمد' ٨٤٢). لقد كتب صمويل في القرن الثالث عشر، يقول:

"لقد أقام محمد السيف، وبفضل تعاليمه أخضع [المسلمون] الجزء الأكبر من الكون. وبواسطة قَسَم أبدي، أمضىٰ عهداً يهم بلاد الأرمن (مفاده) أن بإمكانهم ممارسة عقيدتهم المسيحية بكل حرية... وقد فرض علىٰ كل بيت أربعة دراخمات [دراهم يونانية]، وثلاثة مكاييل من 'الخربال' [؟]، ومخلاة واحدة، وحبلاً من الشعر، وقفازاً واحداً. لكنه أمر أن تؤخذ ضريبة من رجال الدين والنبلاء والفرسان. (انظر طومسون، 'محمد' ٨٤٣)

إن الدعوىٰ التي يزعم أصحابها بأن عهود النَّبيّ مُحَمَّد، وعمر، وعلي ملفقة هي دعوىٰ ضعيفة. فكما تؤكد دراسة روبرت و. طومسون عن محمد في التقليد الأرميني، لم يكن لدىٰ الأرمن فهم دقيق ومنسجم عن الدين الإسلامي (٨٥٨). إن المصادر الأرمينية المتعلقة بالإسلام مليئة بكل أنواع السخافات وسوء الفهم. وكان من شأن هذه الحالات العقائدية والتاريخية من سوء الفهم أن تبرز في محتوىٰ المعاهدة المزورة. أما إذا كانت المعاهدات المذكورة منسجمة مع القرآن والسنة والشريعة، فهٰذا يدل بأن أصل تأليفها تم الحسم فيه بشكل صحيح، وبأن سلسلة عمليات تصديق وتجديد تلك الوثائق يمكن تتبعها وصولاً إلىٰ شخص النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ.

وإن لم أكن قد ذكرت العديد من الخلفاء والسلاطين الآخرين الذين أكدوا حقوق المسيحيين الأرمن، فإن هٰذا التقليد استمر إلىٰ القرن العشرين. ففي ١٩١٧م، أصدر شريف مكة، الحسين بن علي، مرسوماً موجهاً إلىٰ المسلمين. وفي فَتْواه، أمر رئيس المحكمة الملكية الهاشمية المسلمين بما يلي:

"إنكم مطالبون بحماية ورعاية كل الجماعة الأرمينية واليعقوبية التي تعيش في أراضيكم، داخل حدودكم، وداخل قبائلكم؛ أن تساعدوهم

في كل شؤونهم، وان تدافعوا عنهم كما تدافعون عن أنفسكم، وممتلكاتكم، وأولادكم؛ وأن تزودوهم بكل ما يحتاجون إليه، سواء كانوا مقيمين أو رحلاً، لأنهم أهل ذمة لدىٰ المسلمين، الذين قال عنهم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام: "من أخذ منهم شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة." هٰذا من بين أهم الأشياء التي أطلب منكم القيام بها، وأتمنىٰ أن تنجزوها علىٰ أساس الخلق النبيل والعزيمة الذين تتحلون بهما".

ما نشهده هنا هو حالة واضحة من استمرارية العهود: من النَّبيّ الىٰ عمر، ومن عمر إلىٰ علي، ومن علي إلىٰ المكتفي الثاني، خليفة بغداد نزولاً إلىٰ 'فرمان شريف مكة وحامي الأماكن المقدسة'، الحسين بن علي (١٩٣١-١٩٥٤م). وكما يوضح مينجانا، فإن "الحقيقة الجديرة بالثناء المتعلقة بالتسامح، والتي تسري عبر 'الفرمان' هي حقيقة كل الخلفاء المسلمين، وليس واحد منهم فقط"(٢). قد يكون لدىٰ الحكام المسلمين اختلافاتهم السياسية والمذهبية، ومع ذلك فإنهم يتفقون بجلاء علىٰ شيء واحد: الأمر النبوي بحماية المسيحيين الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي.

أما بالنسبة للتكفيريين الذين ينشرون الإرهاب بين المسيحيين والمسلمين في سوريا، والعراق، وباكستان، وأماكن أخرىٰ، فإنهم، حسب عهود النبي، والخلفاء، والأئمة، والسلاطين، مجرد مرتدين عن الدين وكفرة. إنهم حقاً أولئك الذين يشنون حرباً ضد الله ورسوله وكل القيم والأخلاق التي يعلِّمها الإسلام الحقيقي. لكن، خلافاً لأنصار هذه الطائفة الضالة، فإن عامة المسلمين من سنة، وشيعة، ومُتَصَوّفة لا يستبيحون دماء السلفيين المدنيين العزل ولا يحكمون عليهم بالموت. أما عن الإرهابيين المسلحين، سواء تعلق الأمر بأفراد، أو بجماعات حرب العصابات، أو دول متورطة، فإنه من واجب كل المؤمنين أن يعارضوهم بنفس القوة التي يجب معارضة مسانديهم الغربيين، سواء كانوا أمريكيين، أو بريطانيين، أو فرنسيين، أو إسرائيليين بكل الوسائل الضرورية، ما دامت هذه الأخيرة منسجمة مع التقاليد والقوانين الإسلامية. إن المذهب التكفيري هو النقيض المحوري للإسلام. فبينما يعمل الإسلام الصحيح علىٰ توحيد المسلمين وغير المسلمين بروح إنسانية، فإن

المذهب التكفيري يفرق عن طريق العنصرية الدينية، والكراهية والتعصب. ليس لدىٰ الحركة التكفيرية المتطرفة أي شيء تقدمه للعالم عدا الحقد والعنف. بدل الدعوة إلىٰ السلام، فإن قادتها يكرسون التعصب الأعمىٰ. إنهم لا يعدون بشيء عدا الاستبداد، والتجبر، والخداع، ولا يعملون إلا علىٰ خدمة مصالح الكفار. ورغم كون الأمة الإسلامية ضعيفة، ومستغَلّة، ومقهورة، فقد حافظت علىٰ نوع من الوحدة داخل التنوع. لكن تصرف التكفيريين وفق أجندات غربية جعلهم يسعون إلىٰ زعزعة العالم الإسلامي وتقسيمه، وقطع أوصاله. إنهم يسعون، باختصار، لتدمير الهوية الإسلامية الجماعية. في غياب أي وعي بالذات. بدون أي حضور ولو علىٰ مستوىٰ ظاهري للإسلام كقضية نبيلة، فلن يكون هناك أي أساس لبناء مستقبل إسلامي. إن كان هناك أئمة يهدون إلىٰ الجنة، فإن هناك أئمة يقودون إلىٰ جهنم، في الوقت الذي يَعِدُون فيه الناس بالجنة. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (القرآن ٢٨: ٤١-٤٢)

خُلاصَات

لقد كانت البطريركية الأرمينية دائمـًا حريصة علىٰ الحديث عن ’الفرمان‘ المنسوب للنبي بدل حديثها عن ’فرمان‘ النبي؛ وبنفس الروح من الحذر أظهروا حتىٰ الآن عدم رغبة مفهومة في عرض هذه الذخيرة الثمينة أمام الرأي العام والتقييم العلمي. لكن، لو وجدت أنا أو أكاديمي آخر دليلاً قاطعـًا بأن ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد للنصارىٰ الأرمن في القدس‘ كان مزيفـًا - وسيكون من الصعب جداً إقامة مثل هٰذا الدليل- فإن المسيحيين في الشرق الأوسط لن يعانوا نتيجة لذلك . إن الكنيسة، ككل، لا يمكن أن تُلامَ علىٰ خطأ ارتكبه مسيحي ضال، عن حسن نية، حاول أن يحمي طائفته قبل أزيد من ألف سنة خلت. لكن إذا كانت الوثيقة حقـًا صحيحة، كما أعتقد أنها كذلك، شأنها شأن كل العهود الأخرىٰ التي تم تقديمها في هٰذا الكتاب، وإذا تمكن العلماء أن يقدموا حججـًا تثبت صحتها، فإنها سوف تؤكد حقوق الأرمن في الأماكن المباركة بالأرض المقدسة، وسوف يُنظر إليها بإجلال باعتبارها دليل الحماية التي منحهم إياها النَّبيّ ﷺ. إن ترك مثل هذه العهود طي السرية (وراء قفل ومفتاح)، مخبأة في أرشيفات الكنائس، والأديرة، والمكتبات أمر عديم الجدوىٰ ولا يخدم مصلحة أي كان. بعد تفحص هٰذا الكتاب، إن شاءت البطريركية أن تقبله كمحاولة صادقة لإثبات التقدير الكبير الذي كان النَّبيّ ﷺ يضمره للدين المسيحي، وإظهار أوامره الموجهة لجميع المسلمين لكي يحترموا حقوق المسيحيين المسالمين ويضمنوا أمنهم في كل مكان، فإن أملنا معقود علىٰ أن يقرروا جعل ’الفرمان‘ الذي بين أيديهم في متناول مزيد من البحث والدراسة.

الجُزءُ الثّاني

التّحدّيات

الفَصْل ٨

فَحْص المَصَادِر

فحص المصادر

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

تمنح عهود النَّبيّ مُحَمَّد للعديد من الطوائف المسيحية فرصاً كثيرة للبحث، وأهمها منهج تحليل المحتوىٰ. ويمكن أيضاً أن تكون قوائم الشهود المرفقة معها ذات أهمية بالنسبة للباحثين المتخصصين في تاريخ وتطور علم الحديث، كما يمكن معالجة قوائم الشهود هذه بطرق مختلفة عديدة. فبالإمكان اعتبارها بمثابة مجموعات مرجعية مستقلة. وفي هذه الحالة، تمثل كل معاهدة علىٰ حدة خطاً مستقلاً يعود بنا إلىٰ شخص النَّبيّ ﷺ. ويمكن النظر إليها كفروع من جذع واحد، سواء كانت أصيلة أم لا. وبالإمكان أن يكون النساخ المتعاقبون قد أتاحوا لأنفسهم حرية إضافة أو حذف بعض الشهود لأسباب علمية أو سياسية أو دينية. وأخيراً، يمكن رفضها جملة باعتبارها إضافات متأخرة، وهٰذا لا يقوّض أو يعرّض مضمون المعاهدات للشبهة بأي حال من الأحوال. وتجدر الإشارة في هٰذا المقام إلىٰ أن العهود لقيت قبولاً واسعاً باعتبارها أصلية من قبل القادة والحكام المسلمين لأزيد من ألف سنة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولم يشرع الكتاب الغربيون في التساؤل عن صحتها إلا في القرن السابع عشر.

رغم أن مضمون عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء هو نفس المضمون [رغم انتقاله] من لفافة إلىٰ لفافة، فإن قوائم الشهود تتراوح من عدد إثني وعشرين شاهداً المتعارف عليه إلىٰ نسخ تحدد العدد في سبعة وثلاثين إلىٰ ثمانية وثلاثين، وأخرىٰ تحصرها في ستة عشر. ورغم وجود إستثناءات نادرة، فإن هٰؤلاء الشهود مرتّبون بنفس الترتيب تقريباً. أول هٰؤلاء هو عليّ بن أبي طالب (توفي ٦٦١م)، وهو رجل

ذو استقامة لا تشوبها شائبة، والثاني هو أبو بكر (٥٣٧-٦٣٤م) وهو يحظىٰ بأسمىٰ تقدير عند السنيين لكنه يُنتقد من قبل الشيعة بسبب أفعال قام بها بعد وفاة النَّبيّ ﷺ. والثالث هو عمر بن الخطاب (٥٧٩ - ٦٤٤م)، وهو يحتل المرتبة الثانية من حيث النزاهة بعد أَبِي بَكْر، بالنسبة للسنيين؛ أما الشيعة فيعتبرونه ناقصاً مثل سابقه. والرابع هو عثمان بن عفان (٥٧٧- ٦٥٦م)، وينتقده السنة والشيعة علىٰ السواء بسبب نقاط ضعفه الإدارية. ويظهر أبو الدرداء (توفي ٦٥٢م) -وهو محبوب عند السنيين والشيعة معاً- في ثلاثة من العهود، لكنه غائب بشكل بارز في إثنين منهما. ويليه أبو هريرة (٦٠٣-٦٨١م)، وهو أيضاً لا يظهر إلا في ثلاثة من العهود. وكما سبقت الإشارة، فإن وجود أبي هريرة ضمن الشهود يطرح إشكالاً بما أنه انتقل إلىٰ المدينة فقط خلال السنوات الأخيرة من حياة النَّبيّ ﷺ. لكن بالإمكان أن يكون قد جاء في سفر إلىٰ المدينة في وقت سابق. ومن الممكن جداً أن يكون اسم أبي هريرة قد ورد كسوء قراءة لاسم حذيفة بن اليمان (توفي ٦٥٦م). ويمكن أيضاً أن يكون هو خويص بن حذيفة الذي توفي في أُحُد. ماعدا ذلك، قد يكون هو سليم مولىٰ أبي حذيفة الذي مات وهو يحارب مسيلمة الكذاب خلال حكم أَبِي بَكْر.

ويأتي اسم عبد الله بن مسعود (توفي ٦٥٠م)، بعد ذلك في القائمة؛ وهو رجل محترَم لدىٰ السنة، كما أنه يحظىٰ بتقدير أقصىٰ لدىٰ الشيعة نظراً لولائه للإمام علي. أما بخصوص عباس بن عبد المطلب (توفي ٦٥٢/ ٦٥٣م)، فقد كان أحد أعمام النَّبيّ وجداً للأسرة العباسية المالكة. لكن اسمه مفقود في معاهدتين اثنـتين. فهل تمت إضافته في وقت لاحق إرضاء للعباسيين؟ الشاهد الموالي بعد ذلك هو حارث بن ثابت؛ لكن ربما قد يكون هٰذا تصحيفاً لاسم حسان ابن ثابت (توفي ٦٧٤م)، وهو الشاعر الشخصي للنبي ﷺ. ويليه عبد العظيم بن حسن، وهو شخص لم أتمكن من إثبات هويته. ويرِد ذلك بعد اسم الشاهد فضل ابن عباس، وهو كذلك يظهر بصيغة التصغير 'فضيل'. وكان هٰذا الرجل ثقة لدىٰ أهل السنة؛ أما الشيعة فيبجلونه نظراً لرفضه بيعة أَبِي بَكْر. لقد قاتل الأوروبيين والفرس ثم مات في سوريا. أما عن الزبير بن العوام (٥٩٤-٦٥٦م)، وطلحة بن عبيد الله (توفي ٦٥٦م)، وهو يظهر

باسم طلحة بن عبد الله في كل العهود عدا واحداً، فإنهما ذوَا ثقة عند السنيين، أما الشيعة فيكرهونهما بسبب التحاقهما بتمرد عائشة ضد الخليفة علي في موقعة الجمل (٦٥٦م). ويليهما بالتتابع سعد بن معاذ (توفي ٦٢٧م)، وسعد بن عبادة، وهو رفيق مقرب من الإمام علي وقد مات خلال خلافة أَبِي بَكْر. وقد نال الرجلان إعجاب كل من السنيين والشيعة. ويظهر ثابت بن نفيس في أربعة عهود، بينما يظهر ثابت بن قيس في 'عهد' واحد. وقد تم شجب هٰذا الأخير بقوة من قبل الشيعة بسبب دوره في السقيفة، أي في اللقاء السري بين زعماء القبائل، والذي عُقد إثر وفاة الرسول ﷺ وعُيّن خلاله أبو بكر بكيفية متسرعة خليفة دون تشاور مع المجتمع بأي شكل من الأشكال. وبالنسبة لثابت بن نفيس، فإن المرء يتساءل عما إذا كان هو حقاً نافع بن الحارث (توفي ٦٧٠م)، وهو اسم طبيب النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. ثم يليه الكاتب الشخصي للنبي ﷺ، زيد بن ثابت، (حوالي ٦١٠ – ٦٦٠م)، واسمه موجود في أربعة عهود، لكنه غائب في الخامس. أما الشاهد الموالي فقد أحدث إرباكاً كبيراً بين النساخ، إذ أن اسمه ورد كالتالي: بوحنيفة ابن أُبَيّه، أبو حنيفة بن عتابة، موخياتمة، وأزور بن ياسين. ومن الممكن أن يكون 'خياتمة' هو خزيمة، أي خزيمة بن ثابت (توفي ٦٥٧م)، وهو من صحابة الرسول ﷺ، ورفض أن يقدم البيعة لأبي بكر، وقد مات وهو يدافع عن الإمام [علي] في معركة صفين (٦٥٧م). ربما هو حقاً خويلد بن أسد الذي هاجر إلىٰ الحبشة. ويمكن أن يكون أيضاً هو ذو الخويصرة التميمي، وهو لقب ذو الثدية حركوص بن زهير التميمي، زعيم الخوارج. ومع ذلك، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه البلبلة اللغوية، فإن التوصل إلىٰ تحديد إيجابي غير ممكن في هذه المرحلة.

الاسم الموالي هو أيضاً محير حيث يظهر هكذا: هاشم بن أبيّه، هاشم بن عُبيد، هاشم بن عَبيد، هاشم بن أميّه، وهكذا دواليك. وقد يكون هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وهو قائد جيش إسلامي. ومرة أخرىٰ، سوف يكون من غير اللائق الحديث عن أي تحديد دقيق. أما الشاهد الموالي فهو أكثر وضوحاً: إنه مُعظّم بن قريشي، ولقب 'معظم' بمثابة تشريف لصحابة النَّبيّ ﷺ، أما 'القريشي' فيشير ببساطة إلىٰ انتمائه لقبيلة قريش. وهذه خيوط قليلة جداً لتعريف هذه الشخصية. والشاهد ما

قبل الأخير هو عبد الله بن عمرو بن العاص (توفي ٦٨٤م)، وهو محترَم عند السنة ولكنه محتقر عند الشيعة بسبب الجرائم التي ارتكبها باسم الأمويين. أما الشاهد الأخير فهو عمار بن ياسر (حوالي ٥٧٠-٦٥٧م)، ويظهر اسمه في كل العهود ما عدا واحدا. لقد اعتنق الإسلام في وقت مبكر، وكان من الأنصار المخلصين جداً للإمام علي، وقد نال احترام السنيين، أما الشيعة فيبجلونه. ولكن هٰذا الشاهد يظهر أيضـاً باسم عمير بن ياسين في أحد العهود. ولهٰذا فمن المحتمل أن يكون هو ياسر بن عمير العنسي، أحد صحابة رسول الله الأوائل ﷺ الذي اعتنق الإسلام بين سنتي ٦١٠ و٦١٣م.

وبالنسبة لأي باحث قد يشكك في كون 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' مجرد تزوير شيعي، فإن سلسة رُوّاتها تتعارض مع المعايير الشيعية المعتمدة في إثبات صحة العهود. حتىٰ لو افترضنا قيام شخص ضال بتزوير قائمة الشهود، فسوف لن تتضمن هذه القائمة صحابة يُطعن في نزاهتهم. لقد تمت الشهادة علىٰ 'العهد' من قبل صحابة الرسول ﷺ الذين وقفوا بقوة إلىٰ جانب 'أهل البيت'، آل رسول الله ﷺ. هذه، علىٰ ما يبدو، سلسلة ذات مرجعية سنية، ومن المدهش أنها تبدو صحيحة نسبياً. لو تم حذف سعد بن معاذ، الذي توفي خلال الصراع مع يهود المدينة، والذي يمكن أن يكون قد عُرف باسم 'سعد' في نسخة سابقة، مما يترك الناسخ غير متأكد من هوية من قام بالتوقيع، وكذلك لو اعتُبر أبو حنيفة تصحيفاً لأبي حذيفة، فإن قائمة الشهود ستكون مقبولة لدىٰ جميع المسلمين. وإذا وقع أن كان سعد بن معاذ شاهداً فعلياً، فسوف يحدد هٰذا تاريخ 'العهد' في السنوات الأولىٰ لما بعد الهجرة، وهو التاريخ التقليدي المذكور في النسخ الموجودة. لو تم حذف سعد بن معاذ، ولو أعيد إدراج أبي هريرة، فسيتحدد تاريخ 'العهد' فقط في السنوات القليلة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ. وفي الوقت الذي لا يخلو فيه عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء من المشكلات، فإنه يبقىٰ ضمن نطاق الممكن.

أما فيما يتعلق بعهود النَّبيّ ﷺ لكل من مسيحيي العالم (١٥٣٨ و ١٦٣٠)، ونجران، والنصارىٰ الآشوريين، فإن قوائم الشهود تبقىٰ أيضـاً مثيرة للحيرة. تبتدئ

هذه العهود المذكورة بأبي بكر، ويليه عمر بن الخطاب في كل 'عهد' باستثناء عهد ١٦٣٠. ويظهر عثمان بن عفان بعد ذلك في كل العهود ما عدا العهد الممنوح للنصارىٰ الآشوريين. ويوجد عليّ بن أبي طالب في عهدين، باستثناء العهد مع مسيحيي العالم المبرمة سنة ١٦٣٠م. ويليه معاوية في كل مخطوطة باستثناء المعاهدة مع مسيحيي العالم لسنة ١٥٣٨م. ويطرح وجود معاوية في هذه العهود مشكلة دائماً بما أنه دخل الإسلام متأخراً وقام بتحويل الخلافة إلىٰ نظام ملكي. لكن من الممكن أن يكون قد تم ضمه باعتباره أحد الأعيان المحترمين من قبيلة قريش، حتىٰ قبل اعتناقها للإسلام. إنه الشخص الذي كان من شأنه أن يعبر عن إعجابه بالنَّبيّ ﷺ دون أن يصل إلىٰ الخطوة الحاسمة المتمثلة في النطق بـ'الشهادة'، هٰذا في الوقت الذي قد يكون فيه متحدثاً إلىٰ بعض القرشيين، واعداً إياهم بأنه إذا صار قويا بين المسلمين فإنه سيعيدهم إلىٰ مكانتهم السابقة. ومع ذلك، إذا كانت العهود قد أُصدرت، أو أعيد إصدارها، خلال السنوات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ، وتم الاحتفاظ بالموقعين الأوائل –وقد استشهد بعضهم– فإن وجود معاوية سواء بصفته ناسخاً أو شاهداً يعتبر أمراً معقولاً جداً. لكن بما أن اسمه لا يظهر في عهد ١٥٣٨، ويظهر فجأة في عهد ١٦٣٠، حيث لا وجود للإمام علي، فإن تلاعباً سنياً مضاداً للشيعة قد يكون وارداً. هٰذا لا يعني أن معاوية لا يظهر كناسخ وشاهد في نسخة سابقة. بما أنه قام بمفرده بوضع حد لخلافة الصحابة الراشدين فإن العديد من المسلمين، بما فيهم السنيين والشيعة والمُتَصَوّفة، نظروا إليه بازدراء وكان لديهم الكثير من الأسباب لطمس اسمه. ليس هناك أدنىٰ شك في أن الأحداث التاريخية للحقبة التي تلت وفاة الرسول قد لوّنت روايات من حياته ﷺ بلون خاص.

أبو الدرداء (المتوفىٰ سنة ٦٥٢م) موجود في كل العهود باستثناء واحد، بينما يوجد أبو ذر الغفاري (المتوفىٰ سنة ٦٥٢م) في كل منها. وتمت الإشارة الىٰ شخص يدعىٰ أبا بر في عهدين. هٰذا الشخص هو علىٰ الأرجح البراء بن مالك الأنصاري (توفي ٦٤٠م) وقد مات في معركة تستار وهو يقاتل الفرس. وكان البراء أخاً لأنس بن مالك (حوالي ٦١٢ – ٧٠٩ أو ٧١٢م)، وقد كان متميزاً أثناء غزو بلاد فارس.

ويظهر عبد الله بن مسعود في كل العهود. أما حمزة بن [عبد] المطلب (٥٦٨-٦٢٥م) فيظهر في عهدين اثنين، بينما يظهر هشام بن المطلب في عهد آخر. إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم الشهرة التي يتمتع بها حمزة عم الرسول ﷺ عند المسلمين، فإنه يبدو غريباً أن يُساء تمثيل اسمه. تتجلىٰ مشكلة حمزة في أنه استشهد في معركة أحد (٦٢٥م). ولهٰذا الاعتبار يتعين أن يكون هٰذا 'العهد' سابقاً لهٰذا الحدث. كما أن وجود أشخاص لم يعتنقوا الإسلام إلا في وقت لاحق يطرح مشكلات واضحة. مرة أخرىٰ، لو كان الرسول ﷺ يعيد إصدار هذه المواثيق الخاصة بالحماية والامتيازات علىٰ أساس سنوي، فإن الاحتفاظ بالشهود الأوائل قد يكون من باب الاحترام لهم.

واسم فضل بن عباس موجود في كل العهود عدا عهد واحد. ويظهر طلحة كابن عبيد الله في إحدىٰ العهود، وكابن عبد الله في العهود الأربعة الأخرىٰ. أما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فيظهران بانتظام في جميع المخطوطات. وكما سبقت الإشارة، فقد توفي سعد بن معاذ خلال السنوات الأولىٰ من الهجرة. ويظهر ثابت بن قيس بهٰذا الاسم في ثلاث عهود وباسم ثمامة بن قيس في الرابع. ويظهر زيد بن ثابت (حوالي ٦١٠-٦٦٠م) في عهدين بهٰذا الاسم، لكن باسم يزيد بن ثابت في العهود الأخرىٰ. ونجد عبد الله بن يزيد، وهو شخص لم يتم التعرف عليه، في كل العهود باستثناء عهد واحد. كما نجد شخصاً يسمىٰ سهل بن صفية أو صيفة، أو سهل بن البيضاء، أو سهل بن تميم في ثلاثة عهود لكنه غائب في العهدين الآخرين. قد يكون هٰذا هو سهل بن سعد (٧٠٩م) أو ربما سهل بن البيضاء، وهو مهاجر توفي في معركة بدر. وكان سهل بن البيضاء، المعروف بسهيل بن وهب بن ربيعة، من بين المهاجرين إلىٰ الحبشة. لكن حضور هٰذا الصحابي الأخير قد يرجع بتاريخ العهود النبوية إلىٰ زمن ما قبل خروج الإسلام من عتمة الظلمات. وقد يكون الاسم أيضاً هو سهل بن حنيف (المتوفىٰ حوالي سنة ٦٥٨م)، وهو مناصر لعلي، رفض مبايعة أَبِي بَكْر. والأكثر إثارة، يمكن أن يكون بالفعل هو سهلة بنت سهيل بن عمرو. وقد كانت صحابية شاركت في الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة مع زوجها أبي حذيفة بن عتبة (توفي ٦٣٣م). وقد كانت هي وزوجها هما الأبوان بالتبني لسليم مولىٰ أبي حذيفة. ومن

الممكن أن يكون النساخ قد أظهروها في صيغة المذكر ليتناسب ذلك مع المعايير الثقافية. وقد يحيل الاسم أيضاً إلىٰ تميم بن أوس الداري (توفي ٦٦١م)، أو حتىٰ إلىٰ المنذر بن ساوىٰ التميمي، حاكم البحرين، الذي كان النَّبيّ ﷺ قد راسله. مرة أخرىٰ، من الصعب أن يكون المرء متأكداً بشكل قاطع.

عثمان بن مطعون موجود في ثلاثة عهود، ويظهر باسم عمر بن مظعون في معاهدة أخرىٰ. التعريف الصحيح هو عثمان بن مظعون، وهو أخ للنبي ﷺ من الرضاعة، توفي خلال حياة الرسول ﷺ. وهناك شخص مجهول الهوية في عهدين يدعىٰ داوود بن جباح أو دايفيد بن جيجاح. هل كان هٰذا شاهداً يهودياً أو مسيحياً؟ أم أن اسمه تعريف لدعد بنت جحدم بن أمية بن زريب، أمّ سهيل بن البيضاء، وهي صحابية أخرىٰ هاجرت إلىٰ الحبشة؟ لا يمكن تقديم الجواب إلا بعد مزيد من البحث. ويوجد أبو العالية في ثلاثة عهود إلىٰ جانب الاسم المتغير أبي الغالية في عهد آخر. إن كان هٰذا الشخص هو فعلاً أبو العالية فإنه لم يعتنق الإسلام إلا خلال خلافة أَبِي بَكْر. لقد كان تابعاً للصحابة وليس صحابياً للنبي نفسه. وهٰذا يطرح بعض الأسئلة حقيقة. لكن من الممكن أن يكون العهد قد مر عبر أيدي الجيل الثاني من المسلمين، الذين قاموا بإضافة أسمائهم، وفق ما جرت به العادة. قد يكون هٰذا إسناداً بدائياً من النَّبيّ ﷺ إلىٰ الصحابة وبعد ذلك من الأصحاب إلىٰ تابعيهم («التابعين»).

ويظهر عبد الله بوصفه ابناً لعمر بن القاضي في عهدين، وبوصفه ابناً لعمرو بن العاص (حوالي ٥٩٢ - ٦٦٤م) في ثلاثة عهود. من الممكن حتىٰ أن يكون هٰذا هو عبد الله بن عمر (حوالي ٦١٤- ٦٩٣م)، ابن الخليفة الثاني، الذي روىٰ عدداً كبيراً من الأحاديث. أما هوية الشاهد الموالي فيصعب تبينها، حيث إن بعض النساخ يشيرون إلىٰ اسم أبي حذيفة، وآخرين إلىٰ أبي حنيفة، وآخرين إلىٰ أبي أحريفة. إن كان الأمر يتعلق بأبي حنيفة، الفقيه الشهير، الذي عاش من سنة ٦٩٩ إلىٰ ٧٦٧م، فإن قائمة الشهود برمتها قد يكون تم تزويرها في وقت متأخر. لكن، قد تحتاج المسألة إلىٰ شخص جاهل تماماً لارتكاب مثل هٰذا الخطأ. علىٰ الأرجح، الاسم هو أبو حذيفة. أما الشاهد الموالي فقد تم تعريفه علىٰ التوالي كابن عَسير، وابن عُسيْر، وأبي الأزير،

وابن عَزير. قد يكون هٰذا عاصم بن ثابت الذي مات في معركة بدر (٦٢٤م). أما ابن ربيعة فموجود في عهدين فقط. إن كان هٰذا هو سعد بن الربيع، فإنه كان قد مات في معركة أحد (٦٢٥م)، مما يطرح إشكالاً. قد يكون أيضاً هو الحارث بن ربيع الأنصاري، وهو مناصر لعلي، مات خلال موقعة الجمل. وقد يشير الاسم أيضاً إلىٰ أبي العاص بن الربيع، الذي دخل الإسلام بعد فتح مكة. ولا يمكن إبعاد أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ونفس الشيء يقال عن عمير بن ربيعة، الصحابي الذي شارك في الهجرة الأولىٰ إلىٰ مملكة أكسوم Axum، وكان أحد القادة من المجموعة التي عادت الىٰ المدينة سنة ٦١٥ م. كما أن ربيع بن عمير، سفير النَّبيّ الذي أُرسل لتسليم رسالته لإمبراطور فارس، يبقىٰ في حدود الإمكان بشكل واضح، دون ذكر عثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة، الذي قام بأول هجرة إلىٰ الحبشة.

عمار بن ياسر (حوالي ٥٧٠ – ٦٥٧) موجود في عهدين، وقد عُرّف خطأ باسم عمر بن يامين في عهد ثالث. وهناك شخص يسمىٰ هاشم بن آسية في ثلاثة عهود، لكنه عُرِّف باسم هاشم بن عبد الله في عهد ثالث. ويبدو أن هٰذا الشخص المعني هو هشام بن العاص، الذي توفي سنة ٦٣٥م في معركة اليرموك. وبدلاً من ذلك، قد يشير الاسم إلىٰ الحارث بن عبد المطلب، عم الرسول، وأحد صحابته، وهو من المناصرين الأوفياء لعلي. ويوجد حسان بن ثابت في عهدين؛ لكن الاسم يرد كحسان بن ثابت في أحد العهود وكحسان بن زابد في عهد آخر. أما كعب بن كعب فيوجد في ثلاثة عهود في حين يوجد كعب بن مالك في أربعة منها. كان الأول شاعراً وقد توفي في حياة الرسول ﷺ، أما الثاني فقد توفي أثناء خلافة الإمام علي.

ونجد اسم جعفر بن أبي طالب (توفي ٦٢٩م)، في أربعة عهود. وهٰذا أيضاً إشكال بما أنه توفي في السنوات الأولىٰ من الهجرة. وهناك شخص يظهر باسم حرفوس بن زيد في عهد واحد، وباسم فرسوس بن عمير بن يزيد في عهد ثان، وباسم حركوس بن زهير في عهد ثالث. الاسم الصحيح هو حركوس بن زهير، أحد صحابة النَّبيّ الذي لعب دوراً هاماً في غزو بلاد فارس علىٰ عهد عمر بن الخطاب. وقد اشتهر هٰذا الرجل بتطرفه وتعصبه الديني، حيث عاتبه النَّبيّ ﷺ علىٰ ذلك، وقد

أصبح في الأخير قائداً للخوارج الذين شنوا حرباً ضد أنصار عائشة ومعاوية وأنصار علي. ونجد اسم أسامة ابن زيد (٦١٥ - ٦٧٣م)، في عهدين كما هوالشأن بالنسبة لزيد بن أرقم (توفي ٦٨٥م). كان الأول قائداً مشهوراً في جيش محمد. أما الثاني فقد كان من المعتنقين الأوائل للإسلام، وهو من أبناء شهداء الإسلام الأوائل، كان يرفض الاعتراف بتعيين أَبِي بَكْر خليفة. ويوجد أبو هريرة في عهدين، في حين يظهر باسم أبو حريفة في عهد ثالث. وهناك شخص يظهر في قائمة أحد العهود باسم ابن زبير أو ابن جبير، لكنه يظهر باسم ابن جمير في عهد آخر. قد يكون هو نافع ابن جبير، وقد يكون أيضاً هو جبير بن مطعم، الذي دخل الإسلام بعد صلح الحديبية (٦٢٨م). ولا يظهر سهيل بن مفاح إلا في عهد واحد، ونفس الشيء صحيح بالنسبة لمصعب بن الزبير، وعبيد بن منصور، وعبد العظيم، وعبد العظيم بن حسين، ومعظم بن موشي. وبالنسبة لمصعب بن الزبير، فالاسم يشير إلىٰ مصعب بن عمير، وهو من صحابة الرسول ﷺ، توفي يوم أحد. وقد عمل فعلاً كأول سفير للإسلام، حيث كان يمثل محمداًﷺ في يثرب قبل الهجرة. أما بالنسبة للآخرين فإن هوياتهم تبقىٰ غير واضحة لحد الآن.

كما سيعترف علماء الحديث، فإن قائمة الشهود المرفقة في 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' هي أكثر صحة من القوائم الواردة في عهدي النَّبيّ لمسيحي العالم (١٦٣٠ و ١٥٣٨)، وعهدي نجران وآشور. وهناك ميزة غير عادية تتجلىٰ في أن أسماء كل الشهود المشتركة في كل العهود تتبع، علىٰ ما يبدو، نفس الترتيب. وقد يدل هٰذا علىٰ أن كل سلسلات الرواة تم إنشاؤها بعد وقوع الحدث (post factum) لتلبية متطلبات العلوم الإسلامية. إن كان الحال كذلك، فقد تكون هناك سلسلة أصلية واحدة، تم تبنّيها، وتوسيعها، وتعديلها، من قبل أطراف أخرىٰ، أو من الممكن أن تكون كل سلسلة قد وُضعت بشكل مستقل. وإلا، فقد تشير التشابهات إلىٰ مصدر واحد: النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ، الذي رتب أسماء صحابته ترتيباً معيناً، لسبب أو لآخر. وهناك أيضاً إمكانية أن تكون جميع العهود قد كُتبت خلال نفس الفترة من الزمن، ربما خلال 'سنة الوفود' (٦٣٠-٦٣١م). بالإمكان أن يكون النَّبيّ قد جلس وأملىٰ كل هذه الوثائق—لسيناء، ومصر، وبلاد الشام، وآشور، وأرمينيا وغيرها من الأطراف

التي لم تعد موجودة—خلال نفس الفترة، مما يفسر وجود نفس الشهود تقريباً. مرة أخرىٰ، بما أنه لا يمكن تحديد تاريخ أية من هذه العهود بيقين تام—رأينا، مثلا، أن عهد ١٦٣٠ يتضمن تاريخاً في الوقت الذي تخلو فيه النسخة السابقة منه لأي مؤشر مماثل—فإنه من الصعب تحديد ما لو كنا بصدد التعامل مع وثائق تم إصدارها خلال الأيام الأولىٰ من الهجرة أم خلال الأعوام القليلة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ. إن قضية التأريخ هي في الحقيقة انشغال غربي حديث. وعلىٰ العموم، تبقىٰ الأحاديث غير مُؤرَّخة، فإذا قال النَّبيّ ﷺ: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، " فإن اليوم، أوالشهر، أوالعام الحقيقي الذي تم فيه التلفظ بهذه الكلمات غير ذي أهمية بالنسبة للمسلمين.

إن عهود النَّبيّ لمسيحي العالم (١٦٣٠ و١٥٣٨)، ونجران، وآشور تحتوي علىٰ بعض العناصر المحيرة. إن كان هناك من يجرؤ علىٰ تزوير قائمة الشهود، فمن المتوقع أن يضمِّن هٰذا المزوِّر قائمة الصحابة المعروفين جداً لدىٰ غالبية المسلمين ولدىٰ أي واحد له دراية بالإسلام: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وأبو هريرة، وبلال، وجابر بن عبد الله الأنصاري وهلم جراً. بينما ضمّن أولئك الذين كتبوا تلك القوائم بعض أبرز صحابة النبي، فإنهم أوردوا كذلك أسماء بعض الصحابة المغمورين جداً والذين لا تعرفهم الجماهير المسلمة بل إنهم مجهولون حتىٰ عند علماء الإسلام. حتىٰ بعض العلماء في حاجة إلىٰ البحث عن أسمائهم في الكتب الخاصة بـ'علم الرجال' أو في أعمال عن تاريخ الإسلام والسيرة. بعبارة أخرىٰ، ليس هٰذا نوع من المعلومات المتوافرة بسهولة لدىٰ أي كان. إضافة إلىٰ ذلك، شارك عدد هام من هٰؤلاء الشهود في الهجرة الأولىٰ إلىٰ مملكة أكسوم، بما في ذلك أبو حذيفة بن عتبة، وسهلة بنت سهيل بن عمر، وعمير بن ربيعة، وعثمان بن مظعون، والزبير بن العوام، وسهيل بن البيضاء، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، ومصعب بن العمير، (ابن إسحاق ١٤٦-١٥٠). وقد تشير أسماء بن زبير، وابن جبير، وعبد العظيم إلىٰ النضر بن الحارث بن خلادة، والذي كان معروفاً باسم أبي عزيز بن عمير، وهو أحد صحابة النَّبيّ القدامىٰ من الأنصار.

وقد يكون الشخص المدعو ابن أبيَّه أو ابن أميَّة صحابياً قديماً وأنصارياً آخر:

أمية بن خلف. وقد يكون أيضـاً هو عمرو بن أمية ابن الحارث أو أبو عبيدة بن الجراح، وكلاهما التحق بالهجرة الأولىٰ. لكن الأول توفي في الحبشة. وقد يكون حتىٰ عمرو بن أمية الدمري، الذي أرسله النَّبيّ إلىٰ النجاشي للمطالبة بعودة أولئك الذين كانوا قد هاجروا. ولا يمكن إبعاد أمية بنت خلف بن أسعد، زوجة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية. لكن الأغرب في ذلك كله هو لقب عبد العظيم: النجاشي، أي من الحبشة. هل يمكن أن يكون هٰذا أحد الحبشيين الذين اعتنقوا الإسلام والتحقوا باللاجئين من الهجرة الأولىٰ إثر عودتهم من المدينة؟ هل يمكن أن يكون هو أريحا بن النجاشي الذي أُرسل إلىٰ النَّبيّ ﷺ؟ إن وجود أصحاب الرسول القدامىٰ والمغمورين في إرتباط مع المهاجرين الأوائل والأنصار الذين استضافوهم عندما عادوا إلىٰ المدينة يشير إلىٰ أن العهود تمت كتابتها في تاريخ مبكر. ويشير وجودُ صحابة لاحقين وأكثر بروزاً إلىٰ تأريخ كتابة لاحق. إن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها التوفيق [بين المسائل المتضاربة] في هٰذا الشأن هي اعتبار أن تلك المعاهدات كان يعاد إصدارها بانتظام وأن شهوداً جدداً كانوا يُضافون إلىٰ القدامىٰ. كان الصحابة المضافة أسماؤهم يقومون بمجرد المصادقة علىٰ العهود.

إذا كان بإمكان قائمة الشهود في عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء أن تحصل علىٰ تقدير مقبول بعد خضوعها لتدقيق علماء الحديث المسلمين، فإن القوائم الموجودة في العهود الأخرىٰ قد تقود إلىٰ رفع عدة أعلام حمراء إذا ما تم فحصها بشكل مستقل. لكن، عندما يُنظر إليها بمنظور المقارنة، فإن إمكانيات أخرىٰ تطرح نفسها ويبدو أن العهود تصحح نفسها. من الواضح أن النساخ كانوا يتعاملون مع خط رديء جداً، قد يكون في بعض الحالات هو الخط الكوفي. علىٰ سبيل المثال، إذا أدرج أحد اسم أبي حنيفة في القائمة، وهٰذا شيء غير ممكن، وكتب آخرون أبا حذيفة، وهو شيء ممكن، فإن الصيغة الصحيحة تلغي نظيرتها المغلوطة. يمكننا أيضـاً أن نطبق القاعدة العامة التي تقول "في حالة الشك، تخَلّ عن الأمر كله." مثلاً عندما يكون لدينا حديثان في نفس الدرجة من الصحة لكنهما يتعارضان، حيث يقول أحدهما إن شيئـاً ما 'حلال' ويقول الآخر إنه 'حرام'، فإن الذي يقر بالجواز يتغلب

علىٰ الذي يقر بالمنع او التحريم. في بعض الأحيان، تتم رواية حديث متطابق تلفظ به النَّبيّ ﷺ عبر قنوات مختلفة، بعضها جدير بالثقة والبعض الآخر غير موثوق، فإذا كان أحد الشهود غير جدير بالثقة أو كان غائباً في ذلك الوقت فذلك لا يعني ببساطة بأن الحديث غير صحيح إذا ما تم تأكيده من قبل شهود ذوي ثقة سمعوه شخصياً. لو طبقنا مبدأ الإجماع، وقمنا بحذف الشهود الذين اختلف النساخ بشأنهم، واعتمدنا حصرياً علىٰ الشهود الذين اتفقوا حولهم، فإننا سنحصل آنذاك علىٰ عهود ذات مرجعيات جيدة بشكل معقول. لو افترضنا أن العهود كانت تُجدد بانتظام، فبإمكاننا آنذاك تقسيم الشهود إلىٰ فئة سابقة وأخرىٰ لاحقة. يمكن أن يكون الشهود الأوائل قد صادقوا علىٰ عهود الحماية الأصلية، أما اللاحقون فيكونون قد وقّعوا علىٰ نسخ لاحقة منها فقط.

إن دراسة ’عهود النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم‘ لا تزال في بدايتها. إن الاقتراحات المقدَّمة هنا بخصوص قوائم شهودها هي اقتراحات افتراضية، وليست قطعية. وبالمزيد من البحث والدراسة، يمكن لهذه القوائم أن تساعد علىٰ إثبات العهود. بإمكانها أيضاً أن تُستعمل، كما فعل آخرون بالفعل، كذريعة لرفض العهود ككل. لكن، بما أن قائمة الشهود الواردة في ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء‘ لم تكن، كما قيل، موجودة في النسخة الأصلية، فإن نفس الشيء قد يكون صحيحاً بالنسبة للعهود الأخرىٰ. وفي الوقت الذي تحظىٰ فيه سلسلات الشهود هذه ببعض الفائدة العلمية، فلا ينبغي أن تصرف انتباهنا عن مضمون العهود، الذي يبقىٰ هو أهم اعتبار بالمقارنة. سواء بوجود سلسلات شهود بدائية أو بدونه، يجب أن يُحكم علىٰ العهود علىٰ أساس مضمونها في المقام الأول.

إن قبول العهود من قبل العلماء المسلمين الأوائل، وتوافقها مع أحكام ’الشريعة‘، وكذلك الحجج المقدمة في هٰذا الكتاب للتدليل بأنها ليست مجرد تلفيقات مسيحية–حيث إن المسيحيين هم المرشحون الوحيدون الذين يُحتمل أن يلعبوا هٰذا الدور- يجب أن تكون في حد ذاتها دليلاً كافياً علىٰ شرعيتها. وإذا كان من شأن إدراج بعض الشهودأن يلقي بظلال من الشك علىٰ العهود فيبدو أن السجل التاريخي، الذي فحصناه بإسهاب، يدعم بشكل كامل فكرة قِدم وصحة تلك العهود.

إن القرآن نفسه تم نقله بدون إسناد. كما أن هناك العديد من كتب الأحاديث النبوية تم توارثها وهي خالية من قوائم الرواة وقد قُبلت ولم يُطعن في صحتها.

إن غياب 'أسانيد' شاملة لا يعتبر دليلاً علىٰ التزوير، بل علىٰ العكس من ذلك، إنه دليل علىٰ القِدم. يقول ابن سيرين بخصوص العقود الأولىٰ لما بعد وفاة النَّبيّ ﷺ: "إنهم لم يكونوا يسألون عن 'الإسناد'، لكن عندما بدأت الحرب الأهلية–'الفتنة'– قالوا "سمّوا لنا رجالكم" (أورده الأعظمي ٣٣). حسب الأعظمي، لم يتطور علم 'الإسناد' بشكل شامل إلا في أواخر القرن الأول من التقويم الهجري (٣٣). ومع ذلك، هناك العديد من معايير منهج الحديث يمكن تطبيقها علىٰ العهود بأثر رجعي. بما أن العهود لا تذكر إلا جيلاً واحداً من الشهود (علىٰ عكس ستة إلىٰ إثني عشر من الرواة الموجودين في 'الأسانيد'، فإنها غير متواترة (منقولة بالجملة) بالتسلسل. إنها مع ذلك متواترة بالألفاظ ومتواترة وفق المعنىٰ، خلافاً للأغلبية الساحقة من الأحاديث، الموجودة كآحاد، أي أن روايتها تمت من خلال شاهد واحد، فإن العهود تعتبر 'مشهورة'، أو معروفة جداً؛ و'مرفوعة'، أي منسوبة إلىٰ النَّبيّ ﷺ؛ و'مسندة'، (أي غير موقوفة)، و'متصلة'، (أي غير منقطعة).

علاوة علىٰ مسالة الأسانيد، يقوم علماء الحديث أيضاً بتقييم الأحاديث علىٰ أساس مضمونها. وقد لخص ابن القيم القواعد العامة التي يتم بمقتضاها رفض الأحاديث؛ وهكذا، فالأحاديث النبوية التي تحتوي علىٰ أي من العناصر التالية تعتبر مرفوضة:

–إذا احتوىٰ الحديث علىٰ قول مبالِغ فيه لا يمكن أن يكون النَّبيّ ﷺ قد تلفظ به...
–ترفضه التجربة.
– يستند علىٰ نوع سخيف من الإسناد.
–يتعارض مع حديث معروف جداً.
–ينسب قولاً إلىٰ النَّبيّ يُفترض أنه قيل في حضور ألف صحابي لكن يعتقد أنهم اتفقوا كلهم علىٰ إخفائه.

-ليس للقول أي مثيل ضمن الأقوال الأخرىٰ للنبي ﷺ.
-يبدو الحديث وكأنه قول للمُتَصَوّفة أو لممتهني التطبيب.
-يتناقض مع المعاني الواضحة والجليّة للقرآن.
-غير ملائم في أسلوبه (الأعظمي ٧٢).

إن عهود النَّبيّ ﷺ لا تحتوي علىٰ أي شيء ذي طبيعة متطرفة. إن المنطق لا يتناقض معها، ولا تحتوي علىٰ إحالات سخيفة؛ أوتتعارض مع أي حديث مشهور. علىٰ العكس من ذلك، مضمون العهود يؤكده القرآن والسنة، وممارسة خلفاء النَّبيّ وتابعيه الورعين. لقد تمت الشهادة (والمصادقة) علىٰ العهود من قبل عدد كبير من الصحابة. كما قام بنقلها عدد كبير أيضاً من الرواة، وهٰذا ما يفسر وجود أجزاء منها في مختلف الأعمال التاريخية. إن مضمون العهود يتسق تماماً مع كل من القرآن والسنة. وبالفعل، فهي تستشهد حرفياً بالقرآن، الىٰ جانب الأحاديث النبوية الصحيحة. إن العهود لا تحتوي علىٰ أي خصائص صوفية مشبوهة قد توحي بأنها زورت من قبل بعض المتصوفين الضالين. علىٰ العكس من ذلك، يدحض تركيزها الاجتماعي-السياسي والاقتصادي كل مثل هذه المزاعم. إن عهود النَّبيّ تؤكد مضمون القرآن؛ وإن زعَمَ البعض بأن أسلوب بعض العهود ناقص، فقد بينت هذه الدراسة بأن السبب في تلك العيوب راجع إلىٰ مشكلات النسخ وأخطاء الطباعة. كل الدلائل تشير الىٰ أن النسخ الأصلية للعهود كانت بلغة عربية فصحىٰ صحيحة. لقد استُعملت طريقة تقييم محتوىٰ الحديث هذه من قبل بعض العلماء إلىٰ جانب نقد 'الإسناد' ومن قبل آخرين في مكان نقد 'الإسناد'. وبالتالي فمن الجائز تقييم صحة النَّصّ دون اعتبار سلسلة الرواة. فضلاً عن ذلك، وكما وضح الأعظمي، فقد قام النَّبيّ ﷺ بنشر تعاليمه من خلال وسائل مختلفة: التعليم، والتعلم، والنشر والترويج. وقد تضمنت الطرق المستعملة في التعليم:١) التدريس الشفوي؛ ٢) الأداة المكتوبة (الإملاء للنساخ)، و٣) العرض العملي (الأعظمي ٩). ومن نافلة القول إن تعليم السنة من قبل النَّبيّ ﷺ عن طريق الأسلوب الكتابي، أي في رسائله للملوك، والحكام، وشيوخ القبائل، والولاة المسلمين، غير خاضع لقواعد 'الإسناد'. في الحقيقة، بما أن العهود قد أوحي

بها إلىٰ مُحَمَّد ﷺ مباشرة من الله أو عبر وسطاء ملائكيين، فإنه يمكن اعتبارها ضمن صنف فريد من نوعه، شبيه إلىٰ حد ما بالأحاديث القدسية، لكنها تتناول قضايا أرضية وسياسية بدل المسائل السماوية والأخلاقية.

أما بالنسبة للاختلافات الدقيقة والمتغيرات المتنوعة، فإنه يمكن تفسيرها بسهولة عندما يفهم المرء منهجية الاقتباس المستعملة في علم الحديث، والمتمثلة في: ١)الاقتباس الحرفي (كلمة بكلمة)؛ ٢)الاقتباس الحرفي مع إضافة مواد خارجية؛ ٣)الاقتباس الحرفي مع حذف المواد غير وثيقة الصلة بالموضوع؛ وأخيراً ٤)إعادة صياغة التعبير (paraphrasing) (الأعظمي ٧٥–٧٨). كل هذه الأصناف من الاقتباس تنطبق علىٰ العهود. يمكن أن يكون بعض النساخ قد حاولوا اقتباس العهود بشكل تام لكنهم ارتكبوا أخطاء بسبب صعوبة الخط العربي القديم. يمكن أن يكون بعضهم قد توسع في إبراز المعنىٰ من أجل الوضوح؛ مثلاً، من خلال إضافة مرادفات أكثر لتوضيح المعنىٰ. لكن يمكن أن يكون آخرون قد قاموا بحذف المواد التي اعتبروها تافهة، أو مطنبة، أو غير ذات صلة بالموضوع، أو غامضة، أو غير مفهومة. أخيراً، يمكن أن يكون البعض قد حاول نقل المعنىٰ من خلال التصرف الحرِّ فيه، بدل مجرد نسخه.

الفَصْل ٩

تَعَقُّب الرِّوَايَات

تَعَـقُّب الرِّوَايَات

من وجهة نظر علم الحديث، تعتبر هـذه الـدراسـة مجرد إثـارة سطحية للموضوع. ومع ذلك، فإنها تقدم إضاءات أو مفاتيح هامة للباحثين اللاحقين. وبما أننا لـم نقـم بدراسة مفصلة لكل الشهود المرتبطين بمختلف العهود نظراً لإكراهات الزمان والمكان، فإن بعض المعلومات المتعلقة بالطرق التي يحتمل أنها استُعملت في تناقل العهود جديرة بالذكر فـي هٰذا المقام. ويبدو أن هذه الاحتمالات، إلىٰ حد الآن، أربعة: ١) إصدار نبوي فريد متعدد؛ ٢) نقل من مصدر واحد مع تفريعات لاحقة؛ ٣) نقل من مصدر واحد مع التشعب؛ ٤) نقل من مصدر واحد انطلاقـاً من عهد ذي مصدر مفترض (Q source) .

الطريقة الأولىٰ لتناقل العهود، وهي الأكثر احتمالاً، تتمثل فـي منح النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ عهود الحماية لكل الطوائف المسيحية الأساسية فـي الشرق الأوسط. من الممكن أن تكون كل العهود الستة التي قمت بدراستها فريدة؛ قد تكون كلها من إملاء النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وهي موجهة إلىٰ جماعات معينة. قد يكون التشابه بين هذه العهود هو نتيجة لمصدرها أو أصلها المشترك: رسول الله ﷺ. وتتـفق الروايات الإسلامية القديمة بالإجماع علىٰ أن النَّبيّ ﷺ كان يستقبل ويرسل مبعوثين من وإلىٰ أنحاء عديدة من العالم القديم.

الطريقة الثانية المحتملة لتناقل العهود تتمثل فـي إمكانية وجود عهد نبوي واحد استولت عليه جماعات مسيحية أخرىٰ ادعت أنه ملك خاص بها. بما أن أقدم مواثيق الحماية هذه هو 'عهد نجران'، الذي يعود تاريخه إلىٰ القرن التاسع الميلادي، فإنه قد يكون فعلاً هو العهد المصدر الذي تم نسخه أو تعديله من قبل مسيحيي مصر، وسيناء، وبلاد الشام، والفرس، وآشور. إذا كان العهد الأصلي صحيحـاً فعلاً، فإن مجرد الاستيلاء عليه من قبل طوائف أخرىٰ، نظراً لتوجيهاته الكونية، لا يقلل من

القيمة الجوهرية لهذه العهود المختلفة.

الطريقة الثالثة المحتملة لعملية انتقال العهود تتمثل في وجود مصدر واحد تفرعت عنه تشعبات لاحقة. في هٰذا السيناريو، يمثل 'عهد نجران' العهد المصدر الذي قد يكون تم نسخه من قبل مسيحيي مصر وبلاد الشام. بالإمكان أن يكون 'العهد المصري'، الذي يرجع مصدره إلىٰ القاهرة، قد نُسخ من قبل رهبان جبل سيناء؛ ويمكن أن يكون المسيحيون الأرمن ببلاد فارس قد نقلوا هٰذا 'العهد' (achtiname) ونُقل هٰذا بدوره من قبل المسيحيين الآشوريين. بما أن تاريخهما يرجع تقريباً إلىٰ نفس الفترة، فيبقىٰ من غير الواضح ما إذا كان عهد سيناء هو السابق عن العهد المصري أم العكس. هذه المقاربة التي تقيم تسلسلاً زمنياً يرتكز علىٰ تواريخ النسخ الباقية علىٰ قيد الحياة، مليئة بالعيوب. إن مجرد رجوع تاريخ عهد نجران إلىٰ القرن التاسع الميلادي وتاريخ عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم الىٰ سنة ١٦٣٠م، لا يعني بالضرورة أن الأول هو أقدم من الثاني. فقد توجد نسخ سابقة، أو من الممكن أن تكون قد وجدت بدون انقطاع، ربما رجوعاً إلىٰ حدود القرن السابع الميلادي.

المصدر الأخير لانتقال العهود، وهو متأثر بالدراسات التوراتية، يطرح إمكانية وجود عهد ذي مصدر مفترض. بما أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران متقَن جداً من حيث المضمون والشكل، فمن غير العادي أن يُنبت عهداً بدائياً، تقريباً في شكل رؤوس أقلام، مثل عهد سيناء. إن عهد نجران ينتصب من تلقاء نفسه كميثاق حماية تم تلقيه مباشرة من عند النَّبيّ ﷺ. إن عهود مصر، وبلاد الشام، وسيناء، وبلاد فارس، وآشور، كلها متشابهة جداً في الأسلوب والمحتوىٰ إلىٰ درجة يمكن اعتبارها معها تنويعات من عهد ذي مصدر مفترض واحد صار مفقوداً.

بناء علىٰ الدلائل المتوافّرة، لا يسعني إلا أن أساند الفرضية الأولىٰ، والمتمثلة في القول إن معظم العهود فريدة وليست فروعاً لميثاق واحد. إذا ما تم تحقيق اكتشافات جديدة، فسوف أكون علىٰ استعداد لتغيير فرضية العمل هذه. لكن في الوقت الحاضر، فإن الرأي القائل إن معظم العهود قد أصدرها النَّبيّ ﷺ لصالح طوائف وجماعات مسيحية مختلفة هو الذي يتناسب أكثر مع السجل التاريخي. أما

بالنسبة للعلاقة بين عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم لسنتي ١٥٣٨ و١٦٣٠م، فإن المسألة لا تزال في حاجة إلىٰ الحسم في شأنها. من الممكن أن يكون عهد ١٦٣٠، والذي يفترض أنه عثر عليه بجبل الكرمل، قد تم منحه لمسيحيي بلاد الشام بينما قد يكون عهد ١٥٣٨ موجهـاً لمسيحيي مصر. إن من شأن اكتشاف نسخ جديدة من عهود النَّبيّ ﷺ أن يسلط مزيداً من الأضواء علىٰ الموضوع.

الفَصل ١٠

العُهود في سِيَاقِها

العُهود في سِياقِها

"الإسلام دين عنيف،" "لا وجود لشيء اسمه الإسلام المعتدل،" "الإسلام التقليدي هو الإسلام الراديكالي"، "الإسلام نذير خطر داهم،" "لا يمكن أن يكون المسلمون الملتزمون مواطنين أوفياء،" "المساجد هي أحصنة طروادة،" "كان محمد إرهابياً،" "الإسلام والديمقراطية شيئان متناقضان"، "الإسلام يقمع المرأة"، "المسلمون همج". هٰذا هو نوع الافتراءات والإهانات التي يتعرض لها باستمرار المسلمون الذين يحترمون القانون، ويحبون أسرهم، ويعملون بجد، ويخشون الله. لو تم قلب هذه الدعاية للقول إن "اليهودية ديانة عنيفة،" "ليس هناك شيء اسمه اليهودية المعتدلة،" "اليهودية التقليدية صهيونية راديكالية،" "اليهودية نذير خطر"، "لا يمكن أن يكون اليهود الملتزمون مواطنين أوفياء،" "المعابد اليهودية هي أحصنة طروادة،" "كان موسىٰ إرهابياً،" "اليهودية والديمقراطية شيئان متناقضان،" و"اليهود همج،" فإن العالم الغربي بأكمله سوف يستشيط غضباً. وهٰذا دليل محزن بأن الغربيين يشعرون بحرية مطلقة في وصف "المسلمين بالهمج" في حين أنهم لا يتحملون أن يقول أحد إن "السود همج." إن التوراة والقرآن علىٰ السواء يشجبان أولئك الذين يضايقون، ويشتمون، ويحتقرون، ويفترون علىٰ الآخرين. وبالتالي، فعندما يقضي أولئك الذين نصبوا أنفسهم أوصياء علىٰ "الحرية" وقتهم في التشهير بما هو مقدس عند المسلمين – وغالباً عند المسيحيين كذلك – فإن مؤمني العالم يشيحون بوجوههم بامتعاض مقرف.

بالنسبة للمسلمين، تعتبر فكرة أن محمداً رسول الله تجسيد فعلي للخير مسألة بديهية؛ أما الأفعال الشريرة التي يقترفها أولئك الذين يدّعون أنهم يهتدون به فلا يمكن أن تُحسب عليه، بل هي وزر علىٰ من عصوا تعاليمه. وقد وردت في 'صحيح البخاري' قولة للنبي ﷺ يؤكد فيها أن "من ظلم معاهَداً (يهودياً أو نصرانياً)... فأنا حجيجه يوم القيامة".

كل من يؤمن بالفكرة المبدئية التي ترىٰ بأن الإله أرسل قوانين مقدسة وأقام علىٰ أساسها أنظمة اجتماعية، فإن الرسول مُحَمَّد ﷺ يجب أن يكون بمثابة رحمة للبشرية. خلافـًا للمسيحية، ورغم التشابه فـي بعض الأوجه مع اليهودية النبوية الأصلية، فإن الإسـلام نظام رباني موحَّد يشمل الأنساق الاجتماعية، والسياسية، والدينية والاقتصادية. ولكن ليس هناك أدنىٰ شك فـي أن العديد من المسلمين الضالين قد انحرفوا عن الطريق المستقيم. إنها لحقيقة مؤسفة أن هٰؤلاء قد أهانوا الإسلام وألحقوا العار بالنَّبيّ ﷺ. ورغم كل عيوبهم ونقائصهم البشرية، فإن المسلمين فعلوا من الخير أكثر بكثير مما فعلوه من الشرـ وكما يعترف خوان فـيرنيت (ولد ١٩٢٣م) دون تردد، فإن "تسامح المسلمين ساهم دون شك فـي استلهام الثقافة العربية، إن لم يكن دينها، من قبل المسيحي المؤمن" (١٧٦:١٩٩٢). لقد حاول الإسلام، كلما أمكن ذلك، أن يحل المشكلات بشكل سلمي، عن طريق المناقشة والحوار، وليس عن طريق الفرض القسري 'للحلول'، رغم أنه كان من الضروري بشكل واضح إقامة أشكال الحكم المطلوبة لإدارة الأراضي المكتسبة حديثـًا. إن الإسلام هو الصراط المستقيم. فهو ليس بحركة مسالمة، غير عنيفة [بالمطلق]، ولا هو بحركة محاربة مدمنة علىٰ العنف. إن المنهج الإسلامي يتمثل فـي فعل أقصىٰ ما يمكن من الخير وتجنب أقصىٰ ما يمكن من الأذىٰ. السلام هو الحل أحيانـًا، لكن فـي حالات معينة، قد تكون الحرب هي الخيار الوحيد المتاح. ومع ذلك، فكل خيار عسكري يجب أن يتقيد بالمبدأ الإسلامي 'للحرب العادلة'. خلال الأيام الأولىٰ للإسلام، شن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ثمانـًا وستين حملة عسكرية، وقد قدر عدد ضحاياها كلها بما لا يزيد عن ألف ضحية فقط.

بينما هو صحيح أن الخط الفاصل بين حرب عادلة وأخرىٰ غير عادلة رقيق جداً، فإن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لم يخطئ أبداً فـي هٰذا الأمر، وكل معاركه كانت عادلة. لقد كان يحارب فقط للدفاع عن الحق، وليس أبداً لغزو الأمم الأخرىٰ. كان دافعه الوحيد هو تأمين وتقوية الدولة الإسلامية. ونتيجة لذلك، انتشر الإسلام عن طريق الكلمة والسيف معـًا. لقد انتشر بالقدوة والفعل، وباستثناء حالة أولئك الذين انتهكوا

تعليمات النَّبيّ ﷺ، فإن السيف لم يُستعمل إلا للإطاحة بالطغاة وتوفيرظروف لكل المؤمنين - يهود، ونصارىٰ، ومسلمين - تمكنهم من الرقي جسدياً واجتماعياً، وروحياً. وقد رُوي أن النَّبيّ ﷺ قال: "أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة" (ابن تيمية؛ الذهبي؛ الطبري؛ الماوردي.أورده حميد الله، في كتابه ' سلوك المسلم' ١٥٧). إن الحقائق تبقىٰ حقائق، وليس هناك عيب أو تناقض في استعمال كل من الدبلوماسية والعمل العسكري لدعم وتحقيق غاية عادلة (صديقي ٢٥). وكما يعترف نافريغر (ولد ١٩٤٩م) ووالتون، فقد "أثبت محمد بأنه قائد، ومخطط حربي، واستراتيجي ذو كفاءة عالية" (١٤). وكما بيّن جون إيريك أداير (ولد ١٩٣٤م) في كتابه 'قيادة محمد'، فقد كان النَّبيّ ﷺ تجسيداً حياً للزعيم المثالي. وقد استُعمِل هٰذا النهج الدبلوماسي والحركي أيضاً من قبل الخلفاء الأربعة الأوائل، الذين خاضوا حروباً عند الضرورة لكنهم فضلوا السلام دوماً عند الإمكان. فعلىٰ سبيل المثال، منع الخليفة عمر (٥٧٩-٦٤٤م) جنوده من النهب: "لا يجب تقسيم الأراضي التي يتم غزوها بين قواد الجيش، بل تترك للمزارعين الفعليين، الذين يدفعون ضريبة الخراج للدولة الإسلامية" (أرمسترونغ، ٢٠٠٠:٣١). بل ومنع هٰذا الخليفة الثاني المسلمين من الإقامة في المدن:"بدل ذلك، بنيت لهم 'مدن قلاع' ('أنصار') في مواقع استراتيجية: كالكوفة والبصرة في العراق، وقم في إيران، والفسطاط في رأس النيل" (٣١). وقد تم أيضاً بناء المساجد في كل من هذه الجيوب العربية (٣١). وكانت الرسالة القرآنية واضحة: "لكم دينكم ولي دين" (٦:١٠٩). وبينما كان المسلمون علىٰ وشك أن يحكموا إمبراطورية شاسعة تمتد من أوربا الغربية إلىٰ جنوب شرق آسيا، فقد كانوا مجرد أقلية لعدة قرون قبل ذلك. وكما يوضح ريتشارد فليتشر:

فقد كان هناك سبب عملي أسمىٰ بالنسبة للقيادة الإسلامية للبقاء علىٰ علاقة ودية مع الشعوب المسيحية للأراضي التي غزاها المسلمون. فلم يكن عدد الشعوب المغزوة يفوق بكثير عدد الفاتحين فحسب، بل إضافة إلىٰ ذلك، كان المسيحيون هم وحدهم من يملك الخبرة الإدارية اللازمة لجعل العمل الحكومي ممكناً (٢١).

وبينما كتب الباحثون عن الغزوات "العربية " لعدة قرون، فقد كانت الحقيقة

الديمغرافية علىٰ الأرض مختلفة كثيراً. يقر السير جون باغوت غلوب (١٨٩٧-١٩٨٦م)، المعروف بـ'غلوب باشا'، قائلاً بنزاهة:

"بدءاً من [سنة] ٧٠٠م فصاعداً في سوريا، وبعد ذلك في عهد العباسيين ببغداد، كانت الجيوش العربية تتمثل في قوات نظامية، منظمة ومدربة علىٰ غرار القوات العسكرية البيزنطية المحترفة. ولم يكن أفراد هذه الجيوش ينحدرون من الغزاة العرب الأصليين، بل من الشعوب الأصلية لتلك البلدان" (٣٧٦).

وقد يقول البعض إن هٰؤلاء المسلمين كانوا بمثابة أولئك الأذناب الهنود، الذين لولاهم لما تمكن الإنجليز من البقاء حكاماً في الهند طوال تلك الفترة الطويلة. لكن، لم يكن هٰذا هو واقع الأمر، إذ كانت هذه الجيوش تتألف من مسلمين مخلصين دافعوا عن بلدانهم لأن النَّبيّ ﷺ، كما يُروىٰ، كان يقول إن الدفاع عن الوطن جزء من الدين.

رغم شعبية الأسطورة التي تتحدث عن عنف الغزو الإسلامي، فإن الدليل الأركيولوجي يشير إلىٰ غياب التخريب (دونر ٢٤٨). وكما يوضح دونر (ولد ١٩٤٥)، فإن:

> "الدليل علىٰ التدمير الواسع للمدن والكنائس وغيرها، مفقود إلىٰ حد كبير في الأدلة الأركيولوجية للمناطق التي تم استكشافها بشكل جيد نسبياً مثل سوريا-فلسطين. ذلك لأن معظم الطوائف، التي كانت تتألف من موحدين، لم تُدمَّر أو يلحقها اختلال كبير، بل خضعت فقط لتغيير حكامها (وجباة الضرائب). وكما رأينا فقد تم - وكان لا يزال بالإمكان - بناء الكنائس بعد 'الغزو'، كما تبين الوثائق الأركيولوجية. (١١٥)

وكما عبر عن ذلك جوناثان إ. بروكوب، فإن الغزوات الإسلامية الأولىٰ لم تكن بعثات من أجل التدمير الوحشي: "فقد تم الحفاظ علىٰ الهياكل الضريبية والبيروقراطية وحقوق الملكية، كما كان عليه الحال في السابق ولم يُجبر السكان علىٰ تغيير دينهم" (١٠). "ويشهد علىٰ ذلك وجود الملايين من الأقباط المسيحيين

في مصر، " يقول مستطرداً، "كما أن لبنان لا تزال نصف مسيحية تقريبا" (١٠).

في العراق، حتىٰ بعد الغزو العربي، "استمرت الطوائف المسيحية في مسارات نموها" (بيركي ٩٧).ويوضح بيركي قائلا،"لقد أثبتت الكنيسة النسطورية علىٰ الخصوص حيويتها: لقد تم بناء أديرة جديدة في أعقاب الغزوات" (٩٧). ولذلك "فليس مما يدعو إلىٰ العجب" إذن "أن تجد عدداً من المصادر النسطورية من الحقبة التي أعقبت الغزو العربي تتحدث بشكل ايجابي عن الحكام الجدد، معترفين بهم كعبدة للإله الواحد الحقيقي، واصفين إياهم بالمحترمين للكنائس، والأديرة، ورجال الدين ولامتيازاتهم داخل المجتمع المسيحي" (٩٧). في تعليقه علىٰ غزو بلاد فارس، أخبر البطريرك النسطوري يوشوياب III زميلاً له من رجال الدين قائلا:"إنهم لم يهاجموا الدين المسيحي، بل إنهم أشادوا بعقيدتنا، وكرموا رجال ديننا... وأغدقوا بالعطاء للكنائس والأديرة" (مقتطف أرمور ٢٨-٢٩). كما علق أسقف أديبين [حدياب]، وهو يكتب بُعيد الغزو الإسلامي (٦٥٠-٦٦٠م)، قائلاً إن الحكام الجدد لم يكونوا بالسوء الذي كان متوقعاً، إذ كانوا يحترمون رجال الدين المسيحيين، ويحمون الكنائس المسيحية، ولم يكونوا بعيدين هم أنفسهم عن المسيحية (فورتسكيو ٩٢).

لقد كانت القرون الأولىٰ من الحكم الإسلامي، -كما يقول براندي راتليف- حقباً من النمو والتقدم النشيطين بالنسبة للمجتمع المسيحي ('الطوائف المسيحية...' ٣٤). وقد ذهب جون بار بينكاي (ق ٧)، وهو راهب من بلاد الرافدين، إلىٰ حد القول بأنه "لم يكن هناك أي تمييز بين الوثني والمسيحي" ولا بين "المؤمن واليهودي" (مقتطف هويلاند ٢٠٠٠: ٢٩٣). كان سلوك المسلمين خلال هٰذا العهد من التوسع يختلف جذرياً عن سلوك المسيحيين خلال الحروب الصليبية. إذا كان هدف الغزوات الإسلامية هو التحرير، والضرائب، والدعوة إلىٰ الإسلام، فإن "غرض الحروب الصليبية لم يكن تغيير المسلمين لدينهم بل إبادتهم" (ممداني ٢٥). وقد كانت لدىٰ المسلمين، طبعاً، "نظرة أكثر دقة ورحابة تجاه الآخر: إذ أن القرآن بشكل خاص يحثهم علىٰ احترام اليهود والنصارىٰ باعتبارهم قوماً أصحاب رسالات

سماوية صالحة، رغم ما لحقها من النقص والتحريف" (أوشيا ١٥).

بوصفهم دبلوماسيين بارعين، فقد بذل الصحابة كل الجهود للإبقاء علىٰ العهود التي عقدها النَّبيّ ﷺ وساروا علىٰ نهجه في إبرام عهود جديدة. فعلىٰ سبيل المثال، قام أبو بكر (٥٧٣-٦٣٤م)، وهو أول الخلفاء، بتجديد عهد النَّبيّ لمسيحيي نجران بالعبارات التالية الموجودة في 'كتاب الخراج' لأبي يوسف (توفي ٧٩٨م):

"بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا كتاب من عبد الله، أَبِي بَكْر، خليفة محمد، نبيا لله ورسوله. إنه يؤكد حقوقكم، باعتباركم جيرانًا محميين، في أنفسكم، وأراضيكم، وطوائفكم، وأموالكم، وخدمكم، وموظفيكم، حاضرين وغائبين، وأساقفتكم، ورهبانكم. وكل ما تملكونه، كثيرًا كان أم قليلاً، فإنكم لن تُحرموا منه، ولكم حق التصرف كاملاً فيه" (مقتطف دانيوس).

عندما استسلم سكان القدس لقوات عمر بن الخطاب (٥٧٩ - ٦٤٤م)، أصدر هٰذا الخليفة المرسوم التالي:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم،

هٰذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (أي القدس) من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها. لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم".

وبعدما قام البطريرك صولونيو بعرض الأماكن المقدسة المختلفة بالمدينة علىٰ أنظار عمر سنة ٦٥٩م، دعاه إلىٰ الصلاة في كنيسة القيامة. لكن الخليفة اعتذر

عن ذلك قائلاً إنه يفضل أن يصلي خارجها، بما أنه لا يريد أن يسجل سابقة قد يتبعها المسلمون. باختصار، كان يريد أن يضمن الحماية لموقع مسيحي مقدس. ولكي يفعل ذلك، عهد عمر حماية الموقع لعبادة بن الصامت، أحد صحابة رسول الله ﷺ. وقد واصل المنحدرون من سلالته، المعروفون باسمهم العائلي 'نسيبة'، إدارة الموقع المقدس إلىٰ يومنا هٰذا. وقد كان عثمان أيضًا طيبًا في معاملته لأهل الكتاب. بل إنه كان متزوجًا بمسيحية يعقوبية (بيتس ٩). حتىٰ معاوية (٦٠٢-٦٨٠م)، ورغم كونه شخصًا قليل التسامح تجاه العديد من المسلمين، صلىٰ في غلغوتا (الجلجلة ٥)، والجثمانية، وقبر مريم العذراء بعدما أصبح 'ملكًا' في القدس سنة ٦٥٩م (كرون وكوك ١١).

وكان الخليفة عبد العزيز بن مروان (توفي ٧٠٥م)، معروفًا أيضًا بحبه للمسيحيين (١١). وإذا بقي عمر بن الخطاب يصوَّر كشخص قليل الرحمة تجاه أهل الكتاب، فإن السبب في ذلك راجع جزئيًا 'للعهدة العمرية' ذات الطابع الجدالي، وهي سلسلة من القوانين التمييزية التي تُنسب للخليفة الثاني. وقد جاءت هذه الوثيقة، وهي في شكل رسالة مكتوبة من قبل الجماعة المسيحية إلىٰ الخليفة الثاني، وهي موجودة في كتاب 'سراج الملوك'، لمحمد بن الوليد الطرطوشي (١٠٥٩-١١٢٧م)، بالصيغة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا ودرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قليّة ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نجدد ما كان منها داخل أحياء المسلمين، ولا نمنع المسلمين من دخول كنائسنا في ليل ولا نهار، وأن نوسع الأبواب للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر

بنا من المسلمين ثلاثة ليال؛ نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين.

ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، من قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد بالسيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ونلزم زيّنا حيثما كنّا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا.

ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا خفيفًا، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضر المسلمين، ولا نخرج شعانينا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرف المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نطلع على منازلهم، ولا نضرب أحدًا من المسلمين.

شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق". (ذكره ماركوس ١٣-١٥).

رغم تأثيره وتطبيقه علىٰ أجزاء من العالم الإسلامي القرسطوي، فإن عهد أو ميثاق عمر المعروف بـ'العهدة العمرية' اعتُبر بأنه مجرد تزوير من قبل الباحثين السنيين والشيعة علىٰ حد سواء، مثل زياد شاكر (ولد ١٩٥٦م)، ويوسف القرضاوي (ولد

١٩٢٦م)، وماهر أبو منشار، وعبد العزيز سشدينا (دانيوس). كما شك في صحته علماء غربيون من أمثال الحاخام إبراهام ب. بلوتش وم.ج. دي كوجي (١٨٣٦-١٩٠٩م)، وليون كايطاني (١٨٦٩-١٩٣٥م)، وأ.س.تريتون (١٨٨١-١٩٧٣م) (دانيوس، المكتبة الافتراضية اليهودية). بالنسبة لهامفريز، لا يمكن تصور أن يكون "عهد عمر المزعوم" حقيقياً لأنه لم تتم كتابته في صيغته النهائية إلا حوالي سنة ١١٠٠ م" (٢٥٧). حتىٰ روبرت سبانسر (ولد ١٩٦٢م)، وهو من النشطاء المناهضين للإسلام، يقر بأنه ليس أصيلاً (دانيوس). ومع ذلك، فإنه لا يتردد في استغلال الوثيقة ليبرهن بها علىٰ تعصب المسلمين، وكما تشير 'المكتبة الافتراضية اليهودية' فإن صحة العهدة مشكوك فيها "لأن عمر كان معروفاً بموقفه المتسامح والودي تجاه الرعايا الموجودين تحت حمايته والذين كانوا خاضعين له. إن 'ميثاق عمر'، المعروف أيضاً باسم 'العهدة العمرية' مختلف تماماً وهو يبرز سياسات الخليفة الثاني في حقيقتها. وقد ورد هٰذا الميثاق الحقيقي، الموجود في كتاب 'التاريخ' للإمام الطبري (٨٣٨-٩٣٢م)، في القسم المخصص لتاريخ الأمم والملوك، بالشكل التالي:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،

هٰذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان (أي القدس). أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها.

أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص.

فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو (أيضـًا) آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هٰذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك

خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

وكتب وحضر سنة خمس عشرة للهجرة". (عن إسيروف)

رغم التنوير الفكري الذي ميز هٰذا المرسوم بالنسبة لذلك العصر، فإنه لم يسلم من انتقاد الباحثين. ورغم أنه قد يبدو قاسيـًا بالنسبة للعقلية الحديثة فإن آمي إسيروف (توفي ٢٠١١م)، يعتبر 'عهد عمر' الحقيقي "ليبراليـًا جداً"... "بالنظر إلىٰ مصير الشعوب المغزوّة عمومـًا في ذلك الوقت." "فعلىٰ الرغم من كل شيء،" "يؤكد هٰذا الكاتب اليهودي،" "كان المقصود هو حماية وطمأنة السكان المسيحيين بالقدس".

رغم نواقصه وعيوبه الكبيرة، خاصة ما يتعلق منها بخلافة النَّبيّ ﷺ، وتحديداً نكرانه لمطالب علي، فإن عمر (٥٧٩-٦٤٤م)، كان قد استلهم العديد من الخصال

الحميدة بفضل إرتباطه بالدين الإسلامي. فعلىٰ سبيل المثال، كانت إحدىٰ الإجراءات التي قام بها بعد غزو القدس تتمثل في إزالة الحظر المسيحي القاضي بمنع اليهود من دخول المدينة من أجل العبادة (أكبر ٧٧). لقد أعاد عمر اليهود بالفعل إلىٰ المدينة المقدسة وبالتالي، فإن هناك فرقـًا واضحـًا بين عمر التاريخي، الذي كان عطوفـًا تجاه رعاياه، وعمر صاحب 'العهدة العمرية'، التي تبدو بأنها تنتمي إلىٰ مرحلة لاحقة، أقل تسامحـًا، ربما هي مرحلة عمر بن عبد العزيز (حكم ٧١٧- ٧٢٠م)، والمعروف باسم عمر الثاني، والذي يُعتبر، حسب المصادر العربية، أول حاكم إسلامي يصدر قوانين تمييزية (المكتبة الافتراضية اليهودية). ولهٰذا فإن 'عهد عمر' قد لا يكون هو 'عهد عمر الأول' بل 'عهد عمر الثاني'. وربما تكون الوثيقة قد نُسبت إلىٰ عمر الأول لإعطائها مزيداً من السلطة والمصداقية.

علىٰ أية حال، فإن 'عهد عمر' الوارد في كتاب الطرطوشي (١٠٥٩-١١٢٧م) لا يتناقض بشكل صارخ فقط مع "ميثاق عمر" الوارد عند الطبري (٨٣٨-٩٢٣م)، بل هو أيضـًا النقيض المطلق للمعاهدة التي أبرمها عمر مع المسيحيين سنة ٦٣٨ م(١٥ هجرية). هذه المعاهدة الخاصة، التي ظهرت للعلن إثر نشر 'حوليات سيرت'، وهي عبارة عن تاريخ قديم جمعه المسيحيون النساطرة، تؤكد وتكرر العهود التي قطعها النَّبيّ ﷺ لمسيحيي نجران. وقد ورد كما يلي:

> "هـٰذا كتاب من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لأهل المدائن نهرس والجاثليق بها وقسا وستها وشمامستها جعله عهداً مرعيًا وسجلاً منشورًا وسنة ماضية فيهم وذمة محفوظة لهم . فمن عمل به كان بالإسلام متمسكًا ولما فيه أهلاً . ومن ضيّعه ونكث العهد الذي فيه وخالفه وتعدى ما أمر به كان لعهد الله ناكثًا وبذمته مستهينًا سلطانًا كان أو غيره من المؤمنين والمسلمين.
>
> أما بعد، فإني أعطيتكم عهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ورسله

وأصفيائه وأوليائه من المسلمين على أنفسكم وأموالكم وعيالاتكم وأرجلكم [وأراجلكم] وأماني من كل أذى. وألزمت نفسي أن أكون من ورائكم ذاباً عنكم كل عدو يريدني وإياكم بنفسي وأتباعي وأعواني والذابين عن بيضة الإسلام وأن أعزل عنكم كل أذى في المومنين إلى [كذا] يحمل أهل العهد من العارية فليس عليكم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك.

ولا يُغَيَّر لكم أسقف من أساقفتكم ولا رئيس من رؤسائكم ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ولا بيعة من بيعكم ولا يدخل شيء من بنائكم إلى بناء المساجد ولا منازل المسلمين. ولا يعرض لعابر سبيل منكم من أقطار الأرض. ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب. ولا يجبر أحد ممن كان على ذمة النصرانية على الإسلام كرهاً لما انزل إليه في كتابه إذ يقول لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي ولا تجادلوا إلا بالتي هي أحسن وتكف أيدي المكروه عنكم حيث كنتم. فمن خالف ذلك فقد نكث عهد الله وميثاقه وعهد محمد صلى الله عليه وخالف ذمة الله.

والعهد الذي استوجبوا به حقن الدّماء واستحقّوا أن يذبّ عنهم كل مكروه لأنهم نصحوا وأصلحوا ونصروا الإسلام. ولي شرط عليهم ألا يكون أحد منهم عينا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سر ولا علانية، ولا يأوى في منازلهم عدواً للمسلمين فيكون منه وجود فرصة أو عزّة وثبة. ولا ترفدوا أحدا من أهل الحرب على المؤمنين والمسلمين بقوة عادية لسلاح ولا خيل ولا رجال. ولا تدلوا أحداً من الأعداء ولا تكاتبوا.

وعليهم إن احتاج المسلمون إلى اختفاء أحد منهم عندهم وفي منازلهم أن يخفوه ولا يظهروا العدو عليه ويرفدونهم ويواسونهم ما أقاموا عندهم.

ولا يخلوا شيئ [شيئا] مما شرط عليهم فمن نكث منهم في شي من هذه الشروط وتعدّاها إلى غيرها فقد برئ من ذمة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وعليهم تلك العهود والمواثيق التي أخذت على الأحبار والرهبان والنصارى من أهل الكتاب.

وأشد ما أخذ الله على أنبيائه من الإيمان بالوفا[ء] بذلك أي كانوا وعلى الوفا[ء] بما جعلت لهم على نفسي وعلى المسلمين رعايته لهم لمعرفتهم به والانتهاء إليه حتى تقوم الساعة وتنقضي الدنيا.

شهد على ذلك عثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة في سنة سبع عشرة للهجرة". (أورده شير ٢٠١- ٢٠٣/ ٦٢١-٦٢٣)

كما يلاحظ شير (١٨٦٧-١٩١٥م)، "يبدو أن هٰذا المرسوم عبارة عن ملخص للعهد المنسوب للنبي محمد" (٣٠٣/ ٦٢٣). ونتيجة لهٰذا، يستنتج "بأنه من الأرجح إذن أن يكون مزيفا" (٣٠٣/ ٦٢٣). مرة أخرىٰ، يلاحَظ أن أفكار شير المسبقة تمنعه من تصور أن يكون المسلمون حكاماً متسامحين، وخيرين، وعادلين. ومع ذلك فهو يقر بأنه "بالنظر للالتزامات المفروضة علىٰ المسيحيين، تحتوي هاتان الوثيقتان المزورتان علىٰ فقرات من اتفاقية تسليم القدس، والتي تم تجديدها في الوضع القانوني للمسيحيين السوريين الذي نقحه الخليفة عمر"(٣٠٣/ ٦٢٣). بعبارة أخرىٰ، هو يعطي الأسبقية للملفق واللاتاريخي علىٰ ما هو صحيح وتاريخي. إنه من الواضح لكل ذي عقل نقدي أن 'عهد عمر' الشهير و 'ميثاق عمر' لم يُكتبا من قبل نفس

الشخص. إذا كان المؤرخون يقبلون ’ميثاق عمر‘ الوارد في ’تاريخ‘ الطبري (٨٣٨-٩٢٣م)، ويرفضون ’عهد عمر‘ الوارد في ’سراج الملوك‘ للطرطوشي (١٠٥٩-١١٢٧م)، باعتباره مزوراً، فكيف يمكن لشير أن يعطي الأسبقية للوثيقة الأخيرة علىٰ الأولىٰ؟

انسجاماً مع النماذج التي وضعها النَّبيّ (٥٧٠-٦٢٤م)، وصحابته الآخرون، وعد خالد بن الوليد (٥٩٢-٦٤٢م)، وهو قائد في الجيش الإسلامي، المسيحيين بأن "بإمكانهم أن يقرعوا أجراس كنائسهم في أي وقت، ليلاً أو نهاراً، باستثناء الأوقات التي يقوم فيها المسلمون بأداء صلواتهم اليومية. كما يمكنهم كذلك حمل صلبانهم خلال أيامهم المقدسة" (ذكره هايا ٥). الشيء الوحيد الذي طلبه المسلمون من المسيحيين هو احترام حساسيات المسلمين، وهٰذا شيء غير موجود إلىٰ حد بعيد في العالم الغربي حالياً، حيث يُظهِر غير المسلمين أقسىٰ أنواع الازدراء تجاه المشاعر الإسلامية. لم يقم المسيحيون فقط بأدوار هامة في إدارة الدولة الإسلامية، بل إن العديد منهم التحقوا بصفوف المسلمين في أوقات الحرب (دونر ١٧٧-١٧٦، ١٨١-١٨٣). لقد كانوا علىٰ استعداد حتىٰ للسير في معركة مع صليب وراية القديس سرجيوس (٢٥٢).

حين كان معاوية (٦٠٢-٦٨٢م) يعمل والياً علىٰ سوريا تحت قيادة الخليفة عمر، أنشأ أسطولاً مزوداً ليس فقط بالجنود المسلمين، بل كذلك بالمسيحيين ’الموحدين‘ الوحدانيين monophysite، والأقباط، والبحارة المسيحيين السوريين اليعاقبة، مما أدىٰ إلىٰ هزيمة الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥م. وعلىٰ الرغم من كونه قاسياً وفضاً تجاه آل بيت النبي، فقد شجع معاوية علىٰ إقامة علاقات إيجابية مع أهل الكتاب. حسب بيتس، "لقد سيطر المسيحيون السوريون الأصليون، وخاصة منهم اليعاقبة، علىٰ الأوساط الأدبية، والفنية، والعلمية الدائرة في قصر معاوية بدمشق، بل إن بعضهم ارتقىٰ إلىٰ مناصب المستشارين الخاصين والإداريين الجهويين" (٩). في الواقع، كان أحد أقرب مستشاريه هو سرجون أو سيرجيون، والد يوحنا الدمشقي (حوالي ٦٤٥ أو ٦٧٦- ٧٤٩م). وكان معاوية محاطاً

بالمسيحيين في حياته الشخصية: كانت زوجته المفضلة مسيحية يعقوبية وكان ابنه وولي عهده، يزيد السيئ السمعة (حكم ٦٨٠- ٦٨٣م) "قد نشأ في جو مسيحي بما أن أمه كانت مسيحية تنتمي إلىٰ قبيلة بدوية هي قبيلة بني كلب" (بيتس ٩). وكنتيجة لكل هذه العوامل، كان عهد معاوية فترة "سلام ورفاه بالنسبة للمسيحيين والمسلمين علىٰ حد سواء" (رودز ١٠٥). ويبدو أنه خصص تعصبه وقمعه لـ"آل بيت النَّبيّ ولمن ساند مقامهم المنيف، أما بعض القادة المسلمين، مثل الخليفة الفاطمي العزيز (حكم ٩٧٥ - ٩٩٦م)، فقد كانت لديهم زوجات مسيحيات" (فورتسكيو ٢٣٤). حسب حبيب ليفي، "كان الصفويون يتزوجون في الغالب من النساء المسيحيات" (٢٦٥).

لقد كان التسامح الذي أبداه الحكام المسلمون الأوائل تجاه الأكثرية المسيحية مثاليا. فكما تظهر دراسة للنقود العربية–البيزنطية، كانت الرموز المسيحية مستعملة من قبل الحكام المسلمين حتىٰ عهد عبد الملك ابن مروان (حكم ٦٨٥–٧٠٥) (فوس١٣٧). وبعيداً عن التدليل بأن الإسلام كان بالفعل مجرد هرطقة مسيحية فإن استعمال الصور المسيحية في النقود، بما في ذلك الصلبان، يعكس ذوق الغالبية العظمىٰ من الشعب (١٣٧). يعلق كلايف فوس عن ذلك قائلا بأنه "يبدو أن الغزاة (كذا) الجدد كانوا أكثر تسامحًا بكثير تجاه الرموز المسيحية مما كان يُعتقد في الغالب" (١٣٦). وهكذا "أصدروا نقودا تستجيب لرغبة السكان المسيحيين وتحفظ تقاليدهم" (١٣٦). هذه السياسة تتوافق بشكل تام مع عهود النَّبيّ ﷺ التي وفرت الحماية للرموز المسيحية.

بينما لا تعتبر هذه إلا بعض الأمثلة عن الود الذي يضمره الإسلام تجاه أهل الكتاب، فإن التاريخ الإسلامي يزخر بالمئات من مثل هذه الحالات. إن كان هٰذا هو الأسلوب الذي تعامل به المسلمون تجاه غير المسلمين، فقد يكون من الجدير النظر بعجالة إلىٰ الكيفية التي عامل بها غير المسلمين غير المسيحيين وكيف عامل المسيحيون أحيانًا المسيحيين وغير المسيحيين علىٰ السواء. آنذاك فقط يمكن عقد مقارنة عادلة. لقد كانت هناك بالتأكيد حالات طوال التاريخ اضطَهد فيها المسلمون المسيحيين، وهي حالات يود كل مسلم مخلص أن يعبر عن أسفه الصادق علىٰ

وقوعها؛ وقد أوردنا تفاصيل بعض هذه الأحداث أسفله. لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن هذه الأحداث وقعت في خرق صارخ لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية. وعلىٰ نحو مماثل، لا يمكن تحميل مسؤولية تجاوزات محاكم التفتيش الإسبانية للمسيح عيسىٰ، الذي قال:"أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلىٰ مبغضيكم."

منذ عهد سحيق، كان من حق الغازي أن يقتل ويستعبد ضحاياه المغزوين. وفي بعض الحالات القصوىٰ، مثل الأزتيك، كان هٰؤلاء الضحايا يقدَّمون بشكل شعائري قرباناً للآلهة. وقد كان أولئك الناجون من القتل يخضعون لدفع ضرائب ثقيلة، بما في ذلك الأداء في شكل عبيد. ولم يكن الاستسلام يُعتبر تعبيراً عن الخضوع والرغبة في السلام، بل كان يُنظر إليه بوصفه قمة الجبن. وكان المغزوون يُستعبدون ويُحمّلون علىٰ الدوام وصمة عار استسلامهم. وقد كان الرومان القدماء يَستعبِدون بأعداد مذهلة أولئك الذين لا يقتلونهم:

> "في سنة ١٧٧ قبل الميلاد، وخلال حملته علىٰ سردينيا، قام تبريوس صمبرونيوس غراتشوس بقتل أو استعباد ٨٠,٠٠٠ من سكان الجزيرة. وفي سنة ١٦٧ ق.م. منح مجلس الشيوخ الروماني للجنرال الروماني المنتصر في اليونان حق نهب سبعين مدينة في الساحل الغربي من اليونان: وقد تم استعباد ١٥٠,٠٠٠ شخص. ورغم أن حروب التوسع شبه المتواصلة تقريباً خلال القرنين الأخيرين لما قبل الميلاد بلغت نهايتها تحت روما الإمبريالية، فإن الإمبراطورية كانت لا تزال تشن حروباً وتستعبد الكثير من المستعمَرين. علىٰ سبيل المثال لا الحصر، حروب أوغسطس ضد قبائل جبال الألب وفي إسبانيا، وحروب تبريوس علىٰ طول نهر الراين، وغزو كلوديوس لبريطانيا، والحملات ضد البارثيين، وحروب تراجان في داسيا، وحملة ماركوس أوليوس عبر نهر الدانوب، كلها أتت بالأسرىٰ إلىٰ روما قصد استرقاقهم. كما أن الثورات في الأرياف، رغم أنها صارت أقل، نتج عنها استعباد الكثير من الناس، وكمثال مثير، نشير إلىٰ الحرب اليهودية سنة ٦٦-٧٠ ق.م، التي أدت

إلىٰ إستعباد ٩٧,٠٠٠ شخص". (جوشل)

ولم يكن المستعمَرون يفقدون حريتهم فحسب، بل كانوا يفقدون هويتهم. كما يوضح جوشل، لم يكن الرجال والنساء، الذين يُؤتىٰ بهم إلىٰ الإمبراطورية في تجارة الرقيق ذات المسافة الطويلة، يفقدون ثقافتهم الأصلية فقط، بل كانوا يصيرون أجانب وكان افتقارهم للقوة كأجساد تباع في السوق يجعلهم في وضعية أشبه بحالة الأعداء المهزومين، المعرّضين للنهب، مثل باقي سلعهم وأغراضهم." ولم يكن الهون Hun أفضل من الرومان، حيث كانوا ينهبون ويدمرون مدينة بعد مدينة، مخلفين الموت والدمار وراءهم. وكان الهون ينهبون الكنائس والأديرة، ويقتلون الرهبان ويعتدون علىٰ العذارىٰ جنسياً (فيريل). وعلىٰ غرار الصينيين والمغول، تبنىٰ الهون سياسة الأرض المحروقة الهادفة إلىٰ منع أعدائهم من النهوض مجدداً أبداً. ومثل الرومان، كانوا يتركون صحاري من الدمار والموت ويسمّون ذلك سلاماً. وقد كان من عادة الرومان والمغول علىٰ حد سواء أن يزرعوا الملح في أراضي الشعوب المهزومة لكي لا ينبت فيها أي شيء بعد ذلك.

خلال عهد النَّبيّ ﷺ، كانت القوىٰ الإقليمية تشمل كلاً من بيزنطة، والإمبراطورية الساسانية الفارسية، وإمبراطورية القوط الغربيين في إسبانيا، فضلاً عن الفرنجة بفرنسا، وسلالة 'سوي' الحاكمة في الصين. وكما رأينا، كان الروم البيزنطيون، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم متحضرين، وحشيين تماماً مثل ما يسمىٰ بالجحافل البربرية. في سنة ٦١٤م، خلال المرحلة الأخيرة من الحرب الساسانية–البيزنطية، ضرب حصار علىٰ مدينة القدس. ورغم أن هٰذا الموضوع مثير للجدل ولا يزال قيد البحث والنقاش الأكاديمي، فإنه يُزعم بأن الفرس قاموا بقتل المسيحيين وانتهاك حرمة المواقع المقدسة. وبينما يدعو الإسلام إلىٰ سياسة العين بالعين، فإن مثل هذه المفاهيم المعتدلة نسبياً لم يُسمع بها في أوربا، حيث قام شارلمان، سنة ٧٨٢، بذبح ٤٥٠٠ ساكسونيا كرد فعل علىٰ مقتل مبعوثين اثنين، وأربعة قوامسة (كونتات) وحوالي عشرين من النبلاء. وكان شعب السوي أيضاً قساة لا يرحمون. فعندما دخلت جيوشهم نانجيغ، وبعدما استسلم الإمبراطور الأخير لتشين الجنوبية،

قاموا بتدمير المدينة تدميراً كاملاً.

إذا قام النَّبيّ مُحَمَّد بإحتضان اليهود والنصارىٰ باعتبارهم جزءا من المجتمع الإسلامي، فقد كان القوط الغربيون بإسبانيا متعصبين بشكل فاضح تجاه الشعب اليهودي، حيث تبنوا سياسة رسمية ترعاها الكنيسة والدولة، قوامها المعاداة الممنهجة للسامية. وقد تم حظر الختان والاحتفال بالسبت والطقوس اليهودية الأخرىٰ. وكان اليهود يُرغمون بالقوة علىٰ التنصير والتعميد. كما كانوا يُجبرون علىٰ أداء ضرائب باهظة. وصودرت ممتلكاتهم. وكانوا يُجلدون أو حتىٰ يُعدمون أمام الملأ فقط لكونهم يهودا.

تحت الحكم الإسلامي بالأندلس، عاش اليهود والمسيحيون عمومًا عصراً ذهبيًا مفعمًا بالسلام والازدهار علىٰ مدىٰ ما يناهز ثمانية قرون. ورغم أن الحكام المسلمين لإسبانيا الإسلامية كانوا غير متسامحين تجاه من لا ينتمي إلىٰ أهل السنة من المذهب المالكي، فقد كانوا متسامحين وخيّرين للغاية تجاه اليهود والمسيحيين. لقد كانوا يلتزمون بالآية القرآنية التي تنص علىٰ ما يلي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (٥: ٦٩).

وعلىٰ الرغم من هزمه لليهود والنصارىٰ، فقد سمح لهم عبد الرحمن الثالث (حكم ٩١٢-٩٦١م) بالاحتفاظ بدينهم، ولغتهم، وثقافتهم. في الواقع، شهدت اللغة العبرية انبعاثًا في ظل الحكم الإسلامي، أما في باقي أوربا، فقد كان اليهود مضطهَدين ومحرومين من بعض أبسط حقوقهم الأساسية. كما ازدهر مسيحيو الأندلس كذلك في ظل الحكم الإسلامي. وقد كان اليهود والمسيحيون والنصارىٰ يتعاونون تعاونًا وثيقًا جداً لترجمة شتىٰ أنواع الكتب، ابتداء من الكتب الكلاسيكية للحضارة اليونانية-الرومانية وانتهاء بالكراسات العلمية، مما أعطىٰ دفعة قوية للنهضة الأوربية. وبعد إدراك الكثير من الجماعات المسيحية بأن الحكم الإسلامي بالأندلس كان متفوقًا علىٰ الحكم المسيحي في باقي أوربا، فقد ساعدت المسلمين وحاربت

جنبًا إلىٰ جنب مع المسلمين ضد مسيحيي الشمال الأقل تحضراً. وقد تمت دراسة هٰذا 'العصر الذهبي' في العديد من الأعمال مثل: 'زينة العالم: كيف أنشأ المسلمون واليهود والنصارىٰ ثقافة التسامح في إسبانيا القروسطوية' لمؤلفيه فيفيان ب.مانن وطوماس ف.جليك، وجريلين دودز؛ فضلا عن كتب أخرىٰ بارزة تناولت هٰذا الموضوع.

وقد سجل سقوط إمارة غرناطة في أيدي القوات الكاثوليكية سنة ١٤٩٢م حدثين بارزين ينبغي الاستفادة من درسيهما. أولاً، نحن في حاجة إلىٰ فهم السبب في نهاية أو انهيار الإمارة بعد أزيد من سبعمائة سنة من الحكم الحقيقي والفعال، تعايش خلاله أتباع الديانات السماوية الثلاث، أي اليهود والمسيحيون والنصارىٰ، بانسجام. ثانيًا: يجب أن نقارن الطريقة التي تعامل بها المسلمون تجاه غير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي بالتعامل الذي تلقاه المسلمون علىٰ أيدي المسيحيين بعد ما تم الانقلاب عليهم. لماذا سقطت إمارة الأندلس؟ وقع ذلك، بالأساس، نظراً لنفس الأسباب التي أدت إلىٰ إنهيار الإمبراطورية العثمانية، ولنفس الأسباب التي جعلت المغول يدمرون بغداد، ولنفس الأسباب التي جعلت الحضارة التي أتت بالنور للعالم بأسره، تدخل مرحلة الظلام التي استمرت عمليًا حتىٰ وقتنا الحاضر. وماذا كانت تلك الأسباب؟ لقد كانت ذات شقين بالأساس:

١) الفشل في تنفيذ أوامر الله؛ ٢) التجاهل، عن وعي أو غير وعي، لتعاليم النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ بشأن خلافته، وقد جاء الجزاء علىٰ ذلك تاريخيًا علىٰ النحو التالي: إن الخلافة الأموية التي تأسست علىٰ دماء علي وبيت النبي، صارت في نهاية المطاف مكروهة كمؤسسة إلىٰ درجة أنه تمت الإطاحة بها من قبل العباسيين. وقد فر آخر خلفاء الأمويين، عبد الرحمان الأول [الداخل] ليؤسس إمارة قرطبة سنة ٧٥٦م. وقد تم إعلانها "خلافة" سنة ٩٢٩م في عهد خليفته عبد الرحمن الثالث، رداً علىٰ تهديد الفاطميين، مما أحدث شرخًا في "دار الإسلام". وبينما كان خلفاء الأندلس يديرون حضارة روحية عظمىٰ، كما أسلفت الإشارة، فإن انفصالهم عن العباسيين والفاطميين بشمال إفريقيا والشرق الأوسط تركهم منعزلين، وبالتالي تحت رحمة محكمة التفتيش

الكاثوليكية.

في ضوء هاتين الخطيئتين الفادحتين، فإنه لا ينبغي النظر الىٰ قوة أو فعالية الجيوش التي هزمت المسلمين بوصفها السبب الأساس في هذه الهزيمة. مهما كان غير المسلمين، سواء كانوا فضلاء أو أشراراً، أو أحسن من المسلمين، فإن السبب الرئيس في انهيار الحضارة الإسلامية يكمن في أن مسلمي الأندلس وغيرها مهدوا الطريق للدمار والمهانة والخراب الذي حل بهم، نتيجة لفشلهم في تنفيذ أوامر القرآن والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. فكيف إذن تمت معاملة المسلمين بعد سقوط إمارة غرناطة، آخر قلاع المسلمين بإسبانيا؟ إن المعاملة التي تلقوها كانت حقـاً مخجلة، بغض النظر عن كونهم خضعوا للإذلال والذبح كنتيجة مباشرة لسياسيات القادة المسلمين الخاطئة في الداخل والخارج. فبدل الدفاع عن المسلمين المحاصَرين في الأندلس، قام السلطان بايزيد الثاني (حكم ١٤١٨- ١٥١٢م) بإرسال قواته إلىٰ قبرص. ألم يسمع بكلام النَّبيّ ﷺ الذي وصف فيه "الأمة" باعتبارها جسداً واحداً، إذا اشتكىٰ عضو واحد منه تداعت له كل الأطراف؟ في الوقت الذي يمكن الإشادة بإرسال بايزيد الثاني لأسطوله إلىٰ الأندلس سنة ١٤٩٢م، لإجلاء اليهود من إسبانيا وجلبهم للعيش في الإمبراطورية العثمانية، ألم يكن حريـاً به أن يقاتل المسيحيين دفاعـاً عن كل من اليهود والمسلمين؟ تأمل، إذن، ما حدث للمسلمين المهجورين في الأندلس، مهجورين مثل مسلمي فلسطين، والبوسنة، والشيشان، بانغسامورو، وبورما وغيرها....

ما يزيد عن سبعمائة عام من التضامن بين أتباع النَّبيّ إبراهيم -اليهود، والمسيحيين، والمسلمين- وصلت إلىٰ نهاية غير متوقعة عندما سقطت أخيراً إمارة غرناطة في أيدي القوات المسيحية سنة ١٤٩٢ م. من بين سكان غرناطة [المسلمين] الأصليين البالغ عددهم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة، مات ١٠٠,٠٠٠ رجل، أو استُعبدوا نتيجة مقاتلتهم للصليبيين المسيحيين، وقد فر حوالي ٢٠٠,٠٠٠ شخص (خاصة إلىٰ شمال إفريقيا)، في حين بقي هناك ٢٠٠,٠٠٠ شخص. ورغم أن 'معاهدة غرناطة'-التي وقعها وصادق عليها ملك غرناطة، أبو عبد الله محمد الثاني عشر[بوعبديل Boabdil] (١٤٥٩-١٥٣٣م)، والملكين الكاثوليكيين فرناندو (١٤٥٢-١٥١٦م) وإيزابيلا

(١٤٥١- ١٥٠٤م) - تمنح الحرية الدينية والثقافية واللغوية للسكان المسلمين، فإنه سرعان ما انتهك الحكام المسيحيون تلك المعاهدة بدعوىٰ أن العهود مع 'الكفار' غير ملزمة.

وتتضمن شروط الاستسلام، -التي فاوض المسلمون [المسيحيين علىٰ أساسها] في معاهدة تسليم غرناطة سنة ١٤٢٩م- سبعة وستين بنداً، منها:

"ينبغي أن يُحتفظ بقوانينهم كما كانت في السابق، ولا ينبغي لأي كان أن يحاكمهم إلا بتلك القوانين ذاتها؛ أن تبقىٰ مساجدهم والأوقاف الدينية الخاصة بها كما كانت خلال الحكم الإسلامي؛ أن لا يدخل أي مسيحي بيت مسلم، أو يشتمه بأية طريقة؛ كل الأسرىٰ المسلمين الذين أُخذوا خلال حصار غرناطة، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها في الوطن، وخاصة النبلاء والزعماء المشار إليهم في الاتفاقية، يجب إطلاق سراحهم؛ وبأن الأسرىٰ المسلمين الذين فروا من أسيادهم المسيحيين، واختاروا اللجوء في غرناطة، لا يجب تسليمهم للسلطات بل إن السلطان ملزم لدفع ثَمن مثل هٰؤلاء الأسرىٰ لمالكيهم؛ بأن كل من اختار العبور الىٰ إفريقيا يجب السماح لهم بالمغادرة خلال وقت معين، ويُحمل هناك في سفن الملك، وبدون أن تُفرض عليهم أية ضريبة مالية، فوق تكاليف العبور؛ وبعد انتهاء المهلة، لا يجب منع أي مسلم من المغادرة، شريطة أن يدفع إضافة إلىٰ ثمن العبور، عُشر الممتلكات التي قد يحملها معه؛ بأن المسيحيين الذين إعتنقوا الإسلام لا يجب إرغامهم علىٰ التخلي عنه واعتناق دينهم السابق؛ بأن لا يسمح لأي مسيحي أن يختلس النظر فوق جدار أو داخل بيت مسلم، ولا يدخل مسجداً، ولا توضع أي شارة أو علامة مميزة عليهم، كما كان الشأن مع اليهود والموديخار [أي المسلمين الإسبان الذين رفضوا التنصير]؛ بأن لا يُمنع أي مؤذن من دعوة الناس إلىٰ الصلاة، ولا يُضايَق أي مسلم سواء في أدائه لصلواته اليومية أو قيامه بفريضة الصوم، أو أي شأن ديني آخر؛ لكن إذا سَخِر المسيحي منهم فيجب معاقبته علىٰ ذلك". (المقري ٣٨٩)

وكما يوضح فيغرز فانه:

> "وفقا لشروط الاستسلام التي حررها فرديناندو وإيزابيلا عندما دخلت الجيوش المسيحية غرناطة، فإن الرعايا الجدد المنضمين إلىٰ التاج عوهدوا بأنه سوف يُسمح لهم بالحفاظ علىٰ مساجدهم ومؤسساتهم الدينية، وكذلك مواصلة استعمالهم للغتهم والاستمرار في الالتزام بقوانينهم وتقاليدهم الخاصة. لكن في غضون سبعة أعوام تم نقض هذه الوعود السخية" (١٠).

بعدما فشل رجال الدين المسيحيون في تنصير السكان المسلمين، بدأ الكاردنال فرانسيسكو خمينيز دي سيسنيروس (١٤٣٦-١٥١٧م) في إجبار المسلمين علىٰ اعتناق المسيحية، وإحراق الكتب الإسلامية، وإضطهاد مسلمي غرناطة. وكنتيجة لذلك، ثار مسلمو 'حي البيَّازين' Albaicin، بغرناطة سنة ١٤٩٩ م. وانتهز المسيحيون فرصة هذه الثورة للادعاء بأن المسلمين نقضوا الميثاق المبرم، وبالتالي لن يلتزم المسيحيون به بعد ذلك. وهكذا، واقتداء بالصليبيين، كانوا يعتقدون بأنه حتىٰ لو كان نقض العهد خطيئة، فإن الالتزام بالعهد الممنوح للكافر خطيئة أكبر (حميد الله، **'السلوك الإسلامي'**، ٧١). في سنة ١٥٠٠ م، أُجبر الكثير من المسلمين علىٰ التنصير. وأثناء معاهدة الاستسلام التي عقدت سنة ١٥٠٠- ١٥٠١م، تم منع المسلمين من ذبح أضحياتهم وكذلك من الاستحمام. وفي ١٢ أكتوبر ١٥٠١م، أُحرقت جميع الكتب العربية والإسلامية في غرناطة. وفي سنة ١٥٠١م، أعطت السلطات الإسبانية إنذاراً للمسلمين: إما التحول إلىٰ الدين المسيحي أو الطرد. ورغم أن أكثرية المسلمين أُرغموا علىٰ التنصر، وصاروا يُعرفون نتيجة لذلك بالمورسكيين – وهو مصطلح لم يقبلوه أبداً، حيث استمروا في اعتبار أنفسهم مسلمين ومؤمنين، فإن تنصيرهم كان سطحيـاً، وواصل العديد منهم ممارسة الشعائر الإسلامية بطريقة سرية، عائدين هكذا إلىٰ استخدام التقية. وكما يؤكد المؤرخ أحمد بن محمد المقري (١٥٧٨-١٦٣٢م)، فإن:

> "المسلمين الذين بقوا في الأندلس، رغم أن مظهرهم مسيحي، فإن

قلوبهم لم تكن كذلك؛ لأنهم يعبدون الله في الخفاء، ويمارسون صلاتهم ووضوءهم في الأوقات المناسبة. وقد كان المسيحيون يراقبونهم بأكبر قدر من اليقظة، وتم ضبط العديد منهم فأُحرقوا". (٣٩١ – ٣٩٢)

في سنة ١٥٠٢م، توسعت الإنـذارات لتشمل 'موديخار' منطقتي قشتالة وليون. وتم منع استعمال اللغة العربية والأزياء الاسلامية بقوة القانون سنة ١٥٠٨م. وبين سنتي ١٥١١ و١٥١٣م، أُصدرت مجموعة من المراسيم تحظر إنتاج وبيع واستهلاك اللحم 'الحلال'. وأُجبر موديخار نافار وأراغون علىٰ التنصر وإلا مغادرة إسبانيا سنتي ١٥١٥ و١٥٢٥م. وفي سنة ١٥٢٥م، تم الإعلان بأن عمليات تنصير المسلمين سارية المفعول قانونيـاً ودينيـاً، وقام شارل الخامس (١٥٠٠– ١٥٥٨م) بتمديد مرسوم طرد المسلمين أو تنصيرهم ليشمل جميع ممالكه. وفي سنتي ١٥٢٦ و ١٥٢٧م، تم إصدار تشريعات أكثر تقييداً. كل ما له علاقة بالإسلام أو الثقافة العربية صار محظوراً: الزي الإسلامي، والتمائم، والمجوهرات، والختان... (شيجن، 'الموريسكيون' ٩). وقد مُنع الموريسكيون من امتلاك الأسلحة مهما كان نوعها، كما تم حظر الزواج الإسلامي.

وفي سـنة ١٥٦٥، قام فيليب الثاني (١٥٢٧– ١٥٩٨م) بحظر التحدث باللغة العربيـة، والقراءة أو الكتابة بها: كمـا قام بإلغاء جميع العقود المكتوبة بالعربية؛ وأُرغم الموريسكيون علىٰ أن يلبسوا مثل المسيحيين؛ ومُنعت النساء الموريسكيات من ارتداء الحجاب أو النقاب، رغم أن لبسه كان شيئـاً طبيعيـاً حتىٰ بالنسبة للمسيحيات في ذلك الوقـت. كمـا قام فيليب الثـاني بحظر الموسـيقىٰ والرقصات الموريسـكية، ومنع كل احتفالات يوم الجمعة؛ ومنع اسـتعمال الأسماء الإسـلامية، وكذلك استعمال الحناء من قبل الموريسـكيات؛ وقام بحظر وتدمير الحمامات العامة (برنابي بونز ٣٤– ٣٥). وتـم حظر حفـل 'العقيقة'، أي حلق رأس المولود وذبح خروف في اليوم السـابع بعد الـولادة. وكان الأطفال الموريسـكيون يُجبرون علىٰ التعميد، كما كان الموريسـكيون عمومـاً يُرغمون علـىٰ حضور القداس. وكما أشـار ويغرز، لم يكن التشـريع الجديد "موجهـا ضد الديـن فقط، بل أيضـاً ضد كل مظاهر الثقافة التقليدية، مثل الاسـتعمال

الشفوي والكتابي للغة العربية" (١٠). وعلاوة علىٰ حظر الكتب الإسلامية، فإن كل العادات المرتبطة بالإسلام، مثل الاستحمام، كانت محظورة (١٠). وبالفعل، فإن مجرد إمتلاك كتاب مكتوب بالخط العربي كان يُنظر إليه من قبل محكمة التفتيش كجريمة مادية محتملة (١١). وكان يُتوقّع من المسلمين أن يتركوا أبوابهم مفتوحة، خاصة أيام الجمعة، لكي يدخل المسيحيون ويخرجوا كما يشاءون في محاولاتهم لضمان عدم ممارسة أي شعائر دينية إسلامية. وكان المسيحيون يستهزئون بالموريسكيين من خلال تقديمهم لحم الخنزير عشوائياً لتأكيد مسيحيتهم. وكل رفض لأكل ذلك اللحم كان من شأنه أن يؤدي إلىٰ تقديم شكاية لمحكمة التفتيش، ثم إلىٰ إجراءات تحقيق، وبعد ذلك التعذيب أو حتىٰ القتل. وبما أنه كان يُنظر إلىٰ الاستحمام والنظافة الأساسية كدليل علىٰ كون الشخص مسلماً متخفياً، فقد كان بإمكان غياب انبعاث رائحة كريهة منه أن تقود هٰذا الشخص إلىٰ غرف التعذيب التي نصبتها محاكم التفتيش 'المقدسة'.

ولزيادة الطين بلة، قام فيليب الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨م) بإصدار مرسوم يقضي بتسليم الأطفال الموريسكيين إلىٰ قساوسة مسيحيين لتربيتهم، وقد أدىٰ هٰذا القرار إلىٰ اندلاع انتفاضة البوخاراس التي دامت من سنة ١٥٦٨ إلىٰ ١٥٧١م. وقد تم قمع الانتفاضة بوحشية من قبل دون خوان دي أوستريا (١٥٤٧-١٥٧٨م). وقد سُويت مدينة كاليرا بالأرض، وتم رشها بالملح، وذُبح جميع سكانها البالغ عددهم ٢٥٠٠، بما فيهم النساء والأطفال" (١١). وبعد قمع هذه الثورة، قام العرش الإسباني بالترحيل القسري لـ ٨٤,٠٠٠ من الموريسكيين من غرناطة وقشتالة، سعياً إلىٰ إبعادهم عن إخوانهم وبالتالي ضمان اندماجهم النهائي في الثقافة المسيحية.

في سنة ١٦٠٩م، كان القرار النهائي بطرد الموريسكيين قد اتُّخذ تحت ذريعة حفظ الأمن القومي. فقد تم اتهام الموريسكيين بالتآمر مع مسلمي شمال إفريقيا والعثمانيين لغزو إسبانيا. وخلافاً لطرد اليهود سنة ١٤٩٢م، والذي نُفّذ بالكامل دفعة واحدة، فإن تهجير الموريسكيين مر علىٰ مراحل. كان موريسكيو فالنسيا هم أول من تم طردهم سنة ١٦٠٩م، ثم تبعهم موريسكيو قشتالة سنة ١٦١٤م. لقد أُجبر

الموريسكيون علىٰ مغادرة إسبانيا تحت التهديد بالموت، بدون أموالهم ولا أمتعتهم. بل إنهم أُجبروا حتىٰ علىٰ ترك أبنائهم وراءهم. كان علىٰ الأطفال الموريسكيين الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات أن يتوجهوا لخدمة المؤسسة الدينية؛ أما من تزيد أعمارهم عن ذلك فقد كانوا يُباعون كعبيد للمسيحيين القدامىٰ، أي أولئك الذين كانوا مسيحيين لأزيد من ألف سنة (بواز ١٣).

بين أكتوبر ١٦٠٩م ويوليوز ١٦١١م، بلغ عدد "الموريسكيين الذين ماتوا وهم يقاومون التهجير القسري أزيد من ٥٠,٠٠٠، بينما مات أزيد من ٦٠,٠٠٠ خلال خروجهم من إسبانيا براً أو بحراً، أو قُتلوا علىٰ أيدي إخوانهم في الدين بعد وصولهم إلىٰ ساحل شمال إفريقيا" (بواز ١٢). وقد تم طرد ما مجموعه ٣٠٠,٠٠٠ موريسكي، ومعظمهم من أراغون وكاطالونيا وفالنسيا الحديثة، من إسبانيا خلال الموجة الثانية، وقد وصلوا في نهاية المطاف إلىٰ الإمبراطورية العثمانية والمغرب. ومن بين ٥٠٠,٠٠٠ مسلم في غرناطة، لم يبق إلا ما بين ١٠,٠٠٠ إلىٰ ١٥,٠٠٠ بعد تهجير عام ١٦٠٩م، حسب أقل التقديرات. لقد لقي خُمس السكان الموريسكيين حتفهم في غضون بضع سنوات. ويؤكد كتّاب آخرون بأن ما بين الثلثين إلىٰ ثلاثة أرباع هٰؤلاء السكان ماتوا (باوز ١٢). وهناك تقديرات أخرىٰ تقول إن "١١٠,٠٠٠ موريسكي غادروا الأندلس، ومورسيا، وهورنا تشوس؛ كما غادر حوالي ٥٠,٠٠٠ موريسكي من كاتالونيا و ١٢٠,٠٠٠ من أراغون و ٢٥٠,٠٠٠ من قشتالة، ومانشا وإسترمادورا،" بمجموع يناهز نصف مليون شخص (شيجن، الموريسكيون (١٣). لكن ليس هناك أدنىٰ شك في أن الويلات التي عاناها المسلمون منذ وفاة النَّبيّ ﷺ إلىٰ يومنا هٰذا هي تقريباً نتيجة تراكمية لسبب واحد: رفض الاعتراف بحقوق أهل البيت، بيت النَّبيّ المقدس. إذ كما أوصىٰ رسول الله ﷺ: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي" ('مشروع مكتبة إسلامية رقمية لأهل البيت').

عندما يُواجه بعض المتعذرين المسيحيين بفضح مثل هذه الفظاعات فإنهم يحاجّون فقط بالتبرير بأن "تلك كانت أياماً سوداء" أو "كذلك كانت سلوكات وقواعد

ذلـك العصـر". وبالتأكيد، لا يجب إغفـال الاضطهاد والمضايقات التـي يتعرض لها الشـيعة والمُتَصَوّفة في أجزاء من العالم الإسـلامي. لكن، إذا كان اضطهاد المسلمين مسـألة طبيعية عند النصارىٰ الأوروبيين، فإن إضطهاد المسـيحيين لم يكن بكل تأكيد سلوكـاً معتاداً عند المسلمين الأوروبيين. فبينما كان الموريسكيون يُقهرون ويتعرضون للتطهير العرقي من قبل المسـيحيين بإسبانيا، فإن مسلمي الإمبراطورية العثمانية كانوا يعاملـون النصـارىٰ باحترام وتسـامح. وخلافـاً للكاثوليكية، فقد اعترف المسـلمون الأتراك باسـتقلال الجماعة الأثونية *Athonist* بعد إستيلائهم علىٰ ثيسالونيكا (شيرارد ٢٨). فبعـد اسـتقباله لوفد من الأثونيين، قبِل السـلطان محمد الثـاني (حكم ١٤٤٤-١٤٤٦م) و (١٤٥١-١٤٨١م) "أن يحمـي حقوقهـم ويحفـظ اسـتقلالهم" (سـبيك ١١٩-١٢٠). وعلـىٰ إثـر غزو البوسـنة سـنة ١٤٦٣م، أصـدر السـلطان محمد الثاني مرسـومـاً يقضي بحماية الحقوق الأساسـية للبوسـنيين. ومما تنص عليه هذه الوثيقة، وقد كتبت ٣٢٦ سنة قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ و ٤٨٥ سنة قبل الإعلان العالمي لحقـوق الإنسـان سـنة ١٩٤٨م، وتوجد نسـختها الأصلية فـي الكنيسـة الكاثوليكية الفرنسسكانية بفوزنيكا في البوسنة والهرسك، ما يلي:

"محمد، ابن مراد خان، المنتصر دومـاً

إن أمر السلطان المبجل وفاتح العالم هو كالتالي:

أنا السلطان محمد خان، أعلن للعالم بأسره بأن من يوجد بحوزته هٰذا المرسوم الإمبراطوري، وهم الفرنسيسكان البوسنيون، قد شملتهم عنايتي الطيبة، ولذلك فإني أقرر:

لا يسمح لأي كان أن يضايق أو يزعج الناس المشار إليهم، ولا أن تُمسّ كنائسهم. اتركوهم يعيشوا بسلام في إمبراطوريتي، واتركوا من صار لاجئـاً في أمن وسلام. اسمحوا لهم بالعودة واتركوهم يستقروا في أديرتهم دون خوف في كل أقطار إمبراطوريتي.

لا يجب أن يسبّهم أو يزعجهم أي أحد، سواء كان ذلك من جانب

جلالتي العلية، أو وزرائي وعمالي، وموظفي، ولا من جانب أي مواطن من مواطني إمبراطوريتي. لا ينبغي أن يقوم أي كان بمهاجمتهم أو إهانتهم أو تعريض حياتهم أو ممتلكاتهم أو ممتلكات كنائسهم للخطر. حتىٰ لو أدخلوا شخصاً آخر من الخارج إلىٰ وطني، فيجب السماح لهم بذلك.

وكما تكرمت هكذا بإصدار هٰذا المرسوم الإمبراطوري، فإليكم بموجبه هٰذا القسم العظيم.

بسم خالق الأرض والسماوات، ورازق كل المخلوقات، وبسم السبعة المصطفين، ورسولنا العظيم، وبسم السيف الذي أحمله، لن يفعل أي واحد عكس ما هو منصوص به هنا ما دام [البوسنيون الفرنسيسكانيون] مطيعين وآفياء لأمري" (تذكرة عثمانية).

فكما يوضح سبيك، كان العثمانيون قد اقتنعوا بأن الغالبية العظمىٰ من رعاياهم المستعمَرين الجدد هم من أنصار ديانة أخرىٰ (١١٤). بما أن هدف العثمانيين كان يتمثل في القيام بإدارة سَلِسَة، فقد أدركوا بأن النزاعات بين الأديان لم تكن لتخدم مصالح الإمبراطورية. علىٰ عكس الأمويين (٦٦١-٧٥٠م)، والمرابطين (١٠٤٠-١١٤٧م)، والموحدين (١١٢١-١٢٦٩م) في الأندلس - وينتمي هٰذان الأخيران إلىٰ سلالات أمازيغية مغربية أدخلت شكلاً متزمتاً ولا متسامحاً من الإسلام - فإن العثمانيين (١٢٩٩- ١٩٢٣م) كانوا متسامحين مع المسلمين وغير المسلمين علىٰ حد سواء. كانوا يقبلون عموماً حضور كلا الشكلين 'الأورثودوكسي' أو التقليدي و'الهرطقي' من الإسلام في أوساطهم. كانوا يتبعون ما نص عليه القرآن الكريم في دفاعه عن الاختلاف والتنوع: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (٤٩ : ١٣).

رغم كونهم قوة عظمىٰ فإن العثمانيين لم يعملوا أبداً علىٰ إقامة التوحيد الثقافي والديني كقاعدة عامة، بل كانوا علىٰ العكس من ذلك، يتمّنون أن تكون إمبراطوريتهم مشكَّلة من عناصر بيزنطية ومسيحية ويهودية وعربية وبلقانية.

لقد جعل العثمانيون جميع الأديان خاضعة للدولة، وعينوا قضاة من جميع الطوائف الدينية، وبذلك وحدوا الجماعات الإثنية والثقافية والدينية تحت 'راية علمانية' واحدة. واقتداء بالنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ الذي أقام نظام حكم مركزي محلي، فلقد حافظ العثمانيون علىٰ الفواصل الاجتماعية بين الطوائف الدينية. كما توضح كارين أرمسترونغ (ولدت سنة ١٩٤٤م):

"لم يقم السلطان بفرض التوحيد علىٰ رعاياه، ولم يحاول إقحام العناصر المتباينة المشكّلة لإمبراطوريته في إطار حزب كبير واحد. كانت الحكومة فقط بمثابة هيكل يمَكِّن الجماعات المختلفة - من مسيحيين ويهود وعرب وأتراك وبربر وتجار وعلماء وطرائق ونقابات تجارية - من التعايش السلمي، تقوم كل جماعة بمساهمتها الخاصة، وتتمسك بمعتقداتها وتقاليدها. وهكذا كانت الإمبراطورية عبارة عن مجموعة من الطوائف" (٢٠٠٠: ١٣٢).

بدلاً من تقويض الطوائف الدينية، منح العثمانيون لها قدراً هاماً من السلطة والاستقلالية القانونية. وبهٰذا العمل، لم يقم العثمانيون فقط بتقوية وتعزيز طوائف الروم الأورثوذكس، والأرمن، واليهود، بل تمكنوا أيضاً من الحفاظ علىٰ التشكيل الديني والثقافي الداخلي للإمبراطورية، فضلاً عن كسب ولاء رعاياهم. وقد كان هٰذا الأسلوب العثماني مستلهَماً بطبيعة الحال، من نموذج النَّبيّ ﷺ، والخلفاء، والحكام اللاحقين. يقول سبيك في هٰذا السياق:

"لقد كان من دأب الحكام المسلمين أن يعاملوا الأقليات المسيحية داخل أنظمتهم باعتبارها 'مِللاً' أو أمماً، حيث كانوا يسمحون لها بأن تحكم نفسها بنفسها وتحتفظ بتقاليدها وممارساتها الدينية الخاصة تحت إشراف سلطتها الدينية الخاصة، والتي تضمن بدورها الولاء للسلطة العليا للخليفة". (١١٤)

إن موقف العثمانيين تجاه دير جبل آثوس يمكن أن يُنظر إليه من خلال وثيقة

تصرّح بأن "آثوس مكان يُذكر فيه اسم الله باستمرار. إنه مكان يلجأ إليه الفقراء والمشردون" (ذكره سبيك ١٢١). إن الجملة الأولىٰ، في الحقيقة، مستوحاة من القرآن الكريم حيث يقول تعالىٰ:

﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (٢٢: ٤٠).

لقد كان الأتراك، كما هو الشأن بالنسبة لكل الحكام المسلمين الحقيقيين الآخرين، يتصرفون وفق روح القرآن، الذي ينص بضرورة حماية المسلمين لكل أماكن العبادة. وعلىٰ سبيل المثال، وقّع المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧م) عهداً مع الفرنسيين، تحت حكم لويس الثاني عشر (١٤٦٢-١٥١٥م)، في القاهرة سنة ١٥٠٠م؛ ويُخضِع هٰذا العهد الأجانب غير المسلمين لقوانين بلدانهم الخاصة وليس للقانون الإسلامي. ومن الواضح أنه كانت تقع هناك تجاوزات في بعض الأحيان، مثل قيام السلطان سليم الثاني (حكم ١٥٦٦-١٥٧٤م) بمصادرة العقارات الرهبانية. لكن هٰذا السلطان كان أيضاً فاسداً مخموراً، اشتهر بلقب "سليم السكير". ومثل هٰؤلاء الحكام كانوا مجرد استثناء للقاعدة ولا يمثلون القيم التي يجسدها الإسلام ويتبناها جميع المسلمين الحقيقيين. إن التحكم في الجيش هو بطبيعة الحال أمر صعب في بعض الأحيان. لقد تم نهب وإحراق دير 'الثالوث المقدس' في بلغاريا خلال الغزو العثماني. لكن في محاولة لجبر هٰذا الضرر، أصدر السلطان 'فرمانا' سنة ١٨٣٢م يدعو إلىٰ إعادة بنائه وإعماره. وكما يوضح ر. ستيفن هامفريز، فإن الحالات التي وقعت فيها التجاوزات نادرة في مجمل التاريخ الإسلامي، وعندما تقع، فإن المرء "يكتشف عواطف ومواقف كامنة من كلا الطرفين كان يمكن بسهولة أن تتفجر عنفا" (٢٦٠). وكما يبين لنا التاريخ، فإن أغلب الأحداث الوحشية تكون بدافع المال، أما قضايا الدين والعرق والاثنيات فلا تعدو أن تكون ذرائع تُستخدم لاغتصاب حقوق الآخرين. حسب وغرام، كانت الكنيسة تحت الحكم العربي عالماً سرمدياً من الرتابة والخمول، لا تدب فيها الحياة إلا إذا جاء خطر عرَضي ينبئ بمجزرة، نتيجة

لشيء أثار غضب السلطة (الآشوريون، ٣٤). لكن تاريخ المسلمين، كما كتب ابراهام رحباني، "يُظهر بأنهم كانوا علىٰ الدوام عطوفين تجاه المسيحيين غير المتشددين في أوساطهم" (ذكره إمهاردت ولامسا ٨٢).

لقد كان المسيحيون، كما يدعي البعض، علىٰ وشك أن يُجبروا علىٰ تغيير دينهم وذلك في مناسبتين. كما يدعي شارل إليوت (١٨٠١-١٨٧٥م) في كتابه تركيا في أوربا فإن "سليم الأول وإبراهيم قام كلاهما بإعداد خطط لإبادة جميع المسيحيين بالإمبراطورية، لكن تم إقناعهما بالعدول عن ذلك من قبل مفتيهم، الذين رفضوا أن يفتوا بأن مثل هذه المذبحة جائزة في الشريعة الإسلامية". "وقد هدد سليم هٰذا نفسُه، وبعد ذلك مراد الثالث" -يقول إيليوت، "بتحويل جميع الكنائس بالعاصمة إلىٰ مساجد، ولم يمنعه من ذلك إلا بعثات، كان يترأسها البطريرك، الذي دعم مطالبهم للامتيازات التي منحها الفاتحون". وكما يدعي ألبيرت هووي ليبيير (١٨٧٦-١٩٤٩م):

"تخلص سليم، الملقب بالسفاح، من زنادقة مناطق سيادته عن طريق إعدامهم بالجملة، كما عاقب الفُرس، ولو لم يفلح في سحقهم.... وبعد أن تخلص من البدع المحمدية في إمبراطوريته، استرعىٰ انتباهه غياب الوحدة بسبب حضور الرعايا المسيحيين. ووفقاً لذلك، قرر أن يطلب من كل هٰؤلاء المسيحيين أن يقبلوا الإسلام تحت طائلة الموت. أما القول بأنه كان يرغب في إعدام مسيحيي مناطق سيادته فمن شأنه أن يضع التركيز علىٰ المكان الخطأ. يبدو، بدلاً من ذلك، أنه كان يفكر في عملية مماثلة لتلك التي تم تنفيذها بإسبانيا خلال القرن السادس عشر، والتي كان من نتائجها ان لا أحد بقي في ذلك البلد يستطيع أن يعلن عقيدة غير تلك التي كانت مهيمنة.

لكن المفتي جمالي تدخل بشكل حاسم. كان قد أصدر بسهولة فتوىٰ تجيز إبادة الزنادقة وفقا للقانون المقدس، كما أنه أجاز بعد ذلك الحروب الفارسية والمصرية. في هذه الحالة، خدعه سليم، كما قيل، بسؤال افتراضي لإعطاء جواب يمكن أن يُؤوَّل وكأنه يجيز إجبار المسيحيين علىٰ تغيير دينهم.

لكن بعد إصدار الأمر تفطن جمالي ومكَّن البطريرك اليوناني لامتلاك دفاع كافي مُظهراً له أن القانون المقدس يقضي بأن المسيحيين الذين قبلوا الحكم المحمدي ووافقوا علىٰ دفع الخراج والجزية، كان يجب أن يُتركوا يمارسون دينهم بدون مضايقة، بغض النظر عن بعض القوانين. وقد أعلن البطريرك، وفقـًا لتعليمات المفتي، بأن هٰذا الحكم بمثابة تعاقد أبدي لا رجعة فيه؛ وهكذا رافع، بما أن قصد سليم كان معاكسـًا [لذلك الحكم]، فإن هدفه كان [بالتالي] غير شرعي ويجب التخلي عنه. وقد كانت لهذه الحجة الكلمة الفصل ولم يتم إزعاج المسيحيين فيما يخص إيمانهم". (٢١١)

في نظر ليبيير، "كانت فكرة سليم ممتازة من وجهة نظر البراعة السياسية وكان من شأنها أن تأتي في آخر المطاف بفائدة كبيرة للمؤسسة الإسلامية" (٢١١). كما يوضح هٰذا الباحث الأكاديمي الغربي، كانت الكنائس المسيحية مؤسسات موازية ومنافسة وكان من شأن إزالتها أن يمنح الإمبراطورية العثمانية مجالاً حراً (٢١١). "لكن المفتي، باعتباره راعيـًا للشرع المقدس، كان علىٰ حق،" يعترف ليبيير، بما أن "وضعية الرعايا المسيحيين كانت ترتكز علىٰ أساس دستوري متين" (٢١٢). "كان النَّبيّ مُحَمَّد نفسه،" يقر الكاتب، " قد جعل الوحدة الدينية والاجتماعية للدولة العثمانية شيئـًا مستحيلاً الىٰ الأبد" (٢١٢). ولذلك، عندما تصور متعصب عرضي أو اثنان فكرة توحيد الإمبراطورية العثمانية عن طريق التوحيد الديني، فإنهم لم يكونوا أبداً قادرين علىٰ تنفيذ خططهم، لقد منعتهم من ذلك 'الشريعة'، أي القانون المقدس للإسلام، بل وكذلك، بدقة أكثر، منعتهم العهود التي كان النَّبيّ ﷺ قد أبرمها مع الطوائف المسيحية المختلفة. لقد أدرك معظم الحكام العثمانيين أن سياسة منح الاستقلال النسبي للطوائف الدينية من شأنه أن يقوّي الإمبراطورية ككل. إذا تم الاعتراف بالحقوق اللغوية والدينية والثقافية للطوائف المختلفة، فهل تبقىٰ هناك دوافع للسعي إلىٰ الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية؟

في تقدير سليم الأول (حكم ١٥١٢-١٥٢٠م)، لم يكن يندرج ضمن 'أهل الذمة' (أو الرعايا المحميين) إلا تلك الطوائف المسيحية التي كان لديها 'فرمان'.

أمـا الطوائـف التي لـم يكن عندهـا مثل هذه العهـود فيمكن إجبارها علـىٰ تغيير دينها بالقـوة. بفضل الوثائـق، والأدلة، والحجج التـي قدمها المفتـي للبرطريك ثيولبتوس (خدم الكنيسـة من ١٥١٣ الىٰ ١٥٢٢م)، تمكن هٰذا الأخير بمسـاعدة قاضي يسـمىٰ كزيناكيس، أن يُقنع السـلطان بأن كنائس إسـطنبول كانت قد استسلمت بالفعل خلال سـقوط القسـطنطينية سـنة ١٤٥٣م وتم منحها 'فرمانا'. وبما أن اتفاقيات الاستسـلام كانت قد فُقدت في حريق بالبطريركية، فلم يكن بالإمكان إظهار أية وثيقة. ومع ذلك، فإن ثلاثة من الانكشـاريين المسنين، الذين شهدوا أحداث سنة ١٤٥٣م، أقسموا علىٰ المصحف بان المسـيحيين استسلموا وحصلوا علىٰ عهد الحماية (رونسيمان ١٨٩). كما يوضح ليبير، يمكن للسـلطان، من خلال عمل تعسـفي، أن ينتهك أحكام العهد الـذي عقده. لكـن بهٰذا الفعل، فإنه لا يحدث فيه أي ضـرر، ويبقىٰ دائمـاً علىٰ ما كان عليـه مـن قبل(٢٦). "بل إن"الشـريعة المقدسـة، " فـي الحقيقـة، "... تحمي رعاياه المسـيحيين مـن كل مجهوداتـه لإخضاعهم لنفـوذه بالقوة" (ليبيـر ٢٦). لكن يجب التأكيد بأن هٰذا فقط واحد من رأيين إثنين لسليم الأول.وكما تعترف روسيتا غراديفا:

> "ينقسم الكتاب الأرثوذكس المعاصرون في تقييمهم لعلاقات السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) برعاياه المسيحيين. فبعضهم يصفونه بالجائر الذي أمر بمصادرة جميع الكنائس بإسطنبول وتحويلها إلىٰ مساجد، علاوة علىٰ إجبار المسيحيين بالقوة علىٰ تغيير دينهم، وهو أمر تم إبطاله من قبل الصدر الأعظم.... أما الآخرون فإنهم يتكلمون عنه باعتباره مانحـاً سخيـاً ... وحامياً للأديرة في جبل آيثوس وغيره" (١٩١ حاشية، ١١).

باعتبار أن سليم الأول (حكم ١٥١٢-١٥٢٠م) حاول إبادة كل أنصار آل بيت النَّبيّ في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فإنه من الصعب الدفاع عنه. من الممكن جـداً أن يكون قـد ابتدأ حكمه كحامي ومحسـن لرعاياه المسـيحيين. بعد نجاحه في اسـتئصال المسلمين الذين لم يكونوا متفقين مع آرائه، يمكن أن يكون سليم الأول قد قرر أن يحقق مزيداً من التجانس والوحدة من خلال الضغط علىٰ جميع غير المسلمين لاعتناق الإسـلام. إن كان هٰذا هو الحال، فإن سـليم الأول كان استثناء للقاعدة. لكن

بالإجمال "أثبت العثمانيون أنهم حماة جيدون للأماكن المقدسة... حيث أنشأوا بيئة مستقرة، وفصلوا بنزاهة في نزاعات الطوائف المسيحية، وتفهّموا الوجود المتزايد لليهود بفلسطين" (ويتكروفت: الصورة ٣٤).

بفضل تمكين الطوائف الدينية، وتعزيز هرميتها الكنسية، تمكن العثمانيون من تقوية أنفسهم. إذا كان الشعب محمياً وغير مهمش، إذا كان لدىٰ الشعب صوت ولعب دوراً نشيطاً في حكم نفسه بنفسه، فمن غير المحتمل أن يثور نتيجة عدم الرضا. لقد كان التسامح والإدماج وسيلتين لحفظ التضامن الاجتماعي. إن الإسلام لا يمنح الحقوق للمسلمين فقط، بل إنه يمنحها لغير المسلمين من دول وأمم أخرىٰ كذلك. وكمثال علىٰ ذلك، نشير إلىٰ 'اتفاقيات الإمبراطورية العثمانية' التي تنص علىٰ أن الأجانب غير المسلمين الذين يعيشون في تركيا غير خاضعين لقانون 'الشريعة'. لم يُخضع الأجانب لقوانين بلدانهم الخاصة فحسب، بل مُنح لهم حكم ذاتي جزئياً في الأمور المرتبطة بأحوالهم الشخصية الخاصة. عندما قام السفير الفرنسي أنطونيو ريمكون بزيارة معسكر عثماني في بلغراد سنة ١٥٣٢م، انبهر بشكل ملحوظ بالنظام السائد هناك:

> "إنه نظام مدهش، لا وجود للعنف. التجار، بل وحتىٰ النساء، يأتون ويذهبون في سلام تام، كما هو الحال في مدينة أوروبية. الحياة آمنة ورحبة وسهلة كما هو الحال في البندقية. العدالة تطبق بنزاهة إلىٰ درجة أنك تعتقد بأن الأتراك صاروا مسيحيين الآن، وبأن المسيحيين صاروا أتراكا". (مقتطف روبنسون ١٥٨)

نتيجة لتسامحها الديني، أصبحت الإمبراطورية ملاذاً للبروتيستانتيين الفرنسيين، والانجيليين، والصاحبيين Quakers والداعين الىٰ تجديد العماد Anabaptists واليسوعيين واليهود. كما كان الشأن بالنسبة للموريسكيين الذين فروا من الاضطهاد الديني بإسبانيا، تم منح حق الإقامة والعبادة لليهود والمسيحيين من شتىٰ الطوائف في الإمبراطورية العثمانية (كوفمان ١١١). وكبرهان علىٰ إلتزامهم بالحقوق الدينية، أيد العثمانيون الكالفينيين بترنسلفانيا والمجر، وكذلك في فرنسا

(١١١). لكـن يمكـن أن يكونـوا قد قامـوا بهٰذا لاسـتغلال الخلاف والصـراع داخل أوروبا المسـيحية، وبنفس القدر لخدمة الحرية الدينية. إذا ظل الأوروبيون منقسـمين فسيشـكلون تهديـداً أقـل 'للأمـة'. ويـا للمفارقة! كان هـٰذا هو نفس الأسـلوب الذي اسـتعمله الغـرب في سياسـاته مع العالم الإسـلامي. علـىٰ أية حال، قام الفيلسـوف السياسي الفرنسي جين بودين بوصف السلطان بالعبارات التالية:

> "لقد عمل سلطان الأتراك العظيم، بتفانٍ كبير بقدر تفاني أي أمير في العالم علىٰ تشريف ومراعاة الدين الذي تلقاه من أسلافه، ومع ذلك لم يكره الديانات الغربية الأخرىٰ، بل علىٰ العكس من ذلك سمح لكل شخص أن يعيش وفق ما يمليه عليه ضميره: نعم، زيادة علىٰ ذلك، وبالقرب من قصره ببيرا Pera سمح بتواجد أربعة أديان مختلفة، ألا وهي دين اليهود، ودين المسيحيين، ودين اليونانيين، ودين المسلمين. (ذكره كوفمان ١١١)

بل إن السلطان محمد الثاني (حكم ١٤٤٤–١٤٤٦م و ١٤٥١–١٤٨١م) منح استقلالاً ذاتياً أكبر لليهود، والروم الأرثوذكس، والأرمن، دون أن يثير أي تحديات لمقامه كمؤمن ورع (كرابيل ١٧٩). لقد بقيت 'الامتيازات' التي أعطت المسيحيين حقوقاً تجارية واسعة والوصاية علىٰ بعض الأماكن المقدسة، سارية المفعول منذ سنة ١٥١٧م الىٰ حين إلغائها بمعاهدة لوزان" سنة ١٩٢٣م. وكما بين محمد حميد الله (١٩٠٨–٢٠٠٢م): "لم يكن هناك قانون دولي في أوروبا قبل سنة ١٨٥٦م. ما كان يعتبر كذلك باعتراف الجميع كان مجرد قانون عام للأمم المسيحية"(السلوك الإسلامي IX). في علاقاتهم بالآخر، كان المسلمون العثمانيون متقدمين بأزيد من ألف سنة علىٰ الغرب. لكن عقب تأسيس الدولة التركية العلمانية تحت قيادة كمال أتاتورك (١٨٨١– ١٩٣٨م) سنة ١٩٣٢م، بدأ انتهاك حقوق غير المسلمين. وكما يوضح كارابيل، عندما "بدأت الإمبراطورية تضمحل، وعندما إنهارت أخيراً في بدايات القرن العشرين، أخذت العلاقات بين المسلمين والنصارىٰ واليهود منعطفاً نحو الأسوأ (١٧٩). لقد قصم سقوط الإمبراطورية العثمانية ظهر الأمة الإسلامية، ولم يسترد المسلمون عافيتهم منذ ذلك الحين. أكيد أن المجتمع الجديد الذي جاء

به الوحي الإسلامي لم يبلغ قمة الكمال، لكن مع ذلك، "كان مختلفاً عن أي شيء آخر شهده العالم قبل ذلك: متعدد الأعراق، متعدد الثقافات، متعدد الأديان، متفائلاً، متفتحاً، محباً للاطلاع، متسامحاً، متعلماً، كوزموبوليتانياً، موحداً بلغة واحدة، يطفح بعلوم وتكنولوجيا من أحدث طراز، متيقناً بأن نور الحضارة يسطع علىٰ أشده داخل ربوعه" (بارنارد ٩). الآن، يشعر الكثير من المسلمين بالعار ويهزون رؤوسهم خجلاً قائلين: "لكم كانت سقطتنا مروعة !"

بما أن هٰذا ليس لا المكان ولا الزمان المناسب لإقامة مقارنة نقدية بين القانون الإسلامي والأنظمة القانونية التي كانت مهيمنة في العالم الغربي في عهد النَّبيّ ﷺ، تكفي مع ذلك الإشارة إلىٰ أن الممارسة في أوروبا خلال الغزوات البربرية كانت قاسية ووحشية مقارنة بـ'الشريعة' [الإسلامية]. فقد كان من عادة [قوم] الهون، علىٰ سبيل المثال، أن يقتلوا أي واحد ارتكب جريمة كبيرة. وكانت السرقة تؤدي إلىٰ مصادرة ممتلكات السارق. حتىٰ الجرائم الصغرىٰ كانت تؤدي بأصحابها إلىٰ عقوبات وحشية تتضمن سحق العظام. وقد كانت 'الشريعة' [الإسلامية] حقاً، 'الشريعة' الحقيقية كما يفهمها العلماء المسلمون السائرون علىٰ نهج السلف الصالح طبعاً -وليس الشريعة في نسختها التكفيرية- عنصر إلهام لـ'قانون نابليون' (رغم محاولة بعض الباحثين إرجاع هٰذا القانون، إلىٰ القوانين الجستينية وإلىٰ مصادر أخرىٰ)، وبالتالي فهي بمثابة المرجع للقانون الغربي الحديث في فرنسا وكيبيك. ليس هناك أدنىٰ شك في أن الإسلام ساهم في تقدم الغرب وأن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ أضاء المصباح الذي ساهم في إنهاء 'العصور المظلمة' بأوربا. ولكن يجب ألاّ ننسىٰ بأن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ساعدت كذلك علىٰ ترقية الغرب البربري/ الجرماني حضارياً بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، محتفظة، بمفردها تقريباً، بالكثير من التراث الفكري من أواخر العصور القديمة؛ ولهٰذا، مثلاً، كانت تُعرف إيرلاندا بأنها "جزيرة القديسين والعلماء." والتراث المعرفي اليوناني-الروماني الذي ساعد الإسلامُ علىٰ إدخاله من جديد إلىٰ الغرب، كان طبعاً، وعلىٰ نطاق واسع، محفوظاً من قبل العلماء المسيحيين في الإمبراطورية البيزنطية. إضافة إلىٰ ذلك، يجب إقامة تمييز واضح

بين 'العصور المظلمة' والعصور الوسطىٰ 'العليا' حيث توحدت المسيحية، والتراث الفلسفي اليوناني الذي احتفظت به، والتراث المعرفي والأدبي الجرماني والسلتي الذي استمر علىٰ قيد الحياة، والتأثير الإسلامي المتعدد الأوجه، لإنتاج حضارة روحية حقيقية. منذ نصف قرن من الآن، بدأ التاريخ يُعاد كتابته من قبل أشخاص لا يعرفون بشكل جزئي أو كلي تقريباً بأن هناك شيئاً يسمىٰ بالقرون الوسطىٰ المسيحية، ويتصرفون كما لو أنهم يعتقدون بأن أوروبا كانت وثنية علىٰ نطاق واسع الىٰ حدود عصر النهضة. ما نسميه بالعصور المظلمة لم يكن مظلماً بالقدر الذي ترسمه العقلية العلمانية. لقد مضىٰ زمن كانت الأديرة العظيمة تحافظ وتطور فيه ما كان سيُعرف بالثقافة الغربية. بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، كانت الشعوب الأوروبية في تراجع، وعلىٰ ما يبدو، في حالة يأس؛ إن الحضارة المسيحية الناشئة هي التي أعادتها الىٰ الحياة، وكانت هذه العملية جارية قبل ظهور الإسلام. وقد بدأت هذه الحضارة المسيحية تظهر الىٰ الوجود إبان عهد الميروفنجيين، خلال ما يسمىٰ بـ'العصور المظلمة'؛ وقد نزعت الأكاذيبُ التي تحكي عن الميروفنجيين في كتب 'المعرفة' الزائفة مثل 'الدم المقدس' و'الكأس المقدسة' و 'شفرة دافينتشي'، إلىٰ طمس هذه الحقيقة. لكن بالتأكيد، لم يكن لذلك النوع من العصور الوسطىٰ أو النهضة الذي هو لدينا في الغرب أن يوجد بدون المساهمة الإسلامية العظيمة، والتي وسعت كثيراً معرفة أوروبا بأدب العصور القديمة.

من الواضح أنه عندما أتحدث عن 'الشريعة' باعتبارها قوة حضارية، فإنني لا أتحدث عن النظام المدان من قبل العلمانيين والمتطرفين الدينيين غير المسلمين، فضلاً عن بعض الناس ذوي النية الحسنة، مسيحيين وغير مسيحيين، ممن لا يعرفون كفاية كيف يميزون بين 'الشريعة' التقليدية ونسختها التكفيرية المحرفة، والموجودة حاليًا في السلطة في العديد من الأماكن.

بالنسبة للعديد من الغربيين الذين تلقوا معلومات خاطئة [عن المعنىٰ الحقيقي للإسلام]، يتمثل قانون الشريعة في العقوبات الجسدية القاسية مثل الجلد، وقطع يد السارق، ورجم الزانيات – رغم أن العقوبات الوحشية مثل الشنق، والسحل، والتربيع

كانت تمارَس في أوروبا الىٰ عصرنا الحالي – إضافة إلىٰ الامتناع عن إعطاء نفس المكانة القانونية لشهادة النساء في المحكمة إسوة بشهادة الرجال. كما أن 'جريمة الشرف' التي ينفذها أهالي النساء المغتصَبات تعتبر، في عقول الكثير من الناس، خطأ بأنها "قانون الشريعة" ولهٰذا ينبغي التمييز بين 'الشريعة'، التي تتضمن كل جوانب الحياة الإسلامية، مثل الصلاة، والصيام، والصدقة، وبعض العادات الثقافية التي ترجع الىٰ "زمن الجاهلية" قبل ظهور الإسلام. علاوة علىٰ ذلك، لابد من التمييز بين روح "الشريعة الحية التي استمرت في التداول بفضل جهود المدارس الفقهية التقليدية من خلال مواصلة عملية 'الاجتهاد' أو التأويل وتطبيق المبادئ الثابتة علىٰ الأزمان والظروف المتغيرة – والقراءة الحرفية، والجوهرية، والأصولية التي تتلقاها من قبل التكفيريين. بينما تحتوي الشريعة فعلاً علىٰ عقوبات صارمة علىٰ ما يعتبره الإسلام جرائم شنيعة، فإنها تتطلب أيضـًا أدلة دامغة، خلافـًا للتطبيق السلفي المعاصر لها حيث يمكن أحيانـًا أن يتم اعتقال أو حتىٰ إعدام شخص بدون أية حجة عدا 'إدانة' من شخص آخر.

فبسبب انتشار الأفكار التكفيرية في جميع أنحاء العالم تحت تأثير بعض الدول النفطية الخليجية، تحول المذهب السني الحقيقي في جزء كبير منه إلىٰ مذهب تكفيري، فقد صار الإسلام حاليـًا شيئـًا يُخشىٰ منه في المخيلة الشعبية في الغرب. عند كتابتهم عن ظهور الإسـلام، طلب الرهبان النساطرة، الذين ألّفوا 'حوليات سيرت'، من الله أن ينصر [هٰذا الدين الجديد] ويمكنّه من النجاح (٢٨٠/ ٦٠٠). لقد أكدوا بأن المسلمين، من بين كل الطوائف، هم من عاملوهم أحسن معاملة. "إنهم كرموا المسيحيين أكثر من أتباع أي دين آخر" (٣٠٨/ ٦٢٨). بالنسبة لهم، كان الحكم الإسلامي هبة من الله، وخاصة في حالة الإمام عليّ بن أبي طالب (حكم ٦٥٦–٦٦١م) الذي أتىٰ بازدهار كبير للكوفة (٣٠٨/ ٦٢٨). لكن مع كامل الأسف، لم يُقدَّم أي ثناء حيث يجدر الثناء وبقي الرجل الذي نشر السلام والعدل عبر العالم مذمومـًا بلا رحمة عند أولئك الذين استفادوا أكثر من أفكاره المتقدمة أيديولوجيـًا. حقـًا، في العالم المعاصر، صار الأسود أبيض، والأعلىٰ أسفل، والشر خيراً، والخير شراً. كما تنبأ النّبيّ مُحَمَّد ﷺ في القرن السابع الميلادي:"بدأ الإسلام غريبـًا وسيعود غريبـًا، فطوبىٰ للغرباء" (مسلم).

الفَصْل ١١

خُلاصات عَامَّة

خُلاصَات عَامَّة

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ ﴾ (٩:١٢)

من خلال هذه الدراسة للعهود التي كتبها النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ للطوائف المسيحية المختلفة في الشرق الأوسط، يمكن استخلاص عدد من الاستنتاجات. سواء تعلق الأمر بعهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي سيناء، أو مصر أو جبل الكرمل، أو عهوده لمسيحيي نجران وآشور وبلاد فارس، فقد تم توارث مواثيق الحماية هذه منذ فجر الإسلام إلىٰ عصرنا الحالي. وبسبب تجاهل تلك العهود من قبل أغلب المسلمين والمسيحيين، فقد عانت من الإهمال في أرشيفات المكتبات لعدة قرون. لقد آن الأوان لإظهار نورها في هٰذا الزمن المظلم الذي حاد فيه أصحاب الرسالات السماوية من يهود ومسلمين ومسيحيين عن تقاليدهم المقدسة المتمثلة في التسامح والتعايش. لكن، ليس من قبيل الصدفة أن يتم التعتيم علىٰ عهود النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ طوال هٰذا الوقت المديد. فمن الأكيد أنه لم يكن في مصلحة الإمبرياليين، الذين كرسوا أنفسهم لإحداث التفرقة بدل التوحيد، أن يقوموا بنشر مثل هذه التعليمات الأخلاقية الرفيعة من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وهٰذا اللوم موجه أيضاً للعلماء المسلمين بسبب تورطهم في هٰذا التواطؤ المركب من الجهل والصمت. انطلق الإسلام كحركة توحيدية تحتضن اليهود، والمسيحيين والمسلمين، وتركز علىٰ التشابه الباطني بدل التطابق الظاهري، لكنه تطور حالياً في اتجاه مختلف جداً عن تعبيره الأصلي.

إن مسألة 'الأصالة' شيء لا مناص منه في الأوساط العلمية. لكن مثل هٰذا التأكيد لا يعدو أن يكون أحياناً مجرد مظهر من مظاهر السلطة التي يسعىٰ من خلالها المثقفون الذين هم في خدمة النظام العالمي العلماني أن يمارسوا تأثيراً علىٰ الإسلام

والمسلمين، كما لو أن لهٰؤلاء العلماء سلطة تحديد الحقيقة لأتباع الوحي الإلٰهي. رغم أن عهود 'النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم' تتضمن بعض الاختلافات التي يعود سببها إلىٰ عيوب ناتجة عن عملية النسخ، فإن مضمونها منسجم تمام الانسجام مع التعاليم الحقيقية للإسلام. من خلال منهج تحليل المحتوىٰ، يبدو أن العهود كلها صحيحة، ولو أنها لا تتوفر علىٰ تسلسل الروايات، فإن هٰذا ليس شرطـًا لتأكيد أصالتها بما أننا نتعامل مع مصادرأولية. أما بالنسبة للوائح الشهود، فإنه من الممكن جداً أن يكون هٰؤلاء الأشخاص حاضرين خلال توقيع تلك العهود، لكن أغلبهم لم يكونوا [بالضرورة] مسلمين في ذلك الوقت، كان البعض منهم ميتـًا، والآخرون لم يكن بالإمكان تعريفهم في أي من أعمال 'علم الرجال' الذي يقدم معلومات عن ناقلي الحديث النبوي. علىٰ ما يبدو، تم إلحاق لوائح الشهود بالعهود قرونـًا بعد عقدها لتلبية طلبات علماء الحديث ولإعطائها قدراًأكبر من القوة أو الصدقية. رغم كل شيء، لا يتضمن 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي بلاد فارس' شهوداً بالمرة – وهٰذا ما يوحي، ربما بفكرة أنه سابق لجميع العهود الأخرىٰ.

إلىٰ جانب قضية صدقية العهود، يجب أيضـًا تناول مسألة قابليتهاللتطبيق، فبعض الباحثين، من أمثال السير بول رايكوت، يعترفون بأصالة 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم'، إلا أنهم يصرون بأن ذلك لم يكن سوىٰ خدعة دبرها المسلمون في الأيام الأولىٰ للإسلام عندما كانوا ضعفاء وكانوا يخشون أن يتعرضوا لهجوم كل من المشركين والمسيحيين. ولتفادي القتال علىٰ جبهتين، قام النبي، كما يُزعم، بعقد سلام كاذب مع المسيحيين، لكنه خرقه حالما صارت جيوشه قوية بما فيه الكفاية (رايكوت ١٠٢). ويقول آخرون بأن عهود النَّبيّ لاغية وباطلة لأن المسيحيين انتهكوا بنودها مراراً وتكراراً علىٰ مرور الزمن من خلال مناصرتهم لأعداء الإسلام، سواء في العصور القديمة أو الحديثة. هذه الحجج مبنية علىٰ أسس هشة، ويمكن دحضها بسهولة بناء علىٰ وقائع تاريخية. من المفترض أن 'عهد محمد لمسيحيي العالم' تم إبرامه في العام الرابع من الهجرة. ويشهد التاريخ بأن رسول الله ﷺ كان منهمكـًا في توقيع العهود مع أصحاب كل الأديان خلال عامه الأخير في هذه الحياة الدنيا. ولا

يمكن لمجرد قيام بعض يهود المدينة بنقض مواثيقهم أن يمنع النَّبيّ ﷺ من إصدار عهود حماية لصالح طوائف يهودية، مثل عهود مقنة/ أيلة. لم يكن من سوابق النَّبيّ ولا من شيمه الغدر الانتهازي والنفاق، كما يزعم رايكوت، بل كان يلتفِت إلىٰ الناس بخفض جناح الرحمة لهم.

فسواء اعتبر المرء عهود النَّبيّ للمسيحيين من سيناء، ومصر، والشام، وآشور ونجران، وبلاد فارس صحيحة، أو ضعيفة أو زائفة، فإنها تقدم الإسلام في ضوء جديد تماماً. إذ كما لا يمكن لأي ملاحظ موضوعي إلا أن يقر، كانت المعايير التي أرستها هذه العهود ببساطة سامية أخلاقياً، وإجتماعياً، وسياسياً، واقتصادياً. فلم تكن عادلة ورحيمة في سياق زمانها فقط، بل إنها متقدمة ومتفوقة علىٰ الكثير من أشكال الأنظمة الاجتماعية في عصرنا الحالي. إذا كان الجنرال خوان بيرون Juan Peron (١٨٩٥-١٩٧٤) قد عبر عن موقف أكثر استنارة من مواقف زعماء العديد من الدول بل وحتىٰ المنظمات مثل الأمم المتحدة، بخصوص الحقوق التي اقترحها في الدستور الأرجنتيني لسنة ١٩٤٩م فيما يتعلق بالعمال، والعائلات، وكبار السن، والنساء، والأطفال والتربية، والممتلكات والرعاية الصحية، فإن النَّبيّ مُحَمَّد (٥٧٠-٦٣٢م) كان عملياً فريداً في عصره أوأي عصر آخر من خلال إقامته للعدالة الاجتماعية المبنية، ليس علىٰ المبادئ الثورية أو "التقدمية" التي غالباً ما يُتغنىٰ بها في عصرنا، بل علىٰ القيم الروحية السامية.

هناك من سيجادل بأن 'ميثاق القديسة كاترين' و'ميثاق نجران'، اللذين ورد ذكرهما عند ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م) أصيلان وصحيحان، بينما تم التلاعب بالمواثيق الأطول منهماوالتي درسناها في هٰذا العمل. هٰؤلاء الباحثون يميلون إلىٰ الاعتقاد بأن النسخ القصيرة التي أوردها ابن سعد تطورت لاحقاً إلىٰ العهود التي نملكها حاليا نتيجة درجات متفاوتة من التحريف علىٰ أيدي المسيحيين. لكن السؤال مرة أخرىٰ، ينبغي أن يكون: لماذا يتلاعب المسيحيون بالنصوص، علما بأن المواثيق التي أوردها ابن سعد تحتوي فعلاً علىٰ نفس المواد الموجودة في العهود؟ أما المواد الإضافية فهي من قبيل الزخرفة الأدبية لا أقل ولا أكثر. إذا كانت العهود صحيحة، فقد كان

رهبان جبل سيناء ومسيحيو نجران، إذن محميين فعلاً وبشكل لائق من قبل النَّبيّ ﷺ. من الممكن جداً أن يُطرح للجدل، كما فعلت هنا، أن المواثيق التي ذكرها ابن سعد هي مجرد ملخصات للعهود الكاملة. إذا كانت العهود محرّفة، فمن يكون يا ترىٰ هٰذا المسيحي الذي يصف النَّبيّ بكونه الحاكم الشرعي للعالم بأسره؟ وأي مسيحي هٰذا الذي يؤكد بأن قانون موسىٰ لا يزال صالحـاً؟ ولماذا ليس هناك أي دفاع عن العقيدة المسيحية؟ علاوة علىٰ هذه النقاط، هناك أيضا قضية التأريخ.

يقال إنه قد تم العثور علىٰ عهد محمد لمسيحيي نجران في مكتبة سنة ٨٧٨/ ٨٧٩م. وبالتالي، فقد أعيداكتشافه فقط بضعة عقود بعد وفاة ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م). وربما لم يكن ابن سعد قد تمكن من الوصول إلا إلىٰ أجزاء من العهد. ورغم أنه من الممكن أن يكون بعض المسيحيين قد حصلوا علىٰ 'عهد نجران' ثم مططوه ليتناسب مع مصالحهم الخاصة، منتجين بذلك عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي نجران، فإن الحيز الزمني يبدو قصيراً إلىٰ حد الاستحالة. لا بد أن تكون المعلومات حول 'عهد نجران' الذي كان قد نُشر حديثـاً، حاضرة في أذهان العلماء المسلمين. وكان من شأن الاستحضار الفجائي لنسخة ممطَّطة بشكل مفرط أن لا يمر بدون إثارة الانتباه. قد يصر بعض الباحثين بأن قصة حبيب الراهب واكتشافه لعهد النَّبيّ كانت مجرد قصة تم اختلاقها من أجل توفير إطار مرجعي. وسيؤكدون بأن 'حوليات سيرت'، التي وُجد فيها العهد يرجع تاريخها إلىٰ القرن الحادي عشر الميلادي. لكن معظم الباحثين يعتقدون بأن تاريخ هٰذا العمل هو القرن التاسع، وهو ما يدعم حججي. بما أن قرب النَّصّ إلىٰ مصدره يزيد من احتمال أصالته وصحته، فتجدر الإشارة إلىٰ أن 'عهد النَّبيّ لمسيحيي نجران' يعود تاريخه إلىٰ نفس الفترة التي ظهرت فيها روايات الحديث للبخاري، ومسلم، والنسائي، أي القرن التاسع؛ وهو سابق لنصوص 'الحديث' التي قام بجمعها ابن خزيمة، والشريف الرازي، والصدوق، والكليني، التي يعود تاريخها إلىٰ القرن العاشر، إضافة إلىٰ أعمال مفيد والطوسي التي تعود إلىٰ القرن الحادي عشر. من حيث الأهمية التاريخية يتميز 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران' بأن لديه وزن أثقل بكثير حتىٰ من أعمال الحديث الموسوعية للحر العاملي والمجلسي التي تم جمعها في القرن السابع عشر الميلادي.

ليس هناك فقط رفض من قبل بعض العلماء المسلمين لأية أحاديث تم نقلها عبر قنوات مسيحية، بل هناك آخرون مستعدون لرفض أية رواية، بغض النظر عن صحتها، إذا بدت بأنها تتضمن أي شيء يمكن أن يدعم مطالب الشيعة بخصوص خلافة النَّبيّ ﷺ. هكذا كان حال 'ميثاق مقنة' الذي كتب فيه النَّبيّ ﷺ بأن "لا أحد يحكمكم عدا شخص من بينكم أو عضو من آل بيت النبي" (قرشي ١٨٢). وقد تم إعتبار هٰذا الميثاق أصيلاً من قبل ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م) والبلدوري (توفي ٨٩٢م)، فضلا عن عدد كبير من المستشرقين من أمثال هرشفيلد، وياشنكي، وراشبريار (قريشي ٣٥٠). كما نقرأ لجيبون (١٧٣٧-١٧٨٤م)، "لقد تم التصديق علىٰ "شهادة securitatis aïlensibus من قبل أحمد بن جوزيف..." (٢٥٩ م ١٤٨). وقد أشار إلىٰ الميثاق أيضاً غريغوري بار هيبرايوس أبو الفرج (١٢٢٦- ١٢٨٦م)، آخر كاتب سيرياني عظيم، ويُعرف باللاتينية باسم 'أبو لفرجيوس'. لكن ملاحظة لجيبون تشير إلىٰ أنه كان كبير الأساقفة عند اليعقوبيين، مما يعني أن هٰذا يجعله غير جدير بالثقة (٢٥٩، م ١٤٨). إذا أمكن رفض أعمال أبي الفرج علىٰ أساس أنه كان مسيحياً، فإن أعمال جيبون، ومحرريه، وجميع زملائهم يمكن رفضها علىٰ حد سواء بسبب أنهم كلهم نصارىٰ ويهود. وفي نظر مسيحيين أكثر موضوعية، مثل هييرمونك جوستين، من سيناء، فإن 'ميثاق مقنة' يعتبر حقيقة تاريخية (٥٠). لكن، علىٰ الرغم من كل هذه الحجج، فقد رُفض الميثاق من قبل ابن القيم الجوزية ١٢٩٢/ ٩٣ -١٢٩٦م)، ومحمد حميد الله (١٩٠٨-٢٠٠٢م)، ومحمد صديق قريشي بسبب الوجود المفترض لـ"عناصر شيعية" (قريشي ٣٤٨-٣٥١)، الأمر الذي يبين انتشار الآراء والأحكام المسبقة أيضاً عند بعض العلماء المسلمين السنة.

إن الحجج التي قدمها قريشي متناقضة تماماً. فهو يدعي بأن 'ميثاق مقنة' أعدّه اليهود العباسيون(٣٤٩) خلال حكم المتوكل، ثم يقول إن اليهود الفاطميين هم من قاموا بتلفيقه (٣٤٩- ٣٥١). لكن المتوكل لم يحكم إلا ما بين سنتي ٨٤٧ و٨٦١م، في حين توفي ابن سعد سنة ٨٤٥ م. وبما أن ابن سعد مات قبل حكم المتوكل القمعي، فمن المستحيل أن يكون قد قام بتدوين أي ميثاق يُفترض أنه أُعدّ ليحمي

اليهود من طغيان المتوكل. ويزعم قريشي بأن "البلاذري أضاف عدة أشياء في نص ابن سعد"(٣٤٩). لكن، كما يحكي قريشي نفسه، كان البلاذري يدعي بأنه حصل علىٰ نسخة من الميثاق من شخص كان قد رآها في مقنة. ويجدر التذكير بأن البلاذري نفسه كان قد سافر عبر أنحاء سوريا الكبرىٰ والعراق بحثاً عن معلومات تاريخية. فضلاً عن ذلك، كان البلاذري شخصاً معترفاً به كمصدر موثوق به فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي المبكر. ولئن كان صحيحاً أن 'رسالة الحماية النبوية،' التي وُجدت في جينيزا القاهرية وثيقة مزورة، مستوحاة ربما من 'ميثاق مقنة'، فإن هٰذا لا يجعل 'ميثاق مقنة' مزوراً أيضاً. إذا كانت هذه هي الطريقة التي يعمل بها بعض العلماء، فإنهم سيرفضون بالتأكيد 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحي العالم' علىٰ أساس أن رسول الله تحدث عن نفسه، وعائلته (أهلي)، وخلفائه (خاتمي) مما سيجعلهم في شك من وجود تحيز شيعي. لكن الباحثين الموضوعيين، والعلماء الدينيين، والعامة من الناس لن يسمحوا لأنفسهم بأن يغيروا آراءهم نتيجةلهذه الأفكار المضلِّلة.

مهما حاول المسلمون 'الليبراليون' و'العلمانيون' و'المدنيون' الإصرار بأن الدولة الإسلامية شيء وهمي (طيبي ١٤٥)، وبأن نظام الحكم الإلٰهي لم يكن أبداً موجوداً في التاريخ الإسلامي (١)، وبأن القانون الإسلامي إختراع حديث (٤)، وبأن الدولة الإسلامية المبنية علىٰ 'الشريعة'، تعكس نظاماً شمولياً (٢١٥)، فإن القرآن، فضلاً عن عهود النَّبيّ مُحَمَّد ومواثيقه يظهرون مدىٰ جسامة أخطاء معلوماتهم. إن كلمة 'حـــكـم' من الجذر ح - ك -م، والتي تشتق منها كلمة 'حكومة' مذكورة ١٩٢ مرة في القرآن (شاهين ١٨). ويأمر القرآن المؤمنين بأن "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" (٤:٥٩). إن نظرية الحكم في الإسلام مستمَدَّة مباشرة من القرآن، والسنة، وأفعال وإجماع المسلمين الأوائل (١٩٩). ويؤكد المنظرون السياسيون المسلمون دوماً بأن الحكومة، الخلافة أو الإمامة، كانت "مؤسسة ضرورية لتنفيذ بعض الوظائف الدينية والدنيوية" (٢٠١). و بالفعل، فإن "المنظرين السياسيين المسلمين يعتقدون بأن الإسلام... جاء إلىٰ الوجود ليقيم دولة وحكومة" (٢٠١).

لا يمكن إنكار حقيقة أن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ أنشأ دولة إسلامية في المدينة؛ وكان

لها دستور وجيش. وطوال عقد من الزمن من حكم رسول الله، كبرت الدولة الإسلامية وتوسعت حتىٰ ضمت إليها شبه الجزيرة العربية كلها. وكانت القوىٰ المحيطة بجزيرة العرب تنظر إلىٰ النَّبيّ ﷺ باعتباره زعيماً، وحاكماً. لم يكن مجرد شيخ قبيلة أو قائد عسكري. لم يكن النَّبيّ ﷺ يعتبر نفسه مجرد حاكم لجزيرةالعرب، بل كان يفكر في ضم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وبالفعل، كما قال هو نفسه، "إني قد أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض" (عن قريشي ٣٠). كما قال أيضا: "لقد أعطاني الله ملك الأرض كلها. لقد رأيت الأرض شرقها وشمالها حيث ستقام حكومة أمتي" (عن قريشي ٣٠). لم يكن النَّبيّ ﷺ يقوم فقط بغارات، بل بغزوات وفتوحات، وحيثما غزا كان يعين وُلاة، ويفرض نظاماً قضائياً، ويوفر حماية عسكرية من جيشه، ويدخل نظاماًجبائياً، ويوفر خدمات اجتماعية حكومية مُموَّلة من بيت المال. وكل هذه المسائل تعتبر من السمات الأساسية للدولة.

لقد كان بسام طيبي (ولد ١٩٤٤م) علىٰ حق في قوله إن "الحركة الإسلامية [أو الإسلاموية] ليست هي الإسلام" (١). فالإسلام، علىٰ الرغم من كل شيء ديانة، وثقافة، وحضارة. لكن طيبي، ومسلمين آخرين كثيرين سواء كانوا محافظين أو علمانيين، مخطئون في تقليلهم من دور السياسة أوإنكاره. فحتىٰ إن لم يكن الإسلام سياسة فقط، فإنه نظام شامل تلعب فيه السياسة دوراً حاسماً. إن الإسلام ليس كاملاً، ولا يمكن أن يكون كذلك، في غياب السياسية، تماماً كما لا يكون الإسلام - ولا يمكنه أن يكون - كاملاً بدون جميع فروعه الأخرىٰ. فلكي يعبر الإسلام عن نفسه بشكل كامل وشامل، ولكي يتقدم المسلمون علىٰ جميع المستويات، لابد من بناء دولة إسلامية ومجتمع إسلامي. وإلا فما فائدة كل الشرائع التي جاء بها النَّبيّ ﷺ من جبل حراء؟ إن القوانين والأحكام الواردة في القرآن والسنة لا تنطبق فقط علىٰ الأخلاق الشخصية والواجبات الدينية، إنها تتضمن القانون الجنائي، والقانون المدني، والقانون التجاري، والقانون البيئي، والقانون الدولي، علاوة عن أي فرع قانوني آخر يمكن تصوره. وكل هذه القوانين لا يمكن تطبيقها إلا في إطار دولة إسلامية. فلم يكن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ مجرد شخصية روحية. إذ خلافا للمسيح عيسىٰ، الذي قال بأن

مملكته ليست من هٰذا العالم، فإن مملكة رسول الله امتدت لتشمل هذه الحياة الدنيا والحياة الأخرىٰ. لقد كان نبيـاً كاملاً وشاملاً:كان مرشداً روحيـاً، ومُشَرّعـاً، وقائداً، وحاكمـاً.

إذا كان النَّبيّ قد قام فعلاً بإنشاء دولة إسلامية، كما يؤكد ذلك 'دستور المدينة' والعدد الكبير من مواثيقه وعهوده، فما هو الشكل الذي اتخذته؟ إذا كان معاصرو مُحَمَّد ﷺ يعتبرونه ملكـاًأو قائداً عسكريـاً ذا طموحات إمبريالية، فإن هٰذا كان هو النظام السياسي الوحيد الممكن تصوره آنذاك. إن الباحثين المعاصرين يطبقون علىٰ رسول الله نفس المنهج الضال عن طريق إسقاط ايديولوجيات سياسية متباينة علىٰ شخصيته، مثل المَلكية، والماركسية، والشيوعية، والاشتراكية القومية، والكتائبية phalangism، والرأسمالية، والسوق الحرة، والديمقراطية البرلمانية ! إن الإسلام ليس واحداً من كل هذه الايديولوجيات المذكورة أعلاه. إن الإسلام يتجسد في نظامه الفريد [القائم] في حد ذاته. فبدل القول إن في الإسلام عناصر ماركسية، أو ليبرالية، أو رأسمالية، سوف يكون من الأجدر والأشرف وصف هذه الايديولوجيات الأوربية باعتبار أن لها بعض القواسم المشتركة مع الإسلام. فلا ينبغي أن نجعل النظام الإسلامي يتناسب مع قوالب جناح اليمين أو اليسار. بل علىٰ المسلمين أن يقبلوا كل ما يدخل في القالب الإسلامي. وكل ما هو زائد أو موجود خارج هٰذا القالب فهم أحرار في اطراحه جانبـاً.

إذا كان من قبيل 'الموضة'خلال الستينيات، والسبعينيات والثمانينيات، وجزء من التسعينيات، أن يتم تصور إسلام اشتراكي، فإن الاتجاه منذ ذلك الوقت صار يتمثل في إظهار أن الإسلام يتوافق مع 'الديمقراطية'. إذ يُعتقد أنه من اللازم أن يرقىٰ الإسلام إلىٰ معايير الغرب الحديث 'المتفوقة'، في حين يمكن الحديث عن طرح أحسن لو قمنا بتقويم معاكس. إن العالم الغربي، بسبب تلاشي جذوره المسيحية، يرتكز حاليـاً علىٰ المادية، والفردانية، ومذهب المتعة hedonism، علىٰ الرغم من تمكنه سابقـاً من إشاعة بعض القيم الإنسانية المستمدة من الوحي المسيحي في آخر المطاف. ونتيجة لذلك، وبواسطة المادية كأيديولوجية وكأساس لتطوير عملاق للتكنولوجيا، فإنها

قد دفعت الكون بأكمله إلىٰ حافة الدمار ـ رغم أن مستعمرات الغرب السابقة، وفي محاكاة لأسيادها السالفين، تلعب دورهم بالتأكيد. وهٰذا ليس نموذجاً يمكن لأي إنسان عاقل أن يسعىٰ لتقليده، ولا يعني هٰذا أن لدىٰ العالم الإسلامي المعاصر بديلاً أفضل لتقديمه. لكن مرة أخرىٰ، فإن الأنظمة المطبقة في العالم الإسلامي، سواء كانت ديكتاتوريات عسكرية أوديمقراطيات علمانية، تبقىٰ ذات أصول غربية علىٰ نطاق واسع. إذا تحدثت عن "الديمقراطية"، بين مزدوجتين، فهٰذا ليس لأنه من غير المناسب الحصول علىٰ حكومة شعبية منتخبة بشكل حر من قبل الشعب. إذا أعطي الشعب كل الفرص للقيام باختيار انتخابي حر ومستنير بخصوص برنامج سياسي، فإن أية حكومة تم إختيارها علىٰ هٰذا الأساس لديها الحق في أن تصف نفسها بأنها "شعبية" و"منتخبة ديمقراطيا". لكن للأسف، فإن الحكومات التي تدعي حالياً بأنها "ديمقراطية" لا ترقىٰ إلىٰ هٰذا الوصف؛ إذ أنها لم تُنتخب بطريقة ديمقراطية حقيقية. ففي العام الذي تم فيه نشر هٰذا الكتاب[أو بالأحرىٰ النسخة الإنجليزية منه]، صرح الرئيس الأمريكي السابق جيمي كاتر، الذي قد يكونأشهر رئيس مسيحي خلال القرن العشرين، بأن الولايات المتحدة لم تعد بعد دولة ديمقراطية. وكما أوضح نعوم تشومسكي، والعديد من ذوي العقول النيرة الأخرىٰ، فإن الأنظمة التي تتظاهر بأنها ديمقراطية، لكنها غير ذلك في الواقع، ليست ماهرة في إخفاء طبيعتها الحقيقية. إذ نتيجة توجيه اجتماعي واسع النطاق، ينفَّذ غالبا من خلال وسائل الإعلام، يقوم النظام القائم بإعطاء الناس وهم "الاختيار الحر"، في حين أنهم، في واقع الأمر، مُوجَّهون للقيام باختيار محدد سلفاً، أو أن "يختاروا" بين "بديلين" لا يوجد بينهما أي فرق ملموس. ورغم ما يبدو من أن وسائل الإعلام تقدم وجهات نظر متنوعة، فإن هذه الأخيرة تبقىٰ مع ذلك محصورة داخل نطاق ضيق من الرأي، نظراً لأن التحكم في البث الجماهيري للأخبار أو المعلومات يبقىٰ مركزاً بشكل واسع في أيدي النخبة الحاكمة ووكلائها. وكمثال علىٰ هٰذا النوع من الاختيار الوهمي، يمكن أن نسوق هٰذا المثل المرتبط بالانتخابات الرئاسية بالولايات المتحدة. فإلىٰ حد ما بسبب توريطه للولايات المتحدة في ما يبدو أنها حروب خارجية دائمة في العراق وأفغانستان وغيرهما والكشف بأن "أسلحة الدمار الشامل" التي إدعىٰ جورج بوش وفريقه

بأن صدام حسين كان يملكها لم تكن موجودة قط، بل تم اختلاق وجودها الوهمي بواسطة تقارير استخبارية زائفة –غادر "المحافظ" جورج بوش كرسي الرئاسة كأحد الرؤساء الأقل شعبية في التاريخ.وقد خلفه في منصبه الرئاسي "الليبيرالي" باراك أوباما، الذي كان شعار حملته الخالي من المعنىٰ نسبياً هو "التغيير الذي يمكن أن نضع ثقتنا فيه". وقد تم انتخاب أوباما بسبب أنه، إلىٰ حد كبير، قدم نفسه علىٰ أساس أنه بديل أيديولوجي لبوش. لكنه، حتىٰ كتابة هذه السطور، يبذل كل ما في وسعه لتوريط الولايات المتحدة في الحرب الأهلية السورية، ضد رغبات الغالبية العظمىٰ من الشعب الأمريكي؛ وعلىٰ ما يبدو فإن مشروعه يشمل إيران أيضاً. إضافة إلىٰ ذلك، وعلىٰ الصعيد الاقتصادي، قام كل من بوش وأوباما بتدعيم برنامج TARP، [أو خطة إنقاذ النظام المالي الأمريكي] الذي أنقذ وول ستريت، تاركاً قطاعات واسعة من الشعب الأمريكي تعاني الفقر، ربما للأبد. وفي ضوء هذه الحقائق، أي اختيار "ديمقراطي" حقيق يبقىٰ بين الليبيرالي والديمقراطي؟ (كمثال واحد عن الكم الهائل من الكتابات حول موضوع التحكم المنظم والحكومي في وسائل الإعلام، انظر كتاب 'صناعة الإذعان' لنعوم تشومسكي).

إن كلمة 'الديمقراطية'، كما نستعملها حالياً، تعني طائفة من المسائل المختلفة، التي لا تنسجم فيما بينها دوما. إذ نعتبرها كمرادف "للمساواة"، و"للتصويت الجزئي أو الشامل" أو لحكم الأغلبية. ويمكن للمساواة نفسها أن تعني الكثير من الأشياء المختلفة: المساواة في ظل القانون؛ معاملة الناس ذوي مهارات وقدرات وفضائل مختلفة وكأن مهاراتهم وقدراتهم وفضائلهم متساوية فعلاً، إلىٰ جانب محاولة ترسيخ هذه المساواة التي لا وجود لها؛ والمساواة في الفرص الاقتصادية، وهو شيء مثالي يستحيل بلوغه، لكننا قد نحاول فرضه بقوة القانون، وبنتائج متباينة. أما بالنسبة للاقتراع الجزئي أو الشامل، فإننا نميل إلىٰ اعتباره الشكل الأهم أو الوحيد لممارسة حق الانتخاب، رغم أن هناك بالتأكيد أصنافاً أخرىٰ عديدة من طرق الإدماج الاجتماعي، بعضها بنفس القدر من أهمية حق التصويت، أو حتىٰ أكثر أهمية منه – حق الملكية، مثلا، أو القدرة علىٰ إيجاد سكن ومورد رزق لعائلاتنا.

أما في ما يخص "حكم الأغلبية"، فبقدر ما يصير هٰذا المبدأ أكثر رسوخاً بقدر ما يضيق المجال علىٰ الحق في تحقيق المساواة في التقاضي أو في الفرص الاقتصادية أو الحقوق الاجتماعية للأقليات.

ودولة مُحَمَّد ﷺ، وإن لم تكن دولة ديمقراطية في حد ذاتها، فإنها كانت تحتوي فعلاً علىٰ بعض العناصر الديمقراطية. لقد كانت توفر بالتأكيد قدراً كبيراً من الاندماج والمساواة في ظل القانون. لكن ما هي الحقوق الانتخابية التي أرساها النَّبيّ ﷺ؟ يبدو أن الخليفة الأول، أبا بكر، قد تم "انتخابه" عن طريق نوع من "المبايعة" acclamation؛ لكن هذه العملية اقتصرت علىٰ دائرة صغيرة من الأشخاص الذين كانوا يتقاسمون نفس النظرة إلىٰ الخلافة وأقصت مشاركة الأطراف الأخرىٰ. ويمكن اعتبار زمالة 'العلماء' نوعاً من الديمقراطية. ولاشك أنه كانت هناك بعض العناصر الديمقراطية في أنماط السلطة القبلية والإدارات المدنية. ومع ذلك لا يمكن إنكار أن الإسلام هو نظام ثيوقراطي، من نواح عديدة، وليس نظاما "هيروقراطيا"، بمعنىٰ أنه قائم علىٰ حكم رجال الدين؛ لكنه نوع من الثيوقراطية التي تختلف بشكل جوهري عن الديمقراطية الغربية الحديثة وذلك النوع القديم من الثيوقراطية الذي كانت تمثله مصر الفرعونية، علىٰ سبيل المثال.

وغالباً ما يتم تجاهل حقيقة أنه في إسلام ما بعد النبوة، ليس الخليفة، أو السلطان، أو الإمام، أو الولي الفقيه هو من يحكم: بل الله هو الذي يحكم عن طريق شريعته. وبسبب إهمالهم لهٰذا المبدأ، فقد وضع المسلمون السلطة، ومنذ زمن طويل جداً، في أيدي شخص واحد، رجل قوي، بينما ينبغي أن تكون أقوىٰ السلط وأثبتها هي شريعة الإسلام. في النظام الإسلامي، يُعتبر القائد خادماً للإسلام. إن مسؤولية الحاكم، الذي يمارس وظيفته باسم النَّبيّ أو نيابة عنه، تتجلىٰ في ضمان تطبيق شرع الله. أما هو أو هي فليس ذا أو ذات أهمية كبيرة. ولا ينبغي أن يتقلد هذه المسؤولية شخص واحد. في الحقيقة، يمكن أن تقوم محكمة عليا للعلماء المسلمين بالتأكد بأن جميع آليات الحكم تعمل بشكل صحيح. ما دام الحكام المنتخبون لا ينتهكون المبادئ القانونية والأخلاقية الإسلامية، فإنهم أحرار في ممارسة الحكم بالطريقة التي

يرونها مناسبة. وينبغي أن يكون هٰؤلاء الحكام فعلاً قد انتُخبوا من قبل الشعب، وأن يكونوا خاضعين لمساءلة الشعب، وأن يُغيَّروا، إن اقتضت الحاجة، من قبل الشعب. أما عن القوانين المعتمدة في البلد، فينبغي دومـاً أن تبسط الأمور للشعب في إطار ما هو مسموح. إن التفسيرات الأكثر تسامحـاً، وليس الأكثر صرامة، للقانون هي ما ينبغي أن يكون معياريـاً. كل ما ليس محظوراً بشكل واضح، فهو إذن مباح.

رغم أن الله هو الذي اختار النَّبيّ مُحَمَّداً ﷺ، فإن هٰذا الأخير هو أيضـاً كان يطالب أتباعه بإقامة مراسيم سنوية لتقديم الـولاء، كما كان يفعل الكثير من الخلفاء الأوائل. ولم يكن هٰذا شيئـاً مفروضـاً أو إجباريـاً، ولم يكن فقط من قبيل الرسميات، كما هو الشأن في المملكة المغربية علىٰ سبيل المثال. لقد كان ذلك مناسبة للشعب أن يعبر عن تأييده، أو عدم تأييده، للقائد الذي يتولىٰ منصب الحكم. ولم يكن الحكام المسلمون الأوائل يقومون بالتجنيد الإجباري للجيوش، بل كانوا يتشاورون مع زعماء القبائل في سعيهم لكسب التأييد. لقد كان لدىٰ الشعب صوت وتصويت في عهد الخلفاء الأربعة الأوائل. وعلىٰ العكس من الديمقراطية الغربية، التي قد تكون بمثابة طغيان الأغلبية علىٰ الأقلية، حتىٰ في حالات نسبتي التصويت ٥١٪ مقابل ٤٩٪ فإن العلماء والزعماء المسلمين كانوا يبحثون أيضـاً علىٰ الإجماع. علىٰ الرغم من استغراقها لوقت أكثر، فإن هذه الطريقة -التي هي، بالمناسبة، مماثلة بشكل جوهري لما كانت تمارسه العديد من أمم هنود أمريكا- تتطلب أن يقوم جميع الأطراف بالتناظر والمناقشة والتوصل إلىٰ توافق جماعي. ورغم أنه يمكن أن يقوم مواطنو الدولة الإسلامية باختيار زعمائهم وممثليهم، فإنهم لا يستطيعون مثلاً أن يصوتوا لإلغاء تجريم الزنا، والفسوق، أو استهلاك المخدرات، ولا لتقنين الإجهاض حسب الطلب، أو المنتجات الإباحية أوالزواج المثلي. وبالتالي، فرغم وجود عناصر ديمقراطية في الإسلام، فإن الدولة الإسلامية ليست "ليبيرالية ديمقراطية" بالمفهوم الغربي لهٰذا المصطلح. فمن اللازم أن تعمل الديمقراطية، عند المسلمين، داخل إطار الإسلام. يصف بعض المسلمين، الذين يسعون لإرضاء الغرب، هٰذا بـ"الديمقراطية الإسلامية"؛ أنا أسميه الإسلام بباسطة. أما قانون الشريعة الإسلامية، والذي تعرض

لكثير من القدح والطعن، فقد بينت هذه الدراسة بأنه قانون معقول، ومرن، ودائم التطور. إذا كانت الحركة التكفيرية إنحرافًا متحجراً عن الإسلام، وإذا كان أهل السنة يجدون صعوبة في تغيير الشريعة لمواجهة التحديات المعاصرة نظراً لتشبثها بالمبدأ القائل إن "باب الاجتهاد قد أُغلق"، فإن المذهب الشيعي قد احتفظ بتقليد حي من هٰذا الاجتهاد – أي، تفسير وتطبيق المبادئ الإسلامية وفق ما تقتضيه الظروف والأزمنة المتغيرة.

رغم أن المستشرقين، والمناظرين المحترفين، والنشطاء المناهضين للإسلام – فضلاً عن بعض الباحثين النزهاء الذين من الممكن أنهم لم ينظروا بعد إلىٰ هذه الوثائق بما تستحقه من اهتمام – سوف يشجبون بالتأكيد عهود النَّبيّ ﷺ معتبرين إياها مجرد تزييف، فإنها تتطابق جيداً وبشكل تام مع روح الإسلام. بما أن ليس بإمكانهم تصور الإسلام بأي شكل إيجابي، فقد اعتبر المستشرقون، من أمثال جون ميشال موتون، تجليات الإسلام التي عكسها 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان القديسة كاترين' بأنها "أسطورية" (١٧٧). "إنه"، حسب رأيه، "إسلام إبتدعه الرهبان من لا شيء وصاغوه بالشكل الذي يخدم مصالحهم" (١٧٧). لكن بالنسبة لأي شخص له معرفة ولو بسيطة جداً بالمصادر الإسلامية فإن القول بأن "عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء" من اختلاق المسيحيين هو كلام ينم عن جهل مدهش. بما أن هذه العهود مفعمة بالإحالات والتلميحات إلىٰ آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأحداث تاريخية محددة، فليس باستطاعة أي أحد أن يكون قد أصدر مثل هذه العهود إلا من كان متشربـًا للثقافة الإسلامية. إذ يبدو أنه من المستحيل تمامـًا أن تكون لدىٰ أي مسيحي من ذلك العصر القدرة علىٰ ابتداع مثل هذه المواثيق. إذ كما تبين المصادر اليونانية الأورثوذكسية والأرمينية، والآشورية، والكاثوليكية القديمة، كان مسيحيو الشرق الأوسط جاهلين بتاريخ الإسلام ومعتقداته جهلا مدقعـًا. إذ كيف يمكن أن تعكس كل المصادر التاريخية المسيحية صورة مضطربة عن الإسلام في حين أن عهود النَّبيّ المحفوظة عند هذه الطوائف تتوافق تمامـًا مع القرآن والسنة والشريعة؟ وباعتبار أن هذه الطوائف المتصارعة لم يكن لها عمليـًا أي تواصل فيما بينها، فكيف حصل أنها

جميعا تملك عهوداً نبوية متشابهة، وتصل إلىٰ حد التطابق في بعض الحالات؟ إذا لم يكن بإمكان هذه الفصائل المسيحية المتصارعة أن تتفق حول معتقدات وممارسات أساسية، ولم تتورع عن وصم بعضها البعض بالهرطقة والكفر، فمن غير المحتمل أن تكون قد استجمعت قواها لتزوير 'عهد' ونسبه للنبي ﷺ. إذ كان من السهل أن تقوم طائفة ما بالوشاية ضد طائفة أخرىٰ في محاولة لكسب حظوة الحكام المسلمين في ذلك العهد.

في حد علمي، هناك وثيقة وحيدة تمّ تزويرها في هٰذا السياق من التاريخ الإسلامي، وأُريدَ تمريرها علىٰ أنها رسالة حماية نبوية تم إبتداعها من قبل اليهود، وليس المسيحيين. أقصد هنا 'رسالة الحماية النبوية' التي عثر عليها في جنيزة القاهرة. مهما حاول كاتبها القديم أن يقدم عهداً نبوياً مقنعاً لغرض التهرب من الضرائب، فإن الوثيقة لم يتم قبولها أبداً بأنها أصيلة، بل تم إثبات أنها مزورة من قبل كل من العلماء المسلمين وغير المسلمين (جيل ٢٩-٣٠، م ٢٧، جوتين ١٨٥). أما عهود النَّبيّ مُحَمَّد للطوائف المسيحية المختلفة فقد لاقت الاعتراف منذ أمد بعيد من قبل كل من العلماء المسلمين والمسيحيين.

إذا كانت عهود النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم تكشف شيئًا عن الإسلام، فإن رد الفعل الذي أحدثه تلقيها عند بعض المستشرقين يكشف شيئًا عن بعض التيارات الفكرية في العالم الغربي، ألا وهو الرفض الكامل لدىٰ بعض العلماء المتنفذين، بناء علىٰ أفكار مسبقة، لقبول عكس أي صورة إيجابية عن الإسلام والنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. أما بالنسبة للمسلم المؤمن، فإن آراء الباحثين العلمانيين لا قيمة لها عندما تقارَن بالمصادر الأساسية للوحي الإسلامي. وكما هو حاصل، فإن أولئك العلماء الذين يعتقدون بأن عهود النَّبيّ مجرد تلفيقات هم في العديد من الحالات نفس الأشخاص الذين يزعمون بأن نصوص الأحاديث النبوية كلها زائفة، وبأن القرآن نفسه من ابتداع محمد، أو ربما مشعوذ أقنع المتعصب الديني الساذج بأن ذلك وحي إلٰهي حقيقي، إن لم يكن من إنتاج كاتب مستعار استأجره محمد نفسه لفبركته قصد نيل القدرة علىٰ التأثير علىٰ العرب. كما لا تختلف النظرة الأساسية للعالم عند مثل هٰؤلاء العلماء كثيراً عن

موقف أولئك الذين لهم آراء مشابهة عن يسوع المسيح، مثل هيو ج. شونفيلد، مؤلف كتاب 'مؤامرة عيد الفصح'، الذي اعتقد (خلافـاً للمسلمين) بأن صلب المسيح وقع فعلاً، لكن اعتبر ذلك جزءاً من خدعة لفقها عيسىٰ وبعض مريديه لإدهاش وإرباك اليهود من خلال القيام بعملية بعث مزيفة. لكن بالنسبة للمسلمين المؤمنين فإن معايير الأصالة واليقين واضحة: القرآن والسنة المؤكدة. كما يعترف جونثان أ.س. براون (ولد ١٩٧٧م)، "يمكن اعتبار النقد الغربي للحديث النبوي بمثابة هيمنة يَفرِض فيها منظور معين قوته علىٰ منظور آخر من خلال إملاء الشروط التي يتم عبرها إثبات 'المعرفة' و'الحقيقة' (١٩٨). في الحقيقة، "تعتبر مسألة الأصالة جزءاً من نقاش أوسع حول دينامية القوة بين 'الدين' و'الحداثة'، وبين 'الإسلام' و'الغرب' (١٩٨). "إن المواقف تجاه ... الأصالة مرتكزة بالضرورة علىٰ منظورنا النقدي أكثر من الحقيقة القائمة علىٰ التجربة" (١٩٨). إن الإنكار هو الاختيار الافتراضي بالنسبة لغير المؤمنين، أما بالنسبة للمؤمنين فإن الاعتقاد هو إختيارهم الافتراضي. في النهاية، لن يعطي أولئك الذين وجدوا الحقيقة أية قيمة تذكر لآراء من لم يجدوها، خاصة عندما يفترضون أنهم يتحدثون عن أمور مقدسة، رغم أن المؤمنين قد لا يتمكنون كليا من تفادي النتائج الثقافية والاجتماعية والعسكرية النهائية لتلك الآراء.

إن كان لدىٰ المسلمين المؤمنين الحقيقيين مشروعـاً، فإنه مشروع الحقيقة؛ و يمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة للمؤمنين الصادقين المنتمين للديانات السماوية الأخرىٰ. وإذا كان لدىٰ أعداء الديانات التوحيدية مشروعـاً، فإن هـٰذا المشروع يتجلىٰ في العمل بلا هوادة لإبطال الاعتقاد في وجود الإله وتبديله بعبادة ما يسميه المسلمون ب"الدنيا"، وما يسميه المسيحيون "هـٰذا العالم". قد يؤمنون بصدق بهـٰذا الباطل، أو يقومون بالدعاية له بسخرية، لكن ليس من شأن لا الصدق ولا المكر أن يجعل من الباطل شيئـاً آخر غير الباطل. أن يكره المرء المسلمين ثم يستمر في العيش بطريقته شيء، لكنه شيء آخر تمامـاً أن يكرس المرء كل حياته لمهاجمة الإسلام، والنبي، والقرآن، مستعملاً في العديد من الحالات ذلك النوع من الخطط التي عرضناها عبر صفحات هـٰذا الكتاب. من المفهوم جداً أن يقوم أعداء الإسلام بمعارضة أي

شيء وكل شيء يعكس صورة إيجابية عن النَّبيّ والإسلام. وبشكل مماثل، قد يدعي أحياناً أولئك المنتقدون للمسيح عيسىٰ وتعاليمه بأن 'الموضوعية' هي ما يبرر الافتراء علىٰ مريم العذراء أو التشكيك في النزاهة الأخلاقية عند المسيح، بينما يشعر آخرون بالحرية في هجائهما وشتمهما يومياً في وسائل الإعلام بعبارات لو استُعملت منذ حوالي قرن من الآن لكان من شأنها أن تؤدي إلىٰ غضب جماهيري عارم عبر جميع أنحاء ما كان يشكل آنذاك 'العالم المسيحي'.

إن المسيحيين في الغرب متعودون علىٰ الهجمات التي يشنها المناضلون الملاحدة ضد دينهم، لكن لا يدركون بأن مؤسسة 'الاستشراق' تلعب دوراً مماثلاً فيما يتعلق بالإسلام. إن الاستشراق، كما بين إدوارد سعيد، هو دوماً مرادف للهيمنة الأوروبية علىٰ الشرق (هوبز ٢٤٤). ورغم دفاع روبرت غراهام إروين (ولد ١٩٤٦) عن المستشرقين في كتاب 'المعرفة الخطرة'، فقد قام بعمل جيد حيث وصف العديد من شخصياتهم البارزة كأناس يقاربون الإسلام بمنهجية مفعمة بالتشكيك الجارف وينخرطون في أبحاث هدامة بشكل مقصود في محاولة منهم لتدمير الثقافة الإسلامية. بل إن بعض المستشرقين يزعمون بأنهم يعرفون عن أصول الإسلام أكثر مما يعرفه المسلمون أنفسهم، استناداً إلىٰ نظرية أن الشك، وليس اليقين، هو الطريق المرشد إلىٰ الحقيقة. إن منهجيتهم 'النقدية للمصادر' التي طبقوها علىٰ النصوص الإسلامية القديمة عملت بالفعل علىٰ بث الشكوك، لكنها لم تساعد أبداً في تقريبهم من الحقيقة التاريخية.

لقد وصف سيد حسين نصر (ولد ١٩٣٣م) استعمال مثل تلك التقنيات لفحص أصالة المصادر الإسلامية بكونها "إحدىٰ أكثر الهجمات شيطانيَّة شُنَّت ضد البناء الشامل للإسلام" (مقتطف إروين ٣١٦). وكما يوضح نصر، فإن القضايا التي يسعىٰ هٰؤلاء الباحثون إلىٰ معالجتها لا تنشأ من الرغبة في المعرفة وإنما من موقف ديني وفلسفي يتستر عادة خلف مظهر العقلانية والبحث الموضوعي. بالنسبة للمسلمين، لم تكن هناك أبداً حاجة لتناول هذه القضايا لأنهم يؤمنون بأن القرآن وحي إلٰهي، ينتفي في ظله بباسطة وجود تلك المشكلات (مقتطف إروين ٣١٦).

مهما حاول من يسمىٰ بـ'العلمانيين'، مثل ابن وراق، والذين يعتبرون بداهةبأن الإسلام عدو، أن يبحثوا عن "محمد التاريخي"، فإن باحثين أكثر موضوعية، مثل وليد أ. صالح، يقرّون بأن "ظل محمد التاريخي ... غير بعيد عن الصورة التي قدمها ابن إسحاق (٣٠)، مؤلف السيرة النبوية المرجعية. كما أن أعمال محمد كرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣)، وجلال الأحمد (١٩٢٣-١٩٦٩م)، ورونيه كينون (١٨٨٦-١٩٥١م)، ومحمد أسد (١٩٠٠-١٩٩٢م)، وسيد حسين نصر (ولد ١٩٣٣م)، وسيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦م)، ومريم جميلة (١٩٣٤- ٢٠١٢م)، وحميد ألغار (ولد ١٩٤٠م)، وعبد اللطيف التيباوي(١٩١٠-١٩٨١م)، وزياد الحسن فاروقي، وزيودين ساردار (ولد ١٩٥١م) وفضل الرحمان مالك (١٩١٩-١٩٨٨م)، ومحمد مهدي (١٩٢٦- ٢٠٠٧) من بين أعمال أخرىٰ، كلها تظهر المستشرقين في ألوانهم الحقيقية (انظر إروين ٣١٣-٣٣٠ للاطلاع علىٰ لمحة غير متعاطفة عن أطروحاتهم الأساسية). ومع ذلك فإن مثل هذه المحاولات المشبوهة لإطفاء نور الإسلام سوف تبوء بالفشل. حتىٰ ج.ر.هاوتينغ، وهو تلميذ برنارد لويس (ولد ١٩١٦م) وجون إدوارد وانسبرو (١٩٢٨-٢٠٠٢م)، وزميل ابن وراق السَيِّئ السمعة، يعترف بأنه "ليس بإمكان المرء أن يدحض السيرة [والسنة] النبوية أو يبين بأن الصورة التي تقدمها مضللة أو مغلوطة" (٤٢٣). "في العديد من مجالات العلم"، يوضح مايكل إ. كريمو وريتشارد. ل. طومسون (١٩٤٧ـ ٢٠٠٨م)، "توجد الأدلة بصورة أولية في شكل تقارير" (٥٩٢). في الجوهر، "كل شيء يتوقف علىٰ قدر الإيمان الذي يوليه المرء للتقارير" (٥٩٢). في نهاية المطاف، يتعلق الأمر بمسألة الثقة. إذ ينطلق المسلمون من إيمانهم في ثقافتهم [وتراثهم]، بينما من البديهي بالنسبة لخصومهم أنه لا ينبغي الإيمان بالإسلام.

في هجومها علىٰ عهود النَّبيّ ﷺ، تعتمد المعارضة علىٰ مقاربتين: اتهام المسلمين باختلاقها أو توجيه نفس التهمة للمسيحيين. إذا كان المسلمون هم من ابتدعوها، فإن هٰذا في الحقيقة يقدم الإسلام في صورة أكثر إيجابية مما يرغب أن يعترف به خصومه - لكن ليس صورة إيجابية من وجهة نظر إسلامية خالصة، لأنه إذا

كان صحيحاً أن المسلمين زوروا فعلاً كلام النبي، فإنه لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن يُسمّوا مؤمنين. إن الأفكار المتضمَّنة في ثنايا عهود النَّبيّ ﷺ متقدمة جداً بحيث أنها تمثل قطيعة مع أعراف ذلك العصر. ولكن، بالنظر إلىٰ تعاليم القرآن، وأحاديث النَّبيّ ﷺ، والقيم التي أرساها، فلم تكن هناك حاجة لدىٰ المسلمين لابتداع أي شيء. وبالتالي، إن لم يكن المسلمون هم من اختلق العهود المذكورة، فإنه يُفترض بأن المسيحيين فعلوا ذلك. وحسب هٰذا السيناريو، فإن المسيحيين، وخاصة رجال الدين منهم، متهمون بكونهم كذابين، ودجالين ومنتحلين. هذه الادعاءات جارحة جداً، ليس للمسيحيين فحسب، بل للمسلمين كذلك لأنهم يحترمون كل الأديان، ولديهم إجلال خاص للعلماء والأتقياء. مرة أخرىٰ، بالنظر إلىٰ أن تعاليم القرآن كانت معروفة جداً، وكانت أحاديث النَّبيّ ﷺ متداولة بشكل واسع، كما أن آثار النَّبيّ مسجلة كما ينبغي، فلم يكن المسيحيون في حاجة إلىٰ تلفيق أي عهد من العهود. كان بإمكانهم ببساطة أن يستشهدوا بالحقوق المنصوص عليها في القرآن والحديث والشريعة. وكما هو الحال دومـًا، يبدو أن خصوم الإسلام الأكاديميين منهمكون في تمرين فكري عقيم مثل كلب يتعقب ذيله. ولذلك، فمن المفهوم جداً أن يشككوا في عهود النَّبيّ لمسيحيي سيناء، وآشور، ونجران، وبلاد فارس، والعالم، بما أنها تقدم صورة عن الإسلام والمسيحية لن يقبلوها أبداً.

كيف يمكن، يتساءل أرثور بيلسبوري دودج (١٨٤٩-١٩١٥م)، أن يتجاهل رجال الدين المسيحيين ’عهد النَّبيّ مُحَمَّد‘ المشهور "الذي تركه لخلفائه، يعبر فيه عن أمره السلطوي لكل أتباعه لاحترام وحماية أتباع المسيح؟" (٣٧). فعلىٰ الرغم من كل شيء "كان العالم الإسلامي ككل مطالبـًا بأن يقر بذلك العهد" (٣٧- ٣٨). (يشير بوضوح إلىٰ العهد الذي أعطي للرهبان المسيحيين بجبل سيناء، وقد وصف هذه الوثيقة بكونها "متميزة" و"الأشد غرابة" (٣٨). السبب، بالنسبة لبيلسبوري دودج، يكمن في أحد الإحتمالين التاليين:

١- بأنه لم يكن هناك أي أحد في الكنيسة المسيحية له إطلاع بهذه الأمور التي تفند بهٰذا الشكل الحاسم تعاليمهم [ضد محمد والإسلام]. وهي أقبح وأكثر

مغالطة مما يمكن إيجاده في تعاليم اليهودية، لجعل أتباعها يتحاملون ضد المسيحية، أو بخلاف ذلك:

٢- أنه، بعد معرفة الحقيقة التي عكستها المقتطفات السابقة من دين الإسلام، لكنهم خَدعوا وضَللوا عن قصد وتعمد جماهيرَ الكنيسة المسيحية وتسببوا في تبني أفكار وممارسات شيطانية، انتهكوا الجماهير وأثروا فيها باستمرار وبشكل إجرامي حرضوا ضد رسول عظيم و ضد عمله الرائع من أجل الناس في جميع أنحاء المعمور، بدون تمييز أو تحفظ. أي من الخيارين سيفضلون؟ (٣٨)

كما شهد بذلك أنطون ف.حداد، يعتبر موقف العديد من المسيحيين تجاه النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ غير عادل وغير متسامح (٢). إذا كان قد قام بترجمة 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء' سنة ١٩٠٢، تحت عنوان 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد'، فلكي يثبت مدىٰ الشؤم المتجسد في اتهام رسول الله ﷺ بالحقد والوحشية في تعامله مع المسيحيين(٢). باعتباره بهائياً، فإن حداد لم يكن لا مسيحياً ولا مسلماً. إن كان قد تحدىٰ الرأي السائد حول النَّبيّ ﷺ في بداية القرن العشرين، فقد كان ذلك "من أجل الحقيقة والتنوير المسيحي" (٢). فقد كانت تلك "كلمات محمد، وعهده السليم، وميثاقه الخاص بهم" (٢) إذا "كانت الكنيسة المسيحية توعز بفكرة أن محمداً كان منتحلاً وأن العقيدة الإسلامية دين مزيف، صادر ليس من الله، بل من رجل، فالحقيقة تبقىٰ أن "محمداً أقر وأكد بوضوح وبشكل تام تعاليم يسوع المسيح، وباعتباره رسولاً من الله، أنقذ المسيحية فعلاً للعالم أجمع، وهي التي كانت في الحضيض آنذاك" (بيلسبوري دودج ٣٠).فإذا كانت المسيحية لا تزال مستمرة علىٰ قيد الحياة بوصفها ديانة عالمية، فهي مدينة في جزء من ذلك لمُحَمَّد ﷺ.

إذا كان المسلمون – بعد تقدمهم الىٰ الأمام بفضل قفزات حضارية جبارة لعدة قرون – قد دخلوا مرحلة تقهقر تميزت بتبني الكثير من أقبح ما يوجد في الحضارة الغربية، فإن المسؤولية عن هٰذا الفشل تقع علىٰ كاهل الجماهير المسلمة، وليس علىٰ أنبل نبي يدّعون أنهم يتبعونه؛ كما تقع المسؤولية أيضاً علىٰ أولئك الذين عملوا، سواء في الشرق أو الغرب، علىٰ تضليل الجماهير لخدمة أغراضهم الخاصة. إن اتباع

خطىٰ أوربا والأمريكيتين لم يأت بأي شيء إلىٰ دار الإسلام عدا التفسخ والخراب. علينا أن نواجه الشرور التي تعترضنا بروح من الرزانة الصارمة.مَثل مواقف الغرب في ذلك كمثل دود تسبب في تعفن محصول تفاح، أخذت تلك المواقف المسمومة تنتشر وتمتد من سلة لسلة، ومن شجرة لشجرة، ومن بستان لبستان، معرَّضة للخطر المحصول العالمي برمته.إن الحل الوحيد بالنسبة للمسلمين يكمن في عدم الرجوع إلىٰ الخلف بحثاً عن نظام مثالي متجمد في الزمان، كما يرغب السلفيون في الدفع بنا أن نفعل. بل يجب أن يكون الهدف هو التقدم الىٰ الأمام، والبقاء في نفس الوقت متجذرين بثبات ومتشبثين بالقيم الأخلاقية والشرعية التي تمثل جوهر الإسلام الحقيقي وكل الديانات التوحيدية الأصيلة. وعندما ندرك بأن نظام الوحي الإسلامي ينتمي إلىٰ هٰذا العصر لأنه أزلي بالفعل، وبأن كل شيء يقدمه لنا يساهم في التقدم المتناغم للبشرية، سيمكن لنا أن نحسِّن الحاضر ونصوغ مستقبلاً جديداً يرتكز علىٰ الإسلام العالمي الصحيح، وليس علىٰ الدين المعقد والفاسد الذي يتبعه علىٰ ما يبدو، العديد من المسلمين [المـتـزمتين].

لو كان دعاة الإرهاب يعرفون أي شيء عن الإسلام لانتبهوا إلىٰ أمر النَّبيّ ﷺ حين قال:"راعوا بدقة تلك الحماية التي منحتها لغير المسلمين" (الماوردي، مقتطف، حميد الله، 'المقدمة' ١٥٠). أما بالنسبة لأولئك الذين صاروا منفصلين عن التقاليد الإسلامية الصحيحة وحركة محمد التوحيدية العالمية، والذين يتهربون من مسؤولياتهم عن طريق الهجوم علىٰ الأبرياء بحجة أنهم كفار، فإن عليهم أن يرجعوا للقرآن، والسنة، وأهل البيت، والأولياء الصالحين، وعهود النَّبيّ ﷺ؛ وعليهم كذلك أن يستغفروا الله، ويتوبوا، ويكفِّروا عن أخطائهم ويصلحوا مناهجهم. إذ كما حذر محمد رسول الله: "ألا من ظلم معاهَداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب منه فسوف يجدني حجيجه يوم القيامة" (أبو داوود). وبالفعل، فقد تنبأ رسول الله ﷺ بعواقب عدم الالتزام بالعهود التي عقدها في الكلمات التالية:

يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن – وأعوذ بالله أن تدركوهن – :لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم

تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم. [التأكيد من المؤلف] (ابن إسحاق ٦٧٢)

إذا كان المسلمون، الذين كانوا يحكمون معظم أرجاء العالم إلىٰ حين إنحطاط الإمبراطورية العثمانية، قد فقدوا قوتهم وتعرضوا لغزو واستعمار الأوروبيين الغربيين، فلم يأت ذلك بلا سبب. لقد جردتهم القدرة الإلـٰهية مما كانوا يملكون لأنهم نكثوا عهود الله ورسوله. إذا رغب المسلمون يومـًاما في إسترجاع الدور الذي لعبوه من قبل علىٰ المسرح العالمي، فعليهم أولاً أن يبدأوا باتباع رسالة وروح الإسلام. أما عن أولئك الذين يحاولون بشتىٰ الطرق والمكائد أن يجدوا أخطاء في مثل تلك الأقوال كذريعة لخرقها فإنني سأستشهد بكلام الله، حيث يشيد سبحانه وتعالىٰ بـ ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ (٢ : ١٧٧)؛ ويحذر تعالىٰ أولئك ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٧:٢). كما يقول تعالىٰ في مكان آخر: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١٠٠:٢). ورغم أن الكلمات التالية نزلت في حق موسىٰ، فإن لها صلة وثيقة بالعهود المعقودة بين مُحَمَّد ﷺ والرهبان المسيحيين بدير القديسة كاثرين: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٢ : ٦٣) والله أعلم.

الفَصل ١٢

اِقتِراحَات لِلمَزيدِ مِنَ البَحث

اقتراحات للمزيد من البحث

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾(٣:١٩٩)

لا أحد يمكنه أن يدعي تحقيق الكمال، سوىٰ الله تعالىٰ. وبالتالي فإنه ينبغي تذكير الباحثين والنقاد بأن أي عمل أكاديمي هو أطروحة، أي "كشيء يتم طرحه" بمثابة إقتراح أو إفتراض فكري. هٰذا العمل في جوهره محاولة essay (باللغة الفرنسية 'essai')؛ بعبارة أخرىٰ، محاولة لتطوير وتعميق النقاش. إن كلمة 'essai' مشتقة من الكلمة اللاتينية 'exagium' وتعني 'وزن' أو أداة 'قياس'. أتمنىٰ فقط أن يكون للحجج التي قدمتُها ما فيه الكفاية من الوزن لإقناع زملائي، والقراء المثقفين عمومـًا، بأطروحتي. لكن يجب التأكيد هنا بأن استنتاجي، المتمثل في فكرة أن عهود النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ صحيحة وأصيلة، تم التوصل إليه فقط علىٰ أساس فحص دقيق وشامل للأدلة.

إن كنت قد توصلت إلىٰ مجموعة من الاستنتاجات بخصوص عهود النَّبيّ ﷺ، فقد تم ذلك من خلال مجهود استثمرت فيه ما كان مطلوبـًا من المثابرة والتروي. لكن هٰذا لا يعني أن الوثائق في حد ذاتها كانت بلا مشكلات. لكن المشكلات التي يواجهها الباحث لا تختلف عن المشكلات الموجودة في المصادر القديمة الأخرىٰ. وكقاعدة عامة، كلما كانت الوثيقة قديمة، كلما ازدادت المشكلات التي تطرحها. هٰذا راجع إلىٰ عدة عوامل، بما في ذلك التغيرات في اللغة، والأسلوب، وطريقة التفكير، وكلها ناتجة عن المسافة التي تفصلنا عن النَّصّ وسياقه. إن الصعوبات التي تطرحها عهود النَّبيّ ﷺ شبيهة بتلك التي تطرحها الأحاديث النبوية ككل. لكن بالنظر

إلىٰ أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء اعتبر بأنه موثوق به منذ أزيد من ألف عام من قبل العلماء من كل المدارس الفقهية الكبرىٰ، فإن علىٰ الباحثين المسلمين أن يحافظوا علىٰ هٰذا الإجماع ويتمسكوا به.ذلك أن خرق الإجماع العلمي مسألة غير هيّنة بالنسبة للفقهاء الذين يخشون الله. أما في ما يتعلق بعهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران و عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم فإن الاحتياط الأكاديمي واجب. ونظراً للعواقب الوخيمة المترتبة عن العصيان المقصود لأوامر الله ورسوله، فإن الامتثال يبدو أيضاً شيئاً لازماً بالتأكيد، خاصة وأن هذه العهود لا تتضمن أي شيء يتناقض مع القرآن والسنة، وكل ما هو مؤكد فيهما.

أما بالنسبة لهذه الدراسة عهود النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم فإنها مثل لبنة ستثبت صلابتها مع مرور الوقت وعملية النقد والمراجعة المُحكمة المتواصلة. وتبقىٰ الحرية الكاملة لدىٰ العلماء أو العامة من القراء أن يقبلوا هذه الدراسة، أو يتجاهلوها، أو يطرحوها جانباً. كل ما أتمناه وأرجوه من الله هو أن تتناولها أذهان متفتحة ومتعاطفة تقدّر صلابة مادتها حق قدرها، وتستعملها كلبنة أولىٰ لبناء صرح جديد تماماً.أما بالنسبة لأولئك الذين تكونت لديهم القناعة بأن هٰذا العمل عمل تأسيسي، فإن هناك العديد من سبل التعمق في البحث. أولاً، ينبغي إخضاع الملحوظات أو الحواشي الموجودة علىٰ هوامش نسخعهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء للدراسة لأن بإمكانها حقاً أن تمنحنا فهما أفضل لهٰذا العمل وتسلسل روايته. إن دير القديسة كاثرين يحتوىٰ علىٰ مجموعة من المراسيم التي أقرّها الفقهاء المنتمون لمختلف المدارس الفقهية من حنبلية وحنفية، وشافعية، ومالكية، وفاطمية، تدعم كلها محتوىٰ عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء. إن الفتاوىٰ والحجج المقدمةمن قبل أولئك الفقهاء تستحق دراسة أكاديمية جادة. بما أن هناك بعض الاختلافات المثيرة للانتباه بين النسخ الانجليزية والنسخ الفرنسية من عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء، فإنه يجدر تخصيص دراسة لتاريخ مثل هذه الترجمات. إذ ينبغي أن يحدد الباحثون علىٰ سبيل المثال، فيما إذا كان كل المترجمين يستعملون نفس النسخة من 'العهد' كنص أصلي [مترجم عنه]، وفيما إذا كانوا يستعملون النسخة العربية أو الترجمة التركية في ذلك. كما يتعين علىٰ

دير القديسة كاثرين أن تضع حولياتها القديمة، التي تتضمن إشارات إلىٰ مُحَمَّد ﷺ، في متناول المجتمع الأكاديمي.

وينبغي إخضاع النسخ العربية والترجمات اللاتينية لـTestamentum et Pactiones أو عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم، التي أصدرها غابرييل صيونيتا (١٥٧٧- ١٦٤٧م) وجوهان نيسيل (١٦٢١- ١٦٦٢م)، لدراسة مقارِنة نقدية. إن أصل هذه الوثيقة يبقىٰ أيضـاً بمثابة لغز فـي حاجة الىٰ حل أسراره بشكل كامل. فحسب الأدلة المتوافرة حاليـاً، يبدو أن هذه الوثيقة مشتقة من 'العهد' الذي أتىٰ به الأب سكاليغر إلىٰ فرنسا ويرجع تاريخه إلىٰ سنة ١٥٣٨م. وإذا كان الأمر كذلك، فمن أين جاء هـٰذا العهد؟ من أي دير مسيحي أو طائفة مسيحية تم الإتيان به؟ وهل جاء فعلاً من عند رهبان جبل الكرمل؟

بما أن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم يحتوي علىٰ معظم الشروط الموجودة فـي عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران، حيث تم فقط تكرارها بلغة مختلفة، فهل هو ميثاق منفصل ومستقل أم هو فقط رواية مغايرة؟ فـي الحقيقة، ينبغي إخضاع كل هذه العهود للمزيد من الفحص والتدقيق اللغوي والأسلوبي. إن العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب لكل المسيحيين (١٥٣٨)، وكل المخطوط الذي وُجد فيه، (تحت الرمز MSArabe ٢١٤) والمحفوظ بـ'خزانة فرنسا الوطنية' يستحقان عناية أكبر بكثير مما لقياه لحد الآن. من هو يوحنا ابن إسحاق البتانوني، صاحب المكتبة التي نُسخ المخطوط لفائدتها؟ من هو جرجس الافرنجي، الناسخ الذي كتب النسخة؟ من هم جرجس بن يوحنا التماري، وبطرس بن دياب الحلبي، ومنصور بن سليمان صهيون الرمادي، وسمان بن فضل الله البرالوسي؟ ما طبيعة علاقاتهم بـ'العهد'؟ من كان هـٰذا المبشر الذي وصل إلىٰ القاهرة القديمة سنة١٥٩٢م؟ ومتىٰ بالضبط قام غابرييل صيونيتا بوضع ملاحظات علىٰ نسخة 'العهد'؟ إذا كان 'العهد' الذي يعود تاريخه الىٰ سنة ١٥٣٨م هو الذي استعمله غابرييل صيونيتا وجوهان جورج نيسيل، فلماذا كانت جودة نسختيه أقل درجة من النسخة الأصلية، حيث إنهما كانتا مليئتين بالأخطاء، بما فـي ذلك تلك الناتجة عن الحذف والإضافة؟ لماذا كُتبت الصفحتان

الأخيرتان بخط يد مختلف؟ فمن الواضح أن لائحة الشهود الموسعة لم تُكتب بيد جرجس الافرنجي، الناسخ. هل قام هٰذا الكاتب المُعار فقط بإكمال النسخة أم أن هٰذا دليل علىٰ وجود تحريف في النص؟ هل ضاعت أو فُقدت الصفحتان الأخيرتان ثم تم 'اختلاقهما من جديد' في وقت لاحق؟ ومن هو هٰذا الشخص اللغز المدعو ميشال، والذي يبدو أنه مُخاطَب في نهاية 'العهد' وطُلب منه نشر الرسالة في التجمعات المسيحية دانيها وقاصيها؟ تخيل مجرد تخيل: رجال دين مسيحيون يقرأون عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم للمؤمنين كجزء من قداسهم مع وعود بمكافآت مجزية من المسيح ! هٰذا ببساطة شيء مذهل حقـًا. إن الجزئيات الكاملة لهذه القصة في حاجة إلىٰ أن تُحكىٰ وتُسرد. كما أن هناك حاجة إلىٰ فحص العلاقات التي كانت تجمع غابرييل صيونيتا بسيريل لوكاريس. لم يكونا معاصرَيْن لبعضهما البعض فحسب، بل كانا أيضـًا علىٰ علاقة بالبروتستانت. لقد كان سيريل لوكاريس معروفـًا بإرساله العديد من المخطوطات الشهيرة للشخصيات الملكية، بما في ذلك نسخة من الـCodex Alexandrinus الىٰ الملك الانجليزي تشارلز الأول (هادجيا نتوتيو٩٣). وقد يكون سيريل لوكاريس هو المسؤول عن إرسال نسخة من عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم لملك فرنسا عبر الأب سكاليغر.

والىٰ جانب الأرشيفات الأوربية، يجب أن يركز الباحثون اهتمامهم علىٰ تركيا، حيث (وأنا اواثق من ذلك) - يمكن بالتأكيد أن تكون هناك نسخ متنوعة من عهود النَّبيّ ﷺ لا تزال باقية. إذ أن الذخائر العثمانية المقدسة "تم تخزينها لعدة قرون في صناديق مغلقة وأكوام ورزم من الأوراق" (أيدين ١١). في الوقت الذي يبدو فيه أن هٰذا عمل مؤرخ وعالم حفريات من أمثال شخصية إندیانا جونز Indiana Jones الجريء، فإنه يجب التفكير في بذل محاولات للكشف عن نسخ أقدم من هذه العهود، بل حتىٰ اكتشاف النسخ الأصلية الصادرة عن الرسول ﷺ. الله وحده أعلم بما بقي في الخفاء من الوثائق القيّمة في الأديرة والأرشيفات والمساجد والقبور القديمة. كما يعترف بذلك وندیل فيليبس، كان هدف بعثة ١٩٥٠م إلىٰ دير القديسة كاثرين "ليس هو الكشف عن مواد جديدة بقدر ما كان هو جعل المصادر غير المدروسة

لهذه الخزانة الرائعة في متناول الباحثين" (عطية ١٢). الله أعلم بالكنوز التي سوف تُكتشف في أديرة القديسة كاثرين، والقديس انطوني، والقديس بول في مصر، ناهيك عن مئات أخرىٰ من مثل هذه المراكز في العالم القديم. إذ أن هناك بالفعل تقارير عن وجود نسخ أخرىٰ من عهود النَّبيّ ﷺ. ففي سنة ١٨٥٠م مثلاً، أورد 'المعجم الجغرافي والإحصائي' لأدرين غويبرت المادة المثيرة التالية:

> دير-سفران، مدينة في تركيا الأسيوية، تقع علىٰ بعد ١٥ كلم شمال غرب ماردين.ـ مكان إقامة بطريرك يعقوبي. يقال بأن ميثاق محمد، الذي يسمح للنصارىٰ بحق ممارسة دينهم، محفوظ هنا في أحد الأديرة(٥٧٩).

من المأمول أن يدفع هٰذا البيان أحد الباحثين المغامرين للإسراع في حزم حقيبته (أو حقيبتها)، ويحجز تذكرة سفر بالطائرة، إلىٰ تركيا. وهناك أيضاً تقارير تفيد بأن أديرة أخرىٰ تحتوي علىٰ نسخ العهود النبوية. وعلاوة علىٰ البحث الأرشيفي في المكتبات الوطنية والأديرة فإن هناك حاجة إلىٰ أبحاث وتحقيقات ذات طابع أركيولوجي. إن مقابر الورق أو المخطوطات لا ينبغي ان يُعثر عليها بالصدفة فقط: بل يجب أن يكون ذلك نتيجة جهود واعية وهادفة وحازمة. إن الذين يخشون مثل هذه الجهود هم فقط ضعاف الإيمان. لماذا، الانتظارحتىٰ سنة ١٨٢٢، كي تصدر'المجلة الأسيوية' تقريراً حول تلقيها لـ"نسخة من عهد محمد لصالح الأرمن، مع ترجمة يونانية بين الأسطر... من إنجاز طبيب أرميني يدعىٰ م.ج. زُهراب" (المجتمع الأسيوي ١١٦). وفي نفس العام، أشارت 'نشرة العلوم الرياضية والفلكية' إشارة عابرة إلىٰ معاهدة لمحمد عُثر عليها في بغداد، وقد سبق لها أن ظهرت في نسخة لغريغوري (داربوس وآخرون ١٤٥). ومن غير الواضح إن كانت هذه الوثيقة هي بالذات 'عهد النَّبيّ مُحَمَّد للأرمن' أم معاهدة مختلفة. كما أنه ليس واضحـًا ما هو الاسم الشخصي للسيد غريغوري. وبعد أزيد من خمسة عقود من ذلك الوقت، في سنة ١٨٩٩م، أشارت 'أشغال المؤتمر الدولي الثاني عشر للمستشرقين' إلىٰ أن م.نالينو قدم النَّصّ العربي من 'عهد محمد للمسيحيين' مع ترجمة فرنسية. وإذ تلاحظ تلك'الأشغال' بأن 'العهد' مزيف بالتأكيد، فإنها تسجل مع ذلك بأنه "لا يختلف كثيراً عن ذلك [العهد]

الذي تم حفظه من قبل الطبري وكتاب عرب آخرين." كما يتعين علىٰ الباحثين أن يشرعوا في رحلة بحث أكاديمية للكشف عن مصدر عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي بلاد فارس لليون أربي، والتي تحدَّىٰ قدرتهم علىٰ الوقوف عليه، لحد الآن.

يجب بالتأكيد أن تخضع نسخ كل هذه العهود، إذا أمكن العثور عليها مرة أخرىٰ، لمزيد من الدراسة المقارنة. أما عن عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء الموجودة نسخته، ناهيك عن رسائل رسول الله ﷺ، فإنني لا أرىٰ سبباً لعدم إخضاع عينات منها لطرق التأريخ العلمية الحديثة. في الحقيقة، سوف لن أرىٰ مانعاً في إخضاع خصلات شعر النَّبيّ ﷺ المقدسة، بل وحتىٰ دم الإمام الحسين [بن علي]، لتقنية الفحص لتحديد متواليات الحمض النووي(DNA sequencing)؛ إذ من شأن ذلك أن يساعد علىٰ الإخراس النهائي لادعاءات أولئك الذين ينكرون الوجودالتاريخي [للنبي الله] محمد بن عبد الله.

إلىٰ حد الآن، كان مصدر معظم عهود النَّبيّ الباقية علىٰ قيد الحياة هي الطوائف المسيحية التي احتفظت بالعقيدة المسيحية بعد الفتح الإسلامي. لكن، أغلب الطوائف التي كان لها اتصال بالنَّبيّ ﷺ لم تستسلم لقوة الإسلام فحسب، بل استسلمت حرفياً لله من خلال اعتناق الإسلام. لقد كانت مثل هذه الاتصالات موجودة في الماضي، وبالإمكان تصور كشف النقاب عنها.خذ، علىٰ سبيل المثال، حالة 'الأولياء الصالحين السبعة' بركراكة، وهي فخذ من قبيلة مصمودة [الأمازيغية]، الموجودة بمنطقة الصويرة بالمغرب. يقال إن هٰؤلاء الأولياء السبعة ينحدرون من ثلاثة من أتباع المسيح، وهم حاميج، وهاريد، وهيرت، الذين أتوا لنشر تعاليم المسيح في بلاد المغرب [الكبير]. كانوا أعضاء قبيلة مسيحية أمازيغية كانت تنتظر وصول نبي أخير. عندما سمع الأولياء السبعة خبر وجود رجل يسمىٰ محمداً قام بإعلان نبوته في مكة، خرجوا في رحلة طويلة إلىٰ جزيرة العرب لملاقاته.ورغم كونهم لا يتكلمون إلا الأمازيغية فقد فهمهم النَّبيّ ﷺ بسهولة عندما خاطبوه سائلين:"من هو الذي أرسله الله؟ فأجابهم النَّبيّ مُحَمَّد باللغة الأمازيغية: "أنا.أقبِلوا !" لكن ابنته فاطمة لم تستطع فهمهم، فسألت أباها ما هذه الرجرجة؟ فأجابها النَّبيّ ﷺ: "لقد أعطيتِ لهم

الآن اسماً." لم يعطهم النَّبيّ اسماً جديداً فحسب، بل أعطاهم 'بَركته'، وطلب منهم الرجوع الىٰ المغرب لنشر رسالة الإسلام. ويقال إنهم أول من أدخل القرآن إلىٰ بلاد المغرب "الكبير". وبما أنهم لا يتكلمون إلا الأمازيغية، فمن الأرجح أن تكون تلك النسخة من القرآن مكتوبة بتيفناغ، الحرف الأمازيغي.

وقد تمكن الأولياء السبعة – وهم سيدي واسمين، سيدي بوبكر بن أشماس، سيدي صالح بن بوبكر، سيدي عبد الله بن صالح، سيدي عيسىٰ بوخابية، سيدي يعلىٰ بن واتيل، سيدي سعيد سابق الذين أصبحوا الآن معتنقين للإسلام وصحابة النَّبيّ ﷺ – في تحويل أعداد كبيرة من القبائل البربرية إلىٰ الإسلام. لقد كان الإسلام، في رأي الأمازيغ، منتشراً في البلاد المغاربية لعدة عقود قبل الفتوحات العربية. وبدأ الأولياء المحاربون السبعة يقومون بزيارة جميع قبائل المنطقة لضمان عدم عودة الكفر أو الردة هناك. وقد استمر هٰذا التقليد، المعروف بـ'داوور' إلىٰ حد الآن، يتضمن زيارات إلىٰ قبور الأولياء الأربعة وأربعين علىٰ مدىٰ تسعة وثلاثين يوما. وفي الوقت الذي يرجع لهم الفضل في نشر الإسلام في الصويرة ونواحيها، فقد عاش بربر ركراكة دوما في سلام وانسجام مع الأعداد الكبيرة من اليهود، الذين كانوا يسكنون في هذه المنطقة أيضاً. ويؤكد هٰذا التقليد التأسيسي، الذي يعتقد المشككون بأنه مجرد أسطورة، بأن القرآن، في نَصِّهِ الكامل، كان موجوداً عند الرسول ﷺ بمكة قبل هجرته الىٰ المدينة، وبأن النَّبيّ كانت لديه معرفة بجميع اللغات؛ وبأنه قام بإرسال مبشرين إلىٰ أمازيغ البلاد المغاربية؛ وبأن الإسلام الذي قاموا بنشره هو الذي صار يُعرف بالصوفية. بما أن هناك العديد من المسلمين الذين قُبرت معهم نسخ من القرآن، فإن نسخة من هذه الترجمة الأمازيغية للقرآن، والتي قدمها لهم النَّبيّ نفسه، إن كانت موجودة أصلاً، قد تُكتشف يوماً نتيجة الحفريات الأثرية، وسوف تكون ذات قيمة تاريخية لا تقدر بثمن.

وهناك أيضا حاجة إلىٰ دراسة عهود النَّبيّ ﷺ في ضوء التقليد العثماني المعروف بـ'الأشتنايم' 'Achtiname' و'الأهدنايم' Ahidname /Ahdname. فقد لعبت هذه المواثيق أو المعاهدات دوراً في الدبلوماسية التركية. وقد يقول البعض إن عهود النَّبيّ هي ببساطة معاهدات عثمانية نُسبت لمحمد قصد إعطائها قيمة أكبر.

وعلىٰ ما يبدو، فإن العثمانيين كانوا في الحقيقة، يقلدون عن كثب بنية عهود النَّبيّ ﷺ في المعاهدات التي أصدروها لصالح القوىٰ الأوروبية المختلفة. كانت مقدمة 'الأهدنايم' العثماني تتمثل في التوسل والدعاء إلىٰ الله، والـ'Intitulatio' تُعرِّف بالشخص المخاطب، والـ'Salutatio' تتناول التحية الرسمية. أما النَّصّ الأساس فكان يمثل الـ "Expositio–Nassatio" الفقرة التي توضح الغرض من إصدار الوثيقة وأماالـ Dispositio فيعبر عن القرار الذي تم اتخاذه بتفصيل، وأما 'Sanction'، فهو في نفس الوقت تأكيد للقرار، وتحذير، وقَسم؛وأماالـ'Corroboratio' فهو التصديق، والـ'Datatio'، هو تاريخ صدور الوثيقة؛ والـ 'Legitinatio' هو شكل آخر من التصديق، ويتمثل عادة في السلطان أو الصدر الأعظم أو الخاتم السلطاني ببساطة. ويبدو أن كل هذه الخصائص كانت تحاكي بنية [النص] في عهود النَّبيّ ﷺ. ومن الظاهر أن العثمانيين كانوا يحاكون طريقة رسول الله ﷺ في التعامل مع الطوائف والأقطار المسيحية.

رغم أنه لن يكون أمرا سارا بالنسبة للعديد من المسلمين الذين يعتقدون بأن جميع نصوص الأحاديث النبوية تعكس كلام رسول الله بالضبط، فقد بينت هذه الدراسة أنه حتىٰ المصادر الوثائقية كانت في حالة تغير مستمر ابتداء من زمن النَّبيّ ﷺ إلىٰ أزيد من نصف ألفية بعد ذلك. هٰذا الاكتشاف الذي جاء كنتيجة ثانوية غير مقصودة لهٰذا البحث، لن يفاجئ معظم الباحثين المسلمين وغير المسلمين المتخصصين في دراسة التراث أو النصوص الإسلامية. فقد تمت دراسة التغيرات النحوية والإملائية في المخطوطات القرآنية منذ زمن طويل وتم تفسيرها بكفاية من قبل باحثين من أمثال محمد حميد الله (١٩٠٨– ٢٠٠٢م) ('القرآن الكريم'-XXX-XVI) وينطبق هٰذا الأمر علىٰ نصوص الأحاديث النبوية كذلك. لكن لابد من التأكيد بأن النتائج التي توصلت إليها لا تدعم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها من قبل باتريسيا كرون (ولدت ١٩٤٥م) وجيرد ربوين (ولد ١٩٤٠م) وآخرين، ممن يعتقدون بأن القرآن، مثله مثل السنة، لم يبلغ شكله النهائي إلا بعد قرون من حدث النزول. لكن ما اكتشفته هو غياب ثبات نصي كامل ناتج عن القصور الصوتي للحرف العربي

القديم.فإذا كانت اللغة العربية المعاصرة تفتقر عموماً إلىٰ الحركات [أو أحرف العلة القصيرة]، فان العربية القديمة تفتقر إلىٰ 'رقش' أو نقط الحروف الساكنة، مما يعني أن رمزاً واحداً يمكن أن يمثل حروف الباء والتاء، والثاء، والياء، والنون؛ كما كانت الراء والزاي متشابهتين، بل حتىٰ حروف العلة الطويلة مثل 'آ' و'ي' و'ىٰ' (الألف المقصورة)، كان يصعب التميز بينها، كما كان الشأن بالنسبة لعدة حروف أخرىٰ.

عدم الاستقرار النصي هٰذا لا يعني أن القرآن قد حُرِّف. لقد كان، علىٰ العكس من ذلك، محفوظاً، ليس عن طريق النظام القديم للكتابة العربية، بل بفضل صدور الرجال، الذين استعملوا الحرف السامي الملتبس وغير الدقيق كوسيلة فقط لمساعدة الذاكرة. فبالنسبة للشخص الذي كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، كان النَّصّ المكتوب يسِير الفهم. أما بالنسبة لعامة الناس الذين لا يحفظون القرآن بالذاكرة، بغض النظر عما إذا كانوا عرباً أم غير ذلك، فإن المصاحف القديمة كانت تطرح غموضاً والتباساً كبيرين. وهٰذا ما يفسر حملة الخليفة عثمان لمَعْيَرة أو توحيد النَّصّ القرآني، وأمْر الإمام علي بضرورة إضافة النقط علىٰ حروف القرآن الصامتة والمصوّتة [أو ما يسمىٰ بالإعجام].فإن كان القرآن قد وصل إلينا بدون أن يلحقه أي تغيير، فالسبب راجع بالضبط الىٰ كونه "قرآنا" أي نصاً يُقرأ أو يُتلىٰ، وليس [نصاً] "مكتوباً. ولولا القرار الحكيم الذي اتخذه الحجاج بن يوسف، الطاغية الشهير، بخصوص التحويل الكامل لحروف القرآن الصامتة إلىٰ حروف مصوّتة [بإضافة الحركات أو الشكل] في نهاية القرن الأول من الهجرة، لكان قد حصل بالتأكيد الكثير من التشويش والفوضىٰ. وبفضل هذه الإصلاحات، المتمثلة في استعمال حركات الحروف وعلامات الإعراب، "وصلت الأبجدية العربية إلىٰ درجة من الكمال حيث إن نصاً عربياً مشكولاً، مثل النَّصّ القرآني، أضحىٰ لا يضاهيه في الدقة والإتقان أي نظام كتابة آخر في العالم." وللأسف، لم يتوسع هٰذا التدقيق ليشمل النصوص أو المخطوطات الأخرىٰ. وبالفعل فإلىٰ حدود عصرنا الحديث، لم تكن تُستعمل علامات الوقف، والفواصل، وعلامات الترقيم الاخرىٰ. إذ كانت الوثائق كلها بمثابة جملة واحدة مسترسلة ولا متناهية. ونتيجة لهٰذا، أصبح غالباً من الصعب، حتىٰ بالنسبة للعرب،

أن يعرفوا بالضبط متىٰ تنتهي جملة من الجمل ومتىٰ تبتدئ أخرىٰ، مما يؤدي الىٰ وجود تأويلات متعددةمحتملة في المعنىٰ [للنص الواحد].

إن مقارنة النسخ المختلفة لعهود النَّبيّ تعطي لنا صورة واضحة عن كيفية توارث الأحاديث النبوية والصعوبات التي واجهها النساخ والباحثون. لم يكونوا فقط ينقلون النصوص القديمة التي كانت تشوبها أخطاء، بل كانوا أيضـاً يؤولونها، ويعلقون عليها، ويخضعونها للتحديث اللغوي، وفي كثير من الأحيان، كانوا يعملون علىٰ تحسينها رغبة في الوضوح. قد يكون النساخ والباحثون مخلصين في تحرِّيهم لفك رموز الحروف الصامتة الساكنة التي كانت تحتمل العديد من التأويلات؛ ومع ذلك فإن ميولهم الإيديولوجية، سواء كانوا سنيين، أو شيعة، أو مُتَصَوّفة، كانت تظهر للعيان في خياراتهم في آخر المطاف. بل وصل الأمر ببعضهم إلىٰ درجة إضافة شروح وتفصيلات في النَّصّ الأصلي.فإذا كان هٰذا تعليقـاًتم خلطه بالنص، فبالإمكان أيضـاً أن يكون تحريفـاً أو إقحامـاً متعمَّداً. إذا كان الفرنسيون [والإيطاليون أساسـاً] يقولون إن "الترجمة خيانة"، فقد يحق لنا في هٰذا السياق أن نقول إن النسخ خيانة نصية.

فيما يتعلق بالعهود النبوية، كان تأثير النساخ طفيفـاً. إذ يبدو أن النساخ الذين اشتغلوا علىٰ أي عهد من العهود كانوا يستعملون نفس المصادر الأصلية. كان لدىٰ بعضهم معرفة ممتازة باللغة العربية، وهٰذا ما مكنهم من إنتاج نسخ أكثر بلاغة. وقد كافح آخرون لفهم النسخ الأصلية القديمة وارتكبوا كثيراً من الأخطاء. عندما يُواجهون بكلمات، أو جمل، أو مقاطع كاملة مكتوبة بشكل باهت، فإن بعض النساخ يتخطونها. وقد حاول البعض الآخر ملأ الفراغات. وقام بعض النساخ بتحسين النصوص الأصلية؛ وفشل البعض الآخر فعلاً في إعطائها حقها حيث أنتجوا كلامـاً مبهمـاً. ورغم أن البعض قد يتفاجأ 'بالأخطاء' الإملائية الموجودة في العهود، فإن مثل هذه الأمور لا تفاجئ أبداً الباحثين الحقيقيين الذين يعرفون تمام المعرفة أن 'الإملاء' لم يكن ثابتـاً في أية لغة، خلال القرون الوسطىٰ، وبأن الإملاء خاضع للتطور اللغوي. وخلال جزء هام من التاريخ، كان الناس يرسمون الكلمة إملائيـاً بالشكل الذي يريدونه. لكن، شجب عهود النبي، أو وثائق أخرىٰ أيضـاً، بحجة أن

النَّبيّ ﷺ، أوالإمام عليًّا، أو الخليفة عمر لا يمكنهم أبداًأن يرتكبوا 'خطأ' إملائيًا أو نحويًا، هو أمر ينمّ عن جهل مثير للشفقة، لأن النحو والإملاء العربيين لم يكونا قد تم تقعيدهما بعد في ذلك الوقت. فمثلا كانت كلمة 'صراط' تكتب بـ'السين' و'الصاد'. وكانت كلمة 'الله' تكتب أحيانا بـ'لام' واحد (في اللغة الانجليزية): Allah. هناك كتب كاملة تتناول هٰذا الموضوع.

بينما قد تكون المتغيرات النصية مزعجة ومثبطة لهمم العديد من المسلمين، فإن هٰذا الأمر ليس بقضية جديدة. فقد قال واثلة بن الأسقع بأن ما يهم عند رواية الأحاديث هو المعنىٰ وليس الكلمات المُتلفَّظ بها بالضبط (غيوم XXXIX). فقد كان من عادة محمد بن سيرين (٦٥٣–٧٢٨م) علىٰ سبيل المثال، "أن يستمع الىٰ أحاديث من أفواه عشرة أشخاص مختلفين يستعملون عشر كلمات مختلفة بمعنىٰ واحد"(غيوم XXXIX). وقد يكون 'نهج البلاغة' عمل من تأليف الإمام عليّ بن أبي طالب (توفي ٦٦١م)، إلا أن هٰذا لا يعني بأن كل كلمة فيه هي للخليفة الرابع. كما أن 'الصحيفة السجادية'، قد تكون في جزء كبير منها، عمل الإمام علي زين العابدين (توفي ٧١٢م)؛ إلا أن بعض أجزائها هُذّب أسلوبه من قبل نساخ وباحثين لاحقين (شيتيك XX). وقد لا يكون بعض أجزائها أصيلاً بالمرة. في حالة عهود النبي، التي كانت تنتقل في شكل مكتوب لأزيد من نصف ألفية، ما ينبغي أن يكون مثيراً لدهشتنا ليس هو الاختلافات الطفيفة في الكلمات، وإنما الاستقرار العام لمعنىٰ النَّصّ علىٰ مر القرون. قد يتم الاختلاف في اختيار الكلمات، إلا أن معانيها تبقىٰ نفسها في الغالب. بدل أن يلقي هٰذا الأمر ظلالاً من الشك علىٰ أصالة العهود وصحتها، فإن هذه الحقيقة تساعد فعلاً علىٰ إثبات موثوقيتها. خلافًا لمعظم الأحاديث النبوية، المعتمِدة علىٰ الأخبار المنقولة عبر تقاليد الرواية الشفهية لفترة تتراوح بين قرن ونصف إلىٰ أزيد من ألفية، فإن العهود النبوية عبارة عن نسخ لوثائق من إملاء رسول الله ﷺ. بينما قد تحتاج قولة شفهية الىٰ سلسلة من الرواة، فإن هٰذا الشرط غير مطلوب من وثيقة [مكتوبة] مستمَدَّة مباشرة من النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. ويتمحور المشكل الوحيد حول المسائل المتعلقة بالنسخ. وبما أن هذه الدراسة قد ركزت علىٰ مضمون العهود، فإن

تحليلاً لغوياً للمخطوطات كان خارج نطاق البحث. ينبغي دراسة العهود المكتوبة بكلتا اللغتين العربية والفارسية لمعرفة ما إذا كان استعمالها يتسق مع استعمال القرن السابع، وفيما إذا كانت هناك علامات تدل علىٰ تطورات لغوية لاحقة. ينبغي إذن أن يقوم باحث متخصص في اللسانيات العربية، والفارسية، والتركية بفحص العهود، والوقوف عند أية إشارة دقيقة وفاصلة لآثار الترجمة. إن التشويش الذي يحدثه الخلط بين حرفي 'السين' و'الصاد' يشير إلىٰ أن نساخ أو مترجمي بعض العهود لم يكونوا ناطقين أصليين للغة العربية. إن أخطاء الترجمة غالباً ما تعطينا مؤشرات حول اللغة الأم للمترجم. بعبارة أخرىٰ، هذه الدعوة مفتوحة للسانيين العرب الآخرين الراغبين في توسيع معرفتنا بهذه الوثائق الثمينة.

أما الاختلافات الموجودة في القوائم المتعلقةبأسماء الشهود، فينبغي أن لا يقلق المسلمون كثيراً بشأنها بما أنها قد تكون مجرد إضافات لاحقة. بعض نسخ عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان سيناء تظهر قوائم من ستة عشر مُوقِّعاً بينما تضم قوائم أخرىٰ، إثنين وعشرين توقيعاً. لكن حتىٰ عندما يكون العدد متطابقاً، فإن أسماء الموقعين تختلف. فعدد الصحابة المذكورين في نسختين من عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي العالم متطابق، وهو محدد في سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين.وهٰذا هو أيضاً عدد الشهود الموجودين في عهد النَّبيّ مُحَمَّد لمسيحيي نجران. لكن إحدىٰ أطول قوائم الموقعين توجد في عهد النَّبيّ مُحَمَّد للمسيحيين الآشوريين، وعددهم إثنان وثلاثون. لماذا ستة عشر؟ لماذا إثنان وعشرون؟ ولماذا سبعة وثلاثون أو ثمانية وثلاثون من الشهود؟ هل هناك أية رمزية من وراء هذه الأرقام؟ هل كان النساخ يحاولون تلبية معيار معين رسخته التقاليد والأعراف؟ هل كانوا ببساطة يضعون قوائم الصحابة عشوائياً؟ أم كانت العهود تنتقل عبر صحابة مختلفين؟ مرة أخرىٰ، ما يبدو أنها سلسلات رواة مباشرين ومن الجيل الأول يمكن ببساطة أن تكون قد لُفِّقت في وقت لاحق.وإذا كان الأمر كذلك، فسوف يعني أن العلماء المسلمين الأوائل لم يكونوا يعاملون علوم الحديث بالجدية اللازمة، إذ كانت سلسلات الرواة [أو الأسانيد] مجرد ركائز تُستعمل لدعم الأقوال التي يتم الاستشهاد بها.

ويمكن للبحث الذي يرتكز عليه هٰذا الكتاب أن يصلح كأساس لإنجاز دراسة مفصلة حول تطور عدة مصطلحات مثل: مؤمن، ومسلم، ومشرك، وكافر، ومنافق. في الاستعمال الإسلامي الحديث، يُطلق إسم 'مسلم' علىٰ الشخص الذي يقر بأنه يدين بالإسلام، أما 'المؤمن' فهو المسلم ذو الإيمان الحقيقي، و'المشرك' هو أي واحد يرتكب شركًا أو اعتقد بوجود أنداد أو شركاء لله، بما في ذلك المشركين والمسيحيين القائلين بمبدإ التثليث، ومن يؤمنون بألوهية المسيح. أما مصطلح 'الكافر' فإنه ينطبق علىٰ جميع غير المسلمين، سواء كانوا يهوداً، أونصارىٰ، أو زرادشتيين، أو بوذيين، أو طاويين، أو هندوسًا، أو وثنيين، أو ملاحدة أو غير ذلك. إن 'دستور المدينة' وعهود النَّبيّ المختلفة لا تؤيد هذه التعريفات السائدة. في هذه المصادر المبكرة، كان يُنظر إلىٰ أصحاب جميع الديانات الإبراهيمية—اليهود، والنصارىٰ، والمسلمين— علىٰ أساس أنهم مؤمنون. أما مصطلح 'مسلمون' فينطبق علىٰ المعتقدين في الإسلام فقط، أي أولئك الذين يؤمنون بمُحَمَّد ﷺ باعتباره خاتم أنبياء الله المرسلين، ويعتنقون الإسلام ويستسلمون للخالق. وكان مصطلح 'المشركون' يطلق خصيصًا علىٰ من يؤمن بتعدد الآلهة، وليس علىٰ المسيحيين الذين لا يستجيبون لمطلب التوحيد الإسلامي الصارم. أما عن مصطلح 'كفار' فقد كان يستعمل لوصف الوثنيين، والمشركين، والملحدين. ولم يكن ينطبق، كما هو حاصل في أيامنا المعاصرة، علىٰ 'أهل الكتاب' الذين كانوا يعيشون في سلام مع المسلمين، رغم أنه كان بالإمكان استعماله لوصف أولئك اليهود والنصارىٰ الذين كانوا يشنون حربًا ضد المسلمين. لقد أقام النَّبيّ ﷺ تمييزاً واضحًا بين المسيحيين 'الأصدقاء'، مثل الروم الأرثوذكس، والأرمن، والآشوريين؛ والمسيحيين 'الأعداء'، مثل البيزنطيين. إذ كما هو منصوص في القرآن: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (٥: ٥١). هذه الآية تنطبق علىٰ غير المسلمين المعادين للإسلام. إضافة إلىٰ ذلك، وحسب ما ذكره دايفيد داكايك في 'أسطورة الإسلام المحارب'، في كتاب 'الإسلام، الأصولية وخيانة التقليد'، فإن كلمة 'أصدقاء' أو 'أولياء' في هٰذا السياق ربما لا تعني 'رفاق' بل شيء أقرب إلىٰ 'شفيع' أو 'أوصياء قانونيين'. "إذا لم يكن لدىٰ الكفار نوايا مشبوهة للتآمر أو العدوان

ضد المسلمين وكان لديهم ميل للتعايش معهم في سلام" -يقول إبراهيم أميني- "فيمكن لدولة إسلامية، وفق تشخيصها لمصالح الإسلام، أن تبرم عقود التعايش السلمي المتبادل معهم.وفي الأمور الشرعية (التي تبيحها 'الشريعة')، التي تعود بالنفع علىٰ كلا الطرفين، يُسمح لهم حتىٰ بالتعاون فيما بينهم" (الجزء ٨). وكما ينص القرآن علىٰ ذلك:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (٦٠ : ٨-٩).

باعتبار الإسلام دين سلام يسعىٰ إلىٰ نشر السلام الاجتماعي والسياسي، والبيئي والروحي، فإنه منفتح ومستعد دومـًا للحوار. يقول تعالىٰ ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾(٨:٦١). وكما يوضح إبراهيم أميني:

> "من الواضح من خلال مواثيق النَّبيّ مع الكفار أنه بإمكان الدولة الإسلامية، وهي تأخذ بعين الاعتبار مصالح الإسلام والمسلمين، أن تعقد عهوداً ومواثيق الصداقة والتعاون مع الكفار، والمشركين، وأهل الكتاب في أمور المصلحة المشتركة مثل الفلاحة، والصناعة، والتجارة، والاقتصاد، والدفاع. وبطبيعة الحال، لا ينبغي أن تمهد هذه المواثيق الطريق لتأثير وتدخل الكفار في الشؤون الداخلية للدولة الإسلامية، كما لا يجب أن تعرقل استقلالها وأمنها، الذي يجب أن يوضع علىٰ رأس قائمة الأولويات خلال إبرام مثل هذه الاتفاقيات. ولا يجب بأي حال من الأحوال أن يتاح لهذه الاتفاقيات أن تقوي مكانة الكفار وأن تعرض استقلال المسلمين للخطر'.

خلافـًا لعصرنا الحالي، حيث يصر بعض الباحثين بأن جميع المسيحيين هم من 'أهل الكتاب'، -بما في ذلك الليبراليين العلمانيين والأصوليين المحافظين- فقد كان المسلمون الأوائل يميزون بين أتباع المسيح الذين كانوا أصدقاء، وأتباع المسيح

المزعومين الذين كانوا أعداء. إن شخصاً مثل القديس يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون) (توفي ٧٤٩/ ٧٦٤م)، والذي عرّف الإسلام بكونه "بدعة" مسيحية، لا يمكن بالكاد اعتباره من 'أهل الكتاب'ـ أما البطريرك تيموثي الأول البغدادي (٨/ ٧٢٧-٨٢٣م)، الذي عرّف الإسلام بكونه عقيدة سماوية قادت الكثير من الناس إلىٰ الإيمان بإله واحد، فيمكن اعتباره صديقاً (بيكر، "الإسلام"، ٣٢٤). كما كتب تيموثي ل.بيكر، "في الأوقات التي كانت فيها الكنيسة خاضعة للحكم الإسلامي، كانت هناك محاولات أكثر لكسب فهم وُدّي، وكان يمكن مشاهدة قدر ما من التكيف (وفق المخطط الذي كان محمد قد أتىٰ من خلاله بمبدإ التوحيد الديني لشعبه، إضافة إلىٰ حس من التوقير للكتب المقدسة، وقانون أخلاقي - كل هٰذه أمور تعبر عن عناصر نابعة من الوحي الإلٰهي" (٦٤٤). إذا كان المسيحيون الشرقيون الذين خضعوا للإسلام وأظهروا احتراماً للمعتقدات الإسلامية، يصنفون علىٰ أنهم من 'أهل الكتاب'، فإن مثل هٰذا التصنيف لا يمكنه بالتأكيد أن ينطبق علىٰ المسيحيين البيزنطيين، الذين كانوا يعتبرون محمداً نبياً مزيفاً، والقرآن كتاباًمختلقاً، والإسلام ديناً ضالاً. ورغم مرور ١٤٠٠ سنة من الزمان، فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تمكنت بالكاد أن تتصالح مع الإسلام. كما يفيد 'كتاب تعليم الكنيسة الكاثوليكية' الآن، فإن "مخطط النجاة يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق بالدرجة الأولىٰ، ويوجد ضمنهم المسلمون؛ وهٰؤلاء يقرّون بتمسكهم بعقيدة إبراهيم، وهم يعبدون إلىٰ جانبنا الله الواحد الرحيم، الحاكم بين الناس يوم القيامة" (١٨٥: مرسوم ٨٤١). وبالتالي، فإن مجرد تفضيل النَّبيّ ﷺ للكنيسة الشرقية لأسباب سياسية وربما دينية لا يعني أن وعده لا يتسع ليشمل الكاثوليك الذين لهم موقف ودّي تجاه الإسلام والمسلمين. وأخيراً، هناك 'المنافقون' وهم كفار كانوا يتظاهرون بأنهم مسلمون لكنهم كانوا يناصرون أعداء المسلمين. هٰذا المصطلح لا ينطبق علىٰ ضِعاف الإيمان من المسلمين. لكن، في النهاية، ومع تفكك الوحدة الإسلامية وتشتت المسلمين إلىٰ مذاهب وطوائف، فإن مصطلحات من قبيل 'كافر' و'مشرك' بدأت تُشهر بسخاء من مجموعة لأخرىٰ. أما بالنسبة لليهود والنصارىٰ، فيبدو أن هناك بعض الغموض عندهم بخصوص مصطلح 'مسلم'. فمن الظاهر أن لدىٰ بعض الطوائف انطباع

بأن ’الإسلام‘ أو ’الخضوع‘ هو ببساطة الخضوع السياسي للنبي مُحَمَّد ﷺ وليس بالضرورة خضوعـًا للدين الذي كان يبشر به.

يبدو أن هٰذه المصطلحات عانت من تضييق في المعنىٰ عبر القرون نتيجة للصراع الديني من الاعتراف بهم كإخوة وأخـوات الإيمان المنتمين إلىٰ الديانة الإبراهيمية الأوسع، صار اليهود والنصارىٰ كفاراً في آخر المطاف. ونتيجة لهٰذا، أفتىٰ بعض الفقهاء بأن أهل الكتاب نجسون شعائريـًا، وبأنه لا يمكن أكل لحوم ذبائحهم، ولا يمكن اتخاذ نسائهم زوجات دائمات أو حتىٰ لفترة محددة من قبل المسلمين. وكما بينت رولا جوردي أبيصعب، كانت بعض هٰذه الأحكام نتاجـًا لقوىٰ اجتماعية وسياسية (٦٤-٦٦). لم يكن أهل الكتاب وحدهم من كان يُـنعت بالكفر والإلحاد، بل كذلك فئة من المسلمين؛ لقد تميز فلان النجدي (القرن الثامن عشر الميلادي) بكونه من الخوارج الجدد، وعُـرف عنه أخذه لبعض الآيات القرآنية التي نزلت بشأن المشركين والكفار وتطبيقها علىٰ أهل السنة والشيعة والمتصوفة من المسلمين. ويعتقد الوهابيون أنهم هم وحدهم 'الموحدون' الحقيقيون وما عداهم هم أهل بدعة وشرك. وحتىٰ بعض الفقهاء المحسوبين علىٰ الطائفة 'المعتدلة' و'المتنورة' أمثال منجان المصري (القرن العشرين الميلادي) رددوا مثل تلك الأفكار، وأفتوا بأن الشيعة كفار، وأنهم شر من اليهود والنصارىٰ. مثل هذا الرأي يبين بجلاء مدىٰ ديماغوجية أفكار هذا الداعية [وأمثاله] حول أي شخص لا يتبنىٰ السلفية [المنغلقة]. . كيف يمكن إذن لأي واحد أن يقنع مثل هٰؤلاء الناس بأن ’أهل الكتاب‘ المسالمين، علىٰ الأقل أولئك الذين هم يهود ونصارىٰ مؤمنون وممارسون لشعائرهم، هم مؤمنون، عندما يعتقدون بأن أتباع المذاهب الأربعة، جنبـًا إلىٰ جنب مع الشيعة، والمُتَصَوِّفة، والإباظيين، كلهم كفار؟ إن الوضع مأساوي بالتأكيد، لأنه لا يمكن أن تقوم هناك وحدة تجمع اليهود والمسيحيين والمسلمين دون أن تكون هناك أولا وحدة بين المسلمين أنفسهم. من الواضح أن الأنظمة القائمة تفهم هٰذا، مما يدفعها إلىٰ تكريس جهدها لإشعال الصراعات الطائفية في شتىٰ أقطار العالم الإسلامي. وهكذا يبقىٰ شعار "فرق تسد" هو القانون المتحكم.عندما قام الاحتلال الأمريكي في العراق بحظر حزب البعث

السني وأنشأ نظاماً ذا هيمنة شيعية، رغم المخاطرة في إثارة غارات من إيران، فقد ساهم هٰذا في زعزعة الاستقرار بعمق في العراق من خلال إثارة العنف الطائفي. وحسب نعوم تشومسكي، في رسالة إلكترونية لكاتب 'تصدير' هٰذا الكتاب، فإن الولايات المتحدة، مثل بريطانيا قبلها، طالما دعمت الجماعات الإسلاموية المتطرفة لكي تحول دون نشوء دول قومية إسلامية قوية، والتي هي بمثابة "العدو الحقيقي" في نظرها.

> "إن الحماية القانونية لأهل الكتاب، " يقول رضا شاه-قاسمي، "مودَعة في ثنايا الوحي الإسلامي، وهي قائمة علىٰ أساس وحدة الرسالة الإبراهيمية." "وحدة الجوهر هذه،" يواصل الكاتب قائلاً، "تتجاوز الاختلافات بين الطوائف الدينية لتشكل بذلك الأسرة الإبراهيمية." وبينما يرىٰ بعض الباحثين السطحيين بأن مكانة 'أهل الكتاب' تبقىٰ ثانوية لمكانة المسلمين، فإن شاه-قاسمي يقول محقاً بأن "مبدأ الحماية القانونية هو في حد ذاته تعبير عن الوحدة الأساسية للأديان الإبراهيمية، وحدة روح باطنية مرتبطة مباشرة 'بما هو أفضل'، وما هو 'أحسن'، والذي ترجع إليه الأولوية علىٰ الاختلافات بين الأديـان علىٰ مستوىٰ الأشكال الخارجية." بعبارة أخرىٰ، "تماماً مثلما تتجاوز الحقيقة الإلٰهية كل العقائد فإن الإخلاص النزيه لتلك الحقيقة يتجاوز الإطار العقائدي الذي يكتمل داخله" (قاسمي). كما تبرهن عهود النَّبيّ ﷺ بوضوح، فإن 'أهل الذمة' أو 'أهل الكتاب' يشكلون مكوناً أساساً للأمة الإسلامية. هٰذا يبين الجهل الدامغ لأشخاص، مثل ريتشارد ل.روبنستاين، الذين يزعمون بأن "الثقافة الإسلامية لا تتصور شيئاً مثل السلام الحقيقي بين المسلمين المخلصين والكفار" (١٢٤).

إذا كان النَّبيّ ينظر إلىٰ نفسه باعتباره رئيساً لـ'آل إبراهيم' أو عائلة إبراهيم، أي بطريركا يقود كلا من اليهود والنصارىٰ والمسلمين، فإن هٰذا الائتلاف المثالي من 'أهل الكتاب'، في مفهومه الأوسع، قد انهار وصار في النهاية يُعرَّف فقط بزعيم المسلمين. وفق الإيمان الشيعي بالآخرة، سوف يتم استرداد التوازن، المفقود حالياً،

عن طريق الإمام محمد المهدي، الذي سيحقق "الظهور العالمي للمملكة الكبرىٰ لآل محمد" أو "الولاية المحمدية" التي وُهبت لأسرة إبراهيم في شخص 'الإمام الثاني عشر' من 'آل بيت النبي'.فحسب آية الله ميرزا مهدي بويا يزدي، "يمكن لهٰذا الإمام الثاني عشر، ولا أحد غيره، أن يدعي بأنه يجمع في شخصه كل الإرث الروحي والجسدي من آدم إلىٰ آخر الأنبياء، محمد. إنه يمثل كلا الفرعين من 'أسرة إبراهيم'، الفرع الإسماعيلي من خلال والده والفرع الاسرائيلي من خلال والدته نرجس، وهي سليلة مباشرة لسيمون بيتر [سمعان بطرس]، الخليفة الحقيقي لنبي الله عيسىٰ المسيح" (سعيد ٤٢). من الممكن جداً أن يقوم الإمام محمد المهدي أخيراً بجمع اليهود، والنصارىٰ، والمسلمين ضمن 'أسرة إبراهيم'.

إن تعليقي، رغم أنه قد يكون جاء في حدود ضيقة، فإنه من الممكن أن يُوَسَّع بسهولة بحيث يمكن تحليل عهود النَّبيّ من وجهة نظر الفقه الإسلامي، أو العلوم السياسية، أو الاقتصاد السياسي، وكذلك علم الاجتماع، والأخلاق، والدراسات القيادية. فعلىٰ سبيل المثال، قام رضا شاه- قاسمي بنشر تعليق موجز لكنه ثاقب، عهد النَّبيّ مُحَمَّد لرهبان جبل سيناء، وهو مكتوب من وجهة نظر تراثية متجذرة جداً في القرآن والسنة. وبالنظر إلىٰ الكم الهائل من أدب الرحلات الذي تم إنتاجه باللغتين العربية والفارسية ولغات أخرىٰ من البلدان الإسلامية في القرون الماضية، فإنه ينبغي فحص كل هذه الأعمال بحثاً عن إحالات علىٰ جبل سيناء، ودير القديسة كاثرين، و'ميثاق محمد لرهبان جبل سيناء'. ينبغي القيام بمسح دقيق لأدب الأديرة، أي الكتب التي ألّفها المسلمون والمسيحيون عن الأماكن المقدسة، وكذلك فحص الكتابات الجغرافية التي أنتجها العرب والفرس. كما يبقىٰ الكثير أيضاً مما ينتظراكتشافه من خلال الروايات الأوروبية عن الأسفار إلىٰ الأراضي المقدسة. فهناك بالفعل مئات من دلائل ويوميات الرحّالة، والمجلات وسجلات السفر، مكتوبة بعدد كبير من اللغات الأوروبية، وقد تم نشرها علىٰ مدىٰ الألفية ونصف الألفية الماضية (انظر روبنسون وسميث ٥٣٤ - ٥٥٣). هٰذا لا يشمل حتىٰ مئات الكتب عن تاريخ، وثقافة وجغرافية وديانات الأراضي المقدسة التي نشرها كُتّاب لم يقوموا شخصياً بزيارة المنطقة. في

الوقت الذي سيتطلب هٰذا جهداً جباراً لإنجازه، فإنه من الواجب فحص كل هذه المصادر للحصول علىٰ تاريخ كامل لعهود النَّبيّ ﷺ. وأخيراً، أود دعوة المستعربين والمتخصصين في الحضارة الإسلامية أن يقوموا بتحسين ترجماتي [للعهود النبوية] وأن ينتجوا ترجمات جديدة بلغات أخرىٰ. من الواضح أنني لامست فقط القليل من الجوانب التي يمكن البحث فيها فيما يتعلق بعهود النَّبيّ ﷺ. ولكن يمكن لكل جانب من هذه الجوانب أن يُسبر غوره بعمق أكثر— وهي إمكانية أرجو أن تلهب الحماس والفضول الفكري لدىٰ زملائي. ولهٰذا، أدعوهم للالتحاق بالركب، إذ لا يزال العالَم مكانـاً مثيراً للغاية، حافلاً بعجائب لا تنضب.

الجُزءُ الثَّالِث

مَلَاحِق
العُهُودُ السِّتَّة

عَهْدُ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ لِرُهْبَانِ جَبَل سِينَاء

[من محمد رسول الله]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

نُسْخَةُ سِجِلِّ الْعَهْدِ كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى كَافَّةِ النَّصَارَى.

هَذَا كِتَابٌ كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى كَافَّةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَمُؤْتَمَنًا عَلَى وَدِيعَةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

كَتَبَهُ لأَهْلِ مِلَّتِهِ وَلِجَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ دِينَ النَّصْرَانِيَةِ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، قَرِيبِهَا وبَعِيدِهَا، فَصِيحِهَا وعَجَمِيِّهَا، مَعْرُوفِهَا وَمَجْهُولِهَا، كِتَابًا جُعِلَ لَهُمُ عَهْدًا.

فَمَنْ نَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي فِيهِ وَخَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ وتَعَدَّى مَا أَمَرَهُ كَانَ لِعَهْدِ اللهِ نَاكِثًا وَلِمِيثَاقِهِ نَاقِضًا وَبِدِينِهِ مُسْتَهْتِرًا وَلِلَّعْنَةِ مُسْتَوْجِبًا، سُلْطَانًا كَانَ أَمْ غَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِذَا احْتَمَى رَاهِبٌ أَوْ سَائِحٌ فِي جَبَلٍ أَوْ وَادٍ أَوْ عُمْرَانٍ أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ رَدْنَةٍ أَوْ بَيْعَةٍ، فَأَنَا أَكُونُ مِنْ وَرَائِهِمْ، ذَابًا عَنْهُمْ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ لَهُمْ بِنَفْسِي وَأَعْوَانِي وَأَهْلِ مِلَّتِي وَأَتْبَاعِي، لِأَنَّهُمْ رَعِيَّتِي وَأَهْلُ ذِمَّتِي.

وَأَنَا أَعْزِلُ عَنْهُمُ الأَذَى فِي الْمُؤَنِ الَّتِي تَحْمِلُ أَهْلَ الْعَهْدِ مِنَ الْقِيَامِ بِالْخَرَاجِ، إِلاَّ مَا طَابَتْ نُفوسُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جَبْرٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلاَ يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ مِنْ أُسْقُفِيَتِهِ وَلاَ رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ وَلاَ جَلِيسٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ وَلاَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ. وَلاَ يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَلاَ يَدْخَلُ شَيْءٌ مِمَّا لِكَنَائِسِهِمْ فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ وَلاَ فِي مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ عَهْدَ اللهِ وَخَالَفَ رَسُولَ اللهِ.

وَلاَ يُحْمَلُ عَلَى الرُّهْبَانِ وَالأَسَاقِفَةِ وَلاَ مَنْ يَتَعَبَّدُ جِزْيَةٌ وَلاَ غَرَامَةٌ، وَأَنَا أَحْفَظُ ذِمَّتَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَالشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، وَهُمْ فِي ذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَمَانِي مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ.

وَكَذَا مَنْ يَنْفَرِدُ فِي الْجِبَالِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُبَارَكَةِ لاَ يَلْزَمُهُمْ مِمَّا يَزْرَعُونَ لاَ خَرَاجَ وَلاَ عُشْرَ، وَلاَ يُشَاطَرُونَ لِكَوْنِهِ بِرَسْمِ أَفْوَاهِهِمْ، وَيُعَانُونَ عِنْدَ إِدْرَاكِ الغَلَّةِ بِإِطْلاَقِ قَدَحٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ إِرْدَبٍّ بِرَسْمِ أَفْوَاهِهِمْ.

وَلاَ يُلْزَمُونَ بِخُرُوجٍ فِي حَرْبٍ وَلاَ قِيَامٍ بِجِزْيَةٍ وَلاَ مِنْ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ وَذَوِي الأَمْوَالِ وَالْعَقَارَاتِ وَالتِّجَارَاتِ مِمَّا أَكْثَرَ مِنْ اثْنَي عَشَرَ دِرْهَمًا بِالْجَمْجَمَةِ فِي كُلِّ عَامٍ.

وَلاَ يُكَلَّفُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَطَطًا وَلاَ يُجَادَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ "إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُخْفَضُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ، وَيُكَفُّ عَنْهُمْ أَذَبُ الْمَكْرُوهِ حَيْثُمَا كَانُوا وَحَيْثُمَا حَلُّوا.

وَإِنْ صَارَتِ النَّصْرَانِيَةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ فَعَلَيْهِ "رِضَاهَا" وَتَمْكِينُهَا مِنَ الصَّلاَةِ فِي بِيْعَتِهَا، وَلاَ يُحِيلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ هَوَى دِينَهَا، وَمَنْ خَالَفَ عَهْدَ اللهِ وَاعْتَمَدَ بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ عَصَى مِيثَاقَهُ وَرَسُولَهُ.

وَيُعَانُونَ عَلَى مَرَمَّةِ بِيَعِهِمْ وَمَوَاضِعِهِمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَعُونَةً لَهُمْ عَلَى دِينِهِم وَفِعَالِهِم بِالعَهْدِ.

وَلاَ يُلْزَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِنَقْلِ سِلاَحٍ، بَلِ الْمُسْلِمُونَ يَذِبُّونَ عَنْهُمْ وَلاَ يُخَالِفُونَ هَذَا الْعَهْدَ أَبَدًا إِلَى حِينِ تَقُومُ السَّاعَةُ وَتَمْضِي الدُّنْيَا.

وشَهِدَ بِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَمِيعِ النَّصَارَى وَالوَفَاءِ بِجَمِيعِ مَا شَرَطَ لَهُمْ عَلَيْهِ مَنْ أَثْبَتَ اسْمَهُ وشَهَادَتَهُ آخِرَهُ.

أَسْمَاءُ الشُّهُود:

عليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ/أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَة/عَمرُ بْنُ الخَطَّابِ /عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ/أَبُو الدَّرْدَاءِ/أَبُو هُرَيْرَةَ/عبدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ/عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ/حَارِثُ بْنُ ثَابِتٍ/عَبْدُ العَظِيم بْنُ حَسَنٍ/فُضَيْلُ بْنُ عَبَّاسٍ/الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ/طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ الله/سَعْدُ بْنُ مُعَاذ/سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ/ثَابِتُ بْنُ نَفِيسٍ/زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ/أَبُوحَنِيفَةَ بْنُ عُبَيَّةَ/هَاشِمُ بْنُ عُبَيَّةَ/مُعَظَّمُ بْنُ قُرَشِيٍّ/عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ/عَامِرُ بْنُ يَاسِينٍ

وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هَذَا الْعَهْدَ بِخَطِّهِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَارِيخِ الثَّالِثِ مِنَ الْمُحَرَّمِ، ثَانِي سَنَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَأُودِعَتْ نُسْخَتُهُ فِي خِزَانَةِ السُّلْطَانِ. وَخُتِمَ بِخَتْمِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي جِلْدٍ أَدِيمٍ طَائِفِيٍّ.

فَطُوبَىٰ ثُمَّ طُوبَىٰ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ وَبِشُرُوطِهِ، ثُمَّ طُوبَىٰ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّاجِينَ عَفْوَ رَبِّهِ.

وَفِي الْأَصْلِ الْمَنْقُولِ مِنْهُ هَذِهِ النُّسْخَةُ الْمُتَوَّجَةُ بالنِّيشَانِ الشَّرِيفِ السُّلْطَانِيِّ مَا صُورَتُهُ. نُقِلَتْ هَذِهِ النُّسَخَةُ مِنَ النُّسْخَةِ الَّتِي نُقِلَتْ مِنَ النُّسْخَةِ الْكَائِنَةِ بِخَطِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه).

بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ السُّلْطَانِي لاَ زَالَ نَافِذاً بِعَوْنِ الْمُعِينِ السُّبْحَانِيِّ، ووُضِعَتْ بِأَيْدِي طَائِفَةِ الرُّهْبانِ القَاطِنِينَ بِجَبَلِ طُورِ سِينَا لِكَوْنِ النُّسْخَةِ المَنْقُولَةِ مِنْ نُسْخَةٍ بِخَطِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ضَائِعَةٌ، وَلِيَكُونَ سَنَداً عَلَىٰ مَا تَشْهَدُ بِهِ الْمَرَاسِيمُ السُّلْطَانِيَّةُ والمُرَبَّعاتُ

والسِّجِلاَّتُ الَّتِي فِي أَيْدِي الطَّائِفَةِ المَزْبورَةِ.

صُورَةٌ نُقِلَتْ عَنِ الْأَصْلِ بِدُونِ الفَضْلِ وَالوَصْلِ.

نَمَّقَهُ أَضْعَفُ عِبادِ البَارِي نُوحٌ بْنُ أَحْمَدَ الْأَنْصَارِيُّ.

القَاضِي بمِصْرَ المَحْروسَةِ عَفَا عَنْهُمَا،

مَخْتومٌ بِخَتْمٍ مُسْتَديرٍ ثِقَتُهُ هَكَذَا

نُوحٌ أَحْمَدُ الأَنْصَارِيُّ

عَلَىٰ شَاكِلَةِ مَهرٍ أَصْلُهُ الْمُمْضَىٰ هَذَا الإِمْضَاءُ

نَمَّقَهُ الفَقِيرُ مُحَمّدٌ الْقَاضِي بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ غُفِرَ لَهُ.

عَهْدُ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ لِنَصَارَى فَارِس

[من محمد رسول الله]

(أورد النَّصّ أربي Arpee ١٩٤٦ : ٣٥٥-٣٦٠)

(تُرجم النَّصّ عن نسخة مكتوبة باللغة الإنجليزية

نظراً لتعذر الحصول على أية نسخة عربية لهذه الوثيقة)

ترجم النَّصّ الإنجليزي: د. عمرو سلاّم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِيَكُنْ هَذَا الكِتَابُ مَعْرُوفاً بِخَطِّهِ وَأُسْلُوبِهِ عِنْدَ سَائِرِ النَّاسِ، بِأَنَّهُ عَهْدٌ كُتِبَ لِجَمِيعِ الأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ القَاطِنَةِ فِي سَائِرِ الدُّنْيَا فِي الجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ لِجَزِيرَةِ العَرَبِ وَفَارِسَ، أَوْ دَاخِلَهُمَا، سَوَاءٌ أَكَانُوا فِي اِتِّصَالٍ مُبَاشِرٍ بِالمُؤْمِنِينَ [المُسْلِمِينَ] أَوْ بَعِيدِينَ عَنْهُمْ، وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ لَدَيْهِمْ مَعْرِفَةٌ بِالمُؤْمِنِينَ [المُسْلِمِينَ] أَمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِهِمْ. إِنَّ هَذَا العَهْدَ هُوَ جَدِيرٌ بِالطَّاعَةِ، كَمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى المُسْلِمِينَ قَاطِبَةً أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ. وَكُلُّ مَنْ اِعْتَبَرَ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهِ العَمَلُ بِمَا جَاءَ فِي هَذَا العَهْدِ فَإِيمَانُهُ صَحِيحٌ كَإِيمَانِ أَهْلِ التَّقْوَى الَّذِينَ يَسْتَأْهِلُونَ الجَزَاءَ عَلَى ذَلِكَ. أَمَّا مَنْ تَعَمَّدَ تَحْرِيفَ مَا جَاءَ فِي العَهْدِ، أَوْ أَلْغَاهُ وَازْدَرَاهُ، أَوْ خَالَفَهُ وَعَصَى مَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرَ، وَتَمَادَى فِي مُعَاكَسَتِهِ، فَإِنَّهُ سَيُعْتَبَرُ نَاكِثاً لِعَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ. وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَحْتَرِمْ هَذَا الكِتَابَ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ نَفْسَ الجَزَاءِ، سَوَاءٌ أَكَانَ حَاكِماً أَمْ كَانَ مِنَ الرَّعِيَّةِ، مُسْلِماً وَرِعاً كَانَ، أَمْ نَصْرَانِيّاً مُؤْمِناً.

لِافْتِتَاحِ هَذَا المِيثَاقِ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ تَعَالَى الَّذِي مَنَحَنِي إِيَّاهَا بِالحَقِّ، أُعْطِي مِيثَاقاً غَلِيظاً لَمْ يُعْطِهِ أَيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي وَلَا شَهِدَ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ. وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِ أُمَّتِي مُلْزَمٌ بِالاسْتِجَابَةِ وَالعَمَلِ بِمَا أُسَطِّرُهُ فِي هَذَا المِيثَاقِ.

عَلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّقِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الدِّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ [النَّصَارَى] وَاجِبًا مُلْزِمًا لَهُمْ، وَأَنْ يُسَاعِدُوهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، قَرِيبِينَ أَمْ بَعِيدِينَ، وَفِي كُلِّ أَرْضِ النَّصَارَى: عَلَيْهِمْ حِمَايَةُ مَعَابِدِهِمْ وَأَدْيِرَةِ رُهْبَانِهِمْ وَقَسَاوِسَتِهِمْ؛ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يُوجَدُونَ بِهِ، فِي السَّهْلِ أَوْ فِي الْجَبَلِ، فِي الْبَادِيَةِ أَوْ فِي الْحَضَرِ، فِي الصَّحْرَاءِ أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ يُوجَدُونَ بِهِ. وَعَلَيْهِمْ حِمَايَةُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، شَرْقًا وَغَرْبًا، بَحْرًا وَبَرًّا.

وَبِقَدْرِ احْتِرَامِ الْمُسْلِمِينَ وَتَوْقِيرِهِمْ لِي، فَإِنَّ مِنْ وَاجِبِهِمْ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ أُولَئِكَ النَّاسِ لِأَنَّهُمْ فِي ذِمَّتِنَا، وَإِذَا حَلَّتْ مُصِيبَةٌ أَوْ مَكْرُوهٌ بِهِمْ، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُسَارِعُوا كَوَاجِبٍ عَلَيْهِمْ لِإِغَاثَتِهِمْ وَحِمَايَتِهِمْ. فَهُمْ رَعَايَا أُمَّتِي يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهَا وَيُبَادِلُونَ [الْمُسْلِمِينَ] الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ.

وَلِذَلِكَ عَلَى [الْمُسْلِمِينَ] أَنْ يَسْهَرُوا عَلَى رَاحَتِهِمْ، وَيَحْمُوهُمْ وَيُسَاعِدُوهُمْ فِي وَجْهِ أَيِّ اعْتِدَاءٍ أَوْ خَطَرٍ أَوْ مِحْنَةٍ، وَيُزِيلُوا عَنْهُمْ أَيَّ شَيْءٍ يُؤَدِّي إِلَى نَهْبِهِمْ وَسَلْبِهِمْ. وَعِنْدَ جِبَايَةِ الْجِزْيَةِ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُونَ أَدَاءَهُ، بَلْ يَجِبُ أَخْذُ الْأُمُورِ بِمُوَافَقَتِهِمْ وَرِضَاهُمْ دُونَ عُنْفٍ أَوِ اسْتِعْمَالٍ لِلْقُوَّةِ. لَا تُمَسُّ بِنَايَاتُهُمْ وَلَا يُؤْذَى قَسَاوِسَتُهُمْ عِنْدَ الْقِيَامِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُضْطَهَدُونَ بِسَبَبِ دِينِهِمْ أَوْ عَادَاتِهِمْ، بَلْ يَجِبُ تَرْكُهُمْ يُؤَدُّونَ صَلَوَاتِهِمْ كَمَا يُرِيدُونَ فِي أَمَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ وَحَسَبَ طُقُوسِهِمْ، وَلا تُهْدَمُ أَوْ تُخَرَّبُ كَنَائِسُهُمْ، وَلَا يَسْتَوْلِي أَحَدٌ عَلَى مَنَازِلِهِمْ أَوْ قَصْرٍ مِنْ قُصُورِهِمْ لِيَتَّخِذَ مِنْهَا مَسْجِدًا أَوْ مَسْكَنًا بِدُونِ مُوَافَقَتِهِمْ. وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ لِمَا جَاءَ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَخَالَفَ أَوَامِرِي فَإِنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ عَصَى هَذَا الْعَهْدَ وَتَنَكَّرَ لَهُ وَخَالَفَ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

لَا يُؤْخَذُ الْخَرَاجُ مِنْهُمْ بِمَا يَفُوقُ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ، أَوْ [مُقَابِلَهَا] مِنَ الْكِسْوَةِ،

وَيُوضَعُ فِي بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ وَيُصْرَفُ لِصَالِحِهِمْ. وَلاَ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ جِزْيَةٌ عَنْوَةً إِلاَّ مَا فَرَضْنَاهُ عَلَيْهِمْ. وَسَوَاءٌ أَكَانُوا تُجَّارًا وَأَصْحَابَ أَمْوَالٍ، أَمْ كَانُوا مِنْ سُكَّانِ البَرَارِي أَوْ مِنْ صَيَّادِي اللُّؤْلُؤِ فِي البَحْرِ، أَوْ مَالِكِينَ لِمَنَاجِمِ الأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ أَوِ الذَّهَبِ أَوِ الفِضَّةِ، أَوْ مَالِكِينَ لِعَقَارَاتٍ خِصْبَةٍ، فَإِنَّهُ لاَ يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِنْ اِثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا.

وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا عَلَى دِينِ النَّصَارَى، وَلاَ يُصَلُّونَ صَلَوَاتِهِمْ، فَيُطْلَبُ مِنْهُمْ أَدَاءُ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ؛ وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ فِي ذِمَّتِهِمْ فَلاَ يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا تَمَّ ذِكْرُهُ، [أَيْ] فِي حُدُودِ اِثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا، شَرِيطَةَ أَنْ يَكُونُوا قَاطِنِينَ حَيْثُ يَقْطُنُ بَقِيَّةُ قَوْمِهِمْ. أَمَّا المُسَافِرُونَ الَّذِينَ لاَ يَسْتَقِرُّونَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَيَتَنَقَّلُونَ بِاسْتِمْرَارٍ، فَلاَ خَرَاجَ عَلَيْهِمْ، إِلاَّ إِذَا وَرِثَ أَحَدُهُمْ إِرْثًا يَكُونُ فِيهِ لِلإِمَامِ حَظٌّ شَرْعِيٌّ، فَإِنَّ الوَاجِبَ مِنَ الضَّرِيبَةِ الشَّرْعِيَّةِ تُسْتَخْلَصُ مِنْهُ. عَلَى أَنَّ مَنْ يُؤَدِّي الضَّرِيبَةَ لاَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ تَعْنِيفٍ أَوْ شَطَطٍ فِي حَالَةِ عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى الأَدَاءِ، وَلاَ تَكُونُ قُصُورُهُ وَلا غِلالُهُ وَثِمَارُهُ مَوْضِعَ طَمَعٍ أَوْ جَشَعٍ.

وَلاَ يُطْلَبُ مِنَ النَّصَارَى أَنْ يُقَاتِلُوا بِجَانِبِ المُسْلِمِينَ ضِدَّ أَعْدَاءِ الدِّينِ، كَمَا أَنَّ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَالَةِ حَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ مَعَ الأُمَمِ الأَجْنَبِيَّةِ لاَ يُلْزِمُونَ النَّصَارَى لِلانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ لِمُحَارَبَةِ العَدُوِّ. لَكِنْ إِذَا اعْتَدَى عَدُوٌّ عَلَى النَّصَارَى فَإِنَّهُ مِنْ وَاجِبِ المُسْلِمِينَ أَلاَّ يَبْخَلُوا عَلَيْهِمْ بِخَيْلِهِمْ وَسُيُوفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ، [فَهُمْ بِذَلِكَ] يُؤَدُّونَ عَمَلاً حَسَنًا.

لاَ يُجْبَرُ نَصْرَانِيٌّ عَلَى اِعْتِنَاقِ الإِسْلاَمِ بِالْقُوَّةِ، وَلاَ [يَخُوضُ أَحَدٌ فِي] جِدَالٍ مَعَ [النَّصَارَى] إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. وَالْمُسْلِمُونَ يَخْفِضُونَ لِلنَّصَارَى جَنَاحَ الذُّلِّ أَيْنَمَا كَانُوا، وَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ أَذَى الظَّالِمِينَ. وَإِذَا حَدَثَ لِنَصْرَانِيٍّ أَنْ اِرْتَكَبَ جُرْمًا دُونَ قَصْدٍ، فَعَلَى المُسْلِمِينَ، وَمِنْ وَاجِبِهِمْ أَنْ يُسَاعِدُوهُ وَيَأْخُذُوا بِيَدِهِ فِي دُورِ القَضَاءِ

[الْمَحَاكِمِ]، حَتَّى لاَ يُعَاقَبَ عِقَابًا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَتَعُودَ السَّكِينَةُ بَيْنَ طَرَفِي النِّزَاعِ وِفْقًا لِكِتَابِ اللهِ.

وَإِذَا احْتَرَمَ [النَّصَارَى] الشُّرُوطَ الْمَذْكُورَةَ وَأَدُّوا الْجِزْيَةَ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ أَفْرَادِ أُمَّتِي، كَمَا أَنَّهُمْ مِنْ جِهَتِهِمْ لاَ يَعْتَدُونَ وَلاَ يَظْلِمُونَ الْمُسْلِمِينَ، مِنَ الآنَ وَإِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ. وَلاَ يَتَزَوَّجُ الْمُسْلِمُونَ نِسَاءَ وَلاَ فَتَيَاتِ النَّصَارَى غَصْبًا عَنْهُنَّ، إِلاَّ بِمُوَافَقَةِ أَوْلِيَائِهِنَّ أَوْ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِنَّ إِنْ أَرَدْنَ قِرَانًا أَوْ زَوَاجًا بِمُسْلِمٍ سَوَاءً بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ أَوْ بِصِفَةٍ مُؤَقَّتَةٍ، حَيْثُ يَكُونُ لِلنِّسَاءِ حُرِّيَّةُ اخْتِيَارٍ -عَنْ طَوَاعِيَةٍ وَدُونَ إِكْرَاهٍ- مَنْ أَرَدْنَ وَمَنْ اخْتَرْنَ الزَّوَاجَ مِنْهُ. وَإِذَا تَزَوَّجَتْ امْرَأَةٌ نَصْرَانِيَّةٌ رَجُلاً مُسْلِمًا، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَبْقَى عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَتَحْضُرَ صَلَوَاتِ الْكَنِيسَةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِدُونِ أَذىً أَوْ مَنْعٍ، وَتَعِيشَ كَمَا تُرِيدُ وِفْقَ عَقِيدَتِهَا وَشَرْعِ دِينِهَا. وَلاَ تُمْنَعُ مِنَ الاِتِّصَالِ بِمَنْ يَنْصَحُهَا مِنْ رِجَالِ الدِّينِ، وَلاَ تُكْرَهُ أَوْ تُجْبَرُ عَلَى تَرْكِ دِينِهَا وَشَرِيعَةِ دِينِهَا. وَمَنْ عَارَضَ مَنْطُوقَ مَا فِي هَذَا الْعَهْدِ فَقَدْ عَارَضَ اللهَ، وَعَلَيْهِ وِزْرُ وَذَنْبُ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْعَهْدِ الَّذِي كَتَبَهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ مِنَ الْمُذْنِبِينَ أَمَامَ اللهِ.

وَعَلَى النَّصَارَى أَنْ يَسْهَرُوا عَلَى أَيِّ إِصْلاَحٍ أَوْ تَرْمِيمٍ لِكَنَائِسِهِمْ وَدُورِ عِبَادَتِهِمْ وَأَدْيِرَتِهِمْ. وَإِذَا طَلَبَ الْمُسْلِمُونَ الْمُسَاعَدَةَ مِنَ النَّصَارَى، خِدْمَةً لِمَا فِيهِ خَيْرُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَلَى النَّصَارَى أَلاَّ يَرْفُضُوا لَهُمْ طَلَبَ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُونَ، مِنْ بَابِ الصَّدَاقَةِ وَحُسْنِ الظَّنِّ. وَبِمَا أَنَّ النَّصَارَى هُمْ فِي ذِمَّتِنَا وَقَدْ الْتَمَسُوا عِنْدَنَا الْمَلاَذَ وَالْحِمَايَةَ، فَإِنَّنَا نَعْتَبِرُ كُلَّ مُسَاعَدَةٍ وَكُلَّ إِغَاثَةٍ لَهُمْ مَشْرُوعَةً. وَإِذَا أَرْسَلَ أَحَدُهُمْ كَرَسُولِ سَلاَمٍ لِلتَّوَسُّطِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، فَلاَ أَحَدَ يَعْتَرِضُ سَبِيلَهُ؛ وَإِذَا كَانَ سَعْيُهُ يَخْدُمُ مَصْلَحَتَنَا فَسَعْيُهُ مَقْبُولٌ وَمَشْكُورٌ. وَمَنْ احْتَقَرَهُ فَهُوَ مِنَ الآثِمِينَ، وَعَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكِتَابِ.

[هنا يسترسل عهد آخر لمُحَمَّد نبي الله العظيم (صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم) كتبه للنصارىٰ، وهو عهد [أقره] جلالة الملك بعد ما سبق من كلام في حق النصارىٰ فيما يخص عقيدتهم وشريعتهم وقوانينهم، حريصاً علىٰ التشبث ببعض الوصايا التي يرىٰ أنه من واجب النصارىٰ أن يلتزموا بها. وعليهم ألا يقوموا بأي شيء يناقض ما سبق من الكلام، ويعملوا كل ما في وسعهم حتىٰ يكونوا في وفاق تام مع ما سيلي]

إِحْدَى الوَصَايَا هِيَ الوَصِيَّةُ التَّالِيَةُ: أَلَّا يُسَاعِدُوا المُشْرِكِينَ فِي أَيِّ شَيْءٍ سَوَاءً فِي الْعَلَنِ أَوْ فِي الخَفَاءِ، وَأَلَّا يَسْتَقْبِلُوا فِي دِيَارِهِمْ أَعْدَاءَ المُسْلِمِينَ كَيْ يَتَحَيَّنَ هَؤُلَاءِ الفُرْصَةَ المُنَاسِبَةَ لِمُهَاجَمَةِ المُسْلِمِينَ. وَأَلَّا يَسْمَحُوا لِلأَعْدَاءِ بِالِاخْتِبَاءِ فِي مَنَازِلِهِمْ أَوْ كَنَائِسِهِمْ، وَأَلَّا يُؤْوُوا جُنُودَ العَدُوِّ أَوْ يُمِدُّوهُمْ بِرُمْحٍ أَوْ سَيْفٍ أَوْ نَبْلٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

وَعَلَيْهِمْ أَلَّا يُرْشِدُوا [أَعْدَاءَ المُسْلِمِينَ] وَأَلَّا يُعَلِّمُوهُمْ كَيْفَ يُعِدُّونَ الكَمَائِنَ لِلْعَدُوِّ، وَأَلَّا يَقْبَلُوا وَدَائِعَ يُودِعُهَا العَدُوُّ عِنْدَهُمْ، وَأَلَّا يَتَخَابَرُوا مَعَ العَدُوِّ أَوْ يُسَاعِدُوهُ بِأَيِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، أَوْ يُجَهِّزُوا لَهُ مَأْوىً مَا عَدَا فِي حَالَةِ الإِكْرَاهِ.

وَإِذَا وَفَدَ مُسْلِمٌ عَلَى مَنْزِلِ نَصْرَانِيٍّ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يُقِيمَ بِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ فَلَا لُزُومَ لَهُ. وَعَلَى النَّصَارَى أَنْ يَصُدُّوا عَلَى المُسْلِمِينَ قَهْرَ وَظُلْمَ الظَّالِمِينَ.

وإِذا لَزِمَ الأَمْرُ أَنْ يُجِيرَ النَّصَارَى مُسْلِماً فِي قُصُورِهِمْ أَوْ مَنَازِلِهِمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُهَيِّئُوا لَهُ مَكَاناً لِلإِقَامَةِ، وَأَنْ يَعْتَنُوا بِهِ وَأَلَّا يُهْمِلُوهُ وَيَتْرُكُوهُ بِدُونِ طَعَامٍ مَا دَامَ مُخْتَبِئاً عِنْدَهُمْ. وَنِسَاءُ المُسْلِمِينَ وَأَطْفَالُهُمْ لاَ يَجُوزُ أَنْ يُخْدَعُوا أَو يُظْهِرُوا الْعَدَوَّ عَلَيْهِمْ، وعلى النَّصَارَى أَلاَّ يَنْكُثُوا هَذِهِ الوَصَايَا.

وَإِذَا عَارَضَ نَصْرَانِيٌّ مَا فِي هَذَا العَهْدِ أَوْ أَنْكَرَهُ، فَعَلَيْهِ وِزْرُ مَا فَعَلَ. وَعَلَيْهِ مَقْتُ اللهِ، وَيَنَالُ جَزَاءَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ بِالْحَقِّ.

وَالنَّصَارَى أَيْنَمَا كَانُوا، عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْتَرِمُوا وَيَلْتَزِمُوا بِمَا جَاءَ فِي هَذَا العَهْدِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَشَهِدَ عَلَى هَذَا العَهْدِ الحَاضِرُونَ مِنْ رِجَالِ الكَنِيسَةِ وَأُمَرَاءُ القَوْمِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَصَدَّقَهُ النَّبِيُّ الأَعْظَمُ مُحَمَّدٌ.

عَهْدُ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ لِنَصَارَى نَجْرَان

[من محمد رسول الله]

نُسْخَتُهُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَـذَا كِتَابُ أَمَانٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ النَّصَارَى، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِ نَجْرَانَ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ نِحَلِ النَّصْرَانِيَةِ،

كَتَبَهُ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ذِمَّةً لَهُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَعَهِدًا عَهْدَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَحْفَظُوهُ لَهُمْ.

لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْوُلَاةِ وَلَا لِذِي شِيعَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ وَغَيْرِهِ نَقْضُهُ وَلَا تَعَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِ،

وَلَا حَمْلُ مَؤُونَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ سِوَى الشُّرُوطِ الْمَشْرُوطَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

فَمَنْ حَفِظَهُ وَرَعَاهُ وَوَفَّى بِمَا فِيهِ فَهُوَ عَلَى الْعَهْدِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْوَفَا بِذِمَّةِ رَسُولِ اللهِ.

وَمَنْ نَكَثَهُ وَخَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَبَدَّلَهُ فَعَلَيْهِ وِزْرُهُ وَقَدْ خَانَ أَمَانَ اللهِ وَنَكَثَ عَهْدَهُ وَعَصَاهُ وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ، لِأَنَّ الذِّمَّةَ وَاجِبَةٌ فِي دِينِ اللهِ المنقرض وَعَهْدِهِ الْمُؤَكَّدِ. فَمَنْ لَمْ يَرْعَ خَالَفَ حَرَمَهَا وَمَنْ خَالَفَ حَرَمَهَا فَلَا أَمَانَةَ لَهُ وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ.

فَأَمَّا السَّبَبُ الَّذِي اسْتَوْجَبَ أَهْلِ النَّصْرَانِيَةِ الذِّمَّةَ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَحَقٌّ لَهُمْ لاَزِمٌ لِمَنْ كَانَ مُسْلِماً وَعَهْدٌ مُؤَكَّدٌ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ رِعَايَتُهُ وَالْمَعُونَةُ بِهِ وَحِفْظُهُ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهِ وَالْوَفَا بِهِ،

إِذْ كَانَ جَمِيعُ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالْكُتُبِ الْعَتِيقَةِ أَهْلَ عَدَاوَةٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِجْمَاعٍ بِالْبَغْضَاءِ وَالْجحد لِلصِّفَةِ الْمَنْعُوتَةِ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْ تَوْكِيدِهِ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ نَبِيِّهِ، وَذَلِكَ يُوذِنُ عَنْ غِشِّ صُدُورِهِمْ وَسُوءِ مَاخَذِهِمْ وَقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ بِأَنْ عَمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَحَمَلُوهَا وَكَتَمُوا مَا أَكَّدَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِأَنْ يُظْهِرُوهُ وَلاَ يَكْتُمُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَلا يَجْحَدُوهُ.

فَعَمِلَتِ الأُمَمُ بِخِلاَفِ مَاكَانَتِ الْحُجَّةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَرْعَوْهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ وَلَمْ يَاخُذُوا فِي ذَلِكَ بِالآثَارِ الْمَحْدُودَةِ وَاجْتَمَعُوا عَلَى الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالتَّالِيبِ عَلَيْهِمْ والراس لِلنَّاسِ بِالتَّكْذِيبِ وَالْحُجَّةِ لاَ يَكُونُ اللهُ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا. يُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَهُ. وَيُنْذِرُ بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ.

فَقَدْ حَمَلُوا مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ مَا زَيَّنُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَزَيَّنُوا لِلنَّاسِ فِعْلَهُ وَدَفْعَ رِسَالَتِهِ وَطَلَبَ الْغَائِلَةِ لَهُ وَالأَخْذَ عَلَيْهِ بِالْمِرْصَادِ،

فَهَمُّوا بِرَسُولِ اللهِ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ وَأَعَانُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ وَالْمُمَارَاةِ فِي نَقْضِهِ وَجُحُودِهِ،

وَاسْتَوْجَبُوا بِذَلِكَ الانْخِدَاعَ مِنْ عَهْدِ اللهِ وَالْخُرُوجَ مِنْ ذِمَّتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَرُؤَسَائِهِمْ مَاكَانَ مِنْ مُوَالاَتِهِمْ أَعْدَاءَ اللهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ وَمُظَاهَرَتِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْمَادَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالسِّلاَحِ إِعَانَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَدَاوَةً لِلْمُومِنِينَ.

خَلاَ مَاكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَةِ. فَلَمَّا لَمْ يُجِيبُوا إِلَى مُحَارَبَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَا

وَصَفَهُمُ اللهُ مِنْ لِينِ قُلُوبِهِمْ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَمُسَالَمَةِ صُدُورِهِمْ لِأَهْلِ الْإِسْلاَمِ، وَكَانَ فِيمَا أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِم فِي كِتَابِهِ وَمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْوَحْيِ أَنْ وَصَفَ الْيَهُودَ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ وَرِقَّةَ قُلُوبِ أَهْلِ النَّصْرَانِيَةِ إِلَى مَوَدَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ عَلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ لِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

وَذَلِكَ أَنَّ أُنَاسًا مِنَ النَّصَارَى وَأَهْلِ الثِّقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِدِينِ اللهِ أَعَانُونَا عَلَى إِظْهَارِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَأَمَدُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَحَبَّ مِنْ إِنْذَارِ النَّاسِ وَإِبْلاَغِهِمْ مَا أُرْسِلَ بِهِ.

وأتاني السَّيِّدُ وَعَبْدُ يَشُوعَ وَابْنُ حِجْرَةَ وَإِبْرَاهِمُ الرَّاهِبُ وَعِيسَى الْأُسْقُفُ فِي أَرْبَعِينَ رَاكِبًا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ وَمَعَهُمْ مِنْ مِلَّةِ أَصْحَابِهِمْ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ فِي أَقْطَارِ أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَرْضِ الْعَجَمِ فَعَرَضْتُ أَمْرِي عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى تَقْوِيَتِهِ وَإِظْهَارِهِ وَالْمَعُونَةِ عَلَيْهِ.

وَكَانَتْ حُجَّةُ اللهِ ظَاهِرَةً عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْكُصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَلَمْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ وَقَارَبُوا وَلَبِثُوا وَرَضُوهُ وَأَرْفَدُوا وَصَدَّقُوا وَأَبْدَوْا قَوْلاً جَمِيلاً وَرَأْيًا مَحْمُودًا وَأَعْطَوْنِي الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ عَلَى تَقْوِيَةِ مَا أَتَيْتُهُمْ بِهِ وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ أَبَى وَخَالَفَهُ.

وَانْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِ دِينِهِمْ وَلَمْ يَنْكُثُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُبَدِّلُوا أَمْرَهُمْ بَلْ وَفَّوْا بِمَا فَارَقُونِي عَلَيْهِ وَأَتَانِي عَنْهُمْ مَا أَحْبَبْتُ مِنْ إِظْهَارِ الْجَمِيلِ وحلافِهِمْ عَلَى حَرْبِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُوَافَقَةِ لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الدَّعْوَةِ عَلَى إِظْهَارِ أَمْرِ اللهِ وَالْقِيَامِ بِحُجَّتِهِ

وَالذَّبِّ عَنْ رسُـلِهِ فَكَسَّرُوا مَـا احْـتجَّ بِهِ الْيَهُودُ فِي تَكْذِيبِي وَمُخَـالَفَةِ أَمْـرِي وَقَوْلِي. وَأَرَادَ النَّصَـارَى مِنْ تَقْوِيَةِ أَمْـرِي وَنَصَبُوا لِمَنْ كَرِهَـهُ وَأَرَادَ تَكْذِيبَهُ وَتَغْـيِيرَهُ وَنَقْـضَهُ وَتَبْـدِيلَهُ وَرَدَّهُ.

وَبَثَ الْكُتُبَ إِلَيَّ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي أَقْـطَارِ الْأَرْضِ مِنْ سُلْطَـانِ الْعَـرَبِ مِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْـلِ الدَّعْوَةِ بِمَا كَانَ مِنْ تَجْـمِيـلِ رَأْيِ النَّصَـارَى لِأَمْـرِي وَذَبِّهِـمْ عَنْ غُـزَاةِ الثُّغُورِ فِي نَوَاحِيـهِمْ وَالْقِيَامِ بِمَا فَـارَقُونِي عَلَيْـهِ وَقَبِلْتُـهُ إِذْ كَانَ الْأَسَـاقِفَـةُ وَالرُّهْبَانُ لِذَلِكَ مِنَّةً قَوِيَّةً فِي الْوَفَـاءِ بِمَا أَعْطَوْنِي مِنْ مَوَدَّتِهِـمْ وَأَنْفُسِهِـمْ وَأَكَّدُوا مِنْ إِظْهَـارِ أَمْرِي وَالإِعَـانَةِ عَلَى مَـا أَدْعُو إِلَيْهِ،

وَأُرِيـدُ إِظْهَـارَهُ، وَأَنْ يَجْتَمِعُوا فِي ذَلِكَ عَـلَى مَنْ أَنْكَرَ أَوْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْهُ وَأَرَادَ دَفْعَهُ وَإِنْكَارَهُ، وَأَنْ يَـأْخُذُوا عَـلَى يَدَيْـهِ وَيَسْتَذِلُّوهُ.

فَفَـعَـلُوا وَاسْـتَذَلُّوا وَاجْتَـهَدُوا حَـتَّى أَقَرَّ بِذَلِكَ مُـذْعِنًا وَأَجَـابَ الله طَائِعًا أَوْ مُكْرَهًا وَدَخَـلَ فِيهِ مُنْقَـادًا أَوْ مَغْلُوبًا، مُحَامَـاةً عَـلَى مَـا كَانَ بَيْـنِي وَبَيْنَهُـمْ وَاسْتِقَـامَةً عَلَى مَـا فَارَقُونِي عَلَيْـهِ وَحِـرْصًا عَلَى تَقْوِيَـةِ أَمْرِي وَمُظَـاهَرَتِي عَلَى دَعْوَتِي.

وَخَـالَفُوا فِي وَفَـائِهِـمُ الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُـرَيْشٍ وَغَيْرِهِـمْ، وَنَزَّهُوا نُفُوسَـهُـمْ عَنْ رِقَّةِ الْمَطَـامِعِ الَّتِي كَانَتِ الْيَـهُودُ تَتَبَعُـهَا وَتُرِيدُهَـا مِنَ الْأَكْلِ لِلرِّبَـا وَطَلَبِ الرِّشَـا وَبَيْـعِ مَا أَخَـذَهُ اللهُ عَلَيْـهِـمْ بِالثَّمَنِ الْقَلِيـلِ، ﴿فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُـمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.﴾

فَـاسْتَوْجَبَ الْيَـهُودُ وَمُشْـرِكُو قُـرَيْشٍ وَغَـيْرُهُـمْ أَنْ يَكُونُوا بِذَلِكَ أَعْـدَاءَ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَا نَوَوْهُ مِنَ الْغِشِّ وَزَيَّنُوا لِأَنْفُسِهِـمْ مِنَ الْعَـدَاوَةِ وَصَـارُوا إِلَى حَـرْبٍ عَوَانٍ مُغَـالِبِينَ مَنْ عَـادَانِي وَصَـارُوا بِـذَلِكَ أَعْـدَا اللهِ وَرَسُولِهِ وَصَـالِحِ الْمُؤْمِـنِينَ.

وَصَـارَ النَّصَـارَى عَلَى خِـلَافِ ذَلِكَ كُلِّهِ، رَغْبَةً فِي رِعَـايَةِ عَـهْدِي وَمَعْـرِفَةِ حَقِّي

وَحِفْظًا لِمَا فَارَقُونِي عَلَيْهِ وَإِعَانَةً لِمَنْ كَانَ مِنْ رُسُلِي فِي أَطْرَافِ الثُّغُورِ، فَاسْتَوْجَبُوا بِذَلِكَ رَأْفَتِي وَمَوَدَّتِي وَوَفَاي لَهُمْ بِمَا عَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُمْ مِنْ نَفْسِي عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الإِسْلاَمِ فِي شَرْقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَذِمَّتِي مَا دُمْتُ وَبَعْدَ وَفَاي إِذَا مَا أَمَاتَنِيَ اللهُ مَا نَبَتَ الإِسْلاَمُ وَمَا ظَهَرَتْ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالإِيمَانِ، لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَهْدِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ مَا بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً وَمَا جَادَتِ السَّمَاءُ بِقَطْرَةٍ وَالأَرْضُ بِنَبَاتٍ، وَمَا أَضَاءَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ وَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لِلسَّارِينَ، مَا لأَحَدٍ نَقْضُهُ وَلاَ تَبْدِيلُهُ وَلاَ الزِّيَادَةُ فِيهِ وَلاَ الانْتِقَاصُ مِنْهُ، لأَنَّ الزِّيَادَةَ فِيهِ تُفْسِدُ عَهْدِي وَالانْتِقَاصَ مِنْهُ يَنْتَقِصُ ذِمَّتِي،

وَيُلْزِمُنِي العَهْدُ بِمَا أَعْطَيْتُ مِنْ نَفْسِي، وَمَنْ خَالَفَنِي مِنْ أَهْلِ مِلَّتِي وَمَنْ نَكَثَ عَهْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِيثَاقَهُ وَصَارَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

وَإِنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ ثُلُثُ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ سَأَلُوا كِتَابًا لِجَمِيعِ أَهْلِ النَّصْرَانِيَةِ أَمَانًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَهْدًا يُنْجِزُ لَهُمُ الْوَفَا بِمَا عَاهَدُوهُمْ وَأَعْطَيْتُمُوهُ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِي وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتَتِمَّ الصَّنْعَةَ فِي الذِّمَّةِ عِنْدَ كُلِّ مَنْ كَانَتْ حَالُهُ حَالِي وَكَفَّ الْمُؤُونَةَ عَنِّي وَعَنْ أَهْلِ دَعْوَتِي فِي أَقْطَارِ أَرْضِ الْعَرَبِ مِمَّنْ انْتَحَلَ اسْمَ النَّصْرَانِيَةِ وَكَانَ عَلَى مِلَلِهَا، وَأَنْ جعَلَ ذَلِكَ عَهْدًا مَرْعِيًا وَأَمْرًا مَعْرُوفًا يَمْتَثِلُهُ الْمُسْلِمُونَ وَيَأْخُذُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ.

فَأَحْضَرْتُ رُؤَسَآ الْمُسْلِمِينَ وَأَفَاضِلَ أَصْحَابِي، وَأَكَّدْتُ عَلَى نَفْسِي الَّذِي أَرَادُوا وَكَتَبْتُ لَهُمْ كِتَابًا مَحْفُوضًا عِنْدَ أَحْقَابِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ سُلْطَانًا أَوْ غَيْرَ سُلْطَانٍ،

فَإِنَّ عَلَى السُّلْطَانِ إِنْفَاذَ مَا أَمَرْتُ بِهِ لِيَسْتَعْمِلَ بِمُوَافَقَةِ الْحَقِّ الوَفَاءَ وَالتَّخَلِّي إِلَى مَنِ الْتَمَسَ عَهْدِي وَإِنْجَازَ الذِّمَّةِ الَّتِي أَعْطَيْتُ مِنْ نَفْسِي لِئَلاَّ تَكُونَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ مُخَالِفَةً أَمْرِي،

وَعَلَى السُّوْقَةِ أَنْ لاَ يُؤْذُوهُمْ وَأَنْ يُكَمِّلُوا لَهُمُ العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتُهُ لَهُمْ لِيَدْخُلُوا

مَعي فِي أَبْوَابِ الْوَفَاءِ وَيَكُونُوا لِي أَعْوَانًا عَلَى الْخَيْرِ الَّذِي كَافَيْتُ بِهِ مَنِ اسْتَوْجَبَ ذَلِكَ مِنِّي وَكَانَ عَوْنًا عَلَى الدَّعْوَةِ وَغَيْظًا لِأَهْلِ التَّكْذِيبِ وَالتَّشْكِيكِ،

وَلِئَلاَّ تَكُونَ الْحُجَّةُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ انْتَحَلَ مِلَّةَ الْإِسْلاَمِ مُخَالِفَةً لِمَا وَضَعْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَالْوَفَاءِ لَهُمْ بِمَا اسْتَوْجَبُوا مِنِّي وَاسْتَحَقُّوا،

إِذْ كَانَ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَى اسْتِتْمَامِ الْمَعْرُوفِ وَيَجُرُّ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلاَقِ وَيَأْمُرُ بِالْحُسْنَى وَيَنْهَى عَنِ السُّوءِ، فِيهِ اتِّبَاعُ الصِّدْقِ وَإِيثَارُ الْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَكُتِبَ سِجِلاًّ نُسْخَتُهُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَمُؤْتَمَنًا عَلَى وَدِيعَةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَلِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَالْبَيَانِ وَكَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا.

لِلسَّيِّدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَلِأَهْلِ مِلَّتِهِ وَلِجَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ دَعْوَةَ النَّصْرَانِيَةِ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا، قَرِيبِهَا وَبَعِيدِهَا، فَصِيحِهَا وَأَعْجَمِهَا، مَعْرُوفِهَا وَمَجْهُولِهَا،

كِتَابًا لَهُمْ عَهْدًا مَرْعِيًّا وَسِجِلاًّ مَنْشُورًا سُنَّةً مِنْهُ وَعَدْلاً وَذِمَّةً مَحْفُوظَةً،

مَنْ رَعَاهَا كَانَ بِالْإِسْلاَمِ مُتَمَسِّكًا وَلِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ مُسْتَأْهِلاً، وَمَنْ ضَيَّعَهَا وَنَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي فِيهَا وَخَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَعَدَّى فِيهِ مَا أَمَرْتُ كَانَ لِعَهْدِ اللهِ نَاكِثًا وَلِمِيثَاقِهِ نَاقِضًا وَبِذِمَّتِهِ مُسْتَهِينًا وَلِلَعْنَتِهِ مُسْتَوْجِبًا، سُلْطَانًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ؛

بِإِعْطَاءِ الْعَهْدِ عَلَى نَفْسِي بِمَا أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ وَذِمَّةَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ذِمَّتِي وَمِيثَاقِي.

وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ وَإِيثَارِ الْفَرِيضَةِ وَالْوَفَاءِ

بِعَهْـدِ اللهِ أَنْ أَحْـفَظَ أَجَاصِيهِمْ فِي ثُغُورِي بِخَيْلِي وَرَجْلِي وَسِلاَحِي وَقُوَّتِي وَأَتْبَاعِي فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَدُوِّ، بَعِيدًا كَانَ أَوْ قَرِيبًا، سِلْمًا كَانَ أَوْ حَرْبًا؛

وَأَنْ أَحْـمِيَ جَانِبَهُمْ وَأَذِبَّ عَنْهُمْ وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَبُيُوتِ صَلَوَاتِهِمْ وَمَوَاضِعِ الرُّهْبَانِ وَمَوَاطِنِ السُّيَّاحِ حَيْثُ كَانُوا مِنْ جَبَلٍ أَوْ وَادٍ أَوْ مَغَارٍ أَوْ عُمْرَانٍ أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ؛

وَأَنْ أَحْرُسَ دِينَهُمْ وَمِلَّتَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ شَرْقًا أَوْ غَرْبًا بِأَنْ أَحْفَظَ بِهِ نَفْسِي وَخَاصَّتِي وَأَهْلَ الإِسْلاَمِ مِنْ مِلَّتِي؛

وَأَنْ أُدْخِلَهُمْ فِي ذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَمَانِي مِنْ كُلِّ أَذًى وَمَكْرُوهٍ أَوْ مَؤُونَةٍ أَوْ تَبِعَةٍ، وَأَنْ أَكُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ ذَابًّا عَنْهُمْ كُلَّ عَدُوٍّ يُرِيدُنِي وَإِيَّاهُمْ بِسُوءٍ بِنَفْسِي وَأَعْوَانِي وَأَتْبَاعِي وَأَهْلِ مِلَّتِي.

وَأَنَا ذُو السَّلْطَنَةِ عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيَّ رِعَايَتُهُمْ وَحِفْظُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَلاَ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَصْحَابِي الذَّابِّينَ عَنْ بَيْضَةِ الإِسْلاَمِ مَعِي،

وَأَنْ أَعْزِلَ عَنْهُمُ الأَذَى فِي الْمُؤَنِ الَّتِي يَحْمِلُهَا أَهْلُ الْجِهَادِ مِنَ الْغَارَةِ وَالْخَرَاجِ إِلاَّ مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِجْبَارٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ،

وَلاَ تَغْيِيرُ أُسْقُفٍ عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ وَلاَ رَاهِبٍ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ وَلاَ سَائِحٍ عَنْ سِيَاحَتِهِ وَلاَ هَدْمُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ بِيَعِهِمْ وَلاَ إِدْخَالُ شَيْءٍ مِنْ بِنَائِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَبْنِيَةِ الْمَسَاجِدِ وَلاَ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ عَهْدَ اللهِ وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَحَادَ عَنْ ذِمَّةِ اللهِ.

وَأَنْ لاَ يُحَمَّلَ الرُّهْبَانُ وَالأَسَاقِفَةُ وَلاَ مَنْ تَعَبَّدَ مِنْهُمْ أَوْ لَبِسَ الصُّوفَ أَوْ تَوَحَّدَ فِي الْجِبَالِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُعْتَزِلَةِ عَنِ الأَمْصَارِ شَيْئًا مِنَ الْجِزْيَةِ أَوِ الْخَرَاجِ،

وَأَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّصَارَى مِمَّنْ لَيْسَ بِمُتَعَبِّدٍ وَلاَ رَاهِبٍ وَلاَ

سَائِحٍ، عَلَىٰ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فِي كُلِّ سَنَةٍ، أَوْ ثَوْبِ حِيرَةٍ أَوْ عَصَبِ الْيَمَنِ، إِعَانَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَقُوَّةً لِبَيْتِ الْمَالِ؛

وَإِنْ لَمْ يَسْهُلِ الثَّوْبُ عَلَيْهِمْ طُلِبَ مِنْهُمْ ثَمَنُهُ، وَلِيَقُومَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلاَّ بِمَا تَطِيبُ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، وَلاَ تَتَجَاوَزُ جِزْيَةَ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ وَالْعَقَارَاتِ والتِّجَارَاتِ العَظِيمَةِ فِي البَحْرِ و الأَرْضِ، وَاسْتِخْرَاجِ مَعَادِنِ الْجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ والْفِضَّةِ، وَذَوِي الأَمْوَالِ الْفَاشِيَةِ وَالْقُوَّةِ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ دِينَ النَّصْرَانِيَةِ، أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا مِنَ الْجُمْهُورِ فِي كُلِّ عَامٍ إِذَا كَانُوا لِلْمَوَاضِعِ قَاطِنِينَ وَفِيهَا مُقِيمِينَ؛

وَلاَ يُطْلَبُ ذَلِكَ مِنْ عَابِرِ سَبِيلٍ لَيْسَ مِنْ قُطَّانِ الْبَلَدِ وَلاَ أَهْلِ الاِجْتِيَازِ مِمَّنْ لاَ تُعْرَفُ مَوَاضِعُهُ.

وَلاَ خَرَاجَ وَلاَ جِزْيَةَ إِلاَّ عَلَىٰ مَنْ يَكُونُ فِي يَدِهِ مِيرَاثٌ مِنْ مِيرَاثِ الأَرْضِ، مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ لِلسُّلْطَانِ حَقٌّ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ عَلَىٰ مَا يُؤَدِّيهِ مِثْلُهُ، وَلاَ يَجِبُ عَلَيْهِ وَلاَ يَحْمِلُ مِنْهُ إِلاَّ قَدْرَ طَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ عَلَىٰ عَمَلِ الأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا وَقَبَالَةِ ثَمَرَتِهَا.

وَلاَ يُكَلَّفُ شَطَطًا وَلاَ يُتَجَاوَزُ بِهِ حَدُّ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ مِنْ نُظَرَائِهِ، وَلاَ يُكَلَّفُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنْهُمُ الْخُرُوجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ عَدُوِّهِمْ لِمُلاَقَاةِ الْحُرُوبِ وَمُكَاشَفَةِ الأَقْرَانِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَهْلِ الذِّمَّةِ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ وَإِنَّمَا أُعْطُوا الذِّمَّةَ عَلَىٰ أَنْ لاَ يُكَلَّفُوا ذَلِكَ وَأَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ ذُبَّابًا عَنْهُمْ وَجِوَارًا مِنْ دُونِهِمْ، وَلاَ يُكْرَهُوا عَلَىٰ تَجْهِيزِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَرْبِ الَّذِي يَلْقَوْنَ فِيهِ عَدُوَّهُمْ بِقُوَّةٍ وَسِلاَحٍ أَوْ خَيْلٍ إِلاَّ أَنْ يَتَبَرَّعُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، فِي كَوْنِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَبَرَّعَ بِهِ حُمِدَ عَلَيْهِ وَعُرِفَ لَهُ وَكُوفِئَ بِهِ.

وَلاَ يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَىٰ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ كُرْهًا عَلَى الإِسْلاَمِ، "وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، وَيُخْفَضُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ وَيُكَفُّ عَنْهُمْ أَذَى

الْمَكْرُوهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا مِنَ الْبِلاَدِ.

وَإِنْ أَجْرَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى أَوْ حَتَّى جَنَى جِنَايَةً، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَصْرُهُ وَالْمَنْعُ وَالذَّبُّ عَنْهُ وَالْغُرْمُ عَنْ جَرِيرَتِهِ وَالدُّخُولُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ جَنَى عَلَيْهِ، فَإِمَّا مَنَّ عَلَيْهِ أَوْ يُفَادَى بِهِ؛ وَلاَ يُرْفَضُوا وَلاَ يُخْذَلُوا وَلاَ يُتْرَكُوا هَمَلاً لِأَنِّي أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ عَلَى أَنَّ لَهُمُ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا عَلَيْهِمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي اِسْتَوْجَبُوا حَقَّ الذِّمَامِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحُرْمَةِ، واسْتَوْجَبُوا أَنْ يُذَبَّ عَنْهُمُ كُلُّ مَكْرُوهٍ حَتَّى يَكُونُوا لِلْمُسْلِمِينَ شُرَكَاءَ فِي مَالِهِمْ وَفِي مَا عَلَيْهِمْ.

وَلاَ يُحَمَّلُوا مِنَ النِّكَاحِ شَطَطًا لاَ يُرِيدُونَهُ، وَلاَ يُكْرَهُ أَهْلُ الْبِنْتِ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينِ وَلاَ يُضَارُّوا فِي ذَلِكَ إِنْ مَنَعُوا خَاطِبًا وَأَبَوْا تَزْوِيجًا، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِطِيبَةِ قُلُوبِهِمْ وَمُسَامَحَةِ أَهْوَائِهِمْ إِنْ أَحَبُّوهُ وَرَضُوا بِهِ.

وَإِذَا صَارَتِ النَّصْرَانِيَةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِنَصْرَانِيَتِهَا وَيَتَّبِعَ هَوَاهَا فِي الاِقْتِدَاءِ بِرُؤَسَائِهَا وَالْأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا وَلاَ يَمْنَعُهَا ذَلِكَ، فَمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَأُكْرِهَهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهَا فَقَدْ خَالَفَ عَهْدَ اللهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِهِ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

وَلَهُمْ إِنِ احْتَاجُوا فِي مَرَمَّةِ بِيَعِهِمْ وَصَوَامِعِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِ أُمُورِهِمْ وَدِينِهِمْ إِلَى رَفْدِ الْمُسْلِمِينَ، تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى مَرَمَّتِهَا، أَنْ يُرْفَدُوا عَلَى ذَلِكَ وَيُعَاوَنُوا، وَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ دَيْنًا عَلَيْهِمْ بَلْ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى مَصَالِحِ دِينِهِمْ، وَوَفَاءً بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ، مَوْهِبَةً لَهُمْ وَمِنَّةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَيْهِمْ.

وَلَهُمْ أَنْ لاَ يُلْزَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِأَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَدُوِّهِمْ رَسُولاً أَوْ دَلِيلاً أَوْ عَوْنًا أَوْ مُخْبِرًا، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا يُسَاسُ بِهِ الْحَرْبُ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ كَانَ ظَالِمًا لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ عَاصِيًا، وَمِنْ ذِمَّتِهِ مُتَخَلِّيًا، وَلاَ يَسَعُهُ فِي إِيمَانِهِ إِلاَّ

الْوَفَاءُ بِهَـٰذِهِ الشَّرَائِطِ الَّتِي شَرَطَهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَسُولُ اللهِ لِأَهْلِ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ؛

وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أُمُورًا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمُ التَّمَسُّكُ وَالْوَفَاءُ بِمَا عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ، مِنْهَا أَلَّا يَكُونَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَيْنًا وَلاَ رَقِيبًا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِرِّهِ وَعَلاَنِيَتِهِ، وَلاَ يَأْوِي مَنَازِلَهُمْ عَدُوٌّ لِلْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ بِهِ أَخْذَ الْفُرْصَةِ وَانْتِهَازَ الْوَثْبَةِ، وَلاَ يَنْزِلُوا أَوْطَانَهُمْ وَلاَ ضِيَاعَهُمْ وَلاَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاكِنِ عِبَادَاتِهِمْ وَلاَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلاَ يَرْفُدُوا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِتَقْوِيَةٍ لَهُمْ بِسِلاَحٍ وَلاَ خَيْلٍ وَلاَ رِجَالٍ وَلاَ غَيْرِهِمْ، وَلاَ يُصَانِعُوهُمْ، وَأَنْ يُقِرُّوا مَنْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا، فِي أَنْفُسِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ حَيْثُ كَانُوا وَحَيْثُ مَالُوا، يَبْذُلُونَ لَهُمُ الْقِرَى الَّذِي مِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَلاَ يَكْفُلُوا سِوَى ذَلِكَ فَيَحْمِلُوا الْأَذَى عَلَيْهِمْ وَالْمَكْرُوهَ.

وَإِنْ احْتِيجَ إِلَى إِخْفَاءِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ مَنَازِلِهِمْ وَمَوَاطِنِ عِبَادَتِهِمْ أَنْ يُؤْوُوهُمْ وَيَرْفُدُوهُمْ وَيُوَاسُوهُمْ فِيمَا يَعِيشُونَ بِهِ مَا كَانُوا مُجْتَمِعِينَ، وَأَنْ يَكْتُمُوا عَلَيْهِمْ وَلاَ يُظْهِرُوا الْعَدُوَّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، وَلاَ يُخِلُّوا شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ.

فَمَنْ نَكَثَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشَّرَائِطِ وَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ، وَعَلَيْهِمُ الْعُهُودُ وَالْمَوَاثِيقُ الَّتِي أُخِذَتْ عَنِ الرُّهْبَانِ، وَأَخَذَهَا وَمَا أَخَذَ كُلُّ نَبِيٍّ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَمَانِ وَالْوَفَاءِ لَهُمْ وَحِفْظِهِمْ بِهِ؛

وَلاَ يُنْقَضُ ذَلِكَ وَلاَ يُغَيَّرُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَشَهِدَ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّصَارَى الَّذِينَ اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ وَكَتَبَ هَذَا الْعَهْدَ لَهُمْ.

عَتِيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ [أبو بكر] / عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ / عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ / عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ / أَبُو ذَرٍ / أَبُو الدَّرْدَاءِ / أَبُو هُرَيْرَةَ / عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ / الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ /

الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ/الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ/طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ/سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ/سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ/ثُمَامَةُ بْنُ قَيْسٍ/زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَوَلَدُهُ عَبْدُ اللهِ/حُرقُوص بْنُ زُهَيْرٍ/زَيْدُ بْنُ الْأَرْقَمِ/أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ/عَمَّارُ بْنُ مَظْعُونٍ/مُصْعَبُ بْنُ جُبَيْرٍ/أَبُو الْغَالِيَةِ/عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ/أَبُو حُذَيْفَةَ/كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ/حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ/جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ/وَكَتَبَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

عَهْدُ النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لِنَصَارَىٰ العَالَم

(مخطوط جبل الكرمل)

[من محمد رسول الله]

[بسم الله الرحمن الرحيم]

الْعَهْدُ وَالشُّرُوطُ الَّتِي شَرَطَهَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ لأَهْلِ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ

كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، عَلَى وَدِيعَةِ اللَّهِ فِي حَقِّهِ، لِتَكُونَ حُجَّةَ اللَّهِ سِجِلَّ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي مَشْرِقِ الأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا، وفَصيحِها وأعْجَمِها، قَرِيبِهَا وَبَعِيدِهَا، ومَعْرُوفِها ومجْهُولِها، كِتَابًا جَعَلَهُ لَهُمْ عَهْدًا مَرْعِيًّا، وسِجِلاًّ مَنْشُورًا، وَصِيَّةً مِنْهُ تُقِيمُ فِيهِ عَدْلَهُ، وَذِمَّةً مَحْفُوظَةً. فَمَنْ كَانَ بِالْإِسْلَامِ مُتَمَسِّكًا، وَلما فِيهِ مُتَسَاهِلاً مِنْ صَنِيعِهَا، وَنَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي فِيهَا وَخَالَفَهُ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَعَدَّى فِيهِ مَا أَمَرْتُ بِهِ، كَانَ لِعَهْدِ اللَّهِ نَاكِثًا، ولميثاقِه نَافِيًا، وبِذِمَّتِهِ مُسْتَهِينًا، سُلْطَانًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، فبدأتُ بِإِعْطَاءِ الْعُهُودِ عَلَى نَفْسِي، وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي يَسْأَلونَهَا عَنِّي وَعَنْ جَمِيعِ أَهَالِيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِأَنْ أُعْطِيَهُمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ، وَذِمَّةَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَذِمَّتِي وَمِيثَاقِي أَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ وَإِيتَاءِ الْفَرِيضَةِ وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ، أَنْ أَحْفَظَ قَاصِيَهُمْ فِي ثُغُورِي بِخَيْلِي وَرِجَالِي وَأَعْوَانِي وَأَتْبَاعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَدُوِّ، بَعِيدًا كَانُوا أَمْ قَرِيبًا، سِلْمًا كَانُوا أَمْ حَرْبًا، وَأُومِنَهُمْ وَأَذِبَّ عَنْهُمْ وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَمُصَلَّاهُمْ وَمَوَاضِعِ الرُّهْبَانِ مِنْهُمْ وَمَوَاطِنِ السِّيَاحَةِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَما وُجِدُوا، فِي جَبَلٍ أَوْ وَادٍ، أَوْ مَغَارَةٍ أَوْ عُمْرَانٍ، أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ بِنَاءٍ، وَأَنْ أَحُوطَ دِينَهُمْ وَمُلْكَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا،

فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فِي شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ، بِمَا أَحُوطُ بِهِ نَفْسِي وَخِلَّتِي وَأَهْلَ مِلَّتِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ أُدْخِلَهُمْ فِي أَمَانِي مِنْ كُلِّ أَذىً وَمَكْرُوهٍ وَسَوْءَةٍ وَتَبِعَةٍ، وَأَنْ أَكُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ دَارِئًا عَنْهُمْ كُلَّ عَدُوٍّ يُرِيدُنِي وَإِيَّاهُمْ بِنَفْسِي وَأَتْبَاعِي وَأَعْوَانِي وَأَهْلِ مِلَّتِي، وَأَنَا ذُو سُلْطَةٍ عَلَيْهِمْ، وَبِذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيَّ رَعْيَهُم وَحِفْظَهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَأَنْ لاَ يَصِلَ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَصِلَ إِلَيَّ وأَصْحَابِي الذَّابِّينَ عَنْ نَصِيبَةِ الْأَمْرِ، وَأَنْ أَعْزِلَ عَنْهُمُ الْأَذَى فِي الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْمِلُ أَهْلَ الْعَهْدِ مِنَ الْعَارِيَّةِ وَالْخَرَاجِ، إِلَّا مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ جَبْرٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ فِي ذَلِكَ، وَلاَ يُنْفى أُسْقُفٌ عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ عَنْ نَصْرَانِيَّتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ رُهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ سَائِحٌ عَنْ سِيَاحَتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ صَوْمَعَتِهِ، وَلَا يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ كَنَائِسِهِمْ، وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَلاَ فِي مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ وَعْدَ اللَّهِ، وَخَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ، وَخَانَ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَأَنْ لاَ يُحَمَّلَ الرُّهْبَانُ وَلاَ الْأَسَاقِفَةُ وَلاَ جَمِيعُ مَنْ لَمْ يُلْزَمْ بِثَمَنِهِ، إِلَّا أَنْ تَطِيبَ بِذَلِكَ أَنْفُسُهُمْ، وَلاَ يُجَاوِزُوا الْجِزْيَةَ عَلَى أَصْحَابِ التِّجَارَاتِ الْعِظَامِ، وَالغَوَّاصِينَ، وَالَّذِينَ يُخْرِجُونَ مَعَادِنَ الْجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَذَوِي الْأَمْوَالِ الْجَمَّةِ وَالْقُوَّةِ، مِمَّنْ انْتَحَلَ النَّصْرَانِيَّةَ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا فِي كُلِّ عَامٍ، إِذَا كَانُوا فِي الْمَوْضِعِ قَاطِنِينَ وَبِهِ مُقِيمِينَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِعَابِرِ سَبِيلٍ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَاطِنِي الْبَلَدِ مِمَّنْ لَا يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ الْخَرَاجَ وَلاَ الْجِزْيَةَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي يَدِهِ مِيرَاثُ الْأَرْضِ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ مَالُ السُّلْطَانِ مِنْ حَقٍّ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ عَلَى مَا يُؤَدِّي غَيْرُهُ، وَلَا يُتَجَاوَزُ عَلَيْهِ وَلاَ يُحَمَّلُ مِنْهُ إِلَّا مِقْدَارُ طَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ، وعَلَى مَنْ يَجُوزُ مِنَ الْأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا وَإِقْبَالِ ثَمَرِهَا لاَ يُكَلَّفُ شَطَطًا وَلَا يُجَازُ بِهِ عَنْ حَدِّ أَصْحَابِ الخَرَاجِ مِنْ نُظَرَائِهِ، وَلاَ يُكَلَّفُ أَهْلُ ذِمَّةٍ الْخُرُوجَ مَعَ الْمَلَإِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدُوِّهِمْ لِمُلاقَاةِ الْحَرْبِ وَمُكَاشَفَةِ الْأَقْرَانِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ، وَإِنَّمَا أُعْطُوا الذِّمَّةَ عَلَى أَنْ لَا يُكَلَّفُوا، وَأَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمونَ ذَبَّابِينَ عَنْهُمْ مُحْرِزِينَ مِنْ دُونِهِمْ، وَلاَ يُكْرَهُونَ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ الَّتِي يَلْقَوْنَ فِيهَا عَدُوَّهُمْ، وَلَا بِقُوَّةٍ مِنْ

خَيْلٍ وَسِلَاحٍ إِلَّا أَنْ يَتَبَرَّعُوا، فَيُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ تَبَرَّعَ بِهِ وَعُرِفَ لَهُ ذَلِكَ وَكُوفِيَ عَلَيْهِ، وَلاَ يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنَ الْإِسْلَامِ كُرْهًا، وَلَا يُجَادَلُ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُخْفَضُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ، وَيُكَفُّ عَنْهُمُ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهُ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا، وَإِنْ جَرَأَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى جَرِيرَةً أَوْ جَنَى جِنَايَةً، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَصْرُهُ وَمَنْعُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ وَالغَرْمُ عَنْ جَرِيرَتِهِ وَالدُّخُولُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَصَابَ مِنَّا عَلَيْهِ، وَأَمَّا فِدَاءً يُفَادَى بِهِ، وَلاَ يُخْذَلُوا وَلا يُرْفَضُوا، بَلْ أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا لَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا عَلَيْهِمْ، بِالْعَهْدِ الَّذِي اسْتَوْجَبُهُ حَقُّ الرِّعَاءِ وَالذَّبُّ عَنِ الْحُرْمَةِ، بِهِ اسْتَوْجَبُوا بِذَبِّ عَنْهُمْ كُلَّ مَكْرُوهٍ، وَيَدْخُلُ لَهُمْ فِي كُلِّ مِرْفَقٍ، حَتَّى يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ شِرْكًا فِيمَا لَهُمْ وَفِيمَا عَلَيْهِمْ، وَلَهُمْ أَنْ تَحْمِلَ مِنْ أَمْرِ النِّكَاحِ شَطَطًا، وَلَا يُكْرِهُوا أَهْلَ الْبِنْتِ مِنْهُمْ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُضَارُّوا فِي ذَلِكَ إِنْ مَنَعُوا خَاطِبًا وَأَبَوْا تَزْوِيجًا، فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ إِلَّا بِطِيبِ أَنْفُسِهِمْ وَمُسَامَحَةِ أَهْوَائِهِمْ إِنْ أَحَبُّوهُ وَرَضُوهُ، وَإِذَا صَارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ فِي بَيْتِ الْمُسْلِمِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضِيَ هَوَاهَا فِي دِينِهَا مِنَ الاقْتِدَاءِ بِرُؤَسَائِهَا وَالأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا، وَلَا يَمْنَعُهَا فِي ذَلِكَ وَلاَ يُكْرِهُهَا عَلَى تَرْكِهَا وَلَا يُضَارُّهَا فِي تَرْكِ دِينِهَا، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَأَكْرَهَهَا عَلَيْهِ، فَقَدْ أَخْلَفَ عَهْدَ اللهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَلَهُمْ إِنْ احْتَاجُوا إِلَى مَرَمَّةِ كَنَايِسِهِمْ أَوْ صَوَامِعِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ إِلَى مَرْفَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَعُونَةٍ عَلَى مَرَمَّةٍ، أَنْ يَرْفُدُوا عَلَيْهِ وَيُعَاوِنُوا وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ دَيْنًا، بَلْ مَعُونَةً لَهُمْ عَلَى مَصَالِحِ دِينِهِمْ، وَوَفَائِهِمْ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ هِبَةً مُوهَبَةً لَهُمْ، ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ. وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَهُمْ عَدُوٌّ وَقَالُوا: كُنْ رَسُولاً أَوْ دَلِيلاً أَوْ مُسَخَّرًا أَوْ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُومُ الْحَرْبُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَحَدٍ، كَانَ ظَالِمًا وَلِرَسُولِ اللهِ عَاصِيًا وَمِنْ وَصِيَّتِهِ مُخْتَلِفًا.

هَـذِهِ الشُّرُوطُ الَّتِي شَـرَطَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ لِأَهْـلِ المِلَّةِ النَّصْـرَانِيَّةِ، وَأَشْرِطَ عَلَيْـهِمْ فِي دِينِهِمْ أُمُورًا فِي ذِمَّتِـهِمْ، عَلَيْـهِم التَّمَسُّكُ بِهَا وَالْوَفَاءُ بِمَا عَـاهَـدَ عَلَيْـهِمْ، وَمِنْـهَا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَـدٌ مِنْهُـمْ عَيْـنًا لِأَحَـدٍ مِنْ أَهْـلِ الحَرْبِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِـرٍّ وَلَا عَـلَانِيَةٍ، وَلَا بِوَفَاءٍ فِي مَنَازِلِهِـمْ وَلَا يَـأْوُوا عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِ، وَلَا يَنْزِلُ أَوْطَانَهُـمْ وَلَا فِي مَسَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ، وَلَا يَـرْفُدُوا أَحَدًا مِنْ أَهْـلِ الحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقُوَّةٍ مِنْ عَـارِيَّـةِ السِّلَاحِ وَلَا الخَيْلِ وَلَا الرِّجَـالِ، وَلَا يَسْتَودِعُوا لَهُـمْ مَـالاً، وَلَا يُكَاتِبُوهُـمْ، وَلَا يُصَـافِحُوهُمْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي دَارٍ يَذِبُّونَ فِيهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ يَـدْرَؤُونَ عَنْ دِمَائِهِـمْ وَرِعَايَـةِ دِينِـهِمْ، وَلَا يَمْنَـعُونَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْـلِمِينَ قِرَايَةَ ثَلَاثَـةِ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَـا لِأَنْفُسِهِـمْ وَلِدَوَابِّهِمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ وُجِدُوا، وَيَبْـذُلُونَ لَهُـمْ القِرَى الَّذِي مِـنْهُ يَأْكُلُونَ، وَلَا يَكُفُّوا عَـلَى ذَلِكَ فَـيَحْـمِلُوا الْأَذِيَّةَ عَنْـهُمْ وَالْمَكْرُوهَ، فَـإِنْ أُحْتِيجَ إِلَى اخْتِفَـاءِ أَحَـدٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ فِي مَنَازِلِهِـمْ وَمَوَاطِنِ إِعْمَارِهِـمْ، أَنْ يَوَدُّوهُمْ وَيَرْفِـدُوهُم وَيُوَاسُوهُمْ عَـمَّا شَقَّ بِهِ مَـا كَانُوا مُخْتَـفِينَ، إِذَا كَتَمُوا عَنْهُـمْ وَلَمْ يُظْهِـرُوا الْعَدُوَّ عَلَى عَوْرَتِهِـمْ وَلَمْ يُخِلُّوا مِنَ الْوَاجِـبِ عَلَيْهِـمْ فِي ذَلِكَ، فَمَنْ نَكَثَ مِنْهُـمْ شَيْئًا مِنْ هَـذِهِ الشُّرُوطِ وَتَعَـدَّاهَـا إِلَى غَيْرِهِ، فَبَرِئَ مِنْ ذِمَّـةِ اللَّهِ وَذِمَّـةِ رَسُولِ اللهِ، عَلَيْهِـمْ بِـذَلِكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي أُخِـذَتْ عَنْ الْأَحْـبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَالنَّصَـارَى مِنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ، وَأَشَـدُّ مَـا أَخَذَ اللَّهُ وَالنَّبِيُّ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَيْمَانِ، وَالْوَفَـاءِ بِمَا جَـعَـلَ لَهُمْ عَـلَى نَفْسِـهِ وَعَـلَى الْمُسْـلِمِينَ، رِعَـايَةُ ذَلِكَ لَهُـمْ وَعِزَّتُهُـمْ بِـهِ وَالِانْتِهَـاءُ إِلَيْـهِ أَبَـدًا حَتَّى تَقُومَ السَّـاعَةُ وَتَنْقَضِيَ الدُّنْيَا، وَأُشْهِـدَ عَلَى هَـذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ النَّصَـارَى الَّذِي أَشْرَطَ عَلَيْـهِمْ وَكَتَبَ لَهُـمْ هَـذَا الْعَـهْدَ.

أَبُو بَكْرٍ الصِّـدِّيقُ/عُـمَرُ بْنُ الخَـطَّابِ/عُثْمَان بْنُ عَفَّـانَ/عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَـالِبٍ/ مُعَاوِيَـةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ/أَبُو الدَّرْدَاءِ/أَبُو ذَرٍّ/أَبُو هُـرَيْـرَةَ/عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْـعُودٍ/عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ/حَـمْزَةُ بْنُ عَـبْدِ الْمُطَّلِبِ فُضَيْلٌ/زَيْدُ بْنُ ثَـابِتٍ/عَـبْدُ اللَّهِ ابْنُ زَيْدٍ/حَـرْقُوسُ

بْنُ زَيْدٍ/الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ/سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ/ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ/أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ/عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ/عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ/ابْنُ رَبِيعَةَ/حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ/جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ/ابْنُ الْعَبَّاسِ/طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ/سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ/زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ/سَهْلُ بْن بَيْضَا/ دَاوُدُ بْنُ جُبَيْرٍ/أَبُو الْعَالِيَةِ/أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عَسِيرٍ/هَاشِمُ بْنُ عسيه/عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ/ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ/ كَعْبُ بْنُ كَعْبٍ/رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَكَتَبَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ إِمْلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ تَمَامَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ بِالْمَدِينَةِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عَهْدُ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ لِنَصارَى العَالَم

(مخطوط القاهرة)

[من محمد رسول الله]

بِسْمِ اللهِ الخَالِقِ الحَيِّ النَّاطِقِ البَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الخَلائِقِ

هٰذا نسخة العَهْدِ الَّذِي كَتَبَهُ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ لِكَافَّةِ النَّصَارَى

نُسْخَةُ كِتَابِ العَهْدِ

هَذَا عَهْدُ اللهِ أَمَرَ بِكِتَابَتِهِ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ لِكَافَّةِ النَّصَارَى وَسَائِرِ الرُّهْبَانِ حِفْظًا مِنْهُ لَهُمْ وَرِعَايَةً، لِأَنَّهُمْ وَدِيعَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ لِيَكُونَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ. وَجَعَلَ ذَلِكَ ذِمَّةً مِنْهُ وَحِفْظًا لَهُمْ بِأَمْرِ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا كَتَبَهُ الأَسَدُ وَأَهْلُ مِلَّتِهِ لِكُلِّ مَنْ يَنْتَحِلُ دَعْوَةَ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ مَشْرِقِ الأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا، وَقَرِيبِهَا وَبَعِيدِهَا، عَرَبِيِّهَا وَعَجَمِيِّهَا، مَعْرُوفًا وَمَجْهُولاً، عَهْدًا مِنْهُ وَعَدْلاً لَهُمْ سُنَّةً مِنْهُ تُحْفَظُ.

مَنْ رَعَاهَا كَانَ بِالإِسْلاَمِ مُتَمَسِّكًا، وَلِدِينِهِ مُسْتَأْهِلاً. وَمَنْ نَكَثَهَا وَضَيَّعَ العَهْدَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ وَغَيَّرَهُ وَتَعَدَّى فِيهِ مَا أَمَرَ بِهِ، كَانَ لِعَهْدِ اللهِ نَاكِثًا وَلِمِيثَاقِهِ نَاقِضًا وَبِدِينِهِ مُسْتَهِينًا وَلِلَعْنِهِ مُسْتَوْجِبًا، سُلْطَانًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ.

فَبَدَأْتُ فِيهِ بِإِعْطَاءِ العَهْدِ عَلَى نَفْسِي وَالمَوَاثِيقِ الَّتِي سَأَلُوا عَنِّي وَعَنْ جَمِيعِ مِلَّتِي مِنَ المُسْلِمِينَ بِأَنْ أُعْطِيَهُمْ [عَهْدَ] اللهِ وَمِيثَاقَهُ وَذِمَّةَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَشَدَّ مَا أَخَذَهُ

اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ وَإِتْيَانِ الْفَرِيضَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

عَهْدَ اللهِ أَنْ أَحْفَظَ أَرْضَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ بِقُدْرَتِي وَخَيْلِي وَرِجَالِي وَسِلَاحِي وَقُوَّتِي وَأَتْبَاعِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَأَنْ أَحْمِيَ بِيَعَهُمْ وَأَذِبَّ عَنْهُمْ وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَبُيُوتِ صَلَوَاتِهِمْ مَوَاضِعَ لِلرُّهْبَانِ [كذا] مِنْهُمْ وَمَوَاضِعَ لِلسُّوَاحِ [كذا] حَيْثُ كَانُوا مِنْ جَبَلٍ أَوْ وَادٍ أَوْ مَغَارَةٍ أَوْ عُمْرَانٍ أَوْ سَهْلٍ أَوْ رَمْلٍ، وَأَنْ أَحْفَظَ ذِمَّتَهُمْ وَمِلَّتَهُمْ وَدِينَهُمْ أَيْنَ كَانُوا شَرْقِيًا أَوْ غَرْبِيًّا أَوْ بَحْرِيًّا أَوْ قَبْلِيًّا بِمَا أَحْفَظُ بِهِ نَفْسِي وَخَاصَّتِي وَأَهْلَ مِلَّتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَنْ أُدْخِلَهُمْ فِي ذِمَّتِي وَمِيثَاقِي وَأَمَانِي فِي كُلِّ حِينٍ وَمَوَدَّةٍ وَأَصُدَّ عَنْهُمْ كُلَّ أَذىً أَوْ مَكْرُوهٍ أَوْ تَبِعَةٍ، وَأَنْ أَكُونَ مِنْ قُوَّاتِهِمْ ذَابًّا عَنْهُمْ كُلَّ عَدُوٍّ أَوْ مُؤْذِي وَأَفْدِيَهُمْ بِنَفْسِي وَأَعْوَانِي وَأَتْبَاعِي وَأَهْلِ مِلَّتِي لِأَنَّهُمْ رَعِيَّتِي وَأَهْلُ ذِمَّتِي وأبيد [كذا] السُّلْطَةَ عَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَلَيَّ رِعَايَتُهُمْ وَحِفْظُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَلاَ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَصِلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ حَيْثُ يَصِلُ إِلَى أَصْحَابِي الذَّابِّينَ عَنْهُمْ وَعَنْ نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ.

وَأَنْ أَعْزِلَ عَنْهُمُ الْأَذَى فِي الْمُؤَنِ الَّتِي تُحَمَّلُ لِأَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْعَارِيَةِ بِالْخَرَاجِ إِلاَّ مَا طَابَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُورٌ وَلاَ إِكْرَاهٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلاَ تَغْيِيرُ أُسْقُفٍ عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ وَلاَ رَاهِبٍ مِنْ رَهْبَانِيَتِهِ وَلاَ نَصْرَانِيٍّ مِنْ نَصْرَانِيَّتِهِ وَلاَ زَاهِدٍ مِنْ صَوْمَعَتِهِ وَلاَ سَائِحٍ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَلاَ يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْ مَنْزِلِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَلاَ مَنَازِلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَكَثَ عَهْدَ اللهِ وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَحَادَ عَنْ ذِمَّتِهِ.

وَلاَ تُحَمَّلُ الرُّهْبَانُ وَلاَ الْأَسَاقِفَةُ وَلاَ مَنْ تَعَبَّدَ مِنْهُمْ وَكَافَّةُ لاَبِسِي الصُّوفِ أَوْ يُوجَدُ فِي الْجِبَالِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُعْتَزِلَةِ عَنِ الْأَبْصَارِ شَيْءٌ مِنَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ.

وَأَنْ يَقْتَصِرَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّصَارَى مِمَّنْ لاَ يَتَعَبَّدُ وَلاَ رَاهِبٍ وَلاَ سَائِحٍ مِنَ الْجِزْيَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فِي كُلِّ عَامٍ أَوْ ثَوْبٍ لَطِيفِ الثَّمَنِ، وَمَنْ عَدِمَ الثَّمَنَ وَالْقُوتَ أَعَانُوهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُوتِ بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ لَمْ يَسْهُلْ عَلَيْهِمُ الْقُوتُ حُمِلَ عَنْهُمْ وَلاَ يَقُومُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلاَّ بِمَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ.

وَلاَ يُتَجَاوَزُ بِجِزْيَةِ الْخَرَاجِ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالتِّجَارَاتِ الْعِظَامِ فِي الْبَحْرِ وَالْغَوْصِ، وَفِي اسْتِخْرَاجِ الْمَعَادِنِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَذَوِي الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُنْتَحِلِي النَّصْرَانِيَّةِ اثْنَا عَشَرَ فِضَّةً جِزْيَةً فِي كُلِّ عَامٍ إِذَا كَانُوا بِالْمَوَاضِعِ قَاطِنِينَ مُقِيمِينَ.

وَلاَ يُعْتَرَضُ عَابِرُ طَرِيقٍ وَلَيْسَ مِنْ أَقْطَارِ الْبِلاَدِ وَلاَ مِنْ أَهْلِ الاِخْتِيَارِ مِمَّنْ لاَ يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ بِخَرَاجٍ وَلاَ جِزْيَةٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي يَدِهِ مِيرَاثٌ مِنْ مَوَارِيثِ الْأَرْضِ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ مَالُ السُّلْطَانِ مِنْ حَقٍّ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ مَا يُؤَدِّي مِثْلَهُ، وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ وَلاَ يُحْمَلُ فِيهِ إِلاَّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ عَلَى تَحْوِيطِ الْأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا وَأَقْبَلَ ثَمَرَتُهَا. وَلاَ يُكَلَّفُ شَطَطًا وَلاَ يُتَجَاوَزُ حَدُّ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ مِنْ نُظَرَائِهِ.

وَلاَ يُكَلَّفُ أَهْلُ الذِّمَّةِ مِنْهُمُ الْخُرُوجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدُوِّهِمْ لِمُلاَقَاةِ الْحَرْبِ وَمُكَاشَفَةِ الْأَبْرَارِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الذِّمَّةِ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ، وَأُعْطُوا الذِّيَةَ عَلَى أَنْ لاَ يُكَلَّفُوا ذَلِكَ. وَأَنْ تَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ دَفْعًا عَنْهُمْ وَجَزْرًا مِنْ دُونِهِمْ وَلاَ يُكْرَهُوا عَلَى تَجْهِيزِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَرْبِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ عَدُوُّهُمْ بِقُوَّةٍ مِنَ السِّلاَحِ وَلاَ خَيْلٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ يَسْتَبْرِعُ مُتَبَرِّعٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ فَيَكُونُ مَا تَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ عَارِيَةً مَضْمُونَةً يَضْمَنُهُ بَيْتُ الْمَالِ إِلَى أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ تُوُفِّيَ أَوْ غِيرَ عَلَيْهِ غُرِمَ لَهُ قِيمَةُ ذَلِكَ مِنْ صُلْبِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأُدِّيَ إِلَيْهِ وَحُمِلَ إِلَى مَنْ يَتَبَرَّعُ وَغُرِمَ لَهُ وَأُوفِيَ عَلَيْهِ.

وَلاَ يُجْبَرُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ كُرْهًا عَلَى الإِسْلاَمِ وَلاَ يُجَادَلُوا إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُحْفَظُ لَهُمْ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ وَيُكَفُّ عَنْهُمُ الأَذَى وَالْمَكْرُوهُ حَيْثُ مَا كَانُوا وَأَيْنَ مَا حَلُّوا.

وَإِنْ أَجْرَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى أَوْ جَنَى جِنَايَةً فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نُصْرَتُهُ وَمعُونَتُهُ وَمُسَاعَدَتُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ وَالْمَغْرَمَةُ عَنْهُ وَعَنْ جَرِيرَتِهِ وَالدُّخُولُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ جَنَى عَلَيْهِ أَوْ بِمُسَاعَدَتِهِ أَوْ بِإِنْقَاذِهِ.

وَلاَ يُجَادَلُوا وَلاَ يُرْفَضُوا وَلاَ يُتْرَكُوا هَمَلاً لأَنِّي أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللهِ، عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَا عَلَيْهِمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا حَقَّ الذِّمَامِ وَالذَّبِّ عَنِ الْجِزْيَةِ. وَاسْتَوْجَبُوا أَنْ يُذَبَّ عَنْهُمْ كُلُّ مَكْرُوهٍ وَيُدْخَلُ بِهِمْ تَحْتَ كُلِّ تَرَفُّقٍ وَيَكُونُوا لِلْمُسْلِمِينَ شُرَكَاءَ بِمَا عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ.

وَلاَ يُحَمَّلُوا مِنَ النِّكَاحِ شَطَطًا إِلاَّ مَا يُرِيدُوهُ، وَلاَ تُكْرَهُ الْبَنَاتُ مِنْهُمْ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُضَادُّوا بِذَلِكَ إِن مَنَعُوا خَاطِبًا أَوْ بِزِيجَةٍ تَزْوِيجًا لأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِطِيبَةِ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ إِنْ أَحَبُّوهُ وَرَضُوا بِهِ.

وَإِنْ صَارَتِ النَّصْرَانِيَةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِنَصْرَانِيَتِهَا وَيُعِينَهَا عَلَى هَوَاهَا مِنَ الاِقْتِدَاءِ بِرُؤَسَائِهَا وَالأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا، فَمَنْ أَكْرَهَهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهَا فَقَدْ خَالَفَ عَهْدَ اللهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِهِ وَهُوَ عِنْدَنَا مِنَ الْكَاذِبِينَ.

وَلَهُمْ إِنْ احْتَاجُوا إِلَى مَرَمَّةِ بِيَعِهِمْ وَمَوَاضِعِ صَلَوَاتِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ إِلَى تَعَهُّدِ الْمُسْلِمِينَ بِتَقْوِيَةِ مَوَاضِعِهِمْ لَهُمْ عَلَى مَرَمَّتِهَا، أَنْ يَزِيدُوا عَلَى مَرَمَّتِهَا وَيُعَاوِنُوا وَلاَ يَكُونُ الآنَ عَلَيْهِمْ دَيْنًا بَلْ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَذِمَّتِهِمْ وَفَاءً لَهُمْ بِالْعَهْدِ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ وَهِبَةً لَهُمْ مِنْهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَلاَ يُكْرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْبِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لِعَدُوِّهِمْ رَسُولاً وَلاَ عَوْنًا وَلاَ مُتَجَبِّرًا وَلاَ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَلِيقُ بِالْحَرْبِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ كَانَ لِلَّهِ ظَالِمًا وَلِرَسُولِهِ عَاصِيًا وَمِنْ دِينِهِ مُنْخَلِعًا إِلاَّ تَمَامَ الْوَفَاءِ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ الَّتِي أَشْرَطَهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَةِ.

وَأَشْتَرِطُ عَلَيْهِمْ أُمُورًا فِي دِينِهِمْ وَذِمَّتِهِمْ عَلَيْهِمْ التَّمَسُّكُ بِهَا وَالْوَفَاءُ بِمَا عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ، مِنْهَا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَيْنًا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِرٍّ وَلاَ فِي عَلاَنِيَةٍ، وَلاَ يَأْوُوا فِي مَنَازِلِهِمْ عَدُوَّ الْمُسْلِمِينَ يُرُدُّ، وَأَوْفَى بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ، وَلاَ بَيْتِهِ وَلاَ أَوْطَانِهِمْ وَلاَ أَضْيَاعِهِمْ وَلاَ شَيْءَ مِنْ مَسَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ وَلاَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلاَ يَزِيدُوا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ بِسِلاَحٍ وَلاَ خَيْلٍ وَلاَ رِجَالٍ، وَلاَ يَسْتَدْعُوا مَا لاَ بِهِ حَاجَةٌ وَلاَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلاَ يُضَايِقُوهُمْ وَلْيُكَرِّمُوا فِي الأَرْضِ بَقِيَّةَ مَا يَدُومُونَ فِيهَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَيَدُومُونَ عَلَى أَدْيَانِهِمْ بِرِعَايَةِ ذِمَّتِهِمْ، وَأَنْ يَقْرُوا مَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَدِيَانَتِهِمْ حَيْثُ مَا كَانُوا وَأَيْنَ مَا حَلُّوا، وَأَنْ يَبْذُلُوا لَهُمْ الْقِرَى الَّذِي مِنْهُ يَأْكُلُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ وَيَحْمِلُونَ الأَذَى عَنْهُمْ وَالْمَكْرُوهَ.

وَإِنْ اِخْتَفَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَوَاطِنِ رَهْبَانِيَتِهِمْ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَأْوُوهُمْ وَيُوَاسُوهُمْ حَيْثُ مَا كَانُوا مُخْفِيِّينَ إِذَا كَتَمُوا عَنْهُمْ وَعِنْدَهُمْ، وَلاَ يُظْهِرُوا العَدُوَّ عَلَى أَحَدِهِمْ وَلاَ يُحْمِلُوا شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

فَمَنْ نَكَثَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهَا فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَعَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ الَّتِي أَخَذْتُ عَلَى الرُّهْبَانِ وَالإِيمَانِ مِنِّي عَلَى

نَفْسِي لَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا وَحَلُّوا.

وَعَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَفَاءُ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رِعَايَةِ ذَلِكَ لَهُمْ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ إِلَى الاِنْتِهَاءِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَتَنْقَضِيَ الدُّنْيَا.

وَمَنْ ظَلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ذِمِّيًّا وَنَقَضَ الْعَهْدَ وَرَفَضَهُ كُنْتُ خَصْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً.

وَشَهِدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِجَمِيعِ النَّصَارَى الَّذِي اِشْتَرَطَ لَهُمْ عَلَيْهِ، إِذْ كَتَبَ لَهُمْ هَذَا الْعَهْدَ ثَلاَثُونَ شَاهِدًا وَهُمْ:

أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقِ/عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ/عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ/عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ/أَبُو ذَرٍّ/أَبُو الدَّرْدَاءِ/أَبُو هُرَيْرَةَ/عَبْدُ اللهِ ابْنُ مَسْعُودٍ/الْعَبَّاسُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ/فَضْلُ ابْنُ الْعَبَّاسِ الزَّهْرِي/طَلْحَةُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ سَعِيدُ ابْنُ مُعَاذٍ/سَعِيدُ ابْنُ عُبَادَةَ/ثَابِتُ ابْنُ قَيْسٍ/يَزِيدُ ابْنُ تَلِيتٍ/عَبْدُ اللهِ ابْنُ يَزِيدَ/فَرْصُوصَ ابْنُ قَسِيمٍ ابْنُ بَدْرِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ/إِمَامُ ابْنُ يَزِيدَ/سَهْلُ ابْنُ تَمِيمٍ/عَبْدُ الْعَظِيمِ النَّجَشِي/عَبْدُ الْعَظِيمِ ابْنُ حُسَيْنٍ/عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَمْرُ ابْنُ الْعَاصِ/عَمْرُو ابْنُ يَاسِرٍ/مُعَظَّمُ ابْنُ مُوسِي/حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ/أَبُو حَنِيفَةَ/عُبَيْدُ ابْنُ مَنْصُورٍ/هَاشِمُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ/أَبُو الْعَازِرِ/هِشَامُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ/وَكَتَبَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَذَا الْعَهْدَ، وَالسِّجِلُّ مَكْتُوبٌ فِي جِلْدٍ غَيْرِ صَغِيرٍ وَخُلِّدَ بِتَثْبِيتِ حُكْمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ مَخْتُومٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

كَمُلَ هَذَا الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْهُ فِي يَوْمِ الاِثْنَيْنِ الْمُبَارَكِ آخِرَ شَهْرِ بُؤُونَه الْمُبَارَكِ سَنَةَ سَادَتِنَا الشُّهَدَاءِ الأَطْهَارِ السُّعَدَاءِ الأَبْرَارِ رَزَقَنَا اللهُ

شَفَاعَتَهُمْ، تَكُونُ مَعَنَا آمِينْ.

الْمُوَافِقِ ذَلِكَ لِلسَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ الْحَرَامِ سَنَةَ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَتِسْعُمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَحْسَنَ اللهُ عَاقِبَتَهَا إِلَى خَيْرٍ، آمِينْ.

هَذَا الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ مِلْكُ الْمُبَجَّلِ النَّفْسِ الْمَوْلَى الرَّئِيسُ الشَّيْخُ الْعَالِمُ سُمْعَانَ نَجْلُ الْمُعَلِّمِ فَضْلُ اللهِ الْمُتَنَيِّحِ نَيَّحَ اللهُ نَفْسَهُ الْمَعْرُوفِ بِالْبَرْلُسِي.

وَنَاقِلُ هَذِهِ الْأَحْرُفِ الْمِسْكِينُ الْمَمْلُوءِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ يَسْأَلُ الإِخْوَةَ الَّذِينَ يَقِفُونَ عَلَى هَذِهِ الْحُرُوفِ أَنْ يَذْكُرُوهُ فِي صَلَوَاتِهِمْ وَالْمَسِيحُ يُعَوِّضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ عِوَضَ الْوَاحِدِ ثَلَاثِينَ وَسِتِّينَ وَمِائَةً.

عَهْدُ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ لِلنَّصَارىٰ الآشُورِيِّين

[من محمد رسول الله]

(عن الترجمة الإنجليزية التي أوردها مالخ ١٩١٠: ٢٢٨-٢٣٠)
(تُرجم النَّصّ عن نسخة مكتوبة باللغة الإنجليزية نظرا لتعذر الحصول علىٰ أية نسخة عربية لهذه الوثيقة.)
ترجمة د. محمد الكوش

لَقَدْ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ فِي رُؤْيَا مَا سَوْفَ أَفْعَلُ، وَامْتِثَالاً لِأَمْرِهِ تَعَالَى أَتَعَهَّدُ بِأَنْ أَحْفَظَ هَذَا المِيثَاقَ.

لِأَتْبَاعِي مِنَ المُسْلِمِينَ أَقُولُ: أَطِيعُوا أَمْرِي، أُحْمُوا وَسَاعِدُوا الْأُمَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ فِي بَلَدِنَا هَذَا، فَوْقَ أَرَاضِيهِمْ.

أُتْرُكُوا أَمَاكِنَ عِبَادَتِهِمْ فِي سَلامٍ، سَاعِدُوا وَذَبُّوا عَنْ رَئِيسِهِمْ وَقَسَاوِسَتِهِمْ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ لِلْمُسَاعَدَةِ، سَوَاءً أَكَانُوا فِي الجِبَالِ، أَوْ فِي الصَّحْرَاءِ، أَوْ فِي البَحْرِ أَوْ فِي بُيُوتِهِمْ.

لاَ يَمُسُّ مُسْلِمٌ شَيْئًا مِنْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، سَوَاءً أَكَانَتْ بُيُوتًا أَوْ مِلْكِيَّاتٍ أُخْرَى، وَلا يُفْسِدُ شَيْئًا مِنْ أَغْرَاضِهِمْ. وَعَلَى أَتْبَاعِي مِنَ المُسْلِمِينَ أَلَا يَضُرُّوا أَوْ يَنْتَهِكُوا حُرْمَةَ أَيِّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، لِأَنَّ النَّصَارَى رَعِيَّتِي، يَدْفَعُونَ الجِزْيَةَ، وَهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُسَاعَدَةِ المُسْلِمِينَ.

لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا تَمَّ الاِتِّفَاقُ عَلَيْهِ مِنْ الجِزْيَةِ، وَأَنْ تُتْرَكَ كَنَائِسُهُمْ كَمَا هِيَ، دُونَ تَغْيِيرٍ، وَأَنْ يُسْمَحَ لِقَسَاوِسَتِهِمْ أَنْ يَتَعَبَّدُوا وَيُعَلِّمُوا كَمَا يَشَاؤُونَ. فَلِلنَّصَارَى حُرِّيَّةَ التَّعَبُّدِ الكَامِلَةِ دَاخِلَ كَنَائِسِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ.

وَلاَ يُهْدَمُ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ صَلَوَاتِهِمْ وَلاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْ بِنَائِهِمْ إِلَى بِنَاءِ مَسْجِدٍ، إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنَ النَّصَارَى. فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الأَمْرَ فَقَدْ خَانَ ذِمَّةَ اللهِ وَعَصَى رَسُولَهُ.

وَأَنْ تُصْرَفَ الجِزْيَةُ الَّتِي يُؤَدِّيهَا النَّصَارَى فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَنْ تُودَعَ فِي بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ. وإِنَّ عَلَى الرَّجُلِ العَادِيِّ دِينَارًا وَاحِدًا؛ أَمَّا التُّجَّارُ وَالأَثْرِيَاءُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مَنَاجِمَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، فَعَلَيْهِمْ دَفْعُ اثْنَيْ عَشَرَ دِينَارًا. وَلاَ جِزْيَةَ عَلَى الأَجَانِبِ وَلاَ عَلَى مَنْ لاَ يَمْلِكُ بَيْتًا أَوْ مُمْتَلَكَاتٍ قَارَّةً أُخْرَى. وَعَلَى مَنْ وَرِثَ أَرْضًا أَنْ يُؤَدِّيَ مَبْلَغًا مُقَدَّرًا لِبَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ.

وَلاَ يُجْبَرُ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى عَلَى الخُرُوجِ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ الإِسْلامِ، لَكِنْ إِذَا هَاجَمَهُمْ عَدُوٌّ، فَعَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَهُبُّوا لِنُصْرَتِهِمْ والذَّبِّ عَنْهُمْ بِالخَيْلِ وَالسِّلاحِ، إِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصُدُّوا عَنْهُمْ كُلَّ أَذىً أَوْ مَكْرُوهٍ يَأْتِيهِمْ مِنَ الخَارِجِ وَأَنْ يَسْهَرُوا عَلَى مُسَالَمَتِهِمْ. وَلا يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ كُرْهًا عَلَى الإِسْلامِ، إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ أَنْ يُسْلِمُوا.

وَلا يُجْبِرُ المُسْلِمُونَ النَّصْرَانِيَّاتِ عَلَى اعْتِنَاقِ الإِسْلامِ، لَكِنْ إِذَا رَغِبْنَ فِي اعْتِنَاقِهِ، فَعَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُعَامِلُوهُنَّ بِالحُسْنَى.

إِنْ تَزَوَّجَتِ امْرَأَةٌ نَصْرَانِيَّةٌ رَجُلاً مُسْلِمًا وَلَمْ تَكُنْ رَاغِبَةً فِي اعْتِنَاقِ الإِسْلاَمِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَمْنَحَهَا الحُرِّيَّةَ لِتُمَارِسَ دِينَهَا فِي كَنِيسَتِهَا وَوِفْقَ عَقِيدَتِهَا الدِّينِيَّةِ الخَاصَّةِ، وَلاَ يَجِبُ أَنْ يُسِيءَ زَوْجُهَا مُعَامَلَتَهَا بِسَبَبِ دِينِهَا.

إِذَا خَالَفَ أَحَدٌ هَذَا الأَمْرَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ وارْتَكَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا.

إِذَا أَرَادَ النَّصَارَى بِنَاءَ كَنِيسَةٍ، فَعَلَى جِيرَانِهِمُ المُسْلِمِينَ أَنْ يُسَاعِدُوهُمْ.

إِنَّ عَلَيْـهِمْ القِيَامَ بِـذَلِكَ لأَنَّ النَّصَـارَى أَطَاعُونَا وَأَقْبَلُوا إِلَيْـنَا وَالْتَمَسُوا مِـنَّا السَّـلاَمَ وَالرَّحْـمَةَ.

وَإِذَا بَرزَ مِنْ بَيْنِ النَّصَارَى عَالِمٌ عَظِيمٌ فَعَـلَى المُسْلِمِينَ إِكْرَامَهُ، وَلا يَحْسُـدُوهُ عَلَى مَقَـامِهِ.

وَكُلُّ مُسْـلِمٍ ظَلَمَ نَصْرَانِيـًا سَيَكُونُ عَـلَيْـهِ إِثْمُ مَعْصِيَةِ رَسُولِ اللهِ.

لاَ يُؤْوِي النَّصَارَى عَـدُوًّا لِلإِسْلامِ أَوْ يُزَوِّدُوهُ بِخَيْلٍ أَوْ سِلاحٍ أَوْ أَيِّ عَوْنٍ. وَإِنْ أُضْطُـرَّ مُـسْلِمٌ إِلَى التَّخَفِّي فَـعَلَى النَّصْرَانِيِّ أَنْ يُضَيِّفَـهُ ثَلاثَـةَ أَيَّامٍ بِلَيَـالِيهَا، يَكُونُ مُضِيفًا لَهُ وَحَامِيـًا إِيَّاهُ مِنْ أَعْـدَائِهِ.

وَفَضْـلاً عَنْ ذَلِكَ، يَجِـبُ عَلَى النَّصَارَى أَنْ يَحْمُوا نِسَـاءَ وَأَطْفَـالَ المُسْـلِمِينَ وَلا يُسَلِّمُوهُمْ إِلَى عَدُوٍّ أَوْ يُظْـهِـرُوا العَدُوَّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ.

إِذَا نَكَثَ النَّصَـارَى شَيْئًا مِنْ هَـذِهِ الشُّرُوطِ فَقَـدْ ضَيَّعُوا حَقَّـهُـمْ فِي الحِمَايَـةِ وَصَارَ المِيـثَاقُ لاغِيًا وَبَاطِـلاً.

يَجِـبُ أَنْ يُعْـهَـدَ بِهَذِهِ الوَثِيـقَةِ إِلَى أَمِـيرِ النَّصَارَى وَرَئِيسِ كَنِيسَتِهِمْ مِنْ أَجْلِ حِفْظِهَـا.

وشهـد على العهـد:

أبو بكر الصديق/عمر بن الخطاب/عثمان ابن عفان/علي ابن أبي طالب/ معاوية بن أبي سفيان/أبو الدرداء/أبو ذر/أبو براء/عبد الله بن مسعود/عبد الله بن عباس/حمزة بن المطلب/فضل بن العباس/الزبير بن العوام/طلحة بن عبد الله/ سعد بن معاذ/سَعد بن عبادة/ثابت بن قيس/يزيد بن ثابت/عبد الله بن يزيد/

سهل بن صوفية؟[أو صيفة/[عثمان بن مظعون/داود بن جباح/أبوالعالية/عبد الله بن عمرو بن القاضي/أبو حذيفة/ابن عسير/ابن ربيعة/عمار بن يَاسر/هاشم بن عصية/حَسّان بن ثابت/كعب بن كعب/كعب بن مَالك/جعفر بن أبي طالب.

رضي الله عنهم أجمعين.

كتب هٰذا العهد معاوية بن أبي سفيان، من إملاء محمد، رسول الله، في السنة الرابعة من الهجرة، في المدينة.

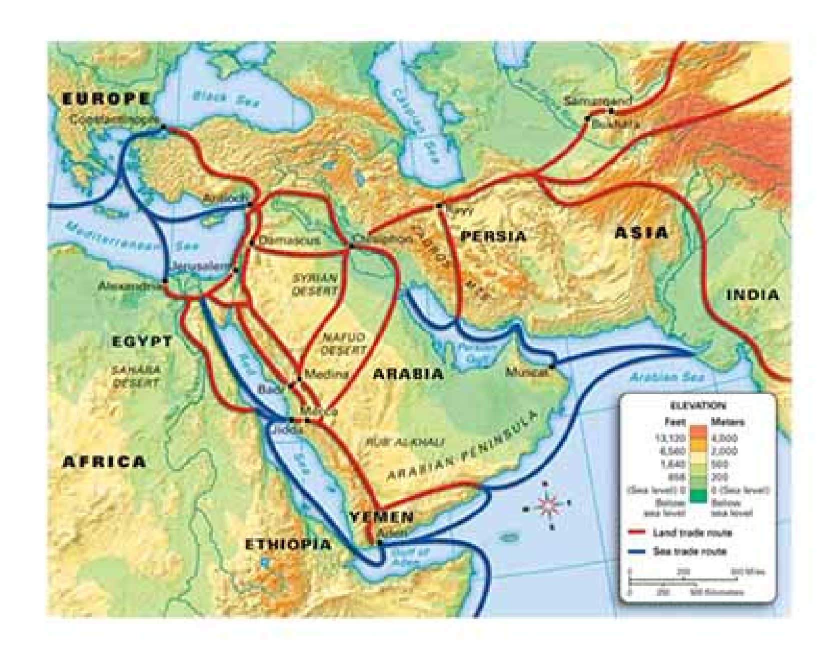
صُوَرٌ تَوْضِيحِيَّةٌ



منظر جوي عام لشبه جزيرة سيناء (مجال عمومي)



خريطة شبه جزيرة سيناء (مجال عمومي)



طرق التجارة العربية القديمة (مجال عمومي)



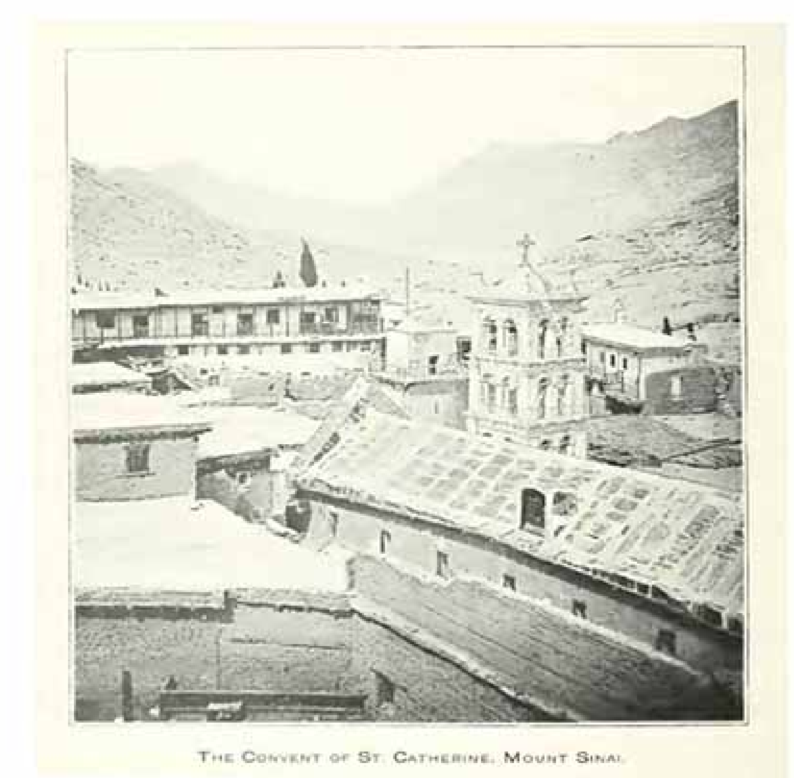
قمة جبل سيناء بريشة الفنان أدريان إرغون سنة ١٨٣٧م (مجال عمومي)



لوحة لدير القديسة كاثرين بعدسة بيير نيكولاس رانسونيت (١٧٤٥-١٨١٠) (م.ع)

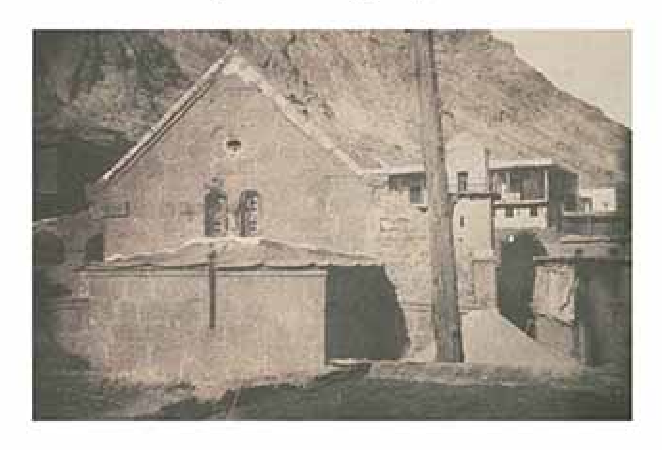


صورة لدير القديسة كاثرين بعدسة فرانسيس فريث (١٨٢٢-١٨٩٨)(م.ع)



THE CONVENT OF ST. CATHERINE, MOUNT SINAI.

دير القديسة كاثرين حوالي سنة ١٨٩١ بعدسة هيلين هاريس تتوسطه صومعة الكنيسة ومئذنة المسجد



صورة لدير القديسة كاثرين سنة ١٨٥٢ مع مئذنة المسجد (م.ع)

صورة لجبل سيناء بعدسة فرانسيس فريث (١٨٢٢-١٨٩٨)



جبل سيناء (م.ع)

دير القديسة كاثرين وخلفه جبل سيناء (م.ع)



دير القديسة كاثرين (بترخيص من إيريك سميث)



دير القديسة كاثرين (م.ع)



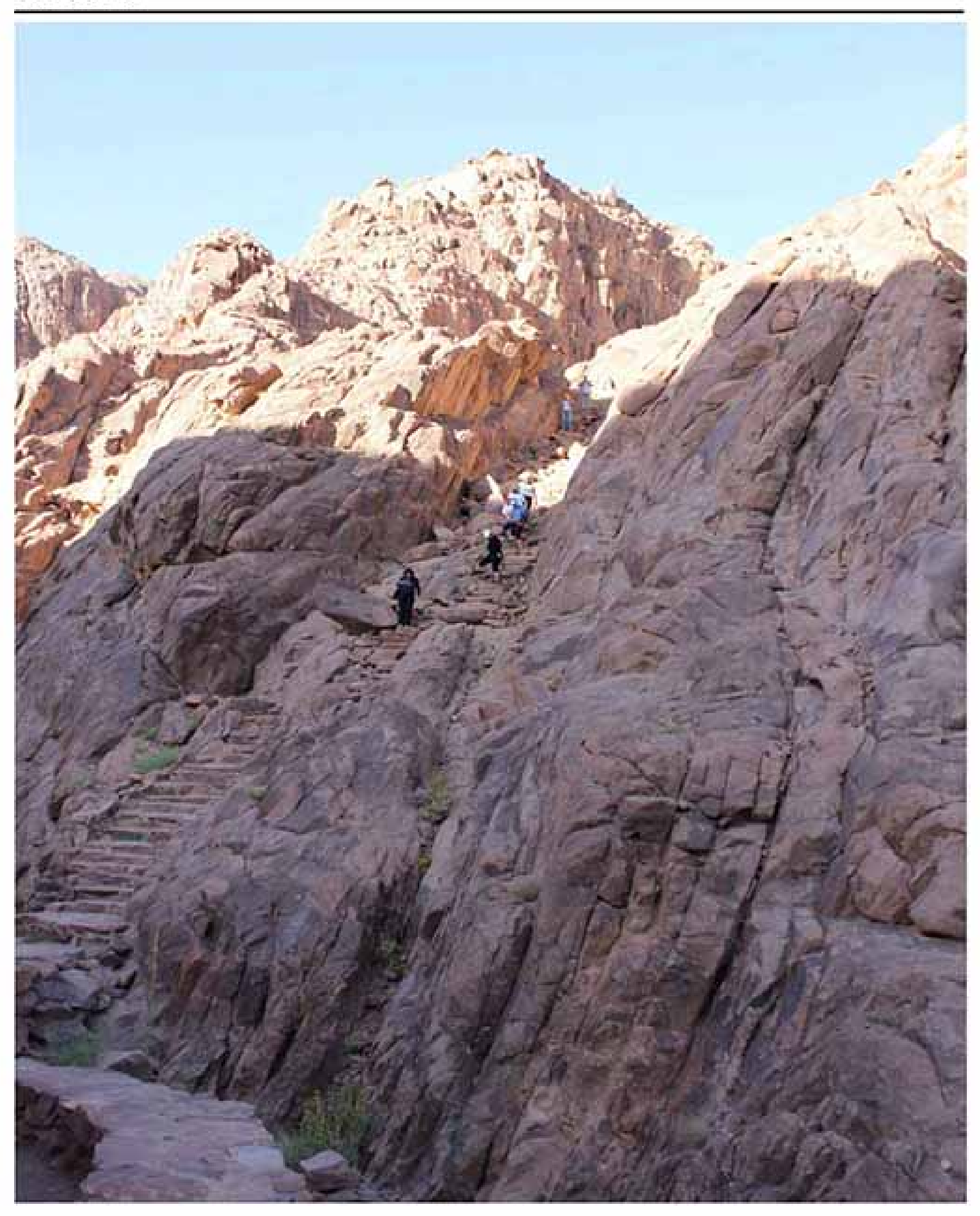
دير القديسة كاثرين (م.ع)



لوحة زيتية لدير القديسة كاثرين أنجزها ياكوفوس موسكوس خلال القرن الثامن عشر (م.ع)



لوحة زيتية للقديسة كاثرين بريشة الفنان كاسيمو روسيلي (م.ع)



سلم التوبة (بترخيص من إيريك سميث)



باب التوبة للنبي إلياس (بترخيص من إيريك سميث)



صورة لشجرة العليق المقدسة بدير القديسة كاثرين(م.ع)



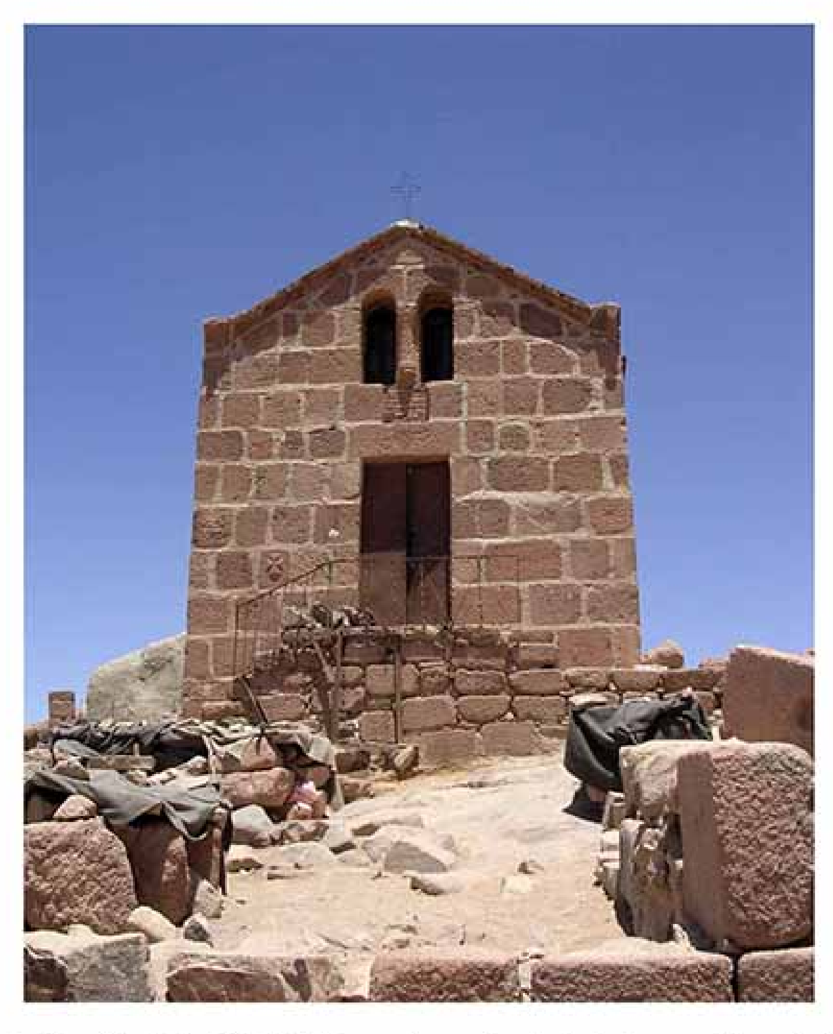
مغارة النَّبِيّ إلياس حيث سَمِعَ صوتَ الإله وهو يفر من بطش الملك أخاب وزوجته إيزابيل حسب الإنجيل (بترخيص من إيريك سميث)



صورة لكنيسة التوبة (بترخيص من إيريك سميث)



برج الكنيسة ومئذنة المسجد في حرم دير القديسة كاثرين (م.ع)



كنيسة الثالوث المقدس فوق قمة جبل سيناء وهو المكان الذي كلم الله تعالىٰ فيه نبيه موسىٰ (بترخيص من إيريك سميث)



جامع فاطمة الذي شيده الفاطميون علىٰ قمة جبل سيناء (م.ع)



جامع فاطمة من الداخل (م.ع)



المغارة التي استلم فيها موسىٰ ألواح الوصايا العشر والتي كان يعتكف فيها النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ أثناء مروره بسيناء (م.ع)



مدخل ثانوي لمغارة موسىٰ ومُحَمَّد ﷺ (بترخيص من إيريك سميث)



مسكن الراهب بحيرا بسوريا (بترخيص من أبي مجيد أحمد قاسم سلطان)



داخل مسكن الراهب بحيرا (بترخيص من أبي مجيد أحمد قاسم سلطان)



كاتدرائية الراهب بحيرا بسوريا (بترخيص من أبي مجيد أحمد قاسم سلطان)



منظر لكاتدرائية الراهب بحيرا (بترخيص من أبي مجيد أحمد قاسم سلطان)

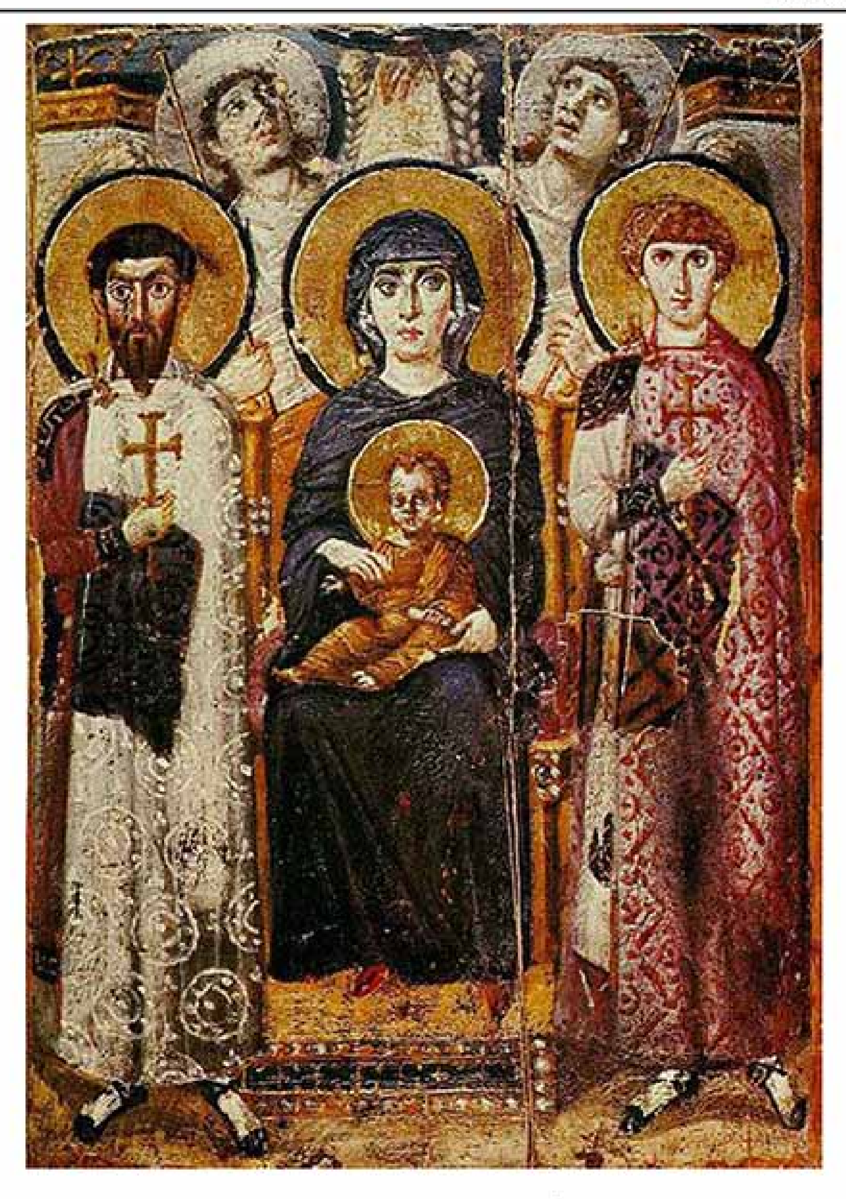


أثر منسم ناقة النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ببصرىٰ بسوريا (بترخيص من أبي مجيد أحمد قاسم سلطان)

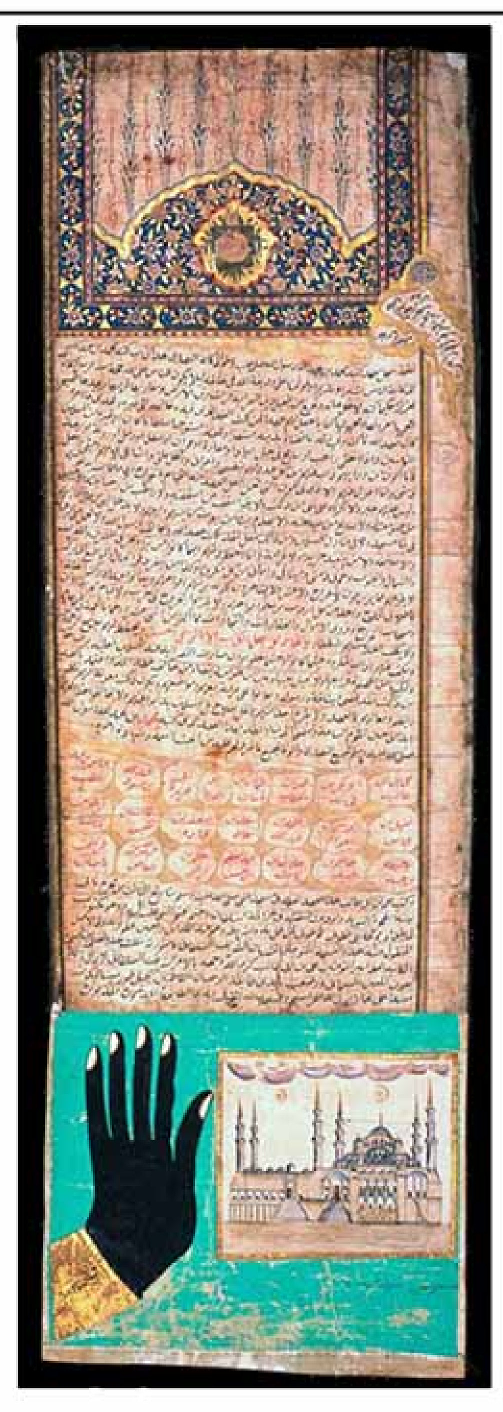


رجل الدين المسيحي باسيفيك دو بروفينس (مجال عمومي)

تمثال لجبرائيل الصهيوني- أو غابرييل سيونيتا (مجال عمومي)



لوحة زيتية للمسيح الطفل وأمه مريم العذراء محفوفين بالملائكة، بدير القديسة كاثرين وقد سبق أن رسمت لوحة مماثلة لها بالكعبة المشرفة (مجال عمومي)



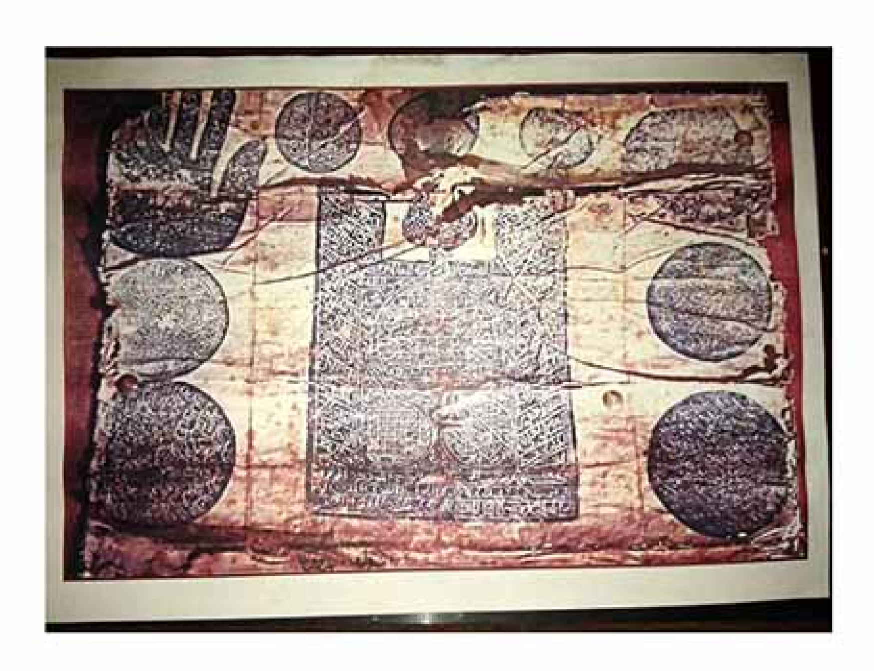
عهد النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء (بترخيص من دير سيمونوبترا)



عهد النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء (بترخيص من دير سيمونوبترا)



عهد النَّبيّ الذي كتبه للمسيحيين السريان الأورثدوكس (بترخيص من دير القديس جورج بسوريا)



صورة لعهد النَّبيّ الذي كتبه للمسيحيين السريان الأورثذوكس (بترخيص من دير القديس جورج بسوريا)



عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لرهبان جبل سيناء (بترخيص من دير القديسة كاثرين)

ء

العهد والشروط التي شرطها محمد رسول
الله لاهل الملة النصرانية

كتبه محمد رسول الله الي الناس كافة بشيرًا
ونذيرًا علي وديعة الله في حقه لتكون حجة
الله بجعل دين النصرانية في مشرق الارض
ومغربها وفصيحها واعجمها وقريبها
وبعيدها ومعروفها ومجهولها كتابا جعله
لهم عهدًا مرعيا وسجلاً منشورًا وصية
منه تقيم فيه عدله وذمة محفوظه فمن
كان بالاسلام متمسكا ولما فيه متساهلاً من
صنيعها ونكث العهد الذي فيها وخالفه
الي غير المومنين وتعدي فيه ما امرت به

A ij

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم (م.ع) [نسخة أنطوان فيتراي]

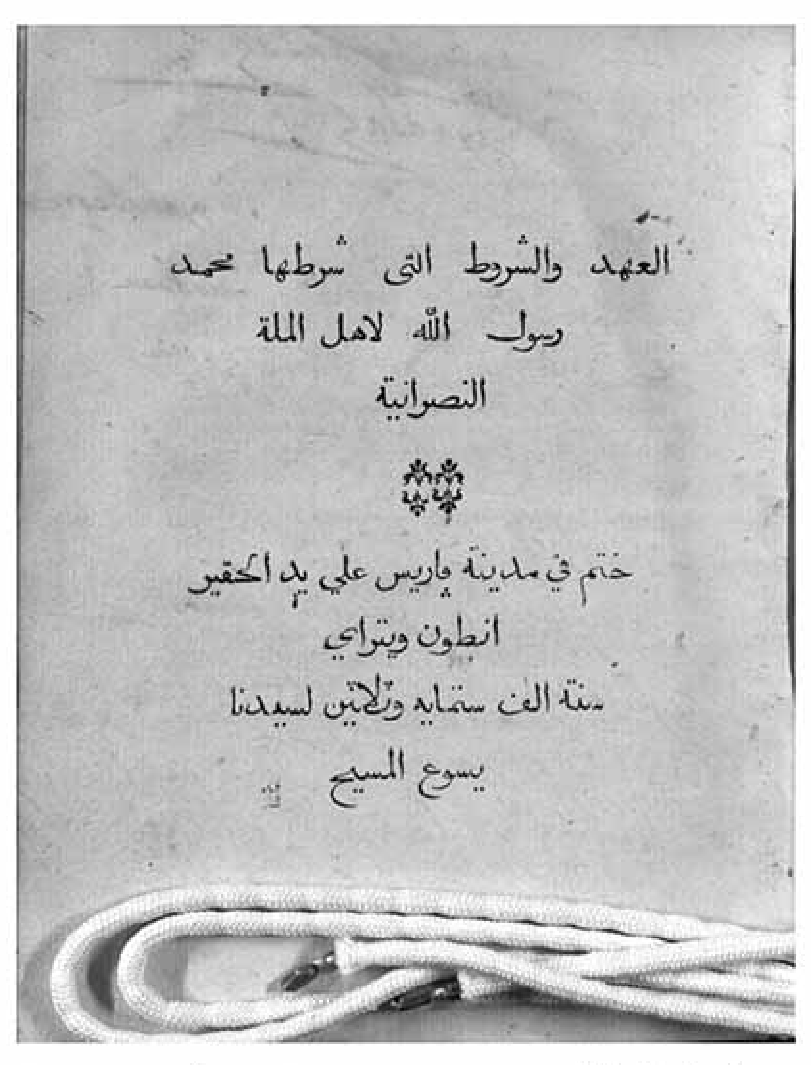
(٤)

العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل النصرانية

كتبه

محمد رسول الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا على وديعة الله في خلقه لتكون حجة الله ... على ... النصرانية في مشرق الأرض ومغربها وفصيحها وأعجمها وقريبها وبعيدها ومعروفها ومجهولها كتابا جعله لهم عهدا مرعيا وسجلا منشورا وصية منه تقيم فيه عدله وذمة لمحفوظه فمن كان بالإسلام متمسكا ولما فيه متأهلا من صنيعها ونكث العهد الذي فيها وخالفه إلى غيره المؤمنين وتعدى فيه ما أمرت به كان لعهد الله ناكثا ولميثاقه ناقضا وبذمته مستهينا سلطان كان أو غيره من المؤمنين والمسلمين فبدلت بإعطاء العهود على نفسي والمواثيق التي يسألونها عني وعن جميع أهاليّ من المسلمين بأن أعطيهم عهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ورسله وأصفيائه وأوليائه من المؤمنين والمسلمين في الأولين والآخرين وذمتي وميثاقي أشدهما أخذ الله على نبي مرسل أو ملك مقرب

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم (مجال عمومي)


العهد والشروط التى شرطها محمد
رسول الله لاهل الملة
النصرانية

ختم في مدينة پاريس علي يد الحقير
انطون ويتراي
سنة الف ستمايه وثلاثين لسيدنا
يسوع المسيح

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحي العالم (م.ع) [نسخة أنطوان فيتراي]

رعیت منند و اهل ذمه منند و اتباع و اعوان امت منند و بدین سبب واجب است بر من رعایت
و حفظ و حراست ایشان را از هر مکروهی و آزاری و دفع کسانی که سبب آزار ایشان باشند و باید
در مطالبات و خراج زیاده از قدر طاقت ایشان طلب ننمایند و از آنچه ایشان با آن راضی
باشند در نگذرند و ظلم و ستم با ایشان نکنند و تغییر در بناهای ایشان ندهند و کشیشان را از عمل
خود باز ندارند و فقرا را نیز از منع آیین و مذهب که دارند نشوند و در صومعه و معبد خود به هر طریق که خواهند
عبادت کنند و در تخریب و انهدام کلیساهای ایشان سعی جایز ندارند و از خانه و عمارات ایشان
داخل مساجد و بیوت اهل اسلام به عنف و تعدی و غصب ننمایند مگر به رضای ایشان پس هر که
از فرموده در گذرد و خلاف قول بجای آرد و پس عهد و میثاق را باطل کرده خود را به غضب خدا
و رسول خدا آورده باشد و از ایشان زیاده از چهار دینار جزیه طلب ننمایند یا یک جامه عربی
و آنچه خراج از ایشان حاصل میشود برای اعانت مسلمانان خواه بود که داخل بیت المال نموده در
مصرف معین صرف نمایند و زیاده از آن طلب ننمایند هر چه از اهل تجارت و صاحب جمعیت
خواه در بحر غواصی کنند و خواه معدن طلا و نقره یا مال بسیار بدست داشته باشند از ایشان زیاده
زیاده از دوازده درهم طلب ننمایند بشرطیکه متوطن و قایم مقام باشند و از اهل ذمه کسی که
راه گذر باشند و از سکنه بلاد نباشند و جای و مقام نداشته باشند خراج و جزیه طلب ندارند
مگر آنکه در دست ایشان از میراث و غیره چیزی باشد که مال و حق امام در آن باشد پس
همان حق را از او طلب نمایند و جور و ستم را او روا ندارند مگر به قدر طاقت او و طلب از عمارات زراعت
و بیوت ایشان ننمایند و اهل ذمه را تکلیف نکنند که با مسلمانان اتفاق نمایند و در رفع
اعدای دین در محاربه و مقاتله که مسلمانان را با غیر ملت واقع شود و اهل ذمه را تکلیف نمایند

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ للمسيحيين الآشوريين (م.ع) [نسخة فارسية]

العَهْدُ وَالشُّرُوطُ التِي قَرَّرتَهَا مُحَمَّدٌ رَسُول اللّهِ لِأَهْلِ المِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ۞

SIVE

TESTAMENTUM,

INTER MUHAMEDEM, ET CHRISTIANÆ RELIGIONIS POPULOS INITUM.

Cujus

Textus Authenticus hìc noviter recusus, à mendis quàm plurimis probè castigatus, nunc primùm figuris vocalium nobilitatus, nec non è regione versione Latinâ adornatus.

Quô

Pariter Editionis Parisiensis multivaria hinc indè, eaquè grandia errata deteguntur, loca corrupta debitæ integritati restituuntur, totiusque hujus memorabilis facti cognitio dilucida atq; plana redditur.

Operâ & studio

JOANNIS GEORGII NISSELII, LL. Oriental. Cultoris.

LUGDUNI BATAVORUM,
Ex Officina JOANNIS ELZEVIER, Acad. Typogr.
Sumptibus Authoris.

Anno CIↃ IↃC LV.

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم (م.ع)[نسخة لاتينية]

Des grossen Propheten und Apostels
Mahommeds Testament
Das ist/
Friedens-Artickul/
Welche er selbst/ mit den Christen/so wohl in
Geistlichen als Weltlichen Sachen/ aufgerichtet/
die nachmahls in Arabischer Sprache/
gleich dem
Alcoran/als dessen Anhang/
Beschrieben/und von beyderley Zeugen un-
terschrieben worden.
Samt einer Zugabe / von der Christen und
Juden Zustand/ nachdem der Türckische Glaube sei-
nen Anfang genommen.
Benebenst Einer
Türckischen Propheceyung/
Worinnen sie sich selbst ihres endlichen Un-
tergangs/ wegen der Christen befürchten:
und
Dem ietzigen Türcken-Gebet
wider die Christen.

Gedruckt im Jahr Christi 1664.

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم [نسخة ألمانية] (م.ع)

MUHAMMEDIS

TESTAMENTUM

SIVE

PACTA CUM CHRISTIANIS IN ORIENTE INITA.

Quibus accessit

THEODORI BIBLIANDRI

Viri ſuo tempore magni nominis

APOLOGIA,

Pro editione ALÇORANI.

Ad omnes Epiſcopos, Doctores & Paſtores Eccleſiarum EUROPÆ.

Publicæ luci expoſita

à

M. JOHANNE FABRICIO Dantiſcano.

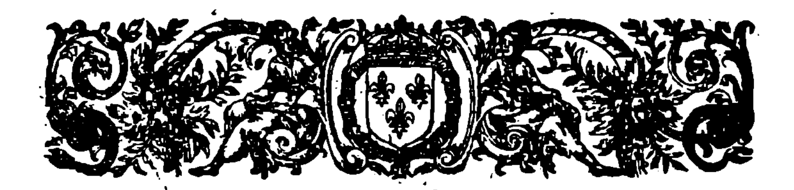
ROSTOCHII,

Impenſis JOHAN. HALLERVORDI Bibliop.

Typis MICHAELIS MEDERI.

Anno M. DC. XXXIIX.

عهد النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحيي العالم (م.ع) [نسخة لاتينية]

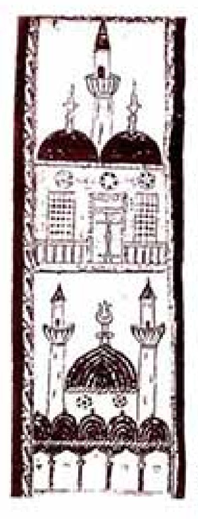


PIECE TRES-RARE ET CVRIEVSE qui eſt le Teſtament de Mahomet.

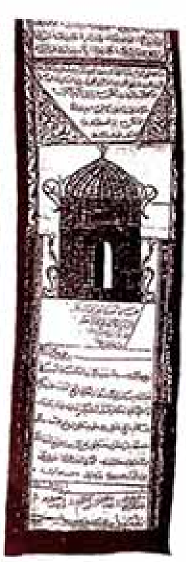
IE n'ay voulu finir cette relation ſans vous faire part d'vne choſe tres-rare qui m'eſt tombee fortuitement entre les mains, que ie ſçay eſtre tres-digne d'vn eſprit curieux, qui eſt le Teſtament de Mahomet: Et afin que vous ſçachiez comment & pourquoy ſe fit ledit Teſtament, vous ſçaurez que cette année paſſée mil ſix cens vingt huit il s'eſleua vne bouraſque & perſecution de bourſe ſur les Eccleſiaſtiques & marchands Chreſtiens, qui fut telle: C'eſt que ſouz pretexte du beſoing que leſdits Chreſtiens ont de demeurer en ces païs-là ils furent taxez chacun à payer an-

Qq

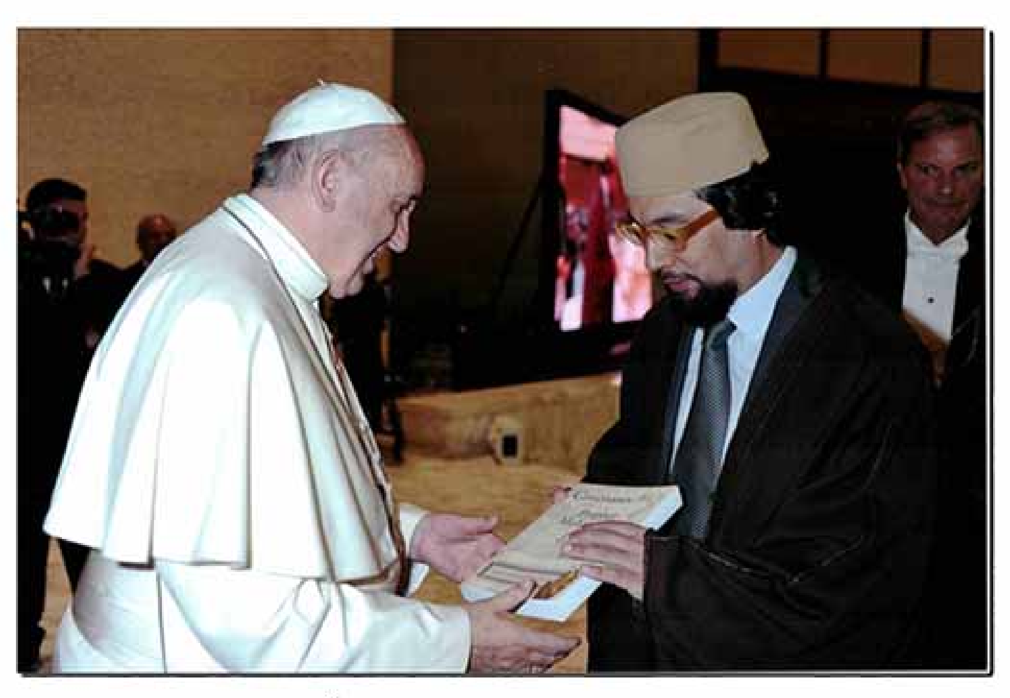








عهود عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه)، وصلاح الدين الأيوبي المكتوبة للمسيحيين (م ع)



بابا الفاتيكان فرانسيس يستلم نسخة من كتاب عهود النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ لمسيحي العالم من يد الإمام يحيىٰ بلافيتشيني (بموافقة من يحيىٰ بلافيتشيني)

مَراجِعُ الكِتاب

'Abd al-Malik, Sami Salah. "*Les mosquées du Sinaï au Moyen Âge.*" *Le Sinaï durant l'antiquité et le moyen âge, 4000 ans d'histoire pour un desert.* Ed. Dominique Valbelle and Charles Bonnet. Paris: Éditions Érrance, 1998. 171-176.

Abu Dawud, Sulayman ibn al-Ash'ath al-Sijistani. *Sahih Sunan Abu Dawud.* Riyyad: Maktab al-Tarbiyyah al-'Arabi li Duwwal al-Khalij, 1989.

Abu Riyya, Mahmud. *Light on the Muhammadan Sunnah or Defence of Hadith.* Trans. Hassan M. Najafi. Qum: Ansariyan Publications, 1999.

Adair, John. *The Leadership of Muhammad.* London: Koganpage, 2010.

Affagart, Greffin. *Relation de Terre Sainte (1533-1534).* Ed. J. Chavanon. Paris: Librairie Victor Lecoffre, 1902.

Ágoston, Gábor. "*Information, Ideology, and Limits of Imperial Policy: Ottoman Grand Strategy in the Context of Ottoman-Habsburg Rivalry.*" *The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire.* Ed. Virginia H. Aksan and Daniel Goffman. Cambridge: Cambridge University Press, 2007. 75-103.

Ahlul Bayt Digital Islamic Library Project. *Hadith al-thaqalayn.*

Ahmad, Barakat. *Muhammad and the Jews: A Re-Examination.* New Delhi: Vikas, 1979.

Akbar, M.J. *The Shade of Swords: Jihad and the Conflict between Islam and Christianity.* London: Routledge, 2003.

Aksan, Virginia H. and Daniel Goffman. *The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire.* Cambridge: Cambridge University Press, 2007.

'Ali, 'Abdullah Yusuf, trans. *The Holy Qur'an.* Brentwood, MA: Amana Corporation, 1983.

'Ali ibn Abi Talib. *Nahj al-balaghah*. Qum: Hawzah Publications, 1998.

'Ali Zayn al-'Abidin. *The Treatise on Rights/Risalat al-huquq*. Trans. William C. Chittick. Qum: Foundation of Islamic Cultural Propagation in the World, 1990.

Allen, Charles. *God's Terrorists: The Wahhabi Cult and the Hidden Roots of Modern Jihad*. Cambridge, MA: Da Capo Press, 2006.

'Amara, Muhammad. al-*Islam wa al-akhar*. Maktabah al-Sharq al-Dawliyyah, 2002.

Amini, Ibrahim. *Foreign Policy of an Islamic State*. Qum: al-Tawhid, nd.

Anti-Slavery Society. "How Many Slaves are There?" *Anti-Slavery Society*.

Arabic News. "St. Catherine Monastery Mosque." *Arabic News* (April 22, 2004).

Arduini, Mark, et al. "*Captive Passage: The Transatlantic Slave Trade and the Making of the Americas*." Mariners Museum.

Armour, Sr., Rollin. *Islam, Christianity, and the West: A Troubled History*. Maryknoll, NY: Orbis Books, 2003.

Armstrong, Karen. *Muhammad: A Biography of the Prophet*. New York: HarperCollins, 1993.

---. *Islam: A Short History*. New York: Modern Library, 2000.

Arnold, John Muehleisen. *Ishmael: A Natural History of Islamism and its Relation to Christianity*. London: Rivingtons, 1859.

Arpee, Leon. *A History of Armenian Christianity from the Beginning to Our Own Time*. New York: The Armenian Missionary Association of America, Inc., 1946.

Arundale, Francis. *Illustrations of Jerusalem and Mount Sinai*. London: Henry Colburn, 1837.

Asia News. "Grand Mufti: All Churches on the Arabian Peninsula Should Be Destroyed." *Asia News* (March 21, 2012).

Atiya, Aziz Suryal. *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*. Baltimore: The John Hopkins Press, 1955.

Avdall, Johannes. "*A Covenant of 'Ali, Fourth Caliph of Baghdad, Granting*

Certain Immunities and Privileges to the Armenian Nation." Journal of the Asiatic Society of Bengal 1-4 (1870): 60-64.

Aydin, Hilmi. *The Sacred Trusts.* Somerset, NJ: Tughra Books, 2009.

Azami, M.M. *Studies in Hadith Methodology and Literature.* Indianapolis: American Trust Publication, 1977.

Azadian, Edmond Y. "*Jerusalem in Limbo.*" The Armenian Mirror Spectator (May 29, 2011).

Azraqi, *al-. Akhbar Makkah/ Chroniken der Stadt Mekka.* Ed. Ferdinand Wuestenfeld. Np: Leipzig, 1858; reprint Beyrouth, 1964.

Badawi, Jamal. *Muhammad in the Bible.* Cairo: al-Falah Foundation, 2005.

Bahnasawy, Salim al-. *Non-Muslims in the Shari'ah.* Trans. Aisha Adel and Said Traore. Dar al-Nashr Li Jami'at, 2004.

Balagna, Josée. *L'imprimerie arabe en Occident: XVIe, XIIe et XVIIIe siècles.* Paris: Éditions Maisonneuve & Larose, 1984.

Bangash, Zafar. *Power Manifestations of the Sirah.* Ed. Afeef Khan. Richmond Hill: Institute of Contemporary Islamic Thought, 2011.

Barnard, Bryn. *The Genius of Islam: How Muslims Made the Modern World.* New York: Alfred A. Knopf, 2011.

Basnage de Beauval, Henri. *Histoire des ouvrages des savans.* Rotterdam: Reinier Leers, 1698.

Bayhaqi, Ahmad ibn al-Husayn *al-. al-Sunan al-kubra.* Bayrut: Dar Sadr, 1968

Bayle, Pierre, John Peter Bernard, Thomas Birch, John Lockman, and George Sale. *A General Dicitonary, Historical and Critical. Vol. 1.* London: J. Bettenham, 1735.

Becker, Timothy J. "Islam, Orthodoxy and." *The Encyclopedia of Eastern Orthodox Christianity.* Vol. 1. Ed. John Anthony McGuckin. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2011. 341-343.

---. "World Religions, Orthodoxy and." *The Encyclopedia of Eastern Orthodox Christianity.* Vol. 2. Ed. John Anthony McGuckin.

Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2011. 641-645.

Bell, Richard. *Introduction to the Qur'an.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 1958.

Belleville Armenian Church. "Patriarchate of Jerusalem." *Belleville Armenian Church.*

Belon du Mans, Pierre. *Observations de plusieurs singularitéz et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Égypte, Arabie, etc.* Paris: Hierosime de Marnef, 1538.

Berkey, Jonathan P. *The Formation of Islam: Religion and Society in the Near East, 600-1800.* Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

Bernabé Pons, Luis F. *El cántico islámico del morisco hispano-tunecino Taybili.* Zaragoza: Institución Fernando del Católico, 1988.

Bernstein, Burton. Sinai: *The Great and Terrible Wilderness.* New York: The Viking Press, 1979.

Betts, Robert Brenton. *Christians in the Arab East: A Political Study.* Atlanta: John Knox Press, 1978.

Binns, John. *An Introduction to the Christian Orthodoxy Churches.* Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Boase, Roger. "The Morisco Expulsion and Diaspora: An Example of Racial and Religious Intolerance." *Cultures in Contact in Medieval Spain: Historical and Literary Essays Presented to L.P. Harvey.* Ed. David Hook and Barry Taylor. Exeter: King's College London Medieval Studies, 1990.

Bolman, Elizabeth S. "The White Monastery Federation and the Angelic Life." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century.* Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 75-77.

Boullata, Issa J. "Fa-stabiqu'l-khayrat: A Qur'anic Principle of Interfaith Relations." *Christian-Muslim Encounters.* Ed. Yvonne Yazbeck Haddad and Wadi Zaidan Haddad. Gainesville, FL: University Press of Florida, 1994. 43-53.

Bournoutian, George A. *A Concise History of the Armenian People: From Ancient Times to the Present.* 2nd ed. Costa Mesa, CA: Mazda Publishers, 2003.

Bowering, Gerhard, ed. *The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought.* Princeton & Oxford: Princeton University Press, 2013.

Brevick, Harald. *Books were Opened.* Minneapolis: Thule Pub. Co, 1947.

Brockopp, Jonathan E., ed. *The Cambridge Companion to Muhammad.* Cambridge: Cambridge University Press, 2010.

Brown, Jonathan A.C. *Hadith: Muhammad's Legacy in the Medieval and Modern World.* Oxford: OneWorld, 2009.

Browne, J G. "1937: The Assyrians: A Debt of Honor." *The Geographical Magazine* 4.6 (November 1936 to April 1937).

Bucaille, Maurice. *The Bible, the Qur'an, and Science: The Holy Scriptures Examined in the Light of Modern Knowledge.* Trans. Alastair D. Pannell and the Author. Indianapolis: American Trust Publications, 1979.

Burckhardt, John Lewis. *Travels in Syria and in the Holy Land.* London: John Murray, 1822.

---. *Travels in Syria and in the Holy Land.* Adelaide: University of Adelaide, 2012.

Busse, Heribert. *Islam, Judaism, and Christianity: Theological and Historical Affiliations.* Trans. Allison Brown. Princeton: Markus Wiener Publishers, 1988.

Cahen, Claude. "Note sur l'acceuil des chrétiens d'Orient à l'Islam." *Revue de l'histoire des religions* 166.1 (1964): 51-58.

Cansinos Assens, Rafael. *Mahoma y el Koran.* Editorial Bell: Buenos Aires, 1954.

Cantemir, Demetrius. *The History of the Growth and Decay of the Othman Empire.* Part 1. Trans. N. Tindal. London: James, John, and Paul Knapton, 1734.

---. *Histoire de l'empire othoman.* Paris: Despilly, 1743.

Catechism of the Catholic Church. Ottawa: CCCB, 1994.

Catholic Encyclopedia. "Gabriel Sionita." *Catholic Encyclopedia.* New

York: Robert Appleton Company, 1913

Champdor, Albert. *Le Mont Sinaï et le Monastère de Sainte-Catherine.* Paris: Albert Guillot, 1963.

Chittick, William C., trans. *The Psalms of Islam: al-Sahifat al-kamilat al-sajjadiyya.* Qum: Ansariyan, 1987.

Chejne, Anwar G. *Islam and the West: The Moriscos, A Cultural and Social History.* Albany. SUNY Press, 1983.

---. *The Arabic Language: Its Role in History.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1969.

Christys, Ann. *Christians in al-Andalus: 711-1000.* New York: Routledge, 2007.

Clark, Kenneth Willis. *Checklist of Manuscripts in St. Catherine's Monastery, Mount Sinai, Microfilmed for the Library of Congress, 1950.* Washington: Library of Congress, 1952.

Clayton, Robert. *A Journal from Grand Cairo to Mount Sinai and Back Again.* London: William Boyle, 1753.

Congrès international des orientalistes. *Actes du Douzième congrès international des orientalistes.* Florence: Societe Typographique Florentine, 1901.

Constable, Olivia Remie. *Medieval Iberia: Readings from Christian, Muslim, and Jewish Sources.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1997.

Crawford, Jack. "The Way I See it: The Missing 100+ Million." *Mobilization 2-21.*

Cremo, Michael A. and Richard L. Thompson. *Forbidden Archeology: The Hidden History of the Human Race.* Los Angeles: Bhaktivedanta Book Publishing, Inc., 1996.

Crone, Patricia and Michael Cook. *Hagarism: The Making of the Islamic World.* Cambridge: Cambridge University Press, 1977.

---. Slaves on Horses: *The Evolution of Islamic Polity.* Cambridge: Cambridge University Press, 1980.

Cutillas Ferrer, José. "Political Plots, Espionage, and a Shi'a Text

among the Moriscos." *Journal of Shi'a Islamic Studies* 5.1 (2012): 49-64.

Dadoyan, Seta B. *The Armenians in the Medieval Islamic World.* New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2011.

Dadrian, Vahakn N. *German Responsibility in the Armenian Genocide: A Review of the Historical Evidence of German Complicity.* Watertown: Blue Crane Books, 1996.

Dahari, Uzi. "Les constructions de Justinien au Gebel Mousa." *Le Sinaï durant l'antiquité et le moyen âge, 4000 ans d'histoire pour un desert.* Ed. Dominique Valbelle and Charles Bonnet. Paris: Éditions Érrance, 1998. 151-156.

Dakake, David. "The Myth of a Militant Islam." *Islam, Fundamentalism and the Betrayal of Tradition.* Ed. Joseph E.B. Lumbard. Bloomington, IN: World Wisdom Books, 2004. 3-38.

Dalrymple, William. *From the Holy Mountain: A Journey among the Christians of the Middle East.* New York: Henry Holt and Company, 1997.

Daniel, Norman. *Islam and the West: The Making of an Image.* Oxford: One World, 1993.

Danios. "The Protocols of the Elders of Mecca: The Final Word on the Pact of 'Umar." *Loonwatch* (March 1, 2010).

Dar Rah Haqq's Board of Writers. *A Glance at the Life of the Holy Prophet of Islam.* Trans. N. Tawheedi. Ed. Laleh Bakhtiar. Tehran: Islamic Propagation Organization, 1991.

Darboux, MM. G, J. Houël, and J. Tannery et al. *Bulletin des sciences mathématiques et astronomiques.* Paris: Gauthier-Villars, 1882.

Davenport, John. *An Apology for Mohammed and the Koran.* London: J. Davy and Sons, 1869.

Dawud, Abdul Ahad. *Muhammad in the Bible.*

Deedat, Ahmed. *What the Bible Says about Muhammad.*

Digbassanis, Hieromonk Demetrios. "The Library and the Archive: The Archive." *Sinai: Treasures of the Monastery of Saint Catherine.*

Ed. Konstantinos Manafis. Athens: Ekdotike Athenon, 1990. 360-362.

Dobson, Richard Barrie et al. *Encyclopedia of the Middle Ages: A-J.* Paris: Editions du Cerf, 2000.

Dodge, Arthur Pillsbury. *Whence? Why? Whither?* Westwood, MA: Ariel Press, 1907.

Dodds, Jerrilynn, ed. *Al-Andalus: The Arts of Islamic Spain.* New York: The Metropolitan Museum of Art, 1992. 173-187.

Dollinger, Johann Joseph Ignaz von. *Origines du Christianisme.* Trans. M. Léon Boré. Paris: Hachette, 1842.

Donner, Fred M. *Muhammad and the Believers at the Origins of Islam.* Cambridge, MA: The Belknap Press of Harvard University Press, 2010.

Dumas, Alexandre. *Travelling Sketches in Egypt and Sinai.* Trans. A Biblical Student. London: John W. Parker, 1839.

École Pratique d'Études Bibliques, L'. "Bulletin: Golubovich, R.P. I Frati Minori nel possesso de'luoghi santi di Gerusalemme." *Revue Biblique* 30 (1921): 636-638.

Eliot, Sir Charles. *Turkey in Europe.* New York: Barnes & Noble, 1965.

Emhardt, William Chauncey, and George M. Lamsa. *The Oldest Christian People: A Brief Account of the History and Traditions of the Assyrian People and the Fateful History of the Nestorian Church.* New York: Ams Press, 1970.

Evans, Helen C. "Byzantium and Islam: Age of Transition (7th-9th Century)." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century.* Ed. Helen C. Evans with Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 4-11.

---, with Brandie Ratliff. *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century.* New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012.

Esposito, John L. *What Everyone Needs to Know about Islam: Answers to Frequently Asked Questions from One of America's Leading Experts.* Oxford: Oxford University Press, 2002.

Evans, Helen C, Brandie Ratliff, eds. *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 32-39.

Eversley, Lord. *The Turkish Empire: From 1288 to 1914*. New York: Howard Fertig, 1969.

Faizer, Rizwi, ed. and trans. *The Life of Muhammad: Al-Waqidi's Kitab al-Maghazi*. Muhammad ibn 'Umar al-Waqidi. London and New York: Routledge, 2011.

Faroqhi, Suraiya. *The Ottoman Empire and the World around It*. London: Tauris, 2004.

Fattal, Antoine. *Le status légal des non-musulmans en pays d'Islam*. Beyrouth: Impr. Catholique, 1958.

Fazakerley, JN. "Journey from Cairo to Mount Sinai, and Return to Cairo." *Travels in Various Countries of the East*. Ed. Rev. Robert Walpole. London: Longman, Hurst, Rees, Orme, and Brown, 1820.

Féraud-Giraud, Louis-Joseph-Delphin. *De la jurisdiction française dans les échelles du Levant et de Barbarie*. Paris: Durant & Pedone Lauriel, 1871.

Ferrill, Arther. "Attila the Hun and the Battle of Chalons." *MHQ: The Quarterly Journal of Military History*.

Fine, Steven. "Jews and Judaism between Byzantium and Islam." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans with Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 102-106.

Finkel, Caroline. *Osman's Dream: The History of the Ottoman Empire, 1300-1923*. New York: Basic Books, 2005.

Fletcher, Richard. *The Cross and the Crescent: Christianity and Islam from Muhammad to the Reformation*. New York: Viking, 2003.

Flood, Finbarr. "Faith, Religion, and the Material Culture of Early Islam." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans with Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan

Museum of Art, 2012: 244-258.
Fordham University. "Pact of 'Umar." *Fordham University* (1997).
---. "Islam and the Jews: The Pact of 'Umar." *Fordham University* (1998).
Forsyth, George, and Kurt Weitzmann. *The Monastery of Saint Catherine: The Church and Fortress of Justinian.* Ann Arbor, University of Michigan Press, 1973.
Foss, Clive. "Arab-Byzantine Coins: Money as Cultural Continuity." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century.* Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 136-137.
Franck, Irene M, and David M. Brownstone. *The Silk Road: A History.* New York: Fact On File Publications, 1986.
Freeman-Grenville, G.S.P. *The Holy Land: A Pilgrim's Guide to Israel, Jordan, and the Sinai.* New York: Continuum, 1996.
Frescobaldi, Lionardo di Nicolo. *Viaggio di Lionardo di Nicolo Frescobaldi in Egitto ed in Terra Santa.* Roma: Stamperia Carlo Mordacchini, 1818.
Gabriel, Richard A. *Muhammad: Islam's First Great General.* Norman: University of Oklahoma Press, 2007.
Galey, John. *Sinai and the Monastery of St. Catherine.* Garden City, NY: Doubleday & Company, 1980.
Géhin, Paul. "La bibliotèque de Sainte-Catherine du Sinaï: Fonds anciens et nouvelles découvertes." *Le Sinaï durant l'antiquité et le moyen âge, 4000 ans d'histoire pour un desert.* Ed. Dominique Valbelle and Charles Bonnet. Paris: Éditions Érrance, 1998. 157-164.
Géramb, Baron Marie-Joseph de. *Pélerinage à Jerusalem et au Mont-Sinaï.* Tournay: J. Casterman, 1837.
---. *Pilgrimage to Jerusalem and Mount Sinai.* Vol. II. Philadelphia: Carey and Hart, 1840.
Gervers, Michael and R.J. Bizhazi. *Conversion and Continuity: Indigenous Christian Communities in Islamic Lands: Eighth to Eighteenth Centuries.*

Toronto: Pontifical Institute of Mediaeval Studies, 1990.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. Vol. VI. London: John Murray, 1887.

Gieseler, Johann Karl Ludwig. *A Text-Book of Church History*. Vol. 1. Trans. Samuel Davidson. Ed. Henry B. Smith. New York: Harper & Brothers, 1857.

Gil, Moshe. *A History of Palestine: 634-1099*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

Glubb, Sir John. *The Life and Times of Muhammad*. New York: Madisson Books, 1998.

Göçek, Fatma Müge. *East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*. Oxford: Oxford University Press, 1987.

Goddard, Hugh. *A History of Christian-Muslim Relations*. Chicago: New Amsterdam Books, 2000.

Goffman, Daniel. *The Ottoman Empire and Early Modern Europe*. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Goitein, S.D.F. *Mediterranean Society: An Abridgement in One Volume*. Ed. Jacob Lassner. Berkeley: University of California Press, 1999.

Goujet, M. l'Abbé Claude-Pierre. *Mémoire historique et littéraire sur le Collège Royal de France*. Paris: Augustin-Martin Lottin, 1758.

Grabar, Oleg; Brown, Peter Robert Lamont; Bowersock, Glen Warren. eds. *Late Antiquity: A Guide to the Postclassical World*. Cambridge: Harvard University Press, 1999.

Gradeva, Rossitsa. "Conversion to Islam in Bulgarian Historiography: An Overview." *Religion, Ethnicity, and Contested Nationhood in the Former Ottoman Space*. Ed. Jorgen Nielson. Leiden: Brill, 2012.

Grassi (Alfio), M. *Charte Turque ou Organisation religieuse, civile et militaire de l'empire ottoman*. Paris: Librairie d'Ambroise Dupont, 1826.

Griffith, Sidney H. "Arab Christians." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 60-62

Guibert, Adrien. *Dictionaire géographique et statistique.* Paris: Jules Renouard, 1850.

Guillaume, Alfred, trans. *The Life of Muhammad.* Ibn Ishaq. Oxford: Oxford University Press, 1987.

Guillaume, M.J., ed. *Procès-verbaux du Comité d'instruction publique de la convention nationale.* Tome Sixième. Paris: Imprimerie Nationale, 1907.

Haddad, Anton F., trans. *The Oath of the Prophet Mohammed to the Followers of the Nazarene.* New York: Board of Counsel, 1902; H-Bahai: Lansing, MI: 2004.

Haddad, Yvonne Yazbeck and Wadi Zaidan Haddad, eds. *Christian-Muslim Encounters.* Gainesville, FL: University Press of Florida, 1994. 43-53.

Hadjiantoniou, George *A. Protestant Patriarch: The Life of Cyril Lucaris (1572-1638), Patriarch of Constantinople.* Richmond, VA: John Knox Press, 1961.

Hagopian, Arthur. "Jerusalem Armenian Story Finally Being Told." *The Armenian Reporter* (May 14, 2011).

Hamidullah, Muhammad, trans. *Le Saint Coran.* Trans. Brentwood, Maryland: Amana Corporation, 1989.

---. *Introduction to Islam.* Paris: Centre Culturel Islamique, 1969.

---. *Muslim Conduct of State.* Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1961.

---. *Majmu'ah al-watha'iq al-siyasiyyah li al-'ahad al-nabawi wa al-khilafah al-rashidah.* al-Qahirah: n.p., 1956.

Harant, Christophe. *Voyage en Égypte, 1598.* Le Caire: L'Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1972

Hawting, G.R. "John Wansbrough, Islam, and Monotheism." *The Quest for the Historical Muhammad.* Ed. and Trans. Ibn Warraq. Amherst, NY: Prometheus Books, 2000. 510-526.

Haya, Vicente. "El cristianismo que conoció Muhammad." Conferencia Huesca (27 de octubre de 2007).

Hazleton, Lesley. *Where Mountains Roar: A Personal Report from the Sinai*

and Negev Desert. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1980.

Helke Sander/Barbara Johr. *Befreier und Befreite*. Frankfurth: Fischer, 2005.

Henniker, Sir Frederick. *Notes during a Visit to Egypt, Nubia, the Oasis, Mount Sinai, and Jerusalem*. London: John Murray, 1823.

Herf, Jeffrey. *Nazi Propaganda for the Arab World*. New Haven, CT: Yale University Press, 2009.

Hitti, Philip K. *Makers of Arab History*. London: MacMillan, 1969.

Hobbs, Joseph J. *Mount Sinai*. Austin: University of Austin Press, 1995.

Hook, David, and Barry Taylor, eds. *Cultures in Contact in Medieval Spain: Historical and Literary Essays Presented to L.P. Harvey*. Exeter: King's College London Medieval Studies, 1990.

Hoyland, Robert G. *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*. London and New York: Routledge, 2001.

---. "The Earliest Christian Writings on Muhammad: An Appraisal." *The Biography of Muhammad: The Issue of Sources*. Ed. Harald Motzki. Leiden: Brill, 2000. 276-297.

Humphreys, R. Stephen. *Islamic History: A Framework for Inquiry*. Princeton: Princeton University Press, 1991.

Husayn, Sayyed Safdar. *Histoire des premiers temps de l'Islam*. Trans. Abbas Ahmad al-Bostani. Paris: Seminaire Islamique, 1991.

Husayn ibn 'Ali. *Le firman du Chérif de la Mecque et Gardien des Lieux Saints*. Global Armenian Heritage.

Ibn Ishaq, Muhammad. *The Life of Muhammad*. Trans. A. Guillaume. Oxford: Oxford University Press, 1987.

Ibn Warraq, ed. and trans. *The Quest for the Historical Muhammad*. Amherst, NY: Prometheus Books, 2000.

Inter-Islam. "Hazrat Salman Farsi." *Inter-Islam*.

Irwin, Robert. *Dangerous Knowledge: Orientalism and its Discontents*. Woodstock and New York: Overlook Press, 2006.

Islamic Supreme Council of Canada. "The Promise of Prophet

Muhammad (Peace be upon Him) to the Christians of St. Catherine." *Islamic Supreme Council of Canada* (2001).

Islamic Web. "Abdullah Ibn Sallam." *Islamic Web.*

Isseroff, Ami. "The Covenant of Omar." *MidEastWeb* (2004).

Jacobs, Steven Leonard, ed. *Confronting Genocide: Judaism, Christianity, Islam*. New York: Lexington Books, 2009. 119-137.

Jacques, Edwin E. *The Albanians: An Ethnic History from Pre-Historic Times to the Present.* Jefferson: McFarland, 1995.

Jafri, S.H.M. *The Origins and Early Development of Shi'a Islam*. Qum: Ansariyan Publications, 1989.

Jeffery, Arthur. "The Quest of the Historical Muhammad." *The Question for the Historical Muhammad.* Ed. and Trans. Ibn Warraq. Amherst, NY: Prometheus Books, 2000. 339-357.

Jenkins, Philip. *The Lost History of Christianity: The Thousand-Year Golden Age of the Church in the Middle East, Africa, and Asia--and How it Died.* New York: HarperOne, 2008.

Jerusalem Patriarchate. *The Ahtiname (Treaty) of Caliph Omar Ibn al-Khattab.*

Jordac, George. *The Voice of Human Justice.* Trans. M. Fazal Haq. Qum: Ansariyan, 1990.

Joshel, Sandra. "Roman Slavery and the Question of Race." *Black Past: Remembered and Reclaimed.*

Jurdi Abisaab, Rula. *Converting Persia: Religion and Power in the Safavid Empire*. London: I.B. Tauris, 2004.

Karabell, Zachary. *Peace Be upon You: The Story of Muslim, Christian, and Jewish Coexistence*. New York: Alfred A. Knopf, 2007.

Kashif al-Ghita', Muhammad Husayn. *The Origin of Shi'ite Islam and its Principles*. Qum: Ansariyan, 1993.

Katsh, Abraham I. *Judaism in Islam: Biblical and Talmudic Backgrounds of the Koran and its Commentaries.* New York: New York University Press, 1954.

Khan, Ali. "The Medina Constitution." *Social Science Research Network*

(2006).
Khan, Muhammad Zafrulla. *Muhammad: Seal of the Prophets.* London: Routledge & Kegan Paul, 1980.
Khan, Muqtedar. "Muhammad's Promise to Christians." *The Washington Post* (December 30, 2009).
Khitrowo, B. de. *Itinéraires russes en Orient.* Genève: J.-G. Fick, 1889.
Khomeini, Ruhullah. *The Imam Versus Zionism.* Tehran: Ministry of Islamic Guidance, 1984.
King, G.R.D. "The Paintings of the Pre-Islamic Ka'ba." *Muqarnas: An Annual on the Visual Culture of the Islamic World* 21 (2004): 219-230.
Labevière, Richard. *Dollars for Terror: The United States and Islam.* New York: Algora Publishing, 2000.
Laborde, Simon Joseph Léon Emmanuel Marquis de. *Journey through Arabia Petrae, to Mount Sinai, and the Excavated City of Petra.* London: John Murray, 1838.
Lamartine, Alphonse de. *Oeuvres completes de Lamartine. Histoire de la Turquie.* IV. Tome Vingt-Sixième. Paris: Chez L'Auteur, 1862.
Lammens, Henri. "The Age of Muhammad and the Chronology of the Sira." *The Quest for the Historical Muhammad.* Amherst, NY: Prometheus Books, 2000. 188-217.
Lance, Peter. *1000 Years of Revenge: International Terrorism and the FBI: The Untold Story.* New York: Reganbooks, 2003.
Layard, Sir Austen Henry. *Nineveh and its Remains: With an Account of the Chaldean Christians of Kurdistan…* New York: G.P. Putnam, 1849.
Lecker, Michael. "Glimpses of Muhammad's Medinan Decade." *The Cambridge Companion to Muhammad.* Ed. Jonathan E. Brockopp. Cambridge: Cambridge University Press, 2010. 61-79.
---. "Did the Quraysh Conclude a Treaty with the Ansar prior to the Hijra?" *The Biography of Muhammad: The Issue of the Sources.* Ed. Harald Motzki. Leiden: Brill, 2000. 157-169.

Levy, Habib. *Comprehensive History of the Jews of Iran.* Trans. George W. Maschke. Costa Mesa, CA: Mazda Publishers, 1999.

Lewontin, Richard. "The Demon-Haunted World." *The New York Review of Books* (September 1, 1997): 28.

Lewy, Guenter. *The Armenian Massacres in Ottoman Turkey: A Disputed Genocide.* Salt Lake City: The University of Utah Press, 2005.

Lilly, Robert. *Taken by Force: Rape and American GIs in Europe during World War II.* New York: Palgrave Macmillan, 2007.

Limor, Ora. "Sharing Sacred Space: Holy Places in Jerusalem between Christianity, Judaism, and Islam." *In Laudem Hierosolymitani: Studies in Crusades and Medieval Culture in Honour of Benjamin Z. Kedar.* Ed. Iris Shagrir, Ronnie Ellenblum, and Jonathan Riley-Smit. Aldershot, UK: Ashgate, 2007. 219-231.

Lindsay, Alexander William Branford Crawford. *Letters from Egypt, Edom, and the Holy Land.* Vol. 1. 3rd ed. London: Henry Colburn Publisher, 1843.

Lowney, Chris. *A Vanished World: Medieval Spain's Golden Age of Enlightenment.* New York: Free Press, 2009.

Luke, Sir Harry. *Mosul and its Minorities.* Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2004.

Lumbard, Joseph E.B., ed. *Islam, Fundamentalism and the Betrayal of Tradition.* Bloomington, IN: World Wisdom Books, 2004.

Lunde, Paul. Islam: *Faith, Culture, History.* New York: DK, 2002.

Lybyer, Albert Howe. *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent.* Cambridge: Harvard University Press, 1913.

M. "Remarks on the Defence of Gabriel Sionita." *The Classical Journal XIII* (September to December 1815): 254-255.

Madrazo, Pedro de. *Córdoba.* Madrid: Parcerisa, 1855.

Mahmoud, Joseph. "Shiite Ayatollah Launches Fatwa: Iraqi Christians, Conversion to Islam or Death." *Asia News* (December 15, 2012).

Majlisi, Muhammad Baqir. *Hayat al-qulub: A Detailed Biography of Prophet Muhammad.* Vol. 2. Trans. Syed Athar Husain S.H. Rizvi. Qum: Ansariyan, 2010.

---. *Bihar al-anwar.* 104 volumes on CD Rom.

Malech, George David. *History of the Syrian Nation and the Old Evangelical-Apostolic Church of the East.* Np: Minneapolis, 1910.

Malik ibn Anas, Imam. *al-Muwatta'.* Bayrut: Dar al-Gharb al-Islami, 1999.

Mamdani, Mahmood. *Good Muslim, Bad Muslim: America, the Cold War, and the Roots of Terror.* New York: Pantheon Books, 2004.

Manafis, Konstantinos A., ed. *Sinai: Treasures of the Monastery of Saint Catherine.* Athens: Ekdotike Athenon, 1990.

Manley, Deborah and Sahar 'Abdel-Hakim, eds. *Traveling through Sinai: From the Fourth to the Twenty-First Century.* Cairo: The American University in Cairo Press, 2006.

Mann, Vivian B., Thomas F. Glick, and Jerrilynn D. Dodds. *Convivencia: Jews, Muslims, and Christians in Medieval Spain.* New York: George Braziller Inc., 1992.

Maqqari, Ahmad ibn Muhammad al- and Ibn al-Khatib. *A History of the Mohammedan Dynasties in Spain.* Vol. 2. Ed. and Trans. Pascual de Gayangos. London: Oriental Translation Fund, 1843.

Mar Shimun, Theodore D'. *The History of the Patriarchal Succession of the D'Mar Shimun Family.* Np: Mar Shimun Memorial Foundation, 2008.

Mar Shimun, Surma D'Bait. *Assyrian Church Customs and the Murder of Mar Shimun.* Ed. W.A. Wigram. Np: Assyrian International News Agency, 1920.

Marana, Giovani Paolo. *Suite de L'Espion dans les cours des princes chrétiens.* Tome quatrième. Cologne: Erasme Kenkus, 1697.

Marcus, Jacob. *The Jew in the Medieval World: A Sourcebook, 1315-1791.* New York: JPS, 1938.

Mattson, Ingrid. *The Story of the Qur'an: Its History and Place in Muslim*

Life. Malden, MA: Blackwell Publishing, 2008.

McGuckin, John Anthony, ed. *The Encyclopedia of Eastern Orthodox Christianity*. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2011.

McMeekin, Sean. *Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*. Cambridge, MA: The Belnap Press of Harvard University Press, 2010.

Meimaris, Yiannis E. "The Library and Archive: The Arabic Manuscripts." *Sinai: Treasures of the Monastery of Saint Catherine*. Ed. Konstantinos Manafis. Athens: Ekdotike Athenon, 1990. 357-358.

Menoscal, María Rosa. *The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*. Boston: Little, Brown, and Company, 2002.

Miltitz, Alexandre de. *Manuel des consuls*. Vol. 2. London and Berlin: A. Asher, 1838.

Mingana, A, ed. *A Charter of Protection Granted to the Nestorian Church in AD 1138 by Muktafi II, Caliph of Baghdad*. Manchester: The University Press, 1925; Birmingham: Antioch Gate, 2008.

M.L.M.D.C. *Jeux d'esprit et de mémoire*. Cologne: Fréderic Le Jeune, 1697.

Monconys, Balthasar de. *Journal des voyages de monsieur de Monconys*. Première partie. Lyon: Horace Boissat & Georges Remeus, 1665.

---. *Le voyage en Égypte, 1646-1647*. Le Caire: Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1973.

Morison Chanoine de Bar le Duc, Sieur Antoine. *Relation historique d'un voyage nouvellement fait au mont de Sinaï et à Jérusalem*. Toul: A. Laurent, 1704.

Moritz, Bernhard. "Sur les antiquités arabes du Sinai." *BIE*, 5e serie, tome iv.

---. *Beiträge zur Geschichte des Sinai-Klosters Im Mittelalter Nach Arabischen Quellen*. Berlin: Verlag Der Konigl; Akakemie Der Wissenschaften, 1918.

Morrow, John Andrew. *Religion and Revolution: Spiritual and Political Islam in Ernesto Cardenal.* Newcastle upon Tyne: Cambridge Scholars Publishing, 2012.

---. "Pre and Early Islamic Period." *A Cultural History of Reading.* Ed. Gabrielle Watling. Westport, CT: Greenwood Press, 2009. 521-540.

---. *Amerindian Elements in the Poetry of Rubén Darío: The Alter Ego as the Indigenous Other.* Lewiston: Edwin Mellen Press, 2006.

Mosheim, Johann Lorenz. *Mosheim's Institutes of Ecclesiastical History, Ancient and Modern.* London: W. Tegg and Co, 1878.

Motzki, Harald. *The Biography of Muhammad: The Issue of the Sources.* Leiden: Brill, 2000.

Moussaoui-Lari, Sayed Mujdtaba. *La dernière mission divine.* Trans. F. Khodaparasti. Qum: Seyed M. Moussaoui-Lari, nd.

Mouton, Jean-Michel. "Les musulmans à Sainte-Catherine au Moyen Âge." *Le Sinaï durant l'antiquité et le moyen âge, 4000 ans d'histoire pour un desert.* Ed. Dominique Valbelle and Charles Bonnet. Paris: Éditions Érrance, 1998: 177-182.

Mufid, Shaykh al-. *Kitab al-irshad: The Book of Guidance into the Lives of the Twelve Imams.* Trans. I.K.A. Howard. London: Muhammadi Trust, 1981.

Muhammad, Prophet. *al-Ahd wa-al-shurut allati sharataha Muhammad rasul Allah li-ahl al-millah al-nasraniyyah* [*Testamentum et pactiones initae inter Mohamedem Apostolum Dei, et Christianae fidei cultores*]. Trans. Gabriel Sionita. Paris: Antoine Vitré, 1630.

---. *al-Ahd wa-al-shurut allati sharataha Muhammad rasul Allah li-ahl al-millah al-nasraniyyah* [Testamentum inter Muhammedem legatum dei et christianae religionis populous olim initum]. Trans. Johann Georg Nissel. Lugduni Vatavorum: Elsevier, 1655.

Nagy de Harsany, Jacobo. *Colloquia familiar turco-latina.* Berlin: Typis Georgij Schultzij, 1672.

Naimark, Norman M. *The Russians in Germany.* Cambridge: Belknap

Press of Harvard University Press, 1997.

Nafziger, George F. and Mark W. Walton. *Islam at War: A History.* Westport, CT: Praeger, 2003.

Napoleoni, Loretta. *Terror Incorporated: Tracing the Dollars Behind the Terror Networks.* New York: Seven Stories, 2007.

Narkiss, Bezalel, ed. *Armenian Art Treasures of Jerusalem.* New Rochelle, NY: Caratzas Brothers Publishers, 1979.

Nersessian, Vrej Nerses. *Treasures from the Ark: 1700 Years of Armenian Christian Art.* Los Angeles: J. Paul Getty Museum , 2001.

Nisa'i, Ahmad ibn Shu'ayb. *Sunan al-Nisa'i.* al-Qahirah: Mustafa al-Babi al-Halabi, 1964-65.

Nissel, Johann Georg, trans. *al-Ahd wa-al-shurut allati sharataha Muhammad rasul Allah li-ahl al-millah al-nasraniyyah* [*Testamentum inter Muhammedem legatum dei et christianae religionis populous olim initum*]. Prophet Muhammad. Lugduni Vatavorum: Elsevier, 1655.

Ordoni, Abu Muhammad. *Fatima the Gracious.* Qum: Ansariyan, 1992.

Ormanian, Malachia. *The Church of Armenia: Her History, Doctrine, Rule, Discipline, Liturgy, Literature, and Existing Condition.* Trans. G. Marcar Gregory. London: A.R. Mowbray & Co., Ltd, 1912.

O'Shea, Stephen. *Sea of Faith: Islam and Christianity in the Medieval Mediterranean World.* New York: Walter & Company, 2006.

Ottoman Souvenir. "Ahdnama of the Fatih Sultan Mehmet." *Ottoman Souvenir.*

Palter, Nurit. "2006: More Jews Converting to Islam." *Y Net News* (July 13, 2006).

Percy, Earl. "On Turkish Kurdistan." *Notices on the Proceedings at the Meetings of the Members of the Royal Institution of Great Britain with Abstracts of the Discourses Delivered at the Evening Meetings.* Vol. XVI (1899-1901). London: William Clowes and Sons, Limited, 1902.

Peters, Francis E. *Muhammad and the Origins of Islam.* Albany: State University of New York Press, 1994.

---. *The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places.* Princeton,

NJ: Princeton University Press, 1994.
Provins, [René de l'Escale] Pacifique de. *Relation du voyage de Perse*. Paris: Nicolas et Jean de la Coste, 1631.
Pococke, Richard. "A Description of the East and Some other Countries." *A General Collection of the Best and Most Interesting Voyages and Travels in All Parts of the World: Many of which are Now First Translated into English*. Ed. John Pinkerton. London: Longman, 1809.
Porter, Venetia, ed. *Hajj: Journey to the Heart of Islam*. Cambridge: Havard University Press, 2012.
Pouillon, François. *Dictionnaire des orientalistes de langue française*. Paris: Karthala, 2008.
Qaturi, al-Safsafi Ahmad al-. "The Ottomans and Sacred Places in Jerusalem." *Fountain Magazine* 57 (January-March 2007).
Qureshi, Muhammad Siddique. *Foreign Policy of Hadrat Muhammad*. New Delhi: Kitab Bhavan, 1991.
Qushayri, Muslim ibn al-Hajjaj al-. *Sahih Muslim*. Trans. Abdul-Hameed Siddiqui. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1990.
Rabino, Hyacinth Louis. *Le monastère de Sainte-Catherine du Mont Sinaï*. Le Caire: Impr. E. Spada, 1938.
Ramadan, Tariq. *In the Footsteps of the Prophet: Lessons from the Life of Muhammad*. Oxford: Oxford University Press, 2007.
Ratliff, Brandie. "Christian Communities during the Early Islamic Centuries." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 32-39.
---. "To Travel to the Holy." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 86-88.
---. "The Monastery of Saint Catherine at Mount Sinai and the Christian Communities of the Caliphate." *Sinaiticus: The Bulletin of the Saint Catherine Foundation*. (2008): 14-17.

Rehatsek, Edward. "Christianity in the Persian Dominions, from its Beginning till the Fall of the Sasanian Dynasty." *The Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society*. Vol. XIII (1877): 18-108.

Rhodes, D. Bryan. "John Damascene in Context: An Examination of 'The Heresy of the Ishmaelites' with Special Consideration Given to the Religious, Political, and Social Contexts during the Seventh and Eighth Century Arab Conquests." *St Francis Magazine* 7.2 (April 2010).

Ricaut, Sir Paul. *Histoire de l'état présent de l'empire ottoman*. Trans. Monsieur Briot. Paris: Sebastien Mabre-Cramoisy, 1670.

Rycaut, Sir Paul. *The Present State of the Ottoman Empire*. New York: Arno Press & The New York Times, 1971.

Rikabi, Jaffar al-. "Baqir al-Sadr and the Islamic State: A Theory for 'Islamic Democracy.'" *Journal of Shi'a Islamic Studies* 5.3 (Summer 2012): 249-176.

Rizvi, Sayyid Muhammad. *Marriage and Morals in Islam*. Vancouver: Vancouver Islamic Educational Foundation, 1990.

Robinson, A. Mary F. *Margaret of Angouleme--Queen of Navarre*. Boston: Roberts Brothers, 1890.

Robinson, Edward, and E. Smith. *Biblical Researches in Palestine, and in the Adjacent Regions: A Journal of Travels in the Year 1838*. Vol. 2. Boston: Crocker and Brewster, 1874.

Rochetta, Don Aquilante. *Peregrinatione di Terra Santa. Palermo*: Giuseppe Roma, 1630.

Rodinson, Maxime. *Mohammed*. Trans. Anne Carter. New York: Pantheon Books, 1971.

Rogerson, Barnaby. *The Prophet Muhammad: A Biography*. Mahwah, NJ: HiddenSpring, 2003.

Roggema, Barbara. *The Legend of Sergius Bahira: Eastern Christian Apologetics and Apocalyptic in Response to Islam*. Leiden: Brill, 2009.

Rubenstein, Richard L. "Jihad and Genocide: The Case of the Armenians." *Confronting Genocide: Judaism, Christianity, Islam*. Ed.

Steven Leonard Jacobs. New York: Lexington Books, 2009. 119-137.

Runciman, Steven. *The Great Church in Captivity.* Cambridge: Cambridge University Press, 1985.

Sa'eed, Shaykh Hasan, ed. *Fundamentals of Islam.* Tehran: The Chehel Sutoon School and Library, 1984.

Safi, Omar. *Memories of Muhammad: Why the Prophet Matters.* New York: HarperOne, 2009.

Salahi, M.A. *Muhammad: Man and Prophet. A Complete Study of the Life of the Prophet of Islam.* Rockport, MA: Element, 1995.

Saleh, Wadi A. "The Arabian Context of Muhammad's Life." *The Cambridge Companion to Muhammad.* Ed. Jonathan E. Brockopp. Cambridge: Cambridge University Press, 2010. 21-38.

Sanjian, Avedis K. "The Armenian Communities of Jerusalem." *Armenian Art Treasures of Jerusalem.* Ed. Bezalel Narkiss. New Rochelle, NY: Caratzas Brothers, Publishers, 1979. 11-20.

Santiago-Otero, Horacio. *Diálogo filosófico-religioso entre cristianismo, judaísmo e islamismo durante la edad media en la península ibérica.* Brépols: International Society for the Study of Medieval Philosophy, 1994.

Scaliger, Pacificus. See, Provins, [René de l'Escale] Pacifique de.

Scher, Addai and Robert Griveau, Trans. & Ed. "Histoire nestorienne inédite: Chronique de Séert. Seconde partie." *Patrologia Orientalis* 13.4 (1919).

Schoeps, Hans-Joachim. *Jewish Christianity: Factional Disputes in the Early Church.* Trans. Douglas R.A. Hare. Philadelphia: Fortress Press, 1964.

Schöller, Marco. "Sira and Tafsir: Muhammad al-Kalbi on the Jews of Medina." *The Biography of Muhammad: The Issue of the Sources.* Ed. Harald Motzki. Leiden: Brill, 2000. 18-48.

Schulz, Matthias. "Fortress in the Sky: Buried Christian Empire Casts New Light on Early Islam." *Spiegel* (2013).

Schwartz, Stephen. *The Two Faces of Islam: Saudi Fundamentalism and its*

Role in Terrorism. New York: Anchor Books, 2003.

Seidler/Zayas. *Kriegsverbrechen in Europa und im Nahen Osten im 20. Jahrhundert*. Hamburg, Berlin, Bonn: Mittler, 2002.

Shafi'i, Muhammad ibn Idris al-. *Risala: Treatise on the Foundations of Islamic Jurisprudence*. Cambridge: Islamic Texts Society, 1987.

Shah-Kazemi, Reza. "Illumination and Non-Delimitation: Lessons from Inter and Intra Faith Dialogue from the Wisdom of the Prophet of Islam." *Allama Iqbal*.

Shahin, Emad El-Din. "Government." *The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought*. Ed. Gerhard Bowering. Princeton & Oxford: Princeton University Press, 2013. 198-207.

Shboul, Ahmad. "Arab Islamic Perspective of Byzantine Religion and Culture." *Muslim Perceptions of Other Religions: A Historical Survey*. Ed. Jacques Waardenburg. Oxford: Oxford University Press, 1999.

Shedinger, Robert. *Was Jesus a Muslim? Questioning Categories in the Study of Religion*. Minneapolis: Fortress Press, 2009.

Sherrard, Philip. *Athos: The Holy Mountain*. New York: The Overlook Press, 1985.

Shoup, John A. *Culture and Customs of Jordan*. Westport, CT: Greenwood Press, 2007.

Shuqayr, Na'um. *Tarikh Sina al-qadim wa al-hadith was jughrafiyatuha, ma'a khulasat tarikh Misr wa al-Sham wa al-'Iraq wa Jazirat al-'Arab wa ma kana baynaha min al-'ala'iq al-tijariyyah wa al-harbiyyah wa ghayriha 'an tariq Sina' min awwal 'ahd al-tarikh il al-yawm*. [al-Qahirah]: n.p., 1916.

Siddiqui, Kalim. *Political Dimensions of the Seerah*. London: The Institute for Contemporary Islamic Thought, 1998.

Siemon-Netto, Uwe. "Iraq's Church Bombers vs. Muhammad." *Christianity Today* (August 1, 2004).

Sinai, Hieromonk Justin of. "Sinai in the Seventh to the Ninth Century: Continuity in the Midst of Change." *Byzantium and*

Islam: Age of Transition, 7th-9th Century. Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 50-51.

Sinai Monastery. "Mohammed and the Holy Monastery of Sinai." *Sinai Monastery*.

Singleton, Esther. *Egypt as Described by Great Writers*. New York: Dodd, Mead, and Co., 1911.

Sionita, Gabriel, trans. *al-Ahd wa-al-shurut allati sharataha Muhammad rasul Allah li-ahl al-millah al-nasraniyyah* [*Testamentum et pactiones initae inter Mohamedem Apostolum Dei, et Christianae fidei cultores*]. Prophet Muhammad. Paris: Antoine Vitré, 1630.

Skrobucha, Heinz. *Sinai*. London: Oxford University Press, 1966.

Slane, Le Baron de. *Catalogue des manuscrits arabes*. Paris: Imprimerie Nationale, 1883-1895.

Société Asiatique. "Ouvrage offerts à la Société." *Journal Asiatique* 1 (1822): 116.

Societé d'Amis de la Religion et de la Patrie. *Annales de la religion*. Tome cinquième. Paris: L'imprimerie Librairie Chrétienne, 1797.

Society for the Diffusion of Useful Knowledge, The. *The Penny Cyclopaedia*. Vol. XIX. London: Charles Knight, 1841.

Somel, Selcuk Aksin. *Historical Dictionary of the Ottoman Empire*. Lanham, MD: Sacrecrow Press, 2003.

Soskice, Janet. *The Sisters of Sinai: How Two Lady Adventurers Discovered the Hidden Gospels*. New York: Alfred A. Knopf, 2009.

Speake, Graham. *Mount Athos: Renewal in Paradise*. New Haven and London: Yale University Press, 2002.

Sprenger, Aloys. *Das Leben und die Lehre*. Vol. 1. Berlin: Nicolai'sche Verlagsbuchhandlung, 1861-1865. 178-1990.

---. "Mohammed's Zusammenkunft mit dem Eisiedler Bahyra." *ZDMG* 12 (1858): 238-249.

---. "Aus Briefen an Prof. Fleischer." *ZDMG* 7 (1853): 412-415.

---. "Mohammad's Journey to Syria." *Journal of the Royal Asiatic Society*

of Bengal 21 (1852): 576-592.

---. "Gegenbemerkung." *ZDMG* 6 (1852): 457-458.

---. "Ueber eine Handschrift." *ZDMG* 3 (1849): 450-456.

Stafford, R.S. *The Tragedy of the Assyrians*. Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2006.

Stanley, Dean Arthur Penrhyn, ed. *Sinai and Palestine in Connection with their History*. New York: AC Armstrong & Son, 1894.

---. "The Convent of St. Catherine." *Egypt as Described by Great Writers*. Esther Singleton. New York: Dodd, Mead, and Co., 1911. 339-346.

Stephens, JL. *Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petrae and the Holy Land*. Vol 1. 11th ed. New York: Harper &Brothers, 1853.

Tabataba'i, Sayyid Muhammad Husayn. *Shi'ite Islam*. Trans. Seyyed Hossein Nasr. Albany: State University of New York Press, 1977.

Temimi, 'Abdeljelil. "Les études morisco-andalouses: état et perspectives." *État des études de moriscologie durant les trente dernières années*. Centre d'Études et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information: Zaghouan, 1995. 209-220.

Tibi, Bassam. *Islamism and Islam*. New Haven & London: Yale University Press, 2012.

Thenaud, Jean. *Le voyage d'outremer (Égypte, Mont Sinay, Palestine)*. Ed. Ch. Schefer. Paris: Ernest Leroux, 1874.

Thévenot, Jean de. *Relation d'un voyage fait au Levant*. Paris: Louis Billaine, 1665.

---. *Voyages de Mr. de Thévenot au Levant*. 3ième édition. Tome second. Amsterdam: Michel Charles Le Cène, 1776.

Thomas, Thelma K. "'Ornaments of Excellence' from 'the Miserable Gains of Commerce:' Luxury Art and Byzantine Culture." *Byzantium and Islam: Age of Transition, 7th-9th Century*. Ed. Helen C. Evans and Brandie Ratliff. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2012. 124-133.

Thomson, Ahmad, and Muhammad 'Ata'ur-Rahim. *Jesus: Prophet of*

Islam. London: Ta-Ha Publishers, 1996.

---. *Blood on the Cross: Islam in Spain in the Light of Christian Persecution through the Ages*. London: Ta-Ha Publishers, 1989.

Thomson, Robert W. "Muhammad and the Origin of Islam in Armenian Literary Tradition." *Studies in Armenian Christianity*. Aldershot: Variorum, 1994. 829-858.

Tolan, John, Henry Laurens, and Gilles Veinstein. *Europe and the Islamic World: A History*. Princeton: University of Princeton Press, 2013.

Tomadakis, Nikolaos. "Historical Outline." *Sinai: Treasures of the Monastery of Saint Catherine*. Ed. Konstantinos Manafis. Athens: Ekdotike Athenon, 1990. 12-17.

Toomer, G.J. Eastern *Wisdom and Learning: The Study of Arabic in Seventeenth Century England*. Oxford: Oxford University Press, 1996.

Tschanz, David W. "Journeys of Faith: Roads of Civilization." *Saudi Aramco World* 55.1 (January/February 2004).

Twiss, Sir Travers. *Le droit des gens ou des nations*. Paris: A. Durand et Pedone-Lauriel, 1887.

Un religieux du même ordre. *Vie du très révérend père Ange de Joyeuse de l'ordre des ff. mineurs capucins*. Paris: Poussielgue, 1863.

Upton, Charles. "The Shepherds, the Baptist and the Essenes: A Response to The Life of Christ and Biblical Revelations by Anne Catherine Emmerich." *Findings in Metaphysics, Path and Lore: A Response to the Traditionalist/Perennialist School*. San Rafael: Sophia Perennis, 2010.

Valbelle, Dominique and Charles Bonnet. *Le Sinaï durant l'antiquité et le moyen âge, 4000 ans d'histoire pour un desert*. Ed. Dominique Valbelle and Charles Bonnet. Paris: Éditions Érrance, 1998.

Van Dyck, Edward A. *Capitulations of the Ottoman Empire: Report of Edward A. Van Dyck, Consular Clerk of the United States at Cairo, upon the Capitulations of the Ottoman Empire since the Year 1150*. Washington: Department of State, Government Printing Office,

1881.

Van Egmon van der Nyenburg, JE and John Heyman. *Travels through Parts of Europe, Asia Minor, the Islands of the Archipelago, Syria, Palestine, Egypt, Mount Sinai, etc.* London: L. Davis & C. Reymers, 1759.

Van Gorder, A. *Christian. Christianity in Persia and the Status of Non-Muslims in Modern Iran.* Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2010.

Vernet, Juan. "The Legacy of Islamic Spain." *Al-Andalus: The Arts of Islamic Spain.* Ed. Jerrilynn Dodds. New York: The Metropolitan Museum of Art, 1992. 173-187.

---, trans. *El Corán.* Barcelona: Editorial Planeta, 1991.

Volkoff, Oleg V. *Voyageurs russes en Égypte.* Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1972.

Volney, Constantin-François de Chasseboeuf. *Voyages en Égypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784 et 1785.* Tome deuxième. Paris: Parmentier, 1825.

Waardenburg, Jacques, ed. *Muslim Perceptions of Other Religions: A Historical Survey.* Oxford: Oxford University Press, 1999.

---. "The Early Period: 610-650." *Muslim Perceptions of Other Religions: A Historical Survey.* Ed. Jacques Waardenburg. Oxford: Oxford University Press, 1999. 3-17.

Walpole, Robert, Ed. *Travels in Various Countries of the East.* London: Longman, Hurst, Rees, Orme, and Brown, 1820.

Watling, Gabrielle, ed. *A Cultural History of Reading.* Westport, CT: Greenwood Press, 2009.

Waqidi, Muhammad ibn 'Umar al-. *The Life of Muhammad: Al-Waqidi's Kitab al-Maghazi.* Ed. Rizwi Faizer. Trans. Rizwi Faizer, Amal Ismail, and AbdulKader Tayob. London and New York: Routledge, 2011.

Wheatcroft, Andrew. *The Ottomans.* London: Viking, 1993.

Wiegers, Gerard A. *Islamic Literature in Spanish and Aljamiado.* Leiden:

Brill, 1994.

Wigram, William Ainser. *An Introduction to the History of the Assyrian Church: 100-640 AD*. London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1910.

---. *The Assyrians and their Neighbours*. London: G. Bell & Sons, 1929.

Wolfe, Michael, ed. *One Thousand Roads to Mecca: Ten Centuries of Travelers Writing about the Muslim Pilgrimage*. New York: Grove Press, 1997.

X, Malcolm, and Alex Haley. *The Autobiography of Malcolm X*. New York: Grove Press, 1966.

Yohannan, Abraham. *The Death of a Nation or the Ever Persecuted Nestorians or Assyrian Christians*. New York and London: G.P. Putnam's Sons, 1916.

Zahoor, A and Z. Haq. "Prophet Muhammad's Charter of Privileges to Christians: Letter of the Monks of St. Catherine Monastery." *Cyberistan* (1990).

Zeitlin, Irving M. *The Historical Muhammad*. Cambridge: Polity Press, 2007

نَبْذَة عَن حَيَاةِ الكَاتِب

الدكتور جون اندرو مورو من مواليد سنة ١٩٧١ بمدينة مونتريال، بكندا. حصل علىٰ شهادات الإجازة و الماجستير والدكتوراه من جامعة تورونتو؛ كما تابع دراسات ما بعد الدكتوراة في اللغة العربية بالمغرب وفي مركز الشرق الأوسط بجامعة يوتا الأمريكية. وفضلا عن تكوينه الأكاديمي فقد أنهىٰ دورة كاملة من الدراسات الحوزوية التقليدية.

يعمل الدكتور مورو حاليا أستاذا للغات الأجنبية في إيفي تيك Ivy Tech بفورت واينFort Wayne بإنديانا، حيث يُعدّ عضوا بارزا وأحد كبار الأساتذة. وكان سابقا باحثا مساعدا ومستشارا حول الدراسات الشرق الأوسطية في مجال الدراسات العربية والإسلامية في مركز الدراسات الشرقية بجامعة روزاريو الوطنية بالأرجنتين. وقد عمل في عدة جامعات من بينها جامعة تورونتو وجامعة بارك و Northern State University وجامعة نيو مكسيكو الشرقية وجامعة فرجينيا. كما حصل علىٰ زمالات للقيام بالبحث في بيرديو وجامعة شيكاغو وجامعة هارفارد. كما أنه عضو في الهيئة الإستشارية ل 'مجلة الدراسات الشيعية الإسلامية'، وشارك في تقييم مقالات وكتب للعديد من المجلات الأكاديمية المحكَّمة ودور النشر.

وقد ألّف الدكتور مورو عددا كبيرا من المقالات والأبحاث الأكاديمية باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية تم نشرها في مجلات ودوريات أدبية وثقافية وأكاديمية في أزيد من عشرة بلدان مختلفة. كما ساهم بفصول في مؤلفات وموسوعات مثل:

Identidades americanas : màs allà de la fronteras nacionales : ensayos on homenaje a Keith Ellis (2012),

Juan Felipe Toruno en dos mundos (2006), A Cultural History of Reading (2008) و تاريخ ثقافي للقراءة، , Latino America : State By

State (2008) و ،أمريكا اللاتينية: دولة بدولة Literary Encyclopedia والإنجليزية ،الموسوعة الأدبية Global English and Arabic: Issues of Language, Culture and Identity (2011) العالمية والعربية: قضايا اللغة والثقافة و الهوية، كما قام بتأليف وتحرير وترجمة العديد من الكتب نذكر منها: العربية والإسلام واللفظ الإلاهي: كيف تصوغ اللغة مفهومنا للإلاه Arabic, Islam and the Allah Lexicon: How Language Shapes our Conception of God (2006), Amerindian Elements in the Poetry of Rubén Dario: The Alter Ego as the Indigenous Other (2008),

Shi'ite Islam: Orthodoxy or Heterodoxy? (2006-2010), El Islam chiita: orthodoxia o heterodoxia? (2010),

Humanos casi humanos (2008), Amerindian Elements in the Poetry of Ernesto Cardenal: Mythic Foundations of Colloquial Narrative (2010), كتاب التوحيد الإلاهي, The Book of Divine Unity (2010)، و موسوعة طب الأعشاب الإسلامية (2011),The Encyclopedia of Islamic Herbal, Medicine, بصائر إسلامية: كتابات ومراجعات Islamic Insights: Writings and Reviews (2012), السياسي الدين والثورة: الروحية والإسلام عند إرنستو كاردينال (2012) Spiritual Religion and Revolutionand Political Islam in Ernesto Cardinal ،وصور وأفكار إسلامية: مقالات في الرمزية المقدسة ، Islamic Images and Ideas: Essays on Sacred Symbolism (2013)